الشيخ جعفر حسن عتريسي

التوراة والإنجيل والقرآن

بين الشهادات التاريخيّة والمعطيات العلميّة



دار الهادي

التوراة والإنجيل والقرآن

بين الشهادات التاريخيّة والمعطيات العلميّة

الشيخ جعفر حسن عتريسي



دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثانية
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م
ISBN:978-9953-510-34-7

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: ٥٥٠٤٨٧/ ٠١ - ٨٩٦٣٢٩/ ٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص. ب: ٢٨٦/ ٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

إهداء :

إلى شمس الحقيقة ، التي تطلّ علينا من عميقِ ذواتنا ، وبطنِ أرضِنا ، وأفقِ سمواتِنا .. إلى الذين يقرؤونَ هويّة الكونِ وفق عِلَلِ الوجودِ ودهشة الموجود واستحالة النشأةِ من العدمِ .. إلى من يرتّلون معجزة الوجودِ في مزاميرِ ذواتِهم الناطقة بسرّ التكوينِ وعظيمِ بديعِ اللهِ خالقِ كلّ شيئ ..

إلى أولئك الذين جعلوا من معقلِ الكونِ الفسيحِ صومعةً تردّدُ الإقرار في ساحة عبوديّة اللهِ ، على طولِ كلّ حقلٍ : من طبٍّ إلى هندسةٍ إلى علومٍ ذهنيّةٍ وطبيعيّةٍ وكونيّة ، نظريّة وتطبيقيّة ، كلّها تشهد على قدرةِ القادر وخلق الخالق ، وإبداع المبدع وعظيمِ خلقِ اللهِ الحيّ القيّوم .. إلى أولئك الذين ينظرون في آفاقِ السموات والأرضِ فيذكرونَ الله على كلّ حال ثمّ يرتّلون : سبحانك ربّنا ما خلقت هذا باطلاً .. إلى الدموعِ المنهمرةِ في ليل الشتاء ببردِهِ القارس ، لجماعةِ أهل الفقهِ والشريعة الذين عبروا على سرجِ الحقيقةِ بكلّ عذاباتِها نحو فيضِ العبوديّةِ الربانيّة ، إلى الذين ذاقوا مرارة المِحنَ والسيفِ والسجنِ والقتلِ والجوع والأسى في سبيلِ اللهِ فما ازدادوا إلا يقيناً ..

إلى الأمِّ التي تغنّي على مسمعِ ولدها الرضيع أنشودةَ اللهِ القيّومِ الذي بَعث من العدمِ معجزةَ الوجودِ وكوّنها فكانت بشراً .. إلى الأبِ الذي يرتّل في فجرِ كلّ يومٍ أذانَ اللهِ الخالق ، ويكبّر الله دوماً ، ليعلن أمام سكّان السمواتِ والأرض أن لا شيئ أكبر من اللهِ العليّ العظيم .. إلى كلّ جنديٍّ معرفيٍّ ربّانيٍّ ، يطرق ظلمةَ الجهلِ بمشكاةِ المعرفةِ والحقيقةِ ليعبر إلى النورِ ، ليعلن أنّه عبد عارفٌ طيّعٌ في ساحة العبوديّةِ من البابِ الذي يريدهُ الله ، والطريقة التي شَرَّع ..

إلى السيّد الأجلّ ، والنبيّ الخاتم ، إلى العبد الأعظم في دفترِ القربِ والوصولِ ، إلى مَن بلغ سدرة المنتهى ، إلى السلطانِ الوجودي الأتمّ بفضلِ اللهِ وسرٍّ صفوتهِ ، إلى سيّد المرسلين وأفضل النبيين ، مولاي ومولى البشريّة ، وهادي العالمين ، حامل أسرارِ الكون والأثقالِ التي لم يحملها نبيٌّ قط من قبلِهِ ، إلى قبلة أهلِ العلم على مرِّ القرون ، إلى الرسول الأكرم محمّد بن عبد اللهِ الذي بعثه اللهُ رحمةً للعالمين .. إلى كلّ نبيٍّ ووصيّ ووليّ أتمّ أمرَ اللهِ وهديه .. إلى سيّدي ومولاي ، الإمام الأكبر ، والوصيّ المنقطعِ النظير ، إلى من حارت بهِ العقول ، وخشعت أمام بيانهِ المدهش أفكارُ عصرِ التقنيّة والفتوحات العلميّة ، إلى من اجتباهُ اللهُ واصطفاهُ فكان الوصيَّ ، إلى أميرِ المؤمنين علي بن أبي طالب أبي الحسنِ عليهِ السلام ..

إلى مقيم دولة الإسلام ، إلى من أقرَّ في ذواتِنا عظيمَ الإنتماءِ إلى مدرسة القرآن إلى مولانا المعظّم ، وسيِّدِنا المكرَّم ، روحِ اللهِ الموسويِّ الخمينيّ .. إلى كلّ المضحّين في اللهِ تعالى ، إلى مقاومي الإسلام في أرضِهِ ، إلى كلّ عالمٍ وفقيهٍ وعارفٍ ، إلى كلّ مجاهدٍ وشهيدٍ ومضحٍّ .. إلى كلّ نعشٍ ، إلى كلّ وجع في سبيل الله ، إلى أولئك الذين يفتخرون بالإسلام ديناً ، وبالشريعةِ منهاجاً ، إلى كلّ فتاةٍ تتّخذُ السيّدة المعصومة فاطمة الزهراء قدوةً كبرى في مسيرتِها ودينِها وعفّتِها ولباسِها وطهرها وإيمانها..

إلى كلّ من له حظٌّ في تربيتي على الإسلام ، إلى أمّي وأبي وخالتي الحاجة علويّة إلى من شاركتُهُم زمن الطفولَةِ والشباب ، إلى من تطوقُ إليهم نفسي ، إلى شرائحِ قلبي وأنس دربي ، إلى أحبّتي ، إلى من تدبُّ إليهم روحي وعواطفي وأحاسيسي في الله ، إلى أخوتي : الحاج يوسف ، وحيدر والحاج عدنان وبسّام ، وسوسن وباسمة ودلال ..

إلى كلّ أولئك أهدي جهدي هذا متقرّباً إلى اللهِ سبحانَهُ وتعالى ..

جعفر حسن عتريسي (١١ شباط ٢٠٠٣)

مقدّمة :

لا شكّ أنّ الدراسة التي تتعلّق بالإنجيل والتوراة والقرآن تحتاجُ إلى أناةٍ وتمعّنٍ ودقّة ، لأنّها تتعلّق بمجموعة من كُتُبٍ هي في أصلِ تنــزيلها ذات بُعدٍ سماويّ ، من هنا لا بدَّ في مجموعِ هذهِ الدراسة أن تكون على نوعٍ عالٍ من الدقّة والحذر في فهمِ المحورِ الذي تدورُ في فلكِهِ .. وما تجدرُ الإشارةُ له هو أنّ عالَمَ الإنسانِ ومنذ اليومِ الأولِ مارسَ مجموعة واسعةً من معانٍ ونماذج عباديّة في علاقتِهِ مع الله ، حتى أولئك الذين عكفوا أمامَ الأصنامِ الصمّاء لم ينكروا الله ، وإنّما اتخذوا منها معبراً ربطيّاً يقرّبهم إلى اللهِ زلفى ، نعم كانت عقيدهم تلك تحتوي على أفكار ومفاهيم قاصرة وهزيلة فضلاً عن الأساطير حول الله سبحانَهُ وتعالى ..

وبالعودةِ إلى العلم الاحفوريّ وإلى الآثارِ المتعلّقة بما عليهِ الفردُ والجماعةُ مسلكيّاً في ظلّ العلاقة باللهِ منذ الزمنِ البعيد ، نجد العمقَ الواسع في تلك الصلة التي كانت تمارسها البشريّة عباديّاً اتجاه الله [1] .. وأينما أدرت وجهك ،

---

[1] في هذا المجال يمكن مراجعة كتابنا الأديان ..

وصوّبتَ نظرك تجدُ المعابد ، تجد اخياكل ، تجد بصماتِ الوجود البشريِّ المعتكف في عمقِ ذاتِه أمام هيكلِ الألوهيّة .. ليدلَّ بالضرورة وبشكلٍ مستمرٍّ على حقيقةِ الإنتماءِ إلى منظومةِ الولادات الوجوديّة التي تحمل في طيّاتِ عمقِها الإقرار باللهِ تعالى .. ها هي السمواتُ والأرض ، بكلّ ما تحتوي عليه ، وما تمتدّ إليهِ ، وما في بطنِ كونِها الأوسع ، شاهد جليٌّ حيّ وهائل على الولادات الوجوديّةِ ، التي تفتقر في وجودِها واستمرارِها إلى الله تعالى ، الخالق القادر الحكيم العلاّم .. الكلّ يدرك أنّه في ذواتِ البشر ، في دفترِ الوجودِ ، في كلّ آيةٍ مزروعةٍ في الأرضِ أم في السماء هناك دور وظيفي ، واستنطاق طبيعي تقرُّ بهِ كلُّ مظاهر الوجود ، وهي تعيد صدى الإقرار التكويني العام على أنّها مظهر وجودي من فصيلِ المخلوقِ الذي أنعم بهِ اللهُ الذي خلق كلّ شيءٍ ، وإليه يُردُّ كلّ شيءٍ ، فهو واجب الوجودِ ، وضرورة الوجود وشرطُهُ ، غير مسبوق بعدم وقد قرّر فلاسفة دهر الأمسِ واليوم : شرطَ الواجدِ للموجودِ ، وامتناعِ الوجودِ من عدم ، وأنَّهُ لا يمكن بحالٍ من الأحوالِ أن يترشح وجود من عدم ..

وعلى الناحية الأخرى من نشاطِ البشرِ ، ها هي كتابات الفلاسفةِ والمفكّرين وأهل التجربةِ منذ اليومِ الأوّلِ لتدوينِهم مساحات الوجود الإنتزاعي يقرّون بعظيمِ ما يشاهدون ، يرون شرطيّة من تُردُّ إليهِ العِللُ ، يتشبّثون بضرورة سبقِ الوجودِ غير المخلوقِ على العدمِ (واجب الوجود) يصرّون على ضرورة صلتِنا التكوينيّة النهائيّة التَوَلُّديّة بالوجودِ الأوّلِ ، غيرِ المتولّدِ عن شيءٍ ، الذي لا أوّل لأوّليّتِه ولا آخر لآخريّتِهِ .. يكرّرون : أنَّهُ لا يمكن على الإطلاق إسقاط صلتِنا باللهِ ، وإلا فإنّنا بذلك نسقط الهويّة التكوينيّة وسلسلة العللِ الإيجاديّةِ من

هذهِ الجهة .. وكما ترى فإنّ هويّتنا التكوينيّة خير دليلٍ ناطقٍ بافتقارِها إلى الولادةِ والإخراجِ من العدمِ .. هو ذا إقرارُ ذواتنا على أنفسنا تحت ظلّ السؤال الذي يحمل في طيّاته الإجابةَ النهائيّةَ دون منازعٍ : ألستُ بربّكم .. ؟ فكان الجوابُ إذعاناً تكوينيّاً وإقراراً فطريّاً : بلى ، أقررنا على أنفسنا .. وقد سجّل القرآنُ الكريمُ هذهِ الشهادةَ الفطريّةَ بأجلى تعابيرها فقال الله تعالى :

- ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ، ذُرِّيَّتَهُمْ ،
- وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ،
- أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟
- قَالُوا بَلَى ،
- شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ(١٧٢)[١]

إنّ هذهِ الحقيقة كانت أقوى من كل مدرسةٍ وهميّةٍ ، أو ثقافة ملحدةٍ أو مُبطلة ، كانت أعمق من كلّ ظاهرةٍ عبثيّة ، كانت أعظم من كلّ إنكارٍ مقتنّعٍ ، كالذي حصل في ظلّ العقيدة الشيوعيّة الإشتراكيّة التي قادها الإتّحاد السوفياتي والتي تهاوت أخيراً لصالحِ مأذنةِ المسجدِ وأجراسِ الكنيسةِ ، في ظلّ إقرارٍ مذهل لسكان تلك المنطقة باللهِ ومعالم الوجود وصلةِ الخلقِ بالسماء .. وما نقرأهُ اليوم من إنتشارٍ واسعٍ للإيمان باللهِ في أكثر من دولةٍ رأسماليّةٍ ديمقراطيّة ، ضمن حدود ومعانٍ مدهشة ، هو دليلٌ إضافيّ على أنّ ثقافة إسقاط البُعد التكويني من هويّة الوجود لا يمكن أن تقوى على دفن جذوة الفكرةِ التكوينيّة الوجوديّة .. بل إنّ نسف فكرة الوجودِ والمعبود من غاياتِ البرامج المتّصلة بتنظيمِ أمرِ الجماعة تعني

---

[١] سورة الأعراف ...

كارثة عنيفة ، وها نحن اليوم نشهد مجموعة من أطوارها المذهلة من عنفٍ وسطوٍ واضطرابٍ قاتلٍ ، في ظلّ سيرٍ حثيثٍ نحو إنتحارِ الحضارةِ على أقدامِ غريزتِها ، تحت مسمعِ صرخةِ الذاتِ التي تصرُّ على ضرورة التفتيش عن أصالة هويّتِها الوجوديّة ..

يضافُ إلى ذلك ما نشاهدهُ في صحنِ الوجودِ مرّةً ، وفي هياكلِ العبادةِ أخرى وما أرّختهُ لنا الآثارُ ثالثةً ، من حروفٍ كلّها تستجمع صلتَها باللهِ ، وهي تدوّن لمرحلةٍ دقيقة من بعثةِ النبيين والمرسلين من قبلِ اللهِ تعالى ، وذلك على طولِ مسيرةِ الوجودِ البشريِّ ويكفي في ذلك مجموعة الآثار الأكثر عمقاً والتي هي الآنِ بين أيدينا حيثُ تنطقُ بما كانت عليهِ حركةُ الوجودِ من سيرٍ حثيثٍ نحو معبودٍ كاملٍ ، من تلك العيّناتِ ما نجدهُ في سفينة نوح ومتونِ كتابتِها ، وهياكل العبادةِ وغيرِ ذلك من آثارِ النبيين ووسطاء السماء .. لتدلّ على مشهدٍ هائلٍ من سرِّ اللهِ ونورهِ الذي لا ينطفئ أبداً في هداية البشرِ إلى أعلامٍ كاشفةٍ وأنوارٍ حقّانيّة .. من هنا ، ولضرورة الوقوفِ على الموقعِ الصحيح في صلتِنا الوجوديّة مع الله ، مع منطقِ السماء ، وخطابِ الخلاّق العليم ، ومطالبِه العليا لبني آدم ، كان على البشريةِ واجب نهائي في التفتيش وبشكلٍ عالٍ ودقيقٍ ومتوازنٍ وعقلانيّ عن الباب الذي منهُ يُؤتَى الله ، عن الصيغة التي نتكاملُ بها مع الله ، عن الكتابِ والأسفار التي أَمَرَنَا اللهُ أن نتّبعها .. لا عن طريقِ صنمٍ حجريٍّ ميّتٍ ، أو صنميّة الوهيّةٍ بشريّةٍ ، كما في الصيغة الفرعونيّة وغيرها ، لا عن طريقِ إسقاط البُعد الوجودي من أنفسنا وذواتِنا وسلسلةِ وجوداتِ الخلقِ ومعانيهِ كما في الصيغةِ السوفياتيّة العبثيّة ، لا عن طريقِ فصل الدين عن هويّة المنظومةِ

الإجتماعيّةِ وحكمة الخلق واعتبار الإيمان باللهِ مجرّد حريّة قشريّة هزيلة متهاوية لا معنى لها قبولاً أو سلباً كما في المنطق الرأسمالي ووثيقة الديمقراطيّة التي تشنّ حرب إسقاطٍ على الدين لصالح الغريزة .. في ظلّ ناموسٍ تكوينيّ فطريّ نوعيّ ، وشهاداتٍ كونيّةٍ وجوديّة هائلة وإعجازاتٍ مذهلة ، تنطق بأنّه لا بدَّ من السيرِ نحو الله ، والإرتباط بهِ ، تماماً كما تسير النظمُ الكونيّة وترتبط بناموسها الأعلى في ظل افتقارٍ حقيقيّ وحاجةٍ ماسّةٍ ولازمٍ نهائيٍّ لتسجيل وجودِها واستقرار أمنِها في دفترِ الخلقِ ولادةً واستمراراً ..

إنّنا بحاجةٍ إلى سراجٍ نيّرٍ ، إلى ضوءٍ كاشفٍ ، إلى واسطةٍ سماويّةٍ ، إلى موازين مُوصلة .. إنّنا بحاجةٍ إلى معرفة الحقيقة الوجوديّة السماويّة التي تنطق بها متونُ الكتابِ النازلِ من السماءِ كما هي نزلت إلينا ، لا كما أوصلتها إلينا يدُ البشرِ بعد أن خالطَها ما خالطَها من تحريفٍ وتزويرٍ .. إنّ من أخطر ما قامت وتقومُ بهِ البشريّةُ الآن في كثيرٍ من مظاهرِها وعناوينِها أنّها أسقطت ضرورة سعينا وجهدنا لمعرفة موقعنا من اللهِ ومتونِ الوجود .. لقد وصل الأمر إلى حدّ أنّ العلمنة أصبحت رمزاً تعريفيّاً لمنطقِ الرغباتِ الوجوديّةِ التي تسيطر على مشروعِنا في كتابة هويّتِنا الإجتماعيّة ومسيرتنا الكونيّة دون أن يكون لذواتِنا أيُّ معنىً في الربط النهائيّ بمعلم الكون ، لمنع أيّ حركة وجوديّة من أيّ تأثير تحويلي في برنامج الحقيقة النوعيّة التي تصرّ على ضرورة إعتناق كونيّةِ وجودِنا ، فضلاً عن إعادة تعريف نهائي لهويّتنا التشريعيّة ولسطورِ قيادتِنا الإعتباريّة ..

لقد أصبح فصل الدينِ عن الدولة ، عن تشريع النُّظم ، عن إقامة هيكل الوجود الإجتماعي ، معلماً جبّاراً تصحبهُ دعاية شرسة تحت ظلّ شكل نموذجي

يسخر من الدينِ والإيمان .. دعاية تحاول جاهدةً أن تضع فكرة الدينِ في مصب عبثيّ .. ومع كلّ هذهِ العاصفة الخطيرة ، التي هي أخطر من مملكة الجحود والزندقة التي قادها الإتّحاد السوفياتي الإشتراكيّ من جهة والرأسماليّة من جهةٍ أخرى ، ظلّ الإيمانُ باللهِ معلماً عالياً يضربُ بقوّةٍ هائلةٍ ، وذلك بسببِ البعد الذاتيّ النوعي الضاربِ في كلّ وجودٍ أرضيّ أو سماويّ وهو ينطق بصلتِه الكونيّةِ الوجوديّةِ الضروريّة باللهِ خالقِ كلّ شيئ .. ها هي الولايات المتّحدة الأمريكيّة التي تعتبر اليوم محرّكَ النظام الدوليّ بعد تفرّدِها بانتهاء الحربِ الباردة تشهد أكبر مرحلة من انفلاش الدعوة إلى مبادئ السلطة الأزليّة بعد أن أصبحت مقرّ أكبر جريمة في العالم حيث انعكست وثيقتُها الماديّة الحرّة على شكلٍ إنتحاريّ قاتلٍ في برمجة الفرد وصياغة الجماعة ..! ها هو الإيمانُ باللهِ تعالى ما زال يضغط في كثيرٍ من الإتجاهات والعناوين التي تدلّ على ضرورة العودةِ إلى اللهِ " تشريعاً " ليتناغم ذلك مع شروط التكوين ..

في كتابنا (هل نحنُ بحاجةٍ إلى الله) أشرت عبر دراسةٍ واسعةٍ ودقيقة ومن منظارِ ما عليهِ واقع الأمم إلى أنّ الحاجة إلى اللهِ ظاهرةٌ نهائيّة ذات دعمٍ ورافعةٍ تكوينيّةٍ لا يمكن التخلّي عنها في بناء مملكة الأمم وفق معنى التكاملِ في عالمٍ يعيش اليوم أسوأ معاني عولمة الجريمةِ والعبثِ ونسف الغايات وانهيار السور الواقي لقيمِ الوجودِ ضمن التعريف الأوّلي لهويّة الفرد الإجتماعيّة .. وفي كتابي هذا حول التوراة والإنجيل والقرآن أردت أن أسبر حقيقة متنَ هذه الكتب ، ضمن محورٍ دقيقٍ يستنطق الشهاداتِ التاريخيّة والمعطيات العلميّة ، لتجدَ فيما بعد خاصّةً في فصلِ القرآن ، أنّ هناك محاور إعجازية هائلة ، تأخذ بقلبِ كلّ عاقل

بدءاً من محورِ العلمِ ومعطياتِهِ ، وصولاً إلى الإقرارِ المذهلِ في متونِ الكتبِ من التوراة والإنجيلِ عبر سطور ما زالت مؤرخة وهي تشهد بقوّةٍ متعاليةٍ وخاشعة ببشارةِ القرآن ونبوّة محمّد .. و لم أعتمد في ذلك تفسيراً ذاتيّاً ، أو قراءةً مليّةً ، بل اعتمدتُ بذلك على مجموعةٍ واسعةٍ من الشواهد التاريخيّة والمتنيّة واللاهوتيّة الموجودة في كلٍّ من التوراةِ والإنجيل وتفاسيرها وشروحاتِها ، بحيث تكون الحجّة موضوعيّة ونهائيّةً ومن طرازٍ أوّل ، حاكمة على عقلِ كلِّ عاقلٍ ، ولتتجاوز أصل فكرة الشهادة ، ولتصل إلى معنىً مختلف مفادهُ عظمة رسالاتِ اللهِ التي حشّدها اللهُ مجموعةً من الأدلّة التي تشهد فيها السابقة للاحقةِ على طولِ الزمن .. في هذهِ الدارسة إعتمدت طريقتين : منهج تاريخي مرّة ، وعلمي مرّةً أخرى ، بإطارٍ تحليلي ، في ظلِّ فهمٍ ودقّة ستجد أنّها من طرازٍ عالٍ ومحترز ومحتاط ، لا يستهدي إلا الحقيقة .. أدعو اللهَ تعالى أن يوفّقني لذلك ، إنّه المولى الكريم ، وهو وليّ التوفيق ..

جعفر حسن عتريسي (٣ شباط ٢٠٠٣)

تمهيد:

قبل الدخول تفصيلياً في نقاشٍ مطوّلٍ حول التوراةِ والإنجيل والقرآن رأيتُ من اللازمِ عليّ أن أشير إلى جملةٍ من عناوين ضروريّةٍ تمهيديّة تخصّ هذهِ الدراسة أهمّها :

- انَّ الدين يعتبر من أهمّ العناوين المسيطرة على الذهنيّة العامّة التي لازمتِ الإنسانَ منذُ زمنٍ بعيدٍ ، وما زالت الإكتشافات الأثريّة تنطق بعمقِ الأزمانِ التي كانَ يعتكفُ فيها الإنسانُ في ظلّ تمجيدِ اللهِ والإقرار بسلطانِه وجبروتِهِ ورحمتِهِ . ومع أنّ التحوّلات الفكريّة والإعتقاديّة منذ زمنٍ بعيدٍ ضربت بقوّة في موطنِ هذا الإنسانِ لكنَّ الإيمانَ باللهِ وإعتناق الدين ظلّ جوهر الصفات التي تؤرّخ لمعتقدِ الأفراد والجماعات مع أنّ الدول في غالبها كشخصٍ معنويّ عامٍ بترت من دستورها مبدأ " تبنّي الدين " كشرعة دستوريّة ، أو مبادئه وأشخاصه كمرجعيّة تقريريّة ، ومع كلّ هذا ظلّ الدينُ من أبرز العناصر التي تشكّل إعتقاد بني النّاس ، حتى من هم في سدّة الزعامةِ والسياسة والحكم ..

- في ظلّ هذا الجوّ توّجَ العالَمَ جدلٌ مختلف من معاني القيم تجسّد في مناخات إختلافيّة بين أتباع الأديان ، بل انقسمت الأديانُ إلى مذاهب ،

والمذاهب إلى مللٍ فكريّة .. ومع كلّ هذا ظلّ جوهر الدين كأصل موضوعاً إتفاقيًّا ، تنطقُ بهِ نواميس الجوهر البشريّ ، حتى من دون شعور .. وكأنّ السماء برمجت النفس على النطقِ بصلتِها بعالم الخلقِ عبر نوعٍ من الدلالةِ المذهلةِ وهذا ما سنراهُ فيما بعد إن شاء الله تعالى .. وعبر الأزمانِ برزت ظاهرة الإختلاف بين الأديانِ بل بين المذاهبِ فحالت بين رعيّة اللهِ تعالى بالمعنى التكويني ، وبين رسالتِه لهم بالمعنى التشريعي .. وتعود أسبابُ ذلك إلى جملةٍ واسعةٍ منها إختلافات نشبت بين أتباع الرسلِ ، وقيام دعاة يدعون إلى أنفسهم وينفون الحقيقة عن رسالاتِ غيرهم ، وفي ظلّ هذا الجوّ تجسّد إعتقاد يقول : إنّ كلّ مؤمنٍ متديّنٍ بواحد من هذه الكتب الثلاثة (التوراة ، الإنجيل ، القرآن) يعتبر نصوصها تسجيلاً مادياً للوحي الالهي .. إلى درجة أصرَّ فيها البعض على منع النقاش في أصل النسبة إلى الله .. نعم القرآن الكريم ظلّ متوَّجاً بحقيقة مفادها : ضرورة التثبّت من القداسة ، وهذهِ العناوين وردت في متن القرآن بأكثر من صيغةٍ وبيان .

- مارست كلّ طائفةٍ بشريّة إعتقادها الديني مع اختلافها في النماذج ، على نحوٍ من ممارسة عمّمت عبرها جملة مفادها أنّها على يقين من نسبة ما هي عليهِ إلى الله ..

- كلّ واحدٍ من أتباع هذه الديانات (اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام) المنشرة في بقاع الأرض ، يدّعي أنّه يمثّل حصريّاً الحجّة الحقيقيّة ، والنطق الواقعي عن اللهِ تعالى ... من هنا تكون الضرورةُ ملحّة من أجل

مناقشة هذه الكتبِ ومعالجة متنها من أجل معرفة الكتاب الذي يحتضن الحجّة الناطقة عن اللهِ تعالى ..

- تصرّ اليهوديّة على أنّها الطريقة الفضلى للوصولِ إلى اللهِ ، وأنّها الشريعة الوحيدة التي تمثّل اللهَ في أرضِهِ .. وهي لا تعترف بأي وحيٍ جاء بعدها لذلك فهي لا تعترف بالانجيل ولا بالقرآن . أمّا المسيحيّة فهي تقرّ بنبوّة موسى والتوراة التي جاء بها من عندِ اللهِ تعالى ، لكنّها ضمن محورٍ معيّنٍ وتفسيرٍ خاص واعتقادٍ مختلف في أكثر من جهةٍ وعنوان .. وكانت اليهوديّة قد ادّعت في النصرانيّة التلفيق والتزوير المعنوي والمادّي لما سجّله الوحي في كتابِها ، وبدورها المسيحيّة لا تؤمن برسولٍ إسمهُ محمّد جاء بعد المسيح .. ولقد عانت المسيحيّة جدّاً ليس في تطبيق أفكارِها وحسب ، بل في تدوين فكرها العقائدي ، وبرزت فيها إنشقاقات حادّة ، على مستوى رأس الكنيسة والقاعدة ، هذهِ الإنشقاقات الواسعة أثّرت في القراءة والتفسير والإعتقاد حتى وصل الأمر إلى الخلاف في ماهيّة وجوهر المسيح نفسِهِ .. كما قامت الكنيسة بإجراءات قاسية عدّة منها حذف مجموعة هامة لعدد كبيرٍ من الاسفار التي كُتبت لتعريف الناس بالمسيح وبتعاليمه ، لذا لم تجمع الكنيسة في العهد الجديد الا القليل من التراث الضخم الذي تناول شخصية المسيح وأفكاره وتعاليمه وما جاءَ بهِ ، إلى أن تبلورت الصورة الأخيرة وفق نموذج " الاناجيل الاربعة " وهي المعترف بها فقط كنسيّاً .. وبذلك اعتبرت الكنيسة باقي الاناجيل الكثيرة بمثابة المزورة والباطلة التي لا يجوز الإعتماد عليها أو

إعتبارها تعاليم مقبولة من الله ، وهذهِ الفترة تعتبر من أهمّ المراحل التي يتوقّف عندها المراقب من أجل البتّ بمجموعةٍ من الأحكام فيما خصّ الإعتراف والإسقاط وموازين ذلك .. أمّا ما خصّ الكنيسة نفسها ، من جهة شرعيّة وجودها ، فقد اعتُبِرت الكنسية أنّها تمثّل خطّ اللهِ وبنيانَه وهداهُ ، وطريقتَه في الهدايةِ إليهِ حصراً ، وأنّ ما جاء بهِ المسيح مقدّم على ما جاءَ بهِ موسى حسب نظريّة بولس بخلاف نظريّة بطرس ويعقوب ويوحنّا الذين أصرّوا على ضرورة الجمع بين شريعة موسى وتعاليم المسيح ، فأصرّ بولس على فصل المسيحيّة عن اليهوديّة على اعتبار أنّ للمسيح سلطنة على الأمور ، لأنّ الله يريد ما يشاء ، ويحدّد في دفتر الأزمان إلى الأممِ والشعوب ما يريد أن يتعبّدهم بهِ من تعاليم ومعارف .. ولا أخفي أنّ المسيحيّة عانت من أزمة تفسير ، من أزمة نقل التراث ، من أزمة موازين في التصنيف والتوصيف ، وهذا ما سنراه في أكثر من فكرة عند دراساتنا للإنجيل ..

من جهةِ المسيحيّة وما يتّصل بالنبواتِ ، فقد بدا واضحاً أنّها لم تعترف بأيِّ وحي بعد المسيح . وعليهِ : هي لا تعترف بالقرآن ، معتبرة تعاليم المسيحِ هي التعاليم الوحيدة واجبة الإتّباع ، بالإضافة إلى شريعةِ موسى على قولِ بطرس ، حيث لم يأتِ المسيح بالشريعةِ وإنّما جاء بالتعاليم ، وبقي على شريعةِ النبيِّ موسى (ع) .. كلّ هذا بخلافِ ما سيثبت لدينا في هذهِ الدراسة من أنّ البشارة الموجودة في كلّ من التوراةِ والإنجيل لجهة إحتضانهما من قبل الكتابِ المقدّس المعترف بهِ كنسيّاً ، هذهِ

البشارة هي في النبيّ محمّد (ص) وأنّه صاحب الشريعةِ وأنّهُ الذي يُبعث من جبال فاران ، وأنه بشارة النبيّ عيسى بن مريم بنصّ الإنجيل ومتنهِ ..

- أمّا الإسلام ، فقد تضمّن جوهر الرسالة السماوية ومفاهيم تتّصل بالله والنبوّة والمعاد والغاية من الخلق في ظلّ شواهد عالية من أنظمة الوجود الكوني ، سترى فيما بعد أنّها من أهمّ العناوين المعجزة والمذهلة في متونِ الإكتشافات البشريّة لنواميس الكون والطبيعة ، وقد سرد القرآنِ الكريم بشكلٍ عالٍ ودقيقٍ رحلة النبوّات على طولِ المسيرةِ الوجوديّة ، هذا القرآن جاء بعنوانٍ وصيغةٍ تعترفُ بالتوراةِ والإنجيل وفق منطق القرآن نفسهِ وتعاليمهِ وجملة عقائدهِ ومفاهيمهِ ، وقد نزل بعد المسيح تقريباً بستّة قرون ، وهو يؤكّد أنّ النبيين هم سلسلة سفراء الله إلى الأرض وأنّ كلّ نبيّ هو متمّم لما قبلهُ من النبيين على نسقِ التكاملِ وليس الإلغاء ..

يقول الله تعالى :

- (.. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ، ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ،
- وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا(١٣٦) [1].

- (ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ،

[1] سورة النساء .

- وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ،
- وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٢٨٥)[١] .

- (.. شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ،
- أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ، وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ،
- كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ،
- اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ(١٣)[٢]

- (.. أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ،
- إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ؟
- قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ، إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(١٣٣)[٣] .

- (.. وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ،
- وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ ، لِسَانًا عَرَبِيًّا ،
- لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ(١٢)[٤]

---

[١] سورة البقرة .

[٢] سورة الشورى .

[٣] سورة البقرة .

[٤] سورة الأحقاف .

في هذهِ الآياتِ وغيرها تأكيد نهائي على نسبة النبوّة إلى سلسلةٍ واحدةٍ من سفراء اللهِ تعالى الذين بعثهُم على طولِ مسيرةِ البشرِ خطّاً واحداً .. وسنقرأ معاً في متنِ التوراةِ والإنجيل بمجموعة من نصوص تؤكّد أنّ عصر النبوات لم ينتهِ عند النبي موسى أو النبي المسيح (عيسى) بل هناك نبيّ منتظر بإتفاقِ اليهوديّة والمسيحيّة .. نعم هناك اختلاف في التفسير ، في التأويل ، في التطبيق وشبه ذلك وهذا ما سنتوقّف عندهُ بشكلٍ دقيقٍ ، لنقرأ النصوص ومتنَها وحقيقة ما فيها .. والمثير في تلك النصوص ، أو تلك التي تتعلّق بالبشارة ، أنّ المنتظر نبيّ عظيم ، ومن صفاتِ ذلك المُرسلِ انّه يُرسلُ بالشريعةِ ، مع الإشارة إلى مجموعةٍ من علاماتٍ دقيقةٍ عالية الأداء والغاية ، مثل نصوص جبال فاران ، والصولجان ، وشيلوه ، ووصيّة يعقوب ، وكتاب أشعياء وشبه ذلك .. عند هذهِ المتون سأشير بدقّة إلى نفس العبارات التي ينطق بها القساوسة والأحبار في متونِ الشرحِ ، وما يقصدون في تفسيرها وتأويلها ، أو ما أقرُّوا بهِ واعترفوا ..

والجدير بالإنتباه أنّ القرآن تعرّض إلى ما تعرّضت له التوراة والإنجيل من عناوين بل لمجموعةٍ واسعةٍ من الأممِ الماضيةِ وبشكلٍ لافتٍ من الدقّةِ والإتّزان العالي بخلاف ما سترى في مجملِ هذهِ الدراسة من تحريف فعلي واخطاء وردت في متني التوراة والإنجيل ، وصلت إلى حدّ التعرّض لجانب القداسة في نفس النبيين ووسطاء السماء .. وهذا كما ترى من أخطر المعاني التي ضربت أعمدةَ الهيكل الحقيقي في متنِ هذهِ الكتب .. مضافاً إلى ذلك بيّنَ القرآنُ الكريم في متنهِ جملةً من المعارفِ التي تتعلّق بجوانب حركيّةِ الرسالةِ وبعثة السفراء على طولِ سلسلة النبيين البارزين ، إضافة إلى معاني خلق الإنسانِ ، ومعالم الوجود والسنن

الكونيّة ، ومجموعة من الأسرار الطبيعيّة الكونيّة تعتبر اليوم من أبرز مداليل الإعجاز القرآني وفق كلّ المقاييس مطلقاً .. كما تعرّض بشكلٍ عالٍ لأطرِ العبادة بمعانيها السامية ، وللكثيرِ الكثيرِ من المفاهيم التي تتعلّق بالوجوديّة البشريّة الكونيّة ومعاني الصلة تلك بعالم النظم الرباني وصيغة الإجتماع وفق نموذج مذهل .. وقد بدا القرآنُ في المقارنةِ التي قمت بها أكثر تماسكاً ودلالةً على عميقِ صلتِه بالله تعالى ، في ظلّ حجّةٍ بالغة مدهشة كما سترى ذلك ، من خلال بحثٍ ومناقشةٍ وتنظير متّزنٍ جدًّا ، ومن دون أن أغلّب أيّة عاطفة على منهج الدليل العلمي ، وهذا ما سنراهُ بالأرقامِ والوقائعِ والإثباتات والأقوالِ المنقولة التي من شأنِها أن تساعدنا في تكوين نتاج علمي مُوثّق ينصُب الحجّة على كلّ طرفٍ من الأطرافِ والمواقعِ والدعاوى .. سترى أننا حين تعرّضنا لهذهِ الدراسة في جوانبها المختلفة ، كيف بدا القرآن الكريم متألّقاً بشكلٍ لا مثيل له على الإطلاق ، بدا وهو يجري مجرى الليلِ والنهار ، ويدور مدار الشمس والقمر ، حيث سجلت مجموعة من الآيات القرآنيّة لوناً إبداعيّاً كشفيّاً مذهلاً لم تكن البشريّة في ذلك الزمن تعلم عنه شيئاً ، في عالمٍ كانت الأساطير فيهِ نافذةً بشكلٍ كبيرٍ وعميقٍ ، هذا فضلاً عن العجز في الأداة ، إلى أن تمّ الفتح العلميّ عبر الشوط البشري فأضاف إلى رصيد هذا القرآن الكثير من الشهادات الكبرى ، عبر معطياتهِ النهائيّة ، التي وافقت القرآن وحطّت عند ركابهِ ، لتنطق بعلوّ رتبتهِ ، وعظيمِ إعجازهِ .. الأهمّ من كلّ هذا ، أنّ القرآن الكريم كُتبَ ودوِّنَ وبشكلٍ عالٍ وواسعٍ ودقيقٍ زمن النبيّ بل حُفِظَ على عهدهِ أيضاً ، كما نُقِل بالتواترِ الواسعِ وبالإتفاقِ التام من جيلٍ إلى جيلٍ ومن أمّةٍ إلى أمّة .. وقد أولى النبيّ محمّد (ص)

حفظ القرآن وتوثيقه وتدوينهُ دقّة متناهيةً حسبما ترى في هذهِ الدراسة تثير كلّ دهشةٍ .. وعليهِ : تميّز القرآن الكريم بخصائص عدّة من حيث التوثيق منها :

- دُوّنت كلُّ آيات القرآنِ الكريم وسورهُ زمن حياة النبيّ محمّد وبشكلٍ نهائيٍّ وكاملٍ .
- وصل الأمر إلى حدّ حُفْظِ المئاتِ من القرّاء للقرآنِ وبشكلٍ كاملٍ ونقيٍّ ومتتابع وموثّق وتحت رقابة سمعيّة خطيّة دائمة .. وذلك بعدما شجّع النبيّ على حفظهِ من منظارٍ دينيٍّ وضروريّ ..
- دعا النبيّ الذي كانت له مرتبة القداسةِ إلى تلاوة القرآنِ الكريم وبشكلٍ يوميٍّ وقد كان لهذه الدعوة أكبر الأثر .. منها أنَّ القرآن عهدُ كلّ مسلمٍ ..
- حرّم اللهُ والنبيّ أيّ تحريفٍ في القرآنِ الكريم سواء من الناحية الماديّة أو المعنويّة .. ومنع منه أشدَّ منع .. وقد كان لهذهِ الآليّة أعظم فائدة لحفظِ القرآنِ كما هو دون أيّ تزويرٍ أو تبديلٍ أو عدم تحرّز ..
- كان النبيّ يراجع القرآن بشكلٍ دائمٍ كلَّ عامٍ ، ويستمع إلى القراء ، ويدعو إلى القراءةِ من الكتابِ لا عن ظهرِ الغيبِ ، في ظلّ مجموعة من النصوص التي تشير إلى أنَّ النظر في القرآنِ عبادة ، ما زاد من قيمة الوثاقة النوعيّةِ فضلاً عن وثاقة المكتوب ..
- إعتمد الحكم الإسلاميّ القرآن المكتوب دستوراً إلهيّاً ، ومفردةً من شؤون الحكم اليوميّة ، كما أرادَ اللهُ ، ووزّعوهُ على مناطقِ الحكمِ والأقطار الإسلاميّة ..

- كان الفقهاء والعلماء ورواة الحديثِ يعتمدون القرآنَ في مجالسِ تدريسهم ، ويردّدونَهُ ، ويصرّون على ضرورةِ حفظهِ وتلاوتِه ، حتى ارتبط القرآن بشأنِ العامّة كارتباطهِ بشأن الفقهاء .. فلا تجد في مكّة والمدينة وأيّ بلدٍ دخلهُ الإسلام إلا من يحدِّثُ بالقرآن ويردِّدُهُ على اعتبارِ انّه وثيقة السماء الضروريّة ليس في شأن السلوك والمعاملة فحسب ، بل في شأن الحكمِ والغيبِ والأممِ والقيمِ والإعتقاد والمفاهيم والبركة والصلة باللهِ تعالى .. وقد كان لهذا المفهومِ أهم أمان توثيقي على الإطلاق .. والأهمّ منه أنّ التراث الشفويّ مردود إلى التراث المكتوبِ ، وقد ثبت أنّ كلّ شكٍ كان يُردُّ إلى المكتوبِ .. كما ثبت أنّ الإمام عليّ بن أبي طالب ، لم يترك القرآنَ في عهدِ النبيّ كما هو بل شرحَ آياتهِ ، وأشار إلى مفرداتِ نزولِه ، في سهلٍ أم في جبل ، في ليلٍ أم في نهار ، أشار للمحكمِ والمتشابهِ ، للعام والخاص ، للمطلق والمقيّد ، للناسخِ والمنسوخ .. إلى غيرِهِ من شروحاتٍ وتعاليمٍ مأخوذة عن لسانِ النبيِّ محمّد (ص) دون أن تختلط بمتنِ القرآنِ ، الذي ظلّ كما هو الآن ، متن رباني ، لا يجوز أن يخالطهُ أيّ تحشية أو زيادة أو نقصان .. وعليهِ : ظلّ القرآن بحرفهِ الذي نزل على النبيّ كما هو إلى يومنا هذا ، من دون أيّ تحريفٍ أو نقصانٍ أو زيادة ، بل هو بالإتفاق كذلك من دون أيّ مناقشةٍ على الإطلاق ..

- يتّفق كلّ علماء التدوين والتوثيق على أنّ ما أحيط بهِ القرآن الكريم من كتابةٍ وحفظٍ وتلاوةٍ ورعايةٍ دينيّةٍ ، وسلطانيّة ، وشعبيةٍ ، بل ما أحيط بهِ عبر مجموعة نصوص صادرة عن رسولِ اللهِ وهي توثيقيّة له كانت

بمثابة أكبر حاجز مانع وبشكلٍ وثيقٍ ونهائيٍّ من تحريف حتى حرف واحد منه وهذا أمر ـــ من الجهةِ التاريخيّةِ العلميّة ـــ يقينيّ لا شبهةَ فيه على الإطلاق ..

- بمقابلِ ذلك فإنّ مؤلفي الاناجيل الاربعة المعترف بها كنسيّا لم يشهدوا الوقائع التي اخبروا بها ، مع ان الكنيسة ومنذ قرونها الأولى حسمت الصراع لصالح الإعتراف بالأناجيل الاربعة وصحة صدورها عن المسيح على سبيل يقيني ، لا يقبل حتّى العرض على الدراسات النقدية ، حيث تعتبر الدراسة النقدية من الخطيئة ، مع ان العديد من النصوص المتحشّدة في الاناجيل الأربعة فيها نوع واضح من التناقض فضلاً عن النقاش في أصل التدوين والنقل من الخانة الشفويّةِ والتراثِ المنقول لفظيّاً إلى خانة الكتابة والتدوين ... وعليهِ : تبنّت الكنيسة منهجيّة تفسير تختص بالكنيسة نفسها ، فحرّمت في أكثر من وجهة التفاسير الأخرى من قبل الناس أو النقّاد أو المؤمنين . ومن الصفات الجديرة بالإنتباه في الدراسة النقدية للإنجيل تكمن في أن الإنجيل يعتمد على شهادات بشرية متعددة وغير مباشرة حتى أننا لا نملك أي شهادة لشاهد عيان في حياة المسيح . لذلك فإنّ الدراسات النقدية التي طالت هذه الكتب لم تتوقف عند فكرة الدراسة التاريخية المتنيّة لتدوين النص ، بل تجاوزت ذلك الى حدود مقارنة النص المكتوب في الكتب المقدسة بالفتوحات العلمية ويقينيّاتِها ، وما تفتّقت عنه ثورة العلم والكشف التكويني من هذهِ الجهة وذلك في حدود التقاطع ما بين النص في الكتاب المقدس وما عليه البيان العلمي في ظل مبدأ مفادهُ : إنّ اتفاق العلم والنص في الكتاب

المقدس دليل لازم على صحة النص المقدس ، كما أنَّ الاختلاف بينهما يدل على بطلان نسبة القدسية والربانية لهذه الكتب المقدسة ، حيث الخطأ ممنوع في حقِّ الله تعالى .. وسترى في هذهِ الدراسة أنّ عرض متن الكتاب المقدّس على مجموعة من يقينيّات العلمِ ومعطياتِهِ من هذهِ الجهة أوقع إرباكاً في أكثر من جهةٍ وبيان .. بخلاف ما حصل مع القرآن الكريم الذي زاد تألُّقاً وتوهّجاً ، وبشكلٍ مثيرٍ ومذهل . وبسبب الاختلاف بين نظرة العلم وما يحتويه الكتاب المقدّس في بعض فصوله ، نجد اليوم نفوراً واضحاً بين مفسري التوراة والانجيل وبين العلماء ، بل نجد مجموعة من التأويل غير المنهجي ، وهذا ما سنتوقّف عنده في قراءةٍ متنيّة مقارنةٍ أوّلاً ، وقراءةٍ تفسيريّةٍ تأويليّةٍ ثانياً ..

أمّا على صعيد القرآنِ الكريم فقد حشّد اللهُ الكثير من الآياتِ التي تتخذ من الواقع العلمي بياناً وآيةً في مقام الاستدلال على معجزات الكون واسرار الخلق وذلك في طولِ سلسلةِ الدلالةِ على اللهِ ومظاهرِ خلقِهِ والدعوة إليهِ .. حيث الحقيقة العلمية أساسية في عمليّة إثبات القناعات والحججِ ووسائط الصلة بعالمِ اللهِ تعالى ... والمذهل أنّ العلم جاء موافقاً وبشكلٍ مدهشٍ لما عليهِ مجموعة واسعة من الآيات الكونيّة القرآنيّة .. هذهِ الآيات التي تبلغ أكثر من ٨٥٠ آية زادت بياناً مع كلّ فتحٍ علميّ .. لذا فان دراسة القرآن في العصر الحديث لم تؤثر على النص المقدس الموجود في القرآن ، بل ساعدت وبقوة على بيان حقيقتهِ الإعجازيّة .. مع الاشارة الى اننا حين نتحدّث عن العلم انما نقصد بذلك ما ثبتت صحّته بشكل نهائي ويقيني ، وفق موازين الكشف العلمي الذي لا

يُحتمل فيهِ التراجع ، مثل الكشوفات الحسية لدوران الارض والقمر ... هذا بخلاف ما سنراه من " أزمات حقيقيّة حادّة " في متن الكتاب المقدّس ، خاصّة في سفر التكوين ، والتي كان من شأنها أن أطاحت بالكثير من النصوص الموجودة في هذا الكتاب .. هذا فضلاً عن مشكلة التناقض المتني بين الأناجيلِ حتى ان شجرة أنساب المسيح التي تتصدر الأناجيل تحمل أولى بذور التناقض ، فما في نصّ إنجيل متى من النَّسبِ يناقض ما في إنجيل لوقا من هذه الجهة .. مع ما يدلّ عليهِ هذا من وجود تحريف ما ، وأخطاء معيّنة ، وإدخالات بشريّة على النصّ الإلهيّ المفروض كذلك ..

ولأنّ الموضوع في غاية الدقة ، فإنّني سأبدأ بتشريح واقع هذهِ الدراسة وفق ثلاثة فصول ، فصل يتحدّث عن التوراة ، وفصل يتحدّث عن الإنجيل وفصل ثالث يتحدّث عن القرآن .. والله وليّ التوفيق ..

التوراة :

جولة بين الحقائق التاريخية والشهادات الشخصية ..

التوراة (تمهيد عام حول العهدين)

التوراة إسم يُراد منه الإشارة إلى الكتابِ الذي أنزل من اللهِ على النبيّ موسى (ع) .. وعليهِ : يُقصدُ فيه مجموعة التعاليم والشريعة المتّصلة بالوحي من هذهِ الجهة .. هذهِ النتيجة تعتبر نتيجة مسلّمة من حيث الأصل الأوّلي ، لكنّ الإختلاف ليس في هذا الأصل بل في التحقّق ممّا هو مثبّت ، من هنا سجّل التاريخ إختلافاً واضحاً في خصوصٍ قبولها عند كلٍّ من المسيحيين والمسلمين في نفس الوقت الذي يصرّ فيهِ أحبار اليهود على حقّانية التوراة الحاليّة واعتبارها وحياً إلهياً .. إلا أنّك سترى في هذا البحث أنّ التوراة وفي أكثر من عنوانٍ وجهةٍ وصفة وُجد في متونِها كتابة بشريّة وقصور وتناقض ، وهذا خلل فادح في النسبة إلى الله ، فضلاً عن جملةٍ أخرى ذات بعد جوهري واضحة الفساد .. من هنا فإنّ دعوى التزوير طالت التوراة في شقّيها : المادّي والمعنوي وهذا ما سنراه فيما بعد .. ولأنّ الأمر كذلك ، ولأنّ المسيحيّة بقيت على شريعةِ موسى بضميمةِ ما جاء بهِ المسيح من تعاليم كان لا بدَّ من إعادة التثبّت من التوراة وهذا ما حصل ، فحذفت بعضاً ، وأخذت بعضاً ، وفسّرت لاهوتيّاً مجموعة من زاويةٍ مختلفة .. أمّا على صعيد الإسلام ، فإنّ الإسلام يقرّ ببعثةِ موسى وعيسى

وعليهِ هو يقرّ بالتوراةِ والإنجيل من حيث الأصل ، لكنّه يتثبّت أيضاً من المتن فيقرّ ما ثبت وحياً من اللهِ ويرفض أيّ إضافاتٍ بشريّةٍ وهذا ما سنراها بالتفصيل في بحثٍ مستقلٍ إن شاء اللهُ تعالى ..

وبطبيعة الحال قبل الإعتقاد بأيّ كتابٍ لا بدَّ من توجيه مجموعة أساسيّة ضروريّة للحصول على إجاباتٍ منطقيّة مقنعةٍ .. وعليهِ بدء كثيرٌ من شرّاح الكتب المقدّسة بأسئلة من نوع التثبّت ، منها ما ورد بخصوص التوراة مثل :

ما هي التوراة .. ؟

هل هي كتابٌ من اللهِ .. ؟

هل هي وحي مسجّل بيدِ النبيِّ موسى (ع) ..؟

هل هي وثيقة أصليّة ما زالت محفوظة بأصلِها المُدوَّن بحيث لم تتخلّلها مشكلة في التزوير والنقلِ أو الإثبات ... ؟

بالأحرى : من هو كاتب التوراة ، وماذا نعرف عنه ، وكيف تمّت عمليّة التوثيق والتدوين والنقل .. ؟

ما هي الحجج التي تتضمّنها التوراة في ظلّ الدعوة إلى الله لمن هم على غيرِ اليهوديّة .. ؟

بطبيعة الأمر تتّفق البشريّة في أصلِ أحكامِها النوعية على أنَّ أيّ كتابٍ تثبت صلتُهُ باللهِ لا يمكن أن يكون مخالفاً للحقيقة ، لأنّ الله كامل من كلّ شيءٍ فلا يمكن أن يتمّ في حقّهِ الخطأ .. من هنا ، فإنَّ صفة القداسةِ في التسليم ، وعدم الردّ والمناقشة لا تتمّ لناقصٍ ممكن في حقّهِ الخطأ ، بل هي فقط في حقٍّ ما

ثبتت نسبتُهُ إلى اللهِ تعالى .. وإذا ثبت أنّ لكتابٍ ما صفة الصلة مع اللهِ فإنّ الحجّة البالغة ستكون من نصيبِهِ دون أدنى شكّ .. لذلك ، فإنّ من يقرأ مجموعة من الكتابات المتّصلة بالشروحات والتفاسير يجد فيها إشارة نهائيّة على أنّ العهد القديم هو مؤلّف ماديّ فيه تسجيل نهائي للوحي الإلهي .. لأنّ المواثيق التي يكتبها البشر يمكن في حقّها الصواب والخطأ ، كما يلازمها النقد والردّ وشبه ذلك لأنّ عنصر الكمالِ في إصابة الحقيقةِ قد لا يتوفّر خاصّةً في أمورٍ تتّصل بعالم الغيب ، ما يحيل الأمر إلى مجرّد استحالةٍ نهائيّة فلا تصل إليها أدواتُ المعرفةِ البشرية ..

وعليهِ : كان أوّل سؤال مركزي في هذا البحث هو
" مَن هو مؤلّف العهد القديم ... " ؟

الجواب إختلف من ديانةٍ إلى أخرى .. بل من ملّةٍ إلى ملّة والكلّ يدّعي الحقانية في القبولِ والرفض ، من هنا برز المبرر الضروري لمحاكمةٍ عقلانيّة تلاحق حجج كلّ فريق للتثبّت من ذلك .. وعليهِ : سيبرز في هذهِ الدراسة أكثر من بُعدٍ تاريخي ومتني وعقائدي بل وأدبي من أجل القيام بمحاكمةٍ صادقة للتثبّت من الدعاوى المتعدّدة في هذا المجال .. فاليهود يدّعون أنّ التوراة هي كتابُ اللهِ وأنّ اللهَ هو من ألّف هذا الكتاب عبر الوحي النازلِ على نبيِّهِ موسى (ع) ليكون معلَمَ هدىً للبشرِ فيما إذا إتّبعوهُ .. وما يميّز اليهوديّة في أثر التزامِها بالتوراةِ أنّها تصرّ على أنّ التوراة هي الكتابُ النهائيّ الموحى بهِ وفقط .. لذلك فهي لا تعترف بأيِّ كتابٍ بعدهُ ، وكما لا كتاب سماوي بعد التوراة ، فإنّه لا نبيّ ـــ بالمعنى المأخوذ في نبوّة موسى ـــ بعد موسى ..

من هنا فإنّ " الكنسية المسيحيّة " خاضت نقاشاً مختلفاً في تبنّي التوراة لأسبابٍ عدّة ، وقدر فُرض على الكنسيةِ أن تباشر مرحلة إثبات صحّة ما جاء بهِ عيسى كنبيّ ورسولٍ .. لكن هل قامت الكنسية بذلك ضمن مستوى لائق ودقيق أم لا ، الأمر موكول إلى بحثٍ آخر .. ولأنّ الثابت في الإنجيل الموجود حاليًّاً أنّ المسيح بُعث بالتعاليم و لم يُبعث بالشريعةِ وأنّه أحال الإلتزام بالشريعةِ لما عليهِ النبيّ موسى كان ضروريّاً على الكنيسة أن تتحقّق من التوراة ومعانيها وحدودِها لأنّ في الأمر صلة ضروريّة لا بدَّ منها .. وعليهِ : شكّكت الكنيسة المسيحيّة في قسمٍ من التوراة مدّعية أنّ الحصريّة في التوراة خطأ فادح ، وأنّ الله أرسل من بعدِ موسى المسيح . وأنّه جاءَ من عندِ اللهِ بكتابٍ سماويٍّ آخر هو الإنجيل وتدّعي المسيحيّة وأنّ ما في الإنجيل من تعاليم هي تسجيل ماديّ للخطاب السماوي الصادر عن الله .

أمّا الإسلام فكما أشرتُ يعترف بالتوراةِ والإنجيل . ويؤكّد على أنّ الله تعالى بعث من بعدِ موسى وعيسى نبيّاً إسمهُ محمّد . أمّا طبيعة الإعتراف بالتوراةِ والإنجيلِ فهي وفقاً للمفاهيم التي يعترفُ الإسلامُ بها وفق ما جاءَ في القرآن الكريم . والتي منها بيان أنّ شيئاً طرأ فحرف مجموعة من تعاليم هذين الكتابين السماويين . كلُّ هذا يأتي في الإجابةِ الأولى .

أمّا في التفاصيل ، وأمام الحججِ النقديّة ، فإنّ شيئاً من الإجابةِ يختلفُ ، مع أنّ الغاية من تلك الإجابة واضحة في أنّ الكاتب لتلك الكتبِ السماويّةِ هو اللهُ تعالى ، وإن كان بواسطةٍ بشريّةٍ ما ، مثل أن نجد في مقدّمة الكتب المقدسة إشارة بيّنة تقول : إنّ اللهَ هو مَن ألهم البشر كتابة هذا الكتاب . وعلى فرض

التنازلِ فإنّك تجد فيها بعض التفاصيل التي أُضيفت بشريًّاً إلى النص الاصلي ، إلا أنّ النصّ الأصلي المُوحى بهِ من اللهِ بقي على جوهرِهِ وحقيقتهِ ومضمونهِ .. وكما ترى يبقى النقاشُ أساسيّاً وضروريّاً حول النسبة ، وحول معرفة من هو الكتابُ الذي يمتازُ بحصّةِ النسبة إلى اللهِ . اللهُ الذي يمثّل الحقيقة كلّها .. في ظلّ اختلافٍ بارزٍ وواسعٍ بين أتباع الديانات السماويّة في أيّ كتابٍ موحى بهِ من الله ، سواء كان النقاش في الكلّ أو الجزء ، ما دام أنّ النقاش يتمركز حول مجموعة أساسيّة وجوهريّة في مضمونِ هذهِ الكتب ..

ومن يقرأ شروحات وتفاسير أتباع هذهِ الكتبِ السماويّة يجد أنّها تعتنق حقيقة مفادها أنّ الله هو صاحب الكتابِ ، وبالتالي عليك وبشكلٍ نهائيٍّ أن تتّبع ما في هذه الرسالة لجهةِ أنّها صادرة عن الله .. من هنا نشأ نقاش فكري هائل المحور مفادهُ إثبات الصلة باللهِ للكتاب .. إلا أنّ الكثيرين وقعوا في مشكلة إثبات ذاتي ، نفسي ، لم ينفع في تطوير الفهم الوجودي والإثبات الموقعي لهذا الكتاب في صلتهِ مع الله .. وهذا كان من أسوأ الأخطاء التي وقع فيها كثيرون من أتباع هذهِ الديانات فالثابت على الأقلّ أنّ الله هو ربّ كلّ الناس ، وأنّ الدعوة يجب أن تكون لكلّ الناس .. لكنّ أصل هذا العنوان تمّ فيهِ الإختلاف بين أحبار ولاهوتيين يصرّون على أنّ التوراة أو الإنجيل مثلاً هي حصراً لبني إسرائيل ، لا لغيرِهم وهذا كما ترى ينسف أصل الرسالة ذات البُعد العالمي .. لكنّ النظرة البولسيّة تجاوزت هذا الأمر لتقول بأنّ الدعوة إلى اللهِ لا تنحصر ببني إسرائيل ويجوز أن تعمّ العالمين .. ويناقش أكثر من شارحٍ أمر الصراع الذي تمّ أيّام بولس مع تلاميذ المسيح في خصوص الدعوة إلى اللهِ ونشر التعاليم ، لجهةِ أنّ تلامذة

المسيح كانوا يقيمون الأمر على قاعدة الدعوة الموجّهة إلى الخراف الضالّة من بيت إسرائيل ، ولأنّ وضعيّة بولس كانت صعبة بينهم ، إلى حدِّ الصراع العنيف جدّاً والتهم الخطيرة ، وهذا ما سنشير إليهِ فيما بعد ، لذا توجّه بولس إلى غير بني إسرائيل من العربيّةِ وغيرها في الدعوة ..

لذلك فإنّ الدراسة التاريخيّة من شأنها توفير مجموعة من مفاتيح أساسيّة وضروريّة للدخولِ إلى مرحلة تقييم إثباتي لكلّ كتابٍ من هذهِ الكتب ولو عبر صورة مجملة في بعضِ نواحيها الممكنة .. وتجدرُ الإشارة إلى أنّ الدراسة النقديّة كانت أمراً خطيراً ، تؤدّي بصاحبها إلى العقاب الحادّ الذي منه الموت .. وأؤكّد على أنّ هذهِ الدراسة النقديّة لا أريد منها أبداً التشكيك أو الهدم بل أريد عبرها التفتيش عن الكتابِ الذي له قيمومة السلطان السماويّ ، أي أنّني أفتّش لنفسي وغيري عن السبيل الذي يُطاعُ منه الله .. ككلّ كائنٍ بشريّ محكومٍ بالخوفِ والأمل ، أصرّ على أنّ لي الحقّ في أن أعرف الحقيقة ، لأنّ هذهِ الحقيقة هي التي بُعِث فيها النبي موسى والنبي عيسى والنبي محمّد ..

إنّنا أمام دياناتٍ ثلاثة :

- يهوديّة .
- مسيحيّة .
- إسلاميّة .

اليهوديّة تنكر المسيحيّة والإسلام كمنظومة وجوديّة مُوحى بها . وكذلك المسيحيّة تنكر قسماً من اليهوديّة ، كما تنكر الإسلام كلّه كوثيقة

ربّانية مُوحى بها من الله .. أمَّا الإسلام فهو يقرّ باليهوديّة والمسيحيّة على أنّ لهما كتابينِ موحى بهما من اللهِ هما التوراة والإنجيل ، إلا أنّه لا يقرّ كلّ ما فيهما مدوّن بعد أن طالت يدُ البشرِ من متنِهما ما طالت فحوّرت وغيّرت ، فقط يقرّ ما ثبّتهُ القرآنُ من هذهِ الجهة ..

وعليهِ : هناك نوع من تناقض وإسقاط واضح ، حيث كلّ ديانة تصرّ على أنّها السبيل الوحيد الذي يُطاعُ اللهُ عبرهُ ، وأنّ على كلِ بشريّ ضرورة اعتناقِها للخروجِ من عهدةِ خطابِ الله .. من هنا كان لا بدَّ من التفتيش والتثبّت ، والإعتقاد العلمي .. لذلك فقد تعدّدت الدراسات النقديّة التي تحاول إكتشاف الحقيقة بين هذهِ الكتب بشقّيها النظري والعملي ، فكان أن برز من بين كلّ هذا الركام مجموعة من دراساتٍ وقراءات نقديّة جديّة أسقطت عن كلّ كتابٍ قدسيّتَهُ وتعاملت معهُ من بابِ إفتراضيّ مفادُهُ : إنّه يدّعي تمثيلَ اللهِ ، ولا بدَّ أن يثبت ذلك بدليلٍ إقناعيٍّ موضوعي يحتجّ بهِ على الآخر من الديانةِ الأخرى فضلاً عن الإحتجاجِ بهِ على أتباعِ الدينِ نفسِهِ بل على أهلِ الدنيا . بمعنى أنّ الدليل لا بدَّ أن يكون موضوعيّاً ، إقناعيّاً ، منطقيّاً ، له وظيفة إثباتيّة غير ذاتيّة أو تبريريّة ..

ولا أخفي هنا أنّ هذه القراءات النقديّة بهذهِ التوجّهات شكّلت صدمةً عنيدةً غير عاديّة لكلٍّ من الإنجيلِ والتوراةِ كما سنرى فيما بعد ، بخلافِ القرآنِ الكريم الذي صمد بقوّةٍ هائلةٍ ومثيرةٍ ، أدهشت كلَّ من حاول مناقشة القرآن الكريم في معرضِ إجابتِه عن حقيقةِ تمثيلِ اللهِ تعالى بصدقٍ ، وهذا ما سأتوقّف عندهُ بدقّةٍ وافيةٍ ومستفيضةٍ فيما بعد إن شاء اللهُ تعالى .

لقد سجّلت الدراسات النقديّة انّ التوراة " تعاني من أكثر من بُعدٍ وعنوان " ، من تناسق التواريخ ، من اضطراب المتن ، من مجموعة متناقضة ، من سرد التواريخ ، من اختلاف أدبي ، من تأريخ بشريّ ، من تدخل بشري كبير في إعادة صياغة النصّ ، من مفاهيم متنيّة مخيفة .. وهذا بطبيعة الحال يؤثّر بشكلٍ عنيدٍ على طبيعة القداسةِ فيها والنسبةِ إلى الله .. بل يوسّع من دائرة التشكيك في متنِها ... كما أنّ الإنجيل عانى عقوداً عدّة وما زال يعاني أمام جملةٍ من الأسئلة الإختباريّة هذا فضلاً عمّا سنراه من مجموعة من التناقضات في المتن ، في الحذف والصياغة ، في الإختلاف الأدبي ، في مجموعة من المفاهيم ، في جهل المؤلّف ، في الإختلاف العميق بالتفسير اللاهوتي ، في عقيدة التثليث وظرفها الزمني ، في قصور بعضِها ، في ظاهرة تركيب تسلّلت إلى بعضِ النصوص ، وغير ذلك .. ومع أنّ الكنيسة في زمنٍ مضى عملت على تحديد حقيقة تمثيل الرب عبر أناجيل بعينها ، إلا أنّ هذا لم يكن كافياً للإجابة عن السؤال الذي أشرتُ إليهِ ، خاصّة عن معايير التصنيفِ والإتلافِ والإخفاء لجملةٍ من وثائق إنجيليّة كانت تعتبر ذات قيمة مهمّة في نظرِ قسمٍ أساسي من أتباع الكنيسة ..

لقد نشرت الكنيسة منذ مجامع القرن الرابع المسكونية قائمة بالكتب المقدّسة ، وقد أيّدت هذه القائمة المجامع المسكونية التي انعقدت بفلورنسا عام ١٤٤١ وترانت عام ١٥٤٦ والفاتيكان واحد عام ١٨٧٠ بحيث شكلت ما يسمّى بالقانون . كما قام المجمّع الفاتيكاني الثاني عام (١٩٦٢ ــ ١٩٦٥) بعد كثير من الرسائل البابوية بنشر نصّ عن التنــزيل الالهي ، وهو نص مهمّ لأنّ المجمّع عمل طيلة ٣ سنوات لإعداده ، وقد تمّ الانتهاء من النص ونشره

وسط أزمات وصعوبات بالغة ... إلا أنّ ذلك لم يكفِ للإجابةِ عن تدوين الإنجيل ، عن معايير التوثيق ، عن التناقضات ، عن التفسير الذاتي ، عن السكوت عن تفسير مجموعة من اسماء وعناوين ، عن سلطنة بولس وانهيار جانب التلاميذ الرسل ، عن مجموعة من آراء لاهوتيّة تخالف بشكلٍ واضح متن الأناجيل ، بل عن من هو مؤلّف الأناجيل .. !

ولأنّ الأمر ظلّ يتوسّع نحو نطاقِ الكتّاب والمؤلّفين والنقّاد فقد خرجت مسألة البتّ بصحة وعدم صحة النص الإنجيلي من حدود الخواص من الكهنة ، لأنّ موضوع يتّصل بنسبةِ الإنجيلِ إلى اللهِ ، وهو موضوع يهمّ البشريّة كلّها ، ليس على سبيل الإختيار والتبرّع ، بل على سبيل الوجوبِ والإلتزام الطبيعي اتجاه الله ، حيثُ كلٌّ فردٍ منّا يطوق إلى معرفةِ حقيقة أيٍّ كتابٍ من شأنِهِ أن يكون صادقاً في نسبتِهِ إلى الله ، ويقود هذا الشغف غريزة حبّ الذات بما تعنيهِ من ضجيجٍ هائلٍ وضرورة حاسمة .. من هنا فإنّ الحاجة تكون ماسّة إلى مجموعتين من القراءات :

١. قراءة داخليّة لاهوتيّة .
٢. قراءة غير لاهوتيّة ، ومن غيرِ أتباع نفس الديانة ..

القراءة الأولى مهمّتها إستعمال المفاتيح اللاهوتيّة في التفسير والتحقيق والتثبّت ، وهي بطبيعة الحال لو تجرّدت عن النـــزعة الذاتيّة ستكون الأفضل بشكلٍ حاسمٍ .. أمّا أهميّة القراءة الثانية ، من أتباع دينٍ آخر ، أو ممّن لا يؤمنُ بدينٍ ، تكمن في نزع صفة القداسة إفتراضيّاً على الأقلّ عن الكتابِ موضوع

النقاش شرط أن يكون الناقد موضوعيّاً ومستجمعاً ويصر على عقلنة الإثبات بشكلٍ دقيق .. من مصاديق القراءة النقديّة الأولى هناك مجموعة من مؤلفات كتبها رجال دين لاهوتيين للخاصة ، وهي تبحث في مواضيع عدّة ، والمهمّ فيها أنّها تقرّ بأنّ مسألة الحكم بصحّة كل ما وَرَدَ في العهدين القديم والجديد محل كلام معقّد ، وأنّ هذهِ الدعوى فيها كثير من النقاش بين الكهنة أنفسهم . من تلك الدراسات دراسة (أدموند جاكوب ـــ العهد القديم ـــ) وفيها الكثير من العناوين والموازين المهمّة التي تحتاج الى بُعد نظر وإعادة تأمُّل للعبور في أكثر من عنوانٍ إلى مناقشةٍ جادّة حيث يعرض في جانبٍ منه رؤية واضحة عن المشكلة ..

وبطبيعة الحال لا بدَّ أن نتوقف عند النصّ ، عند النسخ ، عند التعدّدية ، عند النقل ، عند التاريخ ، عند المؤلّف .. ففي خصوص النصّ المكتوب للتوراة يكتب أدموند جاكوب فيقول : في البدء لم يكن هناك نصّ واحد فقط ، بل كان هناك تعدّد بالنصوص ففي القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً كان هناك على الاقل ثلاث مدونات للنص العبري المعروف بالسامري ، أو أسفار موسى الخمسة . ثم بعد ذلك في القرن الاول قبل الميلاد تمّ الاتجاه الى تدوين نصّ واحد إلا أنَّ تدوين نصّ الكتب المقدس لم يتمّ الا في القرن الاول بعد الميلاد . ولو كانت هذه المدونات الثلاثة موجودة لأمكن اقامة مقارنة ومحاكمة علمية عمّا كان عليه النصّ الاصلي ، الا انه لا توجد أقل فكرة عن ذلك . ثم إنَّ أقدم نص عبري للتوراة يرجع عهده الى القرن التاسع بعد الميلاد . نعم ان اسطوانات مغارة قمران ترجع الى ما قبل العصر المسيحي بقليل ...

وتعتبر الترجمة السبعينية أوَّل ترجمة ، وهي باللغة اليونانية ، حيث يرجع تاريخها الى القرن الثالث قبل الميلاد . وقد قام بها يهود الاسكندرية ، وعلى نصّها اعتمد العهد الجديد ، وقد ظلّت معتمدة حتى القرن السابع بعد الميلاد . كما أنّ النصوص اليونانية الأصلية التي يستخدمها عموماً العالم المسيحي هي عبارة عن المخطوطات المحفوظة باسم (CODEX VATICANUS) في الفاتيكان و(CODEX SINAITICUS) المحفوظة بالمتحف البريطاني ، ويرجع تاريخ هذين المخطوطين الى القرن الرابع بعد الميلاد . أما ما يخص توراة القديس إيرونيمس اللاتينية ، فقد أشار الى أنّه يحتمل أن يكون قد استخدم وثائق عبرية ترجع الى السنوات الاولى من القرن الخامس بعد الميلاد ، وقد سمّيت تلك الطبعة بـــ (VULGATE) بسبب انتشارها الواسع بعد القرن السابع من العصر المسيحي . اما المدونات الآرامية والسريانية فهي جزئية وغير كاملة . ولقد سمحت هذه المخطوطات المختلفة للمتخصصين بأن ينتهوا الى إعداد النصوص المسمّاة بـــ " المتوسطة " وهي عبارة عن حلّ وسط بين مختلف النُسَخ . مع الاشارة الى أنّ هناك بعض المجموعات التي تحتوي على النسخ المختلفة : العبرية ، اليونانية ، اللاتينية ، السريانية ، الآرامية وحتى العربية ، وهناك الكتاب المقدس الشهير بنسخة " والتون " (لندن ١٦٥٧) .. وبطبيعة الحال فإنّ الإختلاف سيؤسّس لمجموعة من قيم في القبول والرفض ، وهذا ما حصل بين المسيحيين أنفسِهِم حول الكتابِ المقدّس ، ما أدّى إلى الإختلاف في مجموعةٍ من الأسفار وعدم الإعتراف لها بالشرعيّة مقابل فئة أخرى تصرّ على شرعيِّتها واعتبارها وحياً سماويّاً .. وقد أدّى ذلك إلى صراعٍ حادّ بين الكنائس ، حتى من نفس المذهب الواحد وبخصوص أسفار محدّدة وبلغةٍ واحدةٍ .. من هنا بدأت أولى

محاور النقاش الدقيق في متنِ العهد القديم ، بين قبولٍ وردّ ، بين اعتبارٍ إلهيّ وردّ إلى كتابةٍ بشريّةٍ ، بين توثيقٍ ورفض للتوثيق .. ما أسّس لمجموعةٍ من التحوّلاتِ التي طرأت فيما بعد على العهدِ القديم بما يتّصل بهِ من نقلٍ الى نقل ومن ترجمة الى ترجمة ، تمّت في أكثر من ألفي عام ..

ولأنّ توثيق العهد القديم وفق مفهوم اليهوديّة أمر غير ممكن ، بسبب دخالة اليدِ البشريّةِ ، ووضوح التدخّل الخارجي غير المُوحى بهِ في إعادة صياغة النصوص ، إذن كان من الواجب القيام بإعادة التأسيس لمجموعة من معايير في قبول النصّ التوراتي ، وهذا ما حصل جزئيًّا ما أدّى إلى رفض مجموعة أساسيّة من نصوص التوراة اليهوديّة ، إلا أنّه وكما سترى ، فإنّ الكنسية تساهلت في مجموعةٍ اعتبرها مقبولة ، من دون الإعتماد على معايير صارمة .. من هنا فإنّنا سنبحث في مجموعة من عناوين أهمّها (اصل الكتاب المقدّس) الذي يحتوي على مجموعةٍ من التوراة وعلى تعاليم الإنجيل .. وذلك وفق نظرةٍ دقيقة ..

أصل الكتاب المقدس

مدخل تمهيدي

حسب الكتاب المقدس (مجمع الكنائس الشرقية) ظهر العهد الجديد بمظهر مجموعة مؤلفة من سبعة وعشرين سفراً ، مختلفة الحجم ، وضعت كلها باليونانية ، و لم تجر العادة في أن يطلق على هذه المجموعة عبارة " العهد الجديد " إلا في أواخر القرن الثاني ، حيث نالت هذهِ الكتابات شيئاً فشيئاً مقاماً مقبولاً متّصل بنوعٍ من قداسةٍ لاهوتيّةٍ ، وأصبح لها شأن كبير في استعمالها لنصوص العهد القديم ، التي عدّها المسيحيون زمناً طويلاً كتابهم المقدس الأوحد ، وسموها (الشريعة والأنبياء) وفقا للاصطلاح اليهودي في تلك الأيام .. مع الإشارة إلى أنّ التعاملَ مع تلك الوثائقِ في ذلك الزمنِ لم يكن على مستوى واحدٍ من القبولِ إبّان الفترةِ التي بُعث بها المسيح .. لذا اقتضى التوضيح بل لم يكن النصّ محرّراً بشكلٍ نهائيٍّ ، أو لم تكن المنظومة كلّها محرّرة ، وهذا ما سنراه فيما بعد ..

أمّا إطلاق عبارة (العهد الجديد) فإنّ ذلك يعود في حقيقتهِ إلى أن اللاهوتيين المسيحيين رأوا أنّ ما ذهب إليه بولس وما أسّس من مفاهيم ولاهوت

وتفسير ونصوص (٢ قور ٣ / ١٤) تحتوي على أحكام عهد جديد ، تحدد معانيه العلاقة بين الله وشعبه ، في المرحلة الأخيرة من تاريخ الخلاص .. وبذلك بدأت الرحلة الجديدة مع عهد جديد ، وعليه : تمّت المقابلة بين العهدين : العهد القديم وهي عبارة تطلق على المجموعة التي كانت في الماضي تسمى (الشريعة والأنبياء) فأشاروا بذلك إلى أنهم يرون في تلك المجموعة مضمون أحكام العهد الموسوي القديم ، مقابل ما جدده يسوع وتخطاه . إن تأليف تلك الأسفار السبعة والعشرين ، وضمها في مجموعة واحدة أدّيا إلى البدء بمرحلةٍ جديدة .. من هنا كان لا بدَّ من التفتيش والبحث والتنقيب عن مجموعة المؤثرات التي حملت المسيحيين الأولين على إعداد مجموعة جديدة لأسفار مقدسة ، أهّمها مناقشة كيفيّة نقل النصوص ونسخها وقبولها ورفضِها وإتلافِها ، ثمّ الحديث عن مجموعة من النصوص التي أمكنها أن تجتاز نحو أربعة عشر قرناً من التاريخ الحافل بالأحداث ، التي مضت بين تاريخ كتابتِها والشكوك في مجموعةٍ دقيقةٍ منها ..

ولا بدَّ من التوقّف عند مسألة ضبط النص بعد ما طرأ عليه من اختلاف في الروايات أثناء النسخ ، كما لا بدّ من الإشارة إلى البيئة التاريخية والدينية والثقافية التي نشأ فيها العهد الجديد ثم انتشر ، وقد جرت العادة أن يقال لهذه المظاهر الثلاثة : مسألة القانون ، ومسألة النص ، ومسألة البيئة لنشأة العهد الجديد . إن كلمة " قانون " اليونانية هي تماثل كلمة قاعدة في العربية ، قابلة لمعنى مجازي ، يراد به قاعدة للسلوك أو قاعدة للإيمان . وقد استعملت هنا للدلالة على جدول رسمي للأسفار التي تعدها الكنيسة ملزمةً للحياة والإيمان و لم تندرج هذه الكلمة بهذا المعنى في الأدب المسيحي إلا منذ القرن الرابع . وتجدر

الإشارة إلى أنَّ السلطة العليا في أمور الدين كانت تتمثل عند مسيحيي الجيل الأول في مرجعين :

١. العهد القديم ، وكان الكتبة المسيحيون الأولون يستشهدون بهِ أو ببعضهِ استشهادهم بوحي الله . بمعنى أنّهم يتعاملون معه من بابِ الوثيقةِ المُوحى بها من الله ..

٢. المرجع الآخر (تعاليم يسوع) وقد اعتمد هذا المرجع بين أتباع المسيح الذين سمّوهُ (الرب) ليشير إلى كل التعليم الذي ألقاه يسوع (١ قور ٩ / ١٤) ..

لقد كان لهذين المرجعين قيمة أساسيّة في أمور الدين ، ولكن العهد القديم كان يتألف وحده من نصوص مكتوبة . وهذهِ إشارة أساسيّة لا بدّ منها للتفريقِ بين تعاليمِ المسيح الشفويّة ، وبين نصوص التوراة المكتوبة ، لكن لا بدَّ من الإضافة إلى أنّه في تلك الفترة لم تكن التوراة محرّرة على نحوٍ نهائيٍّ ، بل لم تكن مجموعة كصيغتِها الحاليّة اليوم ، كما أنّ معايير التفريق بين البشريّ والمُوحى بهِ لم تكن موجودة على نحوٍ يسمح بالقيام بمهمّةٍ كهذهِ ، وأنا فيما بعد سأتعرّض إلى مجموعة من تواريخ النصّ في التوراة وبيان جملة من معانٍ تتّصل بهذهِ الجهة .. وعليهِ : فإنّ الشطر الآخر ، من الوثائقِ المعتمدةِ تاريخيّاً تمحورت حول (أقوال الرب) كما في تسمية الكتاب المقدّس (مجمع الكنائس الشرقية) التي يُدَّعى أنّها تجمع ما كان يبشر به الرُّسل ، وقد تناقلها النّاس والرُّسُل شفهيّاً من دون تدوين ..

وتشير أكثر من دراسة لاهوتيّة إلى أنّ المسيحيين الأوائل لم يشعروا بضرورة التدوين ، إلا بعد وفاة آخر الرسل . إلا أنّ هذا الكلام غير دقيق في مقام التوجيهِ ، لذا سترى أنّ مجموعة من النصوص المشكوك فيها والتي دخلت إليها يدُ التدوين البشريّة إنّما طرأت بسبب ترك التدوين .. وهذا ما يعترف بهِ كثيرٌ من اللاهوتيين الذين توقّفوا أمام مجموعةٍ واسعةٍ من التناقضات والحذف وإعادة الصياغة والإختلاف بين النسخة الأصليّة وما هو في متنِ الوثائق التي اعتبرت فيما بعد قانوناً .. من هنا فإنَّ هذهِ المسألة معقّدة كما سترى ، حيث التراث الشفويّ مثير لمجموعة من أسئلة مثل التحقّق من هويّة النُسَّاخ ، من هويّة النسخات ، من مؤثّرات التغيير ، إختلاف النسخ ، الإبطال لمجموعة هامّة من النسخات ، صراع عنيف حول القيم التوثيقيّة وشبه ذلك ..

ويضيف الكتاب المقدّس (مجمع الكنائس الشرقيّة) : يظهر أنّهم جمعوا في بداية الأمر رسائل بولس ، واستعملوها في حياهم الكنسية ، ولم يظهر أنّهم كانوا يقومون بعمل من مثلِ هذا النوع بهدف تأليف ملحق بالكتاب المقدس ، بل كانوا يدعون الأحداث توجههم ، نعم كانت الوثائق البولسية مكتوبة ، في حين أنّ التقليد الإنجيلي كان لا يزال في معظمه متناقلا على ألسنة الحفاظ بشكلٍ شفويٍّ .. في هذا الوقت كان بولس قد أوصى بتلاوة رسائله وتداولها بين الكنائس المتجاورة (١ تس ٥ / ٢٧ وقول ٤ / ١٦) ومهما يكن من أمر ، فإن كثيراً من المؤلفين المسيحيين أشاروا منذ أول القرن الثاني إلى أهم يعرفون عدداً من رسائل كتبها بولس وذاع صيتُها ، وهذا يعني أنّ رسائل بولس هي التي كانت منتشرة ، كما كان لبولس نوع من شهرةٍ واضحة . وليس هناك قبل أول

القرن الثاني (٢ بط ٣ / ١٦) أي شهادة تثبت أن هذه النصوص كانت تُعدُّ أسفاراً مقدسة ، لها من الشأن ما للكتاب المقدس ، نعم لا يظهر شأن الأناجيل طوال هذه المدة ظهوراً واضحاً كما يظهر شأن رسائل بولس . ويضيف : لم تخلُ مؤلفات الكتبة المسيحيين الأقدمين من شواهد مأخوذة من معاني الأناجيل ولو على سبيلِ التلميح إليها ، لكن هذا وبإتفاق اللاهوتيين لا يعني أنّهم كانوا يأخذونَها من كتبٍ ومؤلّفات ، بل الأقرب أنّها كانت مستقاة من التراثِ الشفويّ .

وحسب اللاهوتيين ليس هناك قبل السنة ١٤٠ م . أي شهادة تثبت أن الناس عرفوا مجموعة من النصوص الإنجيلية المكتوبة ... نعم ظهر في النصف الثاني من القرن الثاني " شهادات أوليّة " تشير إلى أن هناك مجموعة من الأناجيل (ولا يقصد بها أنّها تامّة ، بل أسفار) وأن لها صفة الإلزام .. وقد جرى الاعتراف بتلك الصفة على نحو تدريجي ومنذ السنة ١٥٠ م . تقريباً إبتدأ عهدٌ جديد في تكوين قانون العهد الجديد وكان " يستينس " أوَّل من ذكر أنَّ المسيحيين يقرءون الأناجيل في اجتماعات الأحد ، وأنهم يعدّونها مؤلفات الرسل (أو أقله مؤلفات أشخاص يتّصلون بالرسل صلة وثيقة) .. وهذا بطبيعة الحال يستدعي منّا التوقّف هنا ، للسؤال عن مدى الإضطراب في الصلة بين الأناجيل وبين الرسلِ المفترضين أو أشخاص لهم صلة بالرسل ، وهذا الذي أريد أن أشير إليهِ فيما بعد ، من دعوى أنّ الرسل هم الذين كتبوا الأناجيل أو أشخاص لهم صفة شهود عيان ، هذا كلام لا دليل عليهِ ودعوى غير تامّة .. ثمّ يضيفون : لقد كان هؤلاءِ يستعملونها ويُوْلُنَهَا منـــزلةً مقدّسةً ، من دون أن يعني ذلك

إعطائها هذا الوصف لأصلها الرسولي ، بل لأنها تروي خبر " الرب " كما في لسانِ اللاهوت ، وفقا للتقليد المتناقل آنذاك ، ولكن سرعان ما شُدّد على نسبة هذه المؤلفات إلى الرسل ... !

مع أنّ طبيعة التحقّق والتثبّت من هذا الأمر في غاية الإستحالة بل من غير الممكنِ .. لكنّ شيئاً ما حصل عبر التراكمِ والتعاملِ معها فضلاً عن القراءات اللاهوتيّة ، ما رفعها إلى مثلِ هذهِ المنـــزلة ، إلا أنّ هذا لا يعني منع الدخول معها بنقاش أو التحقّق من نسبتِها وصحّة تدوينِها ، ومدى تسلّل اليد والفكر البشري إليها ، خاصّةً أنّ التعاملَ معها لم يكن على نحوٍ متّصلٍ بعاملِ الإلزامِ لجهةِ القداسةِ أوّلاً ، وهذا ضروريّ وأساسيّ لفهمِ الحقيقةِ التي من اللازمِ أن نجيب عنها .. نعم وبشهادةٍ لاهوتيّةٍ تمّ التعامل معها على هذا النحو الملزم وبإضفاء قداسةٍ توحي بالإحياءِ السماوي حين مسّت الحاجة إلى حمايتها من تكاثر المؤلفات الشبيهة بها في ظلّ تعدّد المذاهب في التقييم والإعتقاد بل في ظلّ صراعٍ عقائديّ واضح وصل إلى حدّ الإتهام بالهذيانِ والمكرِ والخديعة وغيرهِ .. وتؤكّد الكنسية والقراءات اللاهوتيّة أنّ ما كان شبيهاً بها من الأناجيل الأخرى إنّما هو كذلك من حيث الظاهر ، أمّا من حيث القبول والتوثيق فإنّ الأمر يتوقّف فيهِ على الكنسية التي لم تعطِها هذا التوثيق ، لكنّ مجموعة مهمّة من قراءات لاهوتيّة تعترف أنّ خطأ حصل إبّان إعطاء وصف الإلزام وإبطال الأناجيل الأخرى أدّى إلى حرمان مجموعة من أسفار وأناجيل من حجّتِها الحقيقيّة .. وهذا كلام ليس غريباً عمّا دار في المجامع اللاهوتيّة المتّصلة بمناقشة مثل هذهِ المواضيع ، بل ظهرت أكثر من دراسةٍ للخارج وهي واضحة في هذا

الإتّجاه ، وإن لم تكن على مستوى إقرار من المجامع لكنّها تسمح بذلك ، فما كان من أكثر من شخصيّةٍ لاهوتيّة إلا أن أشارت إلى أنّ الإتلاف الماضي والإسقاط لقيم الوثائق اليسوعيّة كان فيهِ خطأ فادح بل من دون معايير ضروريّة في مثلِ هذهِ الحالات المهمّة والخطيرة ، وهذا ما سنتوقّف عنده فيما بعد .. وتضيف الوثائق : أنّه بعد السنة ١٥٠ م . وجدت الكنسية أنّها بحاجةٍ ماسّةٍ إلى قاعدة شاملة ، فاتجهت الأنظار إلى تبنّي مجموعة من كتابات لها معنى القداسة ، فوُلِدت الأناجيل الأربعة ..

لماذا ..؟ لأنها نالت تأييداً متفوّقاً في ظلّ ظرفٍ معقّدٍ سنتوقّف عندهُ بشكلٍ تحليليّ وتاريخي .. وعبر تأييد سلطويّ ملزم فقد حُجِبت مجمل المؤلفات المماثلة . وعليهِ : بصورةٍ تقريبيّة حظيت الأناجيل الأربعة نحو سنة ١٧٠ ميلاديَّة بمقام الأدب القانوني ، مع أنَّ تلك العبارة لم تستعمل حتى ذلك الحين .. أما رسائل بولس فتشير الدراسةُ التاريخيّةُ إلى أنّها لم تدخل إلى القانون الواحدة بعد الأخرى ، بل إنَّ مجموعتها أدخلت إليه برمتها يوم أخذ يغلب في الكنيسة الرأي القائل بأنه لا بد من الحصول على قانون للعهد الجديد .

لكن لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن نطلق على تلك المؤلفات الإنجيليّة صفة أنّها مكتوبة من الرسلِ فهذا من الأخطاء التاريخيّة الفادحة حسبما سنرى . نعم شياع هذا الوصف أكسب هذهِ الأناجيل تفوّقاً عالياً .. فجعلها ذات صفة تتميز بها عن " المؤلفات الإنجيلية الأخرى " ، وكان لها نصيب أكبر في إعلاء شأن ما كتب بولس إلى أنْ تمّت لها فيما بعد " صفة الإلزاميّة " عبر كنائس القرن الثاني . ثم إنّ هذا القانون انتشر سريعاً في الكنيسة حتى عمَّها ، إلا أنّ

السؤال هنا لا بدَّ أن يطرح من زاوية مدى أثر الفكر اللاهوتي في ذلك ، في القبول والفرض ، في التفسير وتبنّي مجموعة من عناوين عقائديّة أدّت إلى انقسامٍ مسيحيّ لاهوتيّ خطير .. ومثال آريوس ما زال حيّاً فيما خصّ التثليث وشبه ذلك .. وفي المفاصل التاريخيّة أنَّ مرقيون (+ ١٦٠) الهرطوقي تدخّل ونبذ سلطة العهد القديم نبذاً تاماً ، فاحتاج أشد الحاجة إلى تزويد كنيسته بأسفار مقدسة ، وبما يقتضيه ذلك من قانون جديد . ما يعني أنَّ أتباع " مرقيون " ساهموا في نشر مبدأ القانون الجديد .. وقد اتفقوا على أنه مؤلف من قسمين إثنين :

١.الإنجيل .
٢.الرسل .

كما أن القانون القديم كان أيضاً مؤلفا من قسمين :

١.الشريعة .
٢.الأنبياء .

وعليهِ : فإنَّ الرأي القائل بقاعدة جديدة للكتاب المقدس بدا راسخاً في الكنسيةِ منذ أواخر القرن الثاني ... ولكن بقي ضرورة توضيح القانون الجديد ، وهذا يسمح للفكر اللاهوتي والسلطة الكنسيّة بمحورٍ واسعٍ .. ولم يوضِّح الجدول التام للمؤلفات العائدة إلى القانون إلا على نحو تدرجي .. وتجدرُ الإشارةُ إلى ما جرى بين السنة ١٥٠ ميلاديّة والسنة ٢٠٠ ميلاديّة إذ حدّد على نحو تدرجي أن سفر أعمال الرسل " مؤلّف قانوني " وقد عده في أواخر القرن

الثاني " إيريناوس " أسقف مدينة ليون سفراً مقدساً واستشهد به على أنه شهادة لوقا في كلامه على الرسل . وقد ضُمَّ سفر أعمال الرسل إلى القانون للصلة التي يمتُّ بها إلى الإنجيل الثالث ، لأنّه مؤلف تابع لذلك الإنجيل ، وتدلّ على ذلك الصياغة الأدبيّة ..

ولا بدَّ من التذكير بأنّ هناك عدداً كبيراً من المؤلفات " الحائرة " التي يذكرها بعض الآباء عند ذكرهم لأسفار قانونية ، في حين أن غيرهم ينظر إليها نظرته إلى كتابات لا معنى ملزم لها .. مثل الرسالة إلى العبرانيين ورسالة بطرس الثانية وكلّ من رسالة يعقوب ويهوذا وهناك أيضا مؤلفات جرت العادة أن يستشهد بها في ذلك الوقت على أنها من الكتاب المقدس ومن ثم على اعتبارها جزءً من القانون ، إلا أنّها لم تبق على تلك الحال ، بل أخرجت في آخر الأمر من القانون . مثل ما جرى لمؤلف هرماس وعنوانه " الراعي " وللديداكي ورسالة اقليمنطس الأولى ورسالة برنابا ورؤيا بطرس .

لكن لا يجوز بحالٍ من الأحوال التعامل مع مؤلّف فاقد القيمة الكنسيّة على أنّه لم يحظَ بقيمةٍ ثبوتيّةٍ على نحوٍ علميّ ، هذا ما تشير إليهِ بدقّة مجموعة من الكتابات اللاهوتيّة ، ويكفي أن نشير إلى أنّ إبطال مجموعة من الأناجيل أدّى إلى " انقسامات عقائديّة بين المسيحيين " ما يعني أنّ القبول والرفض لم يكن على مستوىً من القناعة الشاملة لجميعِ المسيحيين ، وإذا أردنا أن نسبر مجموعة من فترات التاريخِ المختصّة بهذا النوع ، فإنّ زمن التوثيقِ وعدمهُ تداخلت فيهِ عناصر أخرى " مختلفة عن نوع التثبّت " لتصل إلى التعامل مع النص على نحوٍ

من " التثبيت الخصاميّ " أعني بذلك عامل القوّة والشهرة والدعاية وغير ذلك وهذا أمر ثابت تاريخيًّاً ..

وتضيف وثائق الكتاب المقدّس (مجمّع الكنائس الشرقيّة) : يبدو أن مقياس نسبة المؤلف إلى الرسل استعمل استعمالاً كبيراً ، ففقد شيئاً فشيئاً كل مؤلّف لم تثبت نسبته إلى رسول من الرسل ما كان له من الحظوة (وهذا كلام هو عبارة عن وجهة نظر ، تكرّس نتيجة إنتصار بولس ليس أكثر) وعليه : قال اللاهوت المنتصر : إنَّ الأسفار التي ظلت مشكوكا في صحتها حتى القرن الثالث هي تلك الأسفار نفسها التي قام نزاع على صحة نسبتها إلى الرسل في هذا الجانب أو ذلك من الكنيسة . وكانت الرسالة إلى العبرانيين والرؤيا موضوع أشد المنازعات ، وقد أنكرت صحة نسبتهما إلى الرسل إنكارا شديدا مدة طويلة فأنكرت في الغرب صحة الرسالة إلى العبرانيين وفي الشرق صحة الرؤيا ، ولم تقبل من جهة أخرى إلا ببطء رسالتا يوحنا الثانية والثالثة ورسالة بطرس الثانية ورسالة يهوذا . ولا حاجة إلى أن نتتبع تتبعاً مفصلا جميع مراحل هذا التطور الذي أدَّى خلال القرن الرابع إلى تأليف قانون في مجمله هو القانون الذي نعرفه اليوم بعينه ، ما عدا التردّد في ترتيب الأسفار في القانون . وتضيف : إنَّ الاهتمام كان بالوحدة في الكنيسة ، وقد ازداد فيها يوما بعد يوم الإقرار بحق الصدارة لسلطة كنيسة رومة ، الذي ساهم مساهمة غير قليلة في تخفيف ما ظهر من الخلافات في هذه المرحلة أو تلك من التطور الذي رافق تأليف القانون [ص : ١١ أسفار العهد الجديد المنحولة] .

وتصرّ الكنسيةُ على أنّ الأسفار التي اعترف فيها حُفِظت على نحوٍ مَنَعَ من تسلّل أيّ تزوير وشبههِ إليها ، وتحاول أن تشير إلى أنَّ تلك التي لم تحظَ بنوعٍ من القبولِ ربّما دخلها نوع من التزوير والتلف وشبه ذلك .. وفي الحقيقة إنّ كلّ من يطالع حقبة هذهِ الجولة يدرك أنّ هذا التوجيه ما هو إلا مجرّد دفاع متأخر جدّاً ، بعد أن صدرت مجموعة واسعة من دراسات تشير إلى أنّ الرفض والقبول لم يكن على مستوىً من موضوعية مناقشة المتون وإنّما كان هناك نوع من انقسامٍ سياسيٍّ أدّى إلى إنتصار فريق على آخر واعتبار نُسَخهِ ووثائقهِ ومفاهيمهِ قانوناً ، فلا حاجةَ إلى الإعتذار بنوعٍ من إمكانِ التزوير أو التلفِ أو عدمِ الحفظِ وشبه ذلك .. سوى ما ردّدهُ بعضُ اللاهوتيين من أنّ عدم احتفاظ الفريق المنتصرِ في ذلك الزمن بنسخٍ من الأسفار والرسائل والأناجيل الأخرى غير المقبولة كنسيًّاً كان من أكبر الأخطاء التاريخيّة ..

وعليهِ : تقول وجهة نظر الكنيسة : إنَّ الأسفار التي اعترف لها بأنها قانونية أصبحت بناء على ذلك نصوصاً مقدسة وحصلت منذ دخولها في القانون على نوع من الحصانة ، ساعدت في وصولها إلى عهد الطباعة وهي في حالة حسنة . ولم تحظ بمثل ذلك المؤلفات التي لم يكتب لها أن تدخل في القانون . فإذا حظي بعضها (كالديداكي أو رسالة برنابا) بتقدير جميع الكنائس فحفظ في حالة حسنة ، مع أنه لم يدخل إلى القانون ، فإن بعضها الآخر ، الذي لم يتحلَّ بتلك الصفات ، نُحّي تنحيةً أشد عن الاستعمال الكنسي ، فأصبح عرضة للضياع ، الأمر الذي يبيِّن لماذا لم يبقَ منه سوى آثار قليلة . مثل بعض المؤلفات التي كانت على ما فيها من الشبه بنصوص العهد الجديد القانونية ، وهي تنقل في

نظرهم آراء غريبة عن أفكار الكنيسة . وقد عُدَّت فيما بعد كمؤلفات منحولة تلك التي أبت الكنيسة أن تبني عليها عقيدتها وإيمانها ، ولذلك لم تأذن بقراءتها أثناء إقامة شعائر العبادة يوم الأحد . وقد أمر أن تبقى تلك الكتب مخفية في أثناء إقامة شعائر العبادة .. بل أُتلفت تلك الوثائق الإنجيليّة أشدَّ إتلافٍ وعوقِب أتباعُها في ظلّ فترةٍ تاريخيّة شهدت مجموعةً واسعةً من الصراعات العقائديّة وصلت إلى حدّ إستعمال السيف والحديد لتثبيت عقيدة المنتصر .. وعليهِ : تعاملت الكنسية مع الوثائق الإنجيليّة الأخرى على أنّها منحولة واعتبرتها وسائل نقل للضلال والباطل ..

وتعترف مجموعة من الوثائق الكنسيّةِ اليوم أنّ الكنسية لا تعرف من أناجيل النصارى والعبرانيين والمصريين إلا مما استشهد به منها آباء الكنيسة ، ما يدلّ على أنّ مجموعةً أساسيّةٍ نُسفت من عالمِ التوثيقِ والقبول ، ولفئاتٍ أساسيّةٍ واسعة ومنتشرة .. ومن تلك الوثائق التي لم تنل رضا الكنيسةِ إنجيل بطرس ، الذي عثر على جزء منه في مصر في أواخر القرن الماضي ، وهو يحتوي على آثار غنوصية ظهرت على وجه تام في مؤلفات معروفة ، وعُثِر في مصر أيضاً على أسفار كإنجيل الحق وإنجيل فيلبس وإنجيل توما ، وتعترف الكنسية اليوم بأنّ في الإنجيل هذا أموراً كثيرة مشتركة بينها والأناجيل السابقة ، غير أن تلك المؤلفات تختلف اختلافا واضحا عن الأناجيل القانونية ، لأنها تكاد لا تحتوي رواية شئ من الأحداث . والمؤلف المعروف باسم إنجيل يعقوب يروي رواية مفصلة (أناجيل الطفولة) ويولي اهتماما خاصا بما جرى لمريم وبأحداث ميلاد يسوع . وتعترف الكتابات اللاهوتيّة بأنّ ما أدخله النساخ من التبديل على مرِّ القرون

تراكم بعضه على بعضه الآخر فكان النص الذي وصل آخر الأمر إلى عهد الطباعة مثقلاً بمختلف ألوان التبديل ، ظهرت في عدد كبير من القراءات . وتشير إلى ضرورة الإعتماد على علم نقد النصوص لتمحيص هذه الوثائق المختلفة لكي يثبت نصّ يكون أقرب ما يمكن من الأصل الأول ولا يُرجى في حال من الأحوال الوصول إلى الأصل نفسه .. وأول عمل في علم نقد النصوص هو النظر في جميع نسخ النص . فيجب بعبارة أخرى أن تحصى وترتب جميع الوثائق التي يرد فيها نص العهد الجديد كله أو بعضه ولا يقتصر الأمر على مراجعة الكتب المخطوطة باليونانية ، بل تراجع جميع الكتب التي تحتوي ترجمة العهد الجديد التي استعملها المسيحيون في القرون الأولى (وهي اللاتينية والسريانية والقبطية) فقد اعتمد الناقلون في بعض الترجمات أصولا يونانية أقدم من المجلد الفاتيكاني أو السينائي ، فهي تشهد على حالة للنصِ أقدم مما يمكن الوصول إليه بمراجعة أقدم الأصول اليونانية . فالترجمات القديمة على قدر ما يمكن استنباط أصلها اليوناني استنباطا دقيقا ، تساعد مساعدة مهمة على ضبط نص العهد الجديد . كما أن علماء نقد النصوص يحاولون الاستفادة مما في مؤلفات آباء الكنيسة من شواهد كثيرة جدا أخذت من العهد الجديد . والفائدة التي تجنى من هذه الشواهد هي على الخصوص تمكن العلماء في أحيان كثيرة من الرجوع إلى النص كما كان قبل أقدم الترجمات .. وهكذا يحصل العلماء على وسيلة للاطلاع على نص العهد الجديد ما أمكن ، كما كان يستعمل في وقت من الأوقات في هذا الجانب أو ذاك من الكنيسة . والمحذور أنَّ الآباء كانوا يستشهدون به في أغلب الأحيان عن ظهر قلبهم ومن غير أن يراعوا الدقة مراعاة كبيرة فلا يمكننا والحالة هذه الوثوق التام في ما ينقلون إلينا .

إنَّ " العهد الجديد اليوناني " الذي نشرته جمعيات الكتاب المقدس وحققه (ك . ألاند وم . بلاك وب . م . ميتزجر وا . ويكرين) بُذِلَ الجهد فيه لإدخال زيادة من التحسين على ذلك النص (بيئة العهد الجديد) وقد نشأت المسيحية في شعب عاش تاريخيًّا مضطرباً . وقد دخلت فلسطين منذ وفاة الاسكندر الكبير سنة ٣٢٣ في حكم الملوك الهلنستيين فاختلف موقفهم من اليهود اختلافا كبيرا .. وظل اسم انطيوخس الرابع ابيفانيوس (١٧٥ - ١٦٤) مقترنا بأقسى تلك المحاولات للقضاء بالقوة على ما لليهود من نمط عيش خاص بهم وحملهم على اعتناق المدنية اليونانية وكان نتيجة ذلك تحويل هيكل أورشليم إلى عبادة جوبيتر الأولمبي فكان نتيجة هذه الأحداث التي رويت في سفري المكابيين ، أن اليهود الأتقياء (حسيديم) اضطروا في جملتهم إما إلى المقاومة السلبية وإما إلى التمرد ، فأدت الثورة المسلحة ، وكان قادها الاخوة المكابيون ، إلى استعادة قدر من الاستقلال السياسي والديني استمر نحو قرن . ثمّ إن سلالة الحشمونيين التي ينسب اسمها إلى أحد أجداد يهوذا المكابي ، حكمت فلسطين إلى أن فرض عليها النظام الروماني ، فقد دخل بومبيوس لحسم الخلافات الداخلية التي كانت تفرق بين الحشمونيين فاستولى على أورشليم السنة ٦٣ قبل الميلاد وسادت سلالة هيرودس في أوائل الحقبة الرومانية لتاريخ فلسطين . ملك هيرودس الكبير (متى ٢ من السنة ٤٠ إلى السنة ٤ ق . م .) وقد أبغضه الشعب اليهودي بغضا لا هوادة فيه لأصله الأدومي ، فلم يكن من سلالة داود ، ولشراسته أيضا . ولما توفي اقتسم أولاده مملكته فكان نصيب هيرودس أنطيباس الجليل (لو ٣ / ١) والبيرية ، ملك من السنة (٤ ق . م . إلى السنة ٣٩ ب . م .) عرف بقتله ليوحنا المعمدان (مر ٦ / ١٧ - ٢٩) أما أرخلاوس (متى

٢ / ٢٢) كان نصيبه اليهودية ، والسامرة ، وفيلبس ، وكان نصيبه البلاد من شمال البيرية (لو ٣ / ١) لا تعرف الأناجيل سوى اسمهما . ولكن السلطة السياسية المسيطرة كانت في أيدي الرومانيين الحكام منهم أو الولاة . وقد ذكر العهد الجديد بضعة منهم : بنطيوس بيلاطس وهو خامسهم . تصرف في منصبه بعنف منذ السنة ٢٧ إلى السنة ٣٧ وفيلكس وكان قاسيا ، تولى منصبه منذ السنة ٥٢ إلى السنة ٦٠ وتسبب إلى حد بعيد في اندلاع الحرب الأهلية في البلاد التي كان يليها ولديه ، مثل بولس في قيصرية (رسل ٢٣ / ٢٣ - ٢٤ و ٢٦) وخلفه فسطس (رسل ٢٥ - ٢٦) وفي حضرته رفع بولس دعواه إلى قيصر (رسل ١٥ / ١١ - ١٢) انقطع عهد الحكام بعودة سلالة هيرودس إلى الحكم مدة قصيرة ، فملك أغريبا الأول حفيد هيرودس الكبير وقد عرف على ما جاء في العهد الجديد بأنه كان أول مضطهدي الكنيسة الناشئة (رسل ١٢ / ١ - ٢٣) ولم يشهد هذا الفصل من الزمن (٣٩ - ٤٤) تحسنا في أحوال فلسطين فقد تفاقمت الاضطرابات السياسية في عهد الحكام الآخرين وتحولت إلى ثورة حقيقية وآلَ قمع الرومانيين الشديد سنة ٧٠ إلى خراب أورشليم وهيكلها ، ولما خرب الهيكل تعذر على اليهود إقامة شعائرهم الدينية . فقد منيت اليهودية في نظامها السياسي والديني بكارثة أصابتها . ويبدو أن الجماعة المسيحية الصغيرة كانت قبل وقوع هذه الحوادث المشؤومة قد هربت من أورشليم ولجأت إلى بلاد في منطقة المدن العشر . ولم يكن تاريخ اليهودية بعد السنة ٧٠ سوى تاريخ ملايين من اليهود كانوا منذ عدة قرون قد تفرقوا في حوض البحر الأبيض المتوسط كله وفي بلاد الجزيرة بين النهرين وفي بلاد الفرس نفسها . وكانت أكبر الجماعات في هذا الشتات تقيم في الاسكندرية وأنطاكية ورومة . وكان

اليهود يحظون فيها بنظام للأحوال الشخصية يجيز لهم الحفاظ على إدارة دينية ومدنية مبنية على شريعة موسى .

وتّتفق الدراسات النقديّة على أنّ العهدين " القديم والجديد " كان تراثاً شعبيّاً ، لا سند له الا الذاكرة ، التي نقلته بشكلٍ شفويّ من جيلٍ إلى جيل ، وهذهِ الطريقة قد تعتبر غير دقيقة في نتائجِها ومحفوفة بأخطاءٍ واسعة في اللفظِ والمعنى وشبه ذلك قبل أن يكون أسفاراً .. بمعنى أنّ الذاكرة كانت العامل الوحيد الذي اعتُمِدَ عليه لنقل الافكار وتسميتها بالاسفار . ولا يخفى أنّ مجموعة من تلك الكتاباتِ لا تمتّ بصلةٍ إلى النصّ السماوي ، إنّما هي تراث كسبي بشري نضج عبر عملِ الأجيالِ فيما خصّ بمجموعة من عناوين ومواقع .. ويعدّد " أدموند جاكوب " المناسبات التي يحتوي عليها العهد القديم والتي منها أغاني الطعام ، وأغنية الاحتفال بنهاية الحصاد ، وأناشيد العمل ، مثل نشيد البئر المشهور (سفر العدد الاصحاح ٢١ ، ١٧) واناشيد الزواج مثل نشيد الانشاد وتراتيل الحداد وأناشيد الحرب ، وهي كثيرة في العهد القديم ، ومن بينها ترنيمة دبّورة (سفر القضاة . الاصحاح الخامس من ١ الى ٣٢) وفيها تترنم بنصر اسرائيل الذي أراده " يهوه " في نهاية حرب مقدسة قادها بنفسه .. ومنها الحِكَم والامثال ، وأقوال البركات ، واللعنات ، والقوانين الواردة في بابِ ما سنّهُ الانبياء للبشر بعد ان وكلهم الله لذلك .

ولا يشكّ النقّاد في " أزمة أصل للوثائق هذهِ " بسبب طريقة الحفظ والنقل مرّة وبسببِ أزمة بيئة خطرة كانت تلاحق الأتباع مرّة أخرى ، فضلاً عن النـــزاعات الخصاميّة التي فرضت تدخّل البشر في إعادة بناء النص من جديد

عبر مجموعة من إدخالاتٍ قاتلة .. ومن أمثلة العنوان الأوّل ما يلاحظُهُ أدموند جاكوب من أنَّ تناقل هذه الاقوال كان يتم إمّا عن طريق الأسرة وإمّا عن طريق المعابد ، وذلك بشكل روايات لتاريخ شعب الله المختار .. حتى أنَّ هذا التاريخ تحوّل بسرعة الى حكاية مثل يوثام (سفر القضاة ، الاصحاح التاسع من ٧ الى ٢١) : " ذهبت الاشجار لتمسح عليها ملكا فتتوجه أولا الى الزيتونة ثم الى شجرة التين ثم الى الكرمة ثم الى العوسج " .. هذا ما دعا أدموند جاكوب الى القول بأنَّ الوظيفة الأسطورية في الرواية لم تعبأ بما يتعلق بموضوعات وعصور كان تاريخها معروفا بشكل سيّئ .. فيخلص الى ما يلي : " يحتمل أنَّ ما يرويه العهد القديم عن موسى والآباء الأولين لا يتفق الا بشكل تقريـــبي مع المجرى التاريخي للاحداث ، ولكن الرواة كانوا يعرفون حتى في هذه المرحلة من النقل الشفهي كيف يضفون الاناقة والخيال حتى يربطوا بين أحداث شديدة التنوّع ، وقد نجحوا في تقديم هذه الاحداث المختلفة في شكل حكاية لما حدث في أصل العالم والانسان ، ويستطيع العقل النقدي أن يراها في نهاية الامر ، معقولة بشكل كافٍ .. " .

وهذا يزيد من هامش الخطورة التي تعتري نقل النصّ قياساً على أصلِهِ السماوي ، خاصّة أنَّ التعدّد في النقل والإختلاف والإضفاء والزيادة لم يكن له نحو مرجعي من مقياسٍ يرجع إليهِ في التصويب أو الإحتكام ، وهذا ما سنراهُ فيما بعد في زمن تقنين مجموعة من النصوصِ واعتبارها قانوناً .. وعلى كلِّ حال فالنتيجة الأوليّة الثابتة لتاريخِ تدوين مجموعة من النصوصِ المنقولة هي أنَّ الكتابة استخدمت لنقل التراث المحفوظِ والمنقول شفويًاً جيلاً عن جيل ، وذلك للحفاظ

عليه . وأنَّ ذلك حصل في أحسن تقدير بعد استقرار الشعب اليهودي بـ " أرض كنعان " أي في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد . من هنا فإنّنا نجد في القوانين شيئاً من الاختلاف ، ومن بين تلك القوانين هناك قانون تنسب كتابته الى يد الله نفسه أعني بذلك " الوصايا العشر " هذهِ الوصايا منقولة في " العهد القديم " في روايتين الاولى في سفر الخروج (الاصحاح العشرين من ١ الى ٢١) والثانية في سفر التثنية (الاصحاح الخامس من ١ الى ٣٠) .. روح الوصايا في النصين واحدة الا أنَّ الاختلافات النصية واضحة . وهذا يعني أنّ هناك سبب اختلافي في ترجمة المعاني وتسجيلها .. وبطبيعة الحال لا بدَّ أن يُترجم النصّ السماوي إلى حرفٍ مكتوبٍ ، لكنّنا هنا نناقش مشكلة الفترة الطويلة التي لم يتمّ فيها ترجمة النصّ إلى حرفٍ مكتوبٍ ، والإعتماد على نصٍّ شفويّ منقولٍ فيهِ نوع واضحٌ من الإختلافِ مرّة بشكلِ النقل اللفظي ومرّة بالإختلاف المعنوي ..

ثمّ انَّ الاهتمام كان منصبَّاً على تدوين الوثائق المهمة من عقود وخطابات وقوائم كبار القوم مثل القضاة وكبار الموظفين بالمدن والأنساب وقوائم القرابين والغنائم . بحيث تكوّنت الارشيفات التي استخدمت فيما بعد عند تحرير المؤلفات النهائية ، التي أدّت إلى الصورة النهائيّة للكتب الموجودة اليوم بين أيدينا .. ومن أجل إعداد كتاب له نوع من قداسةٍ سماويّة بدأ الشروع بجمع هذا المجموع المتنافر من المعاني ذات الإسناد من حيث الشكل والمنهج العضوي إلى النصّ السماوي ، والذي اعتمد أوّلاً على النقل الشفهي ، عبر أسلوب أدبي كان وقتئذ في بدايته . وعليهِ : تميّز النقل آنذاك بأنّه تمّ بواسطة الأدب البدائي . ولأنّ الغاية الضروريّة هي في كشف حقيقة الصلة بعالم السماء كان لا بدَّ من

الوقوف بشكلٍ جديٍّ أمام مجموعة متعددة من الأسئلة الملحّة لكشفِ واقع الحال في أكثر من صورةٍ ونسبةٍ وصلةٍ وإسناد في النصّ .. من هنا فإنّنا سنبدأ بتاريخيّة هذهِ الحقائق ..

أسفار العهد القديم :

تعتبر أسفار العهد القديم ركيزة الكتاب المقدّس .. من هنا كان لا بدَّ من معالجة مجموعة من خصائصِها لأنَّها تتّصل بحقيقة بُنى منقولة منسوبة إلى الله وبنحوٍ مقدّسٍ .. وبصورةٍ مختصرةٍ يمكن أن نضع أيدينا على مجموعة من خصائص تتّصل بأسفار العهدِ القديم هي على الشكل التالي :

١.يتكون العهد القديم من مجموعة أسفار لا تتساوى بالكم والنوع .

٢.كُتبت هذه الأسفار على مدى يزيد على تسعة قرون وبلغات متعددة مختلفة . وفي العديدِ من الأحيانِ متنافرة .

٣.اعتمدت كتابة الأسفارِ التي تكوّن العهد القديم على النقل الشفهي المتّصلِ بهذا التراث . وقد صُحّحت أكثريّة هذه الأسفار وأكملت بسبب أحداث استجدّت ، أو بسبب ضرورات خاصة ، وذلك في عصور متباعدة أحياناً .

٤.إنَّ ازدهار هذا الأدب وقع تاريخيّاً في بداية المملكة الاسرائيلية ، أي نحو القرن الحادي عشر قبل الميلاد .. ففي هذا العصر ظهرت في البلاط الملكي " هيئة الكتبة " التي تتكوّن من جماعات كان من ضمن

مهامهم الكتابة والتدوين . وإلى هذا التاريخ يمكن إرجاع المدونات الجزئية . وهي بعض الأناشيد ونبؤات يعقوب وموسى والوصايا العشر والنصوص التشريعية ... وكل هذه النصوص هي عبارة عن قطع متفرقة في مختلف مجموعات العهد القديم .

٥.في القرن العاشر قبل الميلاد تمّ تحرير النص المعروف بالرواية اليهوية ــ وقد سميت بذلك لأن اسم الله فيها يهوه ــ وقد شكلت هذه بُنية الأسفار الخمسة التي عرفت باسم " أسفار موسى الخمسة " وقد اضيف الى هذا النص بعد ذلك الرواية المعروفة بالألهيمية ــ وقد سمّيت بذلك لأن إسم الله فيها أليهم ــ والرواية المعروفة بالكهنوتية وقد صدرت عن كهنة معبد القدس .

٦.إنَّ النص اليهوي الاول يعالج الفترة من أصل العالم حتى موت يعقوب ، وهو صادر عن مملكة الجنوب .

٧.النص الالهيمي للتوراة يعالج فترة زمنية محددة بالنسبة الى النص اليهوي ، فهو يكتفي برواية الاحداث الخاصة بابراهيم ويعقوب ويوسف ، ويرجع الى نهاية القرن التاسع قبل الميلاد ، بل الى منتصف القرن الثامن أيضا ، حيث ذاع النفوذ النبوي مع اليا واليشع . وهذه هي فترة النص الالهيمي .

٨.أمّا القرن الثامن قبل الميلاد فهو عصر الانبياء عاموش وهوشع في اسرائيل واشعيا وميجا في مملكة الجنوب .

٩.وبالاستيلاء على سامرة تاريخ ٧٢١ قبل الميلاد انتهت مملكة اسرائيل ، واستقبلت مملكة الجنوب ميراثها الديني ، والى هذه الفترة يحتمل

انتماء مجموعة الامثال وقد اتسم هذا العصر باتحاد نصّي التوراة اليهوي والألهيمي في مجلد واحد ، وبهذا تشكّل ما عرف بالتوراة .

١٠.أمّا رسائل صفنيا وناحوم وحبقوق فيرجع تاريخها الى ما قبل النفي الاول الى بابل عام ٥٩٨ قبل الميلاد ، وقد كان حزقيل يمارس النبوة اثناء هذا النفي . ثم سقطت القدس عام ٥٨٧ قبل الميلاد ، وهذا يسبق بداية النفي الثاني الذي امتد حتى تاريخ ٥٣٨ قبل الميلاد .

١١.وبخصوص كتاب حزقيل ، وهو آخر نبي كبير ، ونبي المنفى ، فانه لم يدوّن في شكله الحالي الا بعد موته ، وقد دونه الكتبة وهم الذين اصبحوا ورثته الروحيين وقد قام هؤلاء الكتبة بتدوين رواية ثالثة اسمها الرواية الكهنوتية ، وهي الرواية التي اوردت الجزء الخاص بالخلق والذي يمتد حتى موت يعقوب . بحيث ادخل نص ثالث على النصين اليهوي والالهيمي في التوراة .

١٢.انتهى النفي الى بابل بأمر من سيروس عام ٥٣٨ قبل الميلاد ، فعاد اليهود الى فلسطين وأعيد بناء معبد القدس ، وبذلك عاد النشاط النبوي ، فكانت كتب حجارى وزكريا واشعيا الثالث وملاخى ودانيال وباروك .

١٣.إنّ الفترة التي تلت النفي تعتبر فترة كتب الحكمة ، فقد حررت الامثال عام ٤٨٠ قبل الميلاد ، وحُرر سفر أيوب في القرن الخامس قبل الميلاد . كما يرجع تاريخ سفر الجامعة الى القرن الثالث قبل الميلاد ويعتبر هذا العصر ايضا عصر النشيد وكتابي اخبار الايام وكتب عزرا ونحميا .

١٤.اما كتاب " بن سراخ " فقد ظهر في القرن الثاني قبل الميلاد ، واما سفر الحكمة لسليمان ، وسفرا المكابيين ، فقد كتبوا قبل المسيح بقرن .. ثمّ انّ هذه الكتب طالها التعديل اللاحق .

وعليهِ لم تتّخذ كتُبُ العهد القديم هيئتها الاولى إلا قبل قرون من ميلاد المسيح ، ولم تكتسب شكلها النهائي إلا في القرن الاول بعد المسيح .

هذا يعني أنّ تلك الوثائق المكتوبة فيما بعد خضعت لمجموعةٍ واسعةٍ في النقلِ الشفوي ، بما يتصل بهِ من هامش تغيير ومخاطرة في شقّي الحرفِ والمعنى ، وقد أثبت واقعُ الحالِ طروء مجموعة من تغيّراتٍ واضحة في أصل النصّ ، فكان لا بدَّ من حفظ ما بقي عبر ترجمة المحفوظِ في وثائق مكتوبة ..من هنا فإنَّ العهد القديم منذ أصوله وحتى العصر المسيحي بدا بشكلٍ شفويّ تناقلته الشفاه (نقل شفوي) إلى أن اكتسب صورته على شكل كتابة خضعت الى تعديلات كثيرة وفق اساليب أدبية متنوعة ، يسهل جدّاً على متتبعها كشفها ، وذلك من شكلٍ أدبي بدائيٍّ ، إلى مستويات الأدب الثري . ويدعّم هذه المعلومات الكثير من المقالات الهامة أمثال مقالة التوراة بدائرة معارف اونيفرساليس وغيرها ... وإنَّ هذا ما تسكت عنه مقدمة التوراة و لم يفصح عنها أصحابها إلا في النقاشات التي ظلت حكراً على الخواص .. وهذا بطبيعة الحال يؤثّر في هامش نسبة الوثوقِ فيما خصّ البُنى الأولى ، في إعداد وكتابة وترجمة النصّ الشفهي للنصّ الإلهي الذي نزل على النبي موسى عليهِ السلام .. ونحن في هذا المقام ، نؤكّد أنّ الله

بعث موسى رسولاً للعالمين كما بعث الرسول عيسى والرسول محمّد عليهم السلام .. إلا أنّ التحقيق هنا في كيفيّة ترجمة النصّ إلى واقعٍ محفوظٍ .. متى ؟ وكيف ؟ وعلى يدِ مَن ؟ وفي أيّ زمن .. ؟ وهذهِ وظيفة ضروريّة لكلّ متحرّ عن الحقيقة ، لأنّ النصّ في طول المسافة الزمنيّة الشفويّة طرأ عليهِ مجموعة من تغيراتٍ أساسيّة كانت في بعضِ العناوين حادّة وقاسية جدًّا ..

فماذا عن التوراة أو أسفارِ موسى بصورةٍ مختصرة .. ؟

الجواب :

التوراة كلمة كانت تطلق على المؤلف من خمسة اجزاء وهي :

١. سفر التكوين .

٢. سفر اللاويين .

٣. سفر التثنية وهي الأسفار التي كوّنت العناصر الخمسة الاولى .

تتناول هذه المجموعة " أصل الكون " حتى دخول الشعب اليهودي ارض كنعان ، وبالتحديد حتى موت النبي موسى عليهِ السلام . وقد ظلت المسيحية واليهودية ولقرون طويلة تعتقد أنّ النبي موسى نفسه هو كاتب التوراة ، وربما اعتمدوا على ما نُقِل ونسب إلى ما قاله الرب لموسى : " اكتب هذا تذكاراً في الكتاب " (الخروج الاصحاح ١٧ الآية ١٤) المقصود بهذا هزيمة العماليق ، وورد في ــ الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر العدد ــ : " وكتب موسى مخارجهم برحلاتهم حسب قول الرب " ... أيضاً ورد في الآية التاسعة من الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر التثنية : " وكتب موسى هذه التوراة " ..

ومنذ بداية القرن الأوّل قبل الميلاد كان الرأي مستقرّاً على أنّ النبي موسى (ع) هو الذي كتب الأسفار الخمسة كلها . إلا أنّ هذا الرأي هُجِرَ تماماً فيما بعد خاصّةً في هذا العصر لعدمِ صحّتِهِ وبشكلٍ نهائيّ .. من هنا تمّ الإختلاف في أكثر من ناحيةٍ وعنوانٍ فيما هو مقبول من التوراةِ ، وفيما هو غير مقبول .. وقد أدّى ذلك إلى الإشتباك الفكري في أكثر من مرّة بين كبار أربابِ القبولِ والرفض ، كما أدّى إلى نشوء مذاهب توثيق ورفض في أكثر من نصٍّ وفي فتراتٍ متفرّقةٍ من الزمن .. وبصورةٍ تقريبيّة يذكر " الأب ديفو " أنّ التراث اليهودي الذي امتثل له المسيح والرسل كان مقبولاً حتى نهاية القرون الوسطى . وكان الرافض الوحيد لهذه الدعوى " أيبن اسرا " في القرن الثاني عشر . وفي القرن السادس عشر أشار " كارلتشار " إلى استحالة أن يكون موسى قد كتب بنفسه كيف مات ..! (سفر التثنية الاصحاح ٣٤ الآيات من ٥ الى ١٢) ..

هل من المعقولِ أن يكتب موسى عن نفسهِ كيف مات ..! الخطير أنّ هذا يعني أنّ هناك من يتعمّد كتابة النصّ وإسناده إلى موسى كطريقةٍ إقناع لمن يقرأ للأخذِ والقبول والقداسة ..! الخطورة البالغة تكمن فيما يترتّب على ذلك من شكّ وإرباك وانهيار لمجموعة من عناوين الثقّة في المكتوبِ والمنسوبِ إلى النبي موسى .. وهذا أمر يلازم أيّ منشأ عقلاني يكتشف حقيقة بطلان مجموعة من نصوصٍ مسنودةٍ إلى النبي موسى لم يكتبها في الأصل .. بل يسري على مجموعةٍ من نصوصٍ مشكوكٍ في نسبتِها إليهِ عليهِ السلام وذلك بعد الكشف عن بطلانٍ جزئيّ وتعمّدٍ واضحٍ في تزوير الحقائق في بعض النصوصِ المسنودة إلى النبي موسى (ع) .. بمعنى أنّ ضرورة الإعتقاد تحتاجُ إلى تثبّتٍ فعلي ، وهذا الأمر

يتوقف على صحّة نسبة الأسفارِ إلى النبيّ موسى ، بشكلٍ يتّفق والحقيقة .. لقد ذكر الأب ديفو عدّة نقّادٍ يرفضون أبوة موسى على الأقل لجزء من الأسفار ، ومن هؤلاءِ على وجه الخصوص دراسة ريشار سيمون (التاريخ النقدي للعهد القديم) التي يؤكد فيها سيمون الصعوبات الخاصة بتسلسل الاحداث والتكرارات وفوضى الروايات وفوارق الاسلوب في أسفار موسى الخمسة . وهذهِ الأمور كما تراها دقيقة ، وهي في منتهى الإشارة إلى الخلل العنيف الذي أصاب أبوّة موسى الكاملة للأسفارِ .. وقد أثارَ هذا الكتابُ ضجّةً واسعة وناله اعتراض شديد بسببِ مواضيعهِ المثيرة .. وأدّى الى رفض هذه الحجة ، وهي من مراجع العصور القديمة في كتب التاريخ في بداية القرن الثامن عشر .

الأهميّة تكمن في أنّ مجموعة من النقّاد والمدقّقين نظروا بشكل جديٍّ فيما خصَّ النسبةِ الفعليّة إلى موسى .. كانوا يتساءلون : من كتب التوراة ..؟ من دوّنها ..؟ وفي ذلك كانوا يرجعون مرّة إلى التاريخ والأحداث ، ومرّةً إلى المتن .. وفي كلا الشقّين ما يثير الشكوك الجديّة ، ويدحض فكرة أبوّة موسى الكاملة لما في التوراة .. حتى أنّ " جان استروك " طبيب لويس الخامس عشر نشر دراسة تاريخ ١٧٥٣ بعنوان (قرائن عن المذكرات الاصلية التي يبدو أنّ موسى قد استخدمها لتحرير سفر التكوين) .. في هذهِ الدراسة أكّدَ على تعدد المصادر .. فأشار الى وجود " نصّين " جنباً إلى جنب في سفر التكوين ، يحتوي كل منهما على خاصية مختلفة في تسمية الرب ، فيسميه في أحدهما بيهوه . ويسميه في الثاني بألوهيم .. بعد ذلك قام إيخوهورن (١٧٨٠ ـــ ١٧٨٣) بنفس الاكتشاف بالنسبة للكتب الاربعة الاخرى . ثم جاء إيلجن ١٧٩٨

ولاحظ أنّ أحد النصّين اللذين ميّزهما استروك وهو النص الذي يسمى فيه الرب بألوهيم ينقسم هو أيضا إلى قسمين ، مما أدّى الى تفتّت كتاب أسفار موسى الخمسة .. وهذا بطبيعة الحال يؤثّر على طبيعة القبول العلمي لمجموعة الأسفارِ من جهة ، ويدخل الشكّ في أكثر من متنٍ ، ويعيد السؤال مجدّداً حول من كتب التوراة .. ؟ من دوّنها ؟ وإذا أدخلنا الزمن كعنصر أساسي في ذلك تبدأ مرحلة حقيقيّة من ضرورة الشكّ العلمي ، التي لا يصمد أمامها أكثر من نصٍّ ومتنٍ وباب .. ومنذ تلك اللحظات المهمّة بدأ النقد العلمي يشكّل مادّةً حيويّة في الإعتقاد ، على الأقلّ بالنسبةِ إلى مجموعة من نقّاد وعلماء أصرّوا على ضرورة محاكمة النصّ في خانةِ التثبُّتِ قبولاً ورفضاً .. وعليهِ : في القرن التاسع عشر كرّس مجموعة من الباحثين جهدهم النقدي لبيان مصادر التوراة .. ففي ١٨٥٤ كان هناك أربعة مصادر مقبولة هي التالية :

١.الوثيقة اليهوية .

٢.الوثيقة الالوهيمية .

٣.سفر التثنية .

٤.النص الكهنوتي .

وقد استطاع البحاثة أن يعطوا هذه المصادر أعماراً تاريخية تقريبيّة هي على الشكل التالي :

١. تقع الوثيقة اليهوية في القرن التاسع قبل الميلاد ، وقد حررت في مملكة الجنوب .

٢. الوثيقة الالوهيمية هي أقرب تاريخيّاً بقليل ، وقد حررت في اسرائيل .

٣. سفر التثنية ينتمي الى القرن الثامن قبل الميلاد او الى السابع قبل الميلاد حسب الاختلاف بين البحاثة .

٤. النص الكهنوتي ينتمي الى عصر النفي او ما بعد النفي ، أي القرن السادس قبل الميلاد .

وبذلك يظهر أنّ تحرير نص أسفار موسى الخمسة امتد على طول ثلاثة قرون على أقل تقدير ، وهذا يعني أنّ هناك تفاوتاً في التدوين ، خاصّةً إذا علمنا أنّ التفاوت في النصوصِ مأخوذ فيهِ أكثر من نحوٍ ويدلّ على تعدديّة واضحة في تسجيل الأحداث ، بل تفاوت واضح في " المدوِّنِ والمدوَّنِ " وصل إلى حدَّ أنّه تمّ تدوين وفاة موسى في ظلّ أسفارٍ تقول أنّ موسى هو من دوَّنها .. وهذا الأمر كما يبدو خطير جدًّا ، لأنّه يتجاوز الحقيقة في أكثر من عنوان ، يضافُ إلى ذلك انّ الحقبات متعدّدة ، والنصّ كان محفوظاً ، كان تراثاً شفويّاً تتناقلهُ الأجيال .. وفي مجال التفتيش عن واقع الحال في عام ١٩٤١ استطاع لورز أن يميّز في الوثيقة اليهوية ثلاثة مصادر ، وفي الوثيقة الالهيمية أربعة ، وفي سفر التثنية ستة وفي النص الكهنوتي تسعة ، من دون احتساب الاضافات الموزعة بين ثمانية محررين . وقد بيّنَ كثيرٌ من النقّادِ والبحّاثة مجموعة من ظواهر غير إيجابيّة وقعت تحت مجهرِ النقد ، منها ما أشار إليهِ الأب ديفو من ظاهرة المنافرات والتكرارات في النصوص ، مثل الاقوال الخاصة بالخلق وأنسال قابيل والطوفان واختطاف يوسف وما جرى له بمصر ، والاختلافات الخاصة بأسماء شخص واحد ، والتصويرات المختلفة للاحداث الهامة .. بحيث يقف الناقد على مجموعة من أمورٍ مثيرة ، تدلّ على نوعٍ ظاهرٍ من الإضطراب في النص بل والصياغة الأدبيّة

فضلاً عن التناقضات المتعدّدة التي تروي حدثاً واحداً .. حتى أنّك تجد محررين وضعوا ما جمعوه جنباً الى جنبٍ ومع ذلك فإنّهم يغيّرون شكل هذه الروايات ، بهدف ايجاد وحدة مركبة ونصّ توفيقي ، ممّا ترك تحت أعيننا مجموعة من ظواهر قاصرة تدعو الى الشك والإشكال في كثير من المواضع ، كان من نتائجها ضرورة الدخول على يدِ أكثر من واحدٍ في تدقيقٍ من نوعٍ إستثنائي للتحقّق من نسبة هذهِ الأسفار أو بعضِها إلى النبيّ موسى (ع) .. وكلّ من يدخل هذا المجال يجد بوضوح حجم التعديلات التي وردت على نفس النص ، وذلك في فترات مختلفة من تاريخ الشعب اليهودي ، ما يعني أنّ النصّ عانى من مجموعةِ تغيّراتٍ طالت اللفظ والمعنى ، بل طالت أصل الرواية ، وغيّرت من معانيها ، والأخطر أن تعلم أنّ المدوِّنَ ليس هو النبي موسى لمجموعةٍ واسعةٍ ممّا هو يُنسبُ إليهِ .. ولقد حمل هذا الثقل من البحث الموضوعي أكثر من ناقدٍ وبحّاث وقد اختلفت المواضيع التي رسى عليها النقاشُ من شكلٍ أدبي إلى الصياغة إلى الأزمان إلى التدوين إلى محاكمة المتن وشبه ذلك .. وسنتوقّف فيما بعد عند مجموعة من ظروف الكتابة وبيئة الإعتبار والقبول لمجموعة من النصوصِ التي شكّك فيها فيما بعد أكثر من واحدٍ شهير ومدقّق في هذا الفن ..

وتحت عنوان أنّ الأسفار أو التوراة هي كتابُ النبي موسى ، ما يعني أنّ لها صلةً مع اللهِ المأخوذ فيهِ أنّه لا يصحّ في حقهِ الخطأ .. كان من الضروري جدّاً أن لا نجد في متنهِ أيّ تناقضٍ أو خلافٍ ، فضلاً عن الخطأ في بيانِ الحقائق كما في وصفِ حقائقِ الكون .. فكان أن توقّف أكثر من واحدٍ أمام أزمة نصّ الأسفار في أكثر من متنٍ لا يتّفق ومعطيات العلمِ الحديث النهائيّة .. لتضاف

هذهِ إلى غيرها من مجموعِ الإضطراب في الصياغةِ ونقل الأحداثِ والحقائق كما وردت عن لسان موسى وشبه ذلك .. من تلك الأمثلة ما ورد في سفر التكوين (الاصحاح ٦ الآية ٣) من أنَّ الله قرّر قبل الطوفان أن يحدد عمر الانسان بمائة وعشرين سنة ، تقول التوراة : " ... وتكون أيامه مائة وعشرين سنة " .. وفي المقابل جاء في سفر التكوين (الاصحاح ١١ الآيات من ١٠ الى ٣٢) ان حياة انسال نوح العشرة قد دامت من ١٤٨ الى ٦٠٠ سنة ... وهذا لون ظاهر جدّاً من التناقضِ بين هذين النصين .. والأمثلة في تناقض الرواياتِ بهذا المجالِ واضطرابِها متعدّدة ، وهذا في أولى معالمِهِ يدلّ على أنَّ يد الإنسانِ تدخّلت في إعادة تسجيل العناوين والأحداث ، لأنّها اليدُ الوحيدة الممكن في حقّها الخطأ والقصور والتزوير والتحريف وشبه ذلك .. من هنا كان لا بدَّ من تكرارِ السؤال الأهمّ : من هو أو هم الذين دوّنوا التوراة .. ؟ واحد أم أكثر .. ؟ في زمنٍ واحدٍ أم في أكثر .. ؟ عن وثيقةٍ أو عن تراثٍ شفويٍّ .. ؟ ماذا عن ظروف التدوين .. ؟ ماذا عن بيئة التقنيين .. ؟ ماذا عن رفض تراث آخر .. ؟ ماذا عن إنتصار مدرسة على أخرى .. ؟

وهكذا لو قرأنا في الشقّ التكويني ووصفهِ لوجدنا أكثر من ضرورةٍ تدعونا إلى إعادة التأمّل بشكلٍ دقيقٍ فيما هو بين أيدينا .. ففي سفر التكوين توجد مجموعة لا يمكن للعلمِ أن يسلّم بها مطلقاً بعد أن تمّ إثبات القضايا العلميّة بشكلٍ نهائيّ ، وهي مواضيع متعدّدة منها ما يتعلّق بـــ :

١. خلق العالم ومراحله .

٢. تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الانسان على الارض .

٣.   رواية الطوفان .

ففي خصوص خلق العالم كما ورد في سفر التكوين يبدأ بروايتين عن الخلق كلّ منهما موضوعة الى جانب الاخرى . تقول الروايةُ الأولى (الاصحاح الاول الآيتان ١و٢) [في البدء خلق الله السماء والارض ، وكانت الأرض خربةً وخالية ، والظلمات تغطي اللجة ، وروح الله يرف على المياه] .. وهذا يتعارض مع العلمِ الذي لا يقرّ بوجود الماء في تلك المرحلة .. نعم معطيات العلم فيها ما يسمح بالاعتقاد بوجود كتلة غازية في المرحلة الاولى لتكوّن الكون .. وفي الآيات من ٣ الى ٥ جاء : [ليكن نور . فكان نور . ورأى الله أنّ النور حسن وفصل بين النور والظلمات . ودعا الله النور نهارا والظلمات ليلاً . وكان مساءً وصباحاً .. اليوم الاول من الخلق]

تكمن المشكلة في أنّ النجوم حسب نصّ التوراة لم تكن قد تشكلت بعد في هذه المرحلة حيثُ أنوار السموات لا تذكر في سفر التكوين إلا في الآية ١٤ باعتبارها مما خلق الله في اليوم الرابع : [.. ليفصل بين النهار والليل .. ولينير الارض] ومن المعلوم أنّ النور والليل والنهار انما هو نتاج عملية تحدث في النجوم ، كما أنّ الليل والنهار لا يمكن أن يكونا إلا بعد وجود الارض ودورانها تحت ضوء نجمها الخاص بها (الشمس) الى غير ذلك من المشكلات التي تطال النص في هذه الآيات المتعددة .. أمام هذا الواقع توقّف أكثر من شارح بدقّة ، لأنّ الموضوع يتّصل بحقائق غير تامّة ، خاصّةً إذا أخذنا بعين الإعتبار الحقائق الكونيّة التي وردت في القرآن الكريم والتي تتوافق مع معطيات العلم بشكلٍ مذهلٍ ومدهشٍ ، بخلافِ ما عليهِ التوراة من هذهِ الجهة .. ما يدلّ على أنّ هناك

في التوراة شيئاً ما ، منع من تسجيل واقع الأحداث كما هي ، ذات الصلة برسالةِ النبي موسى ، وهذا ما سنتوقّف عندهُ فيما بعد .. وعلى كلّ حال ، لا بدَّ من التوقّف بشيءٍ من التأملِ أمام مجموعة من العناوين لضرورتِها في مجالِ البحث ، لأنّ صوابيّة الفكرة تسمح بالدخولِ إلى أفقِ المتنِ بشكلٍ أفضل ، وعدم صوابيّة الفكرة تطرح مجدّداً فكرة تدوين الإنسان وليس النبيّ أو الله تعالى .. وبخصوص الطوفان تشيرُ الاصحاحات (٦ ، ٧ ، ٨) من سفر التكوين إلى رواية الطوفان ، وقد جاء فيها (لما عمّ فساد البشر ، قرر الله تدميرهم مع كل المخلوقات الحية الاخرى ، فحذر نوحاً ، وأمره ببناء السفينة التي سيدخل بها زوجته وأولاده الثلاثة بزوجاتهم الثلاث وكائنات حية اخرى) وفي هذا المجال تختلف الروايتان بالنسبة الى الكائنات الحيّة ، فمقطع من الرواية الكهنوتية يشير الى أنَّ نوحاً قد أخذ زوجاً من كل نوع أمّا الرواية الثانية من الرواية اليهوية تشير إلى أنَّ الله أمر بأخذ سبعة من كل نوع ذكر وأنثى من الحيوانات المسماة بالطاهرة وزوجاً واحداً من الحيوانات المسماة بغير الطاهرة ويؤكد المتخصصون مثل الأب ديفو أنَّ المعنى هنا مقطوع بشكلٍ معدّلٍ من الرواية اليهوية . كما أنَّ الاصل اليهوي يشير الى ان عامل الطوفان هو ماء المطر أمّا في الاصل الكهنوتي يشير الى ان سبب الطوفان هو ينابيع الارض وماء المطر . واعتماداً على النص التوراتي فان مدة الطوفان مختلفة . تقول الرواية اليهوية : اربعون يوماً فيضاناً ، وتقول الرواية الكهنوتية : مائة وخمسون يوما . كما أنَّ الرواية اليهوية لا تحدد تاريخ وقوع هذا الحدث المهم من عمر نوح ، الا ان الرواية الكهنوتية تحدده بعمر نوح حيث كان ٦٠٠ سنة .

وما يهمّني هنا هو أنّه يوجد خلل واضح ، مرّة في المعطيات التطابقية مع حقائق الأشياء ، ومرّة في نفس المتن الموجود في الأسفار ، وهذا لا يمكن أن ينسب إلى الله ، أو إلى النبيّ موسى ، لأنَّ النقص والخطأ والإضطراب هو صفة الناقصِ ولا يمكن بحالٍ أن يكوْن من اللهِ أو من رسولِهِ .. وما يزيد هذا الأمر أهميّة هو أنّه قد ثبت أنَّ هذا التراث المكتوب كان شفهيّاً ، وأنّ أعمار تدوينهِ متعدّدة من ناحية الزمن ، وأنَّ هويّة التدوين بقيودِها وبيئتِها وأشخاصِها غير مقررة بشكلٍ نهائيٍّ ، وأن مجموعة من النصوص أُدخل عليها مجموعة من تعديلاتٍ بشريّة .. كلّ هذا أثار حفيظة النقّاد ، لأنَّ الأمر يتّصل بأدواتٍ بشريّة أرادت أن تسجل الأحداث فأصابت في بابٍ وأخطأت في آخر .. وكان لا بدَّ من ضرورة إعادة فتح الباب أمام مجموعة من أسئلة ضروريّة للإجابةِ عنها في مقامِ النسبةِ إلى الله والنبي موسى (ع) .. ولا يجوز بحال أن ننسب كلّ هذا الإضطراب والتناقض في المتن إلى الله ، ولأنَّ الإحتمال محصور بين إثنين بين الله والإنسان ، كان لا بدَّ من الإعتراف بأنّ يد الإنسانِ أدخلت على التوراةِ شيئاً حرّف من معانيها ، بل ضرب في بعضِ الأحوال طبيعة المعنى الضروري في أصل الرواية ..

إلى العديد من المتون التي توقّف عندها الشرّاح ، والتي حاول البعضُ التغلّب عليها ولو من بابِ الإفتراضِ ، إلا أنّه عاد وأقر بوجود ازمة نصّ مضطرب ، أو إدخالات موجودة ، أو معنى ناقص ، أو تشويه متّصل بالتدوين ، وغير ذلك .. ولا بدَّ من الإشارةِ إلى أنَّ مثل هذهِ الأخطاء أقر بها غيرُ المسلمين ، بل هناك مجموعة من مبرّزي المسيحيّة قالوا فيها ، لوضوحِها وضرورةِ الإعترافِ

بها أمام الدليل والحجّة .. ولقد تعامل المسيحيّون على نحوين : منهم من أقرّ بوجود بعض الأخطاء وردّها الى الخطأ البشري الذي دوَّن النص ، ومنهم من رفض أصل الفكرة واعتبر النقاش فيها نوعاً من الزندقة والاعتداء على قدسية الربّ والكتاب . تقول الحكمة الضروريّة : لا بدّ من تقديس ما يبيّنه الله ، لكن حتى يُقدّس لا بدَّ أن يثبت أنّه من الله ، وعليه : نحن هنا في مقام التثبّتِ من ذلك لنقدسه .. ولقد اتّفق المسلمون كلمةً واحدةً على أنّ الله كما بعثَ رسولهُ محمداً كان قد بعث للعالمين النبي موسى وعيسى وغيرهم من النبيين والسفراء إلى أهلِ الأرض ..

كل العقلاء يقرّون بأنّه لا يجوز أن ينسب شيئ إلى اللهِ لم يقلهُ ، ولا يجوز أن يُعبد اللهُ على أساسهِ .. من هنا كان الضرورة قائمة في كلّ أمّة وملّة وتجربةٍ وزمن على ضرورة التثبُّتِ من كلّ من يدّعي السفارة عن الله .. ولأنّ نبوّة موسى ثبتت ، كان لا بدَّ من التثبّتِ ممّا ينسبُ إليهِ ، خاصّة بعد قرونٍ من التراث الشفوي ، وبعد الإطّلاع على مجموعة من تناقضاتٍ واختلافاتٍ واضطراباتٍ أصابت النص والتدوين .. نحن نتّفق مع كلّ عاقلٍ وعالمٍ على أنّ ما ثبت عن اللهِ أو النبيّ هو مقدّس لا يجوز ردّهُ أو المناقشة فيه .. لكنّنا نختلف عن بعضِهم في أنّ ما ينسب إلى اللهِ أو النبيّ لا بدَّ من إقامة الدليلِ عليهِ ، خاصّة إذا بدا من النصّ القصور والعجز والإضطرابِ والتناقضِ والتكاذب والإسقاط .. لأنّه لا تجوز دعوى بلا دليل ، ولا يصحّ أن ننسب إلى اللهِ ما لم يقل ، خاصّة تلك المتون المضطربة والمختلفة بين بعضِها البعض .. وتجدرُ الإشارةُ إلى أنّه منذ عصر آباء الكنيسة الأول كان من الممنوع النقاش في مثلِ هذهِ الأمور ، لضرورة

التسليم بأنّ كلّ ما اتّفق على قانونيّتهِ هو كذلك .. وعليهِ : ما يظهر للعيان من خلاف أو اضطراب في النصّ هو ليس كذلك ، إنّما العقول قاصرة عن فهمهِ وفقط .. وكان من نتيجة هذا الفهم وهذهِ الفكرة أن قامت الكنيسة بمجموعةٍ واسعةٍ من تصفية علماء مبرّزين في الحقل الطبيعي والكوني خالفوا في نتائجِ أبحاثِهِم ما دُوِّن في متنِ الكتاب المقدس أو ما هو عالق في ذهنِ آباءِ الكنيسة .. هذا فضلاً عن إحراق الكتبِ ومنع الأبحاثِ والسجن لكلّ عالمٍ يتعرّض لمجموعةٍ من أفكارٍ تتناقض والفكر الكنسي وقناعاتهِ أو لما هو مفهوم من النصّ .. ومع كلّ ذلك وُجِد في ذلك العصر قلّة تعرّضت لنقد النصّ أمثال القديس اوغسطين ففي خطابه رقم ٨٢ تحدّث عن واحدة منها فقال :

(إنَّ مؤلفات الكتب المقدسة هذه التي تعرف بالقانونية هي فقط التي تعلمت أن أعطيها انتباهاً واحتراماً كاعتقادي الحازم بأنه ليس هناك أحد من كتابها قد أخطأ ، فعندما ألتقي في هذه الكتب بدعوى تبدو مناقضة للحقيقة ، فانني عندئذ لا أشكّ في أنَّ نصّ نسختي يحتوي على خطأ أو أنَّ المترجم لم يترجم النصّ بشكل صحيح ، أو أنَّ مقدرتي على الفهم تتسم بالضعف ..) ..

وبذلك يسجل القديس أوغسطين الأمور التالية :

١. لا يمكن على الإطلاق أن يخطأ الله .
٢. كل خطأ لا بدَّ أن يُنسب إلى البشر .

٣.تبرير الخطأ من بابٍ علميّ قد يكون من جهةِ قصور في الناسخ أو قصور في الفهم أو قصور في النسخةِ التي هي بين يديه ..

٤.الأهمّ أنّ القدّيس أوغسطين يعترف بوجود ازمة ما ، تبدو له من ظاهر النصّ .. فكان لا بدَّ من التعامل معها من بابِ الإحتمالات التي طرحها ..

وهذا عين ما أشرتُ إليهِ أعلاهُ من أنّ الله لا يمكن في حقّه الخطأ ولا النبيّ مطلقاً ، إنّما الخطأ يكون في البشرِ ، من هنا قلت إنَّ الأزمة تكمنُ في مَن دوّن .. في التراث الشفهي ، في البشر الذين كتبوا دون أيّ قيودٍ ضامنةٍ بشكلٍ نهائيّ .. وأضيف إلى أوغسطين أنَّ ما يثبت فيه التناقض لا يجوز التعامل معهُ من بابِ التغاضي ، بل لا بدَّ فيهِ من التثبّتِ لبيانِ ما يمكن أن يكون من اللهِ ، لانّه لا يجوز بحالٍ أن ننسب إلى اللهِ ما أدخلهُ البشر القاصرون .. بحيث كان القديس أوغسطين يعتقد أنَّ النص المقدّس (نصُ الله تعالى) لا يمكن أن يحتوي على الخطأ (العصمة في النصّ من الخطأ) بخلافِ نصِّ الناس ، من هنا أشار إلى صفات النقصِ في البشرِ ، عبر خطأ الناسخ أو مشكلة في النسخة التي بين يديهِ أو في فهمهِ القاصر ، لذا حين كان يجد فقرة متناقضة كان يفتش عن علة تنسب الخطأ الى سببٍ بشريّ ، اما الله فهو فوق الخطأ .. مع الإشارة إلى أنَّ كثيراً من أصحاب دعوى عصمة النص كانوا يدعون الباحثين الى عدم النظر في التاريخ وأزمانهِ وبيئتهِ وظروفهِ ، وكسر قواعد التاريخ ، وترك أنظمة الفنّ الادبي ، وتحويل فكرة التناقض الى سكوت ، وعدم اتعاب الفكر بالتفكر ، ذلك لأنَّ الرب لا يخطأ ، إلا أنَّ المشكلة تكمن في خطأ الانسان ، الذي دوّن هذه الاسفار

وليس الله أو موسى (ع) كما يظن الكثير من اليهود والمسيحيين . من هنا لفت أوغسطين إلى ضرورة التعامل مع الخطأ والتكاذب من منظارٍ بشريّ .. لانه وقع على تناقضٍ بين فقرتين لا يرتفع الا بفرض الخطأ ، وحين يكون الاحتمال بالخطأ محصوراً بين الله والانسان نجد اليقين العلمي يستبعد خطأ الله لانه فوق الخطأ ، اما الانسان فلا شك انه يخطأ ، فكيف هي الحال في اسفار نقلت عن مشافهة الناس على طولِ قرون ، وتعددت فيها التعديلات والتركيبات مما ادى الى ظهور العديد من التناقضات والإضطرابات وغيرها .. ولقد اجتهد علماء اللاهوت المعاصرون في مراجعة المفاهيم القديمة للحقيقة ، ومنعوا في الغالب من اللجوء الى دراسة عناوين حرجة ، مثل ما هي حقيقة التوراة ..؟ مَن دوّنها ..؟ هل كلّ ما فيها كُتِبَ في فترةٍ زمنيّةٍ واحدة ..؟ هل اطّلع عليها موسى (ع) .. ؟ أمّ أنّها دوّنت بعده ومرّت بظروفٍ متعدّدةٍ ؟

ومع أنّ ضرورة تقديس التوراةِ تستدعي التثبّت مما فيها وتحقيق نسبتِها إلى اللهِ ونبيّهِ موسى ، إلا أن الخطاب اللاهوتي في أكثر من مقامٍ وناحيةٍ وفترةٍ حرجةٍ كان يأتي على عكسِ ذلك .. لذلك فإنّ المجمع المسكوني للفتيكان الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥) كان قد حذّرَ من اعطاء أي قواعد للتمييز بين الخطأ والحقيقة في التوراة ، بحيث لم يلزم أقل من خمس صيغ حتى يتفق الجميع على النص النهائي ، وذلك بعد ثلاث سنوات من المناقشات ، وحتى ينتهي هذا الوضع الأليم ، الذي هدّد بتوريط المجمّع على حدّ تعبير الاسقف " فيبر " في مقدمته المسكونية الرابعة عن التنـــزيل .. وبوقفةٍ بسيطة فإنّ القديس أوغسطين أدرك منذ أمد بعيد أزمة النص الذي تحتويه التوراة وذلك قبل بروز أيّ معطيات

علميّة تتّصل بحقائق الكون وما في سفر التكوين .. فأصرّ على أنّ الرب لا يخطأ على الإطلاق ، وكانت هذهِ أولى القواعد التي تتّفق عليها البشريّةُ منذ يومِ آدم إلى يومنا هذا في كلّ كتابٍ سماويّ .. لأنَ الله فوق الخطأ ولا يمكن ذلك في حقّهِ .. ولأنّ كلّ كتابٍ يوجد فيه خطأ لا بدَّ أن يكون مردوداً إلى ذهنِ البشرِ وقصورِهم وشبه ذلك .. من هنا فإنّ النقد ضروري شرط ان يكون بشكلٍ علميٍّ ووفق المنطق الموضوعي ..

وكلّما مرَّ الزمن وتحوّل العالم كانت الضرورة تحتّم الدخول في إعادة محاكمة موضوعيّة لمجموعة من المتون للإطمئنانِ في نسبتِها إلى الله في ظلّ أكثر من ظاهرةِ تدلّ على الإضطرابِ والتناقضِ والتغيير والتعديل ، وهي بذلك تتبطّن يداً بشريّةً قامت بما لا يمكن نسبتُهُ إلى الله ، وبعد أن حصدَ العالم مجموعةٍ واسعةٍ من الكشوفات الكونيّة ظهر أنّ مجموعة من نصوصِ التوراةِ بحاجةٍ إلى عنايةٍ فائقة ، أو بمعنى آخر : هي ماتت بشكلٍ صاعق أمام حقائق التناقض مع المعطيات العلميّة الثابتة بشكلٍ نهائيّ .. ورغم ذلك فان المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني خفّف بشدة من هذا الجرف الهائل الذي طال النص .. نعم أدخل بعض التحفظات على أسفار العهد القديم التي تحتوي على الشوائب ، أو على شيئ من البطلان .. معتبراً الباقي من النص شيئاً مقدساً لا تجوز فيه المناقشة ، لجهةِ أنّ ما ثبتت فيهِ الأخطاءُ لا يجوز على القداسة ، أمّا غيرهُ فهو ما زال على قداستهِ التي أخذها منذ اليوم الأول من اعتبارِهِ مقدّساً .. وهذا ما يدخلنا مجدّداً في علم الشكل والمضمون ، فليس كلّ شكلٍ يعني قداسة ، حتى وإن حاز على ذلك منذ عهودٍ سبقت ، ومن يراجع الظروف والبيئة في القبول والرفض للنصّ يدرك

حقيقة ما أقول هنا .. لذلك ، إنَّ من الضروري التثبّتَ من طريقة التدوين ومن زمنهِ والإجابة عن مجموعةٍ من أسئلةٍ تتصل باضطراب النصّ واختلافهِ وتناقضهِ في أكثر من موقعٍ وجهةٍ وحدث .. وبمجرّد جولة سريعة يثبت أنّ يدَ البشرِ كان لها حظّ من ذلك باعترافِ المجامع الكنسيّة الأعلى في رتبة اللاهوت .. ولأنَّ الظرف والبئية والتاريخ واختلاف الصياغة واضطراب المتن والتناقض مهمّ في الإجابة عن مجموعةٍ من أسئلةٍ سقناها فيما سبق ، فإنني سأتوقّف في فصلٍ آخر عند هذا الموضوع بشكلٍ واسعٍ إن شاء الله تعالى ..

الإنجيل

نظرة في التواريخ والشهادات وزمن التدوين والتوثيق والإلغاء وما تضمّنه المتن ومقارنة مع مجموعة من معطيات تاريخيّة وعلميّة

الإنجيل

تمهيد ..

بطبيعة الحال حين نتكلّم عن نبيٍّ مرسلٍ كالنبي عيسى بن مريم عليهِ السلام فإنّنا نتكلّم عن رسالتهِ ، عن التعاليم التي جاء بها ، عن إنجيلٍ واحدٍ لا خلافَ فيهِ ولا قصور ، لأنَّ ما من عند اللهِ يكون تامّاً كاملاً ، لا يشوبُهُ اضطراب أو خطأ أو تناقض وشبه ذلك .. إلا أنّنا في هذا الفصل سنتحدّث عن الأناجيل .. ! ومعنى هذا أنَّ هناك أكثر من إنجيل ، لكنّ المعتبر في اللاهوت والكنيسة هو أربعة .. سنرى فيما بعد أنّها تعاني من مشكلة نصّ كامل في أكثر من متنٍ ، ما يفتح الباب مليّاً أمام بعض الأسئلة المحرجة كما سبق وطرحناها في فصل التوراة ..

معلومات أوليّة :

يتألّف الكتاب المقدّس لدى المسيحيين من العهد القديم والعهد الجديد . القسم الأوّل يحتوي على أسفار كتبت باللغة العبريّة المتّصلة بتعاليمِ النبي موسى

وشريعتِه (التوراة) وما يتبعها من أسفار ، يعترف المسيحيّون بقسمٍ رئيسيّ منها أضفوا عليهِ مجموعة من قراءاتٍ خاصّة وحذفوا بعضاً منها .. لذا فهم يشتركون بالإيمانِ بها مع اليهود . والقسم الثاني يحتوي على التعاليم التي جاء بها النبي عيسى بن مريم (ع) ، نعم لا يؤمن اليهود بالنبي عيسى وينكرون نبوّتهُ ، وبالتالي فهم لا يؤمنون بالإنجيل ..

يتألّف العهد القديم من أسفار التوراة وهي خمسة :

١. التكوين .
٢. الخروج .
٣. اللاويّين .
٤. العدد .
٥. التثنية .

وجميعها تنسب إلى النبي موسى ، إلا أنّ هذهِ النسبة هُجرت بأكثر من دراسةٍ وبأكثر من متنٍ وعنوانٍ وبشكلٍ علميّ واضح .. بمعنى أنّ يداً بشريّةً حاولت أن تدوّن ما جاءَ بِهِ النبيّ موسى ، فأخطأت في أكثر من تسجيلٍ انطباقيّ ومفهومٍ وصيغةٍ وتعاليم .. حتى أنّ بعضهم دوّن في التوراة وفاة النبي موسى في حين يُدّعى أنّ النبيّ موسى هو الذي دوّن التوراة ، وفَاتَ الذي دوّنَ مثل هذا النصّ أنّ النبي موسى لا يدوِّنُ وفاتَه ..! وفيما سبق كنتُ قد أشرت إلى بعض الحقبات الزمنيّة في تدوين بعض النصوص والإختلاف الأدبي فيها بل والإضطراب الواضح ، فضلاً عن التناقضِ والتكاذب الصريح وغير ذلك ..

أمّا القسم الثاني من الكتابِ المقدّس فإنّه يتألّف من أسفار الأنبياء بما فيها الأسفار التاريخيّة وهي ٢١ :

١. يوشع .
٢. القضاة .
٣. صموئيل الأوّل والثاني .
٤. الملوك الأوّل والثاني .
٥. إشعياء .
٦. إرميا .
٧. حزقيل .
٨. هوشع .
٩. يوئيل .
١٠. عاموس .
١١. عوبديا .
١٢. يونان .
١٣. ميخا .
١٤. ناحوم .
١٥. حبقوق .
١٦. صفنيا .
١٧. حجّي .
١٨. زكريّا .
١٩. ملاخي .

أيضاً منها " الأسفار التاريخيّة والأدبيّة " المسمّاة أسفار الكتب ، وهي ١٣ على الشكل التالي :

١. أخبار الأيّام الأوّل
٢. أخبار اليوم الثاني .
٣. المزامير .
٤. أيّوب .
٥. الأمثال .
٦. راعوث .
٧. نشيد الإنشاد .
٨. الجامعة .
٩. مراثي إرميا .
١٠. إستير .
١١. دانيال .
١٢. عزرا .
١٣. نحميا .

أمّا العهد الجديد فهو جزء " الكتابِ المقدّس " عند المسيحيين ، وهو يتألّف من ٤ أسفار تسمّى الأناجيل (البشارة) ثمّ يليها سفر أعمال الرسل ، ثمّ الرسائل ومجموعها ٢١ رسالة . ١٣ منها بقلم بولس . وأخيراً سفر رؤيا يوحنّا اللاهوتيّ الموجّهة على شكل رسالة من يوحنّا إلى السبع الكنائس التي في آسيا (بلاد الأناضول) . موضوع هذهِ الأناجيل الأربعة هو سيرة يسوع ،

يضاف إليها سفر أعمال الرسل الذي يتحدّث عن أحوال تلاميذ يسوع وأفعالهم من بعدهِ . وهناك دلالة واضحة على أنّ القلم الذي كتب إنجيل لوقا هو الذي كتب سفر أعمال الرسل . ويشير الخبراء إلى أنّ رسائل بولس التي كُتبت بقلمهِ هي أقدم من أيّ إنجيل لأنّ بولس توفّي في العام ٦٧ م تقريباً . وهذا الكلام دقيق وكلُّ الشهادات التاريخيّة تشهد له وتنصبُّ عليه ..

أمّا ماذا عن ظروفِ تدوينِها ..؟ عن قانونيّتِها ..؟ عن طبيعة شرعيَّتِها ومقياس ذلك .. ؟ ماذا عن إنتصار فريق على آخر ..؟ ماذا عن ظهور مجموعة علنيّة من تغيّرات في نُسَخِ النقلِ ..؟ ماذا عن تحريف واضح في بعضِ النسخِ ..؟ ماذا عن بطلان مجموعة واعتبار أخرى ..؟ كلّ هذهِ الأمور فسنتعرّض لها بشكلٍ مفصّل ..

تاريخيّاً :

في العام ٥٨٦ قبل الميلاد تقريباً قضى الملك نبوخذنصّر البابلي على مملكة يهوذا ، وقد قيل فيها انّها مملكة في سراة عسير إلى الجنوب من الحجاز وقد قبض على آخر ملوكِها .. وكان نبوخذنصّر قدم إلى بلاد يهوذا سابقاً في العام ٥٩٧ قبل الميلاد فخلع ملكها يهوياكين عن عرشِهِ ونصّب عمّه صدقيا مكانه ثمّ اقتاد يهوياكين إلى بابل ووضعه في السجن وسبى جميع افراد عائلتهَ ومعظم أعيان يهوذا وأرباب الصناعات هناك .. وكان يهوياكين بعمر ١٨ عاماً وبعد ٣٧ عاماً من أسرِهِ أي في العام ٥٦٠ قبل الميلاد توفي نبوخذنصّر فبادر خلفه أويل مردوخ إلى إخراج يهوياكين من السجن وبالغ في إكرامِهِ .. وبعد

وفاة صدقيا في السجن بقي يهوياكين وحده صاحب الحقّ في المطالبة بعرشِ يهوذا ثمّ توفي يهوياكين فصار الذكور من ذريتِهِ في بابل يتوارثون هذا الحقّ من دون أيّ منافس .. وتشير التواريخ إلى أنَّ مؤسس مملكة يهوذا هو الملك داود .. أسّسها في العام ١٠٠٥ قبل الميلاد ثمّ ضمّ إليها من بقي من بلاد بني إسرائيل وهي المملكة التي أورثها إبنه سليمان ..

يسوع الناصري

في التواريخ العامّة جاء أنّه ما بين عامي ٢٧ و ٣٦ للميلاد كان بيلاطس البنطي والياً رومانيَّاً على اليهوديّة ، وفي عهدِهِ ظهر رجل إسمه يسوع الناصري ، من سلالة زربّابل إبن شالتيئيل ، معلناً نفسه أنّه صاحب الحقّ بالملك على إسرائيل .. وفي التاريخ الخاصّ ببعثة النبيين تأكيد على أنَّ النبوّة لعيسى بن مريم إنّما هي من أمرِ اللهِ تعالى ، وأنّه لا سلطة أرضيّة سوى السلطة الأزليّة ، وأنَّ الأرض لا بدَّ لها من الخضوعِ والرجوع إلى منطق السماء ، وأنَّ البشر بحاجةٍ ماسّةٍ إلى الوحي المتّصلِ باللهِ تعالى .. فكان عيسى بن مريم نبيَّاً مرسلاً من اللهِ ، ليكونَ وليَّاً مرشداً وبشيراً نذيراً وهادياً قائداً كما هو الدور الوظيفي مع النبيين المبعوثين من قبلِ اللهِ تعالى .. إلا أنَّ الذي حصل هو أنَّ السلطة الأرضيّة المتمثّلة بمجموعة من رموزٍ أرضيين ، من بشرٍ خارجين عن أسسِ الفطرةِ فضلاً عن حدود المعنى الأوّلي للمواثيق بين الفرد والفرد أصرّوا على تقديمِ سلطتِهِم على سلطةِ اللهِ تعالى ، وقد عاثوا في الأرضِ فساداً ، بل في بعضِ العناوين التي

واجهت النبي عيسى بن مريم أنَّ اليهود قنّعوا أعمالهم الفساديّة بشريعةِ النبي موسى للدفاعِ عن مصالِحِهِم وسلطتِهِم المعرّضة للزوالِ لكنَّ الذي حصل أنَّ نبوّة عيسى وإثباتَها كان أكبر من أيّ محاولةٍ من قبلِ سلطةِ ذلك الزمان ، فكان لا بدَّ من الإعتماد على الحديدِ والنار والسجنِ والقتلِ والعنفِ من أجلِ منع المزيدِ من الإنخراطِ والتسليم برسالةِ النبي عيسى بن مريم .. وقد حدّث التاريخ عن الكثير من هذهِ المعاني التي تروي قصّة الإنتقام الأرضي من بعثةِ النبيين ، وفي قصّة موسى قبل عيسى ما يدلّ على الكثير من المكر والفساد الذي تعاملت بهِ السلطة الزمنيّة في هذا المجال ..

وعلى كلٍّ حال ، فالمعلومات عن " يسوع الناصري " ليست كثيرة في الأناجيل لكن فيها مجموعة من عناوين تبيّن هويّة هذهِ الشخصيّة ، إضافة إلى ما قاله بولس .. وإليك أوّلاً ما قاله بولس عبر كتاباتِهِ عن يسوع :

- إنّ يسوع كان إسرائيليًّاً .. ولم يعرّفه أنّه كان يهوديًّاً .
- إنّ يسوع كان من نسل داود .. دون أيّ تعليقٍ .
- يشير بولس إلى انّ يسوع كان في الأصل غنيّاً ثمَّ افتقر .
- يقرّر أنَّ يسوع قُتِلَ إعداماً على الصليب .
- يضيف أنَّ يسوع مَثَلَ لدى محاكمتهِ أمام بيلاطس البُنطي .
- يقرّ أنَّ اليهود هم من قتل يسوع .
- يعترف بولس بأنَّهُ لم يلتقِ بيسوع ، إنّما إلتقى بشقيقٍ ليسوع إسمه يعقوب ، وذلك خلال زيارتين قام بهما بولس إلى أورشليم .

- لم يتحدث بولس في رسائلهِ عن والد يسوع ، ولا يذكر والدته بالإسم ، كما لا إشارة في رسائله إلى أنّ المسيح بن مريم ولد من إمرأةٍ عذراء .. ! وهذا بطبيعة الحال يحتاجُ إلى تأمّلٍ ..

أمّا في الأناجيل فقد بدت هويّة يسوع على الشكل التالي :

- الأناجيل الأربعة تجمع على أنّ يوسف كان خطيباً لأمٍّ يسوع وأنّ يسوعاً لم يكن منه ..

- بالنسبةِ إلى والدتهِ ثلاثة من الأناجيل هم متّى ومرقس ولوقا تعرفها بإسم مريم ، أمّا يوحنّا فإنّه لا يعرّفها بأيّ إسمٍ عند ذكرها ، كما هي الحال مع بولس ، بل يشير إلى أختٍ لها كان إسمها مريم ، ما يعني أنّ اسم أمّ يسوع لم يكن مريم ..

- إنجيلانِ فقط من الأناجيل الثلاثة التي تسمّي إسم والدة يسوع المسيح بـــ " مريم " تتحدّث عن ولادتهِ من أمّه العذراء ، مع انّ هذين الإنجيلين يوردان نسب يسوع إلى زربّابل ، ثمّ إلى داود ، عن طريق الذكور وبطريقين مختلفين .. مع أنّ هذا النسب لا يتّفق مع القول بولادة يسوع من عذراء ..!

- كما هو الأمر برسائل بولس لا توجد أيّة إشارةٍ في إنجيليّ مرقس ويوحنّا إلى ولادة يسوع من عذراء ..!

- الأناجيل جميعاً تتّفق في أنّ يسوع سليل لداود .

- الأناجيل الأربعة تعرّف يسوع بأنّه كان يهوديًّا .. نعم تشير إلى أنّه خُتِنَ وتربّى حسب شريعة موسى ..

- ليس في الأناجيل الأربعة أيّ ذكرٍ لطقوس أو مراسم معيّنة كان يسوع يقوم بها كرجل دين بل في إنجيل يوحنّا تأكيد على أنّ يسوع لم يكن يعمّد أتباعه بالماء ، كما فعل تلاميذه من بعدهِ ، بل فيها إشارة واضحة على أنّ يسوعاً لم يسعَ إلى إيجاد ديانة خاصّة به ..
- لا إشارة في الأناجيل إلى وضع يسوع المادّي .
- يستفاد من إنجيليّ " متى ومرقس " أنّ يسوع المسيح كان له أكثر من أخ (٤ أخوة) هم يعقوب وسمعان ويوسي أو يوسف ويهوذا ، ما عدا الأخوات ..
- تتّفق الأناجيل في أنّ الوالي الروماني " بيلاطس البنطي " هو الذي مثل بين يدهِ يسوع ، وأنّه قتل على الصليب وأنّ اليهود هم من قتل يسوعاً ..

لا شكّ أنّ من يقرأ أكثر من عنوانٍ وَرَدَ أعلاهُ يجد نفسهُ أمام مجموعةٍ من أسئلةٍ تحتشدُ في ذهنهِ وتحتاجُ إلى إجابةٍ ضروريّة .. وهذا ما سنتوقّف عندهُ بشكلٍ جدّي وواسع .. وسيرى القارئ أنّ الأمر بحاجةٍ إلى طمأنينة أكثر بسببِ مجموعة ظرفيّة تتعلق بطبيعة توثيقِ هذهِ الأناجيل دون غيرها ، بل بمعانيها دون معاني غيرها ، بل بحرفِها المضطرب في اكثر من مقامٍ وعنوان .. خاصّةً إذا توقّفنا أمام مجموعة من معطياتٍ متنيّة في هذهِ المضامينِ المقنّنة .. ويبدو الأمر أكثر شدّة إذا علمنا أنّ بولس الذي كان يعتبر الأبرز في شنّ حرب الإبادة على تعاليم المسيحيّة وأتباعِها هو من قرّر مجموعة من معانٍ وتفسيراتٍ لها وأدخل فيها مجموعة من معايير وعناوين تعتبر اليوم عماد الأناجيل والأساس اللاهوتيّ ، في

حين نقرأ في سيرتهِ أنّه يعلن البراءة من حواريي المسيح ورُسُلهِ ، ويتّهمهم بالكذبِ وغير ذلك بل يقرّ في بعضِ الأحيانِ برشوتِهم ، ويضيف في بعضِ رسائلهِ أنّهُ مبعوث من قبل الربِّ من دون أي بيّنةٍ أو برهان في حين يسجّل التاريخ الخاصّ بأتباعِ المسيحِ أنّهم حاربوهُ بشدّةٍ وتبرّؤا منه واعتبروا أنّ ما يقومُ بهِ خارج عن أطرِ مسيحيّة المسيح ، إلا أنّ النهاية جاءت على شكل إنتصار لبولس على حسابِ رُسُلِ المسيحِ ما سمح لهُ بصقل أفكار المسيحيّة بشكلٍ مرجعيٍّ منحصرٍ بهِ ..!

الأهمَّ من كلّ هذا أنّ من يقرأ الأناجيل بشكلٍ عاقلٍ يدرك أنّ هناك أزمةً ما في اعتبارها كتاباً قرّرهُ اللهُ لوجود مجموعة من إضطراباتٍ وتناقضاتٍ ، بل بسببِ مجموعة من تشويهاتٍ تسلّلت إليها مرّةً عبر النصّ ومرّةً عبر التفسير والتقنينِ وغير ذلك .. وعلى الأقلّ لاحظ الأب روجي أن مشكلةً واضحةً تواجه قرّاء الانجيل ، حيث يرون أن اضطراباً حقيقيّاً موجود ضمن اطار النص ، وذلك حين يقارنون بين روايات مختلفة لحديث واحدٍ مروي في أكثر من انجيل . وهذا الأمر لا يمكن أن يُلتزم بهِ على أنّه تدوين أمين لما هو صادر عن اللهِ تعالى ، وعلى هذا الأساس تتّفق الأديان كلّها فضلاً عن العقلاء على أنّ اللهَ كامل لا يمكن أن يتّصف بنقص ، وما هو بادٍ من نقصٍ معكوس على شكل إضطراب أو تناقض إنّما هو بسببِ اليدِ البشريّة .. وهنا المشكلة .. لأنّنا ندخل إلى مفترقٍ جديدٍ ، مفادهُ أنّ يدَ الإنسانِ حرّفت مجموعة من معانٍ سماويّة فغيّرت معانيها .. وعليهِ : أصبح الأمرُ ضروريّاً في التثبّتِ من حقيقة الحال .. لقد أشار الأب روجيه الى هذه الظاهرة التي تواجه القرّاء والتي تعتبر مشكلة حقيقيّة لا بدَّ لها من

إجابة وذلك في كتابه (مقدمة الى الانجيل ١٩٧٣) وقد استفاد هذه الظاهرة من خلال تجربته ، حيث كان مكلّفاً الرد في جريدة اسبوعيّة كاثوليكيّة على قرّاء الاناجيل الذين تحيّرهم النصوص .. وفي هذا المجال يشير إلى أنّ القراء للإنجيل ينتمون الى خلفيات ثقافية متنوعة ، وبعضُ هؤلاءِ عندهم القدرة على ضبط المعاني وعرضها على قواعد البيان ومضامينه ، وكشف الخلل الكامنِ في النصِّ وامتناع بل واستحالة نسبته إلى الله تعالى .. وقد لاحظ أنّ طلبات الشرح التي يبعث بها هؤلاء ويتوقّفون عندها ، يراها القرّاء مبهمة وغير مفهومة وبعضها الآخر متناقض وعبثي بل فاضحة في بعض الاحوال .. ولم يكن إعتراضُهم خروجاً عن عناوين القداسة بل هم جماعة مؤمنون بالمسيحيّة ، ومن بابِ إيمانِهِم يصرون على حلّ ما يرونَه غير ممكن النسبة إلى اللهِ الكامل .. وبمعنى آخر : يتوقف هؤلاءِ أمام النصّ الحقيقي للإنجيل .. أمام النصّ الكامل .. أمام النصّ الإلهي وليس البشري .. ويسألون : ماذا عن التناقض الحاد في بعضِ العناوين الرئيسيّة .. ؟ ماذا عن التدوين المختلف .. ؟ ماذا عن أزمة الصياغة ..؟ ماذا عن أزمة المصادر ..؟ ماذا عن ضوابط " القبول والرفض " للنُسَخ .. ؟ ماذا عن معاني الشرعيّة ..؟ لماذا وصلت رسالةُ المسيح وتعاليمه بشكلٍ متعدّد وليس بشكلٍ متّفقٍ وواحد ..؟

من هنا فإنّ أهمّ الخبراءِ في هذا التخصّصِ يعترفون بأنّ النص الكامل لم يكن متداولاً آنذاك ، وهنا مَكمَنُ المشكلة في أكثر من عنوانٍ وضرورة .. حتى أولئك الذين كانوا على نحوٍ بارزٍ من اعتناقِ المسيحيّةِ بل من مبرّزيها لم يستطيعوا إخفاء هذهِ الحقيقة رغم أنّهم حاولوا التبرير بأكثر من معنى ، منه أنّ

روح النص موجودة بشكلٍ ضمنيّ ، وأنَّ ما وصل إلينا يكفي ما دام أنَّ القصور هو من الحدود المأخوذة في الأعذارِ السماويّة .. إلا أنّ هذهِ الأعذار نهائيّاً لا تكفي ، خاصةً أنَّ في النصوصِ المتبقّية بين أيدينا اليوم مجموعة من إشاراتٍ إلى نبيٍّ قادمٍ يبعثهُ الله ، وهذا ما سنتوقّف عندهُ بشكلٍ تفصيليٍّ واسعٍ ..

ومن بابِ توضيحي ، فإنَّ أزمة النصّ للإنجيل بدت واضحةً ، مع أنّنا نؤمن بالإنجيلِ الذي بُعِثَ بهِ النبيّ عيسى بن مريم ، إلا أنّنا نتوقّف أمام مجموعة رئيسيّة من عناوين الإثباتِ وشبه ذلك لبعضِ ما هو منقول فيهِ .. وهذا الأمر نشتركُ فيهِ مع مجموعةٍ واسعةٍ ممّن شكّكوا في النصّ الكاملِ ، وأصرّوا على ضرورة إعادة تدوين ضروري لمجموعةٍ توثيقيّةٍ إثباتيّة ، إلا أنّ الأمر هذا بعد إتلاف الكثير من النسخِ والمصادرِ باتَ صعباً .. ولأنَّ هذه الظاهرة كانت واسعة الإنتشار وتثار في غالب الاحيان كان لا بدّ من وضع نظام أمثل يساعد لحلّ المشكلة ، من هنا يقول الاب روجي : كثير من المسيحيين يحتاجون الى تعلّم قراءة الاناجيل ، وسواء اختلف المرء أو اتفق مع التفاسير التي تعطى فإنّ جدارة الكاتب كبيرة حقّاً في مواجهة المشاكل الحرجة . ولكن مما يؤسف له أنَّ الأمر ليس كذلك دائماً فيما يختصّ بكثير من الكتابات الخاصة بالتنـــزيل المسيحي .

مع الاشارة إلى أنَّ التفسير على قسمين : تفسير يوافق قواعد الاستظهار والمعنى وفق القوانين اللغوية الاستعماليّة . وتفاسير لا تتفق مع هذه الظاهرة ، ولنعبّر عنها بالتفاسير الفرضية التي تحتاج الى شيئ من التكلّف غير المبرّر والتصور والفرض غير المنطقي وفق النواميس المأخوذة في عرفِ العقلاءِ وقواعدهم في شرع اللغة والاستعمال العرفي . التفسير الاوّل يكوِّن العمدة الأساس التي تدخل

ضمن باب الاحتجاج والقناعات . والثاني لا يعدو كونه " خيالاً أدبيّاً " لا يمكن أن يكون باباً أو حتى مجرد مقدمة لباب الاحتجاج وفق الناموس العرفي العقلائي فضلاً عن ناموس اللهِ تعالى . ومع أنّ هناك العديد من الصور التي تبدو على قدر من الاهميّة ، إلا أنّها ضعيفة النصّ وتحتاج الى محاكمة تاريخيّة وعلمية بهدف التأسيس لحكم يتعلق بالوثيقة ونسبتها الى الله ، فاننا نجد في كثير من الاحيان الكنيسة لا تعطي هذا الموضوع هذه الاهميّة ، وهذا خلل حقيقي في إرساء مفاهيم ومضامين ومواثيق تعتبر ذات صلة باللهِ وقداسة لا يجوز التجرّؤ عليها .. ويعلّل اللاهوتيّون هذا الأمر بأنّه يمكن أن يؤدّي إلى فتح باب التشكيك ، لذا مثلاً فإنّهم يقلّلون من أهميّة مشكلة الفترة الزمنيّة الواقعة بين نهاية رسالة يسوع المسيح وبين ظهور النصوص ..! مع أنّ هذا الأمر من أكثر الأمور إلحاحاً وضرورة وجدية خاصّةً إذا علمنا أنّ هذه النصوص طرأ عليها تعديلات كثيرة . ومع أنّهم يتحدّثون بالاشارات والكنايات مرّات عديدة حول وجود بعض الصعوبات في التفسير ، إلا أنّهم في نفس الوقت يتغاضون عن مشكلة التناقضات التي يطرحها النصّ ، في حين يصرون على قداسة النصّ بشكلٍ مطلقٍ .. والمعروف لدى كلّ عقلاءِ الدنيا أنّ القداسة تكون للكامل ، للحقيقة ، لما هو متّصل بأسبابِ الواقعِ التامّة ، لما هو خارج عن خانةِ القصورِ أو التقصير .. من هنا نجد في كثيرٍ من الأحيان إشارة غير مقنِعة يقرّرونَها على شكل ملحقات توضيحيّة حول أنّ التناقضات الظاهريّة أو التي يبدو منها ذلك إنما هي غير ذلك في الواقع وأنّ اهل الاختصاص يعرفون قواعد نظمها وبيان مطالبها ، مصرين على ضرورة تجاوز الوقوف عندها لأنّ أصل الحقيقةِ ثابت فلا حاجة إلى التفكير في فروعِها .. ! وهذا أمر غير مبرّر من جهةٍ علميّةٍ على الإطلاق ..

إنَّ هذا يثير إرباكاً حقيقيّاً من وجهة علمية ، لا بدَّ من التوقّف عنده ، لأن الانجيل لم يبعثه الله للنخبة المفكرة التي تقيس مطالبها على موازين منطق إفتراضي ، انما بعثه الى الناس كافة ، للعقلاء ، وفق منظومة اللغة الاستعمالية ، بالمقاييس التي تأخذ دورها الوظيفي في توصيل المعاني ، وهذا يعني أنَّ كلّ تكلّف وفرض غير منظوم في المعاني العرفية الاستعمالية العقلانيّة سيُدخل الشك بقوّة في هيكلية النص ومعانية وبالتالي سينعكس على القيمة التوثيقية للنص المنسوب الى الله الذي لا يخطئ ويجيد كلّ شيئ . وبمعنى آخر : كيف يمكن أن نلتزم بنصّ نشكّ في صلتهِ بالله ، أو هو على نحوٍ متناقضٍ ضعيفٍ ، لا يمكن أن ينسب إلى عاقلٍ فضلاً عن الله .. كيف يمكن أن نؤمن بنصّين متناقضين كلاهما يكذّبُ الآخر ، وهما على نحوٍ من التعارضِ البارز ..! لا يشكّ أحد في أنّ النظم اللغوي الإستعمالي عنوان مركزي وضرورة وظيفيّة بين الرسولِ والبشر ، وبالتالي فإنّ قوانين اللغة لازمة في حقّ المتكلّمِ والسامعِ أو القارئ ، وكلّ خللٍ أو تجاوز لأصل اللغةِ فإنّه يصيب أصل المطلب والغاية ..

لذلك ، المطلوب من الكنيسة أن تقرأ الانجيل وفق منظومة تفسيريّة تراعي فيها جانب القوانين اللغويّة بمعانيها الموضوعية تلك ولا تحيد عنها أبداً تحت طائلة البطلان . هذا هو العقاب العقلائي عند مخالفة أيٍّ من قوانينهِ . وهو مقرّر وممضي بسيرةِ النبيين والرسل .. والإنجيل انما قُرِأ وكُتِبَ على نسق هذه القاعدة . والأهم من ذلك أن تقرأ الكنسية هذه النصوص وفق منظومة التركيب المعنوي الضروريّ التوافق بالمعنى الموضوعي الذي لا يعرف التناقض ، وإلا فإنّ الخلل لا يمكن أن يخفى ، مثلاً على ذلك نجد أن انجيل متى وانجيل يوحنّا لا

يتحدّثان عن صعود المسيح ، اما انجيل لوقا فانه يحدده بيوم القيامة وبعد أربعين يوماً في " أعمال الرسل " التي يقال انه كاتبها وفي انجيل مرقس فإنه يشير اليه من دون ان يحدد تاريخه في خاتمة تعتبر عند البعض غير صحيحة ولذا فإنَّ " تريكو " لا يكرّس مقالاً عن الصعود في " المعاجم الصغيرة للعهد الجديد " من الكتاب المقدّس طبعة " كرامبون " وهو كتاب واسع الانتشار وفي طبعة الأناجيل الأربعة المتوافقة التي قام بها الأبوان " بينوا وبامار " الاستاذان في مدرسة الكتاب المقدّس بالقدس فانها تشير في الجزء الثاني منها صفحة (٤٥١ و ٤٥٢) إلى أن التناقض عند لوقا بين انجيله وأعمال الرسل يرجع الى حيلة أدبيّة ..! وهكذا من دون سرد دليل ، دون إبراز حجج منطقيّة يمكن أن تقنع أي واحد .. وكأن على القارئ أن يؤمن بما يقال لهُ من تفسيرٍ دون أيّ بيّنةٍ ، حتى وإن كان التفسير تبرّعيّاً أو أدبيّاً أو خياليّاً أو إفتراضيّاً .. ثمّ إن حقيقة الأصل لا تجوّزُ على الإطلاق فرض عناوين بشريّة متمّمة دون أيّ دليل سماوي خاصّة إذا تعلّق الأمر ببعضِ العناوين من مثل ماهيّة الربّ وشبه ذلك ..

وهكذا في أكثر من موقعٍ وعنوان تجد العديد من الوقفات التفسيرية الإفتراضيّةِ التكلّفيّةِ دون أيّ بيان لماذا ؟ وكيف ؟ ومن فَرَضَهَا ؟ وما هي حججها ..! مع العلم أنَّ هناك فرقاً واضحاً بين المعلومة وتفسيرها ، ومن القواعد الثابتة في قوانين الاحتجاج اللغوي هو أن التفسير على قسمين : موضوعي وهو الذي يعتمد الاصول الاحتجاجية لإستظهار المعاني وفق ما يحتج به على النفس والآخرين . وذاتي وهو الذي يتكلّف به الفرد في استظهار معاني لا يراها جماعة الضبط والبيان وأهل العرف العقلاء على نسق قواعد احتجاج

الآخرين لهم وعليهم في مقام استخلاص المطلوب من البيان اللغوي الإستعمالي .

وكما ترى في أكثر من موقعٍ وعنوانٍ سنتوقّف عندهُ فيما بعد فإنَّ جملة من التفاسير التي تساق إنّما هي ضمن هذا الاسلوب الذاتي البعيد عن الاصول والشروط الموضوعية للإحتجاج اللغوي " من وعلى الآخرين " . ويضافُ إلى هذا أن النص والبيان الذي نطق به عيسى بن مريم انما كان على لغة القوم وبياناتهم واعتباراتهم العرفية فلم يبتكر طريقة جديدة ، ولم يقنن منهجاً لغويّاً استعماليّاً استخلاصيّاً ، انما اعتمد الطريقة اللغويّة لتمام غرضِها في توصيلِ المطلوب من هذه الجهة ... من هنا فإنّنا نجد الاب روجي على نحوٍ لم يقتنع فيهِ بهذه الاساليب في تدوير العبارة وبياناتها وترجيع الأمور الى ما وراء الحيل الابداعية والادبيّة . يقول " الاب روجي " في كتابه (مقدمة الى الانجيل الصادر عام ١٩٧٣) :

(إنَّ المشكلة هنا كما في كثير من المشكلات المشابهة لا تبدو غير قابلة للحلّ إلا اذا أخذ المرء بحرفية دعاوى الكتاب المقدّس ونسي دلالاتها الدينيّة . ليس المقصود هو حلّ واقع الامور برمزيّة مائعة وإنما المقصود هو البحث عن النيّة الدينيّة لدى هؤلاء الذين يكشفون لنا أسراراً بتقديم أمور محسوسة وعلامات خاصة بالجذور الماديّة لعقلنا) .

وكأنه يشير بوضوح الى موضوع ضروري وهو وجوب اعادة دراسة الظروف التي كُتبت الاناجيل في ظلّها ، لأنّ الحرفَ والكلمة المنقولة إلينا تدلّ على أزمةِ قصورٍ وتسلّلٍ بشريٍّ واضح في النصّ .. إشارة إلى دراسة المناخ الديني

الذي كان سائداً في ذلك العصر وذلك بهدف التغلّب على أزمة النص وما يمكن أن يكتنفه في هذا المجال .. من هنا كان لا بدّ من الانخراط في باب الكتابات الموضوعية ولو بحدٍّ أدنى ، وبالفعل برزت عدة دراسات في هذا المجال أمثال كتاب " الايمان بالقيامة " و" بعث الايمان " حتى يعطي الأب كانينجسر وهو الاستاذ بالمعهد الكاثوليكي بباريس لمحةً تاريخيّة عن هذا التغيّر العميق فيقول : يكاد شعب المؤمنين ألا يعرف بهذه الثورة التي حدثت في مناهج تفسير التوراة (منذ القرن الثاني عشر وصولاً إلى القرن العشرين) والثورة التي يتحدّث عنها قريبة من عهدنا وقد بدأت نتائجها تصل إلينا .. ويقوم بهذا الجهد بعض المتخصصين الذين تحرّكهم روح التجديد . ويقول أيضاً : إنّ هذه الثورة في مناهج التفسير تفتح الطريق بشكل يقلّ أو يكثر لإنقلاب في رؤى الوعظ والارشاد الكنسيين .

ويحذّر الأب كانينجسر من أنه لم يعد واجباً الأخذ بحرفية الأحداث الواردة عن المسيح في الأناجيل فهي كتابات ظرفيّة أو خصاميّة يذكر كتّابها أقوال جماعة كلٍّ منهم عن المسيح .

لا شك أنّ هذا الكلام خطير ، وفيه دلالة كبيرة على أنّ يدَ البشرِ لها باعٌ أساسيّ في تدوين مجموعة من عناوين غير تامّة ، بل كلّ ما فيهِ قصور أو هو بادٍ منه هو بشريّ مرفوض ..

أكثر من ذلك يشير الأب كانينجسر الى استحالة أن يعطي أيٍّ كاتب من كتّاب الاناجيل لنفسه صفة شاهد عيان .

وهذا بلا شك موقف غير تقليدي من فهم النص وكيفيّة التعامل معه من أجل أن يساعد قرّاء النص على تجاوز أزمة التناقضات الموجودة في كتاب يُدّعى بحرفيّته أنّه من الله تعالى .. لا يمكن بحالٍ المرور أمام مثل هذهِ الشهادات التخصصيّة الحادَّة دون الإقرار بأنّ ضرورة النقض الوظيفي فرضت نفسها حتى على أهلِ اللاهوت ، لأنّ نسبة النصّ إلى اللهِ لا يمكن أن تتوافق مع ما هو عليهِ متن الكتاب المقدّس في أكثر من موقعٍ وجهةٍ من تناقضٍ واضطرابٍ وقصور .. لقد وصل الأمر إلى حدّ الإقرار بضرورةٍ تاريخيّةٍ أساسيّة مفادها أنّهُ لا يمكن لأحدٍ ممّن كتب الأناجيل أن يصور نفسهُ " شاهد عيان " .. إذن من الذي كتب من غيرِ شهود ، بل عن نقل .. وهذا أمر تتوقّف عنده المصادر التاريخيّة الواقعيّة بشكلٍ حقيقيّ وتقرّ بهِ ..

وإذا أضفنا إلى هذا الأمر مشكلة القبول والرفض لمجموعة من النسخ فضلاً عن الإسقاط بين فريقين متنازعين في ظلّ سلطة سياسيّة اعتمدت القوّة عنواناً تأييديّاً لما انتصرت لهُ فإنّ الأمر هنا يبدو خطيراً ، والأخطر منه هو أنّنا إذا علمنا أنّ عقيد بولس الذي أمعن في محاربة المسيح مِن قبل انتصرت بشكلٍ ساحقٍ حتى على رسل المسيح الذين وصفهم (بولس) بالكذابين وغير ذلك من الأوصاف المنكرة ، وذلك حين أعلنوا البراءة من تعاليمه وأنكروها .. هنا تبدو العلامات سوداويّةً وعسيرةً خاصّة إذا توقّفنا عند مجموعةٍ من انقلاباتٍ تفسيريّةٍ واعتقاديّةٍ طرأت بعد تغلّب بولس الساحق بعقيدتهِ التي أصرّ على أنّه تعلّمها من دون أن يعلّمه إياها أحد ، وتلقّنها من غيرِ رُسُل المسيح ..! لا يمكن لعاقلَ على الإطلاق إلا أن يتوقف بتوجّسٍ كبيرٍ وشكوك متزايدة أمام حقيقة هزيمة رسُل

المسيح وانتصار بولس الذي ادّعى السفارة عن المسيح دون أيّ بيّنةٍ أو إعجازٍ فحارب بشكلٍ حثيثٍ من أجل تثبيتِ مفاهيمهِ فانتصر حتى على رُسُلِ يسوع المسيح ..! هنا تبدو القراءة النقديّة ضروريّة ، حيثُ تظهر مجموعة من عناوين لا بدَّ من الإجابةِ عنها رغم أنّها من المشكلاتِ العالقة جدّاً ، بل من شأنِها أن تطيح بمجموعة من معانٍ هي اليوم من ثوابتِ الإعتقاد ..

بين الحدثِ والنقل

هل من دوّن الإنجيل أو ساهم في بعضهِ هو شاهد أحداث ، أم انّ هناك زمن كبير ومسافة فارقة ..؟ ففي وقتٍ يقرّرُ فيهِ مجموعة من رموزِ اللاهوت وبشكلٍ علميّ كما هي الحالُ مع الأب كانينجسر إستحالة أن يعطي أيٌّ كاتب من كتّاب الأناجيل لنفسه صفة **شاهد عيان** . فإنَّ غالبيّة المسيحيين تعتقد خطأً أن كُتّاب الاناجيل هم **" شهود عيان "** شاهدوا المسيح وحياته وسمعوا تعاليمهُ ووعوها ، وعلى هذا الأساس كتبوا ، وعليهِ : فإنَّ نقلهم الإنجيلي الروائي هو طبق الاصل عمّا رأوا وعاينوا . وأنهم قد أقاموا شهادات لا تقبل الجدل عن الأحداث التي وقعت في حياته الرساليّة حتى أنَّ القدّيس " جوستين " في منتصف القرن الثاني كان يطلق على الأناجيل اسم " مذكرات الرسل " ..! كما أنَّ طبعات الاناجيل التي طبعت لتوزّع على العامة تحتوي على كتابات تشير إلى أنَّ هذه الأناجيل هي عبارة عن نصوصٍ مقدّسةٍ طبق الاصل عمّا وراء الاحداث التي كتبها الرسل في روايتِهم لما شاهدوا فيهِ المسيح .. ومع أنَّ كلّ شيءٍ يدلّ

على أنّ من كتب الأناجيل لم يكن شاهد عيان إلا أنّ هذهِ النسبة مأخوذة على نحوٍ مشاعٍ في الأوساطِ حتى اللاهوتيّة فضلاً عن الأتباع .. ويحاول البعضُ أن يشير إلى هذهِ الصفة إعتماداً على ما يمكن أن يكوِّن وسيلة إثبات مثل قولهم : إنّ متى كان شخصية معروفة ، فقد كان موظفاً بمكتب الجمارك أو ضرائب المرور بكفر ناحوم . وأما مرقس هو مساعد بطرس ، يعني انه شاهد عيان ايضاً واما لوقا فهو الطبيب العزيز الذي يتحدّث بولس عنه . أما يوحنّا فهو الرسول القريب من المسيح وهو ابن زبيد الصيّاد ببحيرة كثروت .. وعليهِ : ترسّخ في ذهنِ العامّة وغيرهِم أنّ من كتب الأناجيل إنّما هو شاهد عيان ، له من المقامِ والقربِ والفضلِ ما جعلهُ الأب المدوّنِ لمثلِ هذهِ الأناجيل .. وبكلّ ببساطة تُقدّم الامور الى الجمهور على هذا النحو . في حين أنّ الوقائع الحقيقيّة تشير إلى أنّه بعد صعود المسيح إلى السماء ، وحتى منتصف القرن الثاني ، أي طيلة أكثر من قرن كان هناك معركة قاسية بين اتجاهين : بين ما يمكن تسميته بالمسيحيّة البولسيّة ، وبين اليهوديّة المسيحيّة . ومن المعلوم أنّ البولسيّة لم تنتصر تاريخيّاً على اليهوديّة المسيحيّة إلا بشكلٍ شديد التدرّج .

من هنا يكون المفتاحُ لأيّ باحثٍ ضروريّاً من أجل تكوين صورة علميّة حول هويّة الزمن والتدوين والأشخاص ، من أجل التعامل مع النصّ من بابٍ علميٍّ في القبول والرفض .. ولأنّ الأمر يتّصل بمفادِ العقيدة ، كان لا بدّ من ظهور مجموعة من دراساتٍ تنبع من عمقِ التمسّكِ بالحقيقةِ ، وقد نشر الكاردينال " دانيلو " مقالاً عام ١٩٦٧ بمجلة " دراسات " بعنوان : (رؤية جديدة للأصول المسيحيّة واليهوديّة) فأشار الى معطيات تقلب مجموعة

المعطيات التي يستهلكها الجمهور حول هذه الناحية ، فقد وضع خطوط تاريخ المسيحيّة ، بهدف تحديد ظهور الأناجيل وذلك في سياق يختلف تماماً عن ذلك الذي تقول به المعلومات الموجّهة لعامة الجمهور . وقد جاء في تلك الدراسة مجموعة من نواحٍ تستدعي النظر فيها مليّاً أنقل منها مقاطع مهمّة ، وإليك ما جاء فيها : (كوّنت مجموعة الحواريين الصغيرة بعد المسيح طائفة يهوديّة تمارس ديانة المعبد ، وتحفظ تعاليمها . ومع ذلك ، فعندما تنضم اليها طائفة الذين آمنوا من الوثنيين فانها تقترح عليهم إن جاز القول نظام خاص إذ يحلّهم مجمع القدس المسكوني (٤٩م) من الطهارة ، ومن تطبيق الأركان اليهوديّة ، ورفض كثير من " اليهود ــ المسيحيين " هذا التنازل ، وانفصلت هذه المجموعة تماماً عن بولس . بل أكثر من ذلك ، فقد اصطدم بولس واليهود ــ المسيحيين بسبب الذين أتوا الى المسيحيّة (أحداث انطاكية عام ٤٩ م) . فالطهارة ، ومراعاة الراحة يوم السبت ، وديانة المعبد ، كانت أموراً بالية في نظر بولس ، حتى بالنسبة لليهود أنفسهم ، فيجب على المسيحيّة أن تتحرّر من انتمائها السياسي والديني الى اليهوديّة ، حتى تفتح ذراعيها لغير اليهود .. أمّا اليهود المسيحيون ، الذين ظلّوا " يهوداً مخلصين " فانهم يعتبرون بولس كخائن ، وتصفه وثائق يهوديّة ــ مسيحيّة بالعدو ، وتتهمه بتواطؤ تكتيكي ولكن " اليهوديّة المسيحيّة " كانت تمثّل حتى عام (٧٠ م) غالبية الكنيسة ، وكان بولس منعزلاً ، في ذلك الوقت كان رئيس الجماعة جاك قريب المسيح ، وكان معه في البداية بطرس ، ثم يوحنّا ، ويمكن اعتبار جاك كعامود اليهوديّة المسيحيّة ، الذي ظلّ عن ارادة ملتزماً بخطّ اليهوديّة امام المسيحيّة البولسيّة ... إنّ أسرة المسيح تحتلّ مكانة كبيرة في هذه الكنيسة اليهوديّة المسيحيّة بالقدس ، وقد خلف سيمون جاك وهو

ابن كاليوبا ابن عمّ للمسيح (؟) ..) وذكر الكاردينال دانيلو في مقاله الكتابات اليهوديّة المسيحيّة التي تقدم نظرات هذه الجماعة عن المسيح ، تلك الجماعة التي تكوّنت أوّلاً حول الحواريين وهذه الكتابات هي انجيل العبريين ، الذي يعود الى جماعة يهوديّة مسيحيّة مصريّة . ومأثورات كليمنت والفضائل الكليمنتيّة . ونهاية العالم الثاني لجاك . وانجيل توما . وقد حكم على هذه الكتابات بأنها " **مزوّرة** " وبالتالي يستوجب اخفائها ، وذلك بعد ان انتصرت الكنيسة التي ولدت بانتصار بولس . وقد قامت بعمليات قطع في الأدب الإنجيلي و لم تحتفظ الا بالأناجيلِ الأربعة القانونيّة يقول الكاردينال دانيلو : (لم تكن اليهوديّة المسيحيّة سائدةً فقط بالقدس وفلسطين طيلة القرن الاوّل للكنيسة ، فقد تطوّرت البعثة اليهوديّة المسيحيّة فيما يبدو في كلّ مكان قبل البعثة البولسيّة وهذا يوضح الاشارة الدائمة في رسائل بولس إلى صراع ما . إنهم نفس الأعداء الذين قابلهم حيثما ذهب ، بغلاطية وكورنتة وكولوس وروما وأنطاكية .. كان الساحل السوري الفلسطيني من غزّة الى انطاكية يهوديّاً مسيحيّاً كما تشهد بذلك أعمال الرسل والكتابات الكليمنتيّة . وفي آسيا الصغرى وجود " اليهود المسيحيين " تشهد به رسائل بولس الى الغلاطيين والكولوسيين ، أما كتابات بانياس فهي تعطي معلومات عن اليهوديّة المسيحيّة بفريجي . وفيما يخص اليونان فتذكر رسالة بولس الأولى الى أهل كورنثوس اليهود المسيحيين وبابوللوس على وجه خاص . وتعدّ روما مركزاً هاماً حسب رسالة كليمنت وراعي هرمياس . ويرى سويتون وتاسيت أنّ المسيحيين يشكلون طائفة يهوديّة ، ويعتقد الكاردينال دانليو أنّ أوّل تبشير بالأناجيلِ في أفريقيا كان يهوديّاً مسيحيّاً . وإلى اليهوديّة المسيحيّة يُعزى أيضاً إنجيل العبريين وكتابات كليمنت الاسكندري .

هذا بطبيعة الحال يدلّ على معترك صعبٍ ، وصراعٍ عنيفٍ ، اعتُمِدَت فيهِ كلّ الوسائل الممكنة للإنتصارِ ، في ظلّ اختلافٍ عقيديٍّ بارزٍ ، بل في ظلّ اختلافٍ على النصّ والتفسير .. ويشيرُ الكاردينال دانيلو إلى أنّ معرفة هذا الجوّ من الصراع تبيِّنُ أنّ الظرف الذي حُرّرت فيه الأناجيل كان شديد الوطئ وحامي الوطيس مؤكّداً أنّ خروج النصوص التي نملكها اليوم الى النور كان قد بدأ عام ٧٠ م . بعد تعديلات في المصادر وهي الفترة التي كانت فيها الجماعتان المتنافستان في أوج الصراع ، وكانت السيادة وقتها لليهود المسيحيين ، إلا أنّ الموقف انقلب تماماً بسبب حرب السبعين وسقوط القدس . الكاردينال دانيلو يشرحُ أسباب الإنهيار كما يلي : لما كان اليهود منبوذين في الامبراطوريّة فقد نحا المسيحيون الى الانفصال عنهم ، عندئذ ساد المسيحيّون الهللينستكيون . لقد حاز بولس على النصر بعد وفاته . بهذا انفصت المسيحيّة اجتماعيّاً وسياسيّاً عن اليهوديّة لتكوّن ما يعرف بالشعب الثالث . برغم ذلك وحتى آخر التمرّد اليهودي عام ١٤٠ م كانت اليهوديّة المسيحيّة سائدة ثقافيّاً ومن عام ٧٠ م وحتى فترة تُحدّد بما قبل عام ١١٠ ميلاديّة نتجت أناجيل مرقس ومتى ولوقا ويوحنّا . ولا تشكّل هذه الأناجيل أولى الوثائق الثابتة في المسيحيّة : فرسائل بولس سابقة عليها . وفي رأي (أ . كولمان) انّ بولس قد كتب عام ٥٠ ميلاديّة رسالته الى أهل تسالونيكي ولكن لا شك أنه كان قد مات منذ عدّة سنوات عندما انتهى انجيل مرقس .. وإذا كان بولس أكثر وجوه المسيحيّة موضعاً للنقاش ، واذا كان قد اعتبر خائناً لفكر المسيح كما وصفته بذلك أسرة المسيح والحواريّون الذين بقوا بالقدس حول جاك ، فذلك لأنه قد كوّن المسيحيّة على حساب هؤلاء الذين جمعهم المسيح من حوله لنشر تعاليمه . ولّما

لم يكن بولس قد عرف المسيح في حياته ، فقد برّر شرعيّةَ رسالته عن طريق إدّعائه بأنّ المسيح بعد قيامته قد ظهر له على طريق دمشق ــ ومن دون أن يثبت ذلك أو أن يشهد عليهِ أو أن يقوم بما من شأنهِ أن يوثّق ذلك ــ ..

وهذا الأمر يبدو على نحوٍ من خطورةٍ بارزةٍ ، لأنّه يتعلّق بضرورة معرفة المتن الحقيقي الذي نطق بهِ المسيح أمام حوارييه ، في ظلّ شهاداتٍ تاريخيّةٍ بارزة على عداوةٍ واضحةٍ بين أسرة المسيحِ وحوارييهِ من جهة وبين بولس الذي مثّل العدو البارز للمسيحيّة والمسيح من جهةٍ ثانية ، لنقرأ التاريخ مجدّداً والذي قرَّرَ أنّ عقيدة بولس هي التي فازت في نهاية المطاف .. ! لا يمكنُ لأيٍّ باحثٍ منصفٍ على الإطلاق إلا أن يتوقّف امام هذهِ الحقيقة بكثيرٍ من الهواجسِ ، خاصّةً في ظلّ اتهامٍ كبيرٍ من قبلِ رُسُلِ المسيح لبولس بأنّه مدّعٍ وخارجٍ على تعاليم المسيح والمسيحيّة ، بل عدُّوهُ من النبيين الكذبة ، في حين ردَّ عليهم بما اتهموهُ فيهِ ، لكنَّ وقائع التاريخ تسجل الأمور التالية :

١. لم يكن بولس على دينِ المسيح .
٢. كان بولس من المبرّزين في عدائهم للمسيح والمسيحيّة .
٣. ظلّ على عدائهِ العنيف حتى زمن صعودِ المسيح . وحسب التعبيرِ المسيحي اللاهوتي ظلّ كذلك حتّى قُبِض على المسيحِ بل وبعد قيامتهِ ..
٤. كان بولس يتّقن اللغات ، ويجيد استعمالها .
٥. بشكلٍ مفاجئٍ إدّعى بولس أنّه رأى الربّ (كما هو في مفهومهِ) وبعثهُ بالمسيحيّةِ فبدأ بذلك فراقبهُ الرسُل ووجدوا في تعاليمهِ ما

يخرجُ عن إطارِ المتن الذي سمعوهُ ووعوهُ بل وجدوا في تفسيرِهِ وتعاليمِهِ ما يخرج بشدّة عن ذلك .. فأعلنوا ذلك بشكلٍ واسعٍ على الأتباعِ وتبرؤوا منه ومن أتباعِهِ في كلِّ محفلٍ وقاع ..

٦. يعترف بولس أنّه لم يتعلّم من أحد .. ! وهذا الأمر يحتاج إلى وقفةٍ وتروٍّ ودقّة في القبول والرفض وما يتّصل بذلك من أثر ..

٧. شهدت المسيحيّة اللاهوتية صراعاً عنيفاً حول النصّ ومصادرِهِ من جهةٍ وحول التفسيراتِ والإدخالاتِ من جهةٍ ثانية تجلّت في أكثر من نصٍّ وتفسيرٍ ومتنٍ وواقعةٍ ومفهوم ..

٨. بالنهاية إنتصر بولس بشكلٍ ضخم ، فشكّل المسيحيّة البولُسيّة وفق نصِّهِ ومصادرِهِ ومفاهيمِهِ وتفسيرِهِ ..

ويبقى السؤال :

عمَّا يمكن للمسيحية أن تكون عليه من دون بولس ..؟

لا شكّ أنَّ الأمر على نحوٍ مختلفٍ وهائلٍ في الإختلاف .. ! إذاً لماذا البولُسيّة ..! وهل هي من قرّر صورة مختلفة عمَّا كان عليهِ تلامذة المسيحِ ومتن تعاليمه .. ؟

لماذا المغايرة والقدح الحادّ بين حواريي أو رُسُل المسيحِ وبين بولس ، في ظلِّ ترداد تمسّكَ بهِ التلامذةُ من أنَّ بولس يدّعي ما ليس في تعاليم المسيح ، فأنكروا عليهِ أشدَّ إنكارٍ ، تجاوز كلَّ الخطوط الحمر .. ألا ترى أنَّ المتن الموجود الآن هو نتيجة محتدمة بين فريقين ، كان على أثرِهِ أن تولّدت مثل هذهِ الكتابات

الخصاميّة أو التي اعتبرت قانونيّة ..! ممّا لا شكَّ فيه أنّه لولا هذا الصراع لم نكن لنحصل على مثل هذه " الكتابات الخصامية " كما يصفها الأب كانينجسر حيث أنَّها ظهرت في فترة صراع بين الطائفتين ، فبعد أن انتصرت " المسيحيّة البولسيّة " وبعد نصرها النهائي شكّلت مجموعة نصوصها الرسميّة أي " القانون " الذي يستبعد كلّ الوثائق الأخرى التي لم تكن توافق الخط الذي اختارته الكنيسة وبرغم أنّ " اليهود المسيحيين " قد اختفوا كطائفة ذات نفوذ ، فقد ظلّ الحديث عنهم جارياً تحت اسم المستهودين .. ويتحدّث الكاردينال دانيلو عن نهايتهم قائلاً : (.. بانقطاع " اليهود المسيحيين " عن الكنيسة الكبرى ، التي تحررت تاريخيّاً من روابط اليهوديّة ، سرعان ما فنوا في الغرب ، ولكن يمكن إقتفاء آثارهم من القرن الثالث إلى القرن الرابع بالشرق ، وخاصّة في فلسطين والجزيرة العربيّة ما وراء الأردن وسوريا وما بين النهرين ، وقد إمتصّ الإسلام بعضهم ، وهو جزئيّاً وريثٌ لهم ، وتحالف البعض الآخر مع أرثوذكسية الكنيسة الكبرى مع الإحتفاظ بخلفيّة ثقافيّة سامية ، وهناك شيئ منهم ما زال متشبّثاً بالكنيستين الأثيوبيّة والكلدانيّة ..) .

وعليهِ : من الحريِّ جدًّا على كلِّ باحثٍ أن يتوقّفَ بشكلٍ جديٍّ أمام مجموعة من ضرورات البحثِ العلمي في عمليّةِ التفتيشِ عن المقدّسِ وغيرهِ ، في ظلِّ بيئة خصاميّةٍ وخلافٍ حادّ في المتنِ والتفسيرِ ومجموعة رئيسيّة من المفاهيم ، لأنّ القداسة هي فقط للهِ أو ما هو عن اللهِ .. يجب أن نتوقّف أمام مجموعة من معانٍ قاصرة ، أمام الإضطراب ، أمام التناقض ، أمام النقص .. يجب أن نفتّش عن النصّ الكامل ، لأنَ جزءاً من الحقيقةِ موجودٌ فيهِ .. يجب أن لا يأخذنا

الخوف من أيِّ شيءٍ ، لأنَّ من يطلب الحقيقة يسلك مسالكَها ، حيث الغايةُ لكلِّ طالبٍ رضا اللهُ .. ومع كلِّ هذا ، فقد بقي في المتنِ الموجودِ الآن ما يصحّ أن يطلق عليهِ نصّ معتبر ، وإن كان في غيرِهِ خلل من قصورٍ أو نقصٍ أو اضطرابٍ أو تناقضٍ وشبه ذلك لا يمكن على الإطلاقِ أن ينسب إلى الله .. وسنرى في الفصلِ المخصّص للقرآنِ والنبيّ الذي بُعِثَ به (رسول اللهِ محمّد بن عبد الله) مجموعةً من شواهد في متون الكتاب المقدّس تهتزُّ الأبدان أمام حقائقِها المذهلة ، وهي الشواهد التي قرّر اللهُ تعالى أن تكون دليلاً بارزاً على صدقِ رسالةِ النبي محمّد ، حيث لا يصحّ في حكمةِ الله العقاب دون بيان أو الإحتجاج من دون حجّة ، حيث يأبى الله إلا أن يتمّ نورهُ ..

الأناجيل الأربعة : بحث في المصادر

الذي لا شكّ فيهِ ، ومّا تتّفق عندهُ الأقلامُ والأفكارُ أنَّ كتابات العصر المسيحي تتوقّف أمام فترة كتابة الأناجيل ، أي عند المصادر ، وكما ترى فإنَّ الموضوع في غاية الأهميّة ، لأنّه على مستوى هذا التحقيق تواجهنا مشكلة مفادها أنَّ الكتابات الإنجيليّة لم تظهر قبل كتابات بولس .. وهذا الموضوع دقيق بل غاية في الدقّة ، حيث كانت تراثاً شفويّاً ، ولمدّةٍ طويلةٍ من الزمنِ ، في ظلِّ خلافٍ خصاميٍّ طال حتى أصلَ العقيدةِ بالمسيح وانعكس على المتنِ والتفسير بشكلٍ كبيرٍ وعنيف .. من هنا تكمن الأهميّة ، وتتوقّف عليها مجموعة من آثارٍ ومفاهيم رئيسيّةٍ ، من الضروري لكلّ باحثٍ ومعتقدٍ أن يتوقف عندها .. فأولى

كتابات العصر المسيحيّ لا تشيرُ إلى الأناجيل إلا بعد مؤلّفات بولس بفترة طويلة بمعنى أنّ الشهادات المتعلّقة بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيليّة تظهر فقط في منتصف القرن الثاني وبالتحديد بعد سنة ١٤٠ م .

.. كثير من الكتّاب المسيحيين يُوحون بوضوح منذ بداية القرن الثاني بأنّهم يعرفون عدداً كبيراً من رسائل بولس " .. هذه ملاحظات تعرضها المقدّمة إلى الترجمة المسكونية للعهد الجديد المنشورة عام ١٩٧٢

هنا تبدو الأهمّيّة كبيرة جدّاً في التفتيش عن الأصل الأوّلي للمصادرِ ، متى بدأت تظهر ..؟ ما هي شواهدها ..؟ ولماذا دُوِّنت بهذهِ الطريقة ..؟ وكيف ولماذا تمّ اعتبار بعضِها وأتلف الآخر ..؟ ولماذا تكرّس الإنتصار لفريقٍ على الآخر في زمنٍ خصاميٍّ ..؟ هل الإعتبار ارتكز على مفاد الحجّةِ والدليل أم على أساسِ القوّةِ في ترسيخِ ما يعتقد بهِ فريق دون آخر ..؟ بالأحرى لماذا بولس دون رسُل المسيح .. ؟ هل الرُّسُل أنبياء كذبة ..؟ وماذا عن إنكارهم العنيف على بولس في تعاليمِهِ ..؟ ماذا عن الإتّهام الأعنف والهائل من بولس لهم الذي أسقط قيمتَهم بشكلٍ قاتلٍ في قواميسِ إعتقادِهِ .. ؟ هل يعلم المسيحيّون الأتباع هذهِ الحقيقة بعناوينِها الجارحة ..؟ ألا يعتبر هذا الأمرُ في غايةِ الغرابة ..؟ هل يعلم أتباع المسيحيّة الذين يقدّسون الرسل ويستمعون إلى مواعظِ يومِ الأحدِ فيقرؤون تضحية متّى وبطرس وغيرهم من الذين ضحّوا قرب يسوع المسيح أنّ بولس اتّهمهم بالكذبِ والمكرِ وغير ذلك وأبطل ما في أيديهم تحت عنوان أنّهم أنبياء كذبة ..؟ هل يعلم هؤلاءِ أنّهم يأخذون من بولس لا من غيرِهِ من التلامذةِ

والرسل ، أي يأخذون من الخصمِ العنيدِ لبطرس ويعقوب ويوحنّا ، بل الرجل العنيف الذي حارب المسيح والمسيحيّة بشدّة إلى أن ادّعى أنّه شاهد الربّ (كما في رسالتِهِ ولفظِهِ) ودون شاهدٍ أو بيّنة .. ؟

لا يمكن على الإطلاق الإجابة على مجموعة من هذهِ الأسئلة على نحوٍ يوافق ما عليهِ المسيحيّة الأولى ، بشقّي عصرِ المسيحِ والرسل .. ألا يجب على كلّ باحثٍ أن يتوقّف أمام ركيزةِ هذهِ الأسئلة ليعيد كتابة القداسةِ من جديد وبمعنىً آخر ..! ألا تفترض الحقيقة ضرورة البحث بشكلٍ جديٍّ وطرح الأسئلة الموجعة لإستخراج الحقيقةِ كما هي دون أن يكون للقوّة أو للدعايةِ دور في رصد الواقع وإعادة تدوينِهِ بشكلٍ يناسبها ويوافق إنتصاراتِها .. هنا تكمنُ ضرورة البحث ، فالأناجيل التي أصبحت رسميّة قانونيّة فيما بعد ، أي كَنَسِيَّةً ، لم تُعرَف إلا في عصرٍ متأخّر ، في حين أن تحريرها كان قد تمّ ببداية القرن الثاني وحسب الترجمة المسكونيّة فقد بدأ ذكر الروايات التي تنتمي إلى هذه الأناجيل في نحو منتصف القرن الثاني .. ومع كلّ هذا فإنَّهُ يتعذّر معرفة ما إذا كانت هذه الإستشهادات قد تمّت بعد الرجوع إلى النصوص المكتوبة التي كانت تحت يد الكتّاب ، أو أنّهم قد اكتفوا بذكر أجزاء من التراث الشفهي إعتماداً على الذاكرة .. وفي تعليقات الترجمة المسكونيّة للعهد الجديد : لا توجد على أيّ حال أيّ شهادة تقول بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيليّة قبل عام ١٤٠ م . وهذه الدعوى تناقض ما كتب " أ . تريكو " في التعليقات على ترجمته للعهد الجديد حيث قال : .. منذ وقتٍ مبكرٍ جدّاً ، منذ بداية القرن الثاني ، إستقرّ العرف على إستخدام الكلمة " إنجيل " للإشارة إلى الكتب التي كان القدّيس

جوستين في نحو ١٥٠ م . يسمّيها أيضاً " مذكّرات الرسل " كما انّ عامّة الجمهور لا تعرف إلا معلومات خاطئة عن التاريخ الذي تمّ فيه جمع الأناجيل .

وما هو معلوم فإنّ تاريخ جمع الأناجيل ضروري جدّاً ، فكيف هي الحالُ إذا علمنا أنّ هذا التاريخ كان متأخّراً جدّاً عن عصرِ المسيح بل كيف سيكون أمرُ القداسةِ إذا علمنا أنّ المتن الواحد هو عبارة عن متونٍ أربعةٍ تشكّل عدّة أناجيل ، وفيها شكل واضح من : الإضطرابِ والتناقضِ والقصورِ بل التصادم .. ثمّ انّ الأناجيل الكنسيّة ، لم تكن كلاً واحداً إلا بعد أكثر من قرن من إنتهاء بعثة المسيح ، ولم يتمّ هذا في وقتٍ مبكرٍ . والترجمة المسكونيّة ترجع إلى عام ١٧٠ م تقريباً ، وهو التاريخ الذي إكتسبت فيه الأناجيل الأربعة صفة " الأدب الكنسي " ..

نعم هناك مجموعة من دعاوٍ غير دقيقة في تقريب زمن تدوين الأناجيل إلا أنّها من غيرِ شاهد ، بمعنى أنّها مجرّد تقريب حدسي دون إثباتٍ حسّي ، وهذا كما هو معلوم لا يمكن أن يعتمد كدليلٍ علمي .. من هنا فإنّ ما يتعلّق بتاريخ " تحرير الأناجيل " ودعوى " أ . تريكو " أنّ أناجيل متى ومرقس ولوقا قد حرّرت قبل عام ٧٠ م إدّعاء غير صحيح باعترافِ أهمّ الخبراء والشرّاح الذين ردّوا عليهِ من أنّ هذا غير مقبول ربّما بإستثناء بعض الوثائق .. ولا شكّ أنّ هذهِ الدعوى التي سردها دون أيّ دليلٍ لعدمِ وجودهِ بين يديهِ ، يريد عبرها أن يمرّر فكرة ضروريّة مفادها أنّ محرّري الأناجيلِ هم " رسل " أو رفاق المسيح من خلال تقريب تواريخ التحرير إلى فترات تقارب فترة وجود المسيح .. ولأنّ الأمر هنا في غايةِ الأهميّة ، حيث كلّ الأدلّة تشيرُ إلى أنّ تحرير الأناجيل الموجودة

الآن كان في عصرٍ لاحق على المسيح ، فإنَّ من الضروري البحث في مصادرِها خاصّةً أن التاريخ أقرّ بوجودِ خلافٍ عنيفٍ وتصادمٍ كبيرٍ بين فريقين ، طال الركائز الأساسيّة للمتن والإعتقاد المسيحي ، كان أولى معالمه الصراع الذي نشب بين رُسُلِ المسيحِ وبولس الذي أصرّ على أنّه مبعوث من قبلِ المسيح وأنكر على الرسل ما في أيديهم واتّهمهم بالأنبياء الكذبة ، واعترف بأنّه رشاهم بالمال (إدّعاء) وهم أنكروا عليهِ تعاليمهُ أشدَّ انكارٍ وضلّلوا من تبعهُ واتّهموه بتلفيق التُهَم .. ! (بيئة تصادم واسعة طالت المتن والتفسير) ..

حتى الأشخاص والأسماء يبدو فيها الخلافُ على نحوٍ مستعرٍ .. مَن دوّنَ الوثائق ..؟ مَن هو متّى ..؟ مَن هو يوحنّا ..؟ مَن هو مرقس ..؟ هناك مشكلة رئيسيّة في النسبة الإنجيليّة لأشخاصٍ محدّدين . يظنُّ عامّة الجمهور أنَّ من دوّنَ ذلك هم تلامذة المسيحِ ورسله ، في حين أنَّ تدوين الأناجيل حصل في مدّةٍ متأخّرةٍ لا تسمح بذلك وبشكلٍ وثيقٍ وعلمي ، بل في تعليقات الترجمة المسكونيّة للعهد الجديد : لا توجد على أيّ حال أيّ شهادة تقول بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيليّة قبل عام ١٤٠ م . من هنا فإنَّ ما يتداولهُ الجمهورُ من أنَّ متّى ويوحنّا هم من تلامذةِ المسيح غير صحيح نهائيّاً وباعتراف أهمّ الشرّاح ، وبكلّ ثباتٍ وحقيقة .. كلّ شيءٍ وبشكلٍ علميّ واضح يدلّ على أنَّ الأناجيل لم تكتب على يدِ أيِّ واحدٍ من أصحابِ المسيحِ أو رسله .. من هنا حاول بعضُ الشرّاح تقريب زمن التحرير للأناجيل بهدف تثبيت التدوين ولو بنحوٍ نظريٍّ أو تقريبيّ إلى تلامذةِ المسيح .. حتى يوحنّا الذي جعله " أ . تريكو " يعيش ما يقرب (عام ١٠٠ م) دون أيّ دليلٍ يسردهُ أو حقيقة تؤكّدهُ

سوى ضرورة أن يكون كذلك من أجل محاولة نسبة الإنجيل لهُ .. وأؤكّد على أنّه سرد ذلك دون أيّ دليلٍ أو بيّنةٍ ، وأعطاهُ عمراً يصل إلى مئة عام ، لضرورة أن يصل إلى مدّةٍ ممكنةٍ للتدوينِ في حين أنّ تعليقات الترجمة المسكونيّة للعهد الجديد تؤكدُ على أنّه لا توجد أيّ شهادة تقول بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيليّة قبل عام ١٤٠ م . ومع كلّ هذا ، فقد حاول كثيرٌ من الشرّاحِ تصوير " يوحنّا " على أنّه شديد القرب من المسيح .. هذا من وجهة نظر أدبيّة ، لكن من وجهة نظر علميّةٍ من الصعبِ جدّاً التأكيد على أنّه كاتب الإنجيل الذي يحمل إسمه ، بل لا يمكنُ ذلك ، ولا دليل يدلّ عليهِ ، فضلاً عن أنّ كلّ ما يثبت أنّ تدوين الأناجيل كان متأخّراً ينفي بشكلٍ قاطعٍ نسبة إنجيل يوحنّا إلى تلميذ المسيح المعروف بإسم يوحّنا .. إلا أنّ كثيراً من الشرّاحِ باشَرَ بأكثر من نصٍّ أدبي ودون أي بيّنةٍ محاولة تطويل العمر مرّة وتقصير زمن التدوين مرّةً أخرى بشكلٍ لافتٍ وغير اعتياديٍّ بل وقاصرٍ من أجل تمرير فكرة أنّ تدوين الأناجيل تمّ على يدِ تلامذةِ المسيح ورسلهِ كشاهدي عيان ..

وعليهِ : فإنّ مجموعةً من الشرّاحِ يسردون أكثر من صيغةٍ ونصٍّ أدبي في محاولة لتقريب زمن التدوين من إمكان ولو نظري لعمرِ بعضِ التلامذةِ ، بهدف تمرير دعوى أنّ من دوَّن " المصادر الأوليّة للأناجيل " هم بعضُ التلامذةِ .. من هنا فيوحنّا مثل متّى في نظر " أ . تريكو " وكما هي الحالُ في نظر معلّقين آخرين ، هو الشاهد الكفؤ على الأمور التي سردها .. ومع كلّ هذا فإنّ غالبيّة المعلّقين لا تتمسّك بالفرضيّة التي تقول : إنّه هو الذي حرّر الإنجيل الرابع .. لأنّ الزمن والتاريخ والظروف التاريخيّة ومجموعة واضحة من الأدلّة ضدّ أن يكون

يوحنّا التلميذ هو مَن دوّن الإنجيل المنسوب إليهِ أو الذي يشتركُ معهُ في الإسم .. ربّما شكّل هذا الأمر مفاجئةً بالنسبةِ إلى الجمهورِ لكنّه لن يكون كذلك بالنسبةِ إلى المعلّقين والشرّاح ذوي التقدّم في التحقيقِ والقراءة التاريخيّة لأنّ الأمر واضح جدًّا بشكلٍ جليٍّ ولا يمكن كتمانُهُ ..

يجب أن يتمَّ الإعتراف التاريخي وبشكلٍ علميٍّ بأنَّ من كتبَ الأناجيل ودونّها هو ليس أيَّ واحدٍ من التلامذةِ أو الرسلِ أو الأصحاب ، وأنَّ تدوين الأناجيل جاء متأخِّراً جداً عن عصر المسيح وأنَّهُ لا توجد أيَّ شهادة تقول بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيليّة قبل عام ١٤٠ م .

وهذا كما ترى يفتح الباب أمام واقعٍ آخر ضروري ، مفادُهُ : من هو إذاً الذي دوَّنَ الأناجيل ، هل هو واحد أم أكثر .. ؟ النصّ الأدبي والتسمية والمصادر تدلّ على التعدّد في المدوِّنِ .. بل تدلّ على التعدّد في الأزمان ، في الطبقات .. والمشكلة الأعمق تكمنُ هو الحذفُ والقبول ، تكمنُ في الإعتبار للنصِّ ومنعهِ ، في الكتاب الخصاميّة ، في تدوين عقيدة المنتصرِ الذي استطاع أن يفرض عقيدتَهُ ، في تحوّلٍ هائلٍ طرأ وقد احتفظ لنا التاريخ بمجموعةٍ من معانيهِ حول الإختلاف العقائدي عمّا كان سائداً منذ عصرِ المسيح في كثيرٍ من العناوين من أهمّها الإختلاف الأعنف والتحوّل الهائل في طبيعة المسيح هل هو ناسوت أم لاهوت ..! ها نحنُ اليوم نقرأ السطح والنتيجة ، لكن من يفتح دفّتي التاريخ ويغوص في أعماقهِ يجد ثورةً تلو ثورة وتحوّلاً تلو تحوّلٍ ، ومشكلة تلو الأخرى

كلّها بحاجة إلى إجابة شافية ، وإلا فإنّنا ما زلنا نجترّ أزمةً حقيقيّة .. ولا بدَّ من التأكيدِ على أنَّ هذهِ الكتابات الإنجيليّة التي نعرفها اليوم لم تكن موجودة زمن المسيحِ .. لا أقول أنّه على زمنِ المسيحِ لم يكن من تعاليم ، بل أقول إنَّ هذهِ الكتابات الإنجيليّةِ التي تسمّى اليوم بالأناجيل الأربعة لم تكن على زمنِ المسيحِ ولا على زمنِ تلامذتهِ أو رسلِهِ ، ولم يكتبها الرسل .. من هنا فإنَّ سؤالاً أساسيًّا يفرضُ نفسهُ علينا بشكلٍ منطقيٍّ ضروري مفادهُ : إذا كان من العسير إعتبار هذه الأناجيل الأربع " مذكّرات رسل " فمن دوَّنها وما هو أصلها .. ؟

من الضروري جدّاً معرفة أنَّ هذهِ الأناجيل ليست مذكّرات رسل وأنّها دوّنت في عصرٍ بعيدٍ عن عصرِ المسيحِ ، وأنَّ بيئتَها كانت خصاميّة وعلى نحوٍ عالٍ من الإسقاطِ والبراءة والإنكار بين فريقين .. وأنَّ فيها ما يدلُّ على أنَّ يدَ البشرِ تسلّلت إليها بشكلٍ وآخر .. وأين تقرأ للمعلّقين والشرّاح الذين يتناولون مثل هذهِ الجهات تجد إقراراً ضمنيّاً أو علنيّاً يدلُّ على ذلك لوضوح الأمر واستحالةِ كتمانهِ سوى مجرّد صيغة أدبيّة أو تفسير تكلّفي أو تبرّعي .. ولا بدَّ من الإلتفات إلى أنَّ الإنجيل قبل التدوين كان مجرّد تراث شفهي ، ثُبِّت فيما بعد على شكل حرفٍ وكتابةٍ في ظلّ صراعٍ محمومٍ خصامي في التصحيحِ والإبطالِ والقبولِ والإنكارِ وغير ذلك .. يقول " أ . كولمان " في كتابه العهد الجديد ١٩٦٧ :

.. إنّ المبشّرين لم يكونوا إلا محدّثين بإسم الجماعة المسيحيّة الأولى التي ثبّتت التراث الشفهي ، فقد بقي الإنجيل طيلة ثلاثين أو أربعين سنة في شكله الشفهيّ ... ولكنّ التراث الشفهيّ قد نقل أساساً

أقوالاً وروايات منعزلة ، وقد نسج المبشّرون كلٌّ طريقته وبحسب شخصيّته الخاصّة وإهتماماته اللاهوتيّة الخاصّة الروابط بين هذه الروايات والأقوال التي تلقّوها من التراث السائد إنّ تجميع أقوال المسيح وربط الروايات بصيغ غامضة مثل : وبعد هذا ، وما إن ، إلخ وبإختصار إطار الأناجيل المتوافقة كلّ هذا أدبيّ الطابع ، وليس له أساسٌ تاريخيّ "

ثمّ يضيف قائلاً : " .. ويجب ملاحظة أنّ إحتياجات التبشير والتعليم ، والممارسة الدينيّة ، هي التي دعت الجماعة الأولى إلى تثبيت هذا التراث عن حياة المسيح بأكثر من إهتمامها بتسجيل حياة المسيح . كان الحواريون يوضحون حقائق الإيمان الذي يحضّون عليه بسرد أحداث حياة المسيح ، وإنّ مواعظهم هي التي خلفت ظروف تثبت هذه الروايات ، أمّا أقوال المسيح فقد إنتقلت بشكلٍ خاصّ عبر تعليم الكنيسة الأولى الدينيّ .. " .

ويبقى الأمر غامضاً في أكثر من جانب حول التدوين ، كيف حصل ظرفاً وبيئةً وإطاراً ... ولا تعطينا مجموعة من الدراساتِ حول هذا المعنى إلا القليل ، وهذا ما سنتعرّض لهُ فيما بعد .. والذي يدعونا إلى طرح أمثال هذهِ المواضيع على مشرحةِ البحث هو أنّ ما تحتضنهُ الأناجيل في أكثر من ناحيةٍ ومقامٍ فيهِ قصورٌ واضطرابٌ وتناقض ، بل ليس فيهِ نصّ كامل ، بل فيهِ أكثر من علامة وإشارة وشاهد على تسلّل القصور والقصد البشري إليهِ ، وهذا يضرب عمق القداسة ، ويفرض على الباحثِ أن يفتّش من جديد عن أصل النصّ ، عن طبيعة النصّ ، عن حقيقة النصّ وروابطه ، هذا بالإضافةِ إلى ما أشرنا إليهِ من

خلافِ الفريقين حول القبول للنصِّ ورفضِهِ ومجموعة أساسيّة من التفاسير والتحوّلات الكبرى في المضامين .. ولا يذكر المعلّقون على الترجمة المسكونيّة " مراحل تكوين الأناجيل " بدءاً من تشكّل التراث الشفهيّ بتأثير تبشير تلامذة المسيح وغيرهم من المبشرين وصولاً إلى بقاء هذهِ التعاليم التي نجدها في الأناجيل بفضل التبشير والطقوس وتعاليم المؤمنين ثمّ الترجمة إلى حرفٍ مكتوبٍ لبعض العناوين ولبعض أقوال المسيح وروايات آلامه وحياتِهِ وهدايتِهِ للناس ، ثم إستعانة المبشّرين بهذه الأشكال المكتوبة المدوّنة إلى جنبِ استعانتهِم بالتراث الشفهيّ حتى يكتبوا نصوصاً تتكيّف مع تحدّيات الزمان وشؤون الأتباع للدين المسيحي وتستجيب في نفس الوقت لإحتياجات الكنيسة وتعبّر عن كتابٍ مقدّسٍ جامعٍ يضافُ إلى ذلك تصحيح الأخطاء ، والردّ على حجج الخصوم وإعلان المسيحيّة ديناً له كتاب يسجّل أحداث المسيحِ في طولِ مسيرتِهِ وهدايتِهِ ، ويؤرّخ للمرحلة الأهمّ في بعثتهِ عليهِ السلام .. بهذا الشكل جمع ودوّن المبشّرون ، كلٌّ حسب قدرتِهِ ووجهة نظرِهِ وطريقتِهِ ما أعطتهم إياه الأقوال المتوارثة الشفهيّة .. وبطبيعة الحال ، هناك أسئلة ضروريّة تفتّشُ عن أجوبة .. عن طبيعة النقل الشفوي ، عن طبيعة الإعتبار لبعضِ التراثِ ، عن طبيعة الإلغاء الذي طال مجموعة واسعة من مفاهيم وعناوين كانت شائعة ومتداولة ، بل عن الإطار الذي اعتمد في القبولِ والرفض ، في حين نعلم أنّ مجموعة من ترجمةِ هذا الشكل الشفوي إلى مكتوب تمّت بعد إنتصارِ فريق على آخر في ظلّ خلافٍ خصاميّ كبيرٍ على النصّ مرّة وعلى التفسيرِ مرّةً أخرى ، بل في ظلّ براءةٍ كبيرةٍ ممّا عند الفريق الآخر وبشكلٍ معكوسٍ وصل إلى حدٍّ إتهام كلّ فريق الفريق الآخر بأنّه من الأنبياء الكذبة ..! إنّ هذا الموقف الجماعيّ المتّخذ الذي صدر عن أكثر من مائة مفسّر للعهد

الجديد " كاثوليك وبروتستانت " يختلف بشكل واضحٍ عن المنهجِ الذي عرفه المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني في دستوره العقائدي عن التنــزيل ، هذا الدستور الذي أعدّ فيما بين عامي (١٩٦٢ ــ ١٩٦٥) لقد إستطاع المجمع المسكوني أن يعلن بشأن العهد القديم أنّ الأسفار التي تكوّنه بالتالي : " تحتوي على شوائب وشيئاً من البطلان " .

وهذا أمر جدير بالإنتباهِ والإلتفات لأنّ في ذلك إشارة إلى أنّ القداسةَ كلّها لا يمكن أن تلفّ جميع النصوص وهو إقرار ضمني كبير بتسلّل يد الإنسان وذهنه إلى تلك الكتابات ، بل هو وفير البيان في وجود أزمة نصّ كامل .. ومع كلّ هذا التلطيف الذي حاول المفسّرون أن يعطوهُ حتى في ذلك الظرف فإنّ أزمة هويّة المصادر وأزمانِها وأشخاصِها كانت موجودة بقوّة ما بين السطور .. ومع كلّ هذا فقد حاول التقرير أن يُطَمئن الذين يهمّهم الأمر أنّ الأناجيل كانت منذ الزمنِ الأولِ على نحوٍ من ثبوتٍ وصحّةٍ نهائيّة فقال : " لا يغفل على أيّ إنسان أنّ من بين كلّ الكتب المقدّسة ، بل حتى كتب العهد الجديد ، كان هناك ما يتمتّع بحقّ بالإمتياز مثل الأناجيل بإعتبار أنّها تكوِّنُ شهادةً حقيقيّةً عن حياة ودرس الكلمة المجسّدة أي منقذنا ، فدائماً وفي كلّ مكان حفظت الكنيسة وما زالت الأصل الرسولي للأناجيل الأربعة ، والواقع أنّ ذلك هو الذي دعا إليه الرسل بأمر المسيح ، فقد نقلوا إلينا أنفسهم والناس الذين كانوا يحيطون بهم وبتأثير من الوحي الإلهي للروح كتابات هي أساس الإيمان ، ونعني الإنجيل ، الإنجيل حسب متى ومرقس ولوقا ويوحنّا .. " .. إنّ كنيستنا الأمّ المقدّسة قالت وتقول بحزمٍ وثبات دائمين إنّ هذه الأناجيل الأربعة التي تؤكّد تاريخيّتها

دون أيّ تردّد ، تنقل بشكل أمين فعلاً أقوال وأفعال المسيح طيلة حياته بين البشر لخلاصهم الأبديّ وإلى أن رفع إلى السماء ... إنّ الكتّاب الدينيين إذن يؤلفون الأناجيل الأربعة بشكل يسمح بإعطائنا دائماً عن المسيح أموراً حقيقيّة ومخلصة .. " .

إلا أنَّ مجرّد الصياغة الأدبيّة عبر أيّ مقامٍ عالٍ في اللاهوت لا يكفي لمنع أيّ تشكيكٍ أو إعادة قراءة ضروريّة لما عليهِ الأناجيل في ظلّ وجود مجموعة من عناوين قاصرة ، وبعضها مضطرب ، وغيرهُ على نحوٍ واضحٍ من التناقضِ ، لا يمكن أن ينسب كنصٍّ كليٍّ إلى الإنسانِ فضلاً عن الله ، وعليه : القداسةُ تحتاجُ إلى أجوبةٍ شافيةٍ حول هويّةِ مَن دوَّنَ الأناجيل والإطار الذي تمّ به قبول ورفض المصادر في تعدّدِها ، في حين أنَّ كلّ الشهادات التاريخيّة تؤكّدُ أنّ تدوين الأناجيل جاء متأخِّراً جدّاً عن عصر المسيح وأنَّهُ لا توجد أيّ شهادة تقول بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيليّة قبل عام ١٤٠ م . فأين من هذهِ الحقائق ممَّا يُدّعى كنسيَّاً من أنَّ النقل كان بأمانة لأفعال وأقوال المسيح ..! كيف يتّفق هذا مع دعاوى الخبراء ومجموعة مشهورة من الشرّاح والكتّاب الذين يؤكّدون على أنّه " لا يجب الأخذ بحرفيّة الأناجيل الأربعة ، فهي كتابات ظرفيّة وخصاميّة حدّد محرّروها كتابة تراث جماعتهم عن المسيح كما يقول الأب كانينجسر .

وعلى كلّ حال فالثابت وبشكلٍ نهائيٍّ أنَّ هناك مشكلة " نصّ كامل " غير موجود ، ولا يمكن التغلّب على هذهِ الحقيقة بمجرّد تطمين أدبي أو مجمّع تقريري لا يدعّم ما يقولهُ بدليلٍ من شواهدِ التاريخِ ووقائع التدوين .. وفي

الترجمة المسكونيّة للعهد الجديد : " .. الأناجيل تتكيّف مع مختلف الأوساط وتستجب لإحتياجات الكنائس ، وتعبّر عن فكر الكتاب المقدّس ، وتعدل من الأخطاء بل ترد بهذا على حجج الخصوم . وبهذا جمع المبشّرون وحرّروا كلٌّ حسب وجهة نظره الخاصّة ، ما أعطاهم إياه التراث الشفهيّ .. " . لا شكّ أن الإعتراف بواقعِ الحال ضروريّ لأنّ طبيعة التواريخ وحقائقها تفرض ذلك ، وإلا تسلّل الشكّ والإشتباه إلى كثيرٍ من متونِ ما أُسبِغت عليهِ صيغةُ القداسة .. وهذا يضعنا أمام حقيقة مفادها أنّ ما يصدر من تطمين فيهِ نوع من خللٍ بادٍ ، فهذا التصريح المسكوني وبهذا الزمن القريب يضعنا أمام أزمة حقيقة ، ويفرض الشكّ العلمي كضرورة لا بدَّ منها للوصولِ إلى شكلٍ من أشكالِ القداسةِ الممكنةِ وضمن حدودِها ومعاييرها وذلك بعد تحرٍّ وكشفٍ وأجوبةٍ علميّةٍ نهائيّة ، من هنا تتعارض الدعاوى في التقارير اللاهوتيّة ويبدو التناقضُ جليّاً بين الدعويين ، فلا يمكن التوفيق بين تصريح الفاتيكان الثاني الذي يقول : إنّ ما في الأناجيل الأربعة هو نقل أمين لأقوال وأفعال المسيح ، وبين ما تقوله ترجمة المجمّع المسكوني للعهد الجديد من وجود تناقض في هذه النصوص وأمور غير معقولة وإستحالات ماديّة ودعاوى معاكسة لأمور تمّ التحقّق من صحّتها . وهذا يعني أنّ خلافاً جوهريّاً تمّ على الحقيقة ، على الأقلّ في بعض النصوص ، ممّا يعني أنّ نقلاً أميناً كليّاً لم يتمّ ، وأنّ شيئاً باطلاً هو موجود فعلاً في متن الكتاب المقدّس وعلى الأقلّ فإنّ النسبة الإلهيّة لهذهِ الأناجيل أضحت موضع شكٍّ في أكثر من متنٍ .. ومن الطبيعيّ أن نشير إلى أنّ التناقض والخطأ هو علامة كتابة الإنسان وليس الله ، فالخطأ يجوز على الإنسان ، لكنّهُ لا يجوز على الله . وهذا يدلّ على أنّ النقل لم يكن أميناً ، وإلا فلا تناقض في أقوال وأفعال من ينطق عن لسان الله

كسفيرٍ مبعوثٍ ، وإلا بطلت الغاية من بعثة النبيين والرسل . إلا أنّ نهاية المشكلةِ ليست هنا ، لأنّ معرفة هويّة مَن دوّن ، والمصادر ، والتغيير الذي أصاب المتن الأخير في النسخِ ، بل في تأييد المعتقد كما سنرى فيما بعد ، بل الإتلاف للمصادر ورفض قبولها وإعلان عدم شرعيّتِها تحت عناوين خصاميّة ، كلٌّ هذهِ وغيرها فرضت نفسها بشكلٍ كبيرٍ على محورِ القداسةِ وعدمِها ، بهدف إعادة قراءة تاريخ التدوين ، بعدْ أن انتصر فريق بولس الذي أعلن عداءهُ لتلامذةِ المسيحِ فكان أن أقام مجموعة مصدريّة هيكليّة في المتنِ والتفسير .. من هنا فإنّ الضرورة تقتضي النظر بمجموعة من هذهِ العناوين لمناقشتِها ، في ظلّ دعوى بدأت تطلّ برأسِها وبشكلٍ لافتٍ تدّعي الشق الأدبي للكتابةِ الإنجيليّة أكثر من الشقّ التاريخي في أكثر من ناحيةٍ وإطارٍ من أجل حصر التناقض والنقصان في جانبِ الإنسانِ فضلاً عن التدوين والترجمةِ وإطار القبول والرفض الخصامي وشبه ذلك ..

إنجيل متى

وفق القاعدة الأوّليّة في إسباغ القداسة على ما دُوِّنَ تسجيلاً ، ولو من بابِ نقل التراث الشفوي إلى مكتوب لِمَا جاءَ بهِ المسيح ، فقد برزت الأناجيل الأربعة على أنّها موضع ثقة الكنيسة واللاهوت ، وبالتالي هي ذات قداسة لازمة تمنع من التشكيكِ فيها ، وقد سرد كثيرٌ من المجامع إشاراتٍ أدبيّة تؤكّد أنّ الكنيسة حافظت على التعاليم ونقلتها إلى الأجيالِ اللاحقةِ .. إلا أنّ كتابة

الأناجيل كما أشرنا سابقاً جاءت متأخّرة ، ولا يمكن بحالٍ من الأحوالِ ادّعاء أنّ الرسل دوّنوها ، لأنّ الأناجيل دُوّنت بتواريخ بعيدة .. وقد أشرنا فيما سبق إلى أكثر من صفةٍ وحالٍ تعتري النصّ وكلّ شيءٍ يثبت أنّه لا يوجد نصّ كامل وما في متنِ الأناجيل يعاني في أكثر من ناحيةٍ وعنوانٍ من اضطرابٍ وتناقضٍ وتجزءةٍ وقصورٍ وشبه ذلك يمنع من نسبتِهِ إلى الله بشكلٍ واضحٍ ..

وعلى كلّ حال فقد كان إنجيل متّى من ضمن الأناجيل التي نالت الثقة والقداسة ، وهو يحتلُّ المكانة الأولى بين الأناجيل الأربعة من جهةِ ترتيب أسفار العهد الجديد ، ويبرّرُ تلك المكانة أنّ إنجيل متى هو إمتداد للعهد القديم ، فقد كُتِبَ ليثبت أنّ المسيح " يكمّل تاريخ إسرائيل " لذا فإنّه يستشهد بفقرات من العهد القديم تشير إلى أنّ المسيح يتصرّف كالمسيح الذي ينتظره اليهود .

وإليك مجموعة مختصرة من خصائصِ هذا الإنجيل :

- يبدأ إنجيل متّى بشجرة نسب المسيح ، فيجعل متّى المسيح منتسباً إلى إبراهيم عن طريق " داود " .

- في هذا الإنجيل يوجّه المسيح تعاليمه إلى شعبه ، إلى بني إسرائيل وقد ورد في ذلك : (.. إلى طريق الوثنيين لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل إذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة ..)[1] .. (لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة ..)[2]

---

[1] (متى الإصحاح ١٠ الآية ٥ و ٦) .
[2] (متى ، الإصحاح ١٥ الآية ٢٤) .

- يشير هذا الإنجيل إلى باقي الأمم ، لكن على نحوٍ لا يتّصل بضرورةِ الدعوةِ ، إنّما بنحوٍ من أنحاءِ تلمذة الأمم وعلى نحوٍ إستثنائي وقد عبّر اللاهوتيّون عن ذلك بأنّه دعوة غير رئيسيّة ، حيث يشيرُ في خاتمة إنجيله إلى الأمم وتبشير تلاميذ المسيح الأولين الاثني عشر ، وينقل عن المسيح قولهُ : " فاذهبوا وتلمذوا جمع الأمم " [١]

من هي شخصية متى

المشكلة الرئيسيّة التي تواجهنا هنا هي أنّ شخصيّة متى لا يمكن أن تكون تلك التي عُرفت في المتنِ الإنجيليّ عن " متّى الحواريّ " ، صاحب وتلميذ المسيح فالأناجيل كُتبت في زمنٍ متأخّرٍ . كلُّ الشهادات التاريخيّة تؤكّدُ أنّ تدوين الأناجيل جاء متأخّراً جدّاً عن عصر المسيح ، وأنّهُ لا توجد أيّ شهادة تقول بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيليّة قبل عام ١٤٠ م . وبالتالي لم يعد مقبولاً اليوم القول أنّ متى هو أحد حواريي المسيح ، ولا يكفي أن يشير واحدٌ من اللاهوتِ أو أيِّ مجمّع إلى ذلك ، لأنّ الصياغة الإنشائيّة دون دليل لا تكفي أمام حقائق التاريخ ، من هنا فقد حاول أكثر من واحدٍ الإيحاء إلى أنّ متىّ هو من حواريي المسيح كما يقدّمه " أ . تريكو " في تعليقِهِ على ترجمة العهد الجديد المنشورة عام ١٩٦٠ فيقول : إسمه متّى ، وإسمه قبل ذلك ليفي وكان عشاراً أو جابياً بمكتب الجمارك أو ضرائب المرور بكفر ناحوم عندما دعاه المسيح ليجعل منه أحد تلامذته .. إلا أنّ هذهِ الدعوى دون أيّ دليلٍ أو شاهدٍ تاريخيّ بل دون

---

[١] (متى الإصحاح ٢٨ الآية ١٩) .

أيِّ مساعدٍ على الإطلاق ، ولقد كان هذا الإعتقادُ سائداً على نحوٍ من دعوى إنشائيّة أدبيّة دون أيّ دليل ، أمّا اليوم فلقد انتهى مثل هذا الإدّعاء ، ولم يعد يُساق كتعبيرٍ إنشائي ، لأنَّ الدليل والحقائق تجافيه .. وهذا ما كان يعتقده آباء الكنيسة من قبل مثل أوريجين وجيروم وإبيغان ، ولكن اليوم لم يعد أحد يعتقد بمثله في عصرنا الحاضر . نعم من ضمن العناوين البارزةِ وهي أمرٌ ثابتٌ لا جدال فيه ، أنّ هذا الكاتب يهوديّ .. أمَّا بالنسبةِ إلى المعلّقين على الترجمة المسكونيّة ، فإنّ أصل هذا الإنجيل يبدو على النحو التالي : يقدّر أنّ إنجيل متّى قد كتب بسوريا وربّما بإنطاكية .. أو بفينيقيا ، ففي هذه المناطق كان يعيش عددٌ كبيرٌ من اليهود ، ويذكر بعض آخر إمكانيّة أن يكون قد كتب في الإسكندريّة حيث ربّما كانت تعيش طائفة يهوديّة مسيحيّة في الإسكندريّة .

أما عن تاريخ كتابة هذا الإنجيل ؟ فيبدو الأمر أكثر اضطراباً حيث لا توجد أيّ شهادةٍ أو دعوى تاريخيّة على أنَّ هذا الإنجيل قد دُوِّن قبل ١٤٠ م في حين أنَّ بعض الكتّاب أشار إلى أنَّ تاريخ تدوين هذا الإنجيل على يدِ متّى وأنَّه ربّما حصل ما بين عام ٨٠ و٩٠ م . لكنّه عاد واعترف أنّه لا توجد أيّ علامة تاريخيّة ولا دليل يدلّ على ذلك ، إنما هو مجرّد محاولة لتحديد تاريخ ما ، ويقرّ أنّه لا يمكن الوصول إلى يقين تام في هذا الموضوع .. وفي الطرفِ المقابلِ ، فإنَّ كلّ الشهادات التاريخيّة تؤكّدُ أنَّ تدوين الأناجيل جاء متأخِّراً جدّاً عن عصر المسيح وأنَّهُ لا توجد أيّ شهادة على الإطلاق تقول بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيليّة قبل عام ١٤٠ م . وعليهِ : فإنَّ ولادة إنجيل متّى وتدوينه لا يمكن أن تكون قد تمّت قبل هذا التاريخ ..

الأهمّية الأكثر ضرورة هي أنّ إسم المؤلّف لهذا الإنجيل (إنجيل متّى) غير معروف بالتحديد وبشكلٍ نهائيّ ..! وبالتالي أيّ سيرةٍ تفصيليّةٍ له غير موجودة .. وقد حاول البعض التعرّف عليهِ من خلالِ إنجيل متّى وفق الصورة التالية : هو معروف بمهنته ، وأنّه متبحّر في الكتب المقدّسة والتراث اليهودي ، وأنّه يعرف ويحترم رؤساء شعبه اليهود ، وإن أغلظ في خطابه لهم ، كما أنّه أستاذ في فنّ التدريس وفي إفهام قول المسيح مع تأكيده الدائم على ضرورة الإلتزام العملي بذلك ، وأنّه يتّفق جيّداً مع ملامح " يهوديّ متأدّب " إعتنق المسيحيّة .. وهو معلّم مميَّز .. ويشيرُ بعضهُم إلى أنّ متّى قد كتب إنجيله إعتماداً على " مصادر مشتركة " بينه وبين مرقس ولوقا ، إلا أنّها لم تكن مشتركة كلّ الإشتراكِ وبشكلٍ كاملٍ ، من هنا جاء الإختلاف في رواياتِهِ ، وفي أكثر من جهةٍ ومتنٍ بل في نقاط جوهريّة وتعليقاً على هذا الأمر يقول " أ . كولمان " : ومع ذلك فقد إستخدم متى بشكلٍ واسع إنجيل مرقس الذي لم يكن أحد حواريي المسيح ..

ويصرّ البعض على أنّ المصادر والإطار الذي تمت على أساسِهِ منظومة التدوين (سواء كانت شفويّةً أم مكتوبةً أم متناثرةً هنا وهناك ، ومع الإتفاق على أصلٍ أولي هو أنّ المصادر الأوليّة كانت شفويّة) لم تكن على نحوٍ منقولٍ إلينا في إطارِها وخصائص منعِها أو قبولها ، إنّما بقي الأمر طيَّ الكتمانِ ، حيث تعامل متى مع النصوصِ والمصادر وبُناها وفق قاعدةٍ مجهولةٍ بالنسبةِ لنا ، إلا أنّ ذلك تم في ظرفٍ تصادميٍّ غلبت فيهِ تعاليم بولس على غيرها من تعاليم رسل المسيح وحوارييهِ ، في حين لم يكن بولس فيما سبق من أتباعِ المسيحيّةِ ولا من

محبّيها ، بل كان من أعداءِها اللدودين .. وبطبيعة الحال فإنّ الظرف والبيئة واحدة من العناوين الرئيسيّة التي لا بدَّ من التوقفِ عندها فيما بعد .. وإذا أضفنا مجهوليّة الكاتب متّى إلى مجهوليّة الإطار في التوثيقِ والنقلِ والتدوين أو في ترجمة المنقول التراثي الشفهي إلى مكتوبٍ مسندٍ إلى المسيحِ فإنّ النتيجة لن تكون على نحوٍ إيجابي بشكلٍ جيّد .. !

المشكلة أنّ هناك أكثر من علامةٍ وإشارة تؤكّد أنّ متّى تصرّف بشكلٍ واسعٍ في التدوين وبطريقةٍ أدبيّةٍ غير مقيّدة بحدٍّ وضرورةٍ علميّةٍ ، في أكثر من عنوانٍ وجهة ، كما هي الحالُ في الحريّة الواسعة التي تصرّف على أساسِها فيما يتعلّق بالعهد القديم بخصوص نسب المسيح ، وقد ألحق بكتابه روايات يستحيل بالدقّة تصديقها كما في تعبير " الأب كانينجسر " في كتابه ، وذلك عندما يتحدّث عن رواية " قيامة المسيح " ، والمقصود هنا الجزء الخاصّ بالحراس . فالكاتب يبرز عدم معقوليّة حكاية حراس القبر العسكريين .. " هؤلاء الجنود الوثنيُّون الذين يذهبون بتقريرهم ليس إلى رؤسائهم الوظيفيين وإنّما يذهبون إلى كبار الكهنة الذين يرشونهم ليقولوا أكاذيب .. " ويضيف : علينا أن نحاذر من السخرية ، ذلك أنّ نيّة متى نيّة جديرة بالإجلال ، حيث يُدخِلُ بطريقته الخاصّة إلى مؤلّفه المكتوب معطيات قديمة من التراث الشفهيّ ، هذا إخراج تمثيليّ جدير بفيلم كفيلم المسيح نجماً سينمائيّاً ..! ولا بدَّ من التركيز على أنّ هذا الحكم القاسي على متّى صادر عن عالم لاهوتي مبرّز ، وهو أستاذ بالعهد الكاثوليكي بباريس .. وهذا بطبيعة الحال يستدعي العودة إلى ما أشرتُ إليهِ سابقاً من ضرورة التوقّف عند الإطار والمنهجيّة والأسس في القبول والرفضِ والإسنادِ

والتوثيق .. وهذا الأمر لا يجوز المرور عليهِ بشكلٍ طبيعي ، بل لا بدَّ من إجابةٍ علميّةٍ شافية .. وهذا لن نجدهُ ، ما يستدعي منّا إعادة النظر مليّاً بنوعٍ ومستوى محدّد من قداسة المنسوبِ إلى المتن ..

إنَّ إعطاء الخيال سرباً واسعاً في تسجيل أمور لها صلة بمشهديّةِ الواقعِ لا يجوز على الإطلاقِ أن يكون على حسابِ الواقعِ لصالحِ الذهنِ ومنقولاتِهِ لأنَّ هذا يفقدها جزءاً رئيسيّاً من صدقيّتِها وينسف بُنى القداسةِ لذلك الجزء ويتسلّل منهُ إلى غيرِهِ ممّا لم يثبت عليهِ شاهدٌ من تاريخٍ أو بيّنةٍ من رسالةٍ ومنقول .. الأمثلة كثيرة في هذا المجال ، وهي تثبت أنَّ متّى لم يتوقّف عند حدود النصّ الكاملِ المنتزع من عينِ الواقعِ كما هو ، بل تعدّاهُ ، من هنا فإنَّ الأب كانينجسر يعطي مثالاً آخر على خيال متى الواسع في سرده للأحداث التي تواكب موت المسيح فيقول : (.. وإذا حجاب الهيكل قد انفلق إلى إثنين من فوق إلى أسفل ، والأرض تزلزلت ، والصخور تشقّقت والقبور تفتّحت ، وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين ، وخرجوا من القبور بعد قيامته .. ودخلوا المدينة المقدّسة وظهروا لكثيرين ..)[١] ليس لهذه الفقرة من إنجيل متى مثيل في الأناجيل الأخرى (الإصحاح ٢٧ الآيات من ٥١ إلى ٥٣) ويشكّك المعلّقون في كيف استطاعت أجساد القدّسيين المعنيين أن تقوم عند موت المسيح قبل يوم السبت كما تقول الأناجيل الأخرى ويعلّق العديد على هذه الحادثة باللامعقولة ، قياساً على مفهومهم لقيامة وموت المسيح ولما عليه الأناجيل الأخرى .. إنَّ هذا الأمر يطرح علينا سؤالاً مكرّراً مجدّداً مفادُهُ : ماذا تعني الوثاقة للكتابِ .. ؟ وما هي

[١] قيامة المسيح .

ضرورة التدوين والنقل .. ؟ وهل يجوز أن نعطي القداسة أمراً ثبت في أكثر من نقطةٍ رئيسيّةٍ ضرورةُ بطلانِها أو عدم اعتبارها .. ؟ وبكلمةٍ أخرى : لماذا نثق بما كتب متّى ؟ وبما ؟ وما هي حدودهُ ؟ وما هي كفالتُهُ .. ؟ وهل التوثيق الخصامي يكفي .. ؟ أم أنّنا بحاجةٍ إلى أدلّةٍ دامغةٍ توثيقيّةٍ بعد أن تبيّن أنّ هناك مجموعة مضطربة قاصرةً تدلّ على ذهنيّةِ كاتبها وليس على قداسةِ النقلِ المنتزعِ من عينِ الواقعِ كما هو .. ؟ لا شكَّ أنّ الإجابة هنا جارحة وموجعة ، لأنّ محاكمة النصّ تشير إلى قصورٍ في أكثر من عنوانٍ ومرتكزٍ ، بل تتعدّاهُ إلى الإطارِ وبُناه ..

هناك العديد من الشواهد ، أولها يبدأ بأزمة جهل هويّة من كتب ، وصولاً إلى أزمة نصّ كامل ، إلى أزمة إضافات بشريّة خياليّة ، إلى أُطُرٍ أدبيّةٍ سيقت في مقام الإضافاتِ المعنويّةِ ، بل في أكثر من مقامٍ لعناوين عقائديّةٍ ضروريّة ..! بل قياساً على المدوّنِ في الوثائقِ الأخرى هناك ما يشبه الإستحالة في تصديقِ مجموعة من معانٍ وقصصٍ مسرودة .. وهذا يدلّ على أزمة حقيقة تسري بخطورتِها إلى الكاتبِ نفسِهِ .. من تلك الأمثلةِ يسرد متى حادثة آية يونس كما يلي : (المسيح بين قوم من الكتبة والفريسيين ، يخاطبونه بهذه الألفاظ : يا معلّم نريد منك آية . أجابهم المسيح : جيل شرّير وفاسق ، يطلب آية ! ولا يعطى له آية أخرى إلا آية يونس النبيّ ، لأنّه كما كان يونس في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ هكذا يكون إبن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ ..)[1] ففي هذهِ القصّة يعلنُ المسيح أنّه سيظلّ ببطن الأرض

---

[1] الإصحاح ١٢ الآيات من ٣٨ إلى ٤٠ .

ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ ، لكنّ متى ومعه أيضاً لوقا ومرقس يحدّدون موت ودفن المسيح بما قبل السبت بيوم ، وهذا بالتأكيد يجعل بقاء المسيح في الأرض ثلاثة أيام لكنه يحتوي على ليلتين فقط وليس على ليالٍ ثلاث كما في النصّ اليوناني .

إنّ هذا يدلّ على عدم دقّة ، على مشكلة ، على أزمة ذهن بشري ، على نقلٍ مغلوطٍ ، على انتزاعٍ غير تام من الواقع ، وهذا ما نريد أن نشير إليهِ ، للدلالةِ على أنّ للبشرِ يداً في التصويرِ ونقلِ الأمور وعلى نحوٍ لا يتّصل بضرورة الوحي كما هي في تدوين الأناجيل ، وإنْ في جهاتٍ متنيّة محدّدة ، لذا قلنا إنّ الضرورة التاريخيّة وشرط القداسة يدعونا إلى إعادة النظر مليًّا بتاريخ التدوين وزمنِهِ ، ببيئةِ التدوين ، بالأشخاصِ الذين دوّنوا ، بإطار القبول والرفض للمصادر ..

ربّما يقول البعض إنّ مثل هذهِ الأخطاء مغفورة ، لكنّه يعترف أنّ هناك مجموعة جوهريّة غير مغفور ما وقع فيها ، لكنّه يركّز كما ركّز الكثير من اللاهوتيين والشرّاح على أنّ روح الإنجيلِ موجودة وهذا يكفي .. وهذا كلام غير دقيق نهائيًّا ، ولا يفيد في مقام الإحتجاج العلمي ، ففي المنطق العلمي الأمور مختلفة ، كلّ متنٍ يحتاجُ إلى آليّةٍ للقبولِ من مصدرٍ وتوثيقٍ وشواهد وشبه ذلك ، وهذا الأمر متعب في مقامِنا هذا ، وقد مرَّ عليك بمجموعة من الشهادات الحديثة في مضمونٍ ما أشيرُ إليهِ الآن من عجزٍ وقصورٍ ومشكلةٍ وتناقضٍ .. فلا يمكن على الإطلاق مجرّد إطلاق دعوى مفادها أنّ روح الإنجيلِ موجودة .. إنّ هذا الكلام خطير في ضوءِ معرفتنا التحوّليّة في خصوصِ مجموعة من أسسِ هيكلةِ الإعتقادِ ، والتي منها مسألة الخلاف الأعمق في حقيقة المسيح بين الناسوتِ

واللاهوت .. لقد وصل الأمر إلى حدّ إعلان حقيقة المسيح لاهوتيّة ومن دون أيّ متنٍ أو دليلٍ منقولٍ سوى مجموعة إدخالاتٍ أجنبيّةٍ بشكلٍ مطلقٍ ، إنتصاراً لمذهبِ بولس ليس أكثر بعد أن كان الإعتقاد السائد بشكلٍ نهائيّ أنّ حقيقة المسيح ناسوتيّة ..

إنّنا ننطلق من دعوى أنّ كتبة الأناجيلِ رسل وتلامذة للمسيح ، فنجد أنّ كلّ الدعاوى والشواهد التاريخيّة تؤكّدُ أنّ تدوين الأناجيل جاء متأخِّراً جدّاً عن عصر المسيح ، وأنَّهُ لا توجد أيّ شهادة على الإطلاقِ تقول بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيليّة قبل عام ١٤٠ م . ثمّ نجد مجموعة من تناقضاتٍ واختلافٍ وقصورٍ واضطرابٍ متني في الأناجيل تزيد من أزمة التفتيش عن النصّ الكاملِ الصحيحِ المنقولِ عن المسيحِ (ع) .. من هنا فإنّنا نجد كثيراً من المعلّقين على الأناجيل يسكتون في غالب الأحيان أمام مثل هذا النقل المضطرب أو ذاك الذي يدلّ على تسلّل ذهنيّة البشر وبشكلٍ غير عادلٍ إلى متنِ الإنجيلِ ، لأنّ الدخولَ في مثلِ هذهِ المحاكمات لردّها ليس في جعبتهِ أسلحة كثيرة أو أدلّة دامغة للردّ ، بل من شأنهِ أن يدخلنا في حيرةٍ وضبابيّةٍ عنيفة .. لذا يكون السكوت ضرورة توقّفيّة ، لكنّه لن يكون بحال ضرورة توثيقيّة .. ودعوى أنّ روح التعاليمِ موجودة ما هي إلا مجرّد قلم أدبي لا شاهد عليهِ ، بل هناك مجموعة من شواهد تؤكّدُ تسلّل القلم البشري إلى مجموعة رئيسيّة في الإعتقاديّات ، وهذا أخطر ما في الأمر ..

لم يحاول كثيرٌ من الشرّاح التوقّف حتى عند بعض الأمور التي يبدو منها وجود مشكلة في قلمِ مَن دوَّن (أي قصور في نقل الواقع) كما هي الحالُ في

المثالِ الذي أشرتُ إليهِ أعلاهُ من إدّعاء مكث المسيح في القبر ثلاثة أيام ، ولأنَّ المشكلة بادية جدًّا من قلمِ متّى ، فإنَّ أيّ قارئٍ يمكنهُ كشف أزمة نقل الواقع المضطربِ بل القاصر مهما حاول الشرّاح تجميلها أو المرور عليها بشكلٍ يمنع من وضع الأصبع عليها .. يقول الأب روجي : مع أنّ المسيح لم يبقَ بالقبر إلا ثلاثة أيام منها يوم كامل فقط وليلتين . " التعبير جامد ولا يدلّ على شيئٍ آخر إلا ثلاثة أيام " .. وكما ترى تفسير لا يقوم على أساس فهم الغاية الوظيفيّة من اللغة ، وهي الوسيلة الوسيط في نقل أفعال وأقوال المسيح ، وهذا أسلوب في بيان الحجج أو إماطة اللثام على الوهن غير المنطقي ولا يمكن أن يبرَّر عقليّاً وإحتجاجيّاً .

إنَّ نسبة القداسة إلى كتابٍ ما ، خاصّةً تلك التي تتعلّق بمواثيقِ النبيين تحتاجُ إلى رعايةٍ خاصّة ، إلى توثيقٍ خاصّ ، إلى منطقة من الأطرِ والمنهجيّةِ العلميّةِ العاليةِ ، التي تضمن النسبة إلى اللهِ أو النبيّ بشكلٍ سليم ، لا يكفي بذلك أن ندّعي أنَّ الأمر رهين الأجيال الأولى التي حملت التعاليم بشكلٍ شفهيٌّ ، لا يكفي أن نمرّ مرور الكرام على قصّة إنتصار بولس الذي كان العدوّ اللدود للمسيح والذي هزم الرسل فيما بعد بشكلٍ عنيف ، كلُّ هذا يدعونا إلى التأمّل بشكلٍ لافتٍ ومدهش حين نعلم أنَّ المسيحيّة اللاهوتيّة بكتُبِها وتفسيراتِها مدينة لبولس وتعاليمهِ وتفسيراتِهِ .. لا شكّ أنَّ في الأمرِ خطورة والضرورة العلميّة تدعونا إلى التريّثِ ليس في أصلِ الإعتقاد بالمسيح وتعاليمِه لأنَّ الإعتقاد بهِ نهائيّ وكامل وتام وكلّ شيئ شاهد عليهِ ، بل المشكلة في المنسوبِ له في أكثر من مقامٍ وجهةٍ وأكثر من متنٍ وتفسيرٍ وإدخال ..

يكفي أن نعلم أنَّ متّى (كاتب إنجيل متّى) هو ليس متّى الحواريّ أي ليس التلميذ ، إنّما هو شخص آخر ، لا معرفة تفصيليّة بين أيدينا عنه ، سوى ما حاول البعض التعرّف عليهِ من كتابهِ .. وتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ إنجيل متّى يتميّز بأنّه إنجيل طائفة " يهوديّة مسيحيّة " وهو يخالف اليهوديّة إلا أنّه يحتفظ بخطّ العهد القديم .. إنّني حريص على قراءةٍ وافية للإنجيلِ ، ووفق المنطق الوظيفي الذي يتعلق بأجلّ وأقدس ما جاء بهِ المسيح ، لأنَّ البيئة والظرف الخصامي والفترة الزمنيّة وما حصل من رفضٍ وقبولٍ وانتصارٍ وانكسارٍ انعكس على نحوٍ ترجمَ معهُ توجّهات فريق دون الآخر ، كلّ هذا يستدعي منّا وقفة ضروريّة في ظلّ رسالة المسيح الربّانيّة ..

إنجيل مرقس

كما هي الحالُ مع إنجيل متّى فإنّه من غير المعروف بشكلٍ تفصيلي من الناحيةِ الزمنية متى دُوِّنَ إنجيل مرقس .. أيضاً الثابت أنَّ مرقس ليس حواريًّا أو تلميذاً للمسيحِ .. ومن ناحية إنجيل مرقس فإنَّه إنجيل قصير ، بل هو أقصر الأناجيل وقيل فيهِ أنّه أقدمُها ، أمّا من ناحيةِ من دوَّنهُ فقد قرّب البعض أن ذلك ربّما حصل على يدِ واحدٍ من المبرّزين ، أي أن يكون قد تمَّ تدوينُهُ على يدِ تلميذٍ لأحدِ الحواريين ، كنحوٍ من الإمكان ، لأنَّ إعتماد متّى عليه ، يعني أنّه مقبولٌ وعلى مستوىً من الضرورةِ في الوثاقةِ وشبه ذلك .. وعلى كلِّ حال ، لا يوجد إثبات حسّي نهائي حول الزمن الذي تمَّ فيهِ تدوينُهُ ، ولا يوجد حقائق

معرفيّة حول مرقس ، من هو .. ؟ وماذا عن الخصائص البيئيّة للتدوين .. ؟ ماذا عن إطار القبول والرفض .. ؟ ماذا عن منهجه في ترجمةِ التراثِ الشفويِّ إلى مكتوب ..؟ كيف تمَّ اعتماد الشهادات ..؟ وهل نقل ما في إنجيلِه على نحوٍ يتّصل بعقيدة التراثِ المنقولِ أم أنّه اجتهد ..؟ ولا يكفي على الإطلاق القول بقداسةِ النصّ كلِّه إعتماداً على حجّةٍ مفادها أنّ النقل يدلّ على أنّ الناقلَ من ذوي الخبرةِ والمعرفةِ ، وبالتالي هو لن يتجرّأ في الإفتراءِ أو نقل ما هو مشبوه أو ما هو ليس من تعاليمِ المسيح وشبه ذلك ... لأنّ قراءةً وافيةً لما في متن الأناجيل الأربعة يثبت أنّ الذهن البشري تسلّل بشكلٍ واضحٍ وبأسلوبٍ قاصرٍ مضطربٍ بل تناقضي في أكثر من جهةٍ وعنوان .. خاصةً إذا علمنا أنّ تدوين الأناجيلِ تمَّ في مرحلةٍ متطوّرةٍ من الخصامِ حول مجموعةٍ من عناوين كبرى سواء في القبول المتني الشفهي أو في التفسير بل في التحوّل الكبير بخصوص الإعتقاد ..

إذن القراءة العلميّة والتحقّق في النسبةِ يستدعي طرح أسئلة ضروريّة من نوعٍ يفتّش عن القداسة بما تعنيهِ من تثبّتٍ ودراية .. فلا يكفي معهُ أن نقول بأنَّه ربّما تمَّ تدوينُهُ على يدِ تلميذٍ لأحدِ الحواريين كاحتمالٍ ممكنٍ دون إثباتٍ يخرجُ ذلك الإمكان من النحو النظري إلى خانة الحقيقة المثبّتة بدليلٍ قاطعٍ .. لقد كتب " أ . كولمان " قائلاً : (.. لا يعتبر مرقس تلميذاً للمسيح) .. وهذا كلام صحيح لا يمكن إثبات غيرهُ ، فكلّ الحقائقِ تثبت أنّ مرقس الذي دوَّن هذا الإنجيل لم يكن تلميذاً للمسيح .. ثمّ يردّ على الذين يشكّكون في إنتساب هذا الإنجيل إلى مرقس قائلاً : إنّ متى ولوقا لم يكونا ليستخدما هذا الإنجيل مثلما فعلا لو كانا لا يعرفان أنّه مؤسس فعلاً على تعاليم أحد الحواريين .

أقول : مجرّد هذه الدعوى لا يكفي على الإطلاق ، لأنّ الإمكان بنفسه بحاجة إلى دليل ، فلا يكفي للقول بأنّ اعتماد متّى ولوقا كان لم يتمّ لولا أنّ إنجيل مرقس مؤسّس على نحوٍ متّصلٍ بتلميذ أحد الحواريين .. بل إنّ إنجيل متّى نفسهُ مجهول المدوِّن بنحوٍ لا يستجيب لمجموعة من أسئلة ضروريّة ملحّة ، بمعنى أنّنا منقطعون عن معرفته ، عن ظرفه ، عن منهجه في القبول والرفض والتدوين ، عن شخصه ونسبه وبيئته الأسريّة .. وقد مرَّ عليك في المناقشة السابقة أنّ متّى نفسهُ مجهول في مجموعة من عناوين ضروريّة الإجابة لكنّها مفقودة في مقام البحث التاريخي أو التوثيقي .. ويجب أن لا يغيب عن البال أنّ كتابة الأناجيل حصل في ظرفٍ تصادميّ خصامي طال المتن المنقول والتفسير بل حصل في ظلّ تحوّلاتٍ كبرى طالت حتى الأسس التي تشكّل هيكل التعاليم .. ولقد مرَّ عليك أنّ متّى أعمل خيالهُ في أمورٍ تعتبر مستحيلة التحقّق . فلا بدَّ من الإشارة إلى ذلك والتوقّف عندهُ للتأكيد على أنّ مجرّد الإدّعاء لا يكفي ..

ثمّ من هو مرقس .. ؟ ماذا عن منهجه في القبول والرفض .. ؟ ماذا عن بيئته ..؟ ماذا عن إطار تدوينه .. ؟ هل كتب النصّ الكامل .. ؟ هل كتب كلّ ما يعتقد أنّه حقيقة .. ؟ هل هو في موقعِ مَن يقطع بالحقيقة لنفسه وغيره ..؟ ومن ايّ فريقٍ هو ؟ التاريخ يقول انّه من الفريقِ المنتصرِ .. هل كَتَبَ وفقاً لما عليه بولس وتعاليمه أم وفقاً لما عليه الرسل وتعاليمهم في حين نعلم أنّ تعاليم بولس هي التي سيطرت على واقعِ كتابة الأناجيل ..! من هنا فإنّ ما ساقهُ " أ . كولمان " لا يمكن أن يشكّل حقيقة تقريبيّة أو بنيويّة للوصولِ إلى ما أشارَ إليه من أنّه ربّما مَنْ دَوَّنَ إنجيل مرقس قد يكون أحد تلامذة الحواريين بهدف تثبيت

تعاليمه واعتبارها يقينيّة ومتّصلة بواقع الأحداثِ ولو عبر واسطة واحدة .. ما يساعد على إعطاءِها رتبة أقدم وأهمّ وثاقة ذات بُعدٍ عالٍ في نسبةِ ما فيها إلى المسيح .. وكما ترى فإنّ هذه الحجّة غير تامّة ، ولا تفيد في صناعة منطقيّة للقناعات القائمة على أسس عقليّة ضروريّة .

ولا بدَّ من الإشارةِ إلى أنّ إنجيل مرقس يواجه مشكلة من نوعٍ آخر ، فنصّ مرقس لا يشير إلى أيّ مؤلّف ، كما لا تذكر الفقرات مؤلّف الإنجيل ..! من هنا فقد حاول الكثير من المعلقين التفتيش عن صلةٍ ما بهدفِ إسناد هذا الإنجيل إلى شخصيّةٍ بارزة ، بل في بعضِها محاولة إسناد هذا الإنجيل إلى واحدٍ من حواريي المسيح ..! في حين كلّ الشهاداتِ التاريخيّة الثابتة تؤكّد أنّه لا توجد أيّ شهادة على الإطلاقِ تقول بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيليّة قبل عام ١٤٠ م .. ومع كلّ هذا فقد حاول الكثير من المعلّقين الإعتماد على عناوين هي في واقعِ الحال لا تقوم على أيّ دليلٍ حسيّ ، بل هي أبعد من حدسٍ قريبٍ بهدف الإمكانِ الإقناعي . وعلى القاعدة : سرد أكثرهم مجموعة من عناوين أدبيّة ليس أكثر ، مثل أن يأخذوا بتفاصيل تبدو وهميّة على أنّها عناصر ذات قيمة ، بحجّة أنّ مرقس هو المبشّر الوحيد الذي سرد في روايته عن آلام المسيح حادثة شاب كان يلبس إزاراً على عريه وترك الإزار وهرب عرياناً عندما شرع في الإمساك به ..[1] وبناءً على هذا النصّ إستنتجَ البعض أنّ هذا الشاب قد يكون " مرقس " التلميذ الأمين الذي يحاول أن يتبع السيّد (الترجمة المسكونيّة) ..! لا شكّ أنّ الإستنتاج هذا على نحوٍ من غرابةٍ ظاهرة .. بل في رأي آخرين أنّه

---

[1] الإصحاح ١٤ الآيتان ٥١ و ٥٢ .

بسبب هذه الذكرى الشخصيّة فإنّ هناك علامة على الصحّة وإمضاء المجهول الذي يثبت أن صاحبه كان شاهداً معايناً (أ . كولمان) .. في واقعِ الحال أنا مستهجن لما يمكن أن يقال هنا ، فكلّ شيئٍ يدلّ على أنّ عدم وجود الأدلّةِ دفع بالبعض إلى أن يسرد مجموعة من عناوين لا صلة لها في صحّة النسبةِ والتوثيقِ وتحديد من دوَّنَ ونقل التعاليم .. غريب كلّ الغرابة أن يصل الأمر إلى هذا المستوى في تحديد شخصيّة من دوّن الإنجيل ..! بل من الخطورةِ بمكانٍ أن نعتمد على فهمٍ كهذا للقول بأنّ صاحب التدوين هو فلان وعلى نحوٍ من طريقةٍ وهميّةٍ قاتلة .. ! أيّ قداسةٍ تبقى مع مثل هذا الإستدلال ..! بل أيّ إمكانٍ يبقى للإقناعِ بعد كلّ هذا .. !

ولأنّهم لم يجدوا ما يثبت النسبة بين حواريٍّ ما ، وبين هذا الإنجيل أو بين تلميذٍ لأحدِ الحواريين وهذا الإنجيل فإنّهم اعتمدوا على طريقةٍ في التقريب لا يجوز على الإطلاق أن تكون صلة وصل توثيقيّة أو إسناديّة حِفْظَاً على الأقلّ لإمكانِ الصدور .. لقد وصل الأمر إلى حدّ أنّ بعضهم كما هي الحالُ مع " أ . كولمان " إلى أن يقول أنّ مجرّد الإعتماد عليهِ من قبل متّى ـــ مع جهلِهِ بشخصيّة متّى ـــ وتاريخ تدوينِهِ للإنجيلِ ، بل ومع اعترافِهِ بالنصّ الأدبي الخيالي في أكثر من عنوانٍ جوهري ـــ يعني أنّ هذا الإنجيل صادر عن أحد تلامذة الحواريين ، دون أيّ شهادة تاريخيّة ، دون أيّ حجة ظرفيّة ، دون أيّ مؤشّرٍ علميّ ، دون أيّ منطقٍ مقنع ..! وبكلمةٍ أخرى : هل يجوز أن نعتمد على أيّ كتابٍ أو مواثيق دون أيّ معرفةٍ أو تحقيقٍ ، أو مع قصورها عن الإجابة عن مجموعة أسئلة تتعلّق على الأقلّ بضرورة الإنتسابِ إلى شخصٍ ما معروف ، على اعتبار أنّه لا

قداسة لأيّ نصّ إلا بما ثبتت نسبتُهُ إلى اللهِ أو إلى النبيّ المرسلِ من قبل الله .. وفي معرض الإشارة إلى مجموعة من خصائصِ هذا الإنجيل يعترف الكتّاب أنّ هناك كثيراً من تراكيب الجمل تدعم الفرض القائل بأنّ مؤلّف هذا الإنجيل يهوديّ الأصل .

المثير أن يُشاع أنّ الذي كتب إنجيل مرقس ، هو واحد من حواريي المسيحِ ، وأنّه كان على صلةٍ بهِ ، في حين لا تستطيع أن تجيب الكنسية العليا ومجامعها ولو بإشارةٍ علميّةٍ تاريخيّةٍ على ذلك سوى سرد نصّ أدبي ليس أكثر .. ففي التراث أُشيعَ أنَّ مرقس مدوّن الإنجيل هو ذاتُهُ رفيق بطرس في روما ، وذلك من دون أيّ دليلٍ يربط بين مرقس المدوِّنِ ومرقس الذي يمثّل شخصيّة أخرى ، مع علمنا الأكيد بأنّه لا توجد أيّ شهادة على الإطلاقِ تقول بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيليّة قبل عام ١٤٠ م ، ما يؤكّد أنّ أيّاً من حواريي المسيح لم يدوّن أيّ إنجيلٍ على الإطلاق .. ومع كلّ هذا يحاول البعض أن يربط بين مرقس رفيق بطرس وبين مدوّن الإنجيل ــ رغم الفارقِ الزمنيّ الكبير الذي يحيل هذا الإدّعاء إلى مجرّد خيال ــ وذلك إعتماداً على نهاية رسالة بطرس الأولى ــ هذا إذا ما كان هذا الأخير هو فعلاً كاتب هذه الرسالة ومن دون أيّ دليلٍ يدلّ على أنّه كاتبها ــ وعليهِ : يُقال إنّ بطرس قد كتب لمن وجه رسالته إليهم : جماعة المختارين ببابل (ربّما روما) نحييكم وكذلك مرقس أخي .. " . من هنا يعتقد البعض أنّ من حقّه ولو فرضيّاً أن يستنتج أنّ مرقس الذي كان مع بطرس بروما هو المبشّر .. مع انّ الفارق هائل بين تاريخِ الأوّل وتاريخ الثاني ، حيث لا توجد أيّ شهادة على الإطلاقِ تقول بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيليّة قبل

عام ١٤٠م فأيّ حجّة تلك ، بل أيّ غرابةٍ في النسبةِ والإنتساب ، بل أيّ وثاقةٍ تحيل النصّ إذاً إلى نصٍّ مقدّس ..! لقد وصل الأمر إلى حدّ أنّ هذا النوع من الإستدلالِ المترهّلِ الناقصِ غير العلمي أن دفع ببابياس ، أسقف " هيرا بولس " في نحو عام ١٥٠ م . إلى أن ينسب هذا الإنجيل إلى مرقس الذي يقول عنه إنّه كان " مترجماً لبطرس " وإنّه كان أيضاً مساعد بولس ..!

ولأنّه لا يوجد تاريخ حقيقي للزمنِ الذي دُوِّنَ فيهِ إنجيل مرقس ، فقد حاول بعض المعلّقين أن يعطوه تاريخاً من شأنهِ أن يقرّب المسافة بين أحد الحواريين والتدوين ، من هنا افترضوا أنّه قد حرّر بعد موت بطرس ، أي ما بين (٦٥ م و ٧٠ م) حسب الترجمة المسكونيّة ، وفي حوالي عام ٧٠ م . حسب " أ . كولمان " .. دون الإعتماد على أيّ شهادةٍ تاريخيّةٍ ، بل باعتراف كلّ الأدلّة التاريخيّة على أنّه قبل ١٤٠ ميلاديّة لم تكن هناك كتابات إنجيليّة ..

وإذا دخلنا إلى متن إنجيل مرقس تبدو الأمور خطيرة في أكثر من بابٍ وعنوان من خلالِ دلالتِها على سمة النقصان البشري ، بل تظهر مجموعة من عناوين تدلّ على التسلّل البشري الناقص جدًّا بل القاصر الذي لا يمكن معهُ على الإطلاق صحّة نسبتِهِ إلى الله أو إلى نبيٍّ مرسلٍ ، وهذا يدلّ بدورِهِ على أزمة واضحة في النقل والتقبّل للنصّ ، بل يؤثّر على حقيقة القبولِ في أكثر من عنوانٍ وجهةٍ .. ففي النصّ عيب رئيسي لا جدال فيه وهو أنّه حرّر دون أيّ إهتمام بـــ " التعاقب الزمني للأحداث " فهذا الإنجيل يضع في بداية روايته (الإصحاح ١ ـــ الآيات من ١٦ إلى ٢٠) حكاية الصيادين الأربعة الذين يدعوهم المسيح لأن يتبعوه قائلاً لهم : " ستصيرون صيادي الناس " في حين أنّهم لا يعرفونه ..!

ولقد قال الأب روجي : إنّ مرقس كاتب حاذق وأكثر المبشّرين إبتذالاً ، فهو لا يعرف أبداً كيف يحرّر حكايته . ويدعم المعلّق ملاحظته بذكر فقرة تسرد تكوّن الإثني عشر حواريّاً تقول حرفيّاً : (.. ثمّ صعد إلى الجبل ودعا الذين أرادهم فذهبوا إليه . وأقام اثني عشر ليكونوا معه وليرسلهم ليكرزوا ويكون لهم سلطان إخراج الشياطين وجعل الإثني عشر وفرض على سمعان إسم بطرس ..)[١]

وفضلاً عن مجموعةٍ من الخللِ موجودة في المتنِ وهي تدلّ على نوعٍ واضحٍ من القصورِ البشري فإنّ إنجيل مرقس يتناقض بشكلٍ جليٍّ مع إنجيليّ متى ولوقا فيما يخصّ بعض الأحداث التي منها آية يونس .. وأكثر من ذلك وبمناسبة الآيات التي يعطيها المسيح للبشر أثناء بعثته يسرد مرقس حكاية لم تعد قابلة للتصديق (فجاء الفريسيون وجعلوا يحاورون المسيح وليسوقوه إلى فخّ ، فطلبوا منه آية من السماء ، تنهّد المسيح بعمقٍ وقال : لماذا يطلب هذا الجيل آية ..؟ الحقّ أقول لكم ، لن يعطى هذا الجيل آية . ثمّ تركهم وصعد إلى السفينة ليمضي إلى الضفّة الغربيّة ..)[٢] .. من هنا فإنّ المعلّقين عندما يتعجّبون من إعلان لوقا بأنّ المسيح لن يعطي إلا آية واحدة هي آية يونس يحكمون في الوقت نفسه بوجود مفارقة بين قول مرقس بأنّه " لن يكون لهذا الجيل آية " وبين المعجزات التي يقدّمها المسيح نفسه كآيات ..[٣] إلى غيرها من أنواعِ القصورِ أو العناوين التي تتبطّن تكاذباً صريحاً لواحدٍ من وقائعِها التي تتعارض بين نفيٍ وإثباتٍ على جهةٍ واحدةٍ بتمامِ شرط الجهةِ والكمّ والكيفِ وباقي العناوين ..

---

[١] الإصحاح ٣ الآيات من ١٣ إلى ١٦ .

[٢] الإصحاح ٨ الآيتان ١١ و ١٢

[٣] إنجيل لوقا الإصحاح ٧ الآية ٢٢ والإصحاح ١١ الآية ٢٠ .

هذا بطبيعة الحال يضعنا أمام صيغة كبيرة مفادها : من هو الذي حرّر هذا الإنجيل ؟ وهل حرّره قبل ١٤٠ ميلاديّة أم بعد ومن هو صاحبهُ ، وكيف حُرِّرَ ، وما هي ضوابطُ حجّتِهِ علينا في كثيرٍ من عناوينِهِ ، وإذا كان طبق الأصلِ عن النصّ الكاملِ ، فلماذا هو على نحوٍ من اضطرابٍ وقصورٍ في جملةٍ من معانيهِ الموجودة في متنِهِ ..؟ ماذا عن الأحداثِ والأزمان المنقولة فيه ..؟ ماذا عن بعضِ الوقائعِ غير القابلة للتصديق ..؟ ماذا عن تناقضِهِ الجليّ مع غيرِهِ من الأناجيل ..؟ هل هذا الإنجيل مع كلّ الذي فيه هو تسجيل مادّي لتعاليمِ المسيح .. ؟ ألا يجدر بالكنسيةِ أنْ تجيب عن كاتبِهِ ومدوّنِهِ .. ؟ ألا يجدرُ بها أن تجيب بشكلٍ جليٍّ عن إسمِهِ وتاريخِهِ وزمنِهِ وبيئتِهِ وشبه ذلك .. ؟ ألا يدلّ التناقض على التكاذب ..؟ أليس هذا واحد من الكتابات الخصاميّة ..؟ ما هو السرّ وراء الإعتراف بإنجيل مرقس كلِّهِ على أنّه " إنجيل كنسيّ " .. ؟ في حين أنّ " الكتّاب المحدّثين " يعدّون خاتمته (الإصحاح ١٦ الآيات من ٩ إلى ٢٠) ما هو إلا " مؤلّف مضاف " بل تشير الترجمة المسكونيّة إلى هذا بشكلٍ صريح ..؟ كما أنّ هذهِ الخاتمة غير موجودة في أقدم مخطوطتين معروفتين للأناجيل ، ويرجع تاريخهما إلى القرن الرابع وبهذا المجال يقول " أ . كولمان " : أضاف مخطوطات يونانيّة أقرب عهداً وبعض نصوص أخرى إلى هذا الموضع خاتمة عن ظهور المسيح لا تنتسب إلى مرقس وإنّما هي مستخرجة من أناجيل أخرى ..! ويعلّق الأب كانينجسر على هذه الخاتمة بما يلي : (.. لا بد أنّه قد حدث حذف للآيات الأخيرة عند الإستقبال الرسمي أو عند النشر على العامة لكتاب مرقس في الجماعة التي ضمنته ولا متى ولا لوقا ولا يوحنا بالأحرى قد عرفوا هذا الجزء المفقود . مع ذلك فقد كانت الفجوة لا تحتمل . وبعد ذلك بكثير وبعد أن جرت بين الأيدي الكتابات

المتشابهة لمتى ولوقا ويوحنّا ثم توليف خاتمة محترمة لمرقس ، وذلك بالإستعانة بعناصر من هنا ومن هناك لدى المبشرين الآخرين . ومن السهل الإستدلال على قطع هذه الصورة بالتفصيل . خاتمة مرقس (١٦ ـ من ٩ إلى ٢٠) ذلك يسمح بتكوين فكرة ماديّة عن الحريّة التي كانوا يعالجون بها النوع الأدبي الخاصّ بالحديث الإنجيليّ حتى أعتاب القرن الثاني ..) .. إنّ هذا إعتراف صريح بوجود تعديلات قام بها البشر على النصوص المقدّسة وهذا الإعتراف صادر عن عالم لاهوتي كبير ..! يجدر بنا أن نتوقّف عندهُ بشكلٍ يعيدُ إلى أذهاننا ما أشرتُ إليهِ أعلاه من أنّ القصور والإضطراب والتناقض دليل على تسلّل يدِ البشرِ ولا يمكن بحالٍ من الأحوالِ نسبتُهُ إلى اللهِ أو إلى نبيٍّ مرسلٍ .. فكيف مع كلّ هذا يمكن الجمع بين كلّ هذا القصور وبين دعوى أنّ هذا " الإنجيل مقدّس " لأنّه تسجيل ماديّ لتعاليم المسيح ولما جرى عليه ..! كما أنّ هذا يضعنا أمام حقيقةٍ أخرى مفادها أنّ من دوّن هذهِ الأناجيل لم يحترم الحقيقة كما هي ، أو لم يصل إليها بشكلٍ يتبنّى المفهوم التسجيليّ للنصِّ الكاملِ الخالي من الشوائبِ والأباطيل أو من الزيادة غير الموجودة أو من النقصان المضرّ وغير ذلك ..

إنجيل لوقا

كما سبق وأشرنا إلى مجموعة من أسئلةٍ ضروريّة تحت عنوان الإنجيل ونسبتِهِ إلى محرِّرِهِ نسأل الآن : من هو لوقا .. ؟ وفي كلّ الإجاباتِ لا يمكن لمحقّقٍ أن يثبت أنّه حواريّ أو صاحبٌ للمسيحِ أرّخَ ما رأى وعاين .. بل هو شخص آخر ، دَوَّنَ مجموعةً في " متنِ كتابِهِ " حول العناوين المتّصلةِ بأحداثِ

المسيح .. وفي رأي الأب كانينجسر هو روائي حقيقيّ . وهو كاتب حوليات في رأي " أ. كولمان " .. ولا بدَّ من التذكيرِ بأنَّ أولى كتابات العصر المسيحي لا تشيرُ إلى الأناجيل إلا بعد مؤلّفات بولس بفترةٍ طويلةٍ جدًّا ، ما يعني أنَّ الأمر متّصل بكاتبٍ آخر ، ربّما يكون سامعاً ، لكنّه على أحسنِ الأحوالِ لم يكن رأى وعاين .. فكلّ الشهادات المتعلّقة بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيليّة تظهر فقط في منتصف القرن الثاني ، وبالتحديد بعد عام ١٤٠ م . بل في تعليقات الترجمة المسكونيّة للعهد الجديد جاء الإيضاحُ تامًّا بأنّه لا يوجد أيّ شهادة تقول بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيليّة قبل العام ١٤٠ م .. وهذهِ النتيجة تستدعي إعادة النظر بظرف وطبيعة وشروط التدوين من جهة ، وشخصيّة وموثّقيّة مَن كتب ، ولن نتعامل معها من بابٍ تشكيكيّ نظري أو دفتري ، بل لا بدَّ من الإشارةِ إلى عدّة مواضيع تخصّ هذا المقام وهذا ما سنشيرُ إليهِ فيما بعد ..

نعم لا بدَّ من التوقّف عند ما ذكّر بهِ لوقا نفسه في ديباجته الموجّهة لثاوفليس من أنّه يأتي بعد الآخرين الذين أنشئوا قصصاً عن المسيح وأنّهُ سينشئ بدوره حكاية عن نفس الأحداث ، مستخدماً هذه القصص ومعلومات الشهود المعاينين ـــ وهذا بطبيعة الحال يدلّ بشكلٍ أكيدٍ ونهائيّ على أنَّ لوقا لم يكن واحداً من هؤلاءِ الذين شاهدوا فضلاً عن انّ زمن تدوين نصّ إنجيل لوقا جاء متأخّراً جدًّا عن زمنِ الأحداثِ بمعنى أنّ الفارق الزمني مانع نهائي من المعاينة ـــ بالإضافة إلى المعلومات الآتية من مواعظ الحواريين ... ويقدّم لوقا له بما يلي : إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصّة في الأحداث التي وقعت ، كما نقلها

إلينا الذين كانوا منذ البدء شهوداً معاينين وخداماً للكلمة ، رأيت أنا أيضاً إذ تتبّعت كلّ شيءٍ من الأوّل بتدقيق ، أن أكتب على التوالي إليك ، أيّها العزيز ثاوفليس ، لتعرف صحّة الكلام الذي علمت به " . هذهِ الفقرة بطبيعة الحال تسلطّ الضوء على مجموعةٍ من عناوين لا بدَّ لها من إجابة :

١. لماذا هناك نقص حقيقي في الأرشيفِ عن هؤلاءِ الذين دوّنوا الأناجيل ..
٢. هل من دوّن الأناجيل واحد أم متعدّد .. وإذا كان متعدّداً ، ماذا عن المصادر ..
٣. ماذا عن المنهجيّة .. ؟ ماذا عن مذهب القبولِ والرفض .. ؟ عن محاكمة النصّ .. ؟ عن ترجمة اللفظ بمعنى مختلف .. ؟ عن نقل النصّ بمفهومٍ مختلف .. ؟
٤. لماذا تأخّر التسجيل المادّي للإنجيلِ حتى أصبح الأمر يحتاجُ إلى أناجيل . وكيف تمّ الأمر في الزمن الشفهي ، وكيف صحّ أن يكون مكتوباً .. وماذا عن الشهادات التاريخية التي أقرت بها الكنيسة حول عدم وجود أدلّة على وجود كتابات إنجيليّة قبل ١٤٠ م .. ما يعني أنّ الزمن طويل ومانع وكبير جدًّا ..
٥. وعلى كلّ حال ، الأمر يظلّ متّصلاً بالنصّ الكامل .. بالنص الحقيقي بكلّ عناوينهِ ومعانيهِ .. لا شكّ أنّ بعض النصِّ الحقيقيّ موجود .. لكن ماذا عن الباقي ..؟ ثمّ ماذا عن التناقضِ الذي يتضمّن التكاذب بين النصّين .. ؟ ماذا عن الإعتراف في أكثر من مقامٍ بإختلافِ تَرجَميّ ..؟ ماذا عن الإختلاف الحاصلِ عن النسخ والتكرار ..! لا شكّ أنّ الأمر

هنا محرج بأكثر من ناحيةٍ وعنوانٍ ومرتكزٍ ، خاصّة زمن تقنين الأناجيل وإعطاء بعضها الشهادة الكنسيّة وسلب الأخرى منها في ظلّ انقسامٍ لاهوتيّ على ذلك ، إلا أنّ النصر جاء في حصيلةِ دعمِ السلطان ..! وهذا الأمر لا بدَّ من التوقّفِ عندهُ بشكلٍ جليّ .. لا بدَّ من النظر بعمل قسطنطين .. لا بدَّ من التعرّف على ظروف القبولِ لبعضِها ورفض الآخر .. خاصّةً إذا قرأنا بتمعّن عن موضوع العقيدة بالمسيحِ التي انقلبت من ناسوتٍ إلى لاهوتٍ ، ليعود واحد من عرّابي هذا الإنتقال الضخم إلى الإعتراف بالذنبِ ويعلن التوبة ..

٦. ماذا عن الخلافِ الأسوأ بين بولس وحواريي المسيح (الرسل) خاصّةً مع يوحنّا ويعقوب وسمعان بطرس (شمعون الصفا إبن حمون) وهؤلاءِ هم رأسُ الحواريين بعد المسيح ، وسمعان بطرس هو المقصود في الكنيسة وما لها من أثرٍ مهمّ جدًّا في اللاهوت المسيحيّ ..؟ ماذا عن اتهام بولس لهم بالكذبةِ والذي أصرّ على مخالفتِهم بشكلٍ كبير ..! والخطير أنّ نعلم أنّ البولسيّة إنتصرت في النهاية على تعاليم الرسُل الذين اضطهدوا من السلطان الروماني والكهنوت اليهودي بشكلٍ قاتلٍ .. بخلافِ هامش الأمان النسبي لغيرِهم .. حتى أنّ بطرس الذي ذهب مرتين إلى روما عاد منها بعد أن شنّ عليهِ بولس وأنصارهُ هجوماً قاسياً وكذلك هي الحال في أنطاكية ..

٧. وأخيراً : وصلت إلينا المسيحيّة البولسيّة التي شنّت حربَ إلغاء لما كان عليهِ تلامذةُ المسيحِ الذين كان يقودهم يوحنّا وبطرس ويعقوب ، وقد

استطاعت أن تنتصر عليهم بسبب مجموعةٍ من ظروفٍ مجتمعيّة أقلها أنّهم كانوا محاربين من قبلِ الكهنوت والرومان ..

إذاً : الأمر يتّصل هنا بإنجيلِ لوقا ، ولا شكَّ أنَّ إنجيل لوقا هو عمل أدبي كُتب بلغة يونانيّة ، الهدف منه تسجيل الأحداث المختصّة بزمنِ المسيحِ ، عبر مجموعة من وسائط ، والظاهرُ ممّا أشار إليهِ لوقا انَّ العمدة كانت على التراث الشفهي ..

وقد مالَ العديد من الشرّاح والخبراء إلى أنَّ لوقا هو أديب وثني ، آمن بالمسيحيّة ، وإتجاهه بالنسبة إلى اليهود يتّضح مباشرةً ، كما يشير " أ . كولمان " فإنّ لوقا يحذف من روايته أكثر " الآيات اليهوديّة " عند مرقس ، ويبرز كلمات المسيح في مواجهة " كفر اليهود " وعلاقته الطيّبة مع السامريين الذين يمقتهم اليهود .. لقد حاول أكثر من شارحٍ أن يتوقّف عند مجموعة من مميّزاتٍ هذا النوع والتوصيف ، ليضيئ الصورة حول روح هذا الإنتماء وحقيقة هذا الأمر على طبيعة التدوين والنصّ الكامل المفروض أن يكون عاكساً للواقعِ كما هو .. ويبدو الأمر على نحوٍ من أهميّةٍ للتوقفِ عندهُ حين نقرأ ما يخالفهُ في متنٍ آخر من الأناجيل كما هي الحالُ لما عليهِ إنجيل متى ، ففي إنجيل متّى يقول : إنّ المسيح طلب إلى حوارييه أن يتجنّبوا السامريين . وهذا الأمر كما ترى : يبرز موقفين متناقضين ، مختلفين ، في قومٍ محدّدين وهو أمر موجودٌ في متنِ الإنجيلَين . من هنا فإنَّ هذا يعني أنّ " مشكلةً ما " أبرزها ظاهرة تأليف الأناجيل دلّت على أزمة تناقض ، وبطبيعة الحال في كلّ تعارضٍ تناقضي هناك تكاذب في لسان النصّين ، كلٌّ يكذّبُ بمنطقهِ ودلالتهِ الآخر ، ولا يمكن على الإطلاقِ أن ينسب إلى الله ،

بل هو منسوبٌ إمَّا إلى قصورٍ بشريٍّ أو تقصيرٍ أو دسٍّ متعمّدٍ .. على الأقلّ هناك حقيقة نهائيّة تقر بها الكنيسة والمعلّقون والشراح وكلّ الخبراء هي أنّ النصّ الكاملَ غير موجود ..

ثمّ إنّ هذا الوهن بدا في العديد من القضايا ، منها هذهِ الصورة مِن خلال تسجيل ما يتّصل بهذين الشعبين كالسامريين واليهود .. من هنا كانت ضرورة تركيزنا حول معرفة منهجيّة القبول والرفض للتراث الشفهي ، بل كيفيّة التعامل مع الوثائق ، قبولاً ورفضاً .. لا شكّ أنّ ما حصل في متني هذين الإنجيلين حول اليهود والسامريين خطير لأنّه يخفي وراءه كمّاً من الحقائق المفروض ان تُنقل كما هي دون نقصٍ أو زيادةٍ أو إعادة صياغة تؤثّر على حقيقة المعنى الوارد عن لسان المسيح .. والمثير أنّ مشكلة نبذ أو قهر وكراهية اتجاه بعض الشعوب تظهرها هذه الكتابات الأدبيّة ممّا يساعد على وضع عراقيل كبيرة في وجه توصيف هذه النصوص بالعالميّة ، لما فيها من التناقضات التي لا يمكن رفع اليد عنها ، والتي تبرز جانباً من التوجهات الفكريّة والنفسيّة عند من صاغوا هذه الكتابات .. لذا : فإنّ الضرورة تقضي بالتفتيش عن أصل النصّ كما هو ، عن هويّة المعنى المقصود في لسان المسيح ، وليس كما أراد البعض أن يصنّف أو أن ينقل جزءاً من مطوّلة ، وكما أشرت سابقاً فإنّ من يراجع الكتابات الإنجيليّة يجد المشكلة تكمن في أكثر من عنوانٍ أهمّه :

١. نقص في النصّ (حذف) .

٢. زيادة في بعضه ..

٣. تغيير في بعضِ حرفِهِ ومفادِهِ ، وقد تأثّر ذلك مرّةً عند مرحلة تدوين النصّ وإخراجِهِ من طور فكرةٍ شفهيّةٍ إلى فكرةٍ مكتوبةٍ ومرّةً عند تحديد الصياغة ..

٤. كتابة التفسير كنصّ ، وقد اتخذ هذا الأمر عدّة أشكال ، أهمّها إعادة القراءة وتحديد معنى المتن تحت عنوان التفسير الحقيقي المأخوذ على نحوٍ من فرضٍ كنسي في بعضِ الأوقات .. ممّا سرّب مجموعة من الأفكار تحت عنوان متن نصّي أو حقيقة نهائيّة ، وهذا أمر خطير للغاية ..

٥. تجزءة النصّ ، وهذا أمر آخر من معاني الأزمة الخطرة التي أصابت النصّ الكامل ، من خلال الحذف لبعض النصوص ، أو التركيز على جانب معيّن ممّا صدر عن المسيح (ع) في فئة معيّنة كما في موضوع اليهود أو السامريين ، وذلك من دون إعطاء الوصف الكامل ، وهذا نوعٌ جليّ وواضح من التحريف ، الذي يؤثّر بقوّة على منطق النصّ الكامل .

وكما ترى ، إنَّها ظاهرة بالغة الخطورة ..! وعليهِ : لا يمكن بحالٍ من الأحوالِ أن نمرّ على مجموعةٍ من صفاتٍ جليّة تتّصل بطبيعة التدوين للمتنِ المقنّن فنجد فيهِ ما يدلّ على وجهات نظر الطوائف التي ينتمي إليها مَن دوَّنَ أو أضاف جزءاً إلى التدوينِ السابقِ ، فيتعاملُون مع النصِّ من بابِ الإنتصار لطائفةٍ ما .. هذا الأمر من وجهة نظر علميّة غير مقبول بتاتاً .. ولا يغيب عن الذهن أنَّ في هذهِ الكتابات نصوصاً ظرفيّة ، ويكفي أن نقوم بمقارنةٍ بين نصوص إنجيلِ متى

وإنجيل لوقا لنتأكّد من ذلك .. أمام هذا الواقع ، لا يمكن أن نتحرّز أمام هذهِ الصورة ، وطبيعة هذا الإحتراز لا بدَّ فيه من البحث والتنقيب عن المتنِ المكتوبَ بأكثر من يدٍ وكاتبٍ ، بهدف التفتيش عن النصّ الكامل ، ولا نغالي إن قلنا أنَّ وجوب التحقيق يفرض علينا أن نتجاوز الأناجيل الأربعة إلى غيرها ممّا لم يعطَ الصفة القانونيّة في ظرفٍ ما في زمنٍ اختلافٍ لاهوتيٍّ صارخ ، والسبب في هذا الإندفاع هو ما نراهُ في طبيعةِ هذهِ الأناجيل أو في بعضِ متنِها على الأقلّ .. من أمثلةِ ما نشيرُ إليهِ أنَّ قسماً من لاهوتيِّ الزمنِ الغابرِ كانوا يعتقدون صحّةَ ما جاء في إنجيلِ برنابا بالإضافةِ إلى العشراتِ من الأناجيل التي تمَّ إلغاءُها ..

ولا بدَّ من التركيز على أنَّ متن الأناجيل ليس على مستوىً من التكاملِ الذي يسدّ بابَ المناقشةِ أو العرض على محاكمةٍ منصفةٍ ، وكما أشرتُ سابقاً : إنَّ القداسة تنبع من النسبة التامّة إلى اللهِ أو رسولِهِ ، فحين تتمّ هذهِ النسبة لا يمكن النقاشُ أبداً ، أمَّا حين نكتشف أزمة هويّة أو أزمة نقص أو زيادة أو تناقض وتكاذب بين أكثر من متن ، فإنَّه من الطبيعي أن نعيش مرحلةً سابقةً على القداسةِ مفادها : متى يصبح النصّ مقدّساً ، وما هي إجراءاتُ ذلك وكيف تتمّ .. ولا يصحّ بأيّ منطقٍ على الإطلاق أن نقول انَّ من مضى أعطا قداسةً ما للنصّ فهو كذلك ، إنّنا مسؤولون أمام الله والكون والعقل البشري بضرورة التفتيش عن الحقيقة .. من الضرورة بمكانٍ أن نقف على دفّتي التاريخ ما أمكن لإعادة تكوين نوع من قداسة ما أمكن ، لتكون القداسة للنصّ الحقيقيِّ أو ما هو متّصل بهِ .. وهذا ما سنتوقّف عندهُ فيما بعد .. لكنّني أختم هنا بإعادة تكوين مجموعة من أسئلةٍ مفادها :

- التدوين أعمَّ من الحقيقة ، والحقيقة هي ضرورة نقل الحادث أو القولِ كما صدر .. بلا شك فإنَّ هذا ما نحتاجهُ ..

- لا بدَّ من وضع اليد على العامل الزمني المكاني ، وشهادات التاريخ وطبيعة الظروف ، لأنَّ في هذهِ الأمور أكثر من إشارة وبيان ، لقدرتِنا في التعاملِ مع النصّ في ظلّ مجموعةٍ من عناوين ملحّة تفرض علينا ذلك أقلها أنَّ القداسة لا بدَّ فيها من التحقّقِ بما لا يقبل بعدهُ الإضطراب أو الشكّ أو تكوين مساحة صعبة من الريبةِ ..

- لا بدَّ من التعامل مع الحقيقةِ بعنادٍ وتسليمٍ ، ولا بدَّ من التمحيصِ ثم التمحيص والإعتراف بأيّ خللٍ ممكنٍ ، لأنَّ الحقيقة لا يمكن أن تتمَّ في جوٍّ من العاطفةِ أو التأييد المسبقِ على نحوٍ مطلق .. إلا على النحو الذي يتّصل بالأمرِ الإلهي ، أو ما هو مترشّح عنه ، وبعد التحقّق من ذلك ..

- ماذا يعني الإضطراب ..؟ ماذا يعني التناقض والتكاذب الواضح بين متنين ..؟ ماذا يعني الإنتصار والإنكسار في النصّ ، في الدفاعِ والإيقاع بمتنين مختلفين ولشعبين مختلفين ..!

- الضرورة تقتضي منّا بذل المزيد لمعرفة متى حررت الأناجيل ، متى خرجت من الإطار الشفهي إلى الإطار المكتوب .. الضرورة تقتضي منّا معرفة آليّة القبولِ والتدوينِ والحذفِ والرفض .. ماذا عن عشرات الأناجيل المنبوذة ، التي أتلفت ، حتى أنّها لم تترك بين ايدي النّاس ..

- ماذا عن صراعِ المسيحيّة بين طوريّ الشرقِ والغرب ، وعلى مواضيع تتّصل مرّةً بأصلِ النصّ ، ومرّةً بأصل التفسيرِ والإضافةِ من خارجِ النصّ .. ؟

- ماذا عن المسيحِ نفسهِ في ماهيّتِهِ وحقيقتهِ .. ناسوتي أم لاهوتي .. ؟ متى حدث ذلك ، ولِمَ ، ومن جرّد هذا العنوان بانقلابٍ عقائديٍّ هو الأخطر .. !

- لماذا بولس وليس يوحنّا أو يعقوب أو بطرس ..! هذا أخطر سؤال على الإطلاق ..! لماذا المسيحيّة دوِّنت بقلمٍ بولُسيٍّ وليس بطرسي أو يعقوبي ..! بولس هو العدوّ اللدود زمن المسيح ، والتلامذة هم الرسُلِ الذين تعامل معهم المسيحُ على أساسِ أنّهم " الأوصياء " بعده بل الأنبياء ..![1] هل يكفي أن يدّعي شخص ما أنّه رأى المسيح فيعلن مجموعةً من تعاليم كبرى تخالف ما عليهِ كبار رُسُلِ المسيحِ ، فينتصر هو بتعاليمِهِ دون هؤلاءِ الذين تعلّموا من المسيحِ وحقّقوا ما هو عليهِ من علمٍ وبيان ..! أليس في الأمرِ نوع خطير من انقلاب الأمور ..!

أخيراً :

من هو لوقا ..؟

لقد تَعَرّفَ عليهِ بعضُهُم من خلال شخصيّة الطبيب الذي يحمل إسم لوقا ، وهو الذي يذكرهُ بولس في بعض رسائله .. وتشير الترجمة المسكونيّة إلى

---

[1] قيل أنّ رئيس الرسُلِ هو يوحنّا ويعقوب وحاك ، وقيل هو بطرس .. المهم أنّ جميع هؤلاءِ من رُسُل المسيح ..

أنّ بعضهم قد رأى ذلك تأكيداً لمهنة الطبّ التي كان المؤلّف يمارسها ، وذلك بسبب دقّة وصف المريض .. إلا أنّ لوقا كان يعطي وصفات طبّية تتوافق مع ثقافة عصرِهِ ، ما يعني أنّ أيّ مثقّفٍ في ذلك العصر يقوم بهذا التوصيف ولا يحتاجُ الأمر إلى إستثناءٍ زائد . نعم هناك شخص إسمهُ لوقا كان قد رافق بولس في رحلاته ، فهل هو نفس الشخص أم أنّه خلاف ذلك .. ؟ وللتعرّف على حقيقة الأمر نضع بين يديك بعض ما أشار إليهِ العديدُ من الخبراء والمعلّقين والشراح في هذا المجال وهذا أهمّهُ :

- إستعان لوقا بإنجيلي مرقس ومتى .

- تقول الترجمة المسكونيّة عنه : يبدو أنّه عايش حصار القدس وتدميرها تحت جيوش تيتوس عام ٧٠ م ، وعليهِ : يكون هذا الإنجيل لاحقاً على ذلك التاريخ . إلا أنّ هذا التاريخ غير دقيق بشكلٍ نهائيٍّ ، وهو باعتراف كل المعلّقين مجرّد دعوى من دون دليل ، لأنّ الكتابات الإنجيليّة لم تظهر قبل العام ١٤٠ م ..

- يحدّد بعض النقّاد الحديثين تاريخه بما بين ٨٠ – ٩٠ م إلا أنّه مجرد فرض من دون أيّ إثباتٍ أو حقيقة دالّة على ذلك ، من هنا فإنّ معلّقين آخرين ينسبونه إلى تاريخ أكثر قدماً . والحقيقة أنّ أيّ كتاباتٍ إنجيليّة لم تظهر إلا بعد العام ١٤٠ م . باعتراف المجمّع المسكوني ..

- تحتوي شتّى الروايات في إنجيل لوقا على إختلافات هامّة مع روايات سابقيه ، وتشير إليها الترجمة المسكونيّة في صفحة ١١٨ وما يليها .

- يذكر " أ. كولمان " في كتابه (العهد الجديد) روايات من إنجيل لوقا لا توجد في الأناجيل الأخرى .

- إنّ الروايات عن طفولة المسيح في إنجيل لوقا خاصّة بهذا الإنجيل ، ومتى يقصُّ بشكلٍ مختلف عن لوقا طفولة المسيح ، أمّا مرقس فإنّه لا يقول كلمةً عنها .

- يعطي كلٌّ من متّى ولوقا المسيح أنساباً مختلفة (..!) والتناقض بينهما واضح ، وعدم المعقوليّة كبيرة من وجهة نظر علميّة وهذا أخطر ما في الأمر ..! متى المهتمّ جدّاً بخطاب اليهود يبدأ شجرة نسب المسيح بإبراهيم ، ويجعلها تمرّ بداود . أمّا لوقا ، وهو الوثنيّ الذي آمن بالمسيحيّة ، يهتمّ بأن يمدّ جذور هذه الشجرة إلى أبعد من ذلك ، والمشكلة البارزة بشكلٍ أكبر هي أنّ الإثنين أصلاً يتناقضان في شجرة نسب المسيح بدءاً من داود ... فهل الأمر هذا مجرّد نقل موضوعي وتسجيل للحدثِ الإلهي أو لرسولِهِ ؟ أم هو متّصل بعنوانٍ آخر من تسلُّل يد البشر إلى التدوينِ التي تظهر في المتنِ " المضطربِ المتكاذبِ " بأكثر من عنوانٍ وصورةٍ وبيان ..!

- إنّ تأسيس " سرّ القربان المقدّس " هو حدثٌ له أهمّيّة رئيسيّة بالنسبة للمسيحيين يلاحظ فيهِ الأب روجي في كتابه (مقدّمة إلى الإنجيل)[1]

---

[1] مقدّمة إلى الإنجيل ص ٧٥

أنّ الكلمات التي يسوق بها إنجيل لوقا [1] سرّ القربان تختلف عن تلك التي نجدها في إنجيل متى [2] وفي الإنجيل مرقس [3] . وهي متطابقة تقريباً في هذين الأخيرين . وعلى العكس فالصيغة التي ينقلها لوقا كثيراً هي التي يذكرها بولس [4] ..

- إنّ " لوقا " في إنجيله يصوّر صعود المسيح بأقوال تتناقض مع ما يقول في " أعمال الرسل " ، والتي يشير المتخصّصون إلى أنّها جزءٌ متمّمٌ للعهدِ الجديدِ .

- إنّه يحدّدُ في إنجيله " تاريخَ صعود المسيح " بيوم الفصح ، ويحدّدهُ في " الأعمال " بعد ذلك بأربعين يوماً ، ممّا أدّى إلى تناقضات غريبة وتفسيرات أكثر غرابة عند المسيحيين ...! فهل الأمر متّصل بنصٍّ إلهيّ أم أنّه نصّ مجتزء وغير كامل في ظلّ الكثير من الإشارات التي تفرض علينا إعادة النظر جيّداً في العديدِ من عناوينِهِ ومضامينِهِ ..

ولأنّ الأمر وصل إلى هذا الحدّ من الوهنِ ، كان لا بدَّ من الإعتذار للكاتبِ لوقا بمجموعةٍ من أعذارٍ ، لا يمكن أن تمثّل شرطاً مساعداً لمتابعةِ شوطِ القبولِ في المشكوكِ منه ، بل ترجّح كفّة التعاملِ مع النصّ المشكوكِ بحذرٍ من نوعٍ استثنائي .. فقد اعتذر المعلّقون على الإنجيلِ أمام هذا الخلل العميق مثلما

---

[1] الإصحاح ٢٢ الآيات من ١٩ إلى ٢٤

[2] الإصحاح ٢٦ الآيات من ٢٦ إلى ٢٩

[3] الإصحاح ١٤ الآيات من ٢٢ إلى ٢٤

[4] الرسالة الأولى إلى أهل كورنثة الإصحاح ١١ الآيات من ٢٣ إلى ٢٥

فعل المعلّقون على الترجمة المسكونيّة عموماً بأنّ " الإهتمامَ الأوّلَ (لدى لوقا) ليس هو في وصف الأمور بدقّتها الماديّة ...! "

إذاً ماذا ..؟ ولَم ..؟ وهل يجوز أن نمرَّ مرور الكرامِ على هذا الأمرِ الخطيرِ في تسجيل الحدث المتّصل بالسماءِ وتعاليمِها ..! كان لا بدَّ من التوقفِ أمام هذا الأمر لأنّه يتّصل بنسبةِ نصٍّ إلى الله يراد سياقُهُ على أنّه مقدّس بسببِ صلتِهِ بالله ، أو تسجيل حادثٍ ماديّ أو معنوي أو صفةٍ مسلكيّة تتّصل بالمسيح عليهِ السلام .. هل من الممكن توزيع الأعذار بشكلٍ متتابعٍ دون أن نقف على حقيقة ما جرى في القبولِ والحذفِ وإعادة الصياغة التي تعاند حقيقة الواقع بأكثر من عنوانٍ وصفة ..! لقد توقّف الأبّ كانينجسر بعد مقارنة بين روايات " أعمال الرسل " وهي من تأليف لوقا نفسه ومنسوبة إليهِ وبين روايته أمور مماثلة عند بولس عن المسيح بعد قيامته فقال : " لوقا هو أكثرُ كتّابِ الأناجيل الأربعةِ في الحسِّ إرهافاً وأكثرهم ميلاً للأدب ، إنّهُ يتمتّعُ بكلّ صفاتِ الكاتب الروائي الحقيقيّ .. " .

من هنا فقد واجهت الكنيسة وما زالت تواجهُ مشكلة " قراءة حقائق " وإمكانيّة الجمع بين التواريخ والمعلومات بل إمكانيّة إيصال النصّ إلى الذهن دون أيّ تردّدٍ أو طرح لأيّ سؤال حول حقيقة الأمر خاصّةً في تلك العناوين التي يبدو فيها التكاذبُ التعارضي بين الأناجيلِ للعيانِ ولا يمكنُ ردّهُ بأيّ تفسيرٍ دفتري أو نظري أو إشارة مبهمة .. حتى أنّ مجموعةً من التناقضات الخطرةِ بدت علنيّة ، ليس بين مجموعة من الكتابات بل في أعمال كاتبٍ واحدٍ أيضاً فضلاً عن تناقضات الأناجيل البارزة للعيان .. وكما تعلم فإنّ الأزمة هذهِ تطال الفكر

الكنسي في أكثر من جهةٍ وموقعٍ .. وتصرّ على ضرورة إيراد إجاباتٍ شافيةٍ حول كلّ ما هو مشكوك فيهِ .. بل الحقيقةُ تفرض علينا ضرورة الإجابة بنوعٍ من " التاريخيّة الصادقة " حول الكاتبِ والمكتوبِ وآليّةِ الكتابةِ والزمان والمكان وإجراءاتِ القبولِ والرفضِ وروحِ التعاملِ مع التراث الشفهي .. الحقيقة تفرض علينا إعادة التحقّق من مجموعة عناوين تتّصل بالشقّ العقائدي مثلما حصل في قضيّة اللاهوت والناسوت الخاصّة بالمسيح والتي كانت وراء أكبر الأزمات وأخطرها وأدقّها ، في ظلّ الخلافات التي حصلت بين الشرقيين والغربيين حيث ثارت فتن إستعملت فيها أهمّ المواضيع التوصيفيّة للتعاليم ، ونوقش فيها كثير من المعلومات الثابتة وأظهرت النقاشات خلافاً حادّاً حول إعطاء معاني تتعلّق حتى بالمسيح نفسه من الجهة الناسوتيّة واللاهوتيّة ، حتى أنّ أصحاب " التفكير الواحد " إنقلبوا على ما كانوا عليه . إنّ جدلاً طويلاً [1] حصل بين المسيحيين أنفسهم تطوّر إلى صراع حول (الشرك) فمجمّع " نيقيّا " يعلنُ بلغة الفلسفة الإغريقيّة أنّ المسيح هو (من جوهر الله ذاته) ويعرّف الله على أنّه ثالثُ ثلاثة " أقانيم " .بمقابل هذه الطائفة كانت طائفة أخرى تعتبر المسيح " نبيّاً " وتشير إلى أنّ النبيّ موسى (ع) هو الذي بشّر به وهي طائفة (الأبيونيّون) وكانوا يهوداً إيسّينيين متنسّكين أصبحوا بعد عام ٧٠ ميلاديّة مسيحيين .. كما أنّ طائفة (القائيطيون) الذين ظهروا في عهد الإمبراطور تراجان (٩٨ — ١١٧) هم قريبون من عقيدة الأبيّونيين حيث أنّهم يعتقدون بالمسيح كرجل ونبيّ .. أما المَلَكيّة في آسيا الصغرى وفي بيزنطيّة فهم إستمراريّة للتوحيد اليهوديّ الذي يعتبر " الإبن وروح القدس " من مظاهر الله الواحد بالمعنى اليهوديّ .

---

[1] أنقل هذه المعلومات بتصرّف عن كتاب " الإسلام في الغرب " لمؤلّفه الفيلسوف روجيه غارودي ما بين صفحات ٢١ و ٣٣ .

مجمّع نيقيّا الذي إنعقد عام ٣٢٥ ميلاديّة بدعوة من الإمبراطور قسطنطين لتأمين وحدة إيديولوجيّة لإمبراطوريّته ، وذلك بفرض عقيدة التثليث والمشاركة في الجوهر بين المسيح والآب . إنّ هذا المجمّع شقّ وحدة المسيحيين وبدأ صراعاً حقيقيّاً مع (أريوس) أسقف الاسكندريّة الذي عارض هذه العقيدة وأعلن بطلانها .. ومنذ تلك الفترة أخذت معالم الصراع تتبدّى أمام الطبيعة المزدوجة للمسيح وذلك عند قطبين :

١.مذهب (النسطوريّة) التي وضعها راهب إنطاكية " نسطوريوس " الذي أصبح في سنة ٤٢٨ مطران القسطنطينيّة ، الذي أكّد على أنّ المسيح كائن بشريّ ، رافضاً فكرة " معاناة " الله الواردة في الإنجيل لآلام المسيح ، كما رفض إعطاء مريم العذراء لقب " أمّ الله " .

٢.مذهب (الطبيعة الواحدة) وقد جاهر به في القسطنطينيّة الراهب أوتيشيز حوالي عام (٤٤٧-٤٤٨) والذي يرى أنّ المسيح ذو طبيعة إلهيّة .

وبذلك تبدّت ملامح الصورة العقائديّة على الشكل التالي :

-(النسطوريّون) يرفضون " الطبيعة المزدوجة " للمسيح ويعتبرونَهُ بشراً مثلهُ مثل الأنبياء السابقين .

-(الآريوسيّون) يرون أن المسيح كلمة الله و" طبيعته إلهيّة " ويرفضون أن تكون طبيعته بشريّة .

وتنبغي الإشارة إلى أنّهُ عندما ألقى مجمّع نيقيا عام ٣٢٥ الحُرُم على آريوس ، كان مطران قرطبة " أوسيوس " قد ولد عام ٢٥٦ وهو الشخص الذي لعب الدور الأكثر أهميّة في هذا المجال .. فأوسيوس كان له حضور في بلاط الإمبراطور في روما ، بدءاً من عام ٣١٢ وكان قد أصبح موضع ثقة الإمبراطور قسطنطين . وقد كلّفهُ سنة ٣٢٤ بمهمّة إستطلاع وتحقيق في الإسكندريّة حول " آريوس " ومطرانهِ الكسندر .. وبعد أن أتمّ المهمّة فقد ترأس وأدار مناظرات مجمّع نيقيا كممثّل للإمبراطور .. كتب سان أتاناز في كتابهِ (تاريخ الآريوسيين) :

إنّهُ هو الذي ترأس المجمّع ، وهو الذي كان لهُ بفضل رسائلهِ الرأي النافذ في كلّ مكان وهو الذي صاغ في (نيقيا) المعتقد الدينيّ وأعلن في كلّ مكان بأنّ الآريوسيين هم مهرطقون .. "

وكان أوسيوس القرطبيّ أوّل محرّر لإعلان مبادئ نيقيا ، التي أعلنت الإبن " مشتركاً في الجوهر مع الأبّ " والتي كفّرت آريوس وطردتهُ . وهو أوّل موقّع لهذا الإعلان فقد كتب : إنّي أوسيوس ، مطران مدينة قرطبة ، من أقاليم أسبانيا ـــ أؤمنُ بما هو مدوّن .

.. والمفاجئ عقائدياً أنّه وبعد ٣٢ عاماً أي في ٣٥٧ وقّع " أوسيوس " في مجمّع (سيرميوم) في إلّيري على نهر الدانوب إعترافاً تبرأ فيه من ماضيه

كلّه ، معلناً التوبة ، وتحالف مع الآريوسيّة . وإعتقد ببشريّة المسيح لا بربوبيّته وأنّه رجل بعثه الله نبياً

وفي سرد بسيط للذي جرى خلال ثلث قرن ، أي ما بين مجمّع نيقيا عام ٣٢٥ ومجمّع سيرميوم عام ٣٥٧ تبدو الحقائق مخيفة .

الواقع أنّه في عام ٣٤١ وبينما كان التمرّد في الشرق يحقّق إنتصاراً ضد قرارات نيقيا ، إختار " أوزيت دي نيكوميدي " مبشراً من بين القوطيين وعيّنهُ مطراناً وهو فولفيلا .. وإلى إلّيري ، الواقعة على الدانوب ، دخلت المسيحيّة الآريوسيّة في زمن " آريوس " بالذات ، وقد نجح " فولفيلا " وأتباعهُ في هداية غالبيّة (الشعوب الجرمانيّة) .. وقد استنجد الإمبراطور الرومانيّ " هونوريوس " بالفيزيقوطيين لكيّ يطردوا الفاندال والسويف من شبه الجزيرة الإيبيريّة . وقد قطع مَلِكُهم أوريك في عام ٤٧٦ علاقاته رسميّاً مع الإمبراطوريّة البيزنطيّة فإنتصرت الآريوسيّة . وقد تأصّلت بالجماهير وتديّنوا بها ، حتى عندما تمرّد الأمير الكاثوليكيّ " هيرمينيجيلد " ضد أبيه الآريوسيّ " ليوفيجيلد " إنبرى " ايزودور " أسقف إشبيليّة في كتابة تاريخ الفيزيوطيين للدفاع عن الملك الآريوسيّ وكذلك غرايغوار تور .

وعندما إرتدّ في السنة التالية عام ٥٨٧ عن الآريوسيّة الملك ريكاريد ثارَ آريوسيّو الشمال ، في كاتالونيا ، وناربونيز ، ولم يتمّ القضاء على الحركة إلا باللجوء إلى قمعٍ شديد . وظلّ التمرُّد على مدى قرن مستمرّاً بقوّة ، ثم أصبح أكثر سخطاً في عهد الملك ايرفيك (٦٨٠-٦٨٧) بسبب حصول مجاعات

رهيبة ، وَرَدَ ذكرها في كتاب مذكرات الراسي الموريسكس (أي المغربيّ) . وأخيراً إنفجر الصراع اثر موت الملك فيتيتزا عام ٧٠٩ أيضاً في فترة مجاعة . فقام المسيحيّون " المثلّثون " أي أنصار عقيدة نيقيا بتنصيب رودريك ملكاً مع أنّ كلّ أهالي شبه الجزيرة كانوا ضدّهُ ، وعندما غزا رودريك الأندلس إصطدم بمطران اشبيليّة أوباس فأشعل أبناءُ فيتيتزا ـــ وهم آريوسيّون ـــ الثورة في البيتيك (الأندلس الحاليّة) وطلبوا تعزيزات من الآريوسيين ، ومن مسلمي إقليم فيزيقوط من موريتانيا الطنجيّة (ريف المغرب) وبناءً على طلب الآريوسيين نزلت قوات من " البربر " [1] على ساحل منطقة الجزيراس (الجزيرة) بقيادة طارق وهم يقصدون بذلك طارق بن زياد . وجرت معركة واحدة فقط في " غواداليت " قرب قادس ولم يلبث اوباس مطران اشبيليّة أن إنضمّ في ذروة المعركة إلى البربر . وحسب كتاب اليوميّات اللاتينيّة فإنّ سانديريد ، اسقف توليدو ، قد فعل الشيئ ذاته ، وهُزِم رودريك ، فنجحت قوات طارقْ ، التي وصلتها على التوّ تعزيزات بقيادة موسى بن نصير ، في أقلّ من أربع سنوات ، في عبور شبه الجزيرة حتى جبال البيرينيه دون حاجة لمواجهة أيّة مقاومة أمّا اليهود الذين عانوا طويلاً من إضطهاد الفيزيقوطيين ، فقد أشرعوا أبواب مدن عديدة .

إنّ كلّ هذا يكشفُ عن صراعات خطيرة نشبت بين المسيحيين أنفسهم قلبت الموازين وغيّرت المعايير ، إلى درجة أنّه انخرط في نقاش جوهر المسيح رأسُ الكنيسة ، فواحدٌ يعلن أنّه من جوهر الله ، وآخر يرى أنّ هذا الإعلان محض زندقة وكفر ، وأنّ المسيح بشرٌ نبيّ ليس أكثر ولا توجد أيّ إشارة ولا بيان على

---

[1] هكذا أطلقوا التسمية على المسلمين وللإشارة إلى حقيقة النصّ التاريخي في النقل تركتها على حالها .

أنّه من جوهر الله ، في حين أنّ كل ما في الإنجيل دليلٌ على أنّ المسيح بشرٌ نبيّ . وهذا ما قال بهِ بشدّة رُسُل المسيحِ وعلى رأسِهِم بطرس ويوحنّا ويعقوب .. والأكثر من ذلك أنّ المسيحيّة لم تستطع أن تنفتح على جوارها أو على المهد الحضاري للأديان ، فهي ترفض رفضاً مطلقاً مشاركة الآخرين في مناقشات دينيّة أو حتى الإستماع إلى " فكر ديني آخر " وتصرّ على عدم حقّانية باقي الأديان ، بخلاف الإسلام الذي ناقش الديانات ، وفتح بابَ الحوارِ بقوّةٍ لا مثيل لها في تاريخ الحكم والأديان من أجل مناقشة الفكر الديني وإثبات الحجّة الإلهيّة وهذا السبب الجوهريّ الذي ساعد الإسلام على الإنتشار بقوّة غير مسبوقةٍ .. فالنبيّ محمّد كان يقيم المجالس من أجل حوار اليهود والنصارى والمشركين وباقي الملل بخلاف النصرانيّة واليهوديّة ، حتى أنّ مدرسة قرطبة المسيحيّة لم تعرف إسم محمّد أو وجود القرآن إلا بعد عام ٨٥٠ ميلاديّة ..! ففي رسالة من رسائل سان أولوج دي كوردو (القرطبيّ) ، مؤرّخة في ١٥ تشرين الثاني ٨٥١ وهي تلك التي توجد في فصل " دفاع عن الشهداء " يقول أولوج :

.. حيث أنّي وجدتُ نفسي في دير لير (في منطقة نافار) ورغبة منّي في الإطّلاع ، فقد أحطتُ علماً بجميع الكتب التي كانت موجودةً فيه وقرأتُ الكتبَ التي كانت غير معروفة لديّ ، وفجأةً عثرتُ ـ ضمن مؤلّف صغير خالٍ من التوقيع ـ على أقصوصة حول نبيّ منحوس ..!

وحتى ذلك الحين لم يكن أيّ لاهوتيّ مسيحيّ من الناطقين باللاتينيّة ممّن ينتسبون إلى مدرسة قرطبة يعرف بعد ١٤٠ عاماً من الفتح العربيّ لأسبانيا حتى إسم محمّد أو القرآن ...! فهل في هذا الأمر غرابة أم دلالة على الإنفتاح ومناقشة الأديان وتحقيقِ ما يجري في كونِ الإنسان ..!

حتى قراءة بعضهم جاءت على نحوٍ من تشويهٍ قاتلٍ ، ففي القرن الخامس عشر إعتبر نيكولا دي كو (١٤٠١ – ١٤٦٤) في كتابه نقد القرآن (شأنه في ذلك شأن سان داماسكين) بأنّ الإسلام هو هرطقة مسيحيّة وحاول أن يستخرج من القرآن ما هو صحيح ..! بهذهِ الطريقة أرادوا أن يكتشفوا حقيقةَ الحال ..! لا شكّ أنّ الفرق كبير جدًّا في هذا البابِ بين منطقِ الإسلامِ ومنطقِ المسيحيّةِ واليهوديّة .. فالإسلام دين يدعو إلى الحوار ، إلى المعرفة ، إلى التحقّق ، إلى قداسة النصّ بعد ثباتِ عصمتهِ وصلتهِ باللهِ وفقاً لأصولِ الحجّة والبرهان .. ولا يمكن بحالٍ أن تقرأ في الإسلام تقديس دعوى بمجردِ أنّها دعوى أو المرور على شكٍّ أو تناقضٍ أو تكاذبٍ أو تركيب من دون تحقّق أو توثّق ثم التعامل معهُ على أساسِ أنّه مقدّس ..

لقد كانت المسيحيّة منغلقة جدًّا ، إلى درجة أنّ الإسلام انتشر بقوّة في بقاع الأرض والمسيحيّة كانت لا تزال تجهل حقيقة الأمر .. حتى أنّهُ في العام ٨٣٩ وقّع مطران " اشبيليّة " مراسيم مجمّع قرطبة ضدّ أعداء الكنيسة ، ولم يتضمّن هذا المجمّع أيّة إشارة إلى الإسلام ، وكأنّ الإسلام غير موجود ، مع أنّه دين واسع الإنتشار في الأقطار ، إلا أنّهم لم يكونوا قد سمعوا به أصلاً ، وهذا أخطر ما في الأمر .. حتى أنّ الأكثر شهرة من بين هؤلاء الروحانيين وهو " سان

أولوج " مطران توليدو ، ومع ذلك كان يجهل تماماً " وجود الإسلام " حتى تاريخ رحلته إلى نافار (٨٤٨-٨٥٠) ..! وقد دعا أولوج منذ إكتشافهِ المفاجئ في نافار لسيرة حياة النبي محمّد إلى طلب الشهادة لمحاربة هذا المسيح الدجّال ..! أيّ غرابة في هذا الأمر ..! ربّما القراءة المستوفية للأناجيلِ لم تكن تامّة في ذهنهِ ، لأنّ قراءة مستوفية في ذلك الزمن كانت ستؤدّي بشكلٍ نهائيٍّ إلى غيرِ هذا الموقف .. وعليهِ : ما بين ٨٥١ و ٨٥٧ ، ألّف سان أولوج كتاب مذكّرات الشهداء ووثيقة الشهادة ودفاع الشهداء ، محرّضاً على تفعيل البطولة لمنع إنتشار الإسلام ... وتلبيةً لندائهِ دخل جماعةٌ من اتباعهِ إلى أماكن الصلاة والعبادة الخاصّة بالمسلمين فشتموا نبيّهم وقادوا المسلمين إلى المحاكم ، فحكموا على بعضِهِم بالإعدام .. من هنا يمكننا أن نحيط بمجموعة مؤشرات من شأنها أن تمثّل مدخلاً مهمّاً على ما كانت عليه الأزمة التي ألّمت بالكنيسة وشغلتها في زوايا ضيّقة فانغلقت عن أفقِ العالمِ الضروري ، ومع أنّ إعتناق الإمبراطور قسطنطين جعل الإمبراطوريّة الرومانيّة كلّها مسيحيّة ، وهذا كفيل من حيث الشرط النظري بنشر المسيحيّة وتنقية أفكارها وتوحيد حرفِها ومفهومِها ضمن مستوى واحد ، لكنَّ أزمة تناقض الأناجيل ، وتناقض التفاسير ، وتناقض الأفكار ، والإضطراب والقصور البادي جدّاً في أكثر من متنٍ وعنوانٍ رئيسيٍّ حول مجموعة من الثوابت جَعَلَ الحقيقةَ عرضةً للإهتزازِ بنسبة هامّة وراء حرب كلاميّة عقائديّة هي أخطر ما حلّ بالمسيحيّة فكريّاً وعقائديّاً ... أمّا المشكلة الأكثر عمقاً فإنّها تتصل بمجموعة من عناوين مثل :

- المدَوّن .. هويّتهُ .. ظروف تدوينِهِ .. والغريب كلّ الغرابة أن لا يكون واحد من هؤلاءِ قد عاين المسيح أو عايشهُ ..

- زمن التدوين ..

- زمن نقل التراث الشفهي إلى نصٍّ مكتوب ..

- سلسلة الرواة ..

- التواريخ ، وسائط النقلِ والعيان .. إضطراب الحرف الإنجيلي في مجموعةٍ رئيسيّةٍ ..

- الخلاف العقائدي الأعمق .. خاصّة أنّ مَن كَتَبَ الأناجيل لم يكن موجوداً أو معايناً أو مستمعاً ، بل انّ من أصبح من المبرّزين ضدَّ المسيحيّة (بولس) وهو الذي يحمل مجموعة فكريّة مختلفة عنها جدًّا دلّ قلمهُ على أنّه لم يكن متأثّراً بها ..

- على الأقلّ إنّ من مفارقات الحدثِ التاريخي المدهش أنّ يعقوب وفريق رسل المسيح المخلصين فشل في تثبيت تعاليم المسيح أمام مجموعة ظرفيّةٍ مجتمعيّةٍ كانت في حظّ بولس العدوّ اللدود السابق للمسيحيّة زمن المسيحِ الذي أعلن الحرب العنيفة بعد المسيحِ على رسلِهِ وتلامذتِهِ وادّعى أنّه مبعوثٌ من قِبَلِ المسيحِ برؤيةٍ ما ، فبشّر بمجموعةٍ من معانٍ وعناوين مختلفة ممّا في يديِ رسل المسيحِ وتلامذتِهِ وانتصرت دعوتُهُ عليهم ..! وها نحن الآن نقرأ المسيحيّة البولُسيّة وليست البطرسيّة أو اليعقوبية ..! فهل في الأمر ضرورة جديّة للتوقّفِ هنا أم أنّ الأمر طبيعي ..؟

لا شكّ أنّ الحقيقة ضروريّة وحاسمة بشكلٍ نهائيٍّ ، ولا بدَّ منها ، وبها يُعرف اللّٰه ويُعبد ..

إنجيل يوحنّا

أثير أكثر من نقاشٍ حول إنجيلِ يوحنًّا ، مرّةً حول المضمون ، ومرّةً حول الأسلوب ، وثالثةً حول التعاقبِ الزمني ،.. والذي لا خلافَ فيهِ هو أنّ إنجيل يوحّنا يختلف جدّاً عن الأناجيل الثلاثة الأخرى ، إلى درجة أنّ " الأبّ روجي " في كتابه (مقدّمة إلى الإنجيل) وبعد أن علّق على الأناجيل الأخرى قال في حقٍّ هذا الإنجيل : " ... إنّهُ عالمٌ آخر " إشارة منهُ إلى اختلافهِ عن الأناجيل الأخرى .. ويمكن أن ننظر إلى الإختلافِ من حيث الشكل والإجراءات والمضمون أيضاً .. فهو يختلف في ترتيب واختيار المواضيع والروايات والخطب ، كما فيه إختلافات في الأسلوب والجغرافيا والتعاقب الزمني للأحداث ، وفي متنهِ أكثر من عنوانٍ معارضٍ ، وزيادة على ذلك فإنّ فيهِ إختلافاً في الآفاق اللاهوتيّة كما يقول " أ . كولمان " . إلى درجة أنّ أقوال المسيح تساق بشكلٍ مختلفٍ لدى كلّ من يوحنّا والمبشّرينَ الآخرينَ .. هذا بطبيعة الحال يفرض بشكلٍ سياقي طبيعة أسئلة محددة تتّصل بطبيعة الحدث مرّةً وأمانة التسجيل ثانيةً ، مع الأخذ بعين الإعتبار أنّه ربّما لم يكن النقصُ متّصلاً بما عليهِ التدوين كخيارٍ احتمالي ، بل بالمصدر والوسائط ، إلا أنّ نتيجة الأفقِ وما عليهِ السطحُ من آثار تدلُّ على أنّ هناك مشكلة ، خاصّةً أنّ القراءات الإنجيلية المقارنة تضعنا أمام هذا الواقع ، الذي لا يصحّ معه التجاوز إلى أفقٍ آخر قبل الإجابة عن مثلِ هذا الوضع الذي يضرب روح النسبةِ إلى اللهِ تعالى أو إلى النبي المسيح عبر مجموعة متون واردة في الأناجيل يبدو في بعضِها تناقض وقصور

واضطراب وغيره ، بمعنى أنّ لسان التكاذبِ التناقضي يمثّل عقبة حادّة لا بدَّ من التوقّفِ عندها في إطارِ نسبة القداسة إلى مجموعةٍ متنيّة متّصلة بهذا المحورِ ، هذا ببعد النظرِ عن الجهاتِ التي أشرنا إليها فيما سبق ، وهي تتّصل بمجموعة من عناوين القبول والرفض والإلغاء والإبطال والتحوّل العقائدي وغير ذلك ..

وعلى كلّ حال فإنّ ما قام بهِ يوحنّا إستحسنه البعض فالأب روجي ينوّه بهذا الأسلوب ، ويعتبره أكثر إتزاناً من الأناجيل السابقة ، لجهة أنّ الأناجيل السابقة بدت وهي تتشكّل عن خلفيّةٍ ما ، وكأنّها ما زالت تتّبع الأسلوب الشفهي ، بخلاف ما عليه إنجيل يوحنّا ... وهذا الكلام مع قلّتهِ يحمل في طيّاتهِ أكثر من معنى ، فالأمر متّصل بعنوان التراث الشفهي ومشكلة النقل إلى حرفٍ مكتوب .. وهذا ما كنّا نتوقّف عندهُ ونعتبرهُ الأهمَّ من حيث أزمة النصّ الكامل فعدم وجود النصّ الكامل يعني أزمة حقيقيّة ، خاصّةً إذا كان الذي عليهِ الخلاف في التقنين أدّى إلى إلغاء عشرات الأناجيل ، فضلاً عن الخلاف التناقضي في أكثر من عنوانٍ رئيسيّ وارد في متنِ هذهِ الأناجيل الكنسيّة .. بحيث تظلّ مشكلة " النصّ الكامل " ضاغطة في أكثر من اتجاهٍ وتصرّ على إجابةٍ شافية .. وبكلمةٍ أخرى : إنّ الأناجيل الموجودة بين يدينا ، تشكو من أزمة نصٍّ كامل .. وقد أثّرَ عليها أكثر من ظاهرة منها الحذف والإضطراب وتغيير الحرف والكتابة المجتزءة لتراث شفهي والبعد الزمني بين الأحداثِ والكتابة ، وصولاً إلى جملةٍ من معانٍ منقوصةٍ ومضطربةٍ وبينها لسان تكاذبي واضح ، فضلاً عن مجموعةٍ من معانٍ لا يمكنُ أن تصدّق ، لجهة الإستحالةِ في جانبها ، في وصفٍ غير مأخوذ فيهِ الوحي

أو الإعجازُ أو ما يتّصل بتطويع الناموس ، وهو متّصل بظرف التدوينِ الذي لم تظهر شهاداتهُ قبل ١٤٠ م .. ما يعني أنّ الأمر متّصل بقصورٍ بشريٍّ واضح ..!

من هو يوحنّا

أوّل إشارة لا بدَّ من سياقِها هو أنّ يوحنا ليس من تلامذة أو حواريي أو أصحابِ المسيح ، بل هو شخص آخر ، ولا يمكن بحالٍ من الأحوالِ إثبات أنّه شخص عاين الأحداث فكتبها .. هذا بخلافِ المغروسِ في الذهن العام ، من أنّ يوحنّا هو تلميذ من تلامذةِ المسيح شاهد وعاين فكتب .. مع أنّ البعض حاول أن يسوق الأمر على نحوٍ من مفروغيّةِ أنّ يوحنّا هو التلميذ النجيّ للمسيحِ إلا أنّه جاء وفق العادةِ المأخوذةِ في ذلك من سرد دعوى ليس أكثر لأنّه لا توجد أيّة شهادةٍ تاريخيّةٍ تساعدهُ في تدعيمِ قولِهِ هذا ، وربّما كانت الصياغة الأدبيّة مفيدة في هذا المجال للأتباعِ والجمهور إلا أنّها لن تكون كذلك لمن يريد أن يتثبّت من الأمر ، خاصّةً أنّ الشهادات التاريخيّة كلّها تصبّ في خانةِ أنّ الكتابات الإنجيلية لم تظهر قبل العام ١٤٠ م . بمعنى أنّ التاريخَ واضح في صدّ أي دعوى أدبيّة تحاول تقريب زمن التدوين إلى ما قبل العام ١٤٠ م .. وإن حاول البعض أن يشير إلى تواريخ مثل ٧٠ ميلاديّة ، على نحوٍ من سياقٍ أدبيٍّ ليس أكثر بهدف غرس فكرة أنّ من كتب الإنجيلِ لا يمنعهُ الزمنُ من أن يكون شاهدَ عيانٍ ، من هنا فإنّنا وجدنا مجموعة ممّن يسردون تعريفاً أدبيّاً حول نسبة الإنجيلِ ... فمثلاً في إنجيل يوحنّا يقولون : هو إنجيل منسوب إلى يوحنّا ابن زبيدي ، وهو من التلامذةِ الأربعة الأوائل ، وهؤلاءِ الأربعةِ هم : سمعان الملقّب بـــ " كيفا " في الآراميّة أي الصخر ومن ذلك إسمهُ بطرس في اليونانيّة ، وشقيقهُ

أندراوس ، والأخوانِ يعقوب إبن زبدي وشقيقُهُ يوحنّا .. إلا أنّ هذا السياق مجرّد طرح أدبي تجافيهِ الحقائق التاريخيّة ، فلا شيئ من شواهدِ التاريخ يشهد بأنّ الكتابات الإنجيليّة ظهرت قبل عام ١٤٠ ميلادية ، إذن كلّ دعوى خلاف هذا الأمر هي مجرّد طرح أدبي ليس أكثر ، الغايةُ منها تقريب العامل الزمني ما أمكن ليكون مَن كتب الأناجيل من التلامذةِ الذين رأوا وعاينوا ، ولا يمكننا أن نستفيد غير ذلك ، لأنّ من يقرأ في المتونِ المتّصلة بالتعريفِ الذي يساق للأناجيل يدرك حقيقة هذهِ الإشارة ، في حين تعترف وثائق المجمّع المسكوني بأنّه لا شهادات على تكوّن الكتابات الإنجيليّة قبل العام ١٤٠ م .. هذهِ هي الحقيقة .. إذن أوّل مفاد هو أنّ من كتب الأناجيل ليس تلميذاً أو معايناً لما حدث ووقع .. وقد حاول بعضُهُم أن يطوّل في عمر يوحنّا فأعطاهُ عمر ٩٠ إلى ١٠٠ عام بهدف جعله وسيطاً زمنيًّا ، من أكبر التلامذةِ ، كحلقةٍ زمنيّةٍ ضروريّة لمن قال بأنّ الشكل النهائي لإنجيل يوحنّا لم يأخذهُ على الأقلّ قبل العام ١٠٠ ميلاديّة .. في حين كلّ الشهادات التاريخيّة تشير إلى أنّه قبل ١٤٠ ميلاديّة لم يكن هناك أيّ تشكّلٍ أو ظهورٍ لكتاباتٍ إنجيليّة .. وعليهِ : لا يمكننا بحالٍ من الأحوالِ أن نسلّم بأيّ ادّعاءٍ يساقُ على نحوٍ موجّهٍ نحو العامّةِ لا إلى المحقّقين ، فالتحقيق وبأكثر من قلمٍ لاهوتيّ ومجمّعٍ دقيقٍ يشيرُ إلى أنّه قبل العام ١٤٠ م . لم يكن هناك أيّ شهادةٍ على وجود كتاباتٍ إنجيليّة .. وهذا يعني أنّ من كتب ودوّن المتن الإنجيلي لم يكن ممّن عاين وشاهد الحوادث تلك ..

وما تجدرُ الإشارةُ له هو أنّ كثيراً من المعلقين حاول أن يعطي هذا الإنجيل قيمة ثبوتيّةٍ ليوحنّا ولو عن طريق إعطاءِهِ عمر ٩٥ سنة ، بهدف تثبيت

واسطة زمنيّة ممكنة ولو على نحوٍ ما ، وكلّ من قال ذلك كان في مقامِ الإفتراض ليس أكثر ، لجهةِ أنّ تشكّل إنجيل يوحنّا قبل ١٠٠ ميلاديّة على نحوٍ لا بأس بهِ ، على اعتبار أنّ يوحنّا هو من عمر المسيح .. إذاً : لا بدَّ لهُ من عمر ضروري مفترض هو ٩٥ عام .. من هنا نشأ خلاف واضح وكبير ، وقد طرحت آراء شديدة التنوّع في هذا الشأن ، فـــ " أ . تريكو والأبّ روجي " انضمّوا إلى الذين يقولون بأنّ إنجيل يوحنّا في نظرهما هو كتاب لشاهد معاين ، والمؤلّف هو " يوحنّا بن زبيدي " وأخو جاك ، وهو المبشّر الحواريّ ، المعروف عنه تفاصيل كثيرة ، تُعرض في الكتب المبسّطة المعمّمة ، كما تصوّره الإيقونات الشعبيّة واقفاً بجوار المسيح مثلما كان عند العشاء الأخير قبل الآلام .

ويضيفون : إنّ التحرير المتأخّر لهذا الإنجيل الرابع لا يشكّل حجّة قاطعة ضدّ هذا الموقف الذي يتّخذه البعض ، الذي يعتقد أنّ الصيغة النهائيّة له قد حرّرت في نحو نهاية القرن الأوّل . ثمّ إنّ تحديد تاريخه بستّين عاماً بعد المسيح قد يكون أمراً يتّفق مع وجود " حواريّ " كان صغير السنّ في عصر المسيح ، وعاش ما يقارب قرناً (١٠٠ عاما) من الزمن ... إنّ الأب كانينجسر في دراسته عن القيامة ، يصل إلى نتيجة مفادها : أنّه ليس هناك أيّ " كاتب " للعهد الجديد سوى " بولس " يستطيع أن ينسب لنفسه صفة كونه شاهداً معايناً لـــ " قيامة المسيح " وبرغم ذلك فيوحنّا يقصّ ظهور المسيح بعد قيامته للحواريين وكأنّه واحد من الذين كانوا مجتمعين بإستثناء توما (الإصحاح ٢٠- الآيات من ١٩ إلى ٢٤) ثمّ ظهوره مرّةً أخرى بعد ثمانية أيام للحواريين بكاملهم . أمّا " أ . كولمان " فإنّه لا يتّخذُ موقفاً خاصّاً في هذا الموضوع في

كتابه " العهد الجديد " . كما أنّ الترجمة المسكونيّة للكتاب المقدّس تحدّد أنّ غالبيّة النقّاد لا تأخذ بالفرض القائل : بتحرير قام به يوحنّا الحواريّ ، وإنْ كانَ ذلك محتملاً وغير مستبعد برغم كلّ شيءٍ .

إلا أنّ " إنجيل يوحنا " عند تشريحِهِ خضع لأكثر من نقضٍ ونقضٍ قاسٍ جدًّا .. إلى درجة أنّ بعضهم شكّكَ وبأكثر من حجّةٍ علميّةٍ بطبيعةِ وأطر وموازين يوحنّا بعد وجود أكثر من متنٍ لا يمكنُ معهُ التصديق .. ولا يغيب عن البالِ أنّ إنجيل يوحنّا هو أكثر تغييراً لمجموعةٍ من الأسماءِ الضروريّة والعناوين بخلافِ الأناجيلِ الثلاثة ، كما أنّه يذكر مجموعة من الأحداثِ من زاويةٍ مخَالفَةٍ بشكلٍ بارزٍ لما عليهِ الأناجيلُ الثلاثةِ ، حتى أنّ مجموعةً من النقّادِ إنتقدوا هذا الواقعِ وأصرّ بعضهُم على أنّ يوحنّا غير دقيق في رصد الأحداثِ وعناوينِها الضروريّة .. فإنجيل يوحنّا وحدهُ يذكر حضور أمّ يسوع لصلبِهِ .. وهو ينكر أن تكون امّ المسيح إسمها مريم ، بل يقول بأنّ مريم هي أختُ أمِّهِ زوجة كلوبا ، إضافة إلى مريم المجدليّة المفترض بها أنّها كانت تقوم بخدمةِ المسيح .. كما أنّ إنجيل يوحنَا هو وحدهُ يذكر وجود يوحنَّا واقفاً عند يسوع في ذلك الوقت أي حين صلبِهِ ، مع أنّه في حقيقةِ الحالِ كان مختبئاً مع سائرِ تلاميذِ يسوع في ذلك الوقت بشهادةِ هذا الإنجيلِ نفسهِ (٢:٢٠-١) ..! إذاً : أيّ اضطرابٍ وتناقضٍ هذا ..! هل القضيّة هناك متّصلة بكاتب وشاهد عيان أم أنّ التناقض يدلّ على قصورٍ واضطرابٍ ونسفٍ لحقيقة الصلةِ العيانيّة ..!

كما أنّ إنجيل يوحنَّا يشير إلى أنّ يوحنّا جاء بمريم المجدليّة (التي كانت في جملةِ النساء الخادمات ليسوع اللواتي شاهدنَ صلبهُ من بعيد على قولِ الإنجيلِ في

الصلب على ما يتّفق عليهِ مرقس ومتّى ولوقا) فجعلها تقف مع أمِّ يسوع (التي ينكر أن يكون إسمها مريم) وخالتهِ مريم وتلميذهِ يوحنّا عند الصليب .. إلى الكثير ممّا يخالفُ فيهِ الأناجيل الثلاثة ، حتى أنَ إنجيل يوحنّا ينفرد في أنَّ مريم المجدليّة كانت الوحيدة التي شهدت بأنّها رأت يسوع بعينيها وتكلّمت معهُ بعد قيامتهِ من الموت ، وهو بعد عند قبرِهِ لم يصعد إلى السماء ، هذا ما ينفرد بهِ إنجيل يوحنّا أمّا الأناجيل الأخرى فتقول بأنَّ النساء اللواتي ذهبنَ لزيارة القبرِ في اليومِ الثالثِ وجدنَ القبرَ فارغاً ثمَّ التقينَ هناك بمن قال لهنَّ : (قد قام ، ليس هو ههنا) (مرقس ١٦:٦) أو ليس هو ههنا لأنّه قام (متى ٢٨:٦) أو (لماذا تطلبنَ الحيَّ بين الأمواتِ ؟ ليس هو ههنا ، لكنّه قام) (لوقا ٢٤:٦) أمّا إنجيل يوحنّا فيروي القصّة على الشكل التالي :

[.. في أوّلِ الأسبوعِ جاءت مريم المجدليّة ،
إلى القبرِ باكراً ، والظلام باقٍ ،
فنظرت حجراً مرفوعاً عن القبرِ ..
انحنت إلى القبرِ ، فوجدت ملاكين بثيابٍ بيض جالسينِ ،
واحداً عند الرأس ، والآخر عند الرجلين ،
حيث كان يسوع موضوعاً ،
فقالا لها : يا إمرأة ، لماذا تبكين ؟
قالت لهما إنّهم أخذوا سيّدي ولستُ أعلم أين وضعوهُ ،
ولمّا قالت هذا التفتت إلى الوراء ، فنظرت يسوع واقفاً ،
ولم تعلم أنّه يسوع ، قال لها يسوع : يا امرأة لماذا تبكين ؟
ماذا تطلبين ؟

فظنّت تلك أنّه البستانيّ ، فقالت له : يا سيّد ، إن كنتَ أنت قد حملتَهُ فقل لي أين وضعتَهُ ، وأنا آخذهُ ،

قال لها يسوع يا مريم فالتفتت وقالت له ربّوني الذي تفسيرهُ " يا معلّم " ،

قال لها يسوع لا تلمسيني لأنّي لم أصعد بعدُ إلى أبي ،

ولكن اذهبي إلى اخوتي وقولي لهم إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإليهي وإ لهكم ،

فجاءت مريم المجدليّة وأخبرت التلاميذ أنّها رأت الربّ وأنه قال لها هذا ..] ..

إلى الكثير من تلك العناوين المختّصة بحقيقةِ ما عليه متنُ هذا الإنجيل الذي دفع العديد إلى التشكيك في طبيعةِ تدوينه .. ورغم أنَّ الكثير سيق لتبريرِ مثلِ هذهِ العناوين المختلفة إلا أنَّ شيئاً منها غير مقنع باعترافِ كبارِ اللاهوتيين ، ومعنى هذا ، لا يجوز على الإطلاق أن نتعامل مع الأمورِ من بابِ الدعوى الأدبيّة ، لا بدَّ من نصٍّ حيٍّ مستندٍ إلى حوادث ووقائع تاريخيّة مقبولةٍ .. الشهادات التاريخيّة مصرّة على أنّه لم يكن أيّ وجودٍ لكتاباتٍ إنجيليّةٍ قبل العام ١٤٠ م . وعلى كلِّ مدّعٍ خلاف ذلك أن يثبت ولن يفعلَ لإستحالة الأمر بشكلٍ عصيٍّ في مثلِ هذا المضمون وتلك الجهة ..

وعذراً إنْ قلت : لا يمكنُ بحالٍ من الأحوالِ الإعتماد على نمطٍ لا يمكنُ التسليمُ بهِ ، لا في واقع المجرى التاريخيّ ولا في مجرى مضمونِ ما جاءَ بهِ المسيح مثل الإعتماد على ادّعاء بولس في رؤية المسيح حين كان ذاهباً إلى دمشق بهدف

تعذيب أتباع المسيح ، وبصورةٍ ثوريّةٍ كبيرةٍ ذهب بولس إلى أكثر من ادّعاء الرؤية ، فتبنّى أفكاراً من مثل أنّ يسوع المسيح ما كان إلا إبنَ اللهِ الحيّ (تعالى اللهُ عن ذلك علوّاً كبيراً ..!) وقد تحوّلت العقيدة المسيحيّة بشأن يسوع إلى ذلك ، وهي المعروفة في دستور الإيمان المسيحيّ الذي وضعهُ آباء الكنيسةِ عام ٣٢٠ ميلاديّة في مجمّع نيقيّة ، ثمّ نُقِّحَ عام ٣٨١ ميلاديّة في مجمّع القسطنطينيّة على الشكل التالي :

أنا أؤمن .. بربٍّ واحدٍ ، يسوع المسيح ،
إبن الله الوحيد ،
المولود من الآب قبل كلِّ الدهور ،
إلهٌ من إلهٍ ، نورٌ من نورٍ ،
إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ ،
مولود غير مخلوق ،
ذو جوهرٍ واحدٍ مع [الله] الآب
هو الذي به كان كلُّ شيئٍ ،
الذي من أجلنا نحن البشر ،
ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ،
وتجسّد بالروح القدس من مريم العذراء ،
وصار إنساناً ،
وصُلِبَ على عهد بيلاطُس البُنطي ،
وتألّم وقبر وقام أيضاً في اليومِ الثالثِ ،
على ما في الكتبِ المقدّسةِ ،
وصعد إلى السماء ،

وهو جالس عن يمين الآب ،

ويأتي أيضاً بمجدٍ ليدين الأحياء والأموات ،

الذي ليس لملكهِ نهاية

لقد طرأ تحوّل هائل ومثير ، غريب كلّ الغرابة ، حيث لا يوجد ايّ نصٌّ إنجيليّ أو دليل فعلي أو أيّ شهادة تاريخيّة أو منطق رسوليّ من بطرس أو يعقوب أو يوحنّا أو حتى من تلامذة يسوع المسيح يشهد على صحّةِ هذا الإنقلابِ الهائل ، بل الجميع صفٌّ ضدٌّ هذهِ التعاليم بشكلٍ ضخم وعلنيّ .. ولعلَّ هذا التحوّل إضافة إلى مجموعة التعاليم التي أنكرها رُسُلُ وتلامذة المسيحِ أشدَّ الإنكارِ هي التي صعَّدت الحرب بين بولس والرسُل ، حتى أنَّ بولس شنّ حرباً عنيفةً عليهمِ ، واتّهمهم بالأنبياء الكذبة ..! وهكذا عانى الرسُل والتلامذة من بولس مرتين ، مرةً حين كان يعذّبُهم على عهدِ المسيح ، ومرّةً ثانيةً بعد صعود المسيح إلى السماء .. لقد كان بولس يزدري الرسل الذين هم في أورشليم بشكلٍ قاسٍ وعنيفٍ ، لقد كان يسخر من وصفِهم بالأعمدة ويقول : بل هم المعتبرون أنّهم أعمدة (غلاطية ٢ : ٨) وأصرّ على أنّه لم يتعلّم شيئاً من هؤلاءِ الذين يصفهم بالرسلِ الذين كانوا يُعتبرون " متفوّقين ، وإن كانوا في الواقعِ رُسُلاً كذبةً ..! ماكرين ، مغيِّرين شكلهم إلى شبه رسل المسيح (٢ كورنثوس ١١ : ٥ ، ١٣) .. شنّ عليهِم حرب إلغاء قاتلة اهمهم على اثرها بأنّهم أخذوا منه الرشوة أي يعقوب وبطرس ويوحنّا لكي يكفّوا عن مقاومةِ تبشيرِهِ .. وهذا مجرّد إدّعاء سخيف منه على انّهم أخذوا الرشوة على حسابِ ما كانوا بهِ يعتقدون من بطلانِ ما هو عليهِ .. وهذا (أي قبول الرشوة) لا يمكن بحالٍ تصديقهُ بعد أن اتّهمهم بأوصافٍ كثيرةٍ لا يتورّع فيها من الإعتمادِ على

كلّ شيئٍ والتفوُّه بكلّ شيئٍ ، دون أن يقف على الأقلّ على تعاليم المسيحِ وأخلاقيّاتهِ ..!

ثمّ ألا يجب علينا أن نقف قليلاً عند ما أفادهُ سفر أعمال الرسل عن لسانِ بولس بأنّ يسوع ظهر له وهو في طريقهِ من أورشليم إلى دمشق ليضطهد أتباع يسوع هناك وأنّ بولس عند وصولهِ إلى دمشق إلتقى بـــ " رجل تقيّ " إسمهُ حنانيا ، وتلقّى النصحَ منه ، وبعد ذلك عاد إلى أورشليم لفترةٍ قصيرةٍ ثمّ بدأ تبشيرهُ بين الأممِ بعيداً (٢٢: ٦-٢١) .. هل يمكن بهذهِ الصورة من شنّ الحرب القاتلة على رسل المسيحِ الذين كانوا الرسل بعدهُ ، أو عن طريق " حنانيا " أو لجهةِ ما ادّعاهُ في رسائلهِ من انّه لم يتعلّم من أحد ، أن نبني ديناً على نحوٍ مختلفٍ ومعاندٍ بشدّة لما كان عليهِ الرسل بطرس ويوحنّا ويعقوب وغيرهم من التلامذةِ الصادقين بحقّ ، إلى درجة التحوّل العقائدي ، إلى درجة تغيير الهيكل الأهمّ في أسس الدين المسيحي ومعتقداتهِ .. واليوم تقرّ المسيحيّة اللاهوتيّة بأنّ الديانة المسيحيّة كما نعرفها اليوم تقوم على الأُسُس اللاهوتيّة التي وضعها لها بولس بين العامين ٤٠ و ٦٧ ميلاديّة ، وتقرّ بأنّهُ هو أوّل شخصٍ أصرَّ على أنّ حقيقة المسيحِ هي : (صورة الله غير المنظور ، وهو بِكرُ كلّ خليقةٍ ، فيه خُلِقَ كلّ الكلّ ، ما في السمواتِ وما على الأرض ، وما يُرى وما لا يُرى .. الكلّ بهِ ولهُ خلق ، الذي هو قبل كلّ شيئ وفيه يقوم الكلّ) (كولوسيّ ١: ١٥-١٧) ..

أيّ عاقلٍ لا يتوقّف أمام حقيقة أنّ رُسُلَ المسيحِ اضُطهدوا بشكلٍ قاتلٍ على يدِ بولس قبل صعود المسيحِ إلى السماء ، ثمّ بعد ان ادّعى رؤية المسيحِ جاء باعتقادٍ مختلفٍ عمّا في أيديهم وبشكلٍ مدهشٍ وغريب ، وسمحت له الظروف

ثانيةً بإضهادِهِم بشكلٍ قاتلٍ وضاغطٍ حتى كرّس علمهُ اللاهوتي كأساسٍ للديانةِ المسيحيّةِ .. فهل ما قام بهِ هو عمل منفرد أم أنّه شكل آخر من إحباط المسيحيّة المتّصلة بحقيقة الوحي ..!

الإجابة واضحة بلا أدنى شكّ ، لكلّ عاقلٍ وطالبِ حقيقة ..

ألا يجدر بنا أن نتوقّف أمام حقيقة أنّ بولس الفرّيسيّ لم يبدأ بتبشيرِهِ إلا بعد عودتِهِ من زيادة العربيّة (وهو الإسم الجغرافي الذي كان يطلق آنذاك على الأراضي الممتدّة من المشارف الجنوبيّة لدمشق إلى أقصى الجنوب من شبه الجزيرة العربيّة) ، والذي ساهم بطبيعة الحال بزيادة ما في تراثِهِ المعرفيّ اليهودي الذي تعلّمهُ بشكلٍ جيّدٍ ومدرسيّ ، إضافة إلى أنّه رجل متعلّم بشكلٍ يتّقن معه عدّة لُغات ، فقام بالتبشير وفق تعاليم مغايرةٍ لما في أيديِ تلامذةِ المسيحِ من التعاليم والإعتقادات التي بثّها المسيح بين أيديهم .. وهو الذي أطلق على عقيدة يسوع المسيح إسم العهد الجديد في ظلّ إشاراتٍ حيّة تشيرُ إلى أنّه إستفاد من العربيّةِ لكنّه ظلّ يتكتّم على معلوماتِهِ ويصرّ انّه لم يتعلّم من أحد ..! منها أنّهُ يعترف أنّه حصل على رقوقٍ هناك ..!

ألا توجد غرابة في أنّ الذي اضطهد كنيسة الله في البداية بل أفرط في اضطهادها (غلاطية ١ : ١٣) إنتهى الأمر بهِ إلى أن يحارب أهمَّ أعمدة المسيحِ بعد صعودِهِ إلى السماء ، حتى اتّهم تلامذة المسيحِ بالكذّابين والرسل بالكذبة والماكرين وأوصاف قاتلة وخطيرة .. وواجه بذلك يوحنّا ويعقوب وجاك وسمعان بطرس (شمعون الصفا) . بطرس الذي قال بهِ المسيح :

[طوبى لك يا سمعان ،
وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس " أي صخرة " ،
وعلى هذهِ الصخرة ابني كنيستي ،
وأبواب الجحيمِ لن تقوى عليها ،
وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ،
فكلّ ما تربطه على الارض ، يكون مربوطاً في السموات ،
وكلّ ما تحلّه على الأرض ، يكون محلولاً في السموات ..]

لا يمكنُ بحالٍ من الأحوال لأيّ عاقلٍ أن يمرّ على كلّ هذهِ المعرفةِ بالرسُلِ ثمّ يعتبر ما جرى من انقلابٍ عقائدي مفاهيمي أمراً طبيعيًّا .. الخطورة تكمن في أنّ تأثّر التدوين الإنجيلي بما عليهِ بولس هو الأخطر ، لأنّه يسجّل الإنتصار الأكبر لبولس على التلامذةِ وتعاليمِهِم وبذلك يدخل بولس كمرجعٍ نهائيٍّ للمسيحيّة اللاهوتيّةِ دون غيرِهِ .. من هنا نقرأ في التاريخ أنّ باقي الأناجيل اعتُبرت غير قانونيّة ، وغير معترف بها كنسيًّا ، وغير معتبرة ، ولا بدَّ من إبطالِها ، بل من إتلافِها ومحاربة من يقول بها ، بل كلّ من يردّدها شفهيًّا .. ومن يقرأ التاريخ ، تاريخ الصراع حول هذا المعنى يجد فيهِ كلّ غرابة من عنفٍ وسطوٍ وقوّةٍ لإبطالِ كلّ ما يخالف العقيدة التي أرساها بولس ..

إذاً : نحتاجُ إلى صلابة في التحقيق ، إلى حدّة في التعاملِ مع ايّ ادّعاءٍ تاريخيٍّ أدبيّ يرادُ منه سوق أيّ فكرةٍ على الإطلاقِ دون أيِّ دليلٍ أو شهادةٍ

علميّةٍ تاريخيّة .. يجب أن يكون الباحثُ على نحوٍ من الجرأةِ في إثارة الفكرةِ ، لأنّنا نتعامل مع موضوعٍ خطير ، إنّنا ننسب مجموعة من أفكارٍ وحوادث إلى اللهِ ونبيِّهِ .. ولا يجوز على الإطلاقِ أن يتمَّ الأمر على نحوٍ من كتابةٍ أدبيّةٍ أو قريحة صحافيّةٍ إحتماليّة ، لا بدَّ من يقين تاريخي ، من شواهد ، من حجّة ، من أدلّة وبراهين .. لا يكفي أن نحتمل أنَّ يوحنّا عاش ١٠٠ عام ، ثمّ نقول انَّ ما يقال في إنجيل يوحنّا هو له وصادر عنه ، أي لذلك التلميذ الذي عاين وصاحب المسيح وتابع أحداث التاريخِ آنذاك .. في حين كلّ شهادات التاريخِ تثبت عكس ذلك ، وما يُقال في التقريب الزمني ما هو إلا سرد أدبي ليس أكثر ..! ثمّ تجدرُ الملاحظةُ إلى أنَّ النصّ المنشور حاليّاً ينتمي إلى أكثر من كاتبٍ واحد .. وعلى كلّ حال ، لا توجد ايّة شهادةٍ تاريخيّةٍ علميّةٍ مساعدةٍ على تثبيتِ قولِ من قال بإمكانِ عملي في نسبةِ هذا الإنجيلِ إلى يوحنّا التلميذ ..

وقد اشار البعضُ إلى أنَّ هذا الإنجيل بشكلهِ الذي نملكهُ اليوم قد نُشِرَ بواسطة تلامذة المؤلّف الذين أضافوا الإصحاح ٢١ كما أضافوا بشكل أكيد بعض الحواشي (مثل ٢، ٤ ، وربّما أيضاً ٤، ١، ٤ ، ٤٤ ، ٧ ، ٣٧ ب ، ١١ ، ٢ ، ١٩ ، ٣٥) . أمّا فيما يختصّ بالمرأة الزانية (الإصحاح : ٧ ، ٥٣ ، إلى ٨ ، ١١) فالكلّ متّفق على الإعتراف بأنّ هذا " نصّ مجهول الأصل " ، أُلحق فيما بعد (وإن انتمى برغم ذلك إلى الكتاب المقدّس المعترف به كنسيّاً) . ويقول " أ . كولمان " : إنّ الفقرة (١٩ ، ٣٥) تبدو وكأنّها " إمضاء لشاهد معاين " . وهو الإمضاء الوحيد والصريح في كلّ إنجيل يوحنّا . لكنّ المعلّقين يعتقدون أنّها فقرة مضافة ولا يشكّون بذلك . ويعتقد " أ . كولمان " أنّ

الإضافات اللاحقة واضحة في هذا الإنجيل مثل الإصحاح (٢١) ويعتقد أنّه من عمل " أحد التلاميذ " وقد أضاف أيضاً بعض اللمسات إلى متن الإنجيل .

ومع كلّ هذا ، فإنّ جملة دقيقةً من الملاحظات الصادرة عن أبرز المعلّقين والشراح المسيحيين تشير إلى غموضٍ واضح وعدم يقين علمي وخلط بارز فيما يتعلّق بأبوّة هذا الكتاب . والشيئ الأكيد هو أنّ كاتب هذا الإنجيل ليس هو يوحنّا ، تلميذ المسيح ، وببعد النظرِ عن الشهادات التاريخيّة ، فإنّ متن هذا الإنجيل الذي أحرج الكنيسة كثيراً يدلّ على حقيقةِ الإضطرابِ الذي يعيشُهُ حتى أنّ بعض النصوصِ في متنِهِ تحملُ تناقضاً تكاذبيًّاً مع نصٍّ آخر بنفس المتن ..! إلا أنّ هذهِ الظاهرة ليست خاصّة بهِ حتى يقال بتفرُّدِهِ .. وكما ترى فإنّ مجموعةً من الكتابات الإقناعيّة الأدبيّة عملت على استثمار التشابه بالإسم لإسناده إلى يوحنّا الحواريّ .. وببديهيّة الحال فإنّ التشابه لا يكفي ، خاصّة بلا دعمٍ برهاني ودون أيّ شهاداتٍ تاريخيّةٍ تامّة .. ثم اعتراف المسيحيين بإضافاتِ طرأت على هذا الإنجيل فضلاً عن إجراءاتٍ مسحيّةٍ أخرى زِيدت إلى متنه هي ليست من يوحنّا نفسه .. كلّ هذا لم يرفعِ الدعوى إلى مصافي الحجّة في ظلّ وهنٍ واضح حيث لم يحظَ أيّ احتمالٍ بدليلٍ واحدٍ من شأنه أن يكشف عن دعمٍ حسّي يؤكّد نسبة هذا الإنجيل وتحريره إلى يوحنّا التلميذ ، خاصّة أنّ الفقرة (١٩ ، ٣ وهي الفقرة الوحيدة الواضحة في إمضاء شاهد معيّن) علّق عليها مجموعة من الشرّاحِ على أنّها مضافة بلا شكّ . والخطير هو أنّ الجميع يعترف بإخضاع هذا الإنجيل إلى إضافات ليست من يوحنا ببعد النظر عمّا إذا كان يوحنّا هو الحواريّ أو غيره ..! والحقيقةُ انّه غيرهُ وليس هو ولا يمكن إثبات غير ذلك ..

من هنا كانت " القيمة التاريخيّة " لروايات يوحنّا موضع نـــزاعٍ حادّ ، فالأمور التي تتناقض مع الأناجيل الثلاثة الأخرى صارخة ، ومع أنّ بعض الكتاب المسيحيين مثل " أ . كولمان " يعترف بها لكنّه يقول : إنّ لــ " يوحنّا " مرامٍ لاهوتيّة ، تختلف عن مرامي المبشّرين الآخرين ، وهذه الأغراض هي التي تقود إختيارات روايات أقوال المسيح ، كما تقود الطريقة التي نقلت بها هذه الأقوال ، وهكذا كثيراً ما يمطّ الكاتب السطور ويضع على لسان المسيح ما أنـــزله عليه الروح القدس نفسه .. " .

لكن وكما ترى فإنّ هذا من الأساليب التبريريّة التي لا شاهد عليها من حسّ أو عقلٍ ، ويعتمد كولمان عليه لجهة أنّه يرى تماميّة الحجّة العامّة لمنطق الإنجيل ، فيصرّ على تأويل النـــزاعات التناقضيّة وفق مستوى من التناغم ، بهدف حفظ الحجيّة العامّة للإنجيل ، وإلا فإنّ البيان اللغوي (الإرتكازيّة العامّة القانونيّة الإستعماليّة) وهو الذي تقرّه الكنسية لجهة أنّهُ يمثّل قانوناً موضوعيّاً في بيان العلم والحجج والأفكار يخالف هذا التفسير بشكلٍ نهائيٍّ ويدلّ بوضوحٍ على تناقض صارخ مثير يخلّفُ أزمة في الجمع بين المواد التي اعتبرتها الكنسية كلاماً إلهيّاً ..! ويجب أن نتذكّر أنّنا لا نجد في " إنجيل يوحنّا " كلّ ما تحتوي عليه الروايات الأخرى ... و" الترجمة المسكونيّة " تذكر عدداً معيّناً لحالات من هذا النوع (ص ٢٨٢) . وأكثر ما يثير الدهشة هو بعض الثغرات ، كتلك التي تخصّ " رواية تأسيس القربان " .. إذْ كيف يمكن أن نتصوّر أنّ يوحنّا ، وهو المبشّر المفكّر لا يتحدّث عن الحدث الرئيسي في المسيحيّة والذي سيصبحُ ركناً من أهمّ أركان الطقوس الكنسيّة (أي القدّاس) ..! أليس في الأمر غرابة ..!

يوحنّا يكتفي فقط في سرده لهذا العشاء الذي يسبق الآلام بوصف غسل أقدام الحواريين والتنبّؤ بخيانة يهوذا الإسخريوطي وبإنكار بطرس . وعلى العكس من هذا ففي إنجيل يوحنّا روايات غير واردة في الأناجيل الأخرى والترجمة المسكونيّة تشير إليها (ص ٢٨٣) والأكثر دهشة هي أنّنا نجد في إنجيل يوحنّا رواية (١٢ الآيات من ١ إلى ١٤) وليست هذه الرواية إلا نقلاً مع كثير من التفاصيل الإضافيّة لمعجزة الصيد التي حكاها لوقا (الإصحاح ٥ الآيات من ١ إلى ١١) كحادثة وقعت في حياة المسيح .. ويشير لوقا في روايته إلى وجود يوحنّا الرسول (المبشّر) كما يقول ــ إضافة لاحقة ــ هنا يسهل علينا تصوّر أنّ ذكر إسم يوحنّا في رواية لوقا قد دَفَعَ المؤلّف إلى ضمّ إسم يوحنّا بشكلٍ مصطنع إلى الإنجيل الرابع ..! ولهذا الغرض لم يتردّد معدّل النصّ الإنجيليّ في تحويل حدث وقع في حياة المسيح إلى رواية حدثت بعد مماته .. ! (بناءً على قولِ المسيحيّةِ في موتِ المسيحِ وصلبِهِ بخلافِ ما عليهِ القرآن الكريم) لا شكّ أنّ في الأمرِ غرابة وإثارة مربكة جدًّا ..!

كما أنّ هناك إختلافات على أهمّيّة كبيرة بين إنجيل يوحنّا والأناجيل الأخرى ، وهو اختلاف خاصّ بالفترة الزمنيّة لبعثة المسيح ، إذ يحدّدها مرقس ومتّى ولوقا بعامٍ واحد ، أمّا بالنسبة لـــ " يوحنّا " فهي تمتدّ إلى أكثر من عامين ويعترف " أ . كولمان " بهذا الأمر . وتقول الترجمة المسكونيّة : .. حين تحدّثُنا الأناجيل الثلاثةُ المتوافقةُ عن فترةٍ طويلة بالجيل ، تتبعها مسيرة نحو الناصرة ، تمتدّ قليلاً أو قد تقصر ، ثمّ يليها أخيراً المكوث فترة قصيرة بالقدس فإنّ يوحنّا على العكس ، يسردُ إنتقالات عدّة للمسيح من منطقةٍ إلى أخرى ، ويتحدّث عن

مكثهِ فترة طويلة بأرض الناصرة وبالقدس على وجه خاصّ (١ــ ١٩ : ٥١ ، ٢ ــ ١٣ إلى ٣ــ٣٦ ، ٥-١ ، ٤٧ ، ١٤-٢٠ : ٣١) ويشير إلى إحتفالات فصحيّة متعدّدة (٢-١٣ ، ٥-١ ، ٦-٤ ، ١١ ٥٥) وهو بهذا يوحي بأنّ بعثة المسيح قد دامت أكثر من عامين .. وعليه : من نصدّق .. ؟ متى أم مرقس أم لوقا أم يوحنّا ..! هذا ما أثّر فعليّاً في عمليّة توصيف الإنجيل هذا ، كما دعا الكنيسة إلى دخول عمليّة تفسيريّة تتخذ من الأسلوب الفرضي التكلّفي واحداً من المناهج لهذا التأويل ..! مع أنّ الصريح لا يؤوّل ، ولا بدّ في أيّ تأويل من شاهد ، وإلا إعتبر التأويل بلا شاهدٍ علمي ممكن فيتناقض مع موضوعيّة الناموس اللغوي الإستعمالي ، ويفتح باباً تشكيكيّاً في كلّ شيئ ، وهذا لا يقبله عاقل ، وإلا إنتهت الحياة التواصليّة بين أبناء النوع البشري ، وأصبح الكلامُ نوعاً من سفسطة لا معنىً لها .. من هنا فإنّنا نجد مجموعة من المعلّقين والكتّاب أخذوا ينظرون بجديّةٍ وتمعّنٍ في موضوع " أصل إثبات التعاليم التي فعلاً هي للمسيح " لكنّهم إصطدموا بمجموعة من العقبات منها :

- تحرير الأناجيل ،
- نسبة الأناجيل ،
- محرّر الأناجيل ،
- متن الأناجيل ،
- تناقضات المتن (النصّ) وفي العديد من النقاط البارزة والضروريّة ،
- الإضافات ،
- الفهم المؤوَّل ..

- الحذف ،
- إعادة التجزءة ،
- إعادة تركيب النصّ ،
- تشابك المفهوم باللفظ (الغلبة التفسيريّة المفهوميّة الإعتقاديّة التي تُرجمت إلى حرفٍ متني في بعضِ الأحيان ..) ..

كلّ هذا أضفى على عمليّة التحرير توصيف " بشريّ أكيد " قاصر في عدّة جوانب ، كشف المتنُ عن بعضِ أزماتِها ، وأنقص من القيمة الثبوتيّة للنصّ لجهة أنّه كلام المسيح في أكثر من موقعٍ ومتنٍ وجهة ، وقلّل من فكرة النقل كأمانة في النقل المادّي الدقيق ، وضعّف الإيمان بنقل موضوعيّ مطابق للحقيقة كما هي زمنيّاً ، مكانيّاً ، تعاقبيّاً وأهميّةً .. وليس هذا يعني ضرباً لكلّ نص أو محواً لكلّ فكرة وردت في الإنجيل فالثابت انّ في المتن الإنجيلي ما هو صحيح ، وإنّما ما أشيرُ إليهِ هنا هو إدانة لعمليّة التقنين والقبول والرفض والإلغاء والتصحيح التي تمّت وهي تضعفُ عمليّة التوثيق التي لم تُعطَ حقّها ، خاصّة أنّ الرسالة السماويّة بحاجة جدّاً إلى عناية فائقة ونقل صحيح دقيق للنصّ والتعاليم والآيات والبيّنات . وعليهِ : ممنوع أيّ دسٌّ أو تجزأة أو تحريف ، أو إعادة تركيب ، أو غشّ متعمّد ، أو إسقاط ، أو إبطال ، أو نزاع عقائدي يسقط مجموعة كبرى من مفاهيم تخالفه . يجب أن يكون كلّ شيءٍ منصبًّا على تسجيل الحقيقةِ بأمانةٍ مهما كانت ، حتى وإن خالفت العرق أو مفهوم الشعوب أو الإنتماء ، وسواء كان النصّ متّصلاً بالسامرين أو اليهود أو غيرهم .. بحيث تكون الطاعة فقط للهِ وتعاليمهِ ولنبيّهِ وتعاليمِهِ ، لأنّ النبيّ يأخذُ عن اللهِ ولا

يقول ما هو باطل ...إنّ إلغاء جملة من الأناجيل وإسقاط قيمتها كنسيّاً ، وظهور مذهبيّات عقائديّة في ظلّ إنتصارٍ حقّقهُ بولس وأتباعُهُ ، إلى درجة إخراج بطرس من روما حين كان يبشّر فيها ، كلّ هذا وغيرهُ أدّى إلى ما نحنُ فيه من أزمة خطيرة ، لا يمكن بحالٍ من الأحوالِ أن نمرّ عليها بشكلٍ بسيط ..

وكلّ هذا بخلاف ما حصل مع القرآنِ الكريم الذي لم يختلفِ المسلمون على حرفٍ واحدٍ منه ، وذلك يعود إلى الظرفِ والدقةِ العاليةِ التي أولاها النبيّ محمّد للقرآن ، الذي حفظه الرجال بكثرةٍ كاثرةٍ ، عن ظهرِ قلبٍ ، وكُتِبَ بشكلٍ نهائيٍّ على زمنِ النبيّ ، وشاع وذاع وتلاهُ الصغير والكبير .. وحضّ النبيّ على قراءته اليوميّة وعمّمه على الناس ، وكان كلَّ عامٍ يستذكرهُ من أولِهِ إلى آخرِهِ على أسماعِهِم بشكلٍ دقيقٍ ومتناهٍ ، وفي عامِهِ الذي رحلَ فيهِ من الدنيا إستذكرهُ كلّهُ عليهم لمرّتين .. وقد تعامل النبيّ مع القرآنِ على أساسِ حقيقة انّه عهد اللهِ ، وجعله عهدَ المسلم كلّ يومٍ ، حتى أنّ التاريخ نقل كلّ غرابةٍ في هذا الجوّ ، حتى فاق الحفّاظُ كلّ تصوّرٍ في مجتمعٍ بُعثَ فيهِ النبيّ و لم يكن فيهِ إلا أقلّ من ٢٠ يكتب ويقرأ .. فعمّم الكتابة والقراءة وحثّ على الحفظِ ، ومَنْهَجَهُ بشكلٍ مجتمعيّ في ظلّ حوافز كبرويّة .. من هنا فإنّ أحداً من أهلِ التاريخِ لم يناقش في القرآنِ لجهةِ متنِهِ النازلِ من قبلِ اللهِ تعالى .. وهذا ما حفظ القرآنَ إلى يومنا هذا وقد تعاهدهُ النبيّ لمدّة ٢٣ عاماً قراءةً وتكراراً وشرحاً على أسماعِ المسلمين .. من هنا لم يكن هناك مجال أصلاً للشكّ أو الشبهة من الجهة التوثيقيّة فيهِ إلى درجة انّه لا خلاف بين المسلمين منذ اليوم الأوّل حتى يومنا هذا حتى على نقطةٍ أو على حرف ، وقد أجمعوا بكلّ مذاهبهم على انّه هو الكتاب الذي

أنـــزله الله على رسوله محمّد كما هو اليوم بين أيديهم وهو محفوظٌ بأمرِ الله إلى يوم القيامة ... وهذا ما سنتوقّف عنده فيما بعد إن شاء الله تعالى ..

مصادر الأناجيل

لقد تصدّى " آباءُ الكنيسةِ " في عصرهم آنذاك لمشكلة المصادر بطريقةٍ لم تكن جيّدةً ، ولا تناسب المتن المعدّ في الأصلِ من أجل قيادة البشريّة ، إلى أن تبلورت مجموعة من صورٍ إنجيليّةٍ في زمنٍ متأخّرٍ ليس قبل عام ١٤٠ ميلاديّة ، تشكّلت ضمن إطار وقوالب وألفاظ منسوبة إلى المسيحِ والربّ .. ولأنّ التحقيق في نسبة النصّ والمتن إلى الله بدا فيه شيئ من الخللِ والوهن في بعضِ العناوين كان لا بدَّ من التوقّفِ أمام مجموعة من أسئلةٍ دقيقة ومحاكمة ممكنة لمعرفة الصحيحِ من غيرِهِ خاصّةً إذا علمنا أنّ المشكلةَ ما زالت بارزة تحت عنوان أساسيّ هو " عدم وجود نصّ كامل " في ظلّ مجموعة من حججٍ وأدلّة زمنيّة ومنطقيّة وإمكانيّة فعليّة تثبت تسلّل الذهن البشري وعناوين قاصرة إلى المتن دلّ عليها التناقضُ والتكاذبُ المتني الذي لا يمكنُ معه الجمعُ بحالٍ فضلاً عن غيرِهِ .. وعليه : كان لا بدّ من تمحيص النصّ ما أمكن ، وبذل الجهد الذي يتناسب وهذه القداسة المدّعاة على الأقلّ ...

ومهما اختلفت الأديان ، فلا خلافَ على الإطلاقِ في قداسةِ ما ثبتت نسبتُهُ إلى الله أو إلى نبيِّهِ .. هذا أمر ثابت ونهائي في الإسلام ، وهو أمر بغايةِ الأهمّيّة ، لذا فقد أشار القرآنُ إلى اليهوديّةِ والمسيحيّة في متنهِ لأنّ الصدور هو من

اللهِ ، حتى وإن طرأ خلل على المجموعة المتنيّة للتوراةِ والإنجيلِ بين يدي الناس ، نعم ، تكون الحجّةُ فيما هو موافق للحقيقةِ أمَّا غيرهُ فلا يمكن بحالٍ أن يعطى القداسة على الإطلاق .. وكما يطرح السؤالُ بخصوصِ مصادرِ القرآنِ ، فإنَّ السؤال البديهي والضروري هو ماذا عن مصادر التوراة والإنجيل ، وكنّا قد تحدّثنا عن مصادر التوراة ، لذا فإنّنا الآن نتحدّث عن مصادر الإنجيل .. وقبل أن أدخل في عمقِ البحث أحبُّ أن أشيرَ إلى الأمورِ التالية :

- قبل التدوين كانت تعاليم المسيحِ مجرّد تراث شفهي ، لكن هذا لا يمنع من التدوين ، وبين التدوينِ والأناجيل فارق ، خاصّةً إذا علمنا أنَّ تدوين ما أطلق عليهِ تسمية أناجيل جاء في زمنٍ متأخّر ، من هنا تكون المصادرُ سابقةً على تدوينِ الأناجيل وهذا أمر متّفق عليهِ ..

- من الثابتِ وبشكلٍ نهائيٍّ أنَّ الأناجيل الأربعة من العهدِ الجديدِ وضعت جميعُها بعد زمنِ بولس ، بل بعد هزيمة كنيسة الختان برعاية يوحنّا وبطرس ويعقوب ..

- نظّم تلامذةُ المسيحِ أنفسهم ضمن كنيسة الختان التي مارست عملها في أورشيلم ، إلا أنّها تعرّضت لعنفٍ وإسقاط خاصّةً من قبل الفريسيين والرومان ، وسُجِنَ رموزُها .. في حين كان بولس على نحوٍ من سبقيّةٍ نفوذيّةٍ واضحةٍ .. وهو الذي نكّل بأتباع المسيحِ زمنَ المسيحِ قبل صعودهِ إلى السماء ، إلا أنه ادّعى أنّه رأى المسيح في رؤية بَعَثَهُ على اثرها داعياً إلى المسيحيّة ، وقد اختلفت بمجموعة بارزة ورئيسيّة من تعاليمهِ عن تعاليمِ

رسل المسيح وتلامذته .. وتتّفق التواريخُ وأقلام المعلّقين على أنّ بولس لم يكن من تلامذةِ المسيح ، وربّما لم يلتقِ بهِ مرّةً واحدةً في حياتهِ .. وقد ساعدهُ نفوذُهُ ، وهو الذي كان متقدّماً في اليهوديّةِ على أقرانهِ ، بعد أن درسها على يدِ المدعو " غَمَلائيل " ثمّ صار بعد ذلك مضطهداً لأتباع يسوع (ويظهر من رسائلهِ أنّه كان من سكان دمشق وذهب إلى أورشليم لتعلّم اليهوديّة ، نعم في أعمال الرسل عرّف عن نفسهِ أنّه رجل يهوديّ ولد في طرسوس من أعمال كيليكيّة ، وربّي في أورشليم ، أي من منطقةٍ تقع في البلاد الساحليّة الفاصلة بين بلاد الأناضول وشمال سوريا عند خليج الإسكندرون) وكان بولس يزدري الرسل ويعتبرهم كذّابين وماكرين ومغيّرين شكلهم إلى شبهِ رسل المسيح (٢ كورنثوس ١١ : ١٣،٥) .. وتتّفق التعليقات على أنّه كان من البارزين في إضطهاد أتباع المسيحِ قبل صعود المسيح ومن أبرزَ البارزين في اضطهاد كنيسة الختان بعد صعود المسيح ..

- تقوم الديانة المسيحيّة كما هي اليوم على الأسس اللاهوتيّة التي وضعها لها بولس بين العامين ٤٠ و ٦٧ ميلاديّة .. وفي هذا الزمن لم يكن هناك أيّ وجودٍ على الإطلاق لأيّ كتاباتٍ إنجيليّة ..

- يتفق أهلُ الإختصاصِ في دراسةِ الأناجيلِ الأربعة على كونِ المادّة فيها مركّبة من عناصر مختلفة ، وفي صورةٍ تقريبيّةٍ يقول البعض أنّ منها ما كتب أصلاً باليونانيّة ، ومنها ما نقل إلى اليونانيّة عن أصول أو مصادر أراميّة ...

- يشيرُ بعضُ أهلِ الإختصاصِ (كمال الصليـبي في كتابهِ البحث عن يسوع) إلى أنّه لا خلافَ أيضاً بأنّ التعاليم المنسوبة إلى يسوع في هذهِ الأناجيل ليست بالضرورة من تعاليمِهِ ، بل منها ما هو أقوال وأمثال نقلت إلى اليونانيّة عن التراث الشعبيّ الأرامي القديم ..

- ويضيفون أنّه : يتبيّن من متنِ الأناجيل أنّ هناك تعدّداً مصدريّاً بينهُ نوع من تضادّ واضح ، كما هي الحالُ في المتن مرّة وأقوال اللاهوتيين مرّة أخرى حين يتحدثون عن المسيح كإنسان ، في حين يحاول آخرون أن يعطوه قيمةً فوق الناسوت ، في تصويرٍ لاهوتيّ .. وهذا الأمر كان رأس القيادة فيهِ بولس ، الذي أصرّ على أنّ يسوع هو صورة اللهِ غير المنظور ، وبِكرُ كلِّ خليقةٍ ، فيه خُلِقَ الكلُّ ، ما في السموات وما على الارض ، الذي هو قبل كل شيئ وفيه يقوم الكل (كولوسي) ، كما هناك صورة واضحة عن تعاملٍ منفصلٍ بين نوعينِ من التعاليم مزجت فيها هذهِ الأناجيل بين شخصيّة يسوع الناصريّ من جهة وشخصيّة عيسى بن مريم الذي كان في زمانِهِ نبيّاً إسرائيليّاً ثمّ صارَ بعضُ أتباعِهِ يعتبرونَهُ إلهاً .. وتتّفق الكلمةُ على أنّه قبل بولس لم يكن هناك من تأليْهِ للمسيحِ أو ليسوع ، ولم يقل بهذا النوع من الإعتقادِ أيٌّ من رُسُلِهِ أو تلامذتِهِ بما في ذلك بطرس ويوحنّا ويعقوب .. بل كانوا على خلافِهِ بشدّة ..

- بعد بعثة المسيحِ في فلسطين كانت اليهوديّة مشاعة في زمنِ الرومان وقد وقف الكهنوت اليهوديّ المدعوم من سلطة الرومان بقوّةٍ في وجهِ المسيح ، وكان من بينِ هؤلاءِ رجل بارز مهمّ هو بولس الذي لم يكن من

أتباع المسيحِ .. وفيما بعد كان له الأثر الأكبر في توجيهِ أيّ كتابةٍ لاهوتيّةٍ بل هو الذي أقام الأساس اللاهوتيّ للمسيحيّة بعد الهزيمة التي لحقت بكنيسة الختان وهي الكنيسة التي جمعت تلامذة المسيح الذين كانوا معهُ وحملوا تعاليمَهُ ..

- في خصوص التجمّعِ الذي أقامهُ تلامذة المسيحِ بعدهُ ، فإنّهم فعلوا ذلك في أورشيلم وكان تعليمهم موجّهاً للإسرائيليين وليس إلى الأممِ ، أي إلى خراف بيت إسرائيل الضالة حسب المتنِ المأخوذِ في هذا المضمونِ وهذهِ الكنيسة أصرّت على ضرورة إتّباع شريعةِ موسى التي جاء بها من اللهِ بالضميمةِ إلى تعاليمِ المسيحِ ، بما في ذلك الختان ، على كلّ راغبٍ في الإلتحاقِ بها من غيرِ الإسرائيليين (كنيسة الختان) وهي تعتبر الكنيسة الأورشليميّة الأولى ، إلا أنها فقدت بريقَها حين بدأ بولس في تبشيرِهِ بين الأممِ في كافّة أرجاء العالم الروماني ، حتى أنّه وصل بهِ الحدّ إلى طرد بطرس من روما ، وحين تكرّس نفوذُهُ شرع في بيانِ معتقداتِهِ والتي على رأسِها أنّ يسوع هو إلهٌ أزليّ من إلهٍ أزليّ ، صار إنساناً ومات على الصليب ليفتدي البشريّة جمعاء ..

- في خصوصِ بولس يظهر أنّه كان لديهِ رقوق ، ويظهر من بعضِ الرسائلِ أنّه جاء بها من العربيّة ، إلا انّ هذهِ الرقوق أتلفت فيما بعد ، لكنّها ومفاهيم أخرى تبناها بولس كانت حاضرةً في تأسيس العناوين اللاهوتيّة للمسيحيّة ..

- لا تفيدنا الدراسات الإنجيليّة معرفة نهائية في طبيعة المصادرِ التي اعتمدت لكتابة الأناجيل ، وأين هو الخطّ الفاصل بين النقل الشفهي التراثي ووجود بعض المخطوطاتِ مثلاً ..

- الحقيقة أنّ من دوّن الأناجيل الأربعة (العهد الجديد) لم يكن منهم أيُّ واحدٍ من تلامذةِ المسيحِ ، وكلّ الشهادات التاريخيّة تدعم القول بأنّه لم يكن للكتاباتِ الإنجيليّة أيّ وجودٍ قبل العام ١٤٠ ميلاديّة ..

- بعضُ اللاهوتيين يشيرون إلى وجود كتابة إنجيليّة كما في إنجيل يوحنّا وذلك في العام ١٠٠ ميلاديّة ولذلك يعطون يوحنّا عمر ١٠٠ عام إلا أنّ ذلك بالإضافة إلى مجموعة من إدّعاءاتٍ في غيرِ هذا الإنجيل كلّها دون أيّ شهادةٍ علميّةٍ أو تاريخيّة والحقيقة أنّ الكتابات الإنجيليّة جاءت متأخّرة وليس لها وجود قبل ١٤٠ ميلاديّة .. لكنَّ هذا لا يعني عدم وجود بعض المخطوطات والكثير من التراثِ الشفهيّ .. كما لا يعني هذا عدم وجود حريصين على الإحتفاظ بحقيقةِ ما جاءَ بهِ المسيح . إلا أنّ الأمور اختلطت في ظلّ صراعٍ عنيفٍ طال أركان التبشير بين بولس ورسل المسيحِ من جهةٍ أخرى ، وقد أثّر إنتصار بولس على حقيقةِ تعاليمِ المسيحِ المأخوذةِ عن طريقِ رسلهِ مباشرةً .. وهذا أمر بلا شكّ هو عبارة عن خسارةٍ تاريخيّة كبيرة ..

- هناك مجموعة متنيّة متوافقة في إنجيل متّى ومرقس ولوقا بخصوص يسوع ، إلا أنّ في متنِ هذهِ الأناجيل إختلافاً واضحاً أيضاً يدلّ على نوعٍ

صريحٍ من الإضطرابِ والقصور في أكثر من نصٍّ كما يدلّ بشكلٍ واضحٍ على أزمة " نصّ كامل " .. في حين أنَّ إنجيل يوحنَّا يختلف جذريًّا عن الأناجيل الثلاثة السابقة في حديثِهِ عن يسوع فضلاً عن مجموعةٍ أخرى ..

- بين الأناجيلِ الأربعة ما هو مشترك بينهم ، وما هو خاصّ بإنجيلٍ دون غيرِهِ ، وهذا يدلّ على اختلافٍ في المصدر .. وفي كلّ اتفاقٍ دليل على وحدة المصدر ، في حين كلّ اختلافٍ يدلّ على التعدّدِ المصدري .. بعض المصادرِ قد تكون يونانيّة وبعضها الآخر قد يكون أراميًّا .. مثلاً على ذلك ، قصّة " ولادة يسوع " التي يوردها لوقا ولا يوردها يوحنًّا ، تدلّ على أنَّ مصدراً اعتمدهُ لوقا لم يستخدمهُ أو لم يطّلع عليهِ يوحنّا .

- لا معلومات تفصيليّة عن المصادر .. هناك مجموعة متنيّة من عناوين مضطربة ، هناك مجموعة متنيّة من عناوين إتفاقيّة .. لكن لا بدَّ من التذكّر بأنَّ غلبة بولس كانت العماد الأوّل لإقامة هيكل لاهوتيّ للمسيحية التي نعرفها اليوم ، مع أنَّ بولس ليس من تلامذةِ المسيحِ أو أتباعِهِ ، بل كان من أبرز خصومِهم .. إدّعى أنّه شاهد المسيح فآمن بهِ ، إلا أنّه يصرّ على أنه لم يتعلّم من أحدٍ ، فيما تدلّ وثيقة أعمال الرسلِ أنّه اعترف بأنّه تعلّم على يدِ رجلٍ في العربيّةِ ، وهو في الأصل يهوديّ متقدّم في اليهوديّةِ ، فعمل في تبشيرِ الأمم ، لكن بفهمٍ مختلفٍ جدًّاً ، عمَّا في أيديِ تلامذةِ المسيح ، إلى درجة إعلانِهِ المسيح إلهاً أزليًّاً من إلهٍ أزليّ .. مع الإشارة إلى أنَّ بولس تعامل مع مجموعةٍ من المعلوماتِ المشاعةِ كمن قد رآها ، ويصرّ على ذلك ، من بابِ أنَّ المسيحَ أخبرهُ بها بعد صعودِهِ إلى السماء ، عن

طريق الظهورِ له .. كما هي الحالُ في تعاملِهِ مع نقل العشاء الأخير ، وهو على أهميّةٍ بالغةٍ في التعاليمِ المسيحيّة ، في حين نعلم أنّ العشاء الأخير للمسيحِ مع تلامذتِهِ لم يكن فيه إلا التلامذة ، في حين بولس كان عدوهم اللدود .. مع الإشارة إلى أنّ شهادة يوحنّا بشأن العشاء الأخير هي الشهادة الوحيدة لهذا الحدث .. في هذا المجال يشير بولس إلى العشاء الأخير بإسم عشاء الربّ (كورنثوس ١١:٢٠) أمّا سببُ هذهِ المعرفةِ ؟ فعن طريق رؤيا خاصّة به للمسيحِ أخبرهُ فيها عن العشاء الأخير ..! (١ كورنثوس ١٥ : ٣-٨) فكان عن طريق هذهِ الرؤيا أن علّم بولس عن عشاء الرب (١ كورنثوس ١١ : ٢٣ ــ ٢٥) وقد قال : [.. تسلّمت من الربّ ما سلّمكم أيضاً أنّ " الربّ يسوع " في الليلةِ التي أُسلِم فيها أخذَ خُبزاً وشَكَرَ ، فكسَرَ وقال : هذا هو جسدي المكسورِ لأجلكم ، اصنعوا هذا لذكري ، كذلك الكأس أيضاً ، بعد أن تعشّوا ، قائلاً هذهِ الكأس هي " العهدُ الجديد بدمي " ، اصنعوا هذا كلّما شربتم لذكري] وما أحبّ أن أشير له هنا أنّ الأناجيل الأربعة وُضِعَت كلّها بعد زمن بولس ، وهي متأثّرة جدًّا بقولِهِ ، وفي هذا الخصوص فقد أَخَذَت ما نَقَلَتْهُ بمتنِها من قولِ بولس لتبيِّنَ ما جرى من فعلِ المسيحِ بالخبزِ والكأسِ في عشاء الربّ ، فأدخلت هذهِ العناوين على العشاء الأخير ، في حين أنّ إنجيل يوحنّا لم يفعل ذلك .. ويظهر من كلام بولس نفسه في رسالتِهِ الأولى إلى أهلِ كورنثوس أنّ الإشتراك في تناولِ الخبزِ والخمر كناية عن جسد يسوع ودمِهِ الذي سفِك على الصليبِ ، كما في اللاهوت المسيحي ، وهذا التعليم يقولُ به بولس أنّه تلقّاهُ من

يسوع عن طريق رؤيا خاصّة فيه .. ولو كان هذا التعليم مشاعاً ونقلهُ التلامذةُ لما تكلّف بولس في نقلهِ ، وهذا دليل آخر على مجموعةٍ واسعةٍ ممّا نقلهُ بولس على نحوٍ من ادّعاءِهِ رؤيا خاصّة بهِ ، وقد قرأنا ذلك في رسالةِ بولس التي سقتها في الفقرةِ هذهِ كما جاءت .. هنا يطرح سؤال مفادهُ ، لو كانت الأناجيل أناجيل التلامذة لماذا إذاً النقل عن بولس وليس عن مشاهدتِهِم العيانيّة للحدثِ وبشكلٍ حيٍّ ..؟ وحتى لا نطيل الكلام ، فإنَّ الأناجيل تلك لم يكتبها أيّ تلميذٍ من تلامذةِ المسيح ..

- إنَّ " مقاطع أنا " الواردة في إنجيل يوحنَّا وهي التي تنسب إلى يسوع كلاماً لا يليق إلا بالإله مأخوذة من مصدرٍ خاصّ بفريقٍ من النصارى الذين كانوا يعتقدون أنَّ المسيح إله .. وهذا يشير إلى حقيقةٍ ما سقناهُ من قبل حول " تنوّع الأصول والمصادر " .. وخيرُ مثالٍ على ذلك تدوين قصّة اللقاء الذي حصل بين يسوع والمرأة السامريّة عند بئر يعقوب ففي نصّ يوحنّا تركيز على مجموعة من معانٍ ترفع يسوع إلى مرتبةِ الصفة الإلهيّة (يوحنّا ٤ : ٣-٣٩) في حين هي واردة في غيرِهِ من الأناجيل على نحوٍ من صفةٍ تتعلّق بنبيٍّ وليس بصفةِ إله .. لا شكّ أنَّ هذا يدلّ على تعدّدِ المصادر وعلى اختلافِ فيها .. وهذا الأمر لا يجوز على الإطلاقِ أن يمرّ عليهِ أيّ معلّقٍ دون أن يعطيهِ أهميّةً بالغة ..

- أيضاً يمكننا وبوضوحٍ أن نقرأ مجموعة متنيّة التركيب النصّي واضح فيها ، وهو عبارة عن نصٍّ مركّب من مفهومينِ مختلفين ، تمّت المحاولةُ لمزجهِما ، إلا أنَّ حقيقة التركيبِ ظلّت واضحة جدًّا .. ففي إنجيل يوحنّا

يختلط أمر يسوع المطالب بعرشِ داود مع عيسى أو المسيح المفروض فيهِ أن يكون نبيَّاً ، ويصل الخلط في هذا الإنجيل إلى حدَّ التعاملِ معهُ كإله للخصوبة ، ويوجد إقرار عام بين علماء العهد الجديد بكون مثل هذهِ المقاطع مركّبة من أكثر من عنصر ، والتركيب فيها أوضح في الأصل اليوناني حيث يتغيّر الأسلوب في الرواية بين الجملة والجملة أحياناً (يوحنّا ١٠: ٢٢-١١: ١-٤٤) في ذلك النصّ يدور الخلط بين المقاطع التي تتحدّث عن عيسى بصفة الإله الذي يقول عن نفسهِ أنا هو فيروي قصة المدعو لَعازر في بيت عنيا ثمّ عودتهِ إلى الحياة بعد أربعة أيام من موتهِ عندما دعاهُ عيسى للخروج من القبرِ الذي وضع فيهِ .. إلا أنَّ يوحنّا خلط بين قصّة لعازر وبين قصّة يرويها لوقا (١٠: ٣٨-٤٢) عن زيارة قام بها يسوع وهو بعدُ في الجليل إلى إمرأتين هما الأختان مرثا ومريم ، ولم يكن لهما أيّة علاقةٍ بـــ " بيت عنيا " فجعل من مرثا ومريم أختين للَعازر تتقبّلان التعازي على وفاتهِ ..!

وبالعودةِ إلى مصادر الأناجيل ، نشيرُ إلى أنّه في القرون الأولى من العصر المسيحيّ لم يكن المصدر إلا الإنجيل الذي تضعهُ المخطوطات الكاملة التي على رأسها إنجيل متّى بعد أن تمّ الإنتهاء من تدوين الكتابات الإنجيليّة ، والتي لم تظهر قبل العام ١٤٠ ميلاديّة .. نعم كانت مشكلة المصادر تُطرح إزاء إنجيليّ مرقس ولوقا ، حيث كان " إنجيل يوحنّا " يشكّل حالةً منفصلةً .. وكان القدّيس " أوغسطين " يعدّ إنجيلِ مرقس ـــ وهو الإنجيل الثاني في الترتيب التقليديّ لتقديم الأناجيل ـــ مستَلْهَمَاً من إنجيلِ متّى ، وأنّهُ قد لخّصهُ ، وأنّ إنجيل لوقا ـــ وهو

الثالث في ترتيب المخطوطات المؤلّفة ــ قد استعان بمعطياته كلٌّ من الأوّل والثاني كما توحي بذلك فاتحته .. أمّا أهل الإختصاصِ في هذا العصر فإنّهم يستطيعون أن يقيّموا " درجة " إتفاق النصوص ، وأن يجدوا عدداً كبيراً من الآيات " المشتركة " بين إثنين أو ثلاثة من مخطوطات الأناجيل المتوافقة . إلا أنَّ هذا لا يخفي مجموعة من عناوين مختلفة وغير متّفقة في متنِ هذهِ الأناجيل ، من هنا طرح أكثر من باحث فكرة الأناجيل المتناسقة ، ولو من بابِ ما يتمّ بهِ التناسق .. وفي عصرنا الحاضر يحسبُ المعلّقون على الترجمة المسكونيّة عدد هذه الآيات تقريباً كما يلي :

- آيات مشتركة بين ثلاثة أناجيل : متى ، مرقس ، لوقا = ٣٣٠
- آيات مشتركة بين إنجيليّ مرقس ومتّى = ١٧٨
- آيات مشتركة بين إنجيليّ مرقس ولوقا = ١٠٠
- آيات مشتركة بين إنجيليّ متى ولوقا = ٢٣٠

في حين أنّ الآيات الخاصّة بكلّ من المبشّرين الثلاثة الأوائل هي : ٣٣٠ آية بالنسبة إلى متّى ، و٥٣ آية بالنسبة إلى مرقس ، و٥٠٠ آية بالنسبة إلى لوقا . ومن عصر آباء الكنيسة الأوَّلِ وحتى نهاية القرن الثامن عشر مرّ ألف وخمسمائة عام دون إثارة أيّ مشكلة جديدة مهما كانت عن مصادر المبشّرين ، بحيث كان هناك إمتثال للتراث المكتوب تحت عنوان الإنجيل من دون إيّ إثارة تشكيكيّة أو بحثيّة أو إستقصائيّة ... إلا أنَّ ذلك لا يمنع من معاينة مجموعة من عناوين لا بدَّ لها من تفسير ، بعضها يبدو مضطرباً أمام المحاكمةِ والنقدِ ، والبعض الآخر بحاجة إلى تكلّفٍ واضحٍ وغير متناسقٍ من أجل إعطاءِ تفسيراً

غير معاكسٍ لما ثبت في نصٍّ آخر .. من هنا كان لا بدَّ من التوقّف أمام حقيقة الحال في ظلِّ عالمٍ مختلفٍ في الإعتقادِ أو متوافقٍ فيهِ إلا أنّه يبحث عن الحقيقةِ .. لذلك كان لا بدَّ من السؤال : مَن الذي دوَّن ..؟ من الذي عاين .. ؟ وهل التدوين جاءَ زمن الأحداثِ أم بعدها .. ؟ وإذا كان بعدها ، فهل عن طريقِ من رأى وعاين أم عن طريقِ وسائط بشريّة أخرى .. هل التدوين جاء على نحوٍ مصدريٍّ مكتوبٍ أم شفهيّ .. ؟ هل تسلّل إلى المتنِ الإنجيلي نصٌّ غير صحيح .. هل تدخّلت اليدُ والذهنُ البشري في روايةٍ ما لا حقيقة موضوعيّةَ لها .. هل المتن الإنجيليّ كامل أم ناقص .. ؟ هل التوصيف العقائدي في حقيقةِ المسيحِ مأخوذ عن لسانِ المسيحِ أم أنّه مجرّد إجتهاد من بولس وغيرِهِ ..! لماذا الخلاف بين كنيسة الختان (كنيسة تلامذة المسيح يعقوب ويوحنّا وسمعان بطرس ..) وبين بولس ، ولماذا انتصر بولس ..! في حين أنّ المفروض وفق المعنى الأولي وحسب المتن الإنجيلي أن يكون الأمر والنهي لرُسُلِ المسيحِ ، خاصّة سمعان بطرس الذي أوصاهُ المسيح ببناء الكنيسة ، وأنّ ما يربطه في الأرض يربطه هو في السماء ، وما يفكّه في الأرض يفكّهُ هو في السماء .. لا بدَّ أنَّ شيئاً حدث .. من هنا كان لا بدَّ من تحديد السؤال وبشيءٍ من المنطقِ الجافّ غير المجبول بعاطفةٍ تقليديّةٍ وشبه ذلك .. لماذا سيطر بولس فأسّس الهيكل اللاهوتي للمسيحيّة في حين هو الذي اتّهم رسل المسيح الذين كانوا أحبّ أهلِ الدنيا على قلبِهِ بالكذبِ والمكرِ والخديعةِ وأصرّ على أنّهم ليسوا رسلاً بل شبه رسل ، وانّهم لا يعلّمون تعاليم المسيح ، بل هو مجرّد مكر وخديعة .. لا شكّ أنّ الأمر خطير ، ففي حين تصرّ كلّ الشهادات التاريخيّة بل المتن الإنجيليّ على أمانةِ وصدقِ وحقيقةِ ما بين يديّ التلاميذ من علمٍ مأخوذٍ من المسيحِ يصرّ بولس على عكس ذلك .. يا ترى

هل في الأمر نوع من كارثةٍ إنقلابيّة .. ؟ هل في الأمر خطورة بالغة .. ألا يجدر بنا أن نتوقّف هنا ، لأنّ الموضوع يتّصل بأهمَّ أمر على الإطلاق .. ! كان لا بدَّ لهذهِ الأسئلة وغيرها أن تشكل منطقة رئيسيّة للنقاشِ في قداسةِ المنقولِ في هذهِ الأناجيل أو على الأقلّ لبعضِها من المتونِ ..

وبعد تجربةٍ جبّارة ، على أكثر من يدٍ وعالمٍ ولاهوتيٍّ وناقدٍ ومعلّق وباحثٍ بدت الأمور على نحوٍ مختلفٍ في القداسة ، فهناك جهات فيها قصور واضح ، كما في المتن ظاهرة تركيبيّة ، وفي بعضِها إعادة صياغة للمعلومةِ على نحوٍ مرتبطٍ بموقفٍ سابقٍ من مفهومٍ لاهوتيٍّ عقائديٍّ ما .. إلى أن وصلنا إلى عصرنا هذا ، فأمام هذه المعطيات أدركَ البعضُ أنّ كلّ مبشّرٍ قد أنشأَ رواية على طريقته الخاصّةِ في التعاملِ بالنقلِ والتدوين وتسجيل الأحداث ، وهذا يدلّ على النحوِ الإختلافي في المتن والتدوينِ من خلال الإعتماد على وجهات نظر شخصيّةِ وذلك بالإضافةِ إلى الإعتماد على المعلومات التي وجدها عند الآخرين .. من هنا فإنّ الباحثين علّقوا أهمّيّةً كبيرةً على جمع مواد الرواية في التراث الشفهيّ للطوائف الأصليّة من ناحية ، وفي مصدرٍ مكتوب " أرامي " مشترك لم يعثر عليه من ناحيةٍ أخرى ، ويمكن لهذا المصدر المكتوب أن يتكوّن من مقتطفات كثيرة لروايات شتّى ، ربّما تكون قد خدمت كلّ مبشّرٍ في تشييد وتأسيس نصّه الأصليّ .. ومنذ قرن قادت أبحاث أكثر تعمّقاً ظهور نظريّات أكثر دقّة ، هذهِ النظريّات إزدادت تعقّداً بمرور الزمن ، وأوّل هذه النظريّات الحديثة النظريّة المسمّاة بـــ " مصدريّ هولتزمان " (١٨٦٣) وحسب هذه النظريّة كما يحدّد " أ . كولمان " والترجمة المسكونيّة فإنّ متّى ولوقا قد إستلهما مرقس من ناحيةٍ ،

وثيقة مشتركة مفقودة اليوم من ناحيةٍ أخرى ، يضاف إلى هذا أنّ كلاً من المبشِّرَينِ الأوَّلَيْنِ كان يملكان في حوزتهما مصدراً خاصّاً . وينتقد " أ . كولمان " هذا البيان فيما يتعلّق بالنقاط التالية :

١. ليس " مؤلّف مرقس " الذي استخدمهُ لوقا ومتّى هو إنجيل مرقس ، إنّما هو مؤلّف سابق على مرقس .

٢. لا يعطي هذا " أهميّة " كافية للتراث الشفهيّ ، وهو وحدهُ قد حفظ طيلة ثلاثين أو أربعين سنةً أقوال المسيح والروايات الخاصّة ببعثته ، وانّ كلّ مبشِّرٍ لم يكن إلا المتحدّث بإسمِ الطائفةِ المسيحيّة التي ثبّتت التراث الشفهيّ .

بهذا نصل إلى فكرة تُساق مفادها أنّ الأناجيل كما هي في حوزتنا اليوم قد أعطت صدىً لما كانت الطوائف المسيحيّة البدائيّة تعرف عن حياة ورسالة المسيح ولمعتقداتهم ومفاهيمهم اللاهوتيّة التي تحدّث المبشّرون بإسمها .. إلا أنّ هذا التوصيف ليس كافياً ، فلا شك أنّ الأناجيل إنَّما كانت ناظرة إلى ذلك المعنى بخصوصِ المسيحِ وتعاليمهِ ، لكنَّ الذي نقرأهُ فيها يتقاطعُهُ أكثر من مظهرٍ وبيان ، فالحذف ، وعدم وجود نصّ كامل ، وبعض الإضطراب ، وبعض الإختلاف ، والتعارض في المتن ، بل الإختلاف في مجموعة من معانٍ ذات صلة بالمسيح ، إلى درجة أنّ بعض الأناجيل كما في إنجيل يوحنّا تُنكر أن يكون إسم أمِّ المسيح مريم ، مضافاً إلى ذلك أمر هو الأهمّ حيث ثبت بشكلٍ واضحٍ وصريحٍ أنّ مجموعة من أحداثٍ سجّلت في متن الأناجيل ، لم يروها كتّابُها تحت

عنوان المشاهدة ، بل اعتماداً على بولس ورؤياهُ ونقلِه ووفق مقولتِه ، مع أنّه لم يكن من تلاميذ المسيح ، ولا من أتباعِه ، بل من أعدائِه والخصوم البارزين ، قبل أن يدّعي رؤية المسيحِ وإعلانِه له مبشِّراً ، من دون أيّ دليلٍ مثبتٍ أو حجّةٍ قاطعةٍ ، وهذا الأمر أدّى إلى خلافٍ عنيفٍ بينَهُ وبين تلامذةِ المسيح الذي عاد واضطهدهم بشكلٍ واسعٍ إلى درجة وصفهم بالكذّابين والماكرين وشبه ذلك ، وكان له الإنتصار في ظلّ حكمٍ رومانيٍّ ونفوذٍ كهنوتيٍّ يهوديٍّ ، وبذلك انتهت كنيسة الختان لصالحِ إنتصار بولس .. وكنّا قد أشرنا إلى أنّ كلّ الأناجيلِ الأربعةِ دوّنت بعد بولس ، وبعد أن أقام بولس الهيكل اللاهوتي للمسيحيّة التي نعرفها اليوم ، إلى درجة أنّ تلك الأناجيل نقلت مجموعة من معانٍ لا مصدر أوّلي لها سوى إدّعاء بولس رؤية المسيح بشكلٍ خاصّ وإخباره بها كما هي الحالُ في الإضافات على العشاء الأخير وغيرِه ..! إنّ مثل هذهِ الزيادات ، والإخبار بها على نحوٍ متّصل بطبيعة الحدثِ وخصائصِه ، مع أنّها مجرّد إخبار من قبلِ بولس تعني أنّ تدوين الأناجيل خضع لمجموعةٍ من مصادر بعضها غير متّصل بطبيعة الظرف الموضوعي النابع من معاينة الحدث ، بل من مرجعيّة بولس وصناعتِه للحدثِ وفق ما يدّعيهِ من رؤية خاصّة .. فعن طريق رؤيا خاصّة ادّعاها بولس للمسيحِ قال للأتباعِ إنّ المسيحَ أخبرهُ عبرها عمّا جرى في العشاء الأخير (١ كورنثوس ١٥ : ٣-٨) فكان عن طريق هذهِ الرؤيا وما سجّله بولس أن أصبح هذا الأمر عنواناً للعيانِ والحقيقةِ والحدثِ مع أنّ يوحنّا لا يوافقهُ في ذلك أو في خصوصٍ تلك الإضافات ، وقد أطلق بولس على ذلك العشاء الأخير إسم عشاء الرب (١ كورنثوس ١١ : ٢٣ ــ ٢٥) : [.. تسلّمت من الربّ ما سلّمكم أيضاً : أنّ " الربّ يسوع " في الليلةِ التي أُسلِم فيها أخذَ

خُبزاً وشَكَرَ ، فكسَرَ وقال : .. هذا هو جسدي المكسورِ لأجلكم ، اصنعوا هذا لذكري ، كذلك الكأس أيضاً ، بعد أن تعشّوا ، قائلاً هذهِ الكأس هي " العهدُ الجديد بدمي " ، اصنعوا هذا كلّما شربتم لذكري] .. في هذهِ العبارات يختصر بولس الأمور في تسجيل الأحداث على النحو التالي :

- مصدر المعرفةِ غير منحصر بالرسل الذين كانوا يشكّلون عناصر ذلك الإجتماع المغلق .

- إدّعاءُهُ أنه هو أيضاً على صلةٍ حقيقيّةٍ تامّة ، عبر طريقِ رؤيا خاصّة بالمسيحِ أخبرهُ بها ، وليست الرؤية مجرّد مرّة واحدة بل هي متعدّدة وتحصل كلّما دعت الحاجة إلى ذلك .. من هنا نشأ ما سمّي بتدوين الأناجيل من مصادر رؤيا بولس ، من دون الحاجة إلى شهود عيان أو مصدر تراثي شفهي أو مكتوب عن طريق الرسل وغيرِهِم .. أي من دون الإتّصال بالعالم الخارجي وزمن الأحداث ..

- إنّ عناصر ذلك العشاء الأخير (التلامذة) وفق هذهِ الصورة التي أصرَّ بولس على أنّها كذلك واستفاد منها معان مفاهيميّة خاصّة .. لا يرونَها على هذا النحو .. وما هو موجود في كلٍّ من الأناجيلِ الثلاثة : متّى ومرقس ولوقا ليس مكتوباً من الرسل (أي بنفس عبارات بولس) بل من غيرِهِم وأنّهُ قبل عام ١٤٠ ميلاديّة لا شهادات تاريخيّة على الكتابات الإنجيليّة تلك .. وكلُّ ما يُقالُ عن تدوين هذهِ الأناجيلَ من قبلِ الرسل لا يوجد عليهِ أيّ دليلٍ ، وهو مجافٍ للحقيقةِ ..

- إنَّ متن تلك الأناجيل واضح كلَّ الوضوحِ في تأثُّرِه بتعاليمِ بولس ومفاهيمِه ، وهو الذي أشاد اللاهوت المسيحيّ قبل أيّ ظهور لأيّ كتابةٍ إنجيليّة ..

- الثابت تاريخيّاً أنَّ الخلاف بين بولس وتلامذة المسيحِ كان على أشدّهِ وأنَّ محور الخلافِ هو حول التعاليمِ ، والذي حصل هو هزيمة كنيسة الختان في ظلّ نفوذٍ رومانيٍّ كهنوتيّ يهوديٍّ .. نعم سجّل التاريخ نفوذاً خارجيّاً كبيراً لبولس الذي استطاع أن ينشر المسيحيّة كما يراها ويعتقد ، إلى درجة استطاع فيها ان يثبّت في اللاهوت المسيحيّ أنَّ يسوع المسيح هو إله أزلي من إلهٍ أزليّ ..! في حين هو خروج خطير جدّاً من الإيمان المسيحيّ بنظرِ بطرس ويوحنّا ويعقوب وغيرهم ..

أمام هذا الواقع لا بدَّ من التأكيد على أنَّ مصادر الإنجيل كان من بينها أمر بارز ورئيسي هو ما يعتقد بهِ بولس ، ولا يحتاج في إبراز بعضِ المواضيع إلى شاهد عيان ، أو دليل أزمان ، أو مُخبر عن واقعةٍ عاينها ، بل يكفي فيهِ إدّعاء بولس أنّه رأى المسيح وأخبرهُ بها ، حتى وإن لم يكن لها أيُّ شاهدٍ تاريخيٍّ ..! ولأنَّ الأناجيل الأربعة كُتِبَت كلّها بعد زمن بولس وانتصارِه وانتشار نفوذِهِ وإقامتهِ لأُسس اللاهوت المسيحي الذي نعرفُهُ اليوم ، وزَرْع الكنائس في مناطق متعدِّدة وواسعة ، فإنَّ تلك الأناجيل نقلت في متنِها ما يراهُ بولس حتى وإن لم يكن عن شاهدِ عيان ، بل يكفي فيهِ مجرّد أن يدّعي أنّه عَلِمَهُ من خلالِ الربّ (كما في لفظِهِ) وبرؤية خاصّة به ..!

قد يقال : إنَّ الأمر غير متوقف على " بولس " فالوحي هو أمر إعجازي .. ؟ والجواب : هذا صحيح .. لكنَّ الوحي يكون مصحوباً بحجّة تدلُّ عليهِ ، أي على حقيقة التلقّي من اللهِ تعالى .. ومن يراجع حياة النبيين كلّهم يدرك حقيقة ما أقول ، حيث لم يبعث اللهُ نبيّاً على الإطلاقِ دون حجّةٍ قاطعة إعجازيّة تزيل الشكّ والريب .. وهذا الأمر غير متحقّق في قضيّة بولس الذي وصل الأمر معهُ إلى إعلان حرب إسقاط على تلاميذِ المسيحِ واتّهامِهِم الكذبِ والمكرِ وغير ذلك ، في حين يعتبرهم المسيح رسلاً وخلاصة المؤمنين من دون أن يثبت صحّة رسالتِهِ بإعجازٍ أو معطياتٍ مقنعة .. من هنا ينشأ الشكّ .. بل من هنا نسأل عن طبيعة " النصّ التركيـــبيّ أو التعويضي " في تبنّي مقالة بولس على نحوٍ من كيفٍ خاص بهِ من رؤيا يراها ، أو عن طريق نقل بعض الأمورِ على نحوٍ من نسبةٍ إلى الرسُل والتلاميذِ أو لغيرِهِم بشكلٍ دفتريّ نظري دون أيّ واقعٍ حقيقيّ ..!

وعليهِ : ماذا عن مدى هيمنة تعاليم بولس على الأناجيلِ ..؟ يبدو أنَّ لبولس هيمنةً واضحةً ، إلا أنّها لم تكن مطلقة في بعضِ العناوين .. من هنا فإنَّه يصحّ ما قيل عن التأثير البولُسي في كتابة الأناجيل وعلى نحوٍ بارزٍ جدًّا إلا أنَّ ذلك قاطعةُ طبيعة المنهج الذي اعتمدهُ كلُّ كاتبٍ لروايتِهِ التي طمح من خلالِها لتسجيل ما أمكن عن ذلك الحدثِ الأهمِّ .. وهذا لا يعني العبثيّة .. لكن يعني على الأقلّ وجود ظرف ثقافي لاهوتي ضاغط باتّجاه ما ، خاصّةً إذا علمنا أنَّ الظهور الإنجيلي جاء متأخِّراً (ليس قبل العام ١٤٠ ميلاديّة) ، وهذا يعني تعقيد الأمور ، وتوسيع دائرة العناوين والمصادر في ظلّ بيئةٍ تمخّضت عن صراعٍ كبيرٍ

بين فريقين منذ النشأةِ الأولى لكنيسة الختان وتبشير بولس .. بطبيعة الحال ، ستكون الفترة الممتدّة حتى ١٤٠ ميلاديّة معقّدة ، وتحتاجُ إلى دقّةٍ وافيةٍ ، إلا أنّ الكشف عن حقائق الأمور بنوعٍ من استطلاعٍ متّزنٍ يعتمد على المعرفةِ المصدريّة غير موجود ، نعم هناك مجموعة من نتائج متعدّدة في هذا المجالِ يمكن الإشارة إليها . ففي مجموعة أبحاث " نقد النصوص " الخاصّة بمصادر الأناجيل ، أوضحت وجود عمليّة أكثر تعقيداً من " تشكّل النصوص " .. فطبعة الأناجيل الأربعة المتوافقة ، وهي للأبوين (بينوا وبومار) بـــ " معهد الكتاب المقدّس " بالقدس (١٩٧٢-١٩٧٣) تشير بشكلٍ خاصّ إلى تطوّر النصوص على مراحل متعدّدة بالتوازي مع تطوّر التراث .. ويجرُّ هذا إلى نتائج يعرضها الأبّ " بينوا " بهذه الألفاظ في تقديمه للجزء الذي قام به الأبّ " بومار " من الكتاب فيقول :

[... إنّ أشكال الأقوال أو الروايات الناتجة عن تطوّر طويل للتراث ، لا تتمتّع بنفس الأقوال أو الروايات الموجودة أصلاً . وقد يدهش بعض قرّاء هذا الكتاب أو قد يشعر بالحرج ، عندما يعلم أنّ هذا القول للمسيح أو هذا المثل أو ذاك التصريح بمصيره لم يُقَل مثلما نقرأ اليوم ، وأنّ هؤلاء الذين نقلوا هذا إلينا ، قد أجروا عليه " لمسات وتعديلات " إنّ هؤلاء الذين لم يعتادوا هذا النوع من البحث التاريخيّ يجدون هنا " مصدراً ممكناً للإندهاش " بل حتى للإستنكار ..] ..

إنّ هذه اللمسات ، وتلك التعديلات ، التي مارسها هؤلاء ، الذين نقلوا إلينا " هذه النصوص " أُنجزَت بطريقة يعطينا (الأب بومار) عنها رسماً بيانيّاً شديد التعقيد ، هو بسطٌ للنظريّة المسمّاة بنظريّة المصدرين[1] وقد وضع هذا الرسم بعد عملٍ من الفحص ومن مقارنة النصوص ، وإليك موجزاً منها :

ـ هناك أربعُ وثائق أساسيّة هي : أ . ب . ج . ق . تمثّل المصادر الأصليّة للأناجيل .

ـ الوثيقة (أ) وثيقة نبعت من أوساط (يهوديّة مسيحيّة) وقد ألهمت متّى ومرقس .

ـ الوثيقة (ب) هي إعادة تفسير للوثيقة " أ " إستخدمتها الكنائسُ الوثنيّة المسيحيّة ، وقد ألهمت كلّ المبشّرين ، ما عدا " متّى " .

ـ الوثيقة (ج) ألهمت مرقس ، ولوقا ، ويوحنّا .

ـ الوثيقة (ق) تكوّنَ معظم " المصادر الشائعة " بين متّى ولوقا . وهي " الوثيقة المشتركة " في نظريّة المصدرين .

ولم تؤدِّ أيّةُ وثيقةٍ من هذه الوثائق الأساسيّة إلى تحرير النصوص النهائيّة ، التي في حوزتنا ، وبينها وبين التحرير النهائيّ توجد " تآليف وسيطة خاصّة بكلّ إنجيل " .. وعليهِ : فإنّ نتائج هذا البحث الخاصّ بالكتاب المقدّس ذات أهميّة واضحة فهي تثبت أنّ " نصوص الأناجيل " التي لها تاريخ ، تتمتّع أيضاً وحسب تعبير الأب بومار بـــ (تاريخ ما قبل التاريخ) ، أيّ أنّها قد خضعت قبل ظهور الصيغ النهائيّة لتعديلات ، وذلك في مرحلة " الوثائق الوسيطة " ، بهذا يتّضح

---

[1] وقد نشر الكتاب الأصليّ في باريس ــ فرنسا ــ

مثلاً أنّ حكايةً معروفةً جدّاً ، كانت قد وقعت قبل صعود المسيحِ إلى السماء (حكاية معجزة الصيد) تُقدّم في إنجيل لوقا بإعتبارها " حدثاً " وقعَ في حياة المسيح في حين يقدّمها " يوحنّا " كحادثة من حوادث الظهور بعد قيامته . ونتيجةً لهذا : لم نعد متأكّدين مطلقاً من أنّنا نتلقّى " كلمة المسيح " بما تعنيهِ من صورةِ الوحي ، وذلك من خلالِ قراءة الأناجيل ، لجهة أزمة فعليّة علميّة تظهر أنّ تعديلات بشريّة ولمسات أثّرت على المعلومة الحقيقيّة ، بل شوّهتها وحرَّفتها في بعض الأحيان ، وفي حينٍ آخر ناقضتها ، ممّا يطمس معالم الحقيقة بنسبٍ تدعو للتحرّز وإعادة النظر .. وكما في كلّ ضرورةٍ بحثيَّةٍ نسأل : هل الإنجيل يحتوي على الحقيقةِ الكاملة ..؟ لماذا يعاني الإنجيل من أزمة نصّ كامل ..؟ لماذا كلّ التعديلاتِ طرأت عليهِ .. ؟ ألا توجد نسخة أصليّة .. ؟ أم الحقيقة هي عبارة عن تعدّد وثائق ، كلّ فصلٍ منها مُختَلَف في قيمتهِ الثبوتيّة ؟ بالأمس كان " الخطاب الرسمي اللاهوتيّ " أنّ كلّ ما احتواهُ الإنجيل هو عبارة عن كلام الربّ أمّا اليوم فالأمر مختلف جدّاً ، فلا إقرار نهائيّ بالمعنى الحرفي ، ولا إقرار بنصٍّ كامل .. إنّما هناك توجيهِ إلى روحِ ما قالهُ الربّ ليس أكثر .. ألا يعتبر هذا الأمر مربكاً في أكثر من ناحيةٍ وعنوانٍ ويدلّ على أزمةٍ أشرنا إليها من قبل .. ؟ من هنا يتوجّه " الأبّ بينوا " إلى قارئ الإنجيل ويحذّرهُ من هذا ، ثمّ بعد ذلك يقول له :

" إذا كان عليه أن يتخلّى في أكثر من حالةٍ عن سماعِ صوتِ المسيح المباشر فإنّه يسمعُ (صوت الكنيسة) ويركن إليها ركونه لمفسرٍ خُوِّلَ إليهِ أن

يفسّرَ السيّد (المسيح) الذي يحدّثنا اليوم في مجدهِ
بعد أن تحدّث على أرضنا "

إذاً ، الحلُّ هو أن نعود إلى " الكنيسة " لتكون بمثابة بيان تعويضيّ تفسيريّ ..! على اعتبار أنّها تنطقُ عن لسانه المسيح ، وفق المعنى المأخوذ من الجهةِ التقريبيّة الوظيفيّة إلا أنّ النطق عن لسان المسيحِ يعتمد على الصيغة على الوثائق ، على المعالمِ المنقولة التي هي بين يدي الكنيسة .. من هنا فإنّ الخلل في هذهِ الوظيفة وطبيعتِها سينعكس سلباً في تأدية غاية الوظيفة خاصّة أنّ الكنيسة ليس لديها ما يصلها بشكلٍ تامٌ بالمسيحِ ، وهذا أمر نهائي وحقيقي ، نعم هناك نصّ جزئيّ ، هناك تفسيرات خطيرة رسّخها بولس وأقام عليها أساس اللاهوت المسيحيّ وهي تتناقض بشكلٍ هائلٍ مع تلامذةِ المسيحِ الذين كانوا معه وبعثهم رسلاً .. كيف نتعامل مع الكنيسة على أساسِ أنّها تبيّن صوت المسيح وتعاليمه في حين نعلم أنّ بولس اتّهم أركانَها (بطرس ويعقوب ويوحنّا ..) بالمكرِّ والخديعةِ والكذبِ وقال بحقّهِم انّهم شبه رُسُل وليسوا رسلاً ، وأنبياء كذبة ..! وأنّه لم يتعلم منهم شيئاً ..! وانّهم يكذبون في تعاليم المسيح ..! أليس الأمر خطيراً وبالغ في خطورتهِ .. أليس هو بحاجةٍ ماسّةٍ إلى حلٍّ مقنعٍ ، وإلا فإنّ الكنيسة التي اعتمدت بولس ككاهنٍ مؤسّسٍ مرجعيّ للاهوتِها تعادي وصيّة المسيحِ المنصوصةِ في الأناجيل والتي قال فيها بحقِّ بطرس : [طوبى لك يا سمعان ، وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس " أي صخرة " وعلى هذهِ الصخرة ابنِ كنيستي ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكلّ ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات ، وكلّ ما تحلّه على الأرض يكون محلولاً في السموات ..]

كيف يمكن لآباءِ الكنسيةِ أن يجمعوا بين هذين الخطّين المتناقضين ، فهم يعتمدون بولس مصدراً مؤسِّساً للاهوتِ المسيحيّ وعنواناً تفسيريًّاً للتعاليم فضلاً عن الإعتقاد بأنَّ كلّ ما يقولُهُ من نفسِهِ ومن دون أن يخبرهُ بهِ أحد سوى ما يدّعيهِ من رؤية ليسوع هو الحقّ ، حتى أنّهُ أقام اللاهوت على نحوٍ خاصّ مخالفٍ لتعاليم رسل المسيحِ وعلى رأسِهِم بطرس ويعقوب ويوحنّا ، في حين أنَّ حقيقة الوثائق على نحوٍ مختلفٍ في ثبوتِها فهي نتيجة إنتصار بولس على هؤلاءِ الرسل .. والسؤال الضروري هنا : كيف نصل إلى تعاليمِ المسيح ؟ وبأيّ طريقة ؟ هل بطريقة الإيحاء أم بطريقةِ التخمين ..؟ والأول ممنوع ، والثاني كارثيّ ..!

أنا كمسلم ، كيف يمكن ان تقنعني الكنيسة بحقيقة صوتِ المسيحِ وتعاليمِهِ الحقيقيّة بعد أن سردتُ هذهِ المجموعة الدقيقة من الإشكالات التي لا أريد عبرها إلا إثبات الحقيقة ولفت النظر ..؟ هل يكون الأمر عن طريق إيكال الأمر إلى تعاليم بولس وهجر ما عليهِ بطرس ويعقوب ويوحنّا وهم الرسل في لسان يسوع الذي كان شديد المعاناة من الكهنوت اليهودي بما فيهِ بولس فضلاً عن سلطة الرومان ..؟ المسيح في متنِ الإنجيلِ يوصي ببطرس وكنيستهِ (كنيسة الختان) لكنَّ المؤسّس للاهوت المسيحي هو بولس ..! ألا تثير هذه النتيجة الإستغراب والإستهجان ..! بولس العدوّ اللدود لأتباع المسيحِ من قبل ثمّ للرُسلِ بطرس ويوحنّا ويعقوب ، والمخالف لهم بمجموعة من عناوين كبرى قلَبَتْ مفاهيم رئيسيّة رأساً على عقب وهي مدخل مركزي للإعتقاد واللاهوت المسيحيّ ، سجَّل إنتصاراً ساحقاً وأقام الأساس اللاهوتيّ كما يريدهُ هو في حين مُنِعَ بطرس ويوحنّا وغيرهم من رموز كنيسة الختان من إقامة الأساس اللاهوتيّ

للمسيحيّة ..! وذلك بعد أن ترسّخ إنتصار بولس عليهم وحطّم إمكانات كنيسة الختان الأورشليميّة .. كيف يمكن أن نفسّر هذا الأمر على نحوٍ توافقيّ ، أو على الأقل وفق معنى تلطيفيّ ..؟ على الأقلّ للجمهورِ المؤمنِ ..!

أليس من حقّنا أن نسأل أيضاً عن مجموعةٍ أخرى فرعيّة منها : ما هي معايير التفسير ..؟ ما هو موازين نسبة المتن والنصّ إلى المسيح ..؟ (أي القيمة الثبوتيّة والنطق الواقعي للحدث .. مع الأخذ بعين الإعتبار كلّ ما أشرنا إليهِ من قبل من شهاداتٍ تاريخيّة ثابتة ..؟) أليس الشكّ بالمصدر أو عدم إقامة دليل نهائي على وثيقةٍ ما لا يحيلها إلى قيمةٍ ثابتةٍ مطلقاً ، ماذا عن الإعتقاد الجازم بالتعديلات ، هل الأمر متساوٍ بين الرعيّة والقائمين على رأس الكنيسة ..؟ هل للآباء طريق في كشف يقين المتن المكتوب في الأناجيل الأربعة ، وماذا عن الإضطراب والحذف وإعادة الصياغة والإجتزاء والتناقض التكاذبيّ .. ؟ هل تعني الكنيسة أنّها من أهل الخبرة في معرفة المراد من النصّ ، في حين كلّ الطرقِ الممكنةِ هي موضوعيّة في الأصل لتسري حجّيتها على كلّ عاقلٍ ، ويجب أن يكون التفسيرُ " نمطيّاً مذهبيّاً إنتزاعيّاً مستقلاً " أيضاً كذلك .. عند الشكّ في أصل المصدر وإمكانيّة النقل التام وصحّة التعديلات يصبح الأمر بحاجةٍ ضروريّة إلى إحاطةٍ توثيقيّة ، فأين الأمر في أكثر من وثيقة من ذلك .. ؟ ماذا عمّا يكشف عنه المتن في أكثر من جهةٍ وعنوانٍ من تناقض واضح وعلنيّ في نصوص الأناجيل ، ممّا يعني أنّ أزمة حقيقة أو أزمة نصّ كامل تفرض نفسها بالفعل ..! وعلى كلّ حال فإنّ موضوعيّة البحث والتخصصيّة اعتمدت على موضوعيّة أخرى تقوم على أساس أن تكون " اللغة الإستعماليّة " وسيطاً وخادماً بأمانة

للتفسيرات المطلوبة ، وليس منها أيّ تكلّفٍ أو تبرّعٍ أو فرضٍ وهميٍّ على الإطلاق .. هذا قانون عقلائي بشريّ إعتمدهُ علماء الطبيعة والإجتماع وكافّة البشر ، كما اعتمدهُ النبيّون والمبلّغون عن لسان الله ، وعلى أساس قوانينه ومقادير حججه يكون المعنى ، وتكون الموضوعيّة الملزِمة ..

من هنا لا يمكن على الإطلاق أن يكون التفسيرُ الكنسيّ تعويضاً عن النصّ أو عن بعضِهِ .. أيّ تفسير هيكلي تأسيسي هو الذي يكون بلسان بولس لتعاليم المسيحِ التي ألقاها على بطرس ويعقوب ويوحنّا والتلامذة الذين اتّهمهم بولس بالكذبة والماكرين ..! إنَّ هذا الأمر غير كافٍ أبداً .. والشيئ الكافي والضروري الوحيد ــ خاصّة أنّنا نعتبر التعاليم التي جاء بها المسيح ربّانيّة ــ أن يباشر الآباء في دراسة تكسر سياج الصعوبة العمليّة عبر عمليّة دؤوبة من أجل بيان مصدر النصّ الأوّل ، والوسائط ، ومعنى الحجيّة تلك . مع الإشارة إلى أنَّ المشكلة تتعدّى أيضاً وبنسبة واضحة السعي الدؤوب فلا بدَّ من جهدٍ مضنٍ ، لأنّ المصدر في نسبةٍ غير قليلة غير واضح أو موجود الآن بين أيدينا ، كما أنّ الأصل الأوليّ لم يكن مكتوباً ، إنّما كان تراثاً شفويّاً ، وهذا يزيد الأمور تعقيداً (.. وممّا يساعد في مجال الحقيقةِ وإبرازِها ويلعب دوراً فاعلاً في ذلك يكمنُ في ما لدى الكنيسة أو الفاتيكان من تراثٍ مخزون غير مُفْرَج عنه) .. ويضاف إلى عناوين المشكلة تلك أزمة تقنين انحصرت في أربعة أناجيل دون غيرها وعلى أسسٍ غير واضحة علميّاً بل فيها نحو من اضطهادٍ كبير واضح لكلِّ من يقرأ التاريخ في ظلّ صراعٍ محمومٍ بين بولس ورسلِ يسوع المسيحِ ، إلى أن تمَّ الإنتصار لبولس الذي توّجهُ مرجعيّةً أقام على أثرها الأساس اللاهوتي للمسيحيّة

التي نعرفها اليوم في مناخٍ محموم وصل إلى درجة أثار أزمة عنيفة من الخلاف بين المسيحيين أنفسهم بل بين رؤوس الكنيسة وأصحاب التفاسير أدّى إلى إنقسام الكنيسة ، ونشوء مرحلة هائلة من التناقضات العقائديّة الجوهريّة كان من أثرهِ فيما بعد حروب دمويّة ضخمةٍ ونزيف فكري لم يتوقّف .. مع العلم أنّ آباء الكنيسة ليسوا مخوّلين التأثير والكشف المفاهيميّ عبر وسائط تطويعيّة للناموس الكوني (وسائط إعجازيّة) ولم يعطهم المسيح ذلك ، ممّا يضاعف العقبات المانعة . ولو كان الأمر تامّاً خاصّة من جهة كشف الحقيقة ولو على أساس من جنبةٍ تكوينيّة كشفيّة وصلةٍ بعالم العلم الواقعي لما تمّ أيُّ خلافٍ بينهم ولَما انقسمت الكنيسة إلى هذا المستوى المخيف ، ولظهرت حقيقة ما يريده المسيح جليّاً ، والعجب أنّ الخلاف وصل إلى جوهر وحقيقة المسيح : هل هو " الله الأزليّ أم النبيّ البشريّ..! " .. خلاف عميق ونزيفُ هائل أصاب الكنيسة تاريخيّاً في عمليّة الإجابة عن هذا السؤال ..! وللكنيسة عمليّاً في ذلك قولان : الأوّل : وهو المتأصّل سابقاً : أنّ المسيح بشرٌ نبيّ وهو قول التلامذة وعلى رأسهم بطرس ويعقوب ويوحنّا ، بل هو قول المسيح نفسه . والثاني وهو متجدّد ومخترع تاريخيّاً والذي قادهُ وأسّسهُ بولس من أنّه من جوهر الله لكنّهُ متأنسن .. (إلهٌ أزليّ من إلهٍ أزليّ) .

كلُّ الخبراءِ والمعلّقين وأهل الإختصاص متّفقون على الإنقلاب العنيف الذي أحدثه بولس وهو الذي شيّد الأساس اللاهوتيّ للمسيحيّة .. من هنا فأيّ الفريقين نتّبع ..؟ هل المعرفة المتعلّقة بالرسلِ هي من منبعٍ بشريٍّ أم من المسيحِ ؟ وهل يمكن أن يوصي المسيح بتلامذتهِ ورسله كمصدرٍ لازمٍ لمعرفةِ تعاليمهِ ،

واجب الإنصياعِ والإتّباع ، ثمّ يظهر بعد ذلك على بولس (المضطهدِ المشهور للمسيحيّة) فيبعثهُ رسولاً ، ليخالف بذلك رُسُلَهُ ويكذّبهم ويتّهمهم بالمكرِّ والخديعة ، ثمّ يغيّر تعاليمهُ ، ثمّ ليحوّل حقيقتَهُ (أي المسيح) من إنسانٍ إلى إلهٍ ، ويعلنه إلهاً أزليّاً من إلهٍ أزليّ ..! من غيرِ الممكنِ ذلك ، لا بالعقلِ ولا بالنقل ..

لا يمكنُ بأيّ حالٍ أن يمرّ أيُّ عاقلٍ على أمرٍ مثلِ هذا دون أن يتوقف مذهولاً أمام ما حصل وما وصلت إليهِ معالم اللاهوتِ في الإنقلابِ ذاك .. لا يمكن بحالٍ من الأحوالِ أن نوافق على تفسيرٍ فرضيّ ، تكلّفيّ ، تبرّعيّ ، دون ايّ شاهدٍ مأخوذٍ على نحو الحقيقة الموضوعيّة المعتبرة في ناموس العقلاءِ والمعتمدة في قانون التواصل الخطابي بين الرسلِ وغيرِهِم من البشرِ .. لذلك ، فإنّ هناك مجموعة رئيسيّة ذات جوهر نافذ في محاكمة ما نحنُ فيهِ ، تفرض علينا التعامل بنمطيّة موضوعيّةٍ من أجل الوصول إلى قيمةٍ متحقّقةٍ ولو لجزءٍ من النصّ والتعاليم التي جاء بها المسيح من عند اللهِ تعالى ، من أجل إعلان الحقيقة تلك مقدّسة .. من هنا دخلنا في نقاشٍ حول مشكلة المصادر ، والتراث الشفهيّ ، والتفاسير المتناقضة ، والأصول التفسيريّة التي تقوم على أسس غير تامّة من جهة بيان المذهبيّة الموضوعيّة (الوسيط اللغوي الإستعمالي) وهي التي استعملت في لسان المسيح واعتمدت لديه في خطاب بيان التعاليم ، ولا يمكننا بحالٍ من الأحوالِ أن نقول في نصٍّ مركّبٍ أنّه كذلك بدا وظهر ، وهو في حقيقتهِ غير تام وغير صحيح ، إنّ هذا الأمر وغيره أدّى إلى ظهور تناقضات غريبة جدّاً بين رؤوس الكنيسة وآبائها ، ممّا فتح باباً تشكيكيّاً مخيفاً إلى يومنا هذا .

ثمّ انّه ليس مجرّد وجود النصّ في الإنجيل يعني أنّه مطابق للحقيقة ولما قاله أو فعله المسيح ، لأنّ مجموعةً من تعديلات طرأت على النصّ إضافة إلى عامل التركيب في أكثر من متنٍ وأكثر من عمليّة إعادة صياغة ، فضلاً عن أزمة القيم المصدريّة المختلفة في الثبوتِ ، كلّها أثّرت على هذا الإعتقاد ، بالإضافة إلى التناقضات العلنيّة والصريحة والجوهريّة في متن الأناجيل المعتبرة كنسيّاً والتي تعتبر من الأدلّة الداعمة لذلك . إنّ هذا ما دعا " الأب بينوا " إلى أن يستعيض عن هذا المأزق بـــ " صوت المسيح " الذي يتجسّد في الكنيسة .. وهذا كما ترى لم يستطع أن يحسم الجدال والخلافات الأكثر جوهريّة بين أرباب الكنيسة ، ممّا يعني أنّه أحال القارئ مرّةً ثانيةً إلى أمرٍ آخر ، لا يحلّ الخلاف ، ولا يعطي إجابةً حقيقيّةً موضوعيّة ، تشفي غليل السائل الملحّ عن " صحّة التعبّد " بما ورد في متن الأناجيل على إعتبارهِ " كلاماً ربّانيّاً إلهيّاً " كما هو في عين الواقع ، أو كما هو مفروض أن يكون ، في حين العديد من المتونِ المعتبرةِ في الأناجيل تعاني من إضطرابٍ وقصورٍ وتناقضٍ ..! لقد رأينا أنّه قبل عام ١٤٠ ميلاديّة لم يكن هناك ما يشهد بوجود مَن يعرفُ أو يشير إلى " وجود مجموعة من الكتابات الإنجيليّة " وكان لا بدّ من إنتظار عام ١٧٠ ميلاديّة حتى تكتسب الأناجيل " صفة الأدب المعترف به كنسيّاً " ..

وفي تلك العصور المسيحيّة الأولى كان هناك تداول للعديد من الكتابات عن المسيح ، غير أنّه لم يعتدّ بها كـــ " كتابات جديرة " لها قيمة مقدّسة أو قيمة ثبوتيّة في خصوصٍ يكشف عمّا جاءَ بهِ المسيح ، حتى أنّها ألغيت من عنوانِ الإمكانِ في التديّنِ أو الإعتقاد بها لجهةِ منع الصحّة عنها أو الوثوق الكنسي بها .

والأخطر من كلّ هذا أنّ الكنيسة أوصت بـــ " إخفائها " على اعتبارِ أنّها لا تمتُّ إلى حقيقةِ ما عليهِ الأناجيل الأربعة وبالتالي هي " مزوّرة " . من هنا جاء إسم " الأناجيل المزوّرة " ولقد بقي من هذه النصوص مؤلّفات تمّ الإحتفاظُ بها جيّداً ، لأنّها كانت " تتمتّع بالتقدير العام " أو بقبولٍ من أتباعٍ أصرّوا على التمسّكِ بها ، على ما تقول لنا الترجمة المسكونيّة .. من هذه النصوص " رسالة برنابا " التي تعتبر عند البعضِ ضروريّة .. نعم هناك نصوص أخرى ، قد استبعدت بشكلٍ أكثر عنفاً ، ولم يبقَ منها إلا بعض أجزاء . ولأنّها كانت تعتبر ناقلة للخطأ العام ـــ برأي من قيّمها ومن منظارِهِ ـــ فقد أُخفيت عن أنظار المؤمنين وغيرِهِم ، منعاً من تسلّلِها إلى يدِ أيٍّ أحد .. وبهذا تكون الكنيسة قد تعاملت مع الوثائقِ الأخرى من بابِ إعدامِها ، في حين كان هناك من يصرّ على خطأ معتقد الكنيسة ، وصحّة ما بيدِهِ ، إلا أنّ عامل القوّة والنفوذ بصورةٍ عامّة كان حاسماً في جانبِ الكنيسةِ ..

وبرغمِ ذلك بقي هناك من المؤلّفات من مثل أناجيل الناصريين ، وأناجيل العبرانيين ، وأناجيل المصريين ، التي عرفت بفضل " تنويهات " آباء الكنيسة ، ونفس الأمر ينطبق على إنجيل توما وإنجيل برنابا . وبعض هذه الكتابات " التي اعتبرت مزوّرة " شابها بعض التفاصيل غير الصحيحة ، عن طريق الخيال الشعبيّ ، أو أدخل عليها فيما بعد ، وهي كغيرها من المجموعات التي دوّنت مرّةً عن طريق الوثائق ومرّةً عن طريق التراث الشعبيّ لكن في نفس الوقت تحتوي هذهِ المجموعة المدّعى تزويرها على " مجموعة مهمّة " من الحقائق الموضوعيّة ، التي يشهد لصدقها الدراسات النقديّة المسيحيّة ، وعلى الأقلّ فيها

كمٌّ مهمّ ممّا يوافق ما في هذه الأناجيل المعترف بها كنسيّاً . ولا يمكن إعدامُها ومحاولة إتلافها إلا بعد صراعٍ على تثبيت مجموعة الأناجيل الأربعة وإبطال غيرها كطريق ودلالة على نوعٍ من الإنتصار العقائدي الذي نشب بين الطوائفِ المسيحيّة المختلفة آنذاك .. ولأنّ الهدف كان إسقاط كلّ ما لم يُعترف به كنسيّاً فإنّ مؤلّفي الدراسات عن الأناجيل المزوّرة يذكرون منها وبرضىً وتوسّع " مقاطع " تدعو إلى السخرية ، لتكون بمثابة دليل على أنّ آباء الكنيسة الأوائل إنّما أصابوا ودقّقوا وساقوا الأمور على مستوى من الحقيقة التي لا يمكن أن يطرأ عليها الشكّ .. لكنّ المشكلة الأهمّ هي أنّ طائفة من المقاطع التي يدّعي مجموعة من كتّابِ نقدِ الأناجيل المزوّرة أنّها تدعو للسخرية يمكن أن نجد مثلها في كلّ الأناجيل المعتبرة كنسيّاً ، عندها يصبح الأمر خارجاً عن إطار السخرية ليدخل ضمن إطار يتعلّق بـــ " شهادات الصدق " على خرق الناموس وصحّة ما جاء به المسيح .. إذاً ما هو المقياس الذي يمكن أن نعتمدهُ للتوثيقِ والإبطال ، في ظلّ صراعٍ عنيفٍ بين الطوائفِ آنذاك إنتصاراً لعقائدها ، وقد مرَّ عليك واحد من الأمثلة التي تتعلّق بتكوين مفهوم جديد حول المسيح وإعلانهِ إلهاً أزليّاً من إلهٍ أزليّ ، وما أدَّى إليهِ من صراعٍ وعنفٍ وما أحاط بهِ من إنقلاباتٍ هي الأخطر على المفاهيم ..

وفي سبيل تبرير سطحي للإبطالِ عكفت مجموعة من المعلّقين بسرد تلك الفقرات التي اعتبرتها دليلاً كاملاً على بطلانِ تلك الأناجيل ودقّة ما قام بهِ الآباءُ الأوّلون من خلال إبراز " الوصف الوهميّ " للأحداث التي يدّعي متّى أنّها قد وقعت عند موت المسيح .. وفي الحقيقة يجب أن يقرّ آباء الكنيسة بأنّ هناك

فقرات تفتقر إلى الجدّية بمعناها (الطبيعيّ والإعجازيّ) في كلّ " كتابات العصور الأولى " للمسيحيّة ، ومن الشرف العلميّ وشرط الحقيقة أن يتحلّى الباحثُ والمتخصّص وآباء الكنيسة بشرف الإعتراف بهذا .

أليست الحقيقة أساس الأديان ..؟ إذا كان الأمر كذلك أليس من حقّنا أن نسأل عن معايير فعليّة حقيقيّة قادت الكنيسة في مرحلةِ انتظامها إلى إجراء استبعاد لكثيرٍ من المؤلّفات ، ولكثيرٍ من الروايات الوافرة جدّاً عن حياة المسيح في مرحلة انتظامها ، وربّما كان ما حذف " مائة إنجيل " ..! وقد احتفظت فقط بـــ " أربعةٍ من الأناجيل " لتدخل في قائمة رسميّة من كتابات العهد الجديد التي تشكّل ما يسمّى بـــ " الكتب المعترف بها كنسيّاً " . أليس من واجبِ التنبّه والحيطة والضرورة عدم إتلاف مجموعات هائلة من تلك الروايات ، ومن دون تحديد دقيق عادل للمعايير في عمليّة توصيفها بـــ " المزوّرة " وبالتالي إتلافها ..؟ أليس الإتلاف تمّ على أسسٍ وإجراءات معيّنة ، وربّما مقارنات ..؟ لماذا لا تكون تلك المعايير والمقاييس ولو من الناحيةِ النظريّةِ بين أيدينا لنجري عمليّة تخصصيّة أو يجريها متخصّصون ، بدلاً من أن يحكم عليها مجموعة من السابقين بالإتلاف في زمنٍ خصاميّ وإعلان براءتها من الحقيقة مطلقاً ..؟ إنّ هذا مخيف حقّاً ..! حتى أنّ الدولة الإسلاميّة التي وصلت إلى مستوى هائل بتوسّعِها العالمي وبظرفٍ قصيرٍ جدّاً لم تفعل ذلك ، ليس في رواياتها وكتبها بل في روايات الملل والأديان الأخرى ، بل في تعاليم الملحدين والزنادقة ، وأخضعتها لمعايير ونقاش ضمن إطار من مبدأ إسلامي يقول " الحقيقة ضالّة المؤمن ، أينما وجدها أخذها ولو من صدر كافر .. " هنا تكون الحقيقة والإطمئنان أوفر ، تكون الصوابيّة

عن علمٍ ودرايةٍ ومنطقٍ ودليلٍ محسوس .. إذاً كيف هي الحالُ في تعاليم يسوعيّة لقّنها يسوعٌ تلاميذَهُ ، فما كان من بولس الذي كان قد حارب المسيحيّة بعنف إلا ان ادّعى أنَّهُ رسول من قبل يسوع وذلك بعد صعودهِ إلى السماء فشنّ حرب إلغاء واسعة على رسل وتلامذةِ المسيحِ ، واتّهمهم بالكذبِ والمكرِ والخديعةِ وشبه ذلك ..! فكانت النتيجة الغريبة المذهلة أنّ بولس هو من أقام الأساس اللاهوتيّ للمسيحيّة وهزم كنيسة الختان ..! أليس في هذا الأمر غرابة ..!

على الإطلاق ليس عذراً الإدّعاء والتذرّع بأنّ ترك تلك الوثائق من شأنِهِ تضليل بعض النّاس عن طريق الإستفادة من الأفكار المزوّرة فيكون من بابِ تعطيل الحقيقة ، إنّ هذا الأمر أخطر من أيّ تبريرٍ على الإطلاق .. هذا المنطق لا يمكن أن يكون وراء هذا الإتلاف الهائل ، حيث كان بإمكان الكنيسة أن تحتفظ بها أو بنُسخٍ منها ، لتنقلها إلى الأجيال الأخرى في عمليّة تراثيّة وراثيّة ثقافيّة ، هدفها الحقيقة والتسجيل بشكل برهاني للحقائق ، في زمنٍ جاء بهِ المسيح على نحوٍ عالٍ ، ليبدأ حقبةً أخرى هي ضرورة البشريّة في سبيلِ هدايتِها .. فقط يكفي أن نقرأ البيئة التي تمّ بها الإتلاف لنرى أخطر الأنماط التي تدلّ على أمرٍ ما بل على الإزدواجيّة في القبول والرفض بين فريقين ، فكان ان تمّ الإنتصار لبولس على حسابِ غيرِهِ ، حتى تلامذة المسيحِ خسروا رغم كلّ تلك الإعتبارات .. إنّ ما كشفت عنه عمليّة إعلان الأناجيل الأربعة ككتاب مقدس واعتبار ما فيه صحيحاً دون أدنى شكّ ، مع كلّ ما شاب الأناجيل من تناقض تكاذبيّ يشهد بهِ متنُها يدلّ على أنّ دراسة هذا الملفّ كانت قاصرة وقاصرة بالفعل ولا يمكن الإدلاء بشهادةٍ غير ذلك .. على أن المعايير التي اعتمدت في عمليّة الإتلاف لم

تكن صحيحة بالمطلق ، ولا نستطيع أن نعطيها وصفاً صحيحاً مهما تكلّفنا من جهدٍ وموازين .. وهذا يدلّ على أنّ بعضاً من الممارسات كان خطيراً ومخيفاً ولا يخدم الحقيقة التي بعث من أجلها المسيح ، ثمّ إنّ هذا التقنين نفسه كان وراء منشأ الإختلافات العميقة التي قادت إلى أخطر الصراعات الفكرية والعقائديّة حتى أنّ آباء الكنيسة وقفوا مذهولين ، متعبين أمام حقيقة هل المسيحُ من جوهر الله على قاعدة : إله أزلي من إلهٍ أزليّ تأنسن ..؟ أم من جوهر البشر لكنّه نبيّ مرسل ..! وقد نقلتُ إليك بعضاً من هذا النقاش المخيف جدّاً بآثارهِ التي إنعكست على مستوى التفكير الكنسيّ ، إلى درجة أنّ أوّل من شنّ دعاية بولس المتوارثة من أنّ جوهر المسيح هو لاهوتيّ وأنّه إله أزليّ من إلهٍ أزليّ عاد واعتذر وتاب من خطيئته ..

لا شكّ أنّ هذا يدعو للقلق والإرباك وهو الذي دعا العديد من المعلّقين إلى الإعتراف حقيقةً بأزمة وساطة يقينيّة للجزم بمطابقة النصوص الإنجيليّة مع ما وقع فعلاً مع المسيح قولاً وفعلاً ، بل إعترف بعضهم بأنّ تعديلات وتناقضات جرت على أيدي بشر ، وأنّ ميولاً وأفكاراً لعبت دوراً كشفت عنه النصوص ممّا يعني أنّ هذا الكتاب ليس معلومات مطابقة للواقع بشكلٍ كاملٍ (مشكلة نصّ كامل) وفق موازين غير قابلة للنقض ، بل فيه من الكلام والإدانة العديد ممّا يصيبُ فيه الناقد الأمين بنقده . وعلى أساسٍ من هذا التطوّر بدأت الأمور تنحو نحو الإعتراف والنظر إلى الوراء بعين الشكّ من جهة والإقرار بمشكلة نصّ من جهة أخرى . يخطئ من يعتقد أنّ الأناجيل شكّلت بمجرّد تحريرها مرجعيّةً ملزِمةً على الفور ، بل كانت السلطة السائدة في ذلك الوقت للتراث الشفهيّ ، الذي

كان ينقل الحواريُّونَ فيهِ أقوال وتعاليم المسيح . وهذا لا يعني أنَّه لم يكن بين أيديهم وثائق .. والمثير انَّ أوّل الكتابات المتداولة بل أوّل ما سادَ منها قبل الأناجيل هو " رسائل بولس " وقد كُتبت رسائل بولس قبل ذلك بعشرات السنين (بين العامين ٤٠ و ٦٧ ميلاديّة) .. هذا الأمر يجب أن يبقى في ذهنك بكلّ ما يعنيهِ إنتصار بولس على رسل المسيح : يعقوب وبطرس ويوحنّا وغيرهم الذين اتّهمهم بالكذب والمكرِ والخديعةِ وغير ذلك فكان أن أقام هو الأساس اللاهوتيّ للمسيحيّة التي نعرفها اليوم ..

وفي منتصف القرن الثاني دفع " مارسيون " بصرامة السلطات الكنسيّة إلى إتّخاذ موقف ، وكان خصماً لدوداً لليهود ، وكان يرفض كلّ العهد القديم كما يرفض أيضاً كلَّ الكتابات اللاحقة عن المسيح التي يبدو منها إرتباط وثيق بالعهد القديم أو التراث اليهوديّ المسيحيّ ، ولم يعترف مارسيون إلا بإنجيل لوقا لأنّه في رأيه يتحدّث بإسم بولس وبكتابات بولس ..! ألا يجب أن نتأمل هنا في دقّةِ مارسيون ، ونسأل عن بُنية هذا التفكير ولماذا .. هل الأمر متّصل بشكٍّ ما ، هل الأمر متعلّق بحقيقةٍ ما .. لماذا كلُّ هذا التشكيك .. إذاً أين هي الحقيقة المطلقة .. أين هي القداسة .. هل القداسة المسبوغة اليوم على الأناجيل تختلف عن تلك التي كانت لها في أوَّل تحريريها ، وماذا عن قدسيّة التراث الشفهي حين إعلانِها المصدر النهائي والوحيد للمسيحيّة ..؟

السؤال الجدير طرحُهُ : لماذا تعاملت الكنسية بقساوةٍ حادّة مع كلّ مشكّكٍ بما في متنِ هذهِ الأناجيل أو المنكرِ لبعضِها أو المعتقد ببعضٍ دون البعضِ الآخر .. من أمثلةِ ذلك أنَّ الكنيسة آنذاك حكمت على مارسيون بالهرطقة ..

كما وضعت في القائمة الرسميّة كلّ رسائل بولس ومع الأناجيل الأخرى لمتى ومرقس ولوقا ويوحنّا ، وألحقت به أيضاً بعض الكتب الأخرى مثل " أعمال الرسل " . ومع كلّ ذلك فالقائمة " الرسميّة " تنوّعت مع الزمن في القرون الأولى من العصر المسيحيّ .. وهناك مؤلّفات إعتبرت فيما بعد معدومة القيمة (وهي التي وصفت بالتزوير) وهي التي كانت تحتلّ مكاناً مؤقّتاً في هذه القائمة ، في حين كانت هناك كتابات أخرى احتويت في القائمة الجديدة " العهد الجديد " مع أنّها كانت مستبعدةً في ذلك العصر . ولقد دام التردّد حتى مجمعي : (هيبون في عام ٣٩٣ م) و (قرطاجة في ٣٩٧ م) ولكنّ الأناجيل الأربعة كانت دائماً موجودة في هذه القائمة .

ويجب أن تأخذ بعين الإعتبار أنّ هناك مبرّزين جدًّا يأسفون كما نأسف لإتلاف كمّ ضخم من الوثائقِ التي قيل فيها أنّها غير معتبرة ، الآسفون كُثُر ، منهم " الأبّ بومار " الذي أسِفَ على إختفاء (كمّ ضخم) من الكتب التي إعتبرتها الكنيسة مزوّرة ..! فقد كان لها أهميّة تاريخيّة ، وكانت بمثابة دستور عملي عند الكثيرين ، ولها أرباب وأتباع كثر .. وقد أعطاها الأب بومار مكانةً في كتابه " الأناجيل الأربعة المتوافقة " إلى جانب الأناجيل الرسميّة . ويلاحظ أنّ هذه الكتب كانت موجودةً بالمكتبات ، حتى نهاية القرن الرابع . لقد شهد القرن الرابع عصراً من التنظيم . وإلى هذا العصر ترجعُ أقدم المخطوطات الكاملة للأناجيل فمن الوثائق السابقة على هذا العصر " برديّات " يرجع تاريخها إلى القرن الثالث ، وبرديّة أخرى قد ترجعُ إلى القرن الثاني ولكنّها لا تنقل لنا إلا أجزاءً منفصلةً ، أمّا أقدم مخطوطتين من الرقّ مخطوطتان يونانيّتان من القرن الرابع

وهما يعرفان بـــ (codex vaticanus) ومكان إكتشافهما مجهول ، وهما محفوظتان بمكتبة الفاتيكان و(codex sinaiticus) وقد اكتُشفَت بجبل سيناء وهي محفوظة بالمتحف البريطانيّ وتحتوي الوثيقة الثانية على " مؤلّفين قيل فيهما أنّهما مزوّرانِ " . تقول الترجمة المسكونيّة : هناك في العالم " مائة وخمسون مخطوطة رقّيّة أخرى معروفة " وآخرها يرجعُ إلى القرن الحادي عشر . ولكن كلّ نسخ العهد الجديد التي وصلت إلينا ليست متطابقة ، بل على العكس ، حيث يمكن للقارئ أن يميّز فيما بينها فروقاً قد تختلف في " الأهمّيّة " ولكن عددها على أيّ حالٍ كبير .. وبعض هذه الإختلافات لا تخصّ إلا التفاصيل في النحو أو المفردات أو ترتيب الكلمات ، ولكن في مؤلّفات أخرى يلاحظ بين المخطوطات إختلافات تمسّ معاني فقرات بأكملها ، وإذا أردنا أن ندرك هذه الإختلافات النصيّة فعلينا الرجوع إلى العهد الجديد اليوناني . فهذا الكتاب يحتوي على نصّ يونانيّ يقال له " متوسّط " وهو نصّ مركّب ، يشتمل في حواشيه على كلّ النقاط المختلفة التي يجدها القارئ في مختلف النسخ . من هنا يصحّ القول : إنّ صحّة أيِّ نصٍّ ، حتى أكثر النصوص إحتراماً ، هي قابلة للنقاش . إنّ المخطوطة التي هي بإسم (codex vaticanus) تعطي مثالاً على ذلك فطبعتها المطابقة للأصل التي أعدَّها الفاتيكان عام ١٩٦٥ تحتوي على " تنبيه " من نفس المصدر يخبرنا بالأمر التالي :

(أنّه بعد مرور قرونٍ عدّة على النسخة - القرن العاشر أو الحادي عشر - حبّر أحد النسّاخ كلّ الحروف ما عدا التي رأى أنّها خطأ) وهناك عبارات من النصّ ما زالت فيه الحروف الأولى ، وهي " بنيّة اللون " وهي تُرى بشكلٍ

واضح ، وهي تتباين مع بقيّة النصّ الذي كُتب بحبرٍ بنيّ غامق . والشيئ المخيف هو أنّ ترميم النصّ هل أبقى النصّ كما هو ، أم أنّه غيّر فيه ..؟ ومن المعلوم انّ الإضافة سهلة المؤونة ، ومن شأنها ان تغيّر معاني إلى أخرى مناقضة لها أي هل كان ترميمُ النصّ أميناً ..؟ سؤالٌ حرج ما زال بحاجةٍ إلى إجابة . في ظلّ هذا الإقرار الذي ما زال موجوداً وموثّقاً والذي يعبّر عن شهادةٍ ضروريّةٍ تصبُّ في الإطارِ الذي أشرنا إليه ..

ويضيف التنبيه ويحدّد ما يلي :

(لم نتمكّن حتى الآن ، من أن نميّز بشكلٍ نهائيٍّ ، مختلف الأيدي ، التي صحّحت المخطوطة ، ووضعت عليه الحواشي عبر القرون ، ولا شكّ أنّ عدداً من التصحيحات قد عُمِل ساعة تحبير النصّ)

من هنا أليس من حقّنا المداقّة الجديّة في أكثر من جهةٍ يشوبها الشكّ وتشهد بها هذه الحروف من صورة تشويه طالت بُنية الكلمة بما تعنيهِ من تغايرٍ في المعنى ، عبر ممارسة " الترميم للنصّ " ..؟ مع الإشارة إلى أنّ كلّ كُتب التعليم الدينيّ تقدّم هذه المخطوطة على أنّها نسخةٌ من القرنِ الرابع . ومن المعلوم أنّ تحريفات عدّة وقعت ، وكانت أكثر إتساعاً وتجاوزاً للنصوص والأمانة العلميّة والتجربة التاريخيّة ، وهو ما دعا الكنيسة إلى إتخاذ موقف اتجاه مجموعة من الكتابات لتحديد ما هو الصحيح من غيره وفق معنى اعتقادي متّصل بمفهومِ

فريقٍ ما ، مع انّ عملها كان يفتقر إلى مجموعة من المعايير من المفروض فيها أن تقوم على المضمون لا على الشكل . من هنا فإنّ جماعةً من أرباب العلم كانوا يعترضون على هذا الإنتقاء غير العلمي ، والتفسيرات غير الدقيقة ، بل المشوِّهة في العديد من الأحيان . والأهمّ أن نعلم أنّ تغيير كلمة واحدة من شأنه أن يغيّر النصّ جذريّاً ويقلب الدلالة من وجه النظر اللاهوتيّة . يقول " أ . كولمان " في كتابه (العهد الجديد) فيما خصّ التفاصيل المختلفة :

(إنّه قد تنتج عن أخطاء " غير إراديّةٍ " إمّا أن يكون الناسخُ قد أسقط كلمةً ، وإمّا أن يكون قد كتبها مرّتين متتاليتين ، وإمّا أن يكون قد حذف سهواً جزءاً من الجملة كان موضوعاً في النصّ المطلوب نسخه بين كلمتين متماثلتين . وقد يكون المعنى به أيضاً تصحيحات إراديّة وإمّا الناسخ سمح لنفسه بـ " تصحيح النصّ " حسب أفكارهِ الشخصيّة - وهو الأخطر برأيي - وإمّا " يقلّ أو يزيدُ مهارة " وبتدرّج إنفصال كتابات العهد الجديد عن بقيّة الأدب المسيحيّ البدائيّ لينظر إليها كـ " كتاب مقدّس " إزداد تردّد النسّاخ ، في إجراء مثل هذه التصحيحات التي كان يقوم بها من سلفهم . وبهذا إعتقدوا أنّهم ينقلون النصّ الصحيح ، وبهذا ثبّتوا النقاط التفصيليّة المختلفة أحياناً أخرى يكتب الناسخُ تعليقاً على هامش النصّ ليشرح عبارة مبهمة ، ويأتي الناسخُ التالي ويظنّ أنّ العبارة المكتوبة على هامش النصّ قد سقطت عند ناسخٍ آخر ، ويرى ضرورة إدخال التعليق الهامشيّ على النصّ . وبهذا أحياناً يصبح النصّ الجديد المنقول أكثر غموضاً ..) .

من الواجبِ على كلِّ طالبِ حقيقة أن يتمعّن في هذهِ الشهادة ، لأنّها تختصر جزءاً مهمّاً من الذي أشرنا إليهِ ، وهي شهادة خبرويّة كما ترى ، بعد تجربةٍ وإتّقان .. من الضروري أن نفهم أنّ " أ . كولمان " لم ينطق بهذه العبارات المهمّة جدّاً إلا لأنّه إطّلع ولمس وأيقن كما أيقن غيرهُ أنّ تغيّرات جوهريّة طرأت على المتن الحقيقيّ ، وكان لا بدّ من تبرير هذهِ النتيجة عبر سرد الإحتمالات المتعدّدة التي ساقها في معرض بيان " السببيّة الأوليّة للتحريف " وكيفيّة وقوعه .. ومن مراجعة مجموعة ممّا كُتب سابقاً يظهر أنّ بعض نسّاخ المخطوطات كانوا يسمحون لأنفسهم بحريّات مهمّة مع النصّ ، وهذا أمر خطر للغاية ، لا يمكن تجاوزُهُ .. إنّ من الضروريّ في كلِّ عمليّة من تعليق أو نسخ أو ضمّ أو حذف أن يكون ذلك ضمن إطار ومعايير معيّنة تتوافق وقداسة الكتاب ونسبةِ ما فيهِ إلى المسيحِ على اعتبارِهِ سفيرَ اللهِ إلى أهلِ الأرض ، كان من المفروضِ في هذهِ المعايير أن تُعلن لتسمح لنا عبر الزمن أن نقيم تمييزاً علميّاً لما تمّ فعلهُ من قبل ، لنعرف حقيقة المعيار والغاية والإجراء الذي اعتمد في ظلّ ظرفٍ خصاميٍّ عنيف هنا تكون المحاكمة ليست للنصّ وإنّما للمعيار والإجراءات ، ومن خلال ذلك تظهر حقيقة النصّ الأصليّ أو المتن الأوّل ، وما يليه من ضمّ أو قضمٍ أو تحشّي وبيان وشبه ذلك .. إذاً كيف سيكون أمرُ الباحثِ الذي يصل إلى مجموعة من شهاداتٍ تعترف بإضافات دخلت إلى المتن عبر النصّ غير الأصلي ، عبر النسخ ، عبر إعادة الصياغة ، وأنّ ذلك كان محكوماً بما عليهِ الناسخ من رأيٍ وغاية ومعتقد .. لا شكَّ أنّ الأمر خطر ودقيق في خطورتِهِ .. مع التأكيد على أنّني لا أسردُ ذلك في مطلقه ، بل أشير إلى حقيقةٍ وشهادة تاريخيّة مؤكّدة في هذا المجال وهذا الأمر يثيرُ كلَّ عاقلٍ ومفتّشٍ عن الحقيقةِ ، لأنّه يلفتُ الإنتباه إلى أنّ البشرَ

أدخلوا في المتن والنصّ المكتوبِ في وثيقتهِ الأولى مجموعة من إدخالاتٍ تغييريّة ، أثّرت على حقيقة المعنى ، وأدّت إلى ظهور ما اطلقنا عليهِ بـــ " النصّ غير الكامل " لحذفٍ أو زيادةٍ أو تغيير وشبه ذلك .. وهذا أمر مخيف في تعاملنا مع النصِّ المقدّس ..

لا نقول هذا بهدف الإدانة وإسقاط القيمة الفعليّة للنصّ . بل نقوله لأنّنا نريد بشدّة التفتيش عن الحقيقة عبر الأزمان ، سواء كانت في بطون الرجال ، أو في متون الوثائق . نريدها لأنّنا نؤمن حتماً بأنّ الله بعث المسيح إلى البشر أجمعين رسولاً ومبشّراً ونذيراً . يجب أن نعلم أنّه من الخطأ الكبير أن يكون للناسخ حريّة واسعة دون أيّ ضابطٍ علميّ وشواهد متّصلة بهذا المعنى ورقابة حقيقيّة مجرّدة .. إنَّ هذا ما حصل بالنسبة لناسخ أحد أكثر النصوص إجلالاً بعد النصين المذكورين سابقاً وهو نصّ (ODEX BEZAE CANTABRIGIENSIS) الذي يرجعُ إلى القرن السادس ، فقد لاحظ الناسخُ أنّ الفرق الواضح بين سلسلة نسب المسيح في كلٍّ من إنجيليّ لوقا ومتّى ، لذلك وضع في نسخته لإنجيل لوقا نسب المسيح عند متّى ، ولّما كانت هذه الأخيرة تحتوي على كمٍّ من الأسماء أقلّ من الأولى ، فإنّه قام بتضخيمها بأسماء إضافيّة ، دون أن يقيم توازناً مع ذلك .. وبذلك أصبح القصور البشري دخيلاً في كتابة جزء من المتن الذي نتعامل معهُ من بابِ القداسة .. أمّا السببُ فيه فيكمنُ في الحريّة الواسعة التي أعطيت لبعضِ النسّاخ الذين حذفوا مرّةً ، وأضافوا مرّةً أخرى ، وحوّروا مرّةً ثلاثة ، ويظهر أنَّ بعضهم لم يتعامل مع النصِّ من بابِ قداسةِ ما هو عليهِ ، بل تعامل مع النسخةِ من بابِ حرّيتهِ الواسعة ..

من هنا يحقّ أن نسأل عن شقٍّ أساسيٍّ يتّصل بهذا المعنى وضرورة الوثاقة والقيمة الثبوتيّة : هل الترجمات اللاتينيّة مثل (VULGATE) للقدّيس يرونيمس (القرن الرابع) والترجمة القديمة (VETUS LTALA) والترجمات " السيريانيّة والقبطيّة " هل هي أكثر قدماً من المخطوطات اليونانيّة الأساسيّة .. ؟ هل هي مخطوطات وسيطة ..؟ بمعنى أنّها ربّما تكون قد كُتبت إعتماداً على مخطوطات أكثر قدماً من تلك التي ذكرت وهي غير موجودة ولا أحد يعلم عنها شيئاً ..؟ كيف يمكننا أن نتعامل مع مجموعة من شهاداتٍ تقول بحصولِ مثلِ هذهِ الإضافات في وثائق ما ..؟ لقد استطاع المتخصّصون أن يصنّفوا مجموعة من النصوص .. وحسب " أ . كولمان " يمكن تعريفها حسب التالي :

١.نصّ يقال له " سوريّ " ربّما إنتهت إلى تشكيله أقدم وأغلب النصوص اليونانيّة ، وقد انتشر هذا النصّ إنتشاراً واسعاً في أوروبا إبتداءً من القرن السادس عشر ، بفضل آلة الطباعة ، وهو أسوأ النصوص في رأي المتخصّصين .

٢.نصّ يقال له " غربيّ " بنُسَخِهِ اللاتينيّة القديمة ، وهو نصّ يونانيّ ولاتينيّ في آنٍ واحدٍ ويتّسم هذا النصّ في رأي الترجمة المسكونيّة ، باتّجاه صريح نحو التعليل وعدم الدقّة والإطناب والتوفيق .

٣.نصٌّ يقال له محايد . ينتمي إليه ألـــ (codex vaticanus) و(codex sinaiticus) وهذا النصُّ أكثر نقاءً من غيرِهِ ، وهو الذي تعتمد عليه اليوم طبعات العهد الجديد ، برغم أنّه يحتوي على بعض العيوب (الترجمة المسكونيّة) .

هنا يمكنني أن أختم في نهاية هذا الباب بالقول : إنّ من واجب الباحث عن الحقيقة أن يسعى بشكلٍ ضروريٌّ للكشفِ عنها ، ولو عن طريق " إعادة بناء نصّ " ليتمتّع بأكبر نسبة تقرّبه من النصّ الأصليّ ، الذي ينقل بأمانة رسالة المسيح المبعوث للبشر . وهذا يعني " العودة مرّة ثانية " للتاريخ ، ضمن معايير وموازين أكثر موضوعيّة ، تتسع لأكثر من حقيقة وتقف بشكلٍ علميّ أمام حقائق الأمور الواردة مرّةً في المتنِ أو في وسائطِها أو تلك المتّصلة بقراءة تاريخ التدوين .. بل إلى قراءة تتجاوز الأناجيل الأربعة للأكثر منها من الوثائق الإنجيليّة بحثاً عن الحقيقة أينما كانت مع أنّ إتلاف كميّة هامّة من المخطوطات والرسائل الأخرى تحت عنوان أنّها " مزوّرة " ومن دون حصافة معياريّة أدّى إلى خسارتنا الكثير من الحقيقة التي نفتّش عنها إلا أنّ إعادة بناء الحقيقة غير مستحيل أبداً ..

ويجب أن نعلم أنّ هناك أداة موضوعيّة خاطبنا على أساسها المسيح منها " قوانين اللغة المشتركة بيننا وبينه " والتي إستعملها وظيفيّاً في نقل ما تريد السماء ، ممّا يعني أنّ تفسير المطلوب وإن كان إختصاصيّاً لمن يجيد قواعد اللغة ووظائفها الإستعماليّة ، لكنّه ليس حكراً أبداً على الكنيسة ، لتفسّره كيف شاءت وفق أساليب تناقضيّة مرّةً ، ومرّةً وفق أسلوب إرتجاليّ تبرّعيّ ، من دون شواهد موضوعيّة . ولو كان الأمر علي درجةٍ من اليقين الموحى به من السماء إلى أرباب الكنيسة لما انشقّت واختلف أربابها وتناقضت آراءها بشكلٍ مذهل وخاض بعضُهُم حرباً ضدَّ بعضٍ ، ولما شنَّ بولس حربَ إسقاطٍ على كنيسة الختانِ التي قادها الرسل التلامذة ، ها هي حروب الكنيسة بسببِ الإختلاف العقائدي وما يتّصل بهِ تجسّدت على شكل حربٍ دمويّة هائلةٍ ما زال التاريخ

يؤرّخ لأهوالها .. من الواجبِ على كلّ طالبِ حقيقة أن يضع في قاموسِ دفترِه أنّ هناك تاريخاً وشهادات ومؤشّراتِ وقيمة إثباتيّة ونمطية محدّدة على نحوِ موضوعيّ ، وأنّ التكلّفَ والتبرُّعَ والإفتراض الوهميّ لا يزيدُ إلا خسارة .. من الواجب بشكلٍ نهائيّ أن تجيب الكنيسة عن الأسئلة التالية بشكلٍ يتّصل بنوعٍ من حقيقةٍ مجرّدةٍ ، مرّةً من بابِ القيمة الإثباتيّة ، ومرّةً عن طريق الشهادات التاريخيّة من قَبِيل :

- هل الإنجيل كلام الله (الرب) ..؟
- هل الإنجيل نقل موضوعي تام لأفعال المسيح وتعاليمهِ ..؟
- هل الإنجيل كَتَبَهُ الرسلُ ..؟ وماذا عن الشهادات التاريخيّة التي تثبت أنّه لا كتابات إنجيليّة قبل العام ١٤٠ ميلاديّة ..؟
- هل الإنجيل كتبه شاهد عيان ..؟ أليس من السخافةِ بمكان أن ندلي بمُدَّعىً على نحوٍ من سياقٍ ادبيّ مقابل شهاداتٍ تاريخيّة تثبت أنّ الأناجيل لا وجود لها قبل العام ١٤٠ ميلاديّة ..؟
- هل الإنجيل كتبه آخرون لم يشاهدوا ويعاينوا .. ؟ وإنّما إعتمدوا على التراث الشفهيّ ..؟
- ماذا عن الوثائق الأولى ..؟ لماذا طال بعضها نوع من حذف وإضافات وتغيير ضمن إطار جارح من حريّةٍ واسعةٍ في التبديل عبر طريقة النسخ .. ؟
- هل الإنجيل خالٍ من الشوائب ..؟ لماذا الشوائب طالتهُ في أكثر من عنوانٍ وجهةٍ ومعنى ..؟

- ما هي القيمة الثبوتيّة للنصّ الإنجيليّ ..؟ ربّما السؤال صعب وعسير في مجموعةٍ واضح أنّها تسلّلت إليهِ بشكلٍ قاصر ..؟

- ماذا عن أزمة النصّ المركّب ، الذي يخلط الحوادث ، ويسمّي الأمور بنحوٍ مضطربٍ ، ويخطأ في نسبة الأمور ، فيجمع بين حادثين تحت عنوان حادثٍ واحدٍ في خلطٍ غريبٍ وقصورٍ يدلّ على خطأ الذهن البشري في حياكة بعضِ الأمور ، ويفضح مشكلة نوع من التناقض التكاذبيّ .. ؟

- ماذا عن تاريخ ظهور الكتابة الإنجيليّة ..؟ وهل كانت الكتابات الإنجيليّة أكثر قداسة من التراث الشفهي ..؟ وإذا كان الجواب بالنفي فلماذا ..؟

- لماذا نقلت الأناجيل التي يقال عنها متناسقة نصّ بولس بشكلٍ حرفيٍّ في اكثر من قصّةٍ وكلامٍ ، في حين بولس لم يكن من شاهدي تلك الأحداث ، مثل العشاء الأخير .. فهل بولس هو مصدر الأناجيل .. ؟ ألا يعتبر هذا الأمر غريباً كلّ الغرابة ..؟

- أليس من الغرابة بمكان أن ينصب يسوع تلامذةُ رسُلاً ، وفيهم بطرس ويوحنّا ويعقوب ، ليكونوا الأمناء على التعاليم ، فيعلنهم بولس الذي أسرف في إضطهادهم من قبل يعلنهم كذبة ، ماكرين ، شبه رسل وليسوا بأعمدة ، ويصرّ على مخالفتِهِم ، فيقضي على كنيسة الختان بطريقةٍ وأخرى ثمّ يؤسّس اللاهوت المسيحي بالشكلِ الذي نراهُ اليوم . في حين بطرس هو المعني بقولِ يسوع المسيح على هذهِ الصخرة إبنِ كنيستي ..؟ أي تناقضٍ هذا ، وأيّ نتائج غريبة هذهِ ..؟

- لماذا كلُّ هذا التناقض التكاذبي الموجود بين الأناجيل الأربعة المعتمدة كنسيّاً ، بل في بعضِ الأحيان في نفس الإنجيل الواحد ..؟

- ما هي القيمة الثبوتيّة لصحّة النصّ الموجود بين أيدينا ببعد النظر عن نسبته أو عدم نسبته للمسيح ..؟

- لماذا جرى تعديل النصّ الأوليّ جزئيّاً عبر النسخ والتحبير ..؟

- ما هي قواعد التفسير للنصّ ..؟

- لماذا هذا الإنقلاب الهائل في جوهر المسيح ..؟

- لماذا هذا الإختلاف الهائل في العقائد بين كنائس المسيحيّة ..؟

- لماذا هذا الإضطراب في أكثر من جهةٍ ضمن متنِ الإنجيل ..؟

- كيف نتحرّى عن الحقيقة ..؟

- هل بولس أثّر في متن النصّ عن طريق التفسير والإدخال ..؟ وإعادة تكوينِهِ وبناءِهِ ..؟ لماذا ..؟ هل غيّر وبدّل ..؟ كيف تقرأ التأثّر العميق للكتابات الإنجيليّة بما عليهِ بولس المفروض فيهِ أن يكون في الطرف المقابل وليس على رأس من يؤسّس الاساس اللاهوتي ..

- من هم المفروض فيهم أن يكونوا رُسُلاً وهم التلامذةُ ألـــ ١٢ هل كانوا بنظرِ بولس كذبة ماكرين ..؟ إذاً ماذا عن الأساس اللاهوتي الذي أشيد على يدِ بولس وليس على يدِ بطرس أو يعقوب أو يوحنّا .. فهل في هذا الأمر مفارقة تحتاج إلى التوقّفِ عندها ..؟

- لماذا هناك أزمة عنيفة في معايير التفسير ..؟

- ماذا عن إشكاليّة العلاقة بين متن رسائل بولس ومتن الأناجيل في أكثر من جهة .. ؟

- ما هي سلطة آباء الكنسية وحدودها ولماذا ..؟

- ماذا عن مجموعة التقاليد المقرّة كنسيّاً ، ومدى طاعتها ، وضمن أيّ اعتبار ..؟

- هل لآباء الكنيسة سلطنة ؟ وضمن أيّ حدٍّ ؟ واعتماداً على أيّ معنى ؟ بعد أن أصبح بولس المؤسّس الرئيسي للاهوت المسيحي وليس بطرس أو يعقوب أو جاك ..؟

- هل التفسير والفرض يجب أن يكون أوسع من النصّ ، وهل يجوز تعديل ما ثبت العرف الكنسيّ عليه عبر تشريع الآباء السابقين ، ولماذا الإنجيل يخلو من شريعة ..؟

- ماذا عن المرجع الثقافي الفكري الذي قاد محاكم التفتيش ..؟

- لماذا لم تنظر الكنيسة بموضوعيّة ضروريّةٍ بباقي الوثائق والرسائل بإعتراف أهمّ آبائها وقسيسيها ، بل عمدت إلى إتلافِها بشدّة ..؟

- لماذا الكنيسة لم تستطع بناء عقيدة مشتركة إتفاقيّة تعتمد النصّ التام غير الناقص على نحوٍ مرجعيّ .. ؟

- لماذا انقسم الفكر اللاهوتي إلى نحوين من عدم الإلتزام بشريعةِ موسى كما هي الحالُ في فكر بولس ، وبين ضرورة الإلتزام بشريعةِ موسى وتعاليمِ المسيح كما هي الحالُ في كنيسة الختانِ التي حوت يعقوب وسمعان بطرس ويوحنّا وغيرهم ..

- يجب أن نتذكّر دوماً أنّ بولس (العدوّ اللدود لأتباع المسيح من قبل) حقّق كلَّ تلكَ الإنتصارات ما بين ٤٠ و ٦٧ ميلاديّة .. أي قبل أيّ كتابةٍ إنجيليّةٍ على الإطلاق .. ويجب أن نتذكّر دوماً أنّ بولس هو

المؤسّس الرئيسي للاهوت المسيحي الذي نعرفُهُ اليوم .. وهو الذي أعلن أنّ الرسل أمثال بطرس ويعقوب ويوحنّا هم كذبة ماركين ..؟ فهل في الأمر مفارقة خطرة .. !

إلى كثيرٍ من الأسئلة التي طرحناها في هذا الكتاب وفق نمطٍ دقيقٍ وبيانات داعمة ، تقوم على أسسٍ من حجيّة موضوعيّة ، أرى أنّها تعطيني صدقاً وافياً في موقفي أمام الله تعالى يوم القيامة ، وما قصدي من ذلك كلّه إلا الحقيقة أين كانت ولمن انتمت ..

الأناجيل ومعطيات العلم الحديث

خلال الفترة التي حُرِّرت فيها الكتابات الإنجيليّة لم يكن لها من القداسة مثل الذي كان للتراث الشفهي ، إلى أن أصبحت هذهِ القداسة لازمةً لها في وقتٍ متأخِّرٍ ، خاصّةً بعد أن دعمها نفوذٌ عالٍ ، وفُرِضَت على نحوٍ جبريٍّ تحت عنوانٍ رئيسيٍّ مفادهُ أنَّها هي القانون .. ومنذ ذلك الزمن لم يكن جائزاً أيُّ نقاشٍ بها على الإطلاق ، ولا يصحّ التفتيش عن أصلِها ونمطِ تسجيلِها والتحقّق من ثبوتِها وغير ذلك .. ومع الفترة المتأخّرةِ تمّ فتح ثغرة نقاش في جدارِ المنع ، أصبح الأمر مفتوحاً على نحوٍ متعدّدٍ ، وما إن طلّ موضوع الكشف الكوني حتى بادر بعضُهُم إلى دراسةٍ يحاول من خلالِها معرفة مدى التطابق العلمي الثابت بشكلٍ نهائيّ بين النصّ وما توصّلَ إليهِ العلم في معطياتِهِ .. وهنا لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ الأناجيل تحتوي على مواضيع قليلةٍ من الفقرات التي تستطيع أن تقود إلى مقارنة مع المعطيات العلميّة الثابتة .

أمَّا بالنسبةِ إلى إحياء الموتى وشفاء المرضى ، فهذا من الأمورِ الثابتة وهي من الأمورِ التي أعطاها اللهُ للمسيحِ عليهِ السلام .. وهي دليلٌ إعجازيٌّ على

سفارتِهِ عن اللهِ تعالى ، وهذا ما يوافقهُ القرآنُ بشكلٍ جليٍّ .. لكن في هذا المجال وبعد ثبوت مجموعة من إضافاتٍ وحذفٍ وتغيير في الهيئة مرّة وفي المادّة مرّةً أخرى التي طرأت على النصّ الكامل طَرَحَ أكثر من باحثٍ إشكالاً ضروريًّا حول مدى صحّةِ التوسّعِ في ذلك على يدِ غيرِ المسيحِ عليهِ السلام أو رُسُلِهِ ، أي أولئك الذين هم ليسوا من الرسلِ ، أو الإشارة إلى مواضع ربّما يستحيل الإعتقاد بها من ناحية العلم إلا من بابِ الإعجازِ ، ومن دون أن يثبت لهم هذا النحو من الإعجازِ .. فالقضيّة تتّصل بحقيقةٍ مفادها أنَّ أنبياء اللهِ ورسله لا يمكن أن يقوموا بعملٍ ناقصٍ ولا يمكن أن تكون المعجزة إلا من اللهِ تعالى ، وهو الذي يطوّع الأسباب بيدِ أنبياءِهِ وأولياءِهِ .. من هنا يبرز موضوع رئيسيّ يتعلّق بموضوع العجز والقصور المتني في أكثر من مقامٍ وعنوان ، الذي ينبئ بتسلّل بشري غير معصوم تدخّل بإعادة صياغة النص ولو في جهةٍ محدّدة . والهدف من ذلك الإشارة إلى أنَّ المقدّس فقط هو ما يكون من اللهِ أو من أنبياءِهِ أو أولياءِهِ الذين يصطفيهم ..

ومن ضمن الذين علّقوا على نحوٍ قريبٍ من هذه الدراسة البروفسور موريس بوكاي في كتابه (دراسة الكتب المقدّسة) حيث قال : في هذه الأحداث يتدخّل الله بقدرته ، ولا يدهش المرء ممّا يقدر الله على فعله ، ويبدو للإنسان كمعجزات وإن لم يكن كذلك بالنسبة له ، إنّ هذه الإعتبارات لا تعني بأيّ حال أنّ على المؤمن ألا يتدخّل في شؤون العلم ، فالإيمان بمعجزة إلهيّة والإيمان بالعلم أمران يتّفقان تماماً . فالأولى إلهيّة المستوى . والثانية إنسانيّة المستوى . شخصيّاً ـــ وما زال الكلام لموريس بوكاي ـــ أعتقد عن طيب خاطر أنّ المسيح

قد استطاع أن يشفي الأبرص ولكنّي لا أستطيع أن أقبل بأن يُقال بصحّة وبإلهام الله لنصّ أقرأ فيه أنّ عشرين فقط من الأجيال قد عاشت بين أوّل إنسان وإبراهيم . يقول ذلك لوقا في إنجيله (٣ ، ٢٣ ـ ٢٨) وهو نصّ يقرّر المتن الخاصّ بنفس الموضوع في العهد القديم وأنّه صدر عن الخيال البشريّ .. " ..
موريس بوكاي هنا يريد أن يوحي للقارئ أنّ يدَ البشرِ تدخّلت بشكلٍ مباشرٍ في صياغة بعضِ النصوصِ فأضافت وأنقصت وغيّرت ، من هنا فهو يؤمن بالإعجازِ الصادر عن المسيحِ لكنّه يشكُّ في مجموعةٍ من عناوين أخرى منسوبة زوراً وهي تكشف عن حالِها من خلال القصورِ والتناقض أو مخالفة الواقعِ الحقيقيّ وغير ذلك ممّا لا يمكن أن ينسب إلى اللهِ أو إلى أنبياءِهِ .. وهذا ما كنّا قد اشرنا إليهِ في الفصولِ السابقة ..

وهنا أحبُّ أن أشيرَ إلى موضوعٍ ضروريّ ، وهو أنّ إدّعاء المعجزة دوماً يحتاج إلى إثبات . والإثبات يجب أن يكون مقنعاً ولازِماً ، ولا يجوز أن يكون تبريريّاً أو عاطفيّاً ، لأنّ الموضوع حسّاس جدّاً ، وهو يتعلّق بإدعاء السفارة عن الله تعالى ، ومن يقرأ تاريخ النبيين والظروف التبليغيّة لأوّل لحظة على رؤوس البشر خلال إعلانِهِم أنّهم أنبياء فإنّهم يؤكّدون ذلك وفق معجزة غير مقدورة للبشر بتاتاً ، لتكون دليلاً على أنّ التصرّف بالأشياء على نحوٍ معجزٍ مثل إحياء الموتى وغيرِهِ إنّما هو دليلٌ قاطع على صدق سفارتهم عن الله الذي خلق الكون وما فيهِ .. من هنا فإنّه لا يكفي أن يدّعي بولس أنّه رأى المسيح حين كان قاصداً دمشق لتعذيبِ أتباعِ المسيحيّة فبعثه رسولاً ، ثمّ ليقف ويعلن كذب رسلِ المسيح الذين كانوا معهُ ونشروا تعاليمهُ ، ووصّى بهِمِ على أنّهم الأمناء على ما

جاء بهِ من عند الله ..! وعليهِ : يكون الإحتياط والرويّة والتنبّه والحذر والتحقّق أمراً مطلوباً وضروريّاً ، ويجب أن لا نسمح لأحاسيسنا وعواطفنا أن تتغلّب على منطق عقلنا لأنّ ربّ الكون زرع فينا قدرة عقليّة قادرة على معرفة دعوة النبوّة بشكلٍ دقيقٍ معرفة لا ضلال معها ، إلا إذا كابرنا أمام الحقيقة النيّرة كنور الشمس ... وفي هذا المجال تكونِ المناقشةُ المحترمة موضوعيّة لا ذاتيّة . جديّة لا هزليّة . إستدلاليّة لا تبريريّة . وبهذا لا نكون بحاجة إلى تحشيد مجموعة من مرويّات غير واقعة فعلاً لإثبات نبوّة زيد أو عَمْرٍ من الناس . إنّ المعارف والمعالم وإحياء الموتى عن طريقٍ إعجازيٍّ أمرٌ كافٍ في إظهار السفارة عن الله لأهل الأرض وإنسانِها ، من هنا يجب أن يتّبع العقلاء طرقاً وظيفيّة تتعلّق بمعرفة الحقيقة بعيداً عن الذهنيّة التشكيكيّة لأجل التشكيك فقط ، بل لا بدّ من إتّباع طريق الشكّ العلمي الذي يؤدّي إلى يقين سلبي أو إيجابيّ ..

ولا أخفي أنّني معجب جدّاً بالقواعد التي يقرّها دين تدعو إلى إعمال الرويّة والتثبّت عن منطقٍ وبصيرة وتعقّل لمعرفة الحقيقة وتمثيل الله في الأرض عبر بعثة النبوّة والرسالات السماويّة من خلال قراءات نقديّة دقيقة لكلّ الإدعاءات والدعوات من أجل معرفة من هو الممثّل الحقيقيّ لله ربّ السموات والأرض وخالق الكون . إنّ هذا هو معنى التدبّر الشامل لأوسع من جهة وبيان .. وإنّني وجدت في القرآن الكريم آيةً هي باب وفادة المعرفة التي تتجلّى فيها أعظم الحكم حيث يقول الله تعالى : (أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها) .. حيث تظهر فيها دعوة جليّة جازمة إلى التدبّر والتبيان عن تعقّلٍ ، يكون فيها الحكم للعقل لا لغيره ، لإثبات سفارة الله في أرض البشر . وهي دعوةٌ مارسها القرآن

في كثيرٍ من الآيات من أجل التدبّر بالرسالات الأخرى ودعوى الآخرين طلباً للحقيقة أينما حلّت ولمن انتمت .. بل في الإنجيل دعواتٍ متّفقة وهذا المعنى .. إذاً لماذا هناك مجموعة من ظواهر لها عمقٌ غريب يحتاج إلى تفسيرٍ جارحٍ كما في اتّهام بولس لبطرس ويعقوب ويوحنّا وغيرهم بالكذبِ والمكرِ وهم الذين أوصى بهم المسيحُ رُسُلاً من بعدهِ ، وإذا بنا نتفاجئ بأنّ من أقام الأساس اللاهوتيّ للدينِ المسيحيّ هو بولس وليس بطرس أو يعقوب أو يوحنّا .. ! أليس الأمر غريباً جدًّا ومخيفاً لكلّ صاحبِ عقلٍ ، أو باحثٍ ، أو طالبِ حقيقة ..!

يشهدُ اللهُ تعالى أنّني في مقامِ توجيهيّ ، لا أريدُ عبرهُ إلا الحقيقة ، لأنّ الحقيقة وحدها هي الكفيلة بخلاصِنا من عذابِ اللهِ ، هي وحدها التي تتمُّ بها عبادةُ اللهِ تعالى بإخلاصٍ .. لستُ في مقام طرحِ الشكّ لأهدم ، بل لأقيم بناءً يتّفق وضرورة التفتيش عن الحقيقة .. من هنا تكون قراءتنا العلميّة النقديّة ليست موجّهة على نحوٍ من بذر الشكّ وعبثيّة الغاية ، أبداً ليست في مقام الشكّ من أجل الشكّ ، بل من أجل الوصول إلى الحقيقة (الشكّ العلميّ وفق غاياتِهِ) من أجل الوصول إلى نتيجة سلبيّة أو إيجابيّة في خصوص مناقشة ما لجهة معيّنة أو بابٍ معيّن أو موضوعٍ معيّن .. إنّ من أسوأ الأخطاء التي تنسف الحقيقة وتسقطها كهدف معرفيّ ، التعصّب القَبْليّ والمعاندة والتحوير ، والإنتصار المذهبي أو الديني دون أيّ ركنٍ معرفيّ أو حقيقةٍ ثابتةٍ ، من دون شواهد وحجج بل الإعتماد على بيئة ثقافيّة معيّنة أو أصولٍ سمعيّة فكريّة دون تدبُّرٍ نهائيّ والتعامل معها على أساس أنّها الحقيقة المطلقة وغيرها خطأ نهائيّ .. يجب أن يكون أمام ذهننا دوماً أنّ القراءة الوافية أو السماع الموضوعيّ هو الذي يكون

عن تحقيق ورويّة .. إنّ " البيئة الثقافيّة " التي يعيشها أتباعُ الأديان غالباً وعبر الرعايا تصابُ بنوعٍ من ثقافة غير تامّة وموجّهة بمحاور غير صحيحة ضدّ الأديان الأخرى وذلك لتعلب دوراً وظيفيّاً معرفيّاً برأيهم من أجل تثبيت محيط أولادهم على دين آبائهم ، ممّا يكوّن صورة مشوّهة لا تسمح لهم فيما بعد حتى لقراءة ثقافيّة في كتب الآخرين .. إنّ هذا يعتبر أخطر الحروب الدينيّة غير الموضوعيّة .. من العار على بيئتنا البشريّة أن لا تكون الدراسة المقارنة للأديان دراسة تربويّة موجّهة نحو حدّين وفق طرق مرحليّة . الأولى : نقليّة في صورة إشتراك فكري مع حفظ الخصوصيّة لكلّ دين . والثانية : نقديّة وفق أصول علميّة موضوعيّة يكون فيها الشاهد تأييداً أو نقداً عبر أهل الإختصاص .. من العيب أن يكون الدين عبارة عن ترفٍ فكريٍّ ، ممنوع مجتمعيّاً الوصول إلى حقائقهِ من خلال سدود جبريّة وفق المعنى البيئي (الجبر الإجتماعي) وسط ثقافة تعتبرهُ نموذجاً غير نافع في حياة البشر ، ممّا يسقط الوجهة الموضوعيّة للحلقة المتّصلة بعالم السماء ، في ظلّ قاموسٍ مشهديٍّ ينطق بشدّة بصلته المذهلة بعالم السماء .

ولادة المسيح

تتّفق الأناجيل والقرآن على " أصول المسيح البيولوجيّة " ، وعلى أنّ تكوّنه ونموّه في رحم أمّه قد حدث خارج قوانين الطبيعة المشتركة بين كلّ الكائنات البشريّة ، وذلك عن طريق تطويع الناموس وأنّ الأمر هذا ممكن

وبسيط جدًّا وأنّ خَلْقَ الإنسان أوّلاً من العدم تفسير سهل على إمكانيّة حدوث ذلك للمسيح (ع) ما دام أنّ الأمر يتّصل بالله الذي خلق الكون والكائنات .. إنّ الظاهرة التي تؤدّي إلى ميلاد كائن حيّ دون تدخّل من العنصر المخصّب لذكر تسمّى علميّاً بـــ " التلقيح الذاتيّ " ويمكن ملاحظة التلقيح الذاتي في عالم الحيوان ضمن ظروف وشروط معيّنة وتلك هي حالةُ حشرات متنوّعة ، وبعض اللافقريات وهي تخصّ أيضاً جنس منتقى من الطيور ، ولكنّ هذا الأمر إستثنائيّ جدّاً . وقد أمكن بالتجربة عند بعض الثدييات " أنثى الأرنب مثلاً " الحصول على بداية لتطوّر البويضة إلى حالة جنينيّة ، في مرحلة أوليّة جدّاً ، ومن دون إدخال حيوان منويّ .. وحين يصل الأمر إلى الله فكلّ شيءٍ يصبحُ طيِّعَاً ، فهو خالق الخلق ، وهو المهيمنُ المطلق على كلّ شيئ ، وهو مسبّبُ الأسباب ، وها نحن اليوم نعيش فترةً مختلفة في التناسل البشري من خلال التوالد غير الجنسي عبر تقنيّة الإستنساخ ، وقبيل نهاية العام ٢٠٠٢ أعلنت مجموعة الرائيليين عن ولادة أوّل طفلة مستنسخة أطلق عليها إسم حوّاء (من دون أن تؤكّد هذا الأمر عبر إجراء فحوصات للحمض النووي إلا أنّ التقنية في زمنٍ ما ربّما تصل إلى ذلك حسب ما نرى من تقدّمٍ جبّارٍ في هذا المجال) وقد ناقشنا الإستنساخ بشكلٍ موسّعٍ في كتابنا (الإستنساخ جدل العصر) وحدّدنا هناك الموقف الديني والوضعي على ضوء المعطيات العلميّة والدينيّة .. وما يهمّنا هنا هو أنّ الأناجيل بصورةٍ عامّة تتّفق مع القرآن الكريم في أنّ المسيح خُلِق من غيرِ أب ، ومَثَلُهُ التقريـــبيّ كمثلِ آدم وحوّاء عليهم السلام خلقهما الله من ترابٍ .. ومن الثابت أيضاً في الأناجيل والقرآن باستثناء إنجيل يوحنّا أنّ المسيح ولد من أمّه مريم ، وكانت أمّه عذراء ، ولم تلد أطفالاً غير المسيح . هناك في الأناجيل خلاف

حول العذريّة من جهة وحول إسم مريم من جهةٍ أخرى ، على الأقلّ خلاف مع إنجيل واحد .. ومن البديهيّ جدًّا أنّ ولادة المسيح هذه تمثّل إعجازاً وإستثناءً حقيقيّاً جديراً بالملاحظة ويظهر أنّ هذه الولادة كانت مشهورة جدّاً في لسان ذلك العصر .

شجرة نسب المسيح

يعتبر موضوع نسب المسيح والشجرة المتّصلة بهِ من الأمور اللافتة التي نُوقشت وقد طَرَحَ نسبُ المسيحِ إشكالاً واسعاً بعد أن لاحَظَ المعلّقون شجرتين لنسب المسيح : واحدة يحتوي عليها إنجيل متّى ، والثانية في إنجيل لوقا .. الخلاف واضح بينهما ، ولا يمكن أن يكون هذا الأمر صحيحاً في كليهما ، لأنّ الواحدة تكذّب الأخرى ، وتضع نسباً محدّداً للمسيح .. إذاً ، المشكلة تتعلّق في إيّ شجرةٍ هي الصحيحة ..؟ وتطرح باباً أوسع من ذلك يتمحور حول " شكوك وخطأ " وتسلّل بشري ، وتدخّل إنساني في كتابة مجموعة من متونِ الإنجيل وعلى نحوٍ قاصرٍ غير معرفيّ ، لا يطابق الواقع .. وهذا أمر يهزُّ من كيان القداسة المفروض أن تكون بعيدة عن أيّ خطأ أو قصور في المتون الإنجيليّة .. أكثر من ذلك تؤكّد أنّ التناقض الموجود والذي من مصاديقه " تناقض شجرة نسب المسيح " تسلّل عبرهُ الكاتب البشريّ إلى وضعٍ خاطئ وربّما عن طريق العمد في أكثر من موقعٍ وجهةٍ وزمن ، وكنّا أشرنا إلى ذلك في موضوع إعادة النسخ ، وأنّ خطأ فادحاً يثيرهُ الخطأ أو العمد البشريّ موجود في المتن الإنجيليّ

في حين انّ الإنجيل مفروض القداسة وممنوع من الخطأ ..! إنّ هذه المشكلة تحرج المعلّقين المسيحيين جدّاً ، فهم يرفضون أن يروا فيها ما هو نتاج فعليّ للخيال البشريّ ، أو ما يدلّ على عدم موضوعيّة في أهمّ مفصلٍ يمثّل ركناً من أركان شخصيّة المسيح ، ويعدُّ الباب الأول والنافذة الضروريّة لكلّ قارئ يريد أن يفتح عينيهِ على الأناجيل .. ثمّ هناك مشكلة أخرى تضافُ إلى مشكلة الصحّة ، فشجرة النسبِ تتعرّض أيضاً لما أطلق عليهِ وفق المعطيات العلميّة بالمعقوليّة وفق المعنى الأعمّ ، وهذا أمر جدير بالإهتمامِ أيضاً .. ويرى بعضهم أنّ الخيال الإنسانيّ ألهمَ كُتّاب " سفر التكوين الكهنوتيين " في القرن السادس قبل الميلاد في موضوع أنسال البشر الأوّل ، وهو أيضاً ألهمَ متّى ولوقا بالنسبة إلى ما يستلهمه هذان الكاتبان من العهد القديم .. ومن البديهيّ أنّ نسب المسيح من ناحية الرجال معدوم ، لأنّه وُلِدَ من غيرِ أبٍ .. من هنا فإنّ نسبه سيكون من جهة أمّه مريم عليها السلام .. وإليك نسب المسيح حسب الترجمة المسكونيّة للعهد الجديد حيث يضع متّى شجرة المسيح على رأس إنجيله :

- إبراهيم ولَدَ إسحاق .
- إسحاق ولدَ يعقوب .
- يعقوب ولدَ يهوذا وإخوته .
- فارص وَلَدَ حصرون .
- حصرون وَلَدَ آرام .
- آرام وَلَدَ عمينا داب .
- عمينا داب وَلَدَ نحشون .
- نحشون وَلَدَ سلمون .

- سلمون وَلَدَ بوعز من راحاب

- بوعز وَلَدَ عوبيد من راعوث .

- عوبيد وَلَدَ يسى

- يسى وَلَدَ داود الملك .

- داود الملك وَلَدَ سليمان من التبى لاوريا

- سليمان وَلَدَ رحبعام .

- رحبعام وَلَدَ أبيا

- أبيا وَلَدَ أسا

- أسا وَلَدَ يهوشافاظ

- يهوشافاط وَلَدَ يوارم .

- يورام وَلَدَ عزيا

- عزيا وَلَدَ يوتام .

- يوتام وَلَدَ أجاز .

- أجاز وَلَدَ حزقيا .

- حزقيا وَلَدَ منسى .

- منسى وَلَدَ أمون .

- أمون وَلَدَ يوشيا

- يوشيا وَلَدَ يكنيا وإخوته

ثمّ كان النفي إلى بابل ، وبعد النفي إلى بابل :

- يكنيا وَلَدَ شالتيئيل .

- شالتيئيل وَلَدَ زربّابل

- زر بابل وَلَدَ أبيهود

- أبيهود وَلَدَ الياقيم .

- الياقيم وَلَدَ عازور .

- عازور وَلَدَ صادوق .

- صادوق وَلَدَ أخيم .

- أخيم وَلَدَ اليهود

- اليهود وَلَدَ العازار .

- العازار وَلَدَ متان

- متان وَلَدَ يعقوب .

- يعقوب وَلَدَ يوسف (وهو في المفهوم المسيحيِّ خطيب مريم التي ولد منها عيسى المسيح بإعجازٍ من اللّٰهِ ومن غيرِ زوجٍ) .

وبذلكَ يكونُ العددُ الإجماليُّ للأجيال هو أربَعَةَ عشرَ جِيْلاً (١٤ جيل) من إبراهيم إلى داود ، وأربعة عشرَ جيلاً (١٤ جيل) من داود إلى المنفى بابل . وأربعةَ عشر جيلاً (١٤ جيل) من المنفى بابل حتى المسيح ... أمّا لوقا (٣ ، ٢٣ ، ـ ٢٨) فإنّهُ يعطي المسيحَ نَسَبَاً يختلفَ عن ذلكَ الموجود في إنجيل متّى وهو حسب الترجمة المسكونيّة التالي : لمّا ابتدأ عيسى المسيح كانَ لهُ نَحْو ثلاثين سنَةً وهو على ما يظنُّ :

- إبن يوسف بن هالي . إبن متّتاتِ بن لاوي بن ملكي بن ينّا بن يوسف ، بن متاثيا بن عاموص بن ناحوم بن حِسلي بن ناجي بن ماث بن متاثيا بن شمعي بن يوسف بن يهوذا بن يوحنّا بن ريسا إبن زربابل بن شالتيئل بن نيري بن ملكي بن إدي بن قصم بن الموادم بن

عير ، بن موسى إبن اليعازر بن يوريم بن متثاتِ بن لاوي ، بن شمعون بن يهوذا بن يوسف بن يونان إبن إلياقيم ، بن مليا بن مينان بن متاثا بن ناثان بن داود بن يسى بن عوبيد بن بوعز بن شالح بن نخشو بن عميناراب بن أدمنى بن عرنى بن حصرون بن فارص إبن يهوذا ، بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم بن تارح بن ناحور ، بن سروح بن رعو بن فالح بن عابر بن شالح ، بن قينان بن أرفشار بن سام بن نوح بن لامك ، بن متوشالح بن أخنوخ بن يارد بن مهللئيل بن قينان بن أنوش بن شيت بن آدم بن الله .

وتزداد هذه الأنساب وضوحاً بوضعها في جدولين يعرض أوّلهما أنساب المسيح قبل داود ، والآخر يعرض أنسابه بعد داود :

نسب المسيح قبل داود

تجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ متّى لا يذكر أيّ إسم قبل إبراهيم .

حسب إنجيل لوقا

١_ آدم .

٢_ شيت .

٣- أندش .

٤_ قينان .

٥_ مهلئيل .

٦_ يارد

٧_ أخنوخ

٨_ متوشالح .

٩_ لامك .

١٠_ نوح

١١_ سام .

١٢_ أرفكشاد

١٣_ قينان .

١٤_ شالح .

١٥_ عابر .

١٦_ فالج

١٧_ راعو .

١٨_ سروح .

١٩_ ناحور .

٢٠_ تارح .

٢١_ إبراهيم .

٢٢_ إسحاق .

٢٣_ يعقوب

٢٤_ يهوذا

٢٥_ فارص .

٢٦_ حصرون .

٢٧_ عرنى

٢٨_ أدمنى .

٢٩_ غمينا داب .

٣٠_ نحشون

٣١_ شالح

٣٢_ بوعز

٣٣_ عوبيد

٣٤_ يسى

٣٥_ داود

– نسب المسيح بعد داود

٣٦_ ناتان

٣٧_ متاتا

٣٨_ منا

٣٩_ مليا

٤٠_ ألياقيم .

٤١_ يونان .

٤٢_ يوسف .

٤٣_ يهوذا

٤٤_ شمعون .

٤٥_ لاوى

٤٦_ متات

٤٧_ يوريوم

٤٨_ عازر

٤٩_ يوسى .

٥٠_ عير .

٥١_ المودام .

٥٢_ قوسام .

٥٣_ آدى .

٥٤_ ملكى .

٥٥_ نيرى .

٥٦_ شالتئيل .

٥٧_ زربابل .

٥٨_ ريسا

٥٩_ يوحنّا

٦٠_ يهوذا

٦١_ يوسف .

٦٢_ شمعى .

٦٣_ متتبا

٦٤_ مآت .

٦٥_ نجاى .

٦٦_ حسلى .

٦٧_ ناحوم .

٦٨_ عاموس .

٦٩_ متتيا

٧٠_ يوسف .

٧١_ ينا

٧٢_ ملكى .

٧٣_ لاوى .

٧٤_ متات .

٧٥_ عالى

٧٦_ يوسف

٧٧_ عيسى

حسب إنجيل متى:

أوّلاً : متّى لا يذكر أيّ إسمٍ قبل إبراهيم .

١.إبراهيم .

٢.إسحق .

٣.يعقوب .

٤.يهوذا

٥.فارص

٦.حصرون

٧.آرام .

٨.عمينا داب .

٩.معشون .

١٠.سليمان

١١.بوعز .

١٢.عبيد .

١٣.يسى

١٤.داود .

_ نسب المسيح بعد داود

١٥.سليمان

١٦.رحبعام .

١٧.أبيا

١٨.أسا

١٩.بوشافاط

٢٠.بورام

٢١.عزيا

٢٢.يوتام

٢٣.أجاز .

٢٤.حزقيا

٢٥.منسى

٢٦.أمون .

٢٧.يوشيا

٢٨.يكنيا .

- النفي إلى بابل

٢٩.شالتئيل .

٣٠.زربابل .

٣١.أبيهود

٣٢.ألياقيم

٣٣.عازور .

٣٤.صادوق .

٣٥.أكيم

٣٦.اليهود

٣٧.العازر .

٣٨.متان .

٣٩.يعقوب .

٤٠.يوسف

٤١.عيسى .

أمام هذا الواقعِ كان لا بدَّ من الإشارة إلى أكثر من ملاحظة ببعد النظرِ عن الأخطاء الإملائيّة ، منها :

- بالنسبة إلى إنجيل لوقا . فقبل إبراهيم يذكر لوقا عشرين إسماً ، أمّا العهد القديم فهو لا يذكر إلا تسعة عشر إسماً فقط ، وقد أضاف لوقا بعد أرفكشاد رقم ١٢ رجلاً يدعى كاينام رقم ١٣ ، وهذا ليس لهُ أيّ أثر في سفر التكوين ، بإعتباره إبن أرفكشاد .

- من إبراهيم إلى داود نجد عدداً بين ١٤ و ١٦ إسماً وذلك حسب المخطوطات .

- يضاف إلى ذلك مشكلة زيادة ٩ أسماء عند متّى ، من داود إلى المسيح ، وبهذا لم تعد المقارنة ممكنة .

تمعّن وملاحظة في النصوص :

- من آدم إلى إبراهيم .
- من إبراهيم إلى داود .

- من داود إلى المسيح .

أولاً : بخصوص فترة آدم إلى إبراهيم .

متّى يبدأ شجرة نسب المسيح بإبراهيم ، ولوقا فقط هو الذي يعطي معلومات عن أسلاف إبراهيم حتى آدم ، وهو يعطي عشرين إسماً يوجد منها ١٩ إسماً في سفر التكوين (الإصحاحات ٤ و ٥ و ١١) المشكلة : هل يمكن تصوّر أنّه لم يكن هناك إلا ١٩ أو ٢٠ جيلاً من البشريّة قبل إبراهيم ..! سؤال لا بدَّ من الإجابةِ عنه ..؟ وإذا رجع القارئ إلى جدول أنسال آدم حسب سفر التكوين والذي يحتوي على الإحداثيات الحسابيّة الزمنيّة التي يمكن إستنتاجها من نصّ التوراة ، فسيجد أنّه قد مرّ حوالي ١٩ قرناً فيما بين ظهور الإنسان على الأرض وميلاد إبراهيم . المتخصّصون يقدّرون حاليّاً أنّ إبراهيم كان يعيش في عام ١٨٥٠ قبل الميلاد تقريباً ، وبذلك يُستنتج أنّ الإحداثيّات التي يعطيها سفر التكوين تحدّد ظهور الإنسان بحوالي ٣٨ قرناً قبل المسيح .. من هنا فإنّ معطيات العهد القديم أضحت غير مقبولة في عصرنا ، بل توضع في خانة المغلوطات والبطلان الذي تحدّث عنه مجمع الفاتيكان الثاني . وقد أدرك المعلّقون أزمة واضحة تتّصل بالنتيجة العامّة المتعلّقة بالأناجيل بصورةٍ عامّة ، وأنّ بعضاً من الكتّاب حَذَفَ ، وبعضاً خلق أسماءً وهميّة ممّا يدل على عدم تماميّة الأمر هنا ، بل يدلّ على أنّ " يد البشر " لم تكن أمينة أو قادرة لسببٍ ما على نقل صورة موضوعيّة في ميادين محدّدة وواضحة من كتابة الأناجيل .. ممّا يسقطها عن موازين العصمة الشاملة التي تريد الكنسية أن تصف أناجيلها بها فهي ليس تمام الحقيقة بل ليست كلّ النصّ وفيها نوع من إدخالاتٍ بشريّةٍ مغلوطة وهذا يعني

أنّ الحقيقة شُوهت بأكثر من موقعٍ ومعنى .. إذن الحقيقة ناقصة وهذا أمر باتت تعترف بهِ الكنيسة ولا يكفي أن تكون الحقيقةُ ناقصة ، بل هناك بعض ما ورد متناقض ، ويكذّبُ بعضُهُ بعضاً ، ممّا يعني أنّ بعضَ ما ورد في الأناجيل مضطرب وفيه دلالة على تسلّل بشري خاطئ ، وهذا يعني أنّ كلّ ما ورد لا يعني أنّه صحيح بل فيه أخطاء .. من هنا كان لا بدّ من قراءة جدّاً مختلفة من أجل بيان الحقيقة ونصيبها على الأقل مع الإحتفاظ بما أشرت إليه سابقاً من أزمة إتلاف لجزءٍ من الحقيقة ، وما ورد من خلافات تفسيريّة إنعكست على مجموعة فكريّة ونصيّة أخرى ، فضلاً عن التركيز الضروريّ على أنّ الذي بين أيدينا من الأساس اللاهوتيّ هو مبني على يديّ بولس وليس عبر بطرس أو يعقوب أو يوحنّا بعد أن شنّ عليهم بولس حربَ إلغاءٍ وإسقاطٍ .. وهذا الأمر ظلّ مشكلةً جاثمةً وصعبةً وعسيرة بكلّ ما للكلمةِ من معنى ..

الفترة من إبراهيم إلى داود

هنا تتّفق شجرتا النسب أو تكاد بفرق إسم أو إسمين وقد يكون الخطأُ هنا بسبب النسخ وأسباب غير إراديّة .. إنّ التاريخ يحدّد عصر داود حوالي عام ١٠٠٠ قبل الميلاد ، وعصر إبراهيم تقريباً حوالي : ١٨٥٠ ــ ١٨٠٠ قبل الميلاد أي ١٤ أو ١٦ جيلاً لثمانية قرون تقريباً ، وهذا الأمر وفق المعطيات العلمية اليوم يعتبر غير معقول ، ومع هذا نقول بانّ كلّ خلافٍ مع معطيات العلمِ لا بدَّ فيهِ أولاً من ثبات المعطيات بشكلٍ نهائيّ ، وإلا فإنّ الردَّ على المتن الإنجيليّ لا

يكون سليماً .. لكنَّ الخلل يكون مرّة في سرد الشجرة ومرّة في الأسماء ، وثالثةً في الطبقات الزمنيّة ، كلٌّ هذا يؤثّر على طبيعة التأييد الإنجيليّ في ظلّ صورة واضحة عن تسلّل اليد البشر إلى المتن بشكلٍ خاطئ ..

الفترة التالية لداود :

هنا النصوص لا تتّفق بتاتاً في تحديد السلف أي سلف المسيح ، وتحتوي شجرة نسب المسيح عند لوقا على ٤٢ إسماً بعد داود (رقم ٣٥) حتى المسيح رقم (٧٧) أمّا إنجيل متّى فيشير إلى ٢٧ إسماً بعد داود (رقم ١٤) وحتى المسيح رقم (٤١) إذن فعدد أسلاف المسيح الإفتراضيين بعد داود مختلف في الإنجيلين يضاف إلى ذلك أنّ الأسماء نفسها مختلفة .. إذاً هذا معنى آخر من معاني التشويه وخطورته ، التي تعكس أزمة تسجيل فعلي بخصوص الحدث الواقعي لسببٍ ما .. يقول متّى انّه اكتشف أنّ أسلاف المسيح ينقسمون إبتداءً من إبراهيم إلى ثلاث مجموعات ، يحتوي كلٌّ منها على ١٤ إسماً : المجموعة الأولى من إبراهيم إلى داود . والمجموعة الثانية من داود إلى المنفى إلى بابل . والمجموعة الثالثة من النفي إلى بابل حتى المسيح . ويحتوي نصّ متى فعلاً على ١٤ إسماً في كلٍّ من المجموعتين الأولِيين ولكن المجموعة الثالثة من النفي إلى بابل إلى المسيح لا تحتوي إلا على ١٣ إسماً كما كان ينتظر . فالجدول يشير إلى أنّ رقم شالتئيل هو ٢٩ والمسيح ٤١ وليست هناك أيّ نسخةٍ مختلفة أخرى لمتّى تحتوي على ١٤ إسماً في هذه المجموعة ..[1] وحتى ينجح متّى في إدخال ١٤ إسماً في مجموعته الثانية

---

[1] تعامل موريس بوكاي معها بشكلٍ بحثيّ جيّد في كتابِه " دراسة في الكتب المقدسة " ..

فإنّه تصرّف بحريّة شديدة مع نصّ العهد القديم وتتّفق الأسلاف الستّة الأولى لداود (من ١٥ إلى ٢٠) مع معطيات العهد القديم لكنّ متّى يغفل أنسال يورام (رقم ٢٠) الذين تقول لنا أخبار الأيام الثاني أنّهم أخاذياس ويواس وأماسيا . ويضاف إلى ذلك أن " يكنيا " رقم ٢٨ هو إبن يوشيا رقم ٢٧ في حين يقول لنا كتاب الملوك الثاني إنّه الياقيم ومكانه بين يوشيا ويكنيا .. بعد هذا يثبت أنّ متّى قد عدّل في تسلسل النسب في العهد القديم لكي يقدّم مجموعة مركبّة من ١٤ إسماً بين داود والنفي إلى بابل . وهذا الإستنتاج خطير جدّاً . إنّه يدلّ على حريّة في تجاوز النصّ ومعانيه ، إنّه يدلّ على نسخ شخصيّ وإملاءات شخصيّة . وهذا حسب من يرون أنّ الحقيقة موضوعيّة وأنّ الكتابة هي نقل تام وتصوير للواقع وأمانة من دون زيادة أو نقصان هو عبارة عن تحريف وتزوير للحقيقة ..! وهو خطير جدّاً . لأنّه يدلّ على أنّ من يحرّر النصّ يختلق ، ممّا يسقط الشرط الأساسيّ في الصدق والأخذ عن الكاتب والكتاب ، مع أنّه مفروض فيه بشكلٍ أوليّ أنّه ثقة وأنّه ينقل بأمانة وموضوعيّة وتتعامل معه الكنيسة على أنّه موثوق النقل والتصوير للواقع المسموع على الأقلّ فضلاً عن الواقع المرئي ... وهذه النتائج كما ترى تؤدّي إلى ضربة حادّة ، ليس قياساً على مذهبيّة معيّنة ، إنّما قياساً على الموثقيّة النوعيّة العامّة عند العقلاء .. وهي شرط وساطة ضروريّ من أجل الإطمئنان والثقة بالمنقول أو المكتوب . ويصمت المعلّقون تماماً أمام هذا الموضوع الذي يعتبر فعلاً مريباً ، وقد قطع " و . ترلنج " هذا الصمت في كتابه (إنجيل متّى) بسطرٍ واحد ..!

هنا يكمن السؤال عن طبيعة تسجيل المعلومات .. ؟

- كيف ؟
- وضمن إيّ إطار ؟
- ما هي الضوابط ..؟
- لماذا كلُّ هذهِ الأخطاء ..؟
- لماذا هذا الإضطراب في كُتُبٍ مفروض فيها أن تكون مسجّلة على نحوٍ من دقّةٍ عاليةٍ ، نهائيّةٍ ، لا يجوز فيها الإختلاف في نقطةٍ فضلاً عن حرف أو كلمة ..؟

كلّ هذهِ الأسئلة تبقى محيّرة فعلاً ، ولا تجد لها جواباً شافياً ..

تعليق ومناقشة :

يُعلّقُ مجموعة ممّن قرءوا الأناجيل على عناصر ومواضيع مهمّة ممّا تحتويه هذه الأناجيل وعلى عددٍ هامٍّ من الروايات التي تسرد أحداثاً قد تكون مذكورة في إنجيلٍ واحدٍ فقط أو تُذكر في عدّة أناجيل أو فيها كلّها .. وهذهِ تعني إختلافاً مصدريّاً مرّةً ، وقصوراً في تسجيل الحقيقةِ مرّةً أخرى .. فضلاً عن لسان المتن الذي يكذّب متناً آخر بسبب الإختلاف التناقضي بينهما .. الأمثلة عن القصور والإضطراب والنقص والزيادة وتسجيل جزء الحدث والإضافات عديدة ، منها على سبيل المثال " صعود المسيح " إلى السماء ، يضاف إلى ذلك أنّ كثيراً من الأحداث مسرود بشكلٍ مختلفٍ ، وأحياناً بشكلٍ مختلفٍ جدّاً لدى إثنين من المبشِّرينَ ، وكثيراً ما يندهش المسيحيّون عندما يكتشفون وجود هذه التناقضات بين الأناجيل لأنّهم سمعوا ممّن هو خبير بقراءها أنّ هذه الأناجيل كتبها شهود

أمناء قادرون عارفون عاينوا ما كتبوا ، وهم تلامذة المسيحِ وأمناؤُهُ ، وهم الذين كانوا في دائرة الحدث ، ممّا ينفي إمكانيّة الخطأ عمليّاً فيها ويساعد على بلورة وسيطة أمينة في تحديد نتيجة مفادها أنّ ما نقرأهُ هو إمّا كلام المسيحِ أو فعله من دون أن يزحف الشكّ إلى نصٍّ من النصوص .. من هنا كان من الطبيعيّ جدّاً أن ينشأ مذهب كنسيّ يقول : بممنوعيّة القراءة والإستلهام والمعرفة والفهم على أساس من المعاني الحرفيّة الواردة في الإنجيل ، لأنّ هناك أموراً تحتاج إلى فرضٍ مختلفٍ في تفسيرها ، لأنّ التعامل الحرفي مع الجملِ يمكن أن يؤدّي بالظاهرِ إلى تباين وقصور واضطراب .. والأخطر منه طريقة الإستنباط العرفيّ الأوسع من فهم المعاني الحرفيّة وفق عمليّة تحديد المعاني على مقاييس من قواعد إستظهار الكلام الذي يعتمد على أسسٍ إستعماليّة لغويّة هي عمدة بيان أهل العرف والعقلاء ، وهي الطريقة الوسيطة في إستعمال أهل الدنيا وحكمائِهم .. كما أنّه من الطبيعيّ جدّاً أن يزحف إلى الوجود عبر التاريخ مذهب قواعديّ يقوم على أساسٍ من الفرض والتأويل . وهذا أمرٌ طبيعيّ وضروريّ لأنّ اللغة في إفادة المعنى تقوم على ركنيّ الوضع والإستعمال .. لكن أن يصل التأويل إلى درجة يضرب فيها أسس التأويل ، ويتجاوز شروطه ، ويقوم على أسسٍ من فرض بيان ذاتي بدلاً من البيان الموضوعيّ الذي يحكم " اللسان الإستعماليّ " والذهن المتلقّي وهما ركنان أساسيّان موضوعيّان في عمليّة نقل المعاني والمعارف والعلوم بأمانة كما أرادها قائلها أو ناقلها ، فإنّ الأمر هنا خطير جدّاً .. لأنّ هذه الطريقة تضرب أصل نظام التواصل اللغويّ الموضوعي ، وتمنع قيام أيّ أمانة في نقل الحادثِ أو الفعل فيشيع الوهم بشكلٍ قاتل .. هذهِ الطريقة بنظرِ كلّ عقلاء الدنيا مرفوضة بتاتاً في أيّ كلامٍ أو كتابةٍ أو تفسير .. فكيف هي الحال إذا كانت تتعلّق بنقل

الحقيقة التي تريدها السماء ، سواء كانت في التوراة أو الإنجيل أو القرآن ..؟ وللتذكير فإنّ الأنبياء نقلوا المعارف المرادة من السماء عبر الأنظمة " اللغويّة الإستعماليّة " والطريقة المشهورة والراسخة في ذهن العامّة على اعتبارِ أنّها وسيط في نقل المعاني والمطالب المرادة ، ومن دون أيِّ تكلُّفٍ .. وعليه : لا يجوز أن يفسّر الكلام أو الكتابة إلا بهذا المقدار من القواعد والقوانين الذهنيّة النظاميّة اللغويّة الإستعماليّة .. من هنا : سيكون أمام القارئ أزمة حقيقيّة صعبة تتعلّق بأصل النظرة إلى النصّ " صحّة وخطأً " ، وإلى الكاتب نفسه :

- من هو ..؟
- كيف نقل ..؟
- على ماذا إعتمد ..؟
- هل صحيح أنّه غير معاين ..؟
- لماذا هذا التناقض الصارخ ..؟
- هل صحيح أنّ زيادةً واضحةً شخصيّة فرضيّة وليست نقليّة سجّلها بحريّةٍ ذاتيّة ..؟ لماذا ..!
- ماذا عن إتلاف وثائق مهمّة جدّاً من الكتابات التي تتعلق بتعاليم المسيح ..؟ على الأقلّ في بعضها ..؟ بعضهم يشهد بأهمّيتها جدًّا وبعضهم من صلب الكنيسة ..؟
- هل للعداوة الخطيرة بين أرباب الكنيسة والأسس النظاميّة السلطويّة وذاتيّة الأشخاص دور في نقل الحرف والكلمة والعقيدة عبر مجموعة من الكتابات التي ساهمت في تشويهِ الحقيقة التي جاءت من السماء ..؟ شواهد هذا التشكيك كبيرة وجليّة وواضحة .. ماذا نصنع ؟ وماذا يجب

أن نعمل ، هل يجب أن نعيد قراءة الأساس التوثيقيّ ، وأن نعود إلى ما بين ٤٠ و ٦٧ ميلاديّة لقراءة فكر بولس وانتصارِه على بطرس ويعقوب ويوحنّا الذين اتّهمهم بالكذبة والماركين ..؟ أليس الأمر خطيراً ..!

لا شكَّ أنَّ الكنيسة في وضعٍ غير مريح أبداً ، وهي تحتاجُ إلى خطوةٍ جبّارةٍ من أجل إعادة بناء الحقيقة ، وهذا أمر نهائي لا بدَّ منه .. من الطبيعيّ أن لا تكتفي الكنيسة بنمطٍ واحدٍ فتتعرّج في أكثر من مذهبٍ وصورة ، مرّةً تعتمد أُسُسَاً إقناعيّة تتمحور حول شكليّة القراءة ومنعِها ، ومرّة حول الفرض والتأويل إلى حدودٍ غير معقولة من خلال إضفاء نوع تبرّعي من خارجِ الحرف والكلمةِ والجملة ، وثالثةً تعتمد إشارة تصرّ فيها على أنَّ الكافي هو جوهر الحقيقة ، في حين أنَّ الجوهر تعكسُهُ أزمة النصّ المجتزء والمركّب في بعضِ الأحيان والمضطرب في بعضِ المتون والمتناقض في صورةٍ مربكة .. فأيّ جوهرٍ بعد هذا ..! هل هناك جوهر منقول لا تؤثّر عليه كلّ هذه المشكلات الحرفيّة الصياغيّة الخطرة ..؟ في حين لا يجوز لطالبِ الحقيقة أن يطلبها بأدواتٍ أو أنماطٍ غير علميّة .. ومعلوم أنَّ إعادة صياغة الحرف والكلمة بحريّة ذاتيّةٍ ووفقاً لما عليهِ إملاءاتُ الإعتقاد من شأنه قلب الطاولة والدخول في مرحلةٍ من التزوير المميت . بل إنّ للتفسير خطراً كبيراً جدّاً من شأنه أن يؤثّر على فهم المعاني ، خاصّة من ذوي القدرة على التأويل وفرض الإعتبارات على نسقٍ وأسسٍ لا تقبلها النظم اللغويّة الإستعماليّة الوسيطة في نقل العلوم والمعارف وذلك عبر مجموعة من الزخرفات التي تخفى على غير الخبير .. لقد قرأت مجموعة من دراسات نقديّة ، تعترف بالأمر المربك هذا ، لكنّها تشير إلى أنّه ليس فيه كلُّ الخطورة لأنّ جوهر الحقيقة موجود ..!

والفرض والتأويل لا يغيّر منها شيئاً ما دام أنّ أصل الإيمان بالربّ موجود .. وهذا الكلام خطير جدّاً لأنّنا نشكّ في مقادير ما وصلنا ، في سعة الحقيقة وضيقِها ، في مجموعة من متونٍ مركّبةٍ ، في مجموعةٍ متناقضة ، في أخطاءٍ حادّة حتىّ في شجرة النسب ، شكٌّ واسع ، متعدّد ، في حين نعلم أنّ من أقام الأساس اللاهوتيّ المسيحيّ هو بولس وليس بطرس أو يعقوب أو يوحنّا .. لا شكّ أنّ الأمر هنا أخطر من كلّ شيءٍ ، خاصّة أنّ الكتابات الإنجيليّة جاءت بعد زمنٍ واضحٍ من إنتصاراتٍ بولس على الرسلِ الذين أوصى بهِم المسيح ، والذين أصرّ بولس على أنّهم كذبة ماكرون ..! إنّ ذلك أدى إلى انقلاباتٍ خطيرةٍ حتى في جوهرِ الإعتقاد ومن أمثلةِ ذلك الإنقلاب الكبير (الذي أصرَّ عليه بولس في وجه تعاليم بطرس ويعقوب ويوحنّا) مصرّاً على أنّ المسيح هو "إلهٌ أزليٌّ من إلهٍ أزليّ" (هذهِ عقيدة بولس وليس بطرس أو يعقوب أو يوحنّا رسل المسيح) وقد استطاع أن يدخل ذلك إلى صلب الإعتقاد وأقام عليهِ اللاهوت المسيحي .. فأيّ حقيقةٍ ثبتت بعد ذلك ..! الخلاف وصل إلى حدِّ الشكّ في ذات وجوهر يسوع المسيح .. ! هل هو لاهوتيّ أم ناسوتيّ ، هل يسوع بشر أم إله ..! وقد إنقسم المسيحيّون إلى فرقتين عقائديّتين وتطوّر الخلاف وتوسّع ليشمل مجموعة أساسيّة من المعارف والمعارف المتناقضة بل إلى حدّ إتلاف وثائق في غاية الأهميّة عبر الكنيسة وأربابها ممّا يعكس ظلال أزمة أكبر ذات خطورة بالغة على مستوى أصل المنقول إلينا .. وكلّ هذا الإنقلاب العقائدي حصل على يدِ بولس وليس على يدي أيّ واحدٍ من الرسلِ المفترضين حسب متون الإنجيلِ أو التلامذة الذين كانوا وعاء تعاليمِ المسيحِ عليهِ السلام .. وقياساً على النباهة العقليّة وما تعنيه فإنّ أقلّ الوعي هو " الإحتياط في القناعة " الإحتياط في فهم الأمور ، الإحتياط

في الطريقة نفسها والنصّ نفسه ، الذي من واجبه دفع الفرد نحو التفتيش والبحث والدخول في باب عدم التسليم والمناقشة فيما يُعتبر " يقينيّات " ضمن حدود الإمكانِ ووفقاً لـــ " مقاييس ومعايير موضوعيّة " لأنّها السبيل الوحيد الذي من شأنه أن يؤدّي إلى نتائج مرضية على صعيد الذات ومشوارِها الوجوديّ ..

وتجدرُ الإشارةُ إلى أنّ الثقافة كسبيّة والإعتقادات الدينيّة والوضعيّة كسبيّة (ببعد النظر عن دينِ الفطرة وبعثة النبيين والأوصياء) وأنّ طبيعة الأفراد لا تستهجن ما تأخذ من بيئتها ، وعلى المدّة يصبح " يقيناً " ممنوعاً من النقاشِ والتشكيك خاصّةً في الأمورِ الدينيّة مع أنّ القضيّة تتعلّق بـــ " حقيقة " المعرفة باللهِ ومعرفة الديانة التي تمثّل وحي اللهِ وخطابَه . وهذا أمر ضروريّ للغاية .. المشكلة أنّ " التقليد الثقافي الدينيّ " محاط بمجموعة من مؤثّرات نفسيّة إجتماعيّة وبيئيّة حادّة تمنع التوغّل في فهم الأمور وطرح مجموعة من المناقشات على قاعدة " منهج تشكيكيّ علمي " هدفه الحقيقة مهما حصل ضمن القواعد المنتجة وصولاً إلى نتائج معرفيّة ، وبديهيّ أنّ من يوصد الباب أمام واقعٍ ضروريّ في قضيّة المسيرة نحو الحقيقة ، إنّما يؤثّر في صناعة الذات بشكلٍ سليمٍ ، وربّما الجماعات والمجتمع والأقطار .. نعم من لا يستطيع أن يهضم الأبحاث لا يكونُ من أهل الإختصاص ولا من الأشخاص الذين يشكّلون عناصر الجدال العلميّ ولا هم مطالبون بما يُطلبُ من أهلِ القدرةِ بخصوصِ تبديدِ الوهم وإبطال الظنّ . المشكلة هي أنّ من يملك القدرة على تبديد الشبهات لا يبذل قدراً مستطاعاً من أجلِ ذلك ..

لقد اتّفقت البشريّة بنحوٍ أوليٍّ من بُنَاهَا الفكريّة على أنّ الحقيقة ضالّة بني النّاس .. إنّها عنوان الغاية التي تتمحور حولها كلّ أهداف الأفراد والجماعات .. لكنّ الكثير من الفئات إدّعت الحقيقة المطلقة لنفسها وطوّرتها إلى مستوىً ممنوع من النقاش ، من خلال سياج ثقافي بيئي قصصي ونفسي ، يعتمد الدعاية وربّما الوهم كعنوانٍ مانعٍ من أيٍّ تأثيرٍ خارجيّ .. وهذا يجافي الحقيقة التي تعتبر ملكاً لكلّ أفراد النوعِ البشريّ .. إنّنا حين نريد أن نناقش مجموعة ميثاقيّة دينيّة أو وضعيّة لا بدّ من ترتيب الأمور على الشكل التالي :

١. لمن الوثيقة ..؟
٢. وما هي حقيقة نسبة الوثيقة إلى صاحبها ..؟
٣. كيف نقلت ووصلت ..؟
٤. من نقلها . وما هي هويّته ..؟
٥. ما هي الظروف والبيئة للمنشئات العقائديّة والفكريّة التي تتعلّق بتفسيرات الرسالةِ وشبه ذلك ..؟
٦. وعلى سبيلِ المثال وفي خصوصِ ما نحنُ فيهِ من مناقشة الأناجيل ، يطرح عنصر جوِّ الصراع كنقطة ضروريّة ، فبعض النصوصِ التي نملكها اليوم كانت قد أبصرت النور في عام ٧٠ ميلاديّة ، بعد تعديلاتٍ طرأت على المصادر ، وهي الفترة التي كانت الجماعتان المتنافستان في أوجِ صراعِهما ، وكانت السيادة في ذلك الوضع لليهود المسيحيين ، إلا أنّ الموقف إنقلب تماماً بسبب حرب السبعين وسقوط القدس .. وإلى أسباب الإنهيار يشير الكاردينال دانيلو فيقول : .. لمّا كان اليهود

منبوذين في الإمبراطوريّة ، فقد نحا المسيحيّون إلى الإنفصال عنهم ، عندئذٍ ساد المسيحيّون الهللينستكيون . لقد حاز بولس على النصرِ بعد وفاتهِ . وبهذا انفصلت المسيحيّة إجتماعيًّاً وسياسيًّاً عن اليهوديّة لتكوِّن ما يعرف بالشعبِ الثالث . برغم ذلك وحتى آخر التمرّد اليهودي عام ١٤٠ ميلاديّة كانت اليهوديّة المسيحيّة سائدة ثقافيًّاً ..) ومن عام ٧٠ ميلاديّة وحتى فترة ١٤٠ ميلاديّة كانت تتحضّر مجموعة وثائق ستشكّل فيما بعد الأناجيل المعترف بها كنسيًّاً ، إلا أنَّ رسائل بولس كانت سبّاقة عليها زماناً وانتشاراً .. وهنا لا بدَّ من استحضار بولس على اعتبارِ أنّه الوجه الأكثر موضعاً للنقاشِ ، حتى أنَّ " كنيسة الختان " أصرّت على " خيانةِ بولس " وهي التي أعلنت ضرورة الجمع بين تعاليم يسوع المسيح وشريعةِ موسى كشرطٍ لازمٍ للإيمانِ والإلتزامِ بخلافِ بولس (الخصم العنيد لأتباع المسيح والذي ادّعى أنّه رأى المسيح في طريقهِ إلى دمشق بعد صعود المسيح إلى السماء) الذي أصرَّ على تعاليم المسيحِ منفصلةً وحسبما يراها هو ، لا من بابِ ما طرحه رسل المسيح ، ودون الإلتزام بشريعةِ موسى .. هذا فضلاً عن الإنقلاب العقائدي الهائل الذي تمّ على يدِ بولس والذي اعتبر خطيراً كلَّ الخطورة ، إلى درجة إعلان بولس للمسيح أنّه إله أزليّ من إلهٍ أزليّ ، الأمر الذي اعتبر كارثة عنيفة بنظر بطرس ويوحنّا ويعقوب وغيرهم من تلامذةِ المسيحِ الرسل .. في ذلك الوقت برزت " الكتابات الخصاميّة " كما يصفها الأب كانينجسر التي انتهت في النهاية لصالحِ بولس الذي أشاد الأساس اللاهوتي للمسيحيّة التي نعرفها اليوم .. وفي ذلك العصر وبعد الإنتصار

النهائي شكّلت المسيحيّة البولسيّة مجموعة نصوصِها الرسميّة أي " القانون الذي استبعد كلَّ الوثائق الأخرى " التي لا تتوافق والفكر البولسيّ المسيطر على الفكر الكنسي آنذاك .. وبرغم أنَّ اليهود ـــ المسيحيين قد اختفوا كطائفةٍ ذات نفوذٍ فقد ظلَّ الحديثُ عنهم جارياً ، ولكن تحت إسم المستهودين ، وقد تحدّث الكاردينال دانيلو عنهم فقال : " بإنقطاع اليهود ـــ المسيحيين عن الكنيسة الكبرى التي تحرّرت تدريجيًّاً من روابطها اليهوديّة سرعان ما فنوا في الغرب ، ولكن يمكن إقتفاء آثارهم من القرن الثالث إلى القرن الرابع بالشرق وخاصّة في فلسطين والجزيرة العربيّة ما وراء الأردن وسوريا وما بين النهرين وقد امتصّ الإسلام بعضهم وهو جزئيًّاً وريث لهم وتحالف البعض الآخر مع أرثوذكسية الكنيسة الكبرى مع الإحتفاظ بخلفيّة ثقافيّة سامية ، وهناك شيئ منهم ما زال متشبّثاً بالكنيستين الأثيوبيّة والكلدانيّة) ..

كلُّ هذهِ العناصر الفاعلة تستدعي منّا التفكير طويلاً من أجل تأمين نوع من حقيقةٍ متّصلة بعالم الإله لا عالم الإنسان ، لأنَّ تسلل الفكر البشري الخاطئ مع مجموعة من مآرب خطيرة من شأنِهِ أن يؤثّر على حقيقة المتن المنقول حسبما رأينا من قبل واستدلينا عليهِ .. من هنا فإنَّ هذه النقاط إضافة إلى جملةِ أخرى ، لا بدّ لها من إجابة موضوعيّة دقيقة ، ضروريّة ضرورةَ حبّ الإنسان لسعادتِهِ وشكرِ منعمِهِ الذي أخرجهُ من العدم .. خاصّة بالشقّ المتعلّقِ بدين السماء .. أليس من الخطرِ جدّاً أن لا نعرف شيئاً كاملاً عن الصلة بين الرسالة وكاتبها ..! مع ما نقرأ من تناقضٍ وقصورٍ وغير ذلك ؟ أليس من الواجب والنباهةِ والحذر

أن ننظر إليها بشكلٍ تمحيصيٍّ ؟ ومن نافذةٍ نقديّة ؟ تبياناً لجملة المطالب والحقائق المراد الوصول إليها ..؟ بهدف تثبيت الحقيقة وإبعاد أيّ وهمٍ عن الواقعِ دون إضفاء جملة من أفكار وتفسيرات تبرّعيّة لا شاهد تاريخي أو علمي عليها ولا تمتّ إلى الحقيقة بصلة ، بل من شأنها أن " تحوّر الحقيقة وتبطلها " وتعمل على إتلافِ غايتِها ، ولو من جهة التفسيرات المعنويّة لها ..! من هنا كان لا بدَّ من لفت النظر إلى ضرورة أنّ القداسة أمر متحقّق الصلة بعالمِ اللهِ وأنبيائهِ وليس هو مجرّد دعوى شهوديّة دون أيّ شاهدٍ أو دليلٍ معجزٍ أو حقيقةٍ ثابتة مستفادةٍ عن هذا الطريقِ أو ذاك ..

إختلاف الروايات ومعنى ذلك على مستوى القداسة :

ببعد النظر عمّا أشرت إليه أعلاه .من أزمة طالت الأسس والقاعدة الأوليّة في مجموعة تعتبر بغاية الأهمّيّة فقد عرض المعلّقون مجموعة من الإختلافات التي تتعلّق بطائفة من الروايات بين الأناجيل منها ، روايات الآلام . فقد لاحظ الأبّ روجي نفسه أنّ عيد الفصح معيّن بشكلٍ مختلفٍ بالنسبة إلى عشاء المسيح الأخير مع الحواريين في الأناجيل الثلاثة وفي الإنجيل الرابع :

- يوحنّا يقول بوقوع هذا العشاء قبل عيد الفصح .
- الأناجيل الأخرى تقول إنّه حدث أثناء عيد الفصح نفسه .

هذا بطبيعة الحال يدلُّ على قصورٍ في نقل الحدث بشكلٍ زمنيٍّ ثابتٍ كما يدلّ بشكلٍ قاطعٍ على تسلّل بشري قاصر إلى مواقع التسجيل المادّي

للحدثِ وتدوينِهِ .. وكما ترى : فإنَّ هذا ينسب أخطاء فعليّة إلى كتابٍ منسوب تسجيل ما فيهِ إلى اللهِ الذي لا يخطئ ولا يغفل ..! هناك نتائج متضاربة في كتابٍ مفروض فيهِ أن لا يكون كذلك ، بسبب نسبتِهِ إلى اللهِ ، المفروض اليقيني في الله أنّه لا يخطأ أو على الأقلّ منسوب للرسل شاهدي العيان الذين دوّنوا الأحداث بعد معاينة .. خاصة أنّ نقل مثل هذه الوقائع له من المرتكزات الثابتة ، ما يجعل الإشتباه فيه أمراً عسيراً وصعباً ، خاصّة عندما ندرك أهميّة عيد الفصح في الطقوس اليهوديّة ، والأهميّة التي اكتسبها هذا العشاء الذي ودّع فيه المسيح حوارييه ، فكيف يتمّ نسيانه وفق هذا المستوى ما دام أنّه تمّت معاينتُهُ ضمن إعتبارات وظيفيّة إجتماعيّة تمنع مثل هذا النسيان أو الإختلاط عليه ، على الأقلّ لا يصل الأمر إلى حدّ تناقضي أو مجتزء بطريقةٍ مثيرة ما يزيد من أزمة الشكّ ، إضافة إلى ما مرّ من أنّ من كتب أخطأ ، بل هو ليس شاهد عيان كما سبق وأشرنا .. وبشكلٍ عام : فإنّ روايات الآلام تختلف بحسب الأناجيل الثلاثة الأولى وبين إنجيل يوحنّا . في حين تظهر رسائل بولس في هذا المجال ولها الأثر الأكبر ، والغريب حين نعلم أنّ بولس لم يكن من تلامذة المسيح ولا من حاضري وقائعِهِ ، ولا ممّن يعرف عنه أيّ شيءٍ سوى من الوسائط وناقلي الخبر ، وإذا بالنتيجة جاءت على نحوٍ من تأثُّر كبيرٍ في متونِ الأناجيل ، التي نقلت مجموعة من معلومات بولس بشكلٍ تتطابقيٍّ .. وتكمن الخطورة في انَّ الأناجيل حرّرت بعد الإنتصار النهائي لبولس وليس لبطرس أو يوحنّا ويعقوب الذين شكلوا تلامذة المسيح ورسله والذين أوصى بهم ..! لا شكَّ أنَّ في الأمر غرابة لا بدَّ لها من تفسير ..

غياب رواية تأسيس القربان المقدّس من إنجيل يوحنّا :

ممّا يلفت الإنتباه في إنجيل يوحنّا هو أنّه لا يشير إلى تأسيس القربان المقدّس أثناء عشاء المسيح الأخير مع الحواريين .. ومهما يكن من أمرٍ فإنّ غالبيّة المتخصّصين لا يعتبرون يوحنّا الحواريّ هو مؤلّف هذا الإنجيل .. وهو كلام منطقيّ تؤيّدهُ الشهادات التاريخيّة والعلميّة .. وقد أراد بعضهم أن يبرّر هذهِ النتيجة بأنّ يوحنّا لا يكنّ أيّ اهتمامٍ إزاء تقاليد ومؤسّسات إسرائيل القديمة ، إلا انّه تبرير قاصر وعاجز كما ترى .. ويزيد الإعتقاد بأزمة النصّ الكامل ، ويؤيّد النتيجة الحقيقيّة التي تقول بأنّ من حرّرَ الأناجيل لم يكن شاهدَ عيان ، وبطبيعة الحال لم يكن من تلامذةِ المسيحِ ولا من حوارييهِ أو الرسل ..

ظهور المسيح بعد قيامته

يشير الأب روجي في كتابهِ " مقدّمة إلى الإنجيل " إلى أمثلة على الإختلاط والفوضى والتناقض الذي يسود هذهِ الروايات فيقول :

- لا تتطابق تماماً في الأناجيل الثلاثة المتضمّنة قائمة النساء الآتين إلى القبر .

- ليس هناك إلا إمرأة واحدة في إنجيل يوحنّا وهي مريم المجدليّة ولكنّها تتحدّث بضمير الجماعة كما لو كانت لها رفيقات فهي تقول : لا نعرف أين وضعوه ..) .

- أمّا في إنجيل متّى ، فـ " ملاك " هو الذي يعلن للنساء أنّهنّ سيَرَيْنَ المسيح بالجليلِ ، لكنّ المسيح بعد لحظةٍ يقابلهنّ على مقربةٍ من القبرِ . ولا شكّ أنّ لوقا قد شعر بهذهِ الصعوبة ، فعدّل قليلاً في مصدرِهِ . يقول الملاك : تذكرون كيف تحدّث إليكنّ عندما كان بالجليلِ .. والواقع أنّ لوقا لا يشير إلا إلى ظهور المسيح ثلاث مرّات بعد قيامتهِ .. أمّا يوحنّا فيقول إنّه ظهر مرّتين على ثمانية أيام بمجمّع بيت القدس ، ثمّ في المرّة الثالثة يظهر بالقربِ من البحيرة ..

السؤال التقليديّ : إلى أيّ مدى يكون التناقض مستغرباً ..؟ في حين المفروض في الدعوى الأدبيّة الموجّهة إلى الجمهور أنّ من كتب الأناجيل هو من الرسلِ ..؟ هل في الأمر دلالة على عجزٍ ونقصٍ وقصورٍ واستغرابٍ ..؟ هل المتن منسوب إلى الله أو إلى المسيح أو إلى واحدٍ من الرسل .. ؟ ماذا عن عدم وجود أيّ شهادةٍ تاريخيّةٍ للكتاباتِ الإنجيليّة قبل ١٤٠ ميلاديّة . هل لهذا معنىً .. ؟

صعود المسيح :

- لا يوحنّا ولا متّى يشيرانِ إلى صعودِ المسيحِ ..! فقط مرقس ولوقا يتحدّثانِ عن هذه الواقعة ..!
- بالنسبةِ إلى " مرقس " فإنّ المسيح قد رفع إلى السماء وجلس على يمينِ اللهِ ..!
- في رأي " الأب بوجي " أنّ هذا النصّ كتب وأضيف بعد ذلك حتى وإن كانت الكنيسة تعتبره قانونيّاً ..!

- لوقا هو الوحيد بعد ذلك الذي يتحدّث عن حدث صعود المسيح فيقول : إنفصل المسيح عنهم وحمل إلى السماء ..

تتضمّن تفاصيل الرواية الإنجيليّة أنّ الصعود قد حدث يوم القيام ، لكنّ لوقا نفسه يصف في أعمالِ الرسل مرّات ظهور المسيح للحواريين بين الآلام والصعود بالألفاظ التالية : (.. وقد حصلوا منه على أكثر من آية حين أظهر نفسَهُ لهم وحدّثهم ، طيلة أربعين يوماً عن ملكوتِ الله .. إنّ هذه الفقرة هي الأصل في تحديد العيد المسيحي للصعودِ بأربعين يوماً بعد الفصحِ ، وحيث يحتفل بالقيامةِ ..) ما يعني أنّ التاريخ محدّد على عكس إنجيل لوقا ، فضلاً عن انّه لا يوجد تحديد تاريخي أو نصّ إنجيلي يحدّد أو يبرّر ذلك .. يُشار إلى أنّ الأناجيل الأربعة المتوافقة التي نشرتها مدرسة الكتاب المقدّس بالقدس عام ١٩٧٢ تحتوي على تعليقات شديدة الغرابة من أمثال : حتى كلمة صعود أصبحت موضوعاً للنقد بالصورةِ التالية : (الواقع أنّه لم يحدث صعود بالمعنى الفيزيقي نفسهِ فليس الله بأعلى أكثر ممّا هو أسفل ..)

ماذا عن هذا الإختلاف ..؟ وهل هو مفروض حتى في أدقّ الأمور إعجازاً ، والتي تعتبر شهرتُها ضروريّة للغاية ، وعليه يعتبر الإتفاق فيها من أمسّ لوازمِها .. ؟ أليس في الأمر إشارة ما إلى أزمة طالت النصّ في نواحٍ عديدة ؟ بل طالت أيضاً حقيقة من حرَّر ودوَّن ونظر إلى الأمورِ بعينٍ مختلفة ..؟ ألا يجدر بنا أن نعيد إستهلاك القراءة مرّةً جديدةً عن الصعود ومن الذي يقول بهِ وضمن أيّ ظرفٍ وجوٍّ ، ولماذا كلُّ هذا الإختلاف في متنِ الأناجيل . وإذا كانت الأناجيل المتناسقة كما قيل فيها هي ثلاثة بخلافِ إنجيل يوحنّا إذاً ما هذا الإختلاف هنا

وفي غيرهِ كثير .. هذا الإختلاف مصدري .. أم انّه بسببِ ممانعةٍ ما ، ربّما هي زمنيّة ..! وهل مفروض أن يتمّ اختلاف بهذا العمق فيمن عاين أو كان قريباً من الحدثِ أو هو غاية الحدث وعنصره .. ؟ أليس في الأمر أكثر من إرتباك وخطورة حول من حرّر ومتى وكيف .. ؟

أحاديث المسيح الأخيرة في إنجيل يوحنا :

يوحنّا هو الوحيد الذي سرد ما حدثَ في نهاية العشاء الأخير للمسيحِ وقبل القبضِ عليهِ ، ويفرد يوحنّا أربع إصحاحات من ١٤ إلى ١٧ لتلك الرواية التي لا يوجد لها أثر في الأناجيل الأخرى ..

- كيف يمكن أن نفهم الغياب التّام لمثلِ هذا النصّ الكاملِ ــ على الأقلّ قياساً على متنِ إنجيلِ يوحنّا ــ في إنجيل متّى ومرقس ولوقا لرواية الوداع ..؟ أليس في الأمر استغراب واضح ..؟ هل كان النصّ مُعدَماً ، أم أنّه كان موجوداً وحذف ، أمّ أنّ طارئاً حدث ..! هل هذا يعني أنّ هناك مشكلة في جمع النصّ وتدوينِهِ وكتابة الواقع الذي عاشه المسيح ..؟ وهذا كما ترى له أثر نقدي على طبيعة المتنِ المنقولِ أيضاً ..!

- ثمّ ماذا عن تطابق الحرف المنقول في الأناجيل المتناسقة ونصّ رسالة بولس ..؟ في أكثر من متنٍ وحادثٍ شاهده الرسل ولم يشاهدهُ بولس إلا على نحوٍ من نقل المشافهةِ كالقصص بين الناس .. ؟ هل في الأمر تأثير نهائيّ من رسائل بولس على من عاين وشاهد في حين مفروض في الرسلِ أن ينقلوا تمام النصّ لا أن يستعينوا بمن هو بعيد كلّ البعد عن مسرح

الأحداث .. ؟ هل في هذا الأمر إشكال على دعوى من قال بتحرير النصّ من قبلِ التلامذةِ الرسُلِ .. مع أنَّ كلّ الشهادات التاريخيّة خلاف هذهِ الدعوى ..؟ إلى هذا الحدّ مفروض في من عاين أن يكون غائباً عن مسرحِ الحدثِ الذي تؤكّد الوثائق أنّه كان من عناصِرِهِ .. أليس لنا أن نتعجّب ونستغرب ..؟

كلٌّ هذا يؤكّد لنا ما أشرتُ إليهِ سابقاً من ضرورة التعامل بشكلٍ جديٍّ فاعلٍ من أجل إعادة صياغة النصّ وإخراجهِ من أزمة الكتابات الخصاميّة ، بل ضرورة إعادة النظر من جديد في الأساس اللاهوتيّ الذي تمَّ على يدِ بولس ، وليس على يدِ التلامذةِ الرسلِ من الحواريين كبطرس ويعقوب ويوحنّا الذين مثّلوا الحقيقة النهائيّة في وصية يسوع المسيح .. لا بدَّ من التعامل بذهنيّةٍ مختلفة في قراءة النصّ القانونيّ ، والتفتيش من جديد عن إطارٍ ضروريّ للتفريق بين ما هو بشريّ وما هو ربّانيّ .. وما أَثَرتُهُ في هذهِ الدراسة يؤكّد أنَّ ما قامت بهِ الأجيالُ السابقةُ من أربابِ الكنيسةِ من توثيقٍ وإبطالٍ لا يكفي ، ولا يمكن أن نقول بكفايتِهِ في ظلّ شهاداتٍ قاتلة وإقراراتٍ قاسية تشير إلى إمكان التغيير في الحرفِ والمعنى ، إلى الحريّة الواسعة في إعادة الإستنساخ للنصّ ، وفي التعبير عن الإعتقاد السائد ، وفي الإنتقام من الوثائق المخالفة ، وفي الإتلاف ، وفي الإعتبار ضمن إطارٍ تخاصميٍّ ليس أكثر ..

إنّني لا أشك بكاملِ النصّ ، لكنّني على قولِ من مضى ، مِن مجموعةِ خبراء وأهل الإختصاص من مسيحيين وغير مسيحيين أقرُّوا بأزمة تزوير ، بأزمة نصّ مجتزء ، بأزمة إعادة تركيب لبعضِ المتونِ ، نصّ جزئيٌّ يشكو القصور في

العديد من النواحي ، أزمة تأثير بولسيّ كبير ومهيمن على الأناجيل التي حُرّرت من بعدِهِ وصل إلى حدَّ أورد معهُ إدانة شاذّة لبطرس على نحوٍ يناقض حقيقة مجموعة واسعة واردة في المتنِ وهي تشييد ببطرس .. أزمة تكمن في أنَّ بولس استطاع أن يشيِّد الأساس اللاهوتيّ للمسيحيّة التي نعرفها اليوم .. أزمة انقلاب خطير طال طبيعة الإمتداد الضروريّ للمسيح من خلال نسف أركان كنيسة الختان والقضاء على رؤساءِها ، ما ضعّف بطرس ويعقوب ويوحنّا لصالح بولس الذي استطاع أن ينتصر في النهاية وأن تُحرّر القوانين الكنسيّة وفق المفهوم الذي أراد ، إلى درجة استطاع فيها أن يغيّر من حقيقة المسيح فيرفعهُ إلى رتبة الإله الأزليّ .. ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ العهد القديم المسيحيّ يختلف نسبيًّا عن التوراة اليهوديّة لأنَّ العهد القديم المسيحيّ أضيف له عدة أسفارٍ لم تكن موجودة بالعبريّة ، إلا أنَّ هذهِ الزيادة وهذا الإختلاف لا يمسّ شيئاً من العقيدة ..

ولا بدَّ من التذكير بأنَّ الإنجيل الذي جاء بهِ المسيح لم يحظَ بتوثيقٍ دقيقٍ مطلوبٍ يمنع من تسلّل الذهن البشريّ والقصورِ إليهِ .. هذا كلٌّ ما أشارت إليهِ دراستُنا هذهِ .. ثمّ إنَّ تحرير الوثائق تمَّ في مرحلةٍ خصاميّة إنتهت في صالح بولس على حساب بطرس ويعقوب ويوحنّا الذين كانوا يدعون إلى الربط بين شريعة موسى وتعاليم المسيح ، ويحرّمون الخروج عليها ، في حين كان بولس يدعو إلى الفصل بين شريعة موسى وتعاليم المسيح ، تلك التعاليم التي أرسى بولس مجموعة من مفاهيمِها على نحوٍ مختلفٍ عمّا نطق بهِ المسيح زمن تبشيرِهِ وتبليغهِ لما جاء بهِ من عندِ الله تعالى .. اليوم تقوم المسيحيّة وفق الأساس اللاهوتيّ الذي اشاده بولس ، وليس بطرس أو يعقوب أو يوحنّا ، وقد تعزّز هذا الأمر بعد مجموعةٍ

كبيرةٍ من الصراع الذي حوّل الإنتصار في صالحِ بولس وخطّهِ .. لا يمكن على الإطلاق الإعتذار بمجموعة نهائيّة من حججٍ وأعذارٍ تصحيحيّة لما حصل ، بل لا بدَّ من " إعادة بناء للنصّ " ، وهذا الأمر نهائيّ وضروريّ لإكساب النصّ نوعاً من حجّة حقيقيّة نافذة .. لا بدَّ من الدخول في محضرٍ تصحيحيّ ، ويكفي أن نقرأ مجموع هذهِ الدراسة وما أشرتُ إليهِ من شهاداتٍ واعترافاتٍ لتأكيدِ هذا الأمر ..

لم تكن الأناجيل متناً مختلفاً بنحوٍ كليٍّ ونهائيٍّ عمَّا جاء بهِ المسيح لكنّها تعاني من أزمة نصّ جزئيّ ، من أزمة تركيب غير موفّق ، من إدخالات ، من تزوير في بعضِ العناوين ، من قصورٍ ، من تناقضٍ ، من اضطراب .. إلا أنَّ بعضها سَلِمَ من ذلك ، لكنَّ الأساس اللاهوتيّ فيه نوع من انقلابٍ خطيرٍ أقلّهُ تحويل المسيح من نبيّ إلى " إلهٍ أزليٍّ من إلهٍ أزليٍّ " كان قد أسّس له بولس بكلِّ قوّتِهِ وخالف بهِ ما نادى بهِ تلامذة المسيحِ وحواريّيوهُ والرسل الذين بعثهم من أمثال بطرس ويعقوب ويوحنّا ، وأصرَّ على ذلك وأدخل هذا العنوان الإنقلابيّ بشكلٍ نهائيّ إلى الإعتقاد المسيحيّ ويعترف أرباب الكنيسة بأنَّ أوّل من أدخل هذا الأمر هو بولس .. ورغم كلّ الإدخالات والتعديل والحذف والإتلاف للوثائق شاء اللهُ تعالى إبقاء مجموعة من شواهد على الحقيقة لربطِها بشريعةِ موسى ورسالةِ الرسولِ محمّد ، وهذا ما سأستدلّ عليهِ بشكلٍ دقيقٍ ، ليدلَّ على عظمة اللهِ تعالى المهيمنِ على كلّ شيئ ، والذي يأبى إلا أن يتمَّ نورَهُ .. أدعو الله تعالى أن يوفّقني لهذا ، إنّه وليّ التوفيق ..

القرآن الكريم

دراسة تمهيديّة تعريف متعدّد الجهات .

تعريف بشخصية رسول الله وفق معطيات التوراة والإنجيل .

دراسة في متن القرآن وفق الشهادة التاريخيّة والمعطيات العلميّة

القرآن الكريم

مدخل تمهيدي

كما هي الحالُ مع النبيّ موسى وعيسى فإنَّ النبيّ محمّداً خُصِّصَ بكتابٍ من الله تعالى ، فكان التوراة والإنجيل والقرآن .. اليهود لا يعترفون إلا بالتوراة ، والمسيحيّون يعترفون بالتوراة والإنجيل ولو بنحوٍ خاص ، كما أنَّ الصلة بين الإثنين مختلفة باختلاف نظرة كلٍّ من بولس وبطرس .. أمّا المسلمون فإنَّهم يعترفون بالتوراةِ والإنجيل إضافة إلى اعترافِهِم بالقرآن ، أمّا عقيدتهم بالتوراة والإنجيل فهي وفق عقيدة القرآن الكريم .. وسنرى فيما بعد مدى الدقّة والتعامل مع هذهِ الحقائق في متن القرآن الكريم .. وقبل الدخول بشيئٍ من التفصيلِ في مثلِ هذهِ المجالات ، لا بدَّ من الإشارة إلى مجموعة عناوين منها :

- القرآن ليس سيرة ذاتيّة ، بل هو رسالة وكلام الله تعالى ، المدوّن بين دفتي الكتاب الذي نزل على رسولِ اللهِ محمّد ، لهداية البشر وإخراجهم من الظلماتِ إلى النور ..

- هو كتابٌ موثّق ومدوّن بشكلٍ دقيقٍ جدًّا ، دوِّن على عهدِ النبيّ وتحت نظرِهِ ، وبمراجعةٍ مستمرّةٍ منه ، وقد نُقِل بشكلٍ واسعٍ ودقيق ، في كلّ طبقةٍ زمنيّةٍ ، وهو موحدّ المتن ، لا خلاف بين المسلمين فيهِ على حرفٍ واحدٍ أو كلمةٍ واحدةٍ أو آيةٍ واحدةٍ .. في ظلّ توثيقٍ رفيعٍ جدًّا ، حالَ دون أيّ خلافٍ أو اختلافٍ فيهِ بين المسلمين رغم اختلاف طوائفِهِم ..

- لا يشكو القرآن الكريم من أزمة نصّ كامل ، أو إعادة تركيب ، أو نصّ مجتزأ ، أو مشكلة إستنساخ ، أو إعادة بناء للنصّ الأصلي ، فكلّ هذهِ الأمور وباعترف كلّ خبراء أهلِ الدنيا ليس لها أيّ تأثيرٍ على متن القرآن ، فهو دُوِّن في عهدِ النبيِّ دون ايّ زيادةٍ أو نقصان ..

- ظلّ النبيّ محمّد يتابع رعاية حرف القرآن الكريم وكلامه حتى آخر لحظة من حياتهِ ، من خلال إعادة تلاوتِهِ على الجماعةِ ، ومقارنة الوثائق المكتوبة بما يتلوهُ النبيّ ، في ظل تأكيدٍ كبيرٍ على الحرمةِ الكبرى في تغيير حرفٍ واحدٍ منه ، في نفس الوقت الذي وثّقه النبي بشكلٍ يمنع أيّ إمكانيّة من التلاعب بهِ .. فلم يعتمد على الظرف أو البيئة أو طبيعة الجوّ والصراع ، بل عمد إلى حمايتِهِ من أيّ تزييفٍ أو تزويرٍ أو تغيير أو إدخالٍ أو حذف ..

- لم يختلف المسلمون في متنِ القرآن ، بل ظلّ متنه كذلك إلى يومِنا هذا وهذا أمر إتفاقي نهائيّ بين كلّ مذاهب الإسلام اليوم وهو كذلك من

قبل .. وممّا ساعد في هذهِ النتيجة ، رعايةُ النبيّ له بشكلٍ كبيرٍ وغريبٍ وخارج إطار أيّ أمرٍ عاديّ ، إضافة إلى كتابة نصّ القرآن على عصرِ النبيّ ، فضلاً عن الحفّاظ الذين كانوا يعدّون بالمئاتِ بعد أن حضّ النبيّ على كتابة القرآنِ وحفظِهِ وتلاوتِهِ اليوميّة ، حتى عُدَّ عهدَ اللهِ وعهد المسلمِ الذي لا بدَّ من تلاوتِهِ في اليوم ، على الأقلّ ٥٠ آية .. في ظلّ قانونٍ بيّنه رسولُ اللهِ (ص) أنّه لا يجوز التحريف في القرآنِ أبداً ، وأنّه من المحرّماتِ الكبرى الخطيرة التي تؤدّي بصاحبِها إلى النّار ..

- تمّت رعاية القرآن بنحوين : الأوّل من خلال التوثيق والرعاية النظريّة والثاني من خلال الحكم ، فكرسيّ الحكم عملت منذ اللحظة الأولى على إيصال القرآن إلى الأمصارِ وفق حرفِهِ وكلمتِهِ النازلة على رسولِ اللهِ دون أيّ تغييرٍ أو تبديلٍ ، وقد تضمّن الكتاب الجزائي الإسلاميّ عقوباتٍ كبيرة على كلّ من يحاول تزوير القرآنِ .. كما تضمّن الكتاب الجزائي مسؤوليّة ضروريّة على كلّ مسلمٍ فضلاً عن الحاكمِ في حفظ وصيانة الكتابِ النازلِ على الرسولِ كما هو ..

- تميّز القرآن الكريم بمجموعةٍ هائلةٍ من المعارف العلميّة ، جاءت ضمن سياق آياتِ الهداية والدعوى إلى الله ، لتكون شاهداً حيّاً على المعنى الإعجازيّ المذهلِ الذي حملهُ الرسولُ محمّد إلى البشرِ من عند اللهِ تعالى .. من تلك الآيات قسم يتعلّق بمعانٍ كونيّة وطبيعيّة تعتبر اليوم من أهمّ الآيات التي تشهد على مدى الإعجاز الذي جاء بهِ رسول الله منذ أكثر من ١٤٠٠ عام .. والمثير أنّ المعطيات العلميّة وافقت تماماً هذهِ

الآيات الكونيّة الدقيقة جدّاً بإشارتها العلميّة بل المعجزة في مغزاها .. بمعنى أنّ القرآن الكريم ظلّ بمنئً عن أيّ أزمة أمام التطوّر العلمي الهائل بل جاء العلم ليدعم ما جاء بالقرآن وبشكلٍ مثير ومذهل ، ليرفع القرآن بنظرِ أهل الدنيا إلى مصافي الإعجاز الأوّل في معطياتهِ ، وعلى الإطلاق ..

- نزل القرآن الكريم في القرن السابع ميلادي ، في زمنٍ كانت حقولُ العلمِ بهِ قاحلةً متهالكةً ، في ذلك الزمن كان لا يُعرف شيئ عن عالمِ تطوّر الجنين أو تكوّر الليل والنهار أو عن زخّات إنزال الحديد التي نزلت إلى الأرض ، في نفس الوقت الذي كان فيهِ متن القرآن الكريم يتحدّث عن هذهِ المعاني وغيرها وفق دقّة علميّة تعتبر اليوم هائلة الإتّزان والدقّة ..! ولم ينطق ناطق هناك أنّ في إمكانيّة البحر أن يُسجّر وماذا عن معنى أن يكون البحر أو المحيط مسجّر ، ماذا عن الطبقات البركانيّة ، ماذا عن النار التي تحطّ تحت بطن المحيطات التي تعتبر واحدة من معاني التسجير الذي بيّنه القرآن الكريم بشكلٍ مدهشٍ ، والذي يعطيه علميّاً هذا الإسم بدقّةٍ متناهيةٍ ، فضلاً عن إمكانيّة توصيف الماء بذلك ، في وقت كانت هذهِ العبارات مجهولة المعنى في عصرِ النبيّ وزمن تاريخِ نزولِ القرآن .. بل لم يكن عالم ذلك الزمن يعلم شيئاً عن أصل الخلق ، أو جوهرِ وجود الماء في أصل الحياة والنشأة ، أو مراحل تكوين الجنين ، أو أصل نظريّة تكوين الكون ، والرتق والفتق الكوني (الإنفجار الكوني الهائل) ثمّ إعادة الخلق والكون وفق ناموس كوني كما بدأ (تلاشي الإنفجار) .. إلى الكثير من معاني هذا الخطاب المتّصلِ بعالم الشمس والنجوم والكواكب ، الشمس

وإصرار القرآن على أنّها تجري لمستقرٍ لها عبر تعبيرٍ مذهلٍ (والشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم) أو القمر وسلسلة المنازل ، وعوامل التأثير التي أحالته كالعرجون القديم (لا حياة فيه بالمعنى المتّصل بهذا التوصيف والتوجيه) أو الأرض واشارة التكوير والسلخ في الليل والنهار وانتقاصها من أطرافِها ، وكلّ هذهِ المعاني تعتبر اليوم من المعاني المذهلة ، التي تدلّ على نوعٍ مميّزٍ من الإعجاز العلمي ، أو ما يتعلّق بكثيرٍ من معاني النبات والدورة المائيّة ، والتوالد ، والفلك والخلق ، والناموس الكوني إلى عشرات الآيات الكونيّة ذات السرّ الذي ما زال بعضه حتى الآن مستوراً .. ليدلّ على أنّ هناك خطاباً هو أعمق في دلالتِهِ من السطح وهو موجّه نحو العالمِ الآتي من بعيد في دلالةٍ بالغة عمّا يحتضن هذا القرآن وتلك الرسالة العظمى .. كلٌّ هذا أعطا القرآن الكريم معنىً مذهلاً ، ومكانةً كبرى ، دفعت حتى منكري رسالة النبيِّ إلى الإعترافِ بأنّه كتاب معطياتٍ مذهلةٍ وخالدةٍ وسبّاقةٍ على الإطلاق ، وفيهِ من دلالات الإعجازِ ما يعلنُ أنّه كتاب من عند اللهِ فقط وبشكلٍ نهائيٍّ وحصريّ .. وعلى هذا الأثر أسلم العديد من العلماء الذين باشروا دراسة القرآنِ من هذهِ الجهة أو أولئك الذين حضروا مجموعة من مؤتمرات الإعجاز العلمي القرآني الذي انعقد في أكثر من بلدٍ من العالم .. ومن بين هؤلاءِ العلماء رموز في علم الفيزياء والفلك والرياضيّات والطبيعيّات فضلاً عن رموز في علم الطبّ وغيرهِ من علماء الفلسفةِ والأدبِ والعلومِ الأخرى ، وبحقٍّ : يمكن أن يقال في القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين إنّه قرن إثبات مجموعة من معطياتٍ علميّةٍ ثابتةٍ في رصيدِ القرآنِ لتشهد له على أنّه

الكتاب المذهل وفق كلّ المقاييس ، وأنّه حصراً هو كتاب من اللهِ لرسولِهِ محمّد دون أيّ جدالٍ .. المثير في القرآن الكريم أنّه تحدّث عن مجموعةٍ مذهلةٍ من مظاهرِ الخلق الكوني ، بشكلٍ عميق وموافق لدقة المعطيات العلميّة التي كشفت فيما بعد عن مجموعةٍ من معانٍ متّصلة بتلك الدعوى الوجوديّة ..

- في عصرٍ يتخبّط بالسكونِ والضعفِ والإعتكافِ أمام الحجارةِ وعبادة القياصرة والفراعنة ، كان القرآن يتحدّثُ عن الوجود ، وجود الأفق الكوني ، وجود السموات ، وجود العمق الإعجازي ، يتحدّث عن الزمان بطريقةٍ مذهلةٍ ، يتحدّث عن " اليوم " بموازين مختلفة ، مرّة يتحدّث عن " اليومِ " بما هو عليهِ يومُ أهلِ الأرض المعروف (الفترة الزمنيّة للشروقِ والغروب) مع الإشارة إلى نوعٍ من سلخٍ وتكويرٍ أي إشارة إلى ليلٍ ونهارٍ يحيطان بالأرض بشكلٍ مذهلٍ مكوَّر ، ومرّة يتحدّث عنه بلحاظ أنّه يمثّل فترة زمنيّة طويلة ، كمقياسٍ زمنيّ كونيّ كما في قولِهِ تعالى (في يومٍ كان مقدارهُ ألفَ سنةٍ ممّا تعدّون) ولا يجمّد المعنى هنا ، بل يوسّع ويمدّد من هذا المعنى المراد ، وفق بساط الزمنِ الكوني الأوسع في تحديد " اليوم " فيشير في آيةٍ أخرى إلى يومٍ مقداره ٥٠ ألف سنة فيقول تعالى : (في يومٍ كان مقدارهُ خمسين ألف سنة ..) وهذا غريب جدّاً في عالمٍ لم يكن يقوى على شيئ .. فيشير القرآن إلى مادّة كشفيّة مختلفة جدّاً تتحدّث عن عالمِ الزمان ومعنى اليوم بطريقة تدلّ بعمقٍ على عالمٍ أوسع من معاني الأرض وصلتها بشمسها ، ليسجّل أنّ هناك أزماناً مختلفة ،

وهذا ما وصل إليهِ العلم اليوم بشكلٍ جازمٍ ومذهلٍ في حين كان هذا الأمر من غرابة قولِ القائل .. وهذا الأمر يعتبر من الأمور المتناهية الدقّة والعلم شاهد ضروريّ على الكتاب الذي اعتمد الكون المتناهي وقانونَهُ المعجز حجّة ضروريّة في متنِهِ ... وهكذا يتحدّث القرآنُ عن خلقِ السمواتِ والأرض ، من منظارٍ زمنيّ ، يتّسع لمعنى زمني أوسع ، أشار إليه القرآن فعلاً بصورةٍ إعجازيّة تخفي ورائها ما تخفي من فهمٍ علميّ وكشفٍ واسع ..

- ممّا يذهل في معالم الإشارة الوجوديّة في عالمِ الخلقِ ما أشار إليهِ اللهُ تعالى في سورة الأنبياء من قولِهِ (أولم يرَ الذين كفروا أنَّ السمواتِ والأرض كانتا رتقاً ، ففتقناهما ، وجعلنا من الماءِ كلَّ شيئٍ حيٍّ ، أفلا يؤمنون) .. هذهِ الآية القرآنيّة كانت نقطة إنطلاقةٍ ضخمة في أبحاثِ كثيرين وهم مذهلون أمام هذا المعنى حتى بدا العالم مستقرّاً على ما يسمّى اليوم بالإنفجار العظيم وتمّم ذلك بالإشارة إلى أهمّ فصلٍ وهو أنّه جعل من الماءِ كلَّ شيئٍ حيّ والعلم اليوم مستقرّ عليهِ . كان القرآن الكريم يشير إلى واحدة من منشأ الكون في عالمٍ جافّ ، قاحل من أيّ فكرةٍ عن هذا العالم ، فأشارَ إلى الرتقِ والفتق الكوني ، وتعتبر هذهِ النظريّة اليوم العماد الأساسي الأضخم لتفسير الكون .. فهل في هذا دلالة وإعجاز ..! ثمّ أشار إلى الماء ومنشأيّة الحياة .. وهذهِ أيضاً النظريّة الأهمَّ والأعمق في محصّلة المعرفة البشريّة ، جاءت في متنِ القرآن في زمنٍ قاحلٍ من أيٍّ علومٍ قريبةٍ من هذا النوعِ أو من غيرِهِ .. فهل في هذا دليل إضافي على مدى

العزّة الوجوديّة التي احتضنها القرآن الكريم كشاهدٍ عميقٍ على عظمةِ النبيّ محمّد ..؟

- بالإضافةِ إلى الكثير من الآياتِ ذات العمق المعجزِ هناك إشارة دقيقة في مباني الخلق حيث يقول تعالى : (ثمّ استوى إلى السماء وهي دخانٌ فقال لها وللأرض ..) في هذا يشير إلى وجود كتلة غازيّة ذات جزئيّات لأنّ الدخان يتكوّن من قوام غازي تعلق بهِ جزئيّات دقيقة قد تنتمي إلى مواد صلبة أو حتى سائلة مع درجة في الحرارة قد تقلّ أو تكثر .. وهذا ما توصّل إليهِ العالم بإنجازٍ كبير .. معتبرين أنّ الأمر سابقة علميّة كبرى وفتحاً أساسيَّاً لمعرفة سلسلة التكوّن الوجودي وما له أثر في ذلك .. إذاً ، ماذا عن عظمةِ القرآنِ هنا ..! في السابقِ تحدّثنا عن التوراة والإنجيلِ ومعطيات العلم ، فأيّ ترابطٍ هنا ، وأين موقع القرآنِ هنا ، بل أين موقع العلم الحديث من مركز القرآنِ وأيّ رتبة يحتلّ .. ؟ ربّما الإجابة كانت صاعقة ومذهلة في مثلِ هذا المجال ، وهي تدلّ على عظمة اللهِ وعظيمِ رسالتهِ الكبرى ، الخاتمة للنبوات والرسالات ..

وهكذا .. إلى الكثير من المعاني العلميّة المعجزة ، من أمثالِ مواقع النجوم وتعدّد مطالع الشمس ومغاربها ، ووحدة النوع في الطلوع والغروب ، وصولاً إلى رفع السماء بلا عمدٍ ترونَها وحقيقة البرزخ بين المائين الماء العذب والمالح .. إلى الجبال ووظيفتِها الوتديّة ، إلى طبقات الأرض السبع (الأقاليم السبع) إلى حقائق الإمطار ، إلى التناسل ، إلى توسّع الكون ، إلى الجريان النوعي المدهش للمجرات ، إلى الكثير ممّا سنرى ونناقش ، مع أنّنا لن نناقش إلا القليل ممّا

استودعهُ اللهُ في هذا الكتابِ الخاتم للرسالاتِ الخاتمة وكلّ ما فيهِ معجزٌ ومذهل ويدعو إلى الإعتقاد العميق .. لقد بدا القرآن ، والعلمُ مذعنٌ له بشكلٍ مطابقٍ وطيّعٍ إلى أقصى الدرجات ، وهو الذي أنبئ وأخبر بشكلٍ متناهٍ عن مجموعةٍ كبرى من الحقائق الكونيّة قبل أن يصل الإنسان إلى كنهِ حقيقتها .. كان القرآن في زمن النبيّ الأوّل يتحدّث عن حركة الكون ، عن أفق الكون ، عن معادلات الوجودِ والنواميس ، عن التوسّع الكوني ، بشكلٍ مذهلٍ ، وغريبٍ ومستنكرٍ من أهلِ ذلك الزمن ، إلا أنّ الذين آمنوا برسولِ اللهِ صدّقوا واعتقدوا حيث يقول اللهُ تعالى : (والسماء بنيناها بأيدٍ ، وإنّا لموسعون) .. وها هو عالمُ اليومِ بمعطياتهِ العلميّة يصلّي خشوعاً أمام هذهِ الحقيقة المذهلة بشكلٍ غريب ، ليشهد العلم وعن قربٍ وحسٍّ لهذهِ الرسالة بعظيمِ ما فيها ..

وببعدِ النظرِ عن هذا وذاك فقد تحدّث القرآنُ بشيئٍ من الإسهاب عن موضوع مسيرة الإنسان وسط مجموعة من مفاهيم أراد اللهُ أن تكون بمثابة قاعدة يقينيّة تحدّد معايير الوجودِ وغاياتهِ وشبه ذلك .. ففي موضوع الإنسان كمخلوقٍ كونيٍّ إجتماعيٍّ ، له نحو من مسيرةٍ وحظٍّ وجوديّ مستمرٍّ كان القرآن ينطق بمجموعةٍ واسعةٍ من الآياتِ التي لم ينطق بها قبله كتاب ، في ظلّ ضميمةٍ كونيّة معجزة في مثلِ تلك المقامات ، إلى درجة لا يمكن للقارئ معها إلا أن يعلن حقيقة الثبات والوثوق والإذعان فيما يُتلى عليه .. حتى في معرض الإشارةِ إلى مراحلِ الوجود الإستمراري (عالم ما بعد الموت) ويوم القيامة والخروج من الأحداث ، تحدّث القرآن عن ذلك بشكلٍ علميّ وقاعدةٍ متينةٍ

مذهلة ، ففي أكثر من مقامٍ يشير إلى عناوين مدهشة ذات إشارة علميّة بالغة ، منها قول اللهِ تعالى في سورة الحجّ :

- (.. يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ،

- ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ،

- ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ،

- ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ،

- وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ،

- ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ،

- ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ،

- وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى ،

- وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ،

- وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(٥)

في هذهِ الآية القرآنيّة يركّز اللهُ تعالى على أمورٍ منها :

١. أنَّ الحياة الآخرة ، أو حياة الفرد بعد الموت ، وبعثه للمعادِ من جديد أمر نهائيّ ويقينيّ لا بدَّ منه ..

٢. في سبيلِ ذلك يستعرض اللهُ مجموعة مشهديّة لتكوين الجنين ضمن محورٍ من مشهدٍ تكوينيّ مذهلٍ ، كان السبّاق فيهِ على الإطلاق لبيانِ مراحلهِ

في حين كان الطبّ قاصراً عن إدراك أيّ حقيقة من هذا النحو في ذلك الزمن ، بل كانت المرتكزات بخلافِ ما أوردهُ القرآن إلى حدٍّ من الثباتِ والإشاعة ..

٣. يركّز القرآن على عناوين من أمثال : عدميّة الإنسان ، ثمّ الوجود ، يلفت النظر إلى حقيقة العنصر المتولّدِ عنه ، بعد وجود السلالةِ من ترابٍ عبر المادّة الأولى ، أو عبر المادّة التي منها يتكوّن وجود النطفة والبويضة (الغذاء الأرضيّ) .. بل فيهِ إشارة إلى حقيقة التولّد البشريّ الأعمّ من المعنى المعروف ، حيث استدوعَ اللهُ تعالى في هذا الإنسان مجموعةً من أسرارٍ مذهلة ، وما الإستنساخ (ببعد النظر عن مناقشةِ إطارِهِ الشرعي أو القانوني) اليوم إلا عبارة عن إستغلال للنظامِ المودعِ في هذا الكائنِ المعجِزِ ، وقد قال الإمام عليّ (ع) : أتزعمُ بأنّك جرمٌ صغيرٌ ، وبك انطوى العالمُ الأكبرُ ..[1]

٤. بيان سلسلة مراتب وجود الإنسان منذ النشأةِ الأولى حتى وفاتِهِ ، وقد وافق العلم ما جاء بهِ القرآن بشكلٍ متناهٍ في الدقّة ، ويكفي أن نشير إلى أنّ مجموعة من رموزِ الطبِّ في الغرب انذهلوا من دقّةِ ما عرضه القرآن من مراحل : نطفة وعلقة ومضغة مخلّقة وغير مخلّقة وغير ذلك .. وأقرّوا أنّ الأمر حصريّ في الدلالة على الإعجازِ والتلقّي عن اللهِ تعالى ، كلٌّ ذلك في زمنٍ لم يكن فيهِ العلم يعرف شيئاً عن مراتب تكوين الجنين ..!

---

[1] بخصوص موضوع الإستنساخ يمكن مراجعة كتابنا (الإستنساخ جدل العصر) لمعرفة الموقف الشرعي والقانوني والفكري من هذهِ لقضيّة المستجدّة ..

٥. التذكير بحقيقة الحياة الأوسع من المعنى الدنيويّ (الوجود المستمرّ) والإشارة إلى نموذج متعدّد من الوجودِ والحياة والموت ، ومثالهُ في الآيةِ الأرض الهامدة ، تلك التي يحييها الله بالغيث ، وهي حقيقة تعجزُ الأقلامُ اليوم عن شرحِها ، وقد تعرّضنا إلى شيءٍ منها في متنِ هذهِ الدراسة وسنتوقّف عندها إن شاء اللهُ تعالى .. يشيرُ إلى الأرض وما فيها ، من ولادة أزواجِها من النباتِ وغيرِه ، في ظلّ أدقّ نواميس الخلق ، كمنوذج تطبيقي تمثيلي لواحدةٍ من ولادات البشر بل إنّ نموذج خلق الإنسان من العدم كان واحداً من الأمثلة التي أشار إليها القرآن في أكثر من موقعٍ في ظلّ سرد أدلّة الخلق وإثبات القدرة ، وأنّ من خلق ذلك قادر أن يعيد .. وكما ترى ، في هذهِ الآية كثير إشارة إلى ربط كوني بخلقٍ كونيّ آخر تطبيقي في عالمٍ فيهِ نموذج عن نسخ الوجود في أعقد معانيها ..

٦. في سورة القيامة إشارة إلى أدقّ معاني الخلق وإعادة الخلق في ظلّ سرد هائل من الإشارات الكونيّة المثيرة ، وهي تعتبر اليوم من معجزات التمايز النُسَخِي في خلقِ الإنسان ، تحت ظلّ وحدة النوع الموجود كمثالٍ ومصداق ، يقول اللهُ تعالى ..

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢)أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ(٣)بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ(٤)بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ(٥)يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ

الْقِيَامَة(٦)فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ(٧)وَخَسَفَ الْقَمَرُ(٨)وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ(٩)يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ(١٠)كَلَّا لَا وَزَرَ(١١)

إنّ فيها من الإشارات الكونيّة ما لا يمكن معه إلا التصديق بنسبة هذا القرآن إلى الله وبشكلٍ حصريّ خاشعٍ ، والإنطلاق منه إلى موقعِ الإيمان الجليّ النهائيّ .. في هذهِ السورة يشير حتى إلى " تمايز البنان " الذي نعبّر عنه اليوم ببصمة الإبهام ، يشير إلى حقيقةٍ غريبةٍ ، غير معروفةٍ ، لا يدرك حقيقتَها إلا الله تعالى ، يلفتُ الأنظار إليها ، ليؤكّد على " حقيقة التمايز " التي أرساها الله في هذا الكون ، وهو القائل تعالى : (وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ) .. وتكمن خصوصيّة هذه الآية اليوم في ظلّ ضجّة كبرى حول الإستنساخ البشريّ الذي من شأنهِ أن يؤثّر بقوّة على ضرورة هذا التمايز بالوجوهِ ، ها هو القرآن منذ أكثر من ١٤٠٠ عام (منذ القرن السابع للميلاد) يركّز على نوعين من الفوارقِ : فوارق سطحيّة واضحة في صورةِ الخلق البشري ، وفوارق تكوينيّة خاصّة في جسدهِ وتكاوينهِ وهي غير معروفة وخفيّة جدّاً مثل خطوط أصبع الإبهام .. ولا بدّ من الإشارةِ إلى أنّ اليوم الذي تمّ فيهِ الإعلان عن حقيقة الإختلاف بخطوط الإبهام كان بمثابة فتح علمي كبير ، كمفتاحٍ أساسي تفرضه الحاجة للتمايزِ الخاصّ الذي يحتاجُهُ المجتمع في أكثر من عنوانٍ وقضيّةٍ في الكتاب المدني والجزائي والتجاري وغيرهِ من أجل تثبيت المعاملات وتوثيقِها أو من أجل القبض على المجرمين وغير ذلك ممّا هو داخل تحت عنوان الإستفادة والإستثمار للفوارق البشريّة .. ليضيف هذا القرآن سرّاً آخر يدلّ على عظمة إعجازهِ ، ليكون شاهداً آخر على حقيقة الخلقِ

الآخر واستمرار حياة البشر .. أيّ عظمةٍ بعد هذا ..؟ هو واحد من أهمّ مميّزات وفوارق بني النّاس ، ذات المعنى الذي يدلّ على الوحدانيّة المميزة وفق المدلول الكوني بين الأفراد ، هو بمثابة كشف حقيقيّ لم تعرفه البشريّة من قبل .. وهو بذلك يشير إلى واحدةٍ من معاني الأسرارِ المخلوقةِ والتي لم يتطلع عليها إلا من أراد الله من دون دراسة مخبريّة وشبه ذلك .. الأمثلة كثيرة في هذا المجال ، وهي محشّدة بمجموعةٍ بارزةٍ ومثيرةٍ من القضايا الكونيّة الوجوديّة ذات اللغز الذي لم يحلّهُ إلا تطوّر الزمن ومعطيات العلم الحديث ، لتكون صفّاً واحداً في طابور الشهادة لهذا القرآنِ على ما هو عليهِ من إعجازٍ مستمرٌّ إلى يومِ الدين ..

وعليهِ : إنّ من يعيد التدقيق ودراسة القرآن الكريم من بابِ علميّتهِ وما يتّصل بعالمِ الناموس الكوني يجدهُ عصيًّاً على آيّةِ محاولةٍ لإضعافهِ ، حيث كلُّ شيءٍ فيهِ يدلُّ على معلوماتٍ فريدةٍ مثيرةٍ من دون أيّ مختبرٍ ، وفي أوّلِ سابقةٍ على الإطلاق ، وهي تعدّ بياناً مذهلاً لقانونٍ طبيعيٍّ أو ظاهرةٍ كونيّةٍ أشار لها القرآن الكريم منذ اليوم الأوّلِ لبعثةِ النبيِّ محمّد (ص) لتكون واحدةً من معاني الدلالة على نسبةِ هذا الكتاب إلى الله تعالى ، ومصداقاً من مصاديق الحجّة بين يديّ رسولِ اللهِ محمّد (ص) ولتظلّ آيةً خطابيّة على طولِ مسيرةِ البشرِ إلى يومنا هذا .. والملفت أنَّ القرآن الكريم حُشِّدَ بمجموعةٍ واسعة من هذهِ الآياتِ الكونيّة والمراد منها معنىً وظيفيّ يدلّ بقوّةٍ نهائيّة على عظيمِ ما جاء بهِ النبيّ من عند اللهِ في سياقِ خطابٍ يدعو البشريّة إلى مجموعة من عناوين وإعلانات حقوقيّة ذات بعدين : كوني وإجتماعي .. وذلك لكتابةٍ واسعة في خانة الوجود وقيودهِ ومسيرتهِ وغاياتهِ الوجوديّة التي ترتبط مسيرتُها بدايةً ونهايةً باللهِ تعالى .. فالفرد

الذي خاطبه القرآن الكريم والنبيّ محمّد (ص) بمجموعة من قواعد ومعايير تتعلّق بدورِهِ ووظيفتِهِ الفرديّة الإجتماعيّة الماديّة الأدبيّة ، يجد موسوعة معلوماتيّة حول النشأة الأولى والقيامة على طَبَقٍ من آياتٍ كونيّةٍ ، تسرد مجموعة كبرى من عناوين وأفقِ الخلقِ ومعاني الوجود ، وأسرار الأشياء ، على قاعدة الحجّة الكونيّة مرّة ، والحجّة العقليّة مرّةً أخرى ، وسلسلة من إرشاداتٍ إيمانيّةٍ تأتي بُعيد الخطاب الكوني العقلي الوجودي ..

من هنا مَن لا يؤمن بالقيامةِ يُردّ عليهِ بمجموعةً واسعةٍ من المعاني التي وردت في القرآنِ الكريم على قاعدةِ أنّ موارد العلمِ والحجّةِ ودلالات العقل وثبوتيّات الأشياءِ في الواقع كلّها تنطق بذلك وبشكلٍ مثيرٍ وغريبٍ ومذهلٍ .. وقد بيَّنَ الله مجموعة مشهديّةً تصديقيّةً واسعة منها : خلق الإنسان الذي لم يكن شيئاً مذكوراً ، خلق السموات والأرض ومعالم الكون ، دلالة الأشياء على رابطِها العِللي ، تحويل مادّة التراب إلى إنسانٍ سويٍّ .. ، نماذج واسعة عن قضايا إعجازيّة كونيّة سنتوقّف عندها ، في ظلّ آياتٍ معجزاتٍ مذهلة .. ولقد كان هذا الخطاب مؤثّراً جدّاً بعالمِ ذلك الزمنِ الذي بُعث فيهِ النبيّ (ص) حيث كلّ شيءٍ فيهِ يذعن له العقل على قاعدة (أنّ من خلق قادر على أن يعيد الخلق ..) وإذا بنفس هذهِ الآيات المشهديّة تضع بين أيدينا نوعاً آخر من معالم الناموس (الموت والحياة الخلويّة) بالإضافة إلى أسرار الجسم والعمل الكيميائي العضوي وما توصّل إليه علماء اليوم في علم الجينات والبروتينات وهو أكثر ذهولاً في منطقهِ القرآني ، وفي كلّ خانةٍ منه دلالة عظمى على المعنى الناطق بردّ الأمور إلى اللهِ الخالقِ القادر الحكيم الحيّ .. تصل بنا الأمور إلى مجموعة مشهديّة حيّة من

الخلقِ وسلسلة التكوين ، ورتب الوجود ، وأسرار خفيّة ، تأخذ بوجدانِ وعقلِ كلِّ قارئٍ ومتخصّصٍ ، تتّصل بدلالاتٍ عميقة إلى مجموعة من عناوين ما زال العلم يتفتّق عن نتائجِها ، كما هي الحال في موضوع توسُّع الكون ، والإنفجار العظيم وغير ذلك ممّا سنراهُ فما بعد ..

الأمثلة العلميّة كثيرة وهي في موقعٍ ومركزٍ يعجزُ أهلُ العلمِ عن منازلتِها بل كلُّ معطياتِ العلمِ تصبُّ في خانةِ تأييدها .. يتحدّث القرآن عن الكواكب إذا اندثرت ، عن الشمس إذا كوّرت ، عن الجبال إذا سُيِّرت ، عن الجبالِ الأوتاد ، عن الأجنّة النطفة والعلقة والمضغة ، عن العظام وكسوتِها لحماً ، عن النشأةِ الأخرى ودبِّ الروح ، عبر تصوير مدهش وعميق ومتناهٍ في الدقّة ، يتحدّث عن خلق الإنسان ، عن الماء الدافق الذي يخرجُ بين الصلبِ والترائب ، وسنرى فيما بعد دقّة هذهِ الإشارة التي لم يتعرّف عليها الطبّ إلا أخيراً وبشكلٍ لا يمكن معهُ إلا الخشوع في محرابِ هذا القرآنِ المعجز ، يتحدّث عن السماءِ ذات الرجع ، عن الأرض ذات الصدع وهذهِ أمور في غاية الأهمّيّة ، عن السماء إذا انفطرت ، والكواكب إذا انتثرت ، والبحار إذا فُجِّرت ، والنجوم إذا انكدرت ، عن السماء إذا كشطت ، عن خلقِ الأزواجِ ، عن رفع السماء ، عن بنيان السبع الشداد ، ، عن أقاليم الأرض السبعة وهذا واحد من حقائق الأسرارِ الكونيّة التي لم يكتشفها العلمُ إلا حديثاً ، عن المعصراتِ وسرّ الماء في الحياة ، عن برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر .. عن الكثير من الآياتِ التي لها مدلول كوني مذهل ، من دون أن تعيش الهويّة الأولى للإنسانِ معرفتَها إلا عبر ما جاءَ بهِ رسول اللهِ من عند اللهِ تعالى ، وإذا بنفسِ هذهِ الآيات

تعتبر اليوم من أهمّ الآياتِ الكونيّة ، التي تشكّل عماد الفهم البشري للكون بعد مجموعةٍ هامّة من مسيرة الكشف عن أسرارِ الكون .. وقد صفّت المعطيات العلميّة جنباً إلى جنبٍ مع آياتِ اللهِ تعالى ، لتكون شاهداً وفيّاً آخر ، لتلعب دور سحرة فرعون في إعلان الشهادة الكبرى للإعجازِ الذي جاءَ بهِ موسى من عند اللهِ تعالى ، وهكذا أطلّ القرآن الكريم بمجموعةٍ كونيّةٍ كبرى ، في ظلّ إعجازٍ هائلٍ من الجهةِ العلميّة ، إلى درجة المطابقة الكاملة مع حقائق كونيّة علميّة نهائيّة مذهلة مع كثرتِها ، لتضيف إليها معنىً آخر من معانيها الخطابيّة للفرد في مسيرة الكون ، ومن محاكاتِها الكونية الموجّهة نحو الإنسانِ ، كدلالةٍ إضافيّة في بيانِ عظيمِ ما جاءَ بهِ رسول اللهِ محمّد (ص) .. بل وببعد النظرِ عمّا جاءَ بهِ القرآن الكريم من آياتٍ كونيّةٍ لم نجد في كتابٍ من الكتبِ أو في تفسيرٍ من تفسيراتِ البشر واحداً ممّا جاء بهِ القرآن الكريم من تفسيرٍ كونيّ وجوديّ متّصلٍ بعالمِ الإنسان ووفقاً لمدلولٍ عقليّ ثابتٍ على تمامية ما جاء بهِ القرآن .. لقد احتوى القرآن على قاعدة بنيويّة تفسيريّة للكونِ والوجود بما يتقاطع والإنسان من هذهِ الجهة ، فالإجابة عن سؤال : من أين ، في أين ، وإلى أين ..؟ هذا السؤال الخاص بالإنسان والأكثر دويّاً في ذات أيّ فردٍ من بني نوعنا لم يجد إجابتَه الشافية إلا في القرآن الكريم الذي أشار إلى مجموعة من عناوين منها :

١. نظام العللِ المخلوقة .
٢. معدوميّة الإنسان أوّلاً .
٣. وجودية الخلق (بما في ذلك الإنسان) .

٤. دلالة الوجودِ في " طولِ العللِ " على الواجدِ .. ودلالة الخلقِ على الخالق ..

٥. دلالة الإعجازِ على القدرةِ والحكمةِ من الخالقِ .

٦. نطق الأشياء مخبريًّاً وظاهريًّاً بالإفتقارِ الكوني إلى من أخرجها من العدمِ وتوقّفِها عليهِ .

٧. قراءة الأسرار المذهلة في كتابِ المكوّنات الوجوديّة للكونِ التي منها السمواتِ والنجومِ ونواميس الأشياء بما فيها الإنسان ، التي تدلّ بعمقٍ وغزارةٍ على ربِّها ومكوّنِها وحكمتِهِ ورحمتِهِ وعدالتِهِ في ظل مفهوم الدمج الإثباتي بين المنطق التشريعي والمنطق التكويني كشاهدِ ودلالة ..

إلى الكثير الكثير من أشباه هذهِ العناوين .. لقد احتضن القرآن الكريم جملةً واسعةً من تعاليم ومبادئ تتّصل أشدّ اتصالٍ بعالم الفرد والجماعة والطبيعةِ وغاياتِ الكون .. كانت هذهِ المبادئ بمثابة ثورة حقيقيّة على كلّ ما عرفه الإنسانُ من قبل ، ثورة تمسّ الطبيعة الوجوديّة الأوسع من المعنى الإشتراعي المادّي ، إنّها صلة وجوديّة ذات مدلول كوني ثمّ إشتراعي ، إنّها إجابات صريحة ومكثّفة عن هوية الفرد في بطن الكون ، وعن الكون في صدر الوجود ، وعن الوجود علّةً وفلسفةً .. وتجدرُ الإشارةُ إلى أنّ القرآن الكريم جاء كوثيقة معرفيّة غايتُها الهداية ، وهي تتّصل أشدّ اتصالٍ بعالمِ الإنسان وفيها الكثير من القضايا والعناوين : عالم النبيين ، الطريقة التي أراد الإنسان أن يعبّر فيها عن صلتهِ الوجوديّة .. سيرة الأمم ، معالم أثر الإنسان ، المصلحين والطبقة الحاكمة .. تتابعيّة فطرة الوجود ، مسيرة الآيات البالغة ذات الأثر في عمقِ المداليل النفسية

لبني البشر ، حياة الأمم والقرون ، خطوط الحركة الوجوديّة .. لا شكّ أنّ هذه المعاني المؤرّخة بشكلٍ وثيقٍ ودقيقٍ ومتوازنٍ تأسر كلّ من يقرأها .. إنّ هذا ما شعر بهِ كلٌّ الذين قرءوا القرآنَ ، مسلمين أو غير مسلمين ، كلّ الذين دخلوا الإسلام أقرّوا بهذا الشعور الذي يخفي وراءه مجموعة من عناوين ومداليل ذات اتصال بحشا الوجود البشري ومعاني اللاشعور ..

جاء رسول الله محمّد (ص) في ظلّ دعوى النبوّة والرسالةِ ، وهو يحمل بين يديهِ كتاباً أميّاً غيبيّاً كونيّاً وجوديّاً لم تعهد البشريّة آنذاك كتاباً مثلهُ .. وفي عظيمِ ما تضمّن هذا القرآنُ النازلُ من عند الله تعالى روى الحارث الهمداني [1] قال : .. دخلت المسجد ، فإذا أناس يخوضون في أحاديث ، فدخلت على عليٍّ (ع) فقلت : ألا ترى أن أناساً يخوضون في الاحاديث في المسجد ؟ فقال (ع) : قد فعلوها ؟ قلت : نعم . قال : أما إني قد سمعت رسول الله صلى الله عليه واله وسلم يقول : ستكون فتن .. قلت : وما المخرج منها ؟ فقال (ص) :

كتابُ الله ،
كتابُ اللهِ فيه نبأ ما قبلكم ،
وخبر ما بعدكم ،
وحكم ما بينكم ،
هو الفصل ليس بلهزل ،
هو الذي مَن تركه مِن جبار قصمه الله ،
ومن ابتغى ا لهدى في غيره أضله الله ،

---

[1] بحار الانوار ج ١٩ ص ٦ ، صحيح الترمذي بشرح ابن العربي ج ١١ ص ٤٧ ، أبواب فضائل القرآن .

فهو حبل اللّه المتين ،

وهو الذكر الحكيم ،

وهو الصراط المستقيم ،

وهو الذي لا تزيغ به الاهواء ،

ولا تلتبس به الألسنة ،

ولا يشبع منه العلماء ،

ولا يخلق عن كثرة الرد ،

ولا تنقضي عجائبه ،

وهو الذي لم ينته الجن إذ سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجباً ،

هو الذي من قال به صدق ،

ومن حكم به عدل ،

ومن عمل به اجر ،

ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ..

وقد قال الإمام علي (ع) بصفةِ القرآن :

- ثم أنزل عليه الكتاب نورا لا تطفأ مصابيحه ،
- وسراجا لا يخبو توقده ،
- وبحراً لا يدرك قعره ،
- ومنهاجا لا يضل نهجه ،
- وشعاعا لا يظلم ضوءه ،
- وفرقانا لا يخمد برهانه ،

- وتبيانا لا تهدم أركانه ،

- وشفاء لا تخشى أسقامه ،

- وعزاً لا تهزم أنصاره ،

- وحقا لا تخذل أعوانه ،

- فهو معدن الا يمان وبحبوحته ،

- وينابيع العلم وبحوره ،

- ورياض العدل وغدرانه ،

- وأثافي الاسلام وبنيانه ،

- وأودية الحق وغيطانه ،

- وبحر لا ينزفه المنتزفون ،

- وعيون لا ينضبها الماتحون ،

- ومناهل لا يغيضها الواردون ،

- ومنازل لا يضل نهجها المسافرون ،

- وأعلام لا يعمى عنها السائرون ،

- وآكام لا يجوز عنها القاصدون ،

- جعله الله ريا لعطش العلماء ،

- وربيعا لقلوب الفقهاء ،

- ومحاجاً لطرق الصلحاء ،

- ودواء ليس بعده داء ،

- ونورا ليس معه ظلمة ،

- وحبلا وثيقا عروته ،

- ومعقلا منيعا ذروته ،

- وعزا لمن تولاه ،

- وسلما لمن دخله ،
- وهدى لمن ائتمّ به ،
- وعذرا لمن انتحله ،
- وبرهانا لمن تكلم به ،
- وشاهدا لمن خاصم به ،
- وفلجا لمن حاج به ،
- وحاملا لمن حمله ،
- ومطية لمن أعمله ،
- وآية لمن توسم ،
- وجنة لمن استلهم ،
- وعلما لمن وعى ،
- وحديثاً لمن روى ،
- وحكما لمن قضى ..[1]

وكيفما تقرأ ، في متنِ هداية ، أو سرد سرّ كوني ، أو الإشارة إلى عمقٍ وجوديٍّ ، أو تلاوة لقصص الأممِ الغابرة وسُننِها ، أو التركيز على مبادئ وقيم البشرِ والثورة الحقوقيّة ذات الصلة بعالم الوجودِ وضروراتِهِ أو في الشقّ الغيبي أو الشقّ الحضوري ، إلى الكثير الكثير من مواضيعهِ وخطابِ هدايتِهِ وإرشادِهِ للإنسان .. تجد كلّ شيءٍ فيهِ يشدُّ أعماقك بشكلٍ مذهلٍ ومثير لا يمكنُ معهُ إلا التسليم والخشوع ، تقرأ فيهِ أعمق المعطيات العلميّة التي تعتبر اليوم أمّهات الفتح الإنساني ، تقرأ فيهِ مجموعة من عناوين ومعانٍ لا يصدّقُ قارئها أنّ ما يقرأ كان

---

[1] بحار الأنوار ..

موجوداً لشدّةِ الأسرارِ التي يحتضنُها ، تقرأ آياتٍ مذهلة تشعر عبرها أنّ الله هو الحقيقة المطلقة وكلّ ما عداه مرتبط بهِ ومفتقرٌ إليه ، عندها تصبح مسألةُ الجنّة والنار والبعث من بعد الموت وكلّ ما أخبر الله به أمراً بديهيّاً جدّاً أمام المدِّ الهائلِ من الإعجاز الإخباري والكشف الكوني الذي لا يمكنُ معه إلا القول : سبحان الله ، تبارك وتعالى ..

الشهادة العظمى من متون الرسالات السابقة :

على الخطّ الآخر ، تجد نوعاً آخر من المعجزات المذهلة التي أراد الله أن يستودَعَها في عمقٍ آخر من الشواهدِ والأدلّة على عظيمِ وصدقِ ما جاءَ بهِ النبيّ محمّد من عند الله ، ورغم كلّ ما طرأ على التوراة والإنجيلِ من تدخُّلٍ بشريٍّ إلا أنّ الله ضمّن هذين الكتابين مجموعة من شواهد مدهشة تشهد لرسولِ اللهِ محمّد بالنبوّة .. ومع كلّ المداليل المتّصلة بمتنِ هذا الكتاب أراد الله أن يُبقي هناك الكثير من شهادات ناصعة ما بين أهل الكتاب على رسولِ اللهِ محمّد (ص) وبطريقةٍ لا يمكن معها إلا الإذعان والتعظيم لهذا الرسولِ الخاتم للنبوات .. فقد جمع موسى بني إسرائيل قبيل وفاتِهِ ، وألقى عليهم آخر وصاياه ، وهذهِ الوصايا في غاية الأهمّيّة .. إنّها واحدة من معاني الإتصال بسلسلة النبوّة المبعوثة من اللهِ للناس ، وقد جاء في بعضِها العبارة التالية :

(.. جاء الربّ من سيناء ،
وأشرق عليهم من سعير ،
وتلألأ من جبال فاران ،

حيث خرج وسط عشرة آلاف قدّيس ،
تشعّ لهم من يمينه أنوار الشريعة ..
إنّه يحبّ أيضاً جميع الشعوب ،
جميع هؤلاءِ القدّيسين هم في يدك ،
وهم جالسون عند قدميك يتلقّون أقوالك ..)[1]

إنّ هذا النصّ موجودٌ بكاملهِ وبشكلهِ هذا من دون أيّ تغيير في نسخة الملك جيمس الإنكليزيّة المعتمدة .. إلا أنّ هذا النص حُرّف في الترجمةِ العربيّةِ للكتابِ المقدّس ، فأضيف إلى نصّ هذهِ البشارة عبارات غير موجودة في باقي الترجمات إلى اللغات الأخرى ولا في أقدم النسخ اليونانيّة الموجودة في العهد القديم (الترجمة السبعينيّة) .. وقد جاء في الترجمة العربيّة لهذهِ الإشارة العبارات التالية : [**.. جاء الربّ من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ من جبل فاران ، وأتى من ربوات القدس ..**] ..

بحيث أضافوا كلمة " ربوات القدس " بهدف حرف المعنى المراد من مجموعِ هذهِ الفقرات ، وذلك من دون أن يكون لها أيّ مصدر أو أيّ إشارة في أيّةِ وثيقةٍ تاريخيّةٍ ، ولا أيّ شاهدٍ أبداً ، سوى زيادة تبرّعيّة من المترجمين وبتعمّدٍ واضحٍ ، لأنّ هذا النصّ فيهِ من الإشارةِ والدلالةِ ما يؤثّر على حقيقةِ المعتقد المسيحيّ .. ومع كلّ هذا لم يفِ هذا النصّ مع إضافتهِ تلك بأيّة دلالة يمكن أن يعتمد عليها للإشارةِ إلى عيسى المسيح ، لأنّ موقع جبال فارن مكّة ، ولا يمكن بحالٍ إعادة ترميم النصّ ما أدّى إلى تسحيل تناقض واضح في بيان الموقع التاريخي

---

[1] سفر التثنية ٣٣: ٢-٣

من جهة ، وموقع بعثة المسيح من جهةٍ أخرى .. كما دلّت هذهِ الإضافة على أزمة في ترجمة النصّ ونقلِ معانيهِ من لغةٍ إلى أخرى ، وفتحت الباب على سؤالٍ ضروريّ : إلى أيّ حدٍّ هي الحريّة الكنسيّة في ترجمة النصّ ..؟ أليس من الواجبِ السؤال عن جبال فاران (مكّة) ..؟ عن حقيقةِ ما فيها ..؟ عن سرٍّ البعثةِ فيها وإصرارِ المتنِ على ذلك ..؟ ومع كلّ هذا ، فقد ظلّت هذهِ البشارة قويّة جدًّا في بيان أنّ الله بعث من جبال فارن نبيّاً بالشريعةِ .. ومعلوم أنّ المسيح لم يبعث بالشريعة ، وإنّما بعث بالتعاليم والمبادئ ، وظلّ على شريعةِ موسى (ع) .. ما أعطا هذهِ البشارة معنى آخر بشكلٍ نهائيّ وحاسمٍ ، ومؤدّى هذهِ البشارة أنّ الله سيبعثُ بعد المسيحِ نبيًّاً آخر ، بدينٍ وشريعةٍ ، وسيكون من جبالِ فارن ، أي من مكّة من البلاد العربيّة ، وجبال فاران معروفة جدّاً في متنِ الكتابِ المقدّس ، إنّها البلاد العربيّة ، إنّها تشيرُ إلى مكّة ، وهذا أمر بديهيّ جدًّا ونهائيّ في متنِ الكتابِ المقدّس .. وتضيف تلك البشارة : خصائص هذا النبيّ أنه مبعوث بشريعة .. ولا بدَّ هنا من الإشارةِ إلى الأمور التالية :

- البشارة ، موجودة وواضحة ومتّفق عليها ، ورغم أنّ النصّ العربيّ المترجم حاول أن يضيف إليها عبارة " ربوات القدس " إلا أنّه لم يؤثّر نهائيّاً في حقيقةِ ومفاد النبيّ المفروضِ أن يبعث من جبال فاران ، أي من مكّة ..

- جبال فاران ، كما سنرى ، ومن متنِ الكتابِ المقدّس ، كلمة تردّدت أكثر من مرّة ، منها مسيرة هاجر إليها ، وهي معروفة جدًّا في ذلك الزمن وهي مكّة (بلاد العربيّة ، وبالأخصّ مكّة ..) .

- ركّزت البشارة على مناطق متعدّدة :

١. على أرض مبعثِ النبي موسى (ع) ..
٢. على أرض مبعث المسيح (ع) ..
٣. على أرض نبيٍّ آخر ، مفروض أن يُبعث ، وتكون منطقتُهُ جبال فارن ، من بلاد العربيّة .. فهل في هذهِ الإشارة دلالة عظمى على ما نحنُ في صددهِ ..؟

- حدّث التاريخ بقسمهِ العام والخاص وبشكلٍ نهائيٍّ وواسع عن بعثةِ نبيٍّ إسمهُ محمّد ابن عبد اللهِ في جبالِ فارن ..

- سنرى فيما بعد عند قراءة مجموعة من نصوصِ الكتابِ المقدّس ، الكثير من المضامين التي تشيرُ إلى ذلك النبيِّ ، التي تصفه مرّةً بالصولجان ، ومرّة بشيلوه ، ومرّةً تضمّنُهُ وصيّة أشعياء وغير ذلك .. وكلٌّ منها يذهل القارئ ..

- تركّز البشارة على أنّ هذا النبيّ الذي يبعث من جبالِ فاران سيبعث بدينٍ وشريعة ..

- تتّفق الكنيسة والشهادات التاريخيّة ومجموعُ الأديان على أنّ المسيح بُعِثَ بالتعاليم ولم يبعث بالشريعة ، ومعنى هذا أنّ النبيّ المبعوث هو خلاف المسيح ..

وعليه : إنّ مفاد هذه البشارة التي تضمّنها الكتابُ المقدّسُ هو أنّ الله تعالى سيبعثُ بعد المسيحِ نبيّاً بشريعةٍ ودين ، من جبال فاران (مكّة) وقد أضحى معلوماً أنّ الذي يُبعث بالشريعةِ هو حتماً غير المسيح .. من هنا كانت إشارة فاران إلى مكّة المكرّمة حاسمةً ونهائيّةً في بيان إشراقةٍ جلية للهِ تعالى ، يعبّر عنها التشريع والرسالة ، التي جاء بها رسول اللهِ محمّد (ص) .. مع التأكيد على

أنّ كتابة هذا النصّ وبقاءهُ إلى يومنا هذا وفي متن الكتاب المقّدس يعتبر واحداً من أهمّ المعاني الكبرى ، ويجب أن لا نمرّ عليهِ مرور الكرام .. إنّه آية جليّة في أنّ الله سيبعث ٣ أشخاص في صفة النبوّةِ ، كلّ واحدٍ من منطقةٍ محدّدةٍ ، وله صفة محدّدة أيضاً .. الأخير من هؤلاءِ يبعث من جبال فاران ، وهو إسم كان يطلق على مكّة في ذلك الزمن .. والأمثلة من الكتاب المقدّس كثيرة في دلالتِها على مكّة ، وهو من الجهة التاريخيّة أمر واضح لا يحتاج إلى كثير بيان .. مع الإشارة إلى أنّ النصّ الواردِ في التوراةِ حول تسمية البلدانِ هو سيناء بالنسبةِ لموسى أمّا سعير فهي كناية عن الأرض المباركةِ التي ولِد فيها عيسى وتلقّى الإنجيل أمّا فاران فهي مكّة المكرّمة التي بُعِثَ منها النبيُّ محمّد .. وقد تضمّن النصّ الإشارة إلى : سيناء ، وسعير ، وجبال فاران .. فأيّ عظمةٍ مذهلةٍ بعد ذلك ..! ولقد استعملت كلمة " فاران " بشكلٍ واسعٍ ، بل كانت تَعْبِيرَ ذلك الزمنِ للإشارةِ إلى مكّة ، لأنّها كانت التسمية المشاعة لها وفي قصّة إبراهيم وحسب التوراة بصيغتِهِ " اليهوديّة والمسيحيّة " في معرض بيان وسرد قصّة جارية سارة (هاجر) وما يتّصل بهجرتِها إلى أرضِ فاران (مكّة) بيان وافٍ في ذلك ففيهِ أنّه بعد أن أنجبت هاجرُ إبناً لإبراهيم (ع) اشتدّت سارة عليها نقمةً ، فكان أن قابلها ملاك اللهِ في الطريقِ وقال لها :

(ما لكِ يا هاجر ؟ لا تخافي ، لأنّ الله قد سمع لصوتِ الغلامِ حيث هو ، قومي احملي الغلام وشدّي يدك سأجعله أمّةً عظيمةً وفتح اللهُ عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة وسقت الغلام ، وكان اللهُ مع الغلامِ ، فكبر وسكن في البريّة ...

وسكن في " برية فاران " (مكّة) وأخذت له أمّه زوجةً من أرضِ مصر ..)[1]

لا شكّ أنّه نصّ وافٍ جدًّا للإشارةِ والربط بين لفظين ، بين لفظِ البشارةِ تلك ، وبين لفظ ما عليهِ إسماعيل الذي قصدت بهِ أمُّهُ فاران (مكّة) وما هو عليهِ من تعظيمٍ من قبلِ اللهِ تعالى ، ومعلوم في التاريخ أنّ النبيّ محمّد (ص) هو من نسلِ إسماعيل وليس من نسلِ إسحاق ، وهذا أمر إتفاقي نهائيّ .. من هنا كان واضحاً في آخر " وصايا النبي موسى " بيان أنّ هناك بعثتين من اللهِ بعدهُ : تكون الأولى من سعير (المسيح) والثانية من فاران (النبي محمّد) وشاء اللهُ تعالى أن يبقى النصّ الأصليّ ناصعاً ، نابضاً بالحياةِ والدلالةِ إلى أن وصل إلى ما وصل إليهِ اليوم ، في ظلّ وجودِ مكرّسٍ في التوراةِ حسب مفهوميّ اليهوديّة والمسيحيّة دون أيّ خللٍ ، سوى محاولة فاشلة جدًّا لمنع أيّ فهمٍ للمعنى الحقيقيّ من خلال الترجمة العربيّة وإضافة كلمتي (ربوات القدس) التي باءت بفشلٍ لا يحتاجُ إلى كثيرِ تعليقٍ وفهم ودراية .. وهذا فيه دلالة عميقة وآية كبرى لا يمكن أن تُنكر وفق أدنى فهم ... لقد كان من قصّة إبراهيم (ع) وزوجتيهِ هاجر وسارة وما حصل بينهما من خلافٍ بيان واسع للهجرة التي قامت بها هاجر إلى جبالِ فاران وإليك النص الأوّلي لهذهِ القصّة في دلالتِها البالغة على ما أشرنا إليهِ من ربطٍ متّصلٍ بعالمِ النبوات .. بل فيه دلالة بالغة على نبوّة إسماعيل وما يتّصل بهِ إلى أن يبعث اللهُ من جبال فاران نبيّاً تطيعهُ الأمم .. فقد جاء في نصّ التوراة العبارة التالية :

---

[1] سفر التكوين ٢١/١٧-٢١ ..

(لا تخف يا ابرام ، أنا ترس لك ، أجرك
كثير جداً . فقال إبرام : أيّها السيّد الربّ ، ماذا
تعطيني وأنا ماضٍ عقيماً ، ومالكُ بيتي هو وارث لي
فإذا كلامُ الربِّ إليهِ قائلاً : لا يرثُكَ هذا ، بل الذي
يخرج من أحشائِكَ هو يرثُكَ ، ثمَّ أخرجهُ إلى خارجٍ
وقال : انظر إلى السماءِ وعدّ النجوم إن استطعت أن
تعدَّها وقال له هكذا يكون نسلك . فآمنَ بالربِّ
فحسبه له براً)[1]

وقد تحقّق هذا الوعد من اللهِ لإبراهيم بعد عودتِهِ من مصر إلى فلسطين ، حيث تزوج بعد سارة من جاريتِها هاجر طلباً للولدِ ، وقد حملت هاجر من إبراهيم ، ووضعت له إبناً سمّاهُ إسماعيل .. وقد جاء في الإصحاح ١٦ من سفر التكوين العبارات التالية :

(.. وأمّا ساري إمرأة ابرام فلم تلد له ،
وكانت لها جارية مصريّة إسمها هاجر ، فقالت ساراي
لإبرام : هو ذا الربّ قد أمسكني عن الولادةِ ، ادخل
على جاريتي ، لعلّي أرزق منها بنين ، فسمع ابرام
لقولِ ساراي فأخذت ساراي إمرأة إبرام " هاجرَ
المصريّةَ " جاريتَها من بعدِ عشر سنين لإقامة إبرام
في أرضِ كنعان ، وأعطتها لإبرام رَجُلِهَا زوجةً له ،
فدخل على هاجر فحبلت ، ولمّا رأت أنّها حبلت صغرت

[1] التكوين ١٥ : ١-٦

مولاتُها في عينيها فقالت ساراي لإبرام ظلمي عليك ، أنا دفعت جاريتي إلى حضنِك ، فلمّا رأت أنّها حبلت صغُرَت في عينيها . وقالت : يقضي الربّ بيني وبينك فقال إبرام لساراي هو ذا جاريتُك في يديكِ افعلي بها ما يحسن في عينيكِ فأذلّتها ساراي فهربت من وجهِهَا فوجدها ملاكُ الربّ على عينِ الماءِ في البرية على العينِ التي في طريق شور وقال : يا هاجر ، جارية ساري مِن أين أتيتِ ، وإلى أين تذهبين ؟ فقالت : أنا هاربة من وجهِ مولاتي ساراي ، فقال لها ملاكُ الربِّ ارجعي إلى مولاتِك ، واخضعي تحت يديها ، وقال لها ملاك الربّ تكثيراً أكثِّرُ نسلك فلا يعدّ من الكثرةِ ، وقال لها ملاك الربّ : ها أنتِ حبلى فتلدين إبناً ، وتدعين إسمه إسماعيل ، لأنّ الربّ قد سمع لمذلّتك ، وإنّه يكون إنساناً (عظيماً ، مثمراً) يدهُ على كلّ واحد ويدُ كلٍّ واحدٍ عليه ، وأمام جميع أخوتِهِ يسكن ..)[1]

وبعد مجموعة معقّدة من المواقف كان لا بدّ من تحقّق هجرة هاجر وهذا ما حصل وتمّ بيانُه في التوراة بشكلٍ جليّ :

(فبعد أن اشتدّت سارة عليها نقمةً قابلها ملاك اللّهِ في الطريقِ وقال لها مالكِ يا هاجر ؟ لا

---

[1] تكوين ١٦ : ١-١٢

تخافي ، لأنّ الله قد سمع لصوتِ الغلامِ حيث هو ، قومي احملي الغلام وشدّي يدك سأجعله أمّةً عظيمةً وفتح اللهُ عينيها ، فأبصرت بئر ماء ، فذهبت وملأت القربة وسقت الغلام وكان اللهُ مع الغلامِ فكبر وسكن في البريّة .. وسكن في " برية فاران " (مكّة) وأخذت له أمّه زوجةً من أرضِ مصر ..)[1]

لا شكّ أنّ لهذهِ القراءة مجموعة أبعاد أساسيّة في الدلالةِ على مسيرة النبوات وما يتّصل بها ، وهو نصّ جليّ وبيِّن ويجب أن نتوقّف عندهُ مليّاً ، لأنّ فيه من الحججِ والبيّات البالغة ما يكفي لإثبات المعنى المتّصل بوصيّة موسى وعيسى في الدلالةِ على بعثةِ رسولِ اللهِ محمّد ، ومن بطن الكتاب المقدّس .. وبطريقةِ تسلسليّةٍ أحبّ أن أبدأ بالنص الواردِ أعلاهُ بصورةٍ متكاملةٍ لنسجّل ما ورد فيهِ بشكلٍ مختصر وإليك الأمور التالية :

- حسب متن التوراة الموثّق بشهادتيّ اليهوديّة والمسيحيّة فإنّ إسماعيل هو الولد البكر لإبراهيم ، وقد ولد من زوجتهِ الثانية (هاجر) حيث كانت الزوجة الأولى سارة عقيماً ..

- في متن النصّ إشارة واضحة وتامّة بأنّ الله تعالى وعدهُ أن يكثّر نسلهُ ويجعل منه أمّةً عظيمةً .. في وقت كان إبنه الثاني إسحاق لم يلد بعد من زوجتهِ الأولى سارة ..

---

[1] سفر التكوين ٢١/١٧-٢١ ..

- حسب المتن التوراتي ، فإنّ تسمية إسماعيل هي من اللهِ تعالى ، لا من هاجر ولا من إبراهيم .. وهذا فيهِ دلالة بالغة وحجّة كبرى ..

- المثير أنّ مترجمي التوراة إلى لغات أخرى حيّة ، قاموا بترجمة العبارة العبريّة (بيريه أدام) التي حددت له وصفاً شريفاً ورفيعاً في العبريّة إلى " حمار وحشيّ ..! " وهذا أمر خطير للغاية ومثير جدًّا ومذهل ، كما يدلّ على ما أشرنا إليهِ من قبل من حريّة واضحة في التزوير ومحاولة منع المعنى الأصلي والتعامل مع المتن من بابِ الإعتقاد المفروض لا من بابِ دلالتهِ كما هي مثلما حصل هنا في خصوصِ هذا النصّ في إحدى الترجماتِ إلى الفرنسيّة ..! ما يعني أنّ يدَ البشرِ كانت تلعبُ دوراً واسعاً في إعادة صياغة النصّ وكتابة معانيه وصياغتهِ من جديد ..! فأيّ قداسة تلك ..! ولهذا السبب وغيره أصرّيت على ضرورة إعادة بناء النصّ الأصلي ، وإلا فإنّ الضرورة تجافي نهائيّاً ما عليهِ آباءُ الكنيسةِ من صمتٍ في مثلِ هذا المجال .. ومع أنّ أيّ تلاعبٍ في متنِ النصّ الأصليّ يجب أن يكون محظوراً بشدّة وممنوعاً لأنّ الخطاب في معناهُ ولفظه هو تسجيل لوصف رباني وحقيقة إلهيّة لبيانِ بعثةِ النبيين .. لكن لا شيئ من هذا محترم في قاموسِ ما رأينا وعرضنا عليك .. إنّ من يقرأ ما أشرنا إليهِ في موضوعٍ تحريف الإنجيل يجد بكلّ جدارة أنّ البشر لعبوا دوراً أساسيّاً في إتلاف وإعادة صياغة مجموعة من العناوين والتفاصيل على حسابِ النص الأصيل ومعانيهِ المقصودة .. لقد وصلت الأمور إلى حدّ ترجمة كلمة (أدام) العبريّة إلى كلمة (حمار) بالفرنسيّة ..! كلمة أدام بالعبريّة تعني إنسان ..

والعجيب أنّه في نسخة الكتابِ المقدّسِ الصادر عن المطبعةِ الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩٦٠ جاء التعبير التالي : (رجلاً وحشيّاً) ..! أيّ كارثة هذهِ ..! بل أيّ وصلٍ لهذا التعبير بما بعدهُ من معانٍ متّصلة بوصفٍ رفيعٍ وعالٍ ..! إنّ باقي النصّ وإشاراتهِ المتعدّدة كتدخّل الربّ ومباركتهِ هذا المخلوقِ النبيّ ورعايته له لا يمكن أن تساعد على تحريفِ مثلِ هذا المعنى إلى هذا المستوى .. مستوى وصفهِ بالحمار الوحشي ..! لكنَّ الأمر تمّ وحصل كما تراه .. ! من دون أيّ اعتراضٍ أو ممانعة من أربابِ الكنيسةِ وخبراءِها ، ومع أنّ الأمر سخيف جدًّا ويمكن كشفهُ من دون الرجوع إلى المعنى الأصلي لكنَّ الظاهر هو محاولة جادّة لمنع أيّ فهم آخر من اللفظ الأصلي ، حتى لو ظهر النصّ بهذا الشكل وهو مضطرب أو قاصر أو فاشل .. وعليهِ : فإنّ من قام بهذا الفعلِ ليس غبيّاً إلى درجة القصورِ في ترجمةِ اللغاتِ ومعانيها ، بل هو نفّذ خطّة واضحة تكمنُ في محاولة بتر كلّ ما يمتّ بصلةٍ إلى معانٍ يكون لها أساس بُنيوي في الإشارةِ إلى نبوّة تأتي بعد المسيح .. لأنّ متن النصّ واضح في بيان ذلك ، وهو أوضح من الشمسِ في كبدِ السماء .. يا تُرى مع كلّ الذي تقرأه من أمورٍ مذهلةٍ ، موجودة في متنِ الكتابِ المقدّس وهي تدلّ بعمقٍ نهائيٍّ على نبوّةِ ذاك الرجل الذي يبعثُهُ اللهُ من جبالِ فاران من مكّة ، فهل لكلّ هذا معنى معجزٍ ..؟ ألا ترى الأمر جديراً بالإنتباهِ ولفت النظر ..؟

- لقد ورد في وصفِ إسماعيل (ع) في العبريّة العبارة التالية : (بيريه أدام) وهي تعني : إنسان مثمر .. أي : إنسان معطاء ، إنسان ينبوع

للخير وهذا المعنى الإلهيّ بطبيعة الحال يتوافق مع نبوّة إسماعيل بل مع أبوة إسماعيل لرسولِ اللهِ محمّد (ص) .. لأنَّ له معنىً لا بدّ أن يُستنطق مع كافّة معاني الإثمار ، وهذا ما سنقرأه فيما بعد بوصيّة يعقوب وأشعياء من بيان نبوّةِ محمّد والوصيّة بها .. ليكون إسماعيل المثمر واحداً من أجدادِ رسولِ اللهِ محمّد ، نبيّ جبال فاران ، وهو من نسلِ إسماعيل ، وهذا ما سنراه فيما بعد ..

- لقد حاول اليهود بكلّ وسيلة وأداة ، تشويه حقيقة إسماعيل إلى درجة مخيفة ..! لقد أشاروا إلى أنَّ إسماعيل ولد غير الشرعي لإبراهيم بخلاف كلّ الثابتِ في التوراةِ والإنجيلِ من شرعيّة إسماعيل بشكلٍ لا يمكنُ معهُ أيّ ادّعاءٍ بغيرِ ذلك ، لكنَّ الأمر يتّصل بمنع تسلّل النبوّة إلى أيٍّ من غيرِهِم ، كما أنَّ إسماعيل من هاجر الجارية وليس من زوجتِهِ سارة ..! والهدف المقصود هنا ، أنّ الولد الأكبر هو الذي يرث النبوّة من أبيهِ حسب النصّ التوراتي ، ما يؤدّي إلى أزمة حقيقيّة بالعقل الديني اليهودي الذي يصرّ على أنّ إسماعيل ليس نبيّاً ، فقد ورد في التوراة أنّ النبوة تكون للبكر ، لذلك كان لا بدّ من توجيه ضربةٍ عنيفة لإسماعيل حتى يخلو من ساحة المنافسة الإثباتيّة وقيم الحجج والدليل .. ومن يتابع شوط التفسير والبيانِ عندهم يجد أنّهم يصرّون على أنّ المقام الرفيع هو لإسحاقِ دونَ غيرِهِ ، وممنوع أيّ جدالٍ في ذلك ..! مع أنّه جاء في التوراةِ النصّ التالي (فقالت ساراي لإبرام : هوذا الربّ قد أمسكني عن الولادةِ ادخل على جاريتي لعلّي أرزق منها بنين ، فسمع ابرام لقولِ ساراي فأخذت ساراي إمرأة ابرام هاجر المصريّة جاريتها من بعد عشر سنين لإقامةِ ابرام في

ارض كنعان وأعطتها لأبرام زوجةً له . فدخل على هاجر فحبلت)[1] وفي نصّ آخر : (وابن الجاريةِ " إسماعيل بن هاجر " سأجعلهُ أمّةً لأنّه من نسلك)[2] وفي نصٍّ آخر : (وقال الربّ لإسماعيل : إذهب من أرضك ومن عشيرتِك ومن بيتِ أبيك إلى الأرض التي أريك ، فأجعلك أمّةً عظيمةً وأباركك وأعظّم إسمك وتكون بركة وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض ..)[3]

ومع كلٍّ ذلك حاول اليهود بكلّ قوّتِهم طمس حقيقة أنّ إسماعيل هو الإبن البكر ، لجهةِ أنّه إبن هاجر وهي جارية سارة التي وردت في التوراة بإسم هاجر ، من هنا لا تكون له حصّة ميراثِ النبوّةِ ، مع أنّه جاء في نصّ التوراة :

(إذا كان لرجل إمرأتانِ ، إحداهما محبوبة والأخرى مكروهة ، فولدتا له بنين المحبوبة والمكروهة ، فإن كان الإبن البكر للمكروهة فيوم يقسم لبنيه ما كان له ، لا يحلّ له أن يقدّم إبن المحبوبةِ بكراً على إبنِ المكروهةِ البكر ، بل يعرف إبن المكروهة بكراً ، ليعطيه نصيب إثنين من كلّ ما يوجد عنده لأنّه هو أوّل قدرته له حقّ البكوريّة)[4]

إلا أنّ اليهود أصرّوا على ضرورة نسف أيّ نصّ يعارض توجّهَهم ، وأصرّوا على أنّ النبوّة في غيرِ إسماعيل ، وعاندوا في ذلك دون ان يشهد لهم أيّ

---

[1] التكوين ١٦ : ١- ٣
[2] التكوين ١٦ : ١٥-١٦
[3] التكوين ١٢ : ١-٣
[4] سفر التثنيه ٢١ : ١٥-١٧

نصٌّ توراتيّ ، وعلى هذا الأمر إتفاق نظري بين اليهود والمسيحيّين في خصوصِ النصوص .. إنّ كلّ هذا يدلّ على وجود مشكلة عنيفة في بيان حقيقة النبوّة من منظارِ نتائجِهِم .. كلّ شيئٍ يشير إلى أزمة بيان مرّة ، ومحاكمة إحتجاجيّة مرّةً أخرى ..! كيف يمكن لنا مع كلّ هذا أن نربط بين ما أشرتُ إليهِ أعلاه وبين وصيّة موسى (ع) ..؟ وذلك في خطاب الملكِ لها من أنّ الله سيجعله (أي إسماعيل) أمّةً عظيمةً ، وسيكثّره ..؟ وأنّ الله بارك إسماعيل ، وأنّ الله سمّاه بهذا الإسم ، وأنّ الله وصفه بالمثمر ، وفقاً لمعاني الإكثار والإثمارِ والتبريك والسلطنة على الأمّة العظيمة ..؟ إنّ إسماعيل يبدو توراتيّاً وبشكلٍ نهائيٍّ هو المبارك الذي يكثر ، والبكر الذي يرث النبوّة ، والطفل الذي يسكن جبال فاران (مكّة) والرجل الذي يكثّرهُ الله ، إلى أن يُبعَثَ رسولُ جبالِ فارن بالشريعة .. إنّ كل هذا نقرأهُ في متن التوراة وفي متن الكتاب المقدّس الموثّقِ من جانب الكنيسةِ المسيحيّة .. وكلّ هذا حجّة بالغة مدهشة ، وهو يجمعُ الأدلّة الدامغة على أنّ محو التاريخ وإبطال الحجج لا يمكن ان يتمّ بشكلٍ عشوائيٍّ وأنّ الله بالمرصاد .. كلّ شيئٍ من النص يدلّ على أنّ إسماعيل هو من يتابع مسيرة النبوّة والمباركة .. وأنّ من نسلِ هذا يكون نبيّ جبال فاران ، الذي أصرَّ موسى على بيان موقعهِ ومجموعة من عناوين صفاتهِ .. وهو نفسه الذي سنقرأهُ في مجموعة من عناوين الإنجيل لتكون حجّة متمّمة ، وبيّنة كبرى في سلسلة إثباتات الكتاب المقدّس للرسولِ محمّد (ص) .. وسيأتي القرآن الكريم بمجموعة عناوين تدلّ على نفس المعنى الذي نطق بهِ موسى في آخر وصاياها ذات الأهميّة البالغة .. ففي القرآن الكريم إشارة مركزيّة هي في غايةِ الدقّةِ بمعناها المتّصلِ ببشارة موسى (ع) حيث

أقسم اللهُ تعالى في مطلع سورة التين والزيتون بموقعِ ثلاث بلدان تدلّ على مواقع ثلاث مناطق بعث اللهُ منها النبوات : موسى وعيسى ومحمّد ، فقال تعالى :

- وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١)
- وَطُورِ سِينِينَ(٢)
- وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ(٣)
- لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ(٤)ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦)فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ(٧)أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ(٨)

ففي هذهِ السورة أقسم اللهُ بثلاثِ بقعٍ من الأرض هي :

١. بلد التين والزيتون ، أي منطقة يكثر فيها التين والزيتون وهي بقعة معهودة معروفة في ذلك الزمن ، يقصد بها فلسطين ، التي كانت مشهورة بهذا الوصف .. وهي البلد التي هاجر إليها إبراهيمُ عليهِ السلام من قبل ، ووُلِد فيها عيسى المسيح عليه السلام ..
٢. بلد " طور سنين " وهو الجبل الذي كلَّم اللهُ عندهُ موسى عليهِ السلام .

٣. منطقة البلد الأمين ، وهي مكّة المكرّمة ، المعروفة بإسم فاران ، وهي التي وُلِد فيها النبيّ محمّد (ص) ومنها بعث للعالمين رسولاً وفيها أيضاً بيتُ اللهِ الحرام ، وهي التي سكنَها إسماعيلُ من قبل ..

إنّها صورة طبق الأصل ، لا تغيير أو تبديل في المعاني التي وردت بوصيّة موسى عليهِ السلام ، وفي إشارتهِ الهامّة ، إلى تتابع الرسلِ ، وأنّ الأهمّ في ذلك يكمنُ في الإشارة إلى أنّ اللهَ سيبعث بعد موسى رسولين : واحد من سعير ، والثاني من جبال فاران ، بالإضافةِ إلى سيناء التي بُعِث منها النبيّ موسى (ع) .. وحسب التعبير التوراتي :

(جاء الربّ من سيناء ، وأشرق لهم
من سعير ، وتلألأ من جبل فاران ..) ..

لا شكّ أنّ هذه المعاني مذهلة جدًّا ، وتشدّ عمقَ أيِّ إنسانٍ على الإطلاق ، حيث تشهد للنبوّات الثلاثة بطريقةٍ لا يملكُ معها أيّ قارئٍ سوى التسليمِ والخشوع .. هي كذلك في وثاقةِ مواثيقِ اليهوديّة بالتوراة ، هي كذلك في مواثيقِ الكتابِ المقدّسِ الممضي من قبل الكنيسة المسيحيّة ، وهو كذلك بنصٍّ القرآنِ الكريم .. وعليه بدت الأمور على الشكل التالي ، فيما خصّ بشارة موسى والمعنى المشار إليهِ في القرآن الكريم :

١. سيناء (طور سيناء) .
٢. سعير (فلسطين) .
٣. فاران (الحجاز ، مكّة) ..

وفي كلا الكتابين مطابقة كاملة في الإشارة إلى هذهِ المواقع لتكون دليلاً إضافيّاً على المعنى المراد في طولِ سلسلة الإثبات الذي يُحتجُ بهِ على العباد .. وكإضافةٍ هامّة في مقام بيان مجموعة من عناوين وأوصاف تختصّ بنبيّ فاران أشارت التوراة إلى ذلك في طيّاتِ متنها وبشكلٍ أساسيّ .. من ذلك خروج نبيّ

فاران على رأس عشرة آلاف من أصحابِهِ .. وقد ثبت تاريخيّاً أنّ النبيّ محمّد (ص) هو الذي خرج على رأس عشرة آلاف جندي من أصحابِهِ ، في أهمّ حدث ومفصل تاريخي ، في طولِ فترةِ بعثةِ رسولِ اللهِ محمّد (ص) حيث خرج من المدينة المنوّرة على رأس عشرة آلاف من أصحابِهِ متوجّهاً لفتح مكّة ، للقضاء على عبادة الأصنام ، وإرساء عبادةِ اللهِ تعالى .. وأيضاً جاء في النصّ التوراتيّ : (هو يحبّ جميع الشعوبِ) وفي سجّل التاريخ أنّ النبيّ كان على درجةٍ من حبّ الآخرين والأخلاق استوجبت قول اللهِ تعالى (إنّك لعلى خلقٍ عظيمٍ) وهو قد ردّد طويلاً قول اللهِ تعالى (وما أرسالناك إلا رحمةً للعالمين) .. اللهم اغفر لقومي إنّهم لا يعلمون ، وإني لم أُبْعَث عذاباً لهذهِ الأمّة .. حيث كلّ شيءٍ ووفقاً للمنطق العلمي في ردّ الأمور إلى نصابها وتفسيرها والتحقق منها ، يدلّ على أنّ البشارة هي في رسول الله دون أدنى شكّ علمي .. وهذا ما سنربطُهُ بأكثر من شهادةٍ موجودةٍ في متنِ الكتابِ المقدّس المتضمّن وثاقة اليهوديّة والمسيحيّة .. وعلى طول الشوط البشريّ ، ظلّ النبيّ محمّد علماً مميّزاً ونسخة فريدة ، حتى منكرو نبوّتِهِ وقفوا طويلاً أمام عظيمِ شخصيّتِهِ وكبيرِ ما جاء بهِ مقرّين بتلك الخصائص ، حتى قال الفيلسوف الإنكليزي برناردشو :

إنّ محمّداً يجب أن يُدعى منقذ البشريّة . إنّني أعتقد أنّه لو تولّى رجل مثلهُ زعامة العالمِ الحديثِ لنجح في حلّ مشاكلهِ بطريقةٍ تجلب إلى العالمِ السلام والسعادة . إنّ محمّداً هو أكمل البشرِ في الغابرين والحاضرين ، ولا يتصوّر وجود مثله الآتين ..

ويقول " د.ل ديورانت " في قصته الحضارة : أخذ محمد على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والاخلاقي لشعب عاش في " دياجير ا لهمجية " وقد نجح في هذا الغرض نجاحاً لم يدانه ايٍّ معلم آخر في التاريخ كله وأقام فوق اليهودية ودين بلاده القديم ديناً سهلاً واضحاً وصريحاً ..

هي كثيرة الكلمات التي ما زال التاريخ متحفظاً بسجل معانيها فيما خصّ الإقرار بما جاء بهِ النبيّ كمفصلٍ وجوديّ فوق إرادة البشر حتى قال موحّد ألمانيا والقائد الشهير في القرن التاسع عشر بسمارك :

(.. إنّني تدبّرت وتأمّلت ودقّقت الكتب المنـزّلة السماويّة ، التي يُدّعى أنّها واردة من اللاهوت ، فما وجدت لِمَا فيها من " التحريفِ " ما أنا طالبه من الحكمةِ ، وإنّ تلك القوانين ليست بحيث تؤمّن السعادة البشريّة .. وقد دقّقت القرآن من كلّ جهةٍ ، فوجدت في كلّ كلمةٍ منه حكمةً عظيمةً ، ومن ادّعى أنًّ هذا القرآن ترشّحَ من قريحةِ محمّد فقد أغمض العين عن الحقائق ، لأنّ ذلك الزعم يمجّه العلم والحكمة .. وإنّني أدّعي أنّ حضرة محمّد قدوة ممتازة ، وليس في الإمكان إيجاد القدوة محمّد ثانياً ... يا محمّد ، إنّ الكتاب الذي نشرته ليس من قريحتك ، وإنكار ألوهيّته

هراء .. وبناءً على هذا إنّي أعظّمك بكل الإحترام
راكعاً في حضورك المعنوي)[1]

وقد حشّد اللهُ تعالى متون الرسالاتِ قبل بعثةِ رسولِ اللهِ محمّد بمجموعة من الشهاداتِ الكبرى ، لتقف صفّاً واحداً في طابور الإقرارِ بنبوّةِ هذا الرسول ، إلى درجة وجدت معها في متون الكتبِ المقدّسة مجموعة إشارات هي في غاية الأهمّية لتكون حجّةً إضافيّةً على ما جاء بهِ .. منها أنَّ نبيّ اللهِ يحي (ع) كان قد دعا بني إسرائيل وهو يعمّدهم بأن يتوبوا إلى اللهِ ويعدّوا أنفسهم لملاقاتهِ قائلاً :

توبُوا لأنّه قد اقترب ملكوت السموات
فإنّ هذا هو الذي تكلّم عنه النبيّ أشعياء
قائلاً : صوت صارخ في الصحراء ، أعدّوا
طريق الربّ ، اصنعوا سبله مستقيمةً ..)[2]

أوّل سؤال يطرح في هذا المجال ، خاصّةً أنّه وارد في متن الإنجيل .. مَن هو هذا الموعود ..؟ هل هو عيسى بن مريم (المسيح) ؟ أم أنّه غير عيسى المسيح ..؟ ما هي الشواهد التي تشير بشكلٍ دقيقٍ إلى ذلك ..؟

أقول : إنَّ هذا النصّ يشيرُ إلى اقترابِ موعدِ رسولِ اللهِ محمّد ، الذي قام المسيحُ أيضاً بالتبشيرِ بهِ ، لما لقدومِ رسولِ اللهِ محمّد من قيمة ربّانيّة كبرى وهو أعظمُ النبيين وخاتمهم على الإطلاق ، فقد بشّر بهِ المسيحُ قائلاً :

---

[1] نقلاً عن كتاب إعجازات حديثة علميّة ورقميّة في القرآن للدكتور رفيق أبو السعود ص ٨٥ ..
[2] إنجيل متى ٣ : ٢-٣

(ومتى جاء ذلك البركليت (أحمد)
فإنَّهُ سيبكّت العالم على خطيئةٍ وعلى برٍّ وعلى
دينونةٍ ..)[1]

أولاً : كلمة " بركليت " ظلّت على نفس الصياغة دون ترجمة ، وبنفس المعنى ، وقد نقلت إلى العربيّة بهذهِ الأحرف ، من دون تعريب في معناها ، وهي تعني " أحمد " .. فأيّ أحمد هو ذاك الذي بشَّر بهِ يسوع المسيح .. ؟ وها هو متنُ الإنجيلِ يشهدُ بذلك . ثم لماذا لم تُعرّب هذهِ الكلمةُ على نحوِ معناها فأبقاها المترجمون والنسّاخ على لفظِها كما وردت في المصادر .. ؟ هل لأنَّ الأمر يتّصل بشخصيّةٍ ما ..؟ وهل بينَها وبين نبيّ جبال فاران من معنىً .. ؟ الإنجيل وبكلِّ وضوح يشير إلى أنَّ يسوع المسيح بشّر العالم برسولٍ هو البركليت ، ومعناهُ في العربيّة (أحمد) الذي سيقيم دينَهُ ويكون عظيماً .. فهل هذهِ البشارة غريبة عن بشارةِ موسى بنبيٍّ جبال فاران ..! أم أنّها طبق الأصل وصورة حيّة عنها ..! هل هناك من معنى أجلى وأظهر في دلالتهِ على رسولِ الله محمّد الذي كان يُنادى بـــ (أحمد ، ومحمّد .. وبُعِثَ من جبالِ فاران ، من أرض إسماعيل) وهو ممّا جاء في متنِ الإنجيل خاصّةً ، إذا أضفنا له ما جاء في متن التوراة من نبيّ فاران وشريعتهِ .. في ظلّ معرفتنا أنّ موسى صاحب شريعة ، والمسيح صاحب تعاليم ومبادئ ، ومحمّد صاحب تعاليم وشريعة .. فهل لهذا التوصيف والتفريق معنى كبير ؟ ألا يستحقّ هذا النّص أن نتوقّف مليّاً أمامهُ لنسأل لمن هو ..؟ ولقد نطق القرآن الكريم بآيةٍ هامّة في سورة الصفّ ، حيث أشار فيها بوضوحٍ جليّ في

---

[1] إنجيل يوحنّا ١٦ : ٨

مقامِ الإحتجاجِ على النصارى بما ورد عندهم من البشارة بأحمد ، وأنّه النبيّ الرسول ، صاحب الشريعة ، المبعوث إلى الأمم ، وهو الذي يقيم دين اللهِ وشرعه .. وأنَّهُ هو وصيةُ موسى كما هو أيضاً وصيّةُ عيسى فقال تعالى :

(.. وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ(٦) الصف .

في هذهِ الآية الكريمة إشارة إلى الأمور التالية :

١. يقرّ عيسى المسيح بشريعةِ موسى ويصدّق بها .
٢. يقرّ هذا النصّ بـــ (ترابط الرسالات ، موسى وعيسى ومحمّد ويؤكّدُ على وحدة مُرسِلِها ، وهو اللهُ تعالى ..) .
٣. يبشّر عيسى المسيح برسولٍ يأتي من بعدِهِ إسمه أحمد .. وفعلاً قد ورد في الإنجيل نصّ جليّ بذلك : (.. ومتى جاء ذلك البركليت (أحمد) فإنَّهُ سيبكّت العالم على خطيئةٍ وعلى برٍّ وعلى دينونةٍ ..)[1] ليكون دليلاً آخر تطابقيّاً فيما ورد وحجّة في إثباتِ النبوّة من متنِ الإنجيلِ نفسِهِ ..

ولم تقتصر دلالة التوراة والإنجيل على هذهِ المعاني وحسب بل توسّعت في الإشارة بأكثر من معنى وموقع .. فقد جاء في الإصحاح الثاني والأربعين من كتاب أشعياء (ع) النصّ التالي :

---

[1] إنجيل يوحنّا ١٦ : ٨

١. هو ذا عبدي الذي أعضدهُ ، مختاري الذي سُرَّت به نفسي ، وضعت روحي عليهِ ، وسيخرج الحقّ للأممِ .

٢. لا يصيح ، ولا يرفع ولا يُسمع في الشارعِ صوتُهُ

٣. قصبةً مرضوضةً لا يقصف ، وفتيلةً خامدةً لا يطفئ ، ويعلن الشريعة على الأممِ .

٤. لا يكلّ ، ولا ينكسر ، حتى يضع الحقّ في الأرض .

إلى مجموعةٍ إضافية من العناوين والأوصاف الواردة في هذا الإصحاح .. والتي لا يمكن أن تنطبق إلا على رسولِ الله محمّد الذي جاء بالشريعةِ ، ونطقت التوراة بنبوّتهِ ، ومعها الإنجيل أيضاً ، في ظلّ بشارةِ جبال فاران وغيرها .. ففي ختامِ هذا النصّ يشير إلى أنّ الربّ قد سُرَّ من أجل صدقهِ ، وأنّه يعظّم الشريعة ويكرّمها .. ولا بدَّ من التركيزِ على أمرِ الشريعةِ ، فعيسى المسيح لم يُبعث بالشريعةِ ، وإنّما بُعِثَ بالتعاليم .. إذاً في هذا النصِّ إشارة بالغة الأهميّة إلى رسولٍ يُبعثُ بالشريعةِ ، وليس بالتعاليم ، وهذا أمر نهائيّ في الدلالة على غيرِ المسيحِ عليهِ السلام .. وإليك هذهِ المجموعة من البيانِ وهي التالية :

- إنّنا نجد في هذا الوصف ، الوارد في كتاب أشعيا " معنى الشريعة " وأنّ ذلك النبيّ مبعوث عليها ، وهذا الأمر لم يتحقق في عيسى المسيحِ (ع) لأنّه لم يبعث بالشريعةِ ، وإنّما بُعث بالتعاليم والعمل بشريعةِ موسى

(ع) كما انّه بُعث إلى بني إسرائيل خاصّة حسب منطق الإنجيل .. وهذا ما تقرُّ بهِ الكنيسة بخصوصِ التعاليم ، في حين تختلف على قولين في أمر العمل بشريعةِ موسى ، فبولس لا يرى ضرورة إلى ذلك ، وبطرس ويعقوب ويوحنّا ــ وهم رسل المسيح ــ أصرّوا على ضرورة العمل بشريعةِ موسى ، جنباً إلى جنب مع تعاليم يسوع المسيح ..

- ثمّ انّ النبيّ أشعياء الذي أورد هذهِ البشارة في سفرِهِ كان قد عاش في زمنٍ يعود إلى القرنِ السابعِ أو الثامنِ قبل ميلاد المسيح عيسى ابن مريم وقد ثبت وباعترافِ اليهوديّة والمسيحيّة أنّ الله قد بعث المسيح بالتعاليم لا بالشريعةِ ، وعليهِ : هو مستبعد من هذهِ البشارة أو تلك الوصيّة ، وهذا قد أربك شرّاح الإنجيل وحيَّرهم . إذاً ، من هو المقصود بهذهِ الإشارة ..؟ هل يوجد أيّ شخصٍ آخر غير نبيّ جبالِ فاران أو البركليت (أحمد ..؟) الجواب واضح ولا يحتاجُ إلى أيِّ تكلّف .. إذاً ، المقصود بهذا النصّ نبيّ يبعثه الله بالشريعةِ ، وهو تمام ما أشارت إليهِ بشارةُ موسى حيث يُبعث من جبال فاران نبيّ بالشريعةِ .. والمقصود بذلك النبيّ محمّد (ص) الذي ورد في متنِ الإنجيل بإسم البركليت ، وهو الصوت الذي يصرخ في الصحراء ، وهو أيضاً الصولجان الذي سنشيرُ إليهِ فيما بعد إن شاء الله تعالى ..

من هنا ، لا يمكننا على الإطلاق ومن باب المنطق العلمي والدراسة التاريخيّة أن نسلّم بما جاء في إنجيل متّى (١٢ : ١٧) من أنّ هذهِ البشارة جاءت بخصوصِ المسيح عيسى بن مريم ، وذلك من عدّة وجوه أهمّها :

١.إنّ المبعوث هذا ، إنّما هو مبعوثٌ بشريعةٍ ، والمسيح ليس كذلك ، بل أقرَّ المسيحُ بهِ وبشّرَ بشريعتهِ أيضاً ففي متنِ الإنجيلِ قال (ومتى جاء ذلك البركليت (أحمد) فإنَّهُ سيبكّت العالم على خطيئةٍ وعلى برٍّ وعلى دينونةٍ ..) .

٢. يضاف إلى ذلك شهادة ما جاء في بشارةِ النبوّاتِ من أرضِ سيناء وسعير وفاران وقد وردت بالتوراة الموثّق أيضاً من الكنيسة المسيحيّة بخصوص وصيّة موسى بالحرف التالي : (**جاء الربّ من سيناء ، وأشرق عليهم من سعير ، وتلألأ من جبال فاران ، حيث خرج وسط عشرة آلاف قدّيس ، تشعّ لهم من يمينهِ أنوار الشريعة .. إنّه يحبّ أيضاً جميع الشعوب ، جميع هؤلاءِ القدّيسين هم في يدك ، وهم جالسون عند قدميك يتلقّون أقوالك**) .. هذا النصّ يصرّ ويؤكّد أنّ النبيّ الذي يُبعث من جبالِ فاران (الحجاز ، مكّة) يخرج وسط القدّسين (الأصحاب) وتشعّ لهم عن يمينهِ أنوار الشريعةِ .. لا شكّ أنّ هذا هو البركليت ، وعليهِ تنطبقُ مواصفات ما بشّر بهِ عيسى بن مريم .. ومن الجهةِ العلميّة لا يمكن غير ذلك ..

٣.وعلى سبيل إضافة النقاش إلى معانٍ أخرى ، فإنّني أشير إلى أنّ ما أورده بعض شرّاح الإنجيل من أنّ هذا النصّ وارد في المسيح وهذا واضح القصور والفشل ويردّه أنّ يسوع المسيح هو صاحب تعاليم وليس صاحب شريعة ، أيضاً الوارد في النصّ أنّ المبشَّرَ بهِ هو عبد مخلوق بينما تدّعي النصارى البولسيّة في المسيح أنّ جوهرهُ لاهوتيّ وليس

ناسوتيًّا .. من هنا كان لا بدَّ من رفع التعارضِ حين أصرّوا على كتابة هذا التوصيف في صالحِ النبيّ عيسى المسيح (ع) ولو من خلال تغيير ترجمة النصّ العبري إلى اللغات الأخرى وعليهِ قالوا في بعضِها : (يعقوب عبدي ، سأساعدهُ ، إسرائيل مختاري ، تقبّلته نفسي ..) وهذا كما ترى فادح جدًّا ، وخطير في بيان الأمر ، لأنّ صاحب هذهِ النبوءة هو النبي أشعياء (ع) وقد عاش في زمن بعد النبيّ يعقوب بعدّة قرون ، كما أنّ المبشرّ بهِ حسب النصّ هو صاحب شريعة يكون لجميعِ الأممِ بينما لم يكن يعقوب كذلك .. كما أنّ أصل النصّ العبري يذكر فقط كلمة (هذا عبدي) و لم ترد قطّ كلمة يعقوب .. وكيف يكون الأمر كذلك والنبيّ أشعياء جاء بعد النبيّ يعقوب بعدّة قرون ..! إذاً كيف تكون هذه بشارة مستقبليّة ..! لا شكّ أنّ الأمر مدهش ومذهل في آنٍ معاً ، على الأقلّ مورد التفسير هنا للماضي ، فهل تكون البشارة لما مضى وحصل وتمّ ..!

ثمّ إنّ هذا التشويه للنصّ خطير جدًّا ، ومستهجن ، ومَن أقدم على مثلِ هذا الأمر من التشويه كان دقيق الفهمِ لمفاد هذا النصّ ، لأنّ هذا النصّ بوصفهِ لا ينطبق إطلاقاً على المسيح ، وانّ المقصود بهِ نبيّ آخر .. ولأنّ النصّ موجود ، ولا بدّ من جوابٍ علميّ مقنعٍ كان لا بدَّ من إدخال لفظ من شأنهِ أن يحرف المعنى عن صوابيّةِ ما يمكن أن يستفاد منه ، خاصّة أنّ لفظ " البركليت " مزعج جدًّا في تخريجِهِ ، ووصيّة موسى لا يمكن أن يتمّ لها إخراج إلا بإضافات من

شأنها أن تساهم في نسف جزئيّ للمعنى ، أو على الأقلّ تُشَوِّهُ المطلوب فتمنع من أيِّ معنىً آخر .. في ظلّ إشارات واضحة في متنِ الإنجيل عبر النصّ الواضح الذي ينصّ على بعثةِ نبيٍّ آخر .. سبحان الله إلى هذا المستوى بلغ التعامل مع الحرف الأصليّ .. وكنت قد أشرت إلى أنّ التعامل مع النسخ الأصليّة بيَّن أنّ البشر تلاعبوا بشكلٍ جليٍّ بهيئةِ الكلمات ومعانيها ، وحذفوا بعضاً منها ، وشوّهوا مجموعةً من حقائقِها .. لكنّ كلّ تحريفٍ من هذا النوع ، فيما خصّ النصوص التي أشرت إليها أعلاه ، باءَ بالفشلِ الذريع ، لأنّ مَن حاول التحريف ولو عبر الترجمة ، فاتَهُ وجود النصّ الأصلي مرّة ، وتعدّد النسخ مرّةً ثانية ، وعدم التطابق الزمني والتاريخي مرّةً ثالثةً ، أو قصور المتن وعجزه عن تحمّل مثل هذهِ الإضافات ، وهكذا .. حتى أنّ من حاول التزوير هنا أدخل إسم يعقوب من دون أن يدرك أنّ أشعياء قد جاء بعد النبيّ يعقوب بعدّة قرون ..! أيّ غرابةٍ هذهِ .. ! بل أيُّ قصور وأيُّ كارثة ..! كيف تكون هذهِ بشارة ويعقوب منذ قرونٍ قد توفّي ..! من هنا علّق جون فنتون على ما جاء في إنجيل متّى قائلاً :

(من الواضحِ أنَّ متّى لم يتّبع نصّ أيٍّ من النسختين العبريّةِ أو الإغريقيّةِ ، لكنّه أخذ النصوص حسبما رآها تتناسب مع رأيهِ ، في أنَّ النبوّة تحقّقت في يسوع وفي الكنيسةِ .. ولقد حذف متّى سطرين من أشعياء (٤٢: ١-٤) لكنّه أبقى على السطرِ الأخير الذي رأى أنّه يحقّق هدفَهُ) ..

لا شكّ أنَّ هذا النحو من النتائج كارثيّ ، وهذهِ شهادة على حقيقةِ ما أشرتُ إليهِ ... وما تجدرُ الإشارةُ له هنا هو أنّني قد بيّنت فيما سبق أنَّ مجموعة

من مؤشّراتٍ ووثائق وتفسيرات تؤكّدُ أنّ من كتبوا وصاغوا الكتاب المقدّس وقعوا في مشكلة جزئيّة على الأقلّ ، تبنّوا خلالها مجموعة من عناوين تفسيريّة وإضافيّة أسندوها إلى يسوع المسيح ، مع أنّها هي إستخلاصات شخصيّة ، وتفسيرات ذاتيّة محضة ، يمكن أن تصيب كما يمكن أن تخطئ ، كما هي الحال في بيان أسماء أو عناوين أصحابِ البشارةِ وشبه ذلك ، بل وصل الحدّ في بعضِ من كتب هذهِ الوثائق أو ترجمها إلى درجة أضافَ معها عبارات أو حذف أو بدّل فيها عمداً ، قياساً على مفاهيمهِ وعقيدتهِ في المسيح ، لمنع نبوّة محمّد ، أو أيّ نبيّ آخر من بعدهِ ..! وهذا من أفدح الأخطاء التي أصابت متن النصّ الذي يُراد منه أن يكون نصّاً كما هو ، وأن يشار إلى التفسير كتفسير ، وليس كنصّ منسوبٍ إلى مقامِ النبيّ أو الربّ ، في حين الواقع مخيف جدّاً من خلالِ هذهِ العمليّات التي لم تراعِ أبداً جانب الموضوعيّة في تسجيل الأحداثِ وحقائق التعاليم ، على الأقلّ لم تستوفِ شروط النصّ الكامل ..

ومع كلّ هذا ، أليس من الواجبِ أن ندقّق جدّاً بمثلِ هذهِ النصوص ، نصوص البشارة أو الوصيّة وغيرها ..! أليس الأمر حتميّاً من منظارِ الحقيقة ..! ألا تبدو مادة النصّ في هيئتِها هذهِ حتميّةً في استوقافنا أمام معانيها ؟ في استنطاقِها ؟ في إعادة النظر فيها ؟ في إعادة تركيب الضمائم المتنيّة ؟ خاصّةً أنّ البشارة مركّزة بشكلٍ جليٍّ على نبيّ الشريعة ؟ على نبي جبال فاران ؟ على البركليت ؟ على الصولجان ..؟ وهذهِ العناوين دقيقة جدّاً في حذف الإشارة إلى يسوع المسيح (ع) وهي تصرّ على ضرورة إدخال نبي آخر تحت المجهر لتشير إليهِ وتنطبق عليهِ .. من البركليت إلى نبيٍّ جبال فاران (مكّة ، الحجاز) إلى أوصاف

وردت في كتاب النبيّ أشعياء وهي بالغة الدلالة وبشكلٍ حصريٍّ في رسولِ اللهِ محمّد (ص) .. كلُّ شيءٍ يدلُّ على بشارةِ الأنبياءِ برسولِ اللهِ محمّد (ص) ، بل جاء في سفر التكوين من الإصحاحِ التاسعِ والأربعين أنّ نبيّ اللهِ يعقوب (ع) قال لأبنائِهِ وهو يوصيهم :

(لا يزول صولجان من يهوذا ، ومشترع من
صلبِهِ ، حتى يأتي شيلوه ، وتطيعهُ الشعوب)[1]

ثمّ أضاف في مقامِ وصفِهِ قائلاً :

(عيناه أشدُّ سواداً من الخمر ، وأسنانه
أشدّ بياضاً من اللبنِ ..)[2]

ولقد احتفظت جميع نُسَخ العهدِ القديمِ بكلمة (شيلوه) الأصليّة ، من دون إعطائِها أيّة ترجمة إلى اللغاتِ الأخرى ، نقلوها كما هي ، لم يجروا عليها أيّ تعديلٍ متّصلٍ بمعنىً ما من معانيها . وقد تسأل : لماذا ..؟ هل هناك صعوبة في تفسيرِ معناها .. ؟ أم هناك أزمة في تفسيرِ معناها ..؟ هل تؤثّر في مبتغى شرّاح الكتاب المقدّس .. ؟ هل هناك مشكلة في إعطاءِها معناها الحقيقيّ ..؟ هل هذهِ الصفة لا تنطبق على يسوع المسيح ..؟ لماذا لا تنطبق عليهِ ..؟ وعلى مَن تنطبق ..؟ هل هي إشارة إلى نبيٍّ آخر ، فكان لا بدَّ من حذفِ معناها وسوقِها بحرفِها دون ترجمة لتبقى لغزاً على أيّ قارئ ، وليذهب ذهنُهُ إلى ما

---

[1] سفر التكوين ٤٩ : ١٠ العهد العتيق ، المطبعة الكاثوليكيّة بيروت ..

[2] سفر التكوين ٤٩ : ١٢

تعتقد بهِ كنيسة الكتابِ المقدّس دون غيرِها ..؟ وفعلاً ، تمَّ الأمرُ على هذا النحو فنقلوا الكلمة كما هي بحرفٍ عربيٍّ ، إلا أنَّ حقيقةَ ما جاء في هذهِ الوصيّة ذات الأهميّة الخالدة إستوقفت الكثير من الشرَّاح الذين أعادوا تركيب مجموعة من الأسئلة مثل :

- من هو شيلوه ..؟
- ما هو الرابط بينَهُ وبين ذهاب الصولجان من يهوذا ونسلِهِ .. ؟
- أيّ ربطٍ بين هذا ألــ (شيلوه) وبين نزول مقاليد الصولجان بين يديهِ ..
- أيّ شيلوه ذاك الذي تطيعُهُ شعوب العالم ..
- أيّ شيلوه هذا الذي يوجّه دعوتَهُ نحو العالم مطلقاً ، دون تمييز على الإطلاق .. ؟
- أيّ شيلوه هذا الذي لا يكون من نسلِ يهوذا .. ؟ الأمر هنا وفق كلّ تفسير محرج جدًّاً ومدهش ، لأنَّ النصّ واضح في شخصٍ عظيمٍ من قبلِ اللهِ تعالى ، وهو موضوع البشارة ، والأهمُّ فيهِ أنَّهُ ليس من نسلِ يهوذا .. ؟ إذاً لا بدَّ أن تخرجَ النبوّة من نسلِ يهوذا ..! والأمر هنا مربك وخطير للغايةِ وفق الفكر اليهودي المسيحيّ .. إذاً هناك نبيّ غير يسوع المسيح ..! هناك نبيّ تطيعُهُ الشعوب .. هناك نبيّ يوجّه دعوتَهُ العالميّة نحو الأمم .. هناك مَن ترحّم عليهِ الأنبياء وخاطبوهُ بنوعٍ من خشوعٍ وحنانٍ وتعظيمٍ .. هناك رجل عظيم ونبيّ له شرف كبير شاء اللهُ أن يُوردَ صفاته

ــ كما هي عادة أيِّ بشارةٍ ــ على نحوٍ من كناياتٍ واستعاراتٍ وتلميحٍ ومجازات لها معانٍ واضحة ودقيقة ، وهذهِ هي العادة في أيّ بشارة ..

ولأنَّ حجمَ الأسئلةِ ونوعَها هو على نحوٍ من إثارةٍ ضروريّةٍ كان لا بدَّ من الدخولِ في تفسيرِ حقيقة شيلوه ، وسنرى أنَّ بعضاً من الشرّاح حاول طمس هويّة المقصود من هذهِ العبارة إلا أنّه دخل في نفقٍ مظلمٍ حائرٍ ، لأنَّ طبيعة النصّ أكبر وأعمق من أيّ تزويرٍ على الإطلاق .. وعليهِ : فقد أشارت بعض طبعات الكتابِ المقدّسِ كما بعض الطبعات العربيّة إلى أنّ كلمة شيلوه تعني :

١. مَن له الحكم ، أو الذي له عصا أو صولجان الحكم .. وهذهِ إشارة كبرى في حقِّ رسولِ اللهِ محمّد (ص) الذي بُعِثَ بالشريعةِ وليس بالتعاليم فقط ..

٢. الذي سوف يُرسل أو الرسول ، ويكون له شأنٌ من حكمٍ وسلطنةٍ .. وهذا دليلٌ عميقٌ على تتابع الرسالةِ ، ودليل حتميّ على صفةِ الرسول محمّد (ص) ومفتاح قويّ على حقيقة البركليت ونبيّ جبال فاران وما جاء في وصيّة النبي أشعياء ، وما بشَّرَ بهِ النبي يحيا عليهِ السلام (يوحنّا المعمدان) ..

٣. الداعي للسلام ، أو الذي يعمل من أجل السلام ، وهو في مقامِ الحكمِ بخصوصِ إشارةِ الصولجان .. وهذهِ صفة لا تنطبقُ على نبيٍّ من الأنبياءِ كما تنطبقُ على رسولِ اللهِ محمّد (ص) ، وهي بطبيعة الحال لا تنطبقُ

على يسوع المسيح باتفاقِ أربابِ الكنيسةِ ، لأنّه بُعِثَ بالتعاليم دون الشريعة ..

٤. (مُخْمِد الفِتَن) وأنّه في مقامِ يسمح له بذلك لأنّ الصولجان ينتقل إليهِ وهذا لا يمكن أن ينطبق على يسوع المسيح لأنّه مبعوث التعاليم ، في حين الذي بُعث بالشريعةِ هو رسولُ اللهِ محمّد (ص) (نبي جبال فاران ، مكّة) ..

وكان ما ورد أعلاه الشطر الأوّل من محاولة تفسير المراد النظري من شيلوه : مَن هو ، وما هي صفاتُهُ .. لكن " هو هو " في عالمِ الواقعِ ، هل هو يسوع المسيح ، أم شخص آخر ..؟ هنا اختلف علماء اليهودِ والنصارى في تفسيرِ شخصيّةِ شيلوه ..؟ من هي ..؟ ارتبكوا واضطربوا جدًّا ــ وكلّ من يقرأ شروحاتِهم يدرك ذلك بشكلٍ واضحٍ ومثير ــ فالمسيحيّون خرّجوا هذا النصّ ظاهريّاً على أساسِ أنّ شيلوه هو يسوع المسيح حتى ولو لم تنطبق عليهِ الصفات الضروريّة ..! واليهود يؤكّدون أنّه لم يأتِ بعد ، وما زالوا ينتظرونَ قدومَهُ ، ليتوّجوه مَلِكاً على العالمِ ، فيحكم جميع شعوبِ العالمِ وتكون له السلطنة عليهم .. إلا أنّ مجموعة من كبار الباحثين توقفوا أمام توصيف يسوع المسيح بهذا الوصف ، واصرّوا على أنّه من غير الممكنِ أن يكون وراداً في حقّهِ ، فلا توجد أي صفةٍ ممكنة فيهِ ، فهو لم يبعث بالصولجان ، وبالتالي هو مبعوث بالتعاليم وليس بالشريعة ، وأكثر من ذلك النصّ واضح في أنّ هذا النبيّ هو من غيرِ نسلِ يهوذا ــ وهذا الأمر مفصليّ جدًّا ومدهش ــ فلا يمكن على الإطلاق القول بأنّه يسوع الناصري .. من هنا فإنّه لا يمكن أن يكون هو ، وهذا الحكم

نهائي واضح ومطلق .. وكلّ ما تمّ التفسر بهِ ، لا يمكن أن ينطبق على بعثةِ يسوع المسيح .. إذاً هناك غيرهُ ممّن هو نبيّ ، يبعث بالصولجان ، بالشريعة ، ويكون من غيرِ نسلِ يهوذا .. وعلى كلّ حال ، لا يمكن أن يلتزم أيٌّ من أربابِ الكنيسة أو الباحثين أو الشرّاح بحقيقةِ أنّ شيلوه هو يسوع الناصريّ ، ولا يمكن أن يساعدهُ على ذلك أيّ شاهدٍ أو شهادة تاريخيّة أو حقيقة نظريّة .. إذاً ، الأمر نهائيّ في صاحبِ نبوّةِ جبال فاران (نبيّ يُبعث من مكّة) ولا يمكنُ تجاوز هذا التفسير إلى غيرِهِ إلى الإطلاق .. وما دام أنّنا في سياقِ الإشارةِ إلى البشارةِ برسولِ الله محمّد أحبُّ أن أعرض عليك مطابقة مذهلة بين نصّين ، ورد الأوّل في القرآن ، والثاني في الكتاب المقّدس في خصوص وصيّة يعقوب الواردة أعلاه ، وهي موضوع بحثِنا الآن . وكلاهما ينقل إلينا وصيّة النبيّ يعقوب وبشارته برسولِ الله محمّد (ص) .. فقد ورد في آيةٍ قرآنيّةٍ مجموع لفظ ستجد أنه مطابق بشدّة لوصيّة يعقوب الواردة في الكتابِ المقدّس وهذهِ الآية على نحوِ مذهلٍ في مطابقتِها ودلالتِها لما ورد في لسان يعقوب ، حيث يقول الله تعالى :

- (.. أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ،
- إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ؟
- قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(١٣٣) البقرة .

وبطبيعة الحال ، النبي يعقوب كان في مقام الوصيّة ، يشرح أبعاد كبرى ذات بُعد إستخلافي وذلك لما يمثّل من سفارةٍ إلهيّة ، كنبيٍّ في طولِ مسيرة النبيين من بعدِهِ .. وحتى ترى النتيجة بشكلٍ دقيق لا بدَّ أولاً من تشريح نص الوصيّة لعرضهِ على المعاني التاريخيّة والحقائق العلميّة في هذا المجال وإليك الأمور التالية :

١. كان النبيّ يعقوب يشير على أبنائهِ ومنهم إلى العالمِ أنَّ أمور والحكم والشريعةِ ستظلّ في بني إسرائيل حتى يأتي " شيلوه " ، وحين يأتي شيلوه تؤول إليهِ الشريعةُ الإلهيّة ، التي ينضوي تحت لوائها شعوبُ العالمِ ، أو على الأقلّ تلك الشريعة التي تكون موجّة إلى العالمِ ، وبنهاية المطاف تحكم شعوب العالم ..

٢. بطبيعة الحال ، لا يمكن أن يتمّ وصف الشريعة على يسوع الناصريّ لجهةِ أنّه لم يأتِ بالشريعةِ ، إنّما أبقى على شريعةِ موسى ، وجاء بالتعاليم ، وهذا أمر إتفاقي في لسان أربابِ الكنيسةِ من أنَّ يسوع المسيح لم يكن صاحب صولجان ..

٣. إنّ يسوع المسيح (عيسى بن مريم) من بني إسرائيل ، ومن أحفاد يهوذا من جهةِ أمِّهِ .. وفي واردِ النصِّ وبشكلٍ واضحٍ أنَّ الذي يُبعثُ هو من غيرِ نسلِ يهوذا .. وبذلك ينقطع نسلُ يهوذا في مقامِ النبوات ..

٤. إنّ سلطنة يسوع الناصري (عيسى بن مريم) على شعوبِ العالم أمر لم يتمّ ، حتى انَّ أتباعه حاربوهُ ، بل هو لم يبعث أصلاً بالصولجان وذلك باتفاق الكنائسِ على اختلافِ مشاربِها .. كما أنَّ في متنِ الإنجيل إشارة

إلى أنّ عيسى بن مريم لم يرسل إلا إلى بني إسرائيل ففي إنجيل متّى (١٥ ك ٢٤) : (لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل) .. وقد ورد هذا اللفظ بأكثر من مقامٍ وجهة في الأناجيل ..

إذاً ، لا شكّ أنّ وصف يسوع الناصريّ (عيسى بن مريم) بما جاء في متنِ هذا النصّ واضح المنع ، ولا يمكن أن يسلّم بهِ أيّ مدقّق تاريخي أو باحثٍ علميّ .. وعليهِ : الأمر والوصيّة في غيرهِ ، خاصّةً أنّ النصّ يشير بشكلٍ دقيقٍ وحاسمٍ إلى أنّ الحكم يظلّ ببني إسرائيل إلى أن يأتي شيلوه فينقطع عنهم .. إذن هو من غيرِهِم ، وهذا الوصف لا يمكن أن يتمّ وينطبق إلا بما ورد من شخص " البركليت " في الإنجيل وما ورد في وصيّة موسى بنبيٍّ جبال فاران (مكّة) .. ثمّ إنّ تطبيقه على موسى واضح المنع ، من هنا حاول اليهود أن يؤوِّلوه على نحو بشارة في نبيٍّ ما ، يأتي في آخر الزمان ، فيتوّجونه ملكاً على شعوبِ العالم .. فأيّ دليلٍ هذا برسولِ الله محمّد .. ولقد أثبت التاريخ العام ، بكلّ مشاربهِ ، أنّ اليهود قبل بعثةِ رسولِ الله محمّد كانوا يصرخون على الملأ أنّ موعد بعثةِ ذلك الرسول قد اقتربَ ، وأنّهم سيقاتلون بهِ العرب وغيرهم ، وأنّهم سيتوّجونَهُ ملكاً عليهم .. فأيُّ عظمةٍ تكمنُ في هذا النصّ ..وأيّ دليلٍ بعد كلّ هذا .. كلُّ النصوصِ تصبُّ وبشكلٍ نهائيٍّ وكاملٍ في صالحِ نبيّ الشريعة ، نبيّ الصولجان شيلوه ، نبيّ جبال فاران ، نبيّ وصية يعقوب ، نبيّ بشارة ووصيّة أشعياء ، نبيّ بشارة النبيّ يحيا ، في صالح البركليت .. كلُّ الأقلامِ وعلى رأسِهِم أربابُ الكنيسة واليهود اضطربوا أمام هذهِ الحقيقة ، فكان أن عملوا على نقل هذهِ الأسماء على ما هي عليهِ من دون أن يعرّبوها إلى المعاني العربيّة ، وبعد ذلك

حاولوا أن يطمسوا من معالمها بنحوٍ من تفسيرٍ عموميٍّ وتطبيقٍ مختلفٍ بهدف حرف أيّ تفسير آخر في إمكان الإقرار برسولٍ آخر من غيرِ نسلِ يهوذا ، نبيّ يكون صاحب شريعة ، نبيّ يكون مصداقاً فعليًّا لوصيّة موسى وبشارتِهِ بنبيّ جبال فاران .. إلا أنّ طبيعة النصّ وبمشيئةِ الله تعالى كانت أكبر من أيٍّ ممانعة أو محاولة للتحريف حتى أنّ مجموعة كبيرة من الباحثين أصرّت على أنّ أيّ تفسيرٍ في يسوع لا يمكن أن يقوم على الإطلاق ، ولا يمكن ان يوجد فيهِ أيّ شاهدٍ أو شهادة تاريخيّة ، بل الأمر يتعدّى نبوّة يسوع إلى نبيٍّ آخر ..

وكما ترى في كلام اليهودِ والنصارى هنا لا يوجد شيئ على الإطلاقِ مقنع ، لا يوجد شيئ من شأنِهِ أن يزيل التحديد عن ذاك البركليت ، عن نبي جبال فاران (مكّة) .. بل لا يوجد ايّ تفسيرٍ علميٌّ من شأنِهِ أن يحدّد أيّ شخصيّةٍ (وفق المنطق العلمي في تفسير الكتاب المقدّس) إلا ما ورد في كتاب أشعياء ووصيّة موسى وما أشار إليهِ يسوع المسيح من البركليت .. فقد جاء في متنِ الإنجيل عن المسيح : (ومتى جاء ذلك البركليت (أحمد) فإنَّهُ سيبكّت العالم على خطيئةٍ وعلى برٍّ وعلى دينونةٍ ..) .. إنّه وحدهُ من يكون له الصولجان والشريعة ، وانّه وحدهُ من يطيعُهُ العالم ، وأنّه وحدهُ بعد موسى الذي بُعِث بالشريعةِ للعالمين .. وما يؤكّد هذا أنّه وحدهُ المذكور في وصيّة موسى ، وفي لسانِ المسيح عيسى وفي وصيّة يعقوب وفي كتاب أشعياء فهل يكون هناك تفسير علميّ آخر له معنى يقيني على هذا المستوى في غير رسول اللهِ محمّد ..! إنّ من يقرأ كلّ التفاسير والشروحات الواردة في تفسير هذهِ العبارة ومحاولة ردّها وحرفِها بشكلٍ علميّ ، إلى معنى متّصل بما ورد في المتن يجدها كلّها

مضطربة ، قاصرة ، حائرة ، فردّها إلى المسيح واضح المنع والهزالة ولا شاهد له على ذلك ، وكلّ شيءٍ يخالفهُ ، بل طبيعة النصّ والشريعة والصولجان تمنع عليهِ ذلك ، وهو أمر واضح في المعاني الضمنيّة من كتابات شرّاح الإنجيل ، لكن لأنّهم مصرّون على أنّ المسيح عيسى بن مريم هو آخر نبيّ ، كان لا بدَّ من محاولة تفسير على هذا النحو بشكلٍ يمنع التنبّئ بإمكانيّة مجيئ ايّ نبيّ بعد المسيح ولو كان على حساب النصّ نفسهِ وعلى قيمتهِ في الدلالة ، وبطريقةٍ أخرى : لا بأس بتشويه النصّ لمنع أيّ دلالةٍ ممكنة على أيّ نبيّ آخر سيُبعث بعد يسوع الناصريّ ..!

المشكلة انّنا نُحمّل النصّ في كثيرٍ من مواقع التفسير أكثر ممّا يحمل ، بل نَحْمِلْهُ على أكثر من معنىً لا دخل لهُ في بيانهِ ، ومع أنّ متن الإنجيل والتوراة يجب أن يكون موجّهاً ، تاريخيّاً ، تفسيريّاً ، تطبيقيّاً ، تحت المجموعة الواردة بهذا الخصوص ، إلا أنّ مجموعة الشرّاح للإنجيل يعيدون كتابة المعنى على شكل يخالف حتى المنطوق والمفهوم لمتنِ هذا الكتابِ المقدّس ..! إلا أنّ بعضهم أصرَّ على أنّ هناك أزمة ما لا بدَّ من إعادة بناءِ نصِّها ، لأنّ الموجود من شروحات لمثلِ هذهِ النصوص غير ممكن الإنطباق عليها على الإطلاق .. لذا فإنّ من أكبر الأخطاء التي وقع بها الشرّاح أنّهم وضعوا أصول تفسير وتوجيه للنصّ بشكلٍ تبرّعي أو استباقيّ ، من دون ايّ شاهدٍ في منع النبوّةِ بعد المسيح .. من هنا فإنّنا نجد مشكلة التفسير والتأويل وهي تضرب بعنف في أكثر من موقعٍ وموقفٍ وآية وإصحاح :

- من هو البركليت .. ؟

- من هو شيلوه .. ؟
- من هو صاحب نبوّة جبال فاران .. ؟
- من هو المقصود في وصيّة يعقوب .. ؟
- على مَن تنطبق مواصفات كتاب أشعياء .. ؟

وغيرها كثير جدًّا ، وهي قضايا تعتبر الأصعب أمام الذهن اليهودي المسيحي ، وفق القاعدة العلميّة في التفسير ، وردّ العبارة إلى معناها المقصود .. لذلك فإنّنا نجد هنا أنّ من يحاول التفسير يعمد إلى إدخال مجموعة من قيم تبرّعيّة فرضيّة غير مذكورة في الإنجيل أو التوراة أو هي غير متّصلة بامتداد المفهوم ليعتمدها جسراً عبوريّاً للتأويل ، في محاولة فاشلة جدًّا لحرف المعنى الحقيقيّ لمتن النصّ في الكتاب المقدّس بهدف منع تحقيق غاياتهِ الضروريّة .. إنّه خطأ علمي ، خطأ في التأويل ، خطأ في التفسير ، خروج عن اصل القاعدة ، خروج حتى عن الإستثناء .. ماذا يفعل الذهن اللاهوتي أمام هذهِ المسألة ..! لا بدَّ من التسليم بالأمر كذلك من دون إضافة من شأنِها أن تؤثّر على حقيقة الإنتماء وفقط ..! وكما ترى الأمر غير مقنع ، خاصّة أنّ الخروج عن القاعدة العلميّة في التفسير أمر لا بدّ له من مبرّر ..! وفي كلّ حالة نفرض فيها قيماً فكريّة ولاهوتيّة خارجيّة لتكون موجّهاً تفسيريّاً لا بدّ في ذلك من علميّتها وبيان شاهدها من متنِ التعاليم الكليّة للكتاب المقدّسِ ، لا أن نخترع إشارة لاهوتيّة أو فكريّة أو قيمة بلا دليل ثمّ نعبر منها إلى تفسيرٍ ومرادٍ آخر ..

ورغم المحاولات الواسعة لحرف المعنى عن مرادهِ الأصيل بقي النصّ شامخاً في دلالتهِ على أنّ المقصود بذلك هو النبيّ محمّد (ص) .. فهل نحتاج إلى

تعبير أكثر من كلمة (جبال فاران) .. ألم تقرّ الكنيسة بالنصّ هذا ؟ ألم تنطق بِهِ المحافل العلميّة واللاهوتيّة ..؟ فماذا بعد ..؟ ألا يحقّ أن نقف أمام مجموعة دقيقة من المواقف التاريخيّة والآيات القرآنيّة التي كانت تشير وبشكلٍ وثيقٍ إلى أنّ علماء اليهودِ والنصارى كانوا يعلمون حقيقة رسولِ الله محمّد وبين أيديهم الشواهد من التوراة الإنجيل على ذلك .. لقد اتّهم الوثنيّون (عبّاد الحجارةِ والأصنام) النبيّ محمّد بالكذب (حاشا للهِ تعالى ذلك) ثمّ بعد ذلك وأمام هذا الإعجاز المذهلِ آمنوا ودخلوا الإسلام . بينما اليهود والنصارى تعاملوا مع الأمر من زاوية أخرى ، من زاوية أنّ هناك مجموعة دامغة من الشواهد على رسولِ الله محمّد (ص) فآمن قوم ودخلوا الإسلام ، ومن لم يؤمن عاش صراع الوجود والميزة الإنتمائيّة قياساً على صراعٍ أرادهُ دنيويّاً ضدّ رسولِ الله محمّد ، لا من موقعِ أنّ النبيّ لا شاهد على نبوّتهِ .. من هنا عبّرت عنه الآيات القرآنيّة بأنّه كفر لأنّه مأخوذٌ فيهِ التغطية والستر للحقيقةِ المراد إظهارها .. إنّه فارق جدير أن ننتبه له في ظلّ كتابة تاريخيّة تسجيليّة لهذا المنحنى في هذا الإتّجاه على طول سلسلةِ حياة النبيّ (ص) .. وإليك بعضاً منها :

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ(٨٩) البقرة .

في هذهِ الآية إشارة دقيقة مفادها أنّ ما جاء بِهِ رسول اللهِ مصدّق بشواهد ممّا بين أيدي أهل الكتاب (اليهود والنصارى) ووصل الحدّ إلى درجة

أنّ اليهود كانوا يستفتحون بذلك على العربِ وعبّاد الأوثان .. من هنا أشار الله تعالى إلى أنّ هؤلاءِ عرفوا ما جاء بهِ النبيّ من عند اللهِ لما هو بين أيديهم .. ولهذا كان تعبير لفظ " كفروا " في غاية الإشارة والبيان .. لأنّ الكفر يكون عن معرفة ، لأنّ الكفر والتغطية والتخبئة والتستّر على الحقيقة يكون بعد الشواهد وظهورِ الحقيقة .. ولقد أتحفنا التاريخ بمجموع واسعةٍ من الحوارات التي كان الرسول يقيمها مع اليهود والنصارى ويستدلّ بما لديهم على ما عندهُ .. ويكفي ان نقرأ ما ورد في الإحتجاج للطبرسي في ظلّ أهمّ دلالة على المعاني المرتبطة بهذا المحور من الإستدلال على ما بين يديهِ بما لديهم من التوراة والإنجيل .. مع انّنا وبعدما أوردت عليك ما جاء في متن التوراة والإنجيل من الشواهد التي أشرت إليها أعلاه أصبحنا غنيين عن أيّ شيئٍ آخر ..

إلا أنّني ومع كلّ هذا أحبّ أن أشير إلى أنّ التاريخ بيّن كثيراً من أحوال أحبار اليهودِ والنصارى عندما كانوا يقفون بين يدي رسولِ اللهِ (ص) لطلب الحجّة على ما جاء بهِ فيقرأ عليهم بمجموعةٍ واسعةً ممّا في كتبِهم حتى يؤمنوا وما زال التاريخ يؤرّخ كثيراً من الصورِ المحدّدة لهذهِ المعاني والمواقف .. أمّا من يصرّ على رفضِ الحجّةِ فهو ممّن نبذ الكتاب وراء ظهرِهِ .. بهذا التعبير أراد اللهُ أن يضمّن آياتهِ معانٍ دقيقة من ثباتِ الحجّة ونكرانِها على طريقة الكفر مرّة والنبذ مرّة أخرى .. هذا التعبير ورد في خصوصِ الذين يعلمون حقّانية ما جاء بهِ النبيّ فكفروا ، وكأنّ الخطاب موجّه إلى علماء اليهودِ والنصارى وكلّ من يعلم حقّانيّة أمر الرسولِ (ص) .. فقد قال اللهُ تعالى : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ

اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(١٠١)[1]

وكما تُلاحظ ، في ذيل الآية تعبير (كأنّهم لا يعلمون) حجّة النبيّ أنّه حجّهم واستدلّ عليهم بما يعلمون ، بما في كتبهم من الآيات الدالّة على نبوّته ، بما في متنِ التوراة والإنجيل .. لذا فإنّ المشهد هناك إنقسم على صورتين : قسم كفر فنبذ الكتاب وما يعلم ، وقسم آمن ففاضت عيناه من الدموعِ خشوعاً .. وها قد سجّل الله واحدةً من معاني الصور تلك لتظلّ شاهداً عميقاً في ذاكرة التاريخ وما يتّصل به إلى يومِ الدين ، لتكون معبراً إلى قراءةٍ دقيقة ، لما ورد في متنِ التوراة والإنجيل والقرآن .. فقال تعالى بحقّهم : (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ(٨٣)[2] .. ففي هذهِ الآية يشير إلى أنّ إيمان هؤلاءِ إنّما كان بسببِ ما عرفوا ، أي بسببِ ما عندهم من التصديقِ بما عليه رسولُ اللهِ محمّد . من هنا فإنّهم سلّموا وآمنوا واعتقدوا لأنّ تمام الحجّة في ذلك هو أن يؤمنوا .. ثمّ إنّ هناك جملة من آياتٍ بيّنة تشير إلى معنى إرتباطي في غايةِ الدقّة بين ما عليهِ رسولُ اللهِ محمّد (ص) وما عليهِ الرسالات السابقة من ترابطٍ ووحدةٍ واتصال منها قول اللهِ تعالى ..

ـ (قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا

---

[1] سورة البقرة .

[2] سورة المائدة .

أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(٨٤) آل عمران

ـ (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(٤٦) العنكبوت

ـ (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) الأحقاف .

وعليهِ : يكون معنى الشاهد من خلال بيان جملة من معاني البشارة ، عبر مجموعة العناوين المتّصلة بنبوّة المستقبل ، كما هي الحال مع وصيّة موسى وبشارة عيسى ووصيّة يعقوب .. وشبه ذلك .. لقد وصل الأمر ببيان الحجّة إلى درجة أنّ من تُلقى عليهِ الحجّة لا يستطيع ردّها لما فيها من قيمةٍ ثبوتيّةٍ نهائيّة ، من هنا كان يعلن الإيمان بما جاء بهِ رسول اللهِ مع أنّه مصرّ على الكفرِ ونبذ الكتاب في باطنِ قصدهِ كما هي الحالُ مع الذين يُظهِرون الإسلام ويستبطنونَ الكفر ..

ـ (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ(٧٦) البقرة

ـ ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(١٤) البقرة

ألا يجب أن نتوقف أمام المشهد التاريخي هذا ، ألا يجب على الذين لا يعتقدون بالقرآن الكريم أن يسألوا عن مجموعة تاريخيّة متّصلة بهذا المعنى من احتجاج النبيّ .. أليست الحقيقة تحتّم ذلك علينا ... إنّ نفس الحقيقة التي حتّمت عليَّ قراءة الإنجيل والتوراة هي نفسها التي تحتّم عليك قراءة التوراة والإنجيل والقرآن ، والتحقّق من كلّ ما ورد في متنِ هذهِ الكتب لمعرفة عين الحقيقة ..

أريد فقط أن نقف قليلاً عند الإرباك الذي حلّ بشرّاح الكتاب المقدّس عند تفسير بشارة شيلوه ... والذي تجدرُ الإشارةُ له هو أنَّ مفسّري هذهِ البشارة بيّنوا مجموعة من رموزٍ كلّها تتّفق وما عليهِ رسولُ اللهِ محمّد (ص) التي منها : الصولجان أي الحكم والمشرّع ومخمد الفتن والداعي إلى السلام والذي سوف يرسل .. والمهم في تلك الإشارة بيان أنّ النبيّ ذاك إنّما يكون في موقعِ من له السلطة والنبوّة ، وهذه فعلاً اجتمعت برسولِ اللهِ محمّد (ص) .. مضافاً إلى أنّ شيلوه ليس من بني إسرائيل وهذهِ علامة فارقة ومدهشة ، ليضيف معنى مهمّاً في عمليّة تفسير بشارة سيناء وسعير وفاران وما يعنيه نبيّ فاران من الشريعةِ والسلطنةِ والقدّسين .. وتجدرُ الإشارة إلى أنّ أحد كبار علماء المسيحيّة البروفسور عبد الأحد داود الذي اعتنق الإسلام أشار إلى أنَّ معنى كلمة شيلوه هو أمين ، مضافاً إلى معانيها الأخرى ، وما تنطبق عليهِ من مواصفاتٍ محدّدة في

رسولِ اللهِ محمّد ، وصفة " أمين " كانت العبارة البارزة في الدلالة على رسولِ اللهِ محمّد (ص) قبل بعثته ، وقد شاعت هذهِ الصفة عليهِ في الأقطار والأمصار .. وقد كتب " داود " قائلاً في كتابهِ محمّد في الكتاب المقدّس :

(من الحقائق المعروفةِ جيّداً في تاريخِ نبيّ بلادِ العرب أنّه قبل دعوتهِ إلى الرسالةِ كان كثير الهدوء والمسالمة ومحلاً للثقة وذا شخصيّةٍ تأمليةٍ وجذابة ، كان أهل مكّة يسمّونه " محمّد الأمين " وعندما خلع عليهِ أهل مكّة لقب الأمين هذا لم تكن لديهم أدنى فكرة عن (شيلوه) وفي جهلٍ من العرب الوثنيين شاء اللّه أن تختلط الأمور على اليهودِ غيرِ المؤمنين الذين كان بحوزتِهم كتاب مقدّس يعرفون محتوياتِهِ وفعل أمن العربيّ مثل فعل أمان العبري معناه (ثابت مستمرّ مأمون) ، ولذلك فإنّ الهدوء والأمانة والثقة ترينا أنّ كلمة أمين مساوية تماماً لشيلوه وتحمل جميع الدلالات التي تضمّنتها .. وقبل أن يرسل اللّه محمّداً بالدعوةِ إلى الإسلامِ وإزالة الوثنيّة الأمر الذي حقّقه بنجاحٍ كان أهدأ وأصدق رجل في مكّة ، ولم يكن بالمحارب أو المشرّع ولكن بعد أن تحمّل رسالة النبوّة أصبح أفصح المتكلّمين وأشجع العرب وكان يحارب الكفّار وسيفه في يدهِ ليس لمصلحتِهِ الشخصيّة ولكن من أجل مجدِ اللّهِ وقضيّة الدين وهو الإسلام ، وقد عرض اللّه عليهِ مفاتيح كنوز الأرض ولكنّه رفضها ، وعندما توفّي كان فقيراً . إنّ الخدمة الجليلة العظيمة المدهشة التي قدّمها محمّد (ص) خالصةً للّه ولصالح البشريّة لم يقدّمها أيّ مخلوقٍ من

عبادِ اللّه ، ملكاً كان أو نبياً ، أمّا خدمته للّه فإنّه اقتلع جذور الوثنيّة من جزء كبيرٍ من الارض وأمّا خدمته للإنسان فقد قدّم له أكمل دين وأفضل شريعة لإرشادهِ وأمنه وقد اخذ الصولجان والشريعة من اليهود فحصّن الصولجان وبلغت شريعته درجة الكمال)[1]

وقد صدق الله تعالى حيث قال :

ـ (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) الأعراف .

إنّ كلّ هذا وغيرهُ يدلّ على عظيمِ موقعِ رسول الله محمّد (ص) .. إلا أنّ الأهمّيّة الكبرى كانت فيما جاء بهِ النبيّ من كتاب (القرآن الكريم) حيث تعرَّضَ هذا الكتاب لمجموع المفاصل التي تهمّ الإنسانية وحشّد في طيّاتهِ مجموعةً واسعة من المعارفِ التي ما زالت إلى اليوم العماد الأوّل لكلّ حقيقةٍ تصل إليها البشريّة على مستوى ردّ الأمور إلى مصادرِ الوجود واستنطاق النواميس .. من

---

[1] البروفسور عبد الأحد داود : محمّد في الكتاب المقدّس صفحة ٨٢-٨٣

هنا فإنَّ ما ورد في أكثر من وثيقةٍ إنجيليّة عملت الكنيسة على إبطالِها من قبل لمخالفتِها تعاليم بولس أصبح لها الآن أكثر من معنى ، خاصّةً إذا علمنا أنَّ عصر كتابة هذهِ الأناجيل كان عصر خصامٍ إنتصر فيهِ بولس على رسلِ المسيح ، بطرس ويوحنّا ويعقوب وغيرهم ، حتى اتّهم البعض من المسيحيين بولس بأنّه هو من كتب وثائق ومصادر إنجيل مرقس ويوحنّا .. ولا شكّ بأنَّ بولس هو من ترك مجموعة وثائقيّة بعد تسجيلِ إنتصارِهِ وإقامتِهِ الأساس اللاهوتي المسيحي ، وهذهِ الوثائق كان لها الأثر المدوّي .. وعمل أنصارُهُ على إتلافِ أيّ وثيقةٍ تخالفهم ، وحاربوا أيّ تعاليم تعارضهم ، حتى أنّ بولس نفسه إتّهم الرسل الحواريين ، وهم تلامذة المسيح ، وموضوع وصيّتِهِ ، بل هم الرسل الذين أرسلهم بنصٍّ الأناجيل ، إتّهمهم بأنّهم كذبة ، ماكرون ، وغير ذلك من الأوصاف القاتلة .. ومنعهم من التبليغ ، وضغط عليهم ، وشنّ عليهم حملةً واسعةً قاتلة ، إلى أن حقّق إنتصاراً ساحقاً ، وأقام الأساس اللاهوتيّ للمسيحيّة التي نعرفها اليوم ..

لقد وصل الأمر إلى حدٍّ إعلان كلّ وثيقة موافقة لما عليهِ الأناجيل هذهِ قيمة ثبوتيّة تاريخيّة مهمّة جدًّا ، في حين أعلنت الكنيسة براءتَها من أيِّ وثيقةٍ لا توافق هذهِ الأناجيل الأربعة ، مهما كان عمرها التاريخيّ ووثاقتها ، والمثال هذا ينطبق على عشرات الأناجيل ، ومنهم إنجيل برنابا الذي فجّر ضجّة ضخمة في أوروبا والغرب بشكلٍ واسعٍ ، منذ أن عُثِرَ على هذه النسخة التي تمّ الإعتراف بتاريخيّة كتابتِها وقدمِها .. وها هي الآن موجودة في مكتبة بلاط فينا ، وهي تعدُّ من أنفس الذخائر والآثار التاريخيّة ، وهي تقع في ٢٢٥ صفحة سميكة ،

مجلّدة بصفيحتين رقيقتين متينتين .. هما عبارة عن جلدين لونهما داكن ، ضارب إلى الصفرة النحاسيّة ، وورقها مكوّن من الورق المعروف بالقطنيّ ، وهذا دليل آخر على تاريخيّتها ، وهي متينة النسج ، وخشنة ، كما أنّ فيها آثاراً مائيّة في الورق وهي لا تشاهد في أيّ نوعٍ من أنواع الورق الشرقيّ أو ذاك المعروف تاريخيّاً بالتركيّ ، وهي في الصحائف المنوّه عنها على شكل مرساة سفينة تحيط بها دائرة وهي علامة مميّزة وواضحة لنوعٍ من الورق الإيطاليّ .. وكان أوّل من عثَر على النسخة الإيطاليّة هو كريمر ، أحد مستشاري ملك بروسيا ، وكان مقيماً وقتئذٍ في امستردام فأخذها سنة ١٧٠٩ من مكتبة أحد مشاهير ووجهاء المدينة المذكورة ، وقد نقل عن هذا الوجيه المذكور الذي أخذ منه هذه النسخة أنّه قال له انّ هذهِ النسخة نادرة وثمينة جدّاً ، فأقرضها كريمر كولند ثمّ أهداها بعد ذلك بأربع سنين إلى البرنس " أيوجين سافوي " الذي كان على كثرةِ حروبهِ شديد الولع بالعلوم والآثار التاريخيّة ، ثمّ انتقلت النسخة هذهِ سنة ١٧٣٨ مع سائر مكتبة البرنس إلى مكتبة البلاط الملكي في فينّا حيث لا تزال هناك .. وقد شهد أكبر الخبراء والمختصّين على تاريخيّتها المهمّة جدّاً ، ممّا شكل ضجّة ضخمة في الغرب في ذلك الزمن .. وطالما استشهد بها الدكتور هويت في العديد من خطبهِ التي كان يلقيها على الطلبة .. ولمّا شاع خبر إنجيل برنابا في فجر القرن الثامن عشر أحدث دويّاً عظيماً في أندية الدين والعلم لا سيّما في إنكلترا .. فكان أن شُنَّ عليها هجوم صاعق من قبل الكنيسة بهدفِ إبطالِها ، لما تحتوي عليهِ من بشارةٍ واضحةٍ برسولِ اللهِ محمّد بن عبد اللهِ (ص) إضافة إلى مخالفتهِ بمجموعة عديدة من تعاليمِ بولس ..

ولأنّ الموضوع أصبح ضروريّاً جدًّاً ، في ظلّ نوعين من واقعِ الأثر :
الأوّل يتصل بما شاعَ وذاع زمن البعثةِ وما قبلها وما بعدها في لسانِ اليهود والنصارى من نبيٍّ سيُبعثُ وتشهدُ عليهِ التوراة والإنجيل وأنّه مبعوث لا محالة ..
الثاني ما قرأنَاهُ عليك في متنِ الكتابِ المقّدسِ الذي يجمعُ بين دفّتيهِ مضامين التوراةِ والإنجيل من معانٍ مذهلة في رسولِ اللهِ محمّد (ص) .. من هنا فرضت الضرورة علينا أن نعيد قراءة مجموعة من بشارات أكثر من وثيقة ، منها على الأقلّ وثيقة إنجيل برنابا ، التي تشهد بشكلٍ هائلٍ لرسولِ الله محمّد (ص) بالنبوة الكبرى .. وعليهِ : يكون ما ورد في متنِ إنجيلِ برنابا مؤيِّداً ومؤكّداً لما ورد في هذهِ البشارات والوصايا التي تضمنها الكتاب المقدّس الموثّق بشقّيهِ التوراتي والإنجيلي في خصوص البشارة برسولِ الله (ص) ، وقد قيل في برنابا أنّه رسول وحواريّ من رُسلِ يسوع الناصريّ .. إذاً ماذا عن البشارة في رسولِ الله محمّد في هذا الإنجيل (إنجيل برنابا) لتكون دليلاً إضافيّاً مع ما سقناهُ إليك من متنِ الكتاب المقدّس في شقّيهِ الموسويّ واليسوعيّ والذي عليهِ العمل اليوم :

- جاء في الفصل السابع عشر من إنجيل برنابا ، لما طلب فيليبس من يسوع ، معرفة الله ، وأجابه . أجاب فيليبس : ماذا تقول يا سيد ، حقاً لقد كتب في أشعيا أن الله " أبونا " فكيف لا يكون له بنون ؟ أجاب

يسوع : إنه في الأنبياء مكتوب أمثال كثيرة ، لا يجب أن نأخذها بالحرف بل بالمعنى ... ولكن سيأتي بعدي بهاء كل الأنبياء والأطهار ، فيشرق نوراً على ظلمات سائر ما قال الأنبياء ، لأنه رسول الله (محمّد) .. ولما قال هذا ، تنهد يسوع ، وقال : ارأف بإسرائيل أيها الرب الإله ، وانظر بشفقة على إبراهيم ، وعلى ذريته ، لكي يخدموك بإخلاص ..

- وجاء في الفصل التاسع والثلاثين من إنجيل برنابا عند الحديث عن خلق آدم " .. ففتح حينئذ آدم فاه ، وقال : أشكرك أيها الرب إلهي ، لأنك تفضلت فخلقتني ، ولكن أضرع إليك أن تنبأني ما معنى هذه الكلمات : (محمد رسول الله ..) ، فأجاب الله : مرحبا بك يا عبدي آدم ، وإني أقول لك إنك أول إنسان خلقت ، وهذا الذي رأيته إنما هو ابنك ، الذي سيأتي إلى العالم بعد الآن .. وسيكون رسولي ، الذي لأجله خلقت كل الأشياء ، الذي متى جاء ، سيعطي نورا للعالم ، الذي كانت نفسه موضوعة في بهاء سماوي .. قبل أن أخلق شيئا " ..

- وجاء في الفصل الحادي والأربعين من إنجيل برنابا عند الحديث عن خروج آدم وحواء من الجنة : ثم قال الله لآدم وحواء اللذين كانا ينتحعان أخرجا من الجنة ، وجاهدا أبدانكما ، ولا بضعف رجاؤكما ، لأني أرسل ابنكما على كيفية يمكن بها لذريتكما أن ترفع سلطة الشيطان عن الجنس البشري ، لأني سأعطي رسولي الذي سيأتي كل شئ فاحتجب الله وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس فلما التفت آدم ، رأى مكتوبا فوق الباب : " لا إله إلا الله ، محمد رسول الله " ، فبكى عند ذلك ، وقال : "

أيها الإبن (محمّد) عسى الله أن يريد أن تأتي سريعا ، وتخلصنا من هذا الشقاء " ..

- وجاء في الفصل الثاني والأربعين من إنجيل برنابا عندما أرسل الكتبة لسؤال يسوع ، هل هو مسيا ؟ (.. رسول الله الذي تسمونه مسيا ، خلق قبلي ، وسيأتي بعدي وسيأتي بكلام الحق ولا يكون لدينه نهاية ..) .

- وجاء في الفصل الثالث والأربعين من إنجيل برنابا حينما سأل أندراوس يسوع ، أن يصرح بكل شئ عن مسيا : حينئذ قال أندراوس : لقد حدثتنا بأشياء كثيرة عن مسيا ، فتكلم بالتصريح لنا بكل شئ ، أجاب يسوع : كل من يعمل ، فإنما يعمل لغاية يجد فيها غناء ، لذلك أقول لكم إن الله لما كان بالحقيقة كاملاً ، لم يكن له حاجة إلى غناء ، لأنه الغناء عنده نفسه ، وهكذا لما أرادَ أنْ يعمل ، خلق قبل كل شئ نفس رسوله ، الذي لأجله قصد إلى خلق الكل ، ولكي تجد الخلائق فرحا وبركة بالله ، ويسرّ رسوله بكل خلائقه التي قدر أن تكون عبيدا له ولماذا وهل كان هذا هكذا إلا لأن الله أراد ذلك . الحق أقول لكم إن كل نبي متى جاء ، فإنه إنما يحمل لأمة واحدة فقط علامة رحمة الله ، ولذلك لم يتجاوز كلامهم الشعب الذي أرسلوا إليه ، ولكن رسول الله متى جاء ، يعطيه الله ما هو بمثابة خاتم يده ، فيحمل خلاصاً ورحمة لأمم الأرض الذين يقبلون تعليمه وسيأتي بقوة على الظالمين ، ويبيد عبادة الأصنام ، بحيث يخزي الشيطان ، لأنه هكذا وعد الله إبراهيم قائلا : انظر

فإني بنسلك أبارك كل قبائل الأرض ، وكما حطمت يا إبراهيم الأصنام تحطيما ، هكذا سيفعل نسلك ..

- وجاء في الفصل الرابع والأربعين من إنجيل برنابا ، عند الحديث عن هل كان العهد لإسماعيل أو لإسحق ، ومن ذريةِ مِن مسيا : حينئذ قال التلاميذ : يا معلم هكذا كتب في كتاب موسى ، إن العهد صنع بإسحق أجاب يسوع متأوِّها : هذا هو المكتوب ، ولكن موسى لم يكتبه ولا يشوع ، بل أحبارنا الذين لا يخافون الله ، الحق أقول لكم إنكم إذا أعملتم النظر في كلام الملاك جبريل ، تعلمون خبث كتبتنا وفقهائنا ، لأن الملاك قال : يا إبراهيم ، سيعلم الله كيف يحبك الله ، ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله ، حقا يجب عليك أن تفعل شيئا لأجل محبة الله ، أجاب إبراهيم : وها هو ذا عبد الله ، مستعد أن يفعل كل ما يريد الله ، فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلا : خذ ابنك بكرك إسماعيل ، واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة ، فكيف يكون إسحق البكر ..؟ وهو لما ولد ، كان إسماعيل ابن سبع سنين ..! فقال حينئذ التلاميذ : إن خداع الفقهاء لجلي ، لذلك فقل لنا أنت الحق ، لأننا نعلم أنك مرسل من الله ، فأجاب حينئذ يسوع : الحق أقول لكم ، إنَّ الشيطان يحاول دائما إبطال شريعة الله ، فلذلك قد نجَّس هو وأتباعه والمراءون وصانعو الشر كل شئ اليوم ، الأولون بالتعليم الكاذب ، والآخرون بمعيشة الخلاعة .. لذلك أقول لكم إنَّ رسول الله .. مزدان بروح الفهم والمشورة ، وروح الحكمة والقوة ، روح الخوف والمحبة ، روح التبصر والاعتدال ، مزدان بروح المحبة والرحمة ، روح

العدل والتقوى ، روح اللطف والصبر ، التي أخذ منها من الله ثلاثة أضعاف ما أعطى لسائر خلقه ، ما أسعد الزمن الذي سيأتي فيه إلى العالم صدقوني أني رأيته ، وقدمت له الاحترام ، كما رآه كل نبي ، لأن الله يعطيهم روحه نبوة ولما رأيته امتلأت عزاء ..

- وجاء في الفصل الثاني والخمسين من إنجيل برنابا ، عند الحديث عن يوم الدينونة ، وأن الجميع حتى الأطهار وأصفياء الله ، سيخافون : بل إن رسول الله سيخاف ، لأن الله إظهاراً لجلاله ، سيجرد رسوله من الذاكرة حتى لا يذكر كيف أن الله أعطاه كل شئ ..

- وجاء في الفصول من الرابع والخمسين إلى السادس والخمسين من إنجيل برنابا عند الحديث عن الدينونة ومرور العلامات التي ذكرها يسوع وغشيان العالم بعد ذلك ظلمة أربعين سنة : ومتى مرت الأربعون سنة ، يحيي الله رسوله الذي سيطلع أيضا كالشمس ، بيد أنه متألق كألف شمس فيجلس ولا يتكلم .. وسيقيم الله أيضا الملائكة الأربعة المقربين الذين ينشدون رسول الله ، فمتى وجدوه ، قاموا على الجوانب الأربعة للمحل حراساً له ، ثم يحيي الله بعد ذلك سائر الملائكة الذين يأتون كالنحل ، ويحيطون برسول الله ، ثم يحيي الله بعد ذلك سائر أنبيائه الذين سيأتون جميعا تابعين لآدم ، فيقبلون يد رسول الله ، واضعين أنفسهم في كنف حمايته ، ثم يحيي الله بعد ذلك سائر الأصفياء ، الذين يصرخون " اذكرنا يا محمد " فتتحرك الرحمة في رسول الله بصراخهم ، وينظر فيما يجب فعله خائفا لأجل خلاصهم ، ثم يحيي الله بعد ذلك كل مخلوق ، فتعود إلى

وجودها الأول ، وسيكون لكل منها قوة النطق علاوة ، ثم يحيي الله بعد ذلك المنبوذين كلهم الذين عند قيامهم يخاف سائر خلق الله ، بسبب قبح منظرهم ، ويصرخون " أيها الرب إلهنا ، لا تدعنا من رحمتك " ، وبعد هذا يقيم الله الشيطان ، الذي سيصير كل مخلوق كميت ، خوفا من هيئة منظره المريع . ثم قال يسوع : أرجو الله ، أن لا أرى هذه الهولة في ذلك اليوم ، إن رسول الله لا يتهيب هذه المناظر لأنه لا يخاف إلا الله وحده .. ويذهب رسول الله ليجمع كل الأنبياء ، الذين يكلمهم راغبا إليهم أن يذهبوا معه ليضرعوا إلى الله لأجل المؤمنين ، فيتعذر كل أحد خوفاً ، ولعمر الله إني أنا أيضا ، لا أذهب إلى هناك ، لأني أعرف ما أعرف ، وعندما يرى الله ذلك ، يذكر رسوله كيف أنه خلق كل الأشياء محبة له ، فيذهب خوفه ، ويتقدم إلى العرش بمحبة واحترام ، والملائكة ترنم " تبارك اسمك القدوس يا الله إلهنا " ومتى صار على مقربة من العرش ، يفتح الله لرسوله ، كخليل لخليله بعد طول الأمد على اللقاء ، ويبدأ رسول الله بالكلام أولا ، فيقول " إني أعبدك وأحبك يا إلهي ، وأشكرك من كل قلبي ونفسي ، لأنك أردت فخلقتني ، لأكون عبدك ، وخلقت كل شئ حباً فيَّ ، لأحبك لأجل كل شئ ، وفي كل شئ ، وفوق كل شئ فليحمدك خلائقك يا إلهي . حينئذ تقول كل مخلوقات الله " نشكرك يا رب ، وتبارك اسمك القدوس " ، ويكلم الله رسوله ، قائلا " مرحبا بك يا عبدي الأمين ، فاطلب ما تريد ، تنل كل شئ ، فيجيب رسول الله : يا رب أذكر أنك لما خلقتني قلت إنك أردت أن تخلق العالم والجنة والملائكة والناس حبّاً فيَّ ، ليمجدوك بي أنا عبدك ، لذلك أضرع إليك

أيها الرب الإله الرحيم العادل ، أن تذكر وعدك لعبدك ، فيجيب الله كخليل يمازح خليله ، ويقول : أعندك شهود على هذا يا خليلي محمد ؟ فيقول باحترام : نعم يا رب ، فيقول الله : اذهب وادعهم يا جبريل فيأتي جبريل إلى رسول الله ويقول : من هم شهودك أيها السيد ؟ فيجب رسول الله : هم آدم وإبراهيم وإسماعيل وموسى وداود ويسوع ابن مريم فينصرف الملاك ، وينادي الشهود المذكورين الذين يحضرون إلى هناك خائفين ، فمتى حضروا يقول لهم الله : أتذكرون ما أثبته رسولي ؟ فيجيبون : أي شئ يا رب ..؟ " فيقول الله : إني خلقت كل شئ حبّاً فيه ليحمدني كل الخلائق فيجيب كل منهم : عندنا ثلاثة شهود أفضل منا يا رب ، فيجيب الله : من هم هؤلاء الشهود الثلاثة ؟ ، فيقول موسى : الأول الكتاب الذي أعطيتنيه ، ويقول داود : الثاني الكتاب الذي أعطيتنيه " ويقول الذي يكلمكم : يا رب إنَّ العالم كله أغراه الشيطان فقال إني كنت ابنك وشريكك (إشارة إلى إشراكِ الناس ظلماً وعدواناً ومن غيرِ حقّ) ولكن الكتاب الذي أعطيتنيه قال حقاً إني أنا عبدك ، ويعترف ذلك الكتاب بما أثبته رسولك ، فيتكلم حينئذ رسول الله ، ويقول : هكذا يقول الكتاب الذي أعطيتنيه يا رب . فعندما يقول رسول الله هذا ، يتكلم الله قائلا : إن ما فعلته الآن ، إنما فعلته ليعلم كل أحد مبلغ حبي لك ، وبعد أن يتكلم هكذا يعطي الله رسوله كتاباً مكتوباً فيه أسماء كل مختاري الله ، لذلك يسجد كل مخلوق لله ، قائلا : لك وحدك اللهم المجد والإكرام ، لأنك وهبتنا لرسولك ، ويفتح الله الكتاب الذي في يد رسوله ، وينادي كل الملائكة والأنبياء وكل المختارين ، ويكون

مكتوبا على جبهة كل علامة رسول الله ، ويكتب في الكتاب مجد الجنة ، ويمر حينئذ كل أحد إلى يمين الله الذي يكون بالقرب منه رسول الله ، ويجلس الأنبياء بجانبه ويجلس القديسون بجانب الأنبياء ، والمباركون بجانب القديسين ..

- وجاء في الفصل الثامن والخمسين من إنجيل برنابا عن عدم شفقة رسول الله على المنبوذين يوم الدينونة : وبينما كان يتكلم يسوع ، بكى تلاميذه بحرارة ، وأذرف يسوع عبرات كثيرة ، وبعد أن بكى يوحنا ، قال : يا معلم نحب أن نعرف .. كيف يمكن رسول الله ، وهو مملوء رحمة أن لا يشفق على هؤلاء المنبوذين في ذلك اليوم ، وهم من نفس الطين الذي هو منه ؟ أجاب يسوع : أما سمعتم ما يقول داود النبي ، كيف يضحك البار من هلاك الخطاة ، فيستهزئ بالخاطئ بهذه الكلمات قائلا : رأيت الإنسان الذي اتكل على قوته وغناه ونسي الله ، فالحق أقول لكم إن إبراهيم سيستهزئ بأبيه ، وآدم بالمنبوذين كلهم ، إنما يكون هذا ، لأن المختارين سيقومون ، كاملين ومتحدين بالله حتى أنه لا يخالج عقولهم أدنى فكر ضد عدله ، ولذلك سيطلب كل منهم إقامة العدل ، ولا سيما رسول الله ، لعمر الله الذي أقف في حضرته ، مع أني الآن أبكي شفقة على الجنس البشري ، لأطلبنّ في ذلك اليوم ، عدلاً بدون رحمة ، لهؤلاء الذين يحتقرون كلامي ، ولا سيما أولئك الذين ينجسون إنجيلي ...

- وجاء في الفصل الثاني والسبعين من إنجيل برنابا ، عندما أخبر يسوع تلاميذه بخيانة يهوذا وأنه سيسلمه ، وأنه سينصرف عن العالم :

فإني قد أتيت لأهيِّئ الطريق لرسول الله ، الذي سيأتي بخلاص للعالم ، ولكن احذروا أن تغشوا ، لأنه سيأتي أنبياء كذبة كثيرون ، يأخذون كلامي ، وينجِّسون إنجيلي . حينئذ قال أندراوس يا معلم ، أذكر لنا علامة لنعرفه ، أجاب يسوع : إنه لا يأتي في زمنكم ، بل يأتي بعدكم بعدة سنين ، حينما يبطل إنجيلي ، ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً ، في ذلك الوقت يرحم الله العالم ، فيرسل رسوله ، الذي تستقر على رأسه غمامة بيضاء ، يعرفه أحد مختاري الله ، وهو سيظهره للعالم وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار ، ويبيد عبادة الأصنام من العالم ، وإني أسر بذلك ، لأنه بواسطته سيعلن ويمجد الله ويظهر صدقي ، وسينتقم الله من الذين سيقولون إني أكبر من إنسان ، الحق أقول لكم إنّ القمر سيعطيه رقاداً في صباه ، ومتى كبر هو أخذه في كفّيه ، فليحذر العالم أن ينبذه ، لأنه سيفتك بعبادة الأصنام ، فإن موسى عبد الله ، قتل أكثر من ذلك كثيراً ، ولم يبق يشوع على المدن التي أحرقوها ، وقتلوا الأطفال ، لأن القرحة المزمنة يستعمل لها الكي ، وسيجئ بحق أجلى من سائر الأنبياء ، وسيوبخ من لا يحسن السلوك في العالم ، وستحيَ طربا أبراج مدينة آبائنا ، بعضها بعضا ، فمتى شوهد سقوط عبادة الأصنام إلى الأرض ، واعترف بأني بشر كسائر البشر ، فالحق أقول لكم إن نبي الله حينئذ يأتي ..

- وجاء في الفصل الثاني والثمانين من إنجيل برنابا ، عند سؤال السامرية المسيح عن القبلة وعن مسيا : أجابت المرأة ، إنا ننتظر مسيا ، فمتى جاء يعلمنا ، أجاب يسوع أتعلمين أيتها المرأة ، أن مسيا لا بد أن

يأتي ، أجابت " نعم يا سيد " ، حينئذ تهلل يسوع ، وقال يلوح لي أيتها المرأة أنك مؤمنة ، فأعلمي إذ أنه بالإيمان بمسيا ، سيخلص كل مختاري الله ، إذا وجب أن تعرفي مجيئ مسيا ، قالت المرأة لعلك أنت مسيا أيها السيد ، أجاب يسوع إني حقا أرسلت إلى بيت إسرائيل ، نبي خلاص ، ولكن سيأتي بعد مسيا المرسل من الله ، لكل العالم الذي لأجله خلق الله العالم ، وحينئذ يسجد لله في كل العالم ، ونال الرحمة حتى أن سنة اليوبيل التي تجئ كل مائة سنة ، سيجعلها مسيا كل سنة في كل مكان ...

- وجاء في الفصل التسعين من إنجيل برنابا ، قول المسيح عن الإيمان : الإيمان خاتم يختم به الله مختاريه ، وهو خاتم أعطاه لرسوله ، الذي أخذ كل مختار الإيمان على يديه ، فالإيمان واحد ، كما أن الله واحد ، لذلك لما خلق الله قبل كل شئ رسوله ، وهبه قبل كل شيئ الإيمان ، الذي هو بمثابة صورة الله ، وكل ما صنع الله ، وما قال ...

- وجاء في الفصلين السادس والتسعين والسابع والتسعين من إنجيل برنابا ، عندما سأل الكاهن المسيح من هو ، فأجاب إنه يسوع بن مريم ، بشر مائت ويخاف الله ، وقال إنه بريئ من الفتنة : أجاب الكاهن : إنه مكتوب في كتاب موسى إن إلهنا سيرسل لنا مسيا ، الذي سيأتي ليخبرنا بما يريد الله ، وسيأتي للعالم برحمة الله ، لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق هل أنت مسيا الله الذي ننتظر ؟ أجاب يسوع : حقا إنَّ الله وعد هكذا ، ولكني لست هو ، لأنه خُلِقَ قبلي وسيأتي بعدي .. أجاب الكاهن : إننا نعتقد من كلامك وآياتك على كل حال أنك نبي وقدوس الله ، لذلك

أرجوك باسم اليهودية كلها وإسرائيل ، أن تفيدنا حبًّا في الله ، بأية كيفية سيأتي مسيا ؟ أجاب يسوع : لعمر الله الذي تقف بحضرته نفسي ، إني لست مسيا الذي تنتظره كل قبائل الأرض ، كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلا : بنسلك أبارك كل قبائل الأرض ، ولكن عندما يأخذني الله من العالم ، سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة ، بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأني الله وابن الله (وهذا كما ترى ، إنكار شديد على عقيدة التثليث وغيرها من عناوين الإشراك) فينجس بسبب هذا كلامي وتعليمي ، حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمناً ، حينئذ يرحم الله العالم ، ويرسل رسوله ، الذي خلق كل الأشياء لأجله الذي سيأتي من الجنوب بقوة ، وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام ، وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر ، وسيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به وسيكون من يؤمن بكلامه مباركا .. فأجاب حينئذ الكاهن ، مع الوالي والملك قائلين : لا تزعج نفسك يا يسوع قدوس الله ، لأن هذه الفتنة لا تحدث في زمننا مرة أخرى ، سنكتب إلى مجلس الشيوخ الروماني المقدس ، بإصدار أمر ملكي أن لا أحد يدعوك فيما بعد " الله أو ابن الله " ، فقال حينئذ يسوع إن كلامكم لا يعزِّيني لأنه يأتي ظلام حيث ترجون النور ، ولكن تعزيتي هي في مجيئ الرسول الذي سيبيد كل رأي كاذب ، سيمتد دينه ويعم العالم بأسره ، لأنه هكذا وعد الله أبانا إبراهيم ، إن ما يعزيني هو أن لا نهاية لدينه ، لأن الله سيحفظه صحيحا . أجاب الكاهن : أيأتي رسل آخرون بعد مجيئ رسول الله ؟ فأجاب يسوع : لا يأتي بعده أنبياء صادقون ، مرسلون من الله ، ولكن يأتي عدد غفير من الأنبياء الكذبة ،

وهو ما يحزنني ، لأن الشيطان سيثيرهم بحكم الله العادل فيستترون بدعوى إنجيلي . أجاب هيرودس : كيف أن مجيئ هؤلاء الكافرين ، يكون بحكم الله العادل ؟ أجاب يسوع : من العدل أن من لا يؤمن بالحق لخلاصه يؤمن بالكذب للعنته ، لذلك أقول لكم إن العالم كان يمتهن الأنبياء الصادقين دائما وأحب الكاذبين كما يشاهد في أيام ميشع وأرميا لأن الشبيه يحب شبيهه ، فقال حينئذ الكاهن : ماذا يسمى مسيا ، وما هي العلامة التي تعلن مجيئه ؟ أجاب يسوع : إن اسم مسيا عجب ، لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوي ، قال الله : اصبر يا محمد ، لأني لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجمعا غفيرا من الخلائق التي أهبها لك ، حتى أن من يباركك يكون مباركا ، ومن يلعنك يكون ملعونا ، ومتى أرسلتك إلى العالم ، أجعلك رسولي للخلاص ، وتكون كلمتك صادقة ، حتى أن السماء والأرض تهنان ، ولكن إيمانك لا يهن أبدا ، إن اسمه المبارك محمد ، حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين : يا الله أرسل لنا رسولك ، يا محمد تعال سريعا لخلاص العالم ..

- وجاء في الفصل الثاني والعشرين بعد المائة من إنجيل برنابا ، عند الحديث عن التوبة : ثم رفع يديه وصلى قائلا : أيها الرب الإله القدير الرحيم ، الذي خلقتنا نحن عبيدك برحمة ، ومنحتنا مرتبة البشر ودين رسولك الحقيقي ، إننا نشكرك على كل إنعاماتك ، ونود أن نعبدك وحدك ، كل أيام حياتنا نادبين خطايانا ، مصلين ومتصدقين وصائمين ومطالعين كلمتك ، مكابدين الآلام من العالم ، حبّاً فيك ، باذلين نفسنا

للموت خدمة لك ، فنجنا أنت يا رب من الشيطان ومن الجسد ومن العالم ، كما نجيت مصطفاك إكراما لنفسك وإكراما لرسولك الذي خلقتنا لأجله ، وإكراما لكل قديسيك وأنبيائك ، فكان يجيب التلاميذ دائما ، ليكن كذلك يا رب ، ليكن كذلك أيها الإله الرحيم ..

- وجاء في الفصل الرابع والعشرين من إنجيل برنابا ، عن التعليم : كل ما ينطبق على كتاب موسى ، فهو حق فاقبلوه ، لأنه لما كان الله واحدا كان الحق واحدا ، فينتج من ذلك أن التعليم واحد ، وأن معنى التعليم واحد ، فالإيمان إذاً واحد ، الحق أقول لكم ، إنه لو لم يُمحَ الحق من كتاب موسى ، لما أعطى الله داود أبانا الكتاب الثاني ، ولو لم يفسد كتاب داود ، لم يعهد الله بإنجيله إليّ ، لأن الرب إلهنا غير متغير ، ولقد نطق رسالة واحدة لكل البشر ، فمتى جاء رسول الله ، يجئ ليطهر كل ما أفسد الفجار من كتابي (اسمه في لسان العرب أحمد ومحمّد ، وفي لسان عمران مسيئ ، ومسيا ، وفي اللاتيني كنسلاتر وفي الرومي باركل تسى ، وتختلف الألفاظ باختلافِ اللغات ..) لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته ، إن كل تعليم يحول الإنسان عن غايته التي هي الله لشر تعليم ، لذلك يجب عليك ملاحظة ثلاثة أمور في التعليم ، أي محبة الله وعطف المرء على قريبه ، وبغضك لنفسك التي أغضبت الله وتغضبه كل يوم ، فتجنب كل تعليم مضاد لهذه الرؤوس الثلاثة ، لأنه شرير جدا ..

- وجاء في الفصلين السادس والثلاثين بعد المائة والسابع الثلاثين بعد المائة من إنجيل برنابا ، عند الحديث عن الجحيم : يتحتم على كل أحد أيّاً

كان أن يذهب إلى الجحيم ... وماذا أقول ؟ أفيدكم أنه حتى رسول الله يذهب إلى هناك ليشاهد عدل الله ، فترتعد ثمة الجحيم لحضوره ، وبما أنه ذو جسد بشري يرفع العقاب عن كل ذي جسد بشري من المقضي عليهم بالعقاب ، فيمكث بلا مكابدة عقاب مدة إقامة رسول الله لمشاهدة الجحيم ، ولكنه لا يقيم هناك إلا طرفة عين ، وإنما يفعل الله هذا ليعرف كل مخلوق أنه نال نفعا من رسول الله ، ومتى ذهب إلى هناك وَلْوَلَت الشياطين وحاولت الاختباء تحت الجمر المتقد ، قائلا بعضهم لبعض : اهربوا اهربوا فإن عدونا محمدا قد أتى . فمتى سمع الشيطان ذلك يصفع وجهه بكلتا كفيه ، ويقول صارخا : ذلك بالرغم عني ، لا شرفا مني .. أما ما يختص بالمؤمنين الذين لهم اثنان وسبعون درجة ، مع أصحاب الدرجتين الأخريين ، الذين كان لهم إيمان بدون أعمال صالحة ، إذ كان الفريق الأول حزينا على الأعمال الصالحة ، والآخر مسروراً بالشر ، فسيمكثون جميعا في الجحيم ، سبعين ألف سنة ، وبعد هذه السنين يجئ الملاك جبريل إلى الجحيم ويسمعهم يقولون : يا محمد أين وعدك لنا ، إن من كان على دينك ، لا يمكث في الجحيم أبدا . فيعود حينئذ ملاك الله إلى الجنة ، وبعد أن يقترب من رسول الله باحترام يقص عليه ما سمع ، فحينئذ يكلم الرسول الله ، ويقول : ربي وإلهي ، أذكر وعدك لي أنا عبدك ، بأن لا يمكث الذين قبلوا ديني في الجحيم إلى الأبد ، فيجيب الله أطلب ما تريد يا خليلي ، لأني أهبك كل ما تطلب فحينئذ يقول رسول الله : يا رب يوجد من المؤمنين في الجحيم من لبث سبعين ألف سنة ، أين رحمتك يا رب ، إني أضرع إليك يا رب أن تعتقهم من

هذه العقوبة بالمرة ، فيأمر الله حينئذ الملائكة المقربين لله أن يذهبوا إلى الجحيم ويخرجوا كل من على دين رسوله ويعودون إلى الجنة ، وهو ما سيفعلونه ، ويكون من مبلغ جدوى دين رسول الله ، أن كل من آمن به يذهب إلى الجنة بعد العقوبة التي تكلمت عنها ، ولو لم يعمل عملا صالحا لأنه مات على دينه ..

- وجاء في الفصلين الثامن والخمسين بعد المائة والتاسع والخمسين بعد المائة من إنجيل برنابا ، عند الحديث عن الخطيئة : وماذا أقول ؟ لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته ، لو خامر رسول الله حبّ هذا العالم الشرير متى جاء إليه ، لأخذ الله منه بالتأكيد كل ما وهبه عند خلقه وجعله منبوذاً لأن الله بهذا المقدار مضاد للعالم ، أجاب التلاميذ يا معلم : إن كلامك لعظيم جدا ، فارحمنا لأننا لا نفهمه . قال يسوع : أيخيل لكم أن الله قد خلق رسوله ليكون ندا له ، يريد أن يجعل نفسه مساويا لله ؟ كلا ثم كلا ! بل عبده الصالح ، الذي لا يريد ما لا يريد الله ..

- وجاءه في الفصل الثالث والستين بعد المائة ، من إنجيل برنابا ، عن سبق الاصطفاء : وذهب يسوع مع تلاميذه إلى البرية وراء الأردن فلما انقضت صلاة الظهيرة جلس بجانب نخلة ، وجلس تلاميذه تحت ظل النخلة ، حينئذ قال يسوع : أيها الأخوة ، إن سبق الاصطفاء لسر عظيم حتى أني أقول لكم الحق إنه لا يعلمه جليا إلا إنسان واحد فقط ، وهو الذي تتطلع إليه الأمم الذي تتجلى له أسرار الله تجليا ، فطوبى للذين سيصغون السمع إلى كلامه متى جاء إلى العالم ، لأن الله سيظللهم كما

تظللنا هذه النخلة ، إنه كما تقينا هذه الشجرة حرارة الشمس المتلظية ، هكذا تقي رحمة الله المؤمنين بذلك الاسم من الشيطان . أجاب التلاميذ : يا معلم من عسى أن يكون الرجل الذي تتكلم عنه ، الذي سيأتي إلى العالم ؟ أجاب يسوع بابتهاج قلب : إنه محمد رسول الله ، ومتى جاء إلى العالم فسيكون ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر بالرحمة الغزيرة التي يأتي بها ، كما يجعل المطر يعطي ثمراً بعد انقطاع المطر زمنا طويلاً ، فهو غمامة بيضاء ، مَلْئَ برحمة الله وهي رحمة ينثرها الله رذاذا على المؤمنين كالغيث ..

- وجاء في الفصل السادس والسبعين بعد المائة من إنجيل برنابا ، عن مجد الجنة : فمجدُ الجنة هو طعام الجسد .. وأما ذلك المجد فسيوضحه بأجلى بيان محمد رسول الله ، الذي هو أدرى بالأشياء من كل مخلوق ، لأن الله قد خلق كل شئ حبّاً فيه ..

- وجاء في الفصلين الحادي والتسعين بعد المائة والثاني والتسعين بعد المائة من إنجيل برنابا ، عند الحديث عن مسيا : حينئذ قال الكاتب : عفواً يا معلم لأني قد أخطأت ، فقال يسوع " إن الله يغفر لك ، لأنك إليه قد أخطأت ، فقال من ثم الكاتب ، لقد رأيت كتيِّباً قديما مكتوبا بيد موسى ويشوع - الذي أوقف الشمس كما قد فعلت - خادمي ونبيي الله ، وهو كتاب موسى الحقيقي نفسه ، مكتوب أن إسماعيل هو أب لمسيا ، وإسحق أب لرسول مسيا ، وهكذا يقول الكتاب إن موسى قال : أيها الرب إله إسرائيل القدير الرحيم ، أظهر لعبدك في سناء مجدك ، فأراه الله

من ثم رسوله على ذراعي إسماعيل ، وإسماعيل على ذراعي إبراهيم ، ووقف على مقربة من إسماعيل إسحق ، وكان على ذراعيه طفل يشير بإصبعه إلى رسول الله ، قائلا هذا هو الذي لأجله خلق الله كل شئ ، فصرخ من ثم موسى بفرح : يا إسماعيل إن في ذراعيك العالم كله والجنة ، اذكرني أنا عبد الله ، لأجد نعمة في نظر الله بسبب ابنك ، الذي لأجله صنعَ اللهُ كلَّ شئ . لا يوجد في ذلك الكتاب أن الله يأكل لحم المواشي أو الغنم ، لا يوجد في ذلك الكتاب أن الله قد حصر رحمته في إسرائيل فقط ، بل إن الله يرحم كل إنسان يطلب الله خالقه بالحق ، لم أتمكن من قراءة هذا الكتاب كله ، لأن رئيس الكهنة الذي كنت في مكتبته نهاني ، قائلا إنَّ إسماعيليا قد كتبه . فقال حينئذ يسوع : انظر أن لا تعود أبدا فتحجز الحق ، لأنه بالإيمان بمسيا سيعطي الله الخلاص للبشر ولن يخلص أحد بدونه ..

- وورد مثل هذا الكلام في الفصل الرابع والأربعين من إنجيل برنابا في حديث يسوع مع تلاميذه عن مسيا : صدقوني أني رأيته وقدمته له الاحترام ، كما رآه كل نبي ، لأن الله يعطيهم روحه نبوة ، ولما رأيته امتلأت عزاء قائلا : يا محمد ليكن الله معك ، وليجعلني أهلا أن أحل سير حذائك ، لأني إذا نلت هذا صرت نبيا عظيما وقدوس الله ، ولما قال يسوع هذا ، شكر الله .

- وجاء في الفصل السابع والتسعين من إنجيل برنابا عندما سأل الكاهن المسيح متي سيأتي مسيا قال : ومع أني لست مستحقا أن أحل

سير حذائه قد نلت نعمة ورحمة من الله ، لأراه .. وهذا إشارة معنويّة إلى عظمةِ هذا النبيّ الكريم ، الذي سيكون خاتم النبيين وأعظمهم على الإطلاق الذي خلق اللهُ من أجلِهِ السموات والأرض والخلق وغير ذلك ..

- وجاء في الفصل السبعين في إنجيل برنابا ، عندما سأل المسيح تلاميذه ماذا يقول الناس عنه : إذا كان إلهنا لم يرد أن يظهر نفسه لموسى عبده ، ولا لإيليا الذي أحبه كثيرا ، ولا لنبي ما ، أتظنون أن الله يظهر نفسه لهذا الجيل الفاقد الإيمان ، بل ألا تعلمون أن الله خلق بكلمة واحدة كل شئ من العدم ، وأن منشأ البشر جميعهم من كتلة طين ؟ فكيف إذا يكون الله شبيها بالإنسان ؟ ويل للذين يدعون الشيطان يخدعهم .. وانصرف يسوع بعد هذا وذهب إلى الجليل إخمادا لهذا الرأي الباطل الذي ابتدأ أن يعلق بالعامة في شأنه ..

- وجاء في الفصل الثاني عشر بعد المائة في إنجيل برنابا عند بكاء المسيح وتلاميذه بعد حديثه عن البكاء الجسدي وأن الصوم والسهر الجسديين لا تكفي للتكفير عن الخطيئة ما لم تكن من القلب : إلى أن قال إعلم يا برنابا أنّه سيبيعني أحد تلاميذي بثلاثين قطعة من نقود ، وعليه فإني على يقين من أن يبيعني يقتل باسمي ، لأن الله سيصعدني من الأرض وسيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياي ، ومع ذلك فإنه لما يموت شر ميتة ، أمكث في ذلك العار زمنا طويلا في العالم ، ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس ، تزال عني هذه الوصمة ، وسيفعل الله هذا ،

لأني اعترفت بحقيقة مسيا الذي سيعطيني هذا الجزاء ، أي أن أعرف أني حي وأني بريئ من وصمة تلك الميتة ..

- وجاء في الفصل الثامن والتسعين بعد المائة من إنجيل برنابا ، عند الحديث عن القصاص : فإني كنت أهلا للقصاص ، لأن البشر دعوني إلها ولكن لما كنت قد اعترفت لا بأني لست إلها - فقط كما هو الحق - بل اعترفت أيضا أني لست مسيا (النبي محمّد) فقد رفع الله لذلك العقوبة عني ، وسيجعل شريراً يكابدها باسمي حتى لا يبقى منها لي سوى العار ..

- وجاء في الفصول من السادس بعد المائتين إلى الثامن بعد المائتين من إنجيل برنابا عند محاجّة رئيس الكهنة ليسوع في الهيكل : ولما جاء النهار ، صعد يسوع إلى الهيكل مع جم غفير من الشعب ، فاقترب منه رئيس الكهنة ، قائلا : قل لي يا يسوع ! أنسيت كل ما كنت قد اعترفت به من أنك لست الله ولا ابن الله ولا مسيا ؟ أجاب يسوع : " لا البتة لم أنسَ ، لأن هذا هو الاعتراف الذي أشهد به أمام كرسي دينونة الله في يوم الدينونة ، لأن كل ما كتب في كتاب موسى صحيح كل الصحة ، فإن الله خالقنا أحدٌ وأنا عبد الله ، وأرغب في خدمة رسول الله الذي تسمونه مسيا ، قال رئيس الكهنة : ما المراد إذا من المجيئ إلى الهيكل بهذا الجم الغفير ؟ لعلك تريد أن تجعل نفسك ملكاً على إسرائيل ؟ احذر من أن يحل بك خطر ، أجاب يسوع : لو طلبت مجدي ورغبت في نصيبي في هذا العالم ، لما هربت ، لما أراد أهل نايين أن يجعلوني ملكا ، صدقني إني لست أطلب شيئا في هذا العالم ، حينئذ قال رئيس الكهنة : نحب أن

نعرف شيئا عن مسيا ، وحينئذ اجتمع الكهنة والكتبة والفريسيون ، نطاقا حول يسوع أجاب يسوع : ما هو ذلك الشيئ الذي تريدون أن تعرفوه عن مسيا ، لعله الكذب ؟ الحق إني لا أقول الكذب لأني لو كنت قلت الكذب ، لعبدتني أنت والكتبة والفريسيون مع كل إسرائيل ، ولكن تبغضونني وتطلبون أن تقتلوني لأني أقول لكم الحق ، قال رئيس الكهنة نعلم الآن أن وراء ظهرك شيطانا ، لأنك سامري ولا تحترم كاهن الله ، أجاب يسوع لعمر الله ليس وراء ظهري شيطان ، ولكن أطلب أن أخرج الشيطان ، فلهذا السبب يثير الشيطان على العالم ، لأني لست من هذا العالم ، بل أطلب أن يمجد الله الذي أرسلني إلى العالم ، فأصيخوا السمع إلي أخبركم بمن وراء ظهره الشيطان ، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته ، إن من يعمل بحسب إرادة الشيطان ، فالشيطان وراء ظهره ، وقد وضع عليه لجام إرادته ويديره أنّى شاء ، حاملا إياه على الإسراع إلى كل إثم ، كما أن اسم الثوب يختلف باختلاف صاحبه ، وهو هو الثوب نفسه ، هكذا البشر يختلفون على كونهم من مادة واحدة ، بسبب أعمال الذي يعمل في الإنسان ! إذا كنت قد أخطأت كما أعلم ذلك ، فلماذا لم توبخوني كأخ ، بدلا من أن تبغضوني كعدو ؟ .. لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته إن من يخاف ويحب الله خالقه ، يرحم من يرحمه الله .. إذا كنت أفعل الإثم ، فوبخوني يحببكم الله ، لأنكم تكونون عاملين بحسب إرادته ، ولكن إذا لم يقدر أحد أن يوبخني على خطيئة ، فذلك دليل على أنكم لست أبناء إبراهيم كما تدعون أنفسكم ، ولا أنتم متحدون مع ذلك الرأس الذي كان إبراهيم متحدا به ، لعمر الله إن إبراهيم أحب الله

بحيث أنه لم يكتف بتحطيم الأصنام الباطلة ، ولا بهجر أبيه وأمه ، ولكنه كان يريد أن يذبح ابنه ، طاعة لله ...

- وجاء في الفصل الثامن عشر بعد المائتين من إنجيل برنابا عن صلاة المسيح بعد تعزيته تلاميذه ، لأنه راحل : ثم رفع يديه إلى الرب ، وصلى قائلا : أيها الرب إلهنا ، إله إبراهيم وإله إسماعيل وإسحق ، إله آبائنا ، ارحم من أعطيتني ، وخلصهم من العالم ، لا أقول خذهم من العالم ، لأنه من الضروري أن يشهدوا على الذين يفسدون إنجيلي ، ولكن أضرع إليك أن تحفظهم من الشرير ، حتى يحضروا معي يوم الدينونة ، يشهدوا على العالم ، وعلى بيت إسرائيل الذي أفسد عهدك ، أيها الرب الإله القدير الغيور ، الذي ينتقم في عبادة الأصنام من أبناء الآباء عبدة الأصنام حتى الجيل الرابع ، العن إلى الأبد كل من يفسد إنجيلي الذي أعطيتني ، عندما يكتبون أني ابنك ، لأني أنا الطين والتراب خادمك ، ولم أحسب نفسي قط خادما صالحا لك ، لأن لا أقدر أن أكافئك على ما أعطيتني ، لأن كل الأشياء لك أيها الرب الإله الرحيم ، الذي تظهر رحمة إلى ألف جيل للذين يخافونك ، ارحم الذين يؤمنون بالكلام الذي أعطيتني إياه ، لأن كلمتك التي تكلمتها هي حقيقة ، كما أنك أنت الإله الحقيقي ، لأنها كلمتك أنت ، فإني كنت أتكلم دائما كمن يقرأ ، ولا يقدر أن يقرأ إلا ما هو مكتوب في الكتاب الذي يقرأه ، وهكذا قلت ما قد أعطيتني إياه أيها الرب الإله المخلص خلّص من قد أعطيتني ، لكيلا يقدر الشيطان أن يفعل شيئا ضدهم ، ولا تخلصهم فقط ، بل كل من يؤمن لهم ، أيها

الرب الجواد والغني في الرحمة ، امنح خادمك أن يكون بين أمة رسولك يوم الدين ، وليس أنا فقط ، بل كل من قد أعطيتني ، مع سائر الذين سيؤمنون بي بواسطة بشيرهم ، وافعل هذا يا رب لأجل ذاتك ، حتى لا يفاخرك الشيطان ، يا رب ، أيها الرب الذي بعنايتك تقدم كل الضروريات لشعبك إسرائيل ، أذكر قبائل الأرض كلها التي قد وعدت أن تباركها برسولك ، الذي لأجله خلقت العالم ، ارحم العالم وعجل بإرسال رسولك ، لكي يسلب الشيطان عدوك مملكته ، وبعد أن فرغ يسوع من هذا ، قال ثلاث مرات : ليكن هكذا أيها الرب العظيم ، فأجابوا كلهم باكين : ليكن هكذا ، ليكن هذا ، خلا يهوذا ، لأنه لم يؤمن بشئ ..

- وجاء في الفصل العشرين بعد المائتين من إنجيل برنابا عند الحديث عن رفع يسوع إلى السماء : حينئذ قال الذي يكتب يا معلم ، أيجوز لي أن أسألك الآن كما كان يجوز عندما كنت مقيما معنا ؟ أجاب يسوع : سل ما شئت يا برنابا أُجبك ، فقال حينئذ الذي يكتب يا معلم ، إذا كان الله رحيماً ، فلماذا عذبنا بهذا المقدار ، بما جعلنا نعتقد أنك كنت ميتاً ؟ ولقد بكتك أمك حتى أشرفت على الموت ، وسمح الله أن يقع عليك عار القتل بين اللصوص على جبل الجمجمة ، وأنت قدوس الله ، أجاب يسوع : .. أراد الله أن يهزأ الناس بي في هذا العالم بموت يهوذا ، معتقدين أنني أنا الذي مت على الصليب ، لكيلا تهزأ الشياطين بي في يوم الدينونة ، وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله ، الذي متى جاء ،

كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله ، وبعد أن تكلم يسوع بهذا قال إنك لعادل أيها الرب إلهنا ، لأن لك وحدك الإكرام والمجد بدون نهاية ..

إضافة إلى مجموعة واسعة ممّا هو مخالف لما كرّستهُ الكنيسة من عناوين مثل دعاوى أنّ يسوع إله أزليّ من إلهٍ أزليّ ، وأنّه إبن إلهٍ وقد استعرضتُ عليك قسماً من تلك النصوص ، ومنها ما جاء في الفصلين السابع عشر بعد المائة والثامن عشر بعد المائة من إنجيل برنابا بعد ذكر قول إيليا للأعمى ، أن كلّ من يجد لذة في المخلوق أياً كان ولا يطلب أن يجد لذة في الله ، فقد صنع صنما في قلبه وترك الله . ثم قال يسوع متنهداً : أفهمتم كل ما قاله إيليا .. ؟ أجاب التلاميذ : حقاً لقد فهمنا ، وإننا لحيارى من العلم بأنه لا يوجد هنا على الأرض إلا قليلون من الذين لا يعبدون الأصنام . فقال حينئذ يسوع : إنكم لتقولون الحق ، لأن إسرائيل كان الآن راغبا في إقامة عبادة الأصنام التي في قلوبهم ، إذ حسبوني إلها ، وكثيرون منهم قد احتقروا الآن تعليمي قائلين إنه يمكنني أن أجعل نفسي سيد اليهودية كلها ، إذا اعترفت بأنني إله ، وإني مجنون إذ رضيت أن أعيش في الفاقة في أنحاء البرية ، دون أن أقيم على الدوام بين الرؤساء في عيش رغيد ، فما أتعسك أيها الإنسان الذي تحترم النور الذي يشترك فيه الذباب والنمل ، وتحتقر النور الذي تشترك فيه الملائكة والأنبياء وأخلاء الله الأطهار خاصة .. وهذهِ تدلُّ على معانٍ مختلفة جدًّاً عمّا هو في الأناجيل التي اعتبرت قانوناً مقدَّساً فيما بعد .. وقد ذكر برنابا في مقدمته للإنجيل المسمى باسمه ، إنه

الإنجيل الصحيح ليسوع المسمى المسيح ، نبي جديد مرسل من الله إلى العالم ، بحسب رواية برنابا رسوله ، وقال : برنابا رسول يسوع الناصري المسمى المسيح يتمنَّى لجميع سكان الأرض سلاما وعزاء ، أيها الأعزاء ، إن الله العظيم قد افتقدنا .. بنبيِّهِ يسوع المسيح ، برحمة عظيمة للتعليم والآيات ، التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى ، مبشرين بتعليم شديد الكفر ، داعين المسيح ابن الله (إنكاراً واضح على هذهِ الدعوى) ورافضين الختان ، الذي أمر به الله دائماً ، مجوِّزين كلَّ لحمٍ نجسٍ ، الذين ضلَّ في عدادهم أيضا بولص (بولس ..!) (إشارة لا يجوز المرور عليها دون إلتفات) الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى .. وقال في خاتمة إنجيله : أما الحق المكروه من الشيطان ، فقد اضطهده الباطل كما هي الحال دائما ، فإن فريقاً من الأشرار المدعين أنهم تلاميذ (إشارة إلى ما ادّعاهُ بولس من رؤيةٍ وتلمَذَةٍ على يدِ المسيح بعد صعودهِ إلى السماء) بشروا بأن يسوع مات ولم يقم ، وآخرون بشروا بأنه مات بالحقيقة ، ثم قال : آخرون بشروا ولا زالوا يبشرون بأن يسوع هو ابن الله ، وقد خدع في عدادهم بولص (بولس) أما نحن فإنما نبشِّرُ بما كتبت ، الذين يخافون الله ، ليخلصوا في اليوم الآخر ، لدينونة الله .. (لقد كفر الذين قالوا إنَّ الله ثالث ثلاثة) .. (إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم) .. (ولن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله) .. (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) .. (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) .

وفي هذا المقام أحبُّ أن أشيرَ إلى أمرٍ ضروريٍّ وهو أنَّ من يراجع ظرف تلك الكتابات الإنجيليّة ، بل زمنَ إقامة الأساس اللاهوت والصراع الأعنف على

رئاسة اللاهوت المسيحيّ بين بولس من جهة ، وبطرس ويوحنّا ويعقوب من جهةٍ أخرى يدرك حقيقة ما جاء في هذا الإنجيل ، خاصّة أنّ مجموعة من الآباءِ عملوا بإنجيلِ برنابا ، بل اعتبروهُ وثيقةً تنطقُ بعقيدةِ بطرس ويعقوب بشكلٍ أكيد وأعطاهُ بعضُهم مقاماً رفيعاً ، مصرًّا على أنّه الإمتداد الحقيقي للعقيدة التي جاء بها المسيح ، وحتى تكون الأمور على نحوٍ من تحقيقٍ موضوعيّ ، فإنّ إنجيل برنابا احتوى على مجموعةٍ واضحة من عقيدة بطرس ويعقوب ويوحنّا بل عَكَسَ اعتقاد الحواريين الرسل ، في أمورٍ منها :

- أنّ المسيح ليس من جوهرٍ لاهوتيّ بل هو ناسوتيّ ، هو نبيّ بشر ، مرسل من قبل اللهِ تعالى ..

- أنّ تعاليم المسيح إمتداد لشريعةِ موسى ، وهي ملزِمَة لأتباع المسيح ولا يجوز التخليّ عنها .

- لا بدَّ من نبيٍّ يأتي بعد يسوع المسيح ، وهو على قدرٍ كبيرٍ من الأهميّة وفق منظارِ اللهِ تعالى ... وقد أشار إليهِ هذا الإنجيل بالإسم وسمّاه محمّد رسول الله ، وفي بعضِ الأحيان يعبّر عنه بلغةٍ أخرى تفيد هذا المعنى وهو موافق بدقّة لما احتجَّ بهِ رسولُ اللهِ محمّد تاريخيًّاً على اليهود والنصارى بقوّةٍ وشياعٍ كبير .. وهذا الأمر كان مشاعاً جدًّاً ما قبل زمنِ بعثة النبيِّ (ص) ، وكان اليهود يحتجّون بهِ على العرب ، وقد طاروا بخبرِهِ في الحضرِ والسفر ، وتحدّث بهِ الركبان ..

إلى العديد من الأمور ذات الأهمّية القصوى ، وعليه : دون أيّ تحيّز يجب أن نقف بشكلٍ أساسيّ أمام مجموعة الحقائق التي لا بدَّ منها ، يجب أن نجمع بين متنِ ما ورد في نجيل برنابا ، وبين ما رود في متنِ الكتاب المقدّس من البشارةِ بالبركليت ، بصاحب الصولجان ، بما ورد في وصيّة يعقوب ، بما ورد في كتاب أشعياء ، بما ورد في وصيّة موسى ، بما ورد في بشارةِ يسوع المسيح ، بما ورد في بشارة يوحنّا .. كلُّ النصوص تصبُّ في حقيقة البشارةِ بنبيّ جبالِ فاران (نبيّ مكّة) .. أليس كلُّ هذا حريًّا بالإلتفاتِ ، وإعادة قراءةِ الأمور بنحوٍ دقيقٍ متّزنٍ .. ؟ يجب أن يُعطى إنجيل برنابا أهمّية على الأقلّ من بابِ أنّه وثيقة تاريخيّة تشهد لفريقٍ أساسيّ في ذلك الزمن الذي كان الصراعُ فيهِ على أوجهِ من أجل بناء لاهوت محدّد بين بولس من جهة ، وبطرس ويوحنّا ويعقوب من جهةٍ أخرى .. لقد وصل الأمر ببولس إلى أن يصفهم بالكذبة ، بالماكرين ، بالخيانة ، وغير ذلك ، مصرّاً على أنّهم يكذبون بتعاليم المسيح ، وأنّه هو الصادق ، وأنّهم يخدعون الناس وهو المصيب ، في حين نعلم أنَّ بولس كان مخضرماً في تعذيبِ أتباع المسيح ، كان من ألدِّ أعداء أتباع المسيح ، كان بالغ الخطورةِ عليهم ، لم يكتفِ بعذابهِم في أورشليم ، بل قصدهم إلى بلاد دمشق ... وفجأةً يدّعي انّه رأى يسوعاً وبعثه رسولاً إلى الأمم فيقوم بتبشيرٍ مختلفٍ جدًّا وشاذّ عما في أيدي بطرس ويعقوب ويوحنّا إلى حدًّ يدّعي فيهِ أنَّ يسوع إلهٌ أزليّ من إلهٍ أزليّ .. ويعلن براءتَهُ من شريعةِ موسى ، ويتنحّى عن اليهوديّة ، في زمنٍ كان فيه نحو واضح من الإضطهاد لليهود من قبلِ الرومان بخلافِ سلطة الكهنوت ، ويدعو إلى نصرانيّة منفصلةٍ عن مفاهيم كنيسة الختان برئاسة بطرس ويوحنّا ويعقوب ، الذين شنّ عليهم حملة إلغاء بحجت بقوّة وحالفته الظروف آنذاك .. ولم يمضِ

وقت إلا كان فيه قد أرسى الأساس اللاهوتيّ للمسيحيّة التي نعرفها اليوم ، وتقرُّ الكنيسة بأنَّ الأناجيل كُتِبت قطعاً بعد زمن بولس ، وأنَّ لاهوت بولس شكّل الأساس للنصرانيّة التي انفصلت عن كنيسة الختان .. بمعنى آخر : شكّل بولس لاهوتاً مختلفاً في وجهِ رسلِ المسيح الإثني عشر ، في وجه الحواريين ، في وجه التلامذة الذين أرسلهم المسيح رُسُلاً .. ولأنَّ كتابة متن الأناجيلِ والأحداث التي مرّت على يسوع لا يمكن أن تقوم لها قائمة دون ذكرِ إسم التلامذة الرسل ، كان لا بدَّ من ذكرهم ، لأنّهم كانوا ملازمين للمسيحِ في حلِّهِ وترحالِهِ .. إلا انَّ الخطورة تكمن في توظيفِهِم ضمن متنٍ مؤيِّدٍ للاهوتِ بولس ، وليس لما هم معتقدونَ بهِ ، وهو خلاف ما تلقّوهُ من تعاليم من فمِ يسوع المسيح ، من هنا دخل إلى متنِ هذهِ الأناجيل مجموعة ضخمة من العناوين المغايرة بشدّة لما كان عليهِ تلامذةُ ورسل المسيح من اعتقاد وعلم ..

والجديرُ ذكرهُ هنا ، هو أنَّ إنجيل برنابا يسجّل في مضامينهِ صراعاً عنيفاً حول المفاهيم والإعتقاد واللاهوت المسيحيّ بين فريقين : فريق بولس ، وفريق بطرس ويوحنّا ويعقوب وغيرهم من تلامذةِ المسيحِ الذين بعثهم رُسُلاً .. وهذا ما تؤيّدهُ الشهادات التاريخيّة ، وهذا أمر إتفاقيّ تقرُّ بهِ الكنيسة ، وعليهِ : يشيرُ هذا الإنجيل إلى أنَّ ذلك الزمن كان زمن نصر أو كسر للاهوت ، فكان أن تصدّى بولس للرسل الإثني عشر الذين اضطّهدهم طويلاً من قبل بدعمٍ كبيرٍ من الكهنوتِ اليهوديّ المؤيّدِ من قبلِ الرومان .. في هذا الإنجيل إشارة إلى أنَّ تعاليم المسيح خضعت على يدِ بولس إلى بترٍ وتزييف وتحريفٍ ، إلى بناء لاهوت جديد خطير جدًّا . ودون أيّ شكٍّ على الإطلاق تشهد الوثائق التاريخيّة لخلافٍ عميقٍ

بين فريقين ، في زمن تمّت فيهِ إشاعة مفاهيم خصاميّة ، وتأسّس فيه عصر نشر المفاهيم الخصاميّة ، وكانت النهاية مفاجئة ، حيث انتصر أخيراً بولس الذي كان المضطهد البارز لأتباع المسيح على تلامذةِ المسيح الرسل ، لكن هذهِ المرّة ليس من بابِ الكفر بالنصرانيّة وتعاليم المسيح ، بل من بابِ أنّه رسول من قبل المسيح إلى العالم ، لأنَّ تلامذته كذبة ، وماكرون ، وخونة وشبه ذلك ..! في حين كلّ الوثائق بل متنُ الأناجيل المعتبرة تشهد لتلامذةِ المسيحِ الرسل بمقامٍ عالٍ وأنّهم هم الأمناء على التعاليمِ من بعدهِ ..! لا غيرهم ، مهما كان إسمه أو ادّعاؤهُ ..

لا يمكن على الإطلاق التوصّل إلى نتيجة مقنعة لما حصل في ذلك الزمن بل لا يمكن على الإطلاق الوصول إلى قناعة في صالح بولس سوى الكثير من الشكّ ، والكثير من الإضطراب ، والكثير من العناد في الإحتراز من تعاليمهِ ، والكثير من التوقّفِ والتحقّقِ لما جاء بهِ .. أيّ عاقلٍ يمكنهُ أن يقبل لاهوت بولس على هذا النحو ..! وليس باستطاعة الكنيسة اليوم التصدّي لهذهِ المشكلة التي تعتبر الأعنف في طريقِ واقعيّة الهداية التي جاء بها المسيح ، أو الإقناع الموضوعي لما في جعبتِها كمنطق حقيقيّ لما كان عليهِ الرسل ، أو محاولة بناء شخصيّة بولس على نحوٍ مختلفٍ عن حقائق التاريخ الواصلة إلى العالم ..

لقد شكّل إنجيل برنابا ساعةَ الكشف عنه حدثاً ضخماً ، خاصّة بعد توثيق تاريخيّتِهِ على يدِ مجموعةٍ مشهورةٍ من الخبراء والمختصّين ، لكنَّ المشكلة كانت فيما تضمّنهُ من شهادةٍ صريحةٍ ومذهلةٍ بالنبيّ محمّد ، بالرسول محمّد ، ذاك العظيم الذي يتمنّى رؤيته الأنبياء .. لذا كان الأمرُ مخيفاً ، ودافعاً لشنّ

دعاية في مقابلهِ لإسقاطهِ وإعلان البراءة منه ..! إلى هذا الحدّ وصل التعامل مع هذهِ الوثيقة ذات القيمة التاريخيّة ..! وما تجدرُ الإشارةُ له هنا ، هو أنّه في ذلك الزمن ، زمن تحرير الكتابات الخصاميّة ، وانتصار بولس ، وإقامتهِ الأساس اللاهوتيّ للمسيحيّة التي نعرفها اليوم ، وصولاً إلى زمنِ إعتبار هذهِ الأناجيل قانوناً ، هناك تمّ إتلاف أيّ وثيقة إنجيليّة تخالفها ، وشُنّت وقتئذٍ حرب عنيفة على كلّ وثيقة تخالف الأساس اللاهوتيّ الذي أرساهُ بولس .. فهل ترى في هذه الظاهرة ما يثرُ الإنتباه ..! لقد وصل الأمر إلى حدّ خطير ، حتى مُنِع الكلام بغيرِ اللاهوت الذي تبنّاه بولس .. ولقد حرّمت الكنيسة على الناس حتى مناقشة لفظ التثليث وقررت مبدأ : (آمن ولا تسأل) . وقد حاول مثلاً عمنويل كانت فيلسوف المسيحية تفسيره بقوله : إن الأب والابن وروح القدس ، إنما تدل على ثلاث صفات أساسية في اللاهوت وهي القدرة والمحبة والحكمة ، أو على ثلاثة فواعل عليا ، وهي الخلق والحفظ والضبط .. وعلى هذا فهي في عرفه ألفاظ لا تدل على معانيها المعروفة بها ، فلا داعي إذن كما يقول المرحوم الأستاذ أحمد نجيب برادة لاستعمالها في غير ما وضعت له ليكون الناس على بيّنة من حقيقة معبودهم بعيدين عن الضلال والتضليل .. وعلى هذا المنوالِ من قواعد " الإلزام والمنع " شاع دين مختلف جدّاً عن الدين الذي بشّرَ بهِ بطرس ويعقوب ويوحنّا ، ومخالف بشدّة لما قاله المسيح قبل رفعهِ إلى السماء .. لا يمكن على الإطلاق إعطاء أيّ تفسير مقنع لما قام بهِ بولس .. ألا يستدعي منّا كلٌ هذا أن نقف مليّاً أمام ما نحنُ فيهِ من معلوماتٍ إضافيّة ، بل من متنٍ موثّقٍ من قبل الكنيسة ..؟ ألا يجب علينا ونحن في سفرِ الدنيا أن نحتضن روح الحقيقةِ في حين الزمن يثير فينا كلّ شيئ ، ويتبعنا شيئاً فشيئاً بعالمِ اليومِ الذي لا بدَّ منه فنُسأل أمام اللهِ تعالى ..

أيُّ شرفٍ هذا لرسولِ الله محمّد (ص) ، وكلُّ ما في الوجودِ من كتابٍ يشهد له ..؟ حتى في متنِ الأناجيل التي أريد منها أن تكون خالية من أيّ إشارة شاء اللهُ تعالى ـــ وهو المهيمن على الأسبابِ ـــ أن تبقى تلك الإشارات على نحوٍ نهائيٍّ وعالٍ في أداء وظيفة الشهادة لرسولِ اللهِ محمَّد ..

ومن هذا إلى عنوانٍ آخر ، من نقطة التعريفِ عبر الكتبِ والمتونِ برسولِ اللهِ محمّد إلى الكتابِ الذي بعثَهُ اللهُ بهِ ، إلى القرآن الكريم ، حيث جمع المعجزات ، معجزاتٍ مدهشة ، باعتراف كلِّ الأقلامِ ، وبشهاداتِ أهمّ خبراءِ هذهِ الدنيا .. ألا يجب علينا أن نتوقّف مليًّا ، وبدقّةٍ عالية ، أمام ما أشرتُ إليه من مضامين الكتابِ ، من الآياتِ الكونيّة ..؟ ألا يجب أن نتوقّف طويلاً أمام قولِ اللهِ تعالى : (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) .. هذهِ الآية التي تعتبر اليوم ذات أهمّيّة كبرى ، أكثر دلالة على معانٍ كونيّةٍ مذهلة ، أكثر دلالة معرفيّة على أنّ ما جاء بهِ رسولُ اللهِ محمّد هو من عند اللهِ دون أيّ شكٍّ .. إنّ هذهِ الآية القرآنيّة تحتوي في طيّاتِ مضامينها على أهمّ إشارة كونيّة حول منشأيّة الكون وعلى ما سيصير إليهِ ، تكشف عن معادلة اعتبرها العلم أهمَّ اكتشافٍ حول نشأةِ الكون ، في حين كان الذهن حتى العلمي إلى ما قبل الإكتشاف هذا يعيش أسوأ معاني الوهم والأساطير حول هذهِ المنشأيّة .. اليوم يتحدّث العلماء بشكلٍ علميٍّ عن إنفجار كوني عظيم ترجم الوجود الكوني على هذا الشكل ، وأنّ الشكل الكوني يُردّ بعدئذٍ إلى ما كان عليهِ قبل الإنفجار ذاك ، وذلك بفعلِ إختلاف " الجذبِ بين

الأجرامِ " نسبةً إلى كلّ قوّةٍ فيها ، فيبتلع الجرمُ الكبيرُ الجرمَ الصغير ، وذلك بعد الشيخوخة الطبيعيّة للأجرامِ والكون ، وفق معادلاتٍ مذهلة ..

اليوم يقف العلماء " حائرين مندهشين " أمام هذهِ الإشارة الكونيّة الكبرى ، أمام مدلول هذهِ الآية السابقة وربطِها بالآيةِ هذهِ : (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) .. القرآن هنا يشير إلى أنّ الكون كان متماسكاً ، مجتمعاً ، يشكل كتلةً واحدةً ، في ظلّ تعبير دقيق جدّاً وارد بغاية التوازن العلمي ، من خلال إستعمال كلمة (رتق) إلى أن تمّت أولى معالم الدفع الوجودي لتشكيل الكون ، فتمّ الفتق ، وهو حسب أهلِ الإختصاص أدق تعبير في الدنيا ، إنّه لفظ في غاية الإشارة العلميّة .. إنّها واحدة من الآيات التي تشير إلى موقعين :

١. موقع الوحدة في مادّة الكون قبل إعادة التشكيل الدفعي .
٢. موقع التعدّد في مادّة الكون بعد التشكيل الدفعي ..

كلُّ ذلك بخلافِ النظريّات التي كانت سائدة آنذاك ، وما بعد ذلك ، و لم يقل بهذا الأمر إلا القرآن الكريم ، الذي ربط هذهِ الإشارة بأكثر من منحى بيان قرآنيّ .. لقد أشار القرآن الكريم إلى هذهِ المعاني في وقتٍ لم يكن العالم والعلم يعرف شيئاً عن هذهِ الحقيقة .. واليوم يعتبر هذا الكشف من أدقّ ما وصل إليهِ العلم .. ألا يستحقّ هذا الكشف المذهل أن نتوقّف عندهُ وعند صاحبِهِ في قراءةٍ مختلفة جدّاً ، لأنّ من جاء بهذا الكشف هو فعلاً سفير عالميّ ربّاني مبعوث من قبلِ الله تعالى بشهادة مواثيقهِ القرآنيّة التي تحاكي الكون

بصورةٍ مدهشة ، إنّ هذا النبيّ لم يعتمد أداة أو آلة أو مختبراً أو منظاراً متطوِّراَ ، ولم يقرِّر معادلات وحسابات ذات بعد حسّي ، من أجل كتابة النظريات الكونيّة كما هي الحال مع غيرِهِ .. وسنتوقّف عند هذا الأمر بشيئ من التفصيلِ فيما بعد إن شاء اللهُ تعالى .. إنَّنا ننذهل بشكلٍ مثيرٍ أمام تنبّؤات العرّاف الفرنسي الشهير " نوستردامُوس " مع أنّها غامضة وعموميّة وكثيراً ما تخيب وهي تحمل أكثر من معنىً ، ومع ذلك أصبح اليوم واحداً من أهمّ الأعلام الشهيرين في نفس الوقت الذي يصرّ فيهِ الآخرون على الإبتعاد العمدي عمّا جاء بهِ رسولُ اللهِ محمّد من عند اللهِ تعالى وهو في أهميّةٍ لا أهميّةَ بعدها ..!

إنّ من يقرأ ما جاء في متنِ هذا القرآن لا يمكنه على الإطلاق إلا أن يسلّم بما جاء فيهِ ، لا يمكنه إلا أن يسجّل إعجابهُ التعبّدي الهائل أمام دفّتي هذا الكتاب ، لا يمكنه إلا أن يردّهُ إلى الله .. وإلا كيف يمكننا التعامل مع مثلِ هذه الآيات الكونيّة التي غرست في أعماقِ هذا الكتاب كلّ حجّةٍ علينا لتؤكّد أنّ الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديهِ ولا من خلفِه هو الآن يخاطب أمّة العلم بغزارةٍ ليس بعدها غزارة ، وليتفاجئ أهل الدنيا اليوم بانّه ينبض بالعلمِ بشكلٍ مثيرٍ ، ويدلّ الأمة البشريّة على نحوٍ من خلاصٍ مذهلٍ وكشفٍ هائلٍ ، ويصرخ بأسماعِ البشر أنّ هذا الكتاب الذي جاء بهِ رسول اللهِ محمّد منذ أكثر من ١٤٠٠ عام فيه من الأسرار العلميّة ما يثير كلّ العلماء على الإطلاق ..!

كثيرة هي الآيات المذهلة في هذا الكتابِ الذي بُعِثَ بهِ رسولُ اللهِ (ص) من قبلِ اللهِ تعالى .. هذهِ واحدة من الآيات التي توقّف العلماء أمامها ليشهدوا بجدٍّ وثباتٍ على أنّ ما جاء بهِ النبيّ محمّد (ص) لا يمكن ان يكون مكتوباً بيدِ

بشريّة .. وإنّما هو حصراً من عند اللهِ وحسب .. ولقد وظّفها اللهُ كما وظّف غيرها لتكون معبراً إلى عالمِ الهدايةِ في الدنيا ، ومن تلك التوظيفات الإشارة إلى عالمِ الآخرة والقيامة .. يقول اللهُ تبارك تعالى في سورة العلق :

- (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢)

- ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ(١٣)

- ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ،

- فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ،

- فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ،

- فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ،

- ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ،

- فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(١٤)

- ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ(١٥)

- ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ(١٦)

- وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ، وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ(١٧)

- وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ(١٨)

- فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ، لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(١٩)

- وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ ، تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ(٢٠)
- وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ ، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١)
- وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ(٢٢)

رأسُ هذهِ الآيات يشير إلى مراحل تكوين الجنين ، في وقتٍ لم يكن العلم فيهِ قادراً على معرفة حقيقة الأمر ، فقد حدّدت هذهِ الآيات عناوين مرحليّة في إطار التكوين الجنينيّ ، لتظلّ شاهداً بارزاً تحت أعينِ الأممِ حتى القرن العشرين ، حيث يقرّ العلم حرفيّاً ما جاء بها (وهذا ما سأشيرُ إليهِ بشيءٍ من الشروحات الطبيّة فيما بعد ..) ومن هذهِ المشاهد الحيّة تنتقل بنا هذهِ الآيات إلى ولادة العالم الآخر (عالم القيامة) لتعبُرَ من إعجاز الولادةِ الأولى إلى إعجازِ الولادةِ الثانية ، ومن مخاض الولادةِ الأولى إلى مخاض الولادةِ الثانية ، وكلاهما سرّ الدلالة العميق على الإرتباط باللهِ تعالى .. في هذهِ الآيات بيّن الله أموراً أساسيّة هي التالية :

١. الإعجاز الأول ، وهو عبارة عن تكوين الجنين وبيان دقة مراحلِهِ لتكون شاهد الإعجاز المعرفي على طول المسيرة البشريّة في حسابِ سفارة الله على يدِ رسولِ اللهِ محمّد (ص) ..

٢. إعجاز ولادة البعث بعد الموت ، في ظلّ مشهد بياني ماديّ وفعليّ لأوّلِ ولادةٍ جنينيّة من بابِ الإمكان والتحقّق ، من باب تطبيق الإمكان ،

من باب بيان المشهد الوجودي بشكلٍ يدعو العقل إلى الإذعان واليقين والتسليم وهذا ما امتاز بهِ القرآن بشكلٍ هائلٍ ، امتاز بقدرة بيان الحجّة بشكلٍ تام ، قدرة بيان المرحلة الوجوديّة بشكلٍ لا يبقي أيّ مجالٍ للشكّ .. وعلى حدّ قول الإمام علي عليهِ السلام : عجبت لمن رأى النشأة الأولى (الحياة وولادة الجنين وما تلاهُ من إنسان) كيف يشكّ بالنشأة الأخرى .. ! (عالم البعث والقيامة) .

٣. الإشارة إلى المعالم الكونيّة ، إلى منازل الخلق ، إلى سبع طرائق ، وهذهِ ما زالت لغزاً كونيّاً حتى الآن .. وصولاً إلى الدورة المائيّة بين السماء والأرض ، على قاعدة الإنزال من السماء إلى الأرض وفق ناموس كوني (سنشير إليه فيما بعد ليدلّ على حقيقة الإعجاز المتبطّنِ في هذا القرآن) ليسكنه الأرض ، والقدرة على رفعهِ وإعادة تكوين وتشكيل الدورة المائيّة الطبيعيّة .. لقد انتظر البشر القرون الطويلة حتى وقفوا على مساحة الحسّ المادّي والتقنيّة ، ليروا بأمِّ أعينهم حقيقة ما قالهُ القرآنُ في زمنٍ قاحلٍ من العلم والتقنيّة وأنّ ما جاء بهِ الرسول نافذ نفوذ العلم ، وقويّ قوّةَ الحقيقة اليقينيّة النهائيّة .. ؟ لا شكّ أنّ هذهِ الآيات تستدعي التوقّف أمامها والخشوع بشكلٍ مثيرٍ .. لقد قال كلّ الذين أرادوا محاكمة القرآن وفق معطيات العلم إنّ القرآن أصعب كتاب على الإطلاق ، كتاب يطأطأ العلمُ رأسهُ بين يديه ، كتاب يزيدهِ العلم علوّاً وعظمةً ، كتاب لا يملك العلماء إلا الإقرار بين يديهِ ..

إنّه القرآن الكريم ، الكتاب الذي أمرنا الله أن نتدبّره (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) إنّه أبلغ إشارة وأدقّها ، إشارة يريد اللهُ عبرها أن نتدبّر هذا القرآن لندرك انّه يزداد قوّةً في كلّ موقعٍ من مواقع الوجود والعلم والإعجاز ، يزداد علوّاً في كلّ مرحلةٍ من مراحل الكشف العلميّ .. إنّ الله يشير إلى أنّ هذا الكتاب لو كان من عند غيرِ الله لكان فيهِ أخطاء كثيرة ، واختلاف كبير ، وضعف وتضعضع ، يعرّضه للإهتزاز والسقوط أمام المعطيات الهائلة الثابتة للعلم الحديث ، خاصّة انّه تعرّض لأدقّ وأخطر المواضيع الكونيّة .. لقد أشار أكثر من عالمٍ وخبيرٍ اعتنق الإسلام أنّ القرآن يزداد قوّةً وعلوّاً ونفوذاً وبياناً كلّما تقدّم العلم وبلغ مراحل كبرى من الكشفِ النهائيّ .. ألا يدعو هذا الى الإذعان بين يديه والإقرار بأنّه كتابُ مرجعيّةِ الكون وخشوع البشر ..! قرأتُ لبعضِهم : أنّ ما في القرآن يدعو للذهول ، يدعو إلى إعتناقِهِ دون ايّ جدلٍ ، وتوقّف عند قولِهِ تعالى :

- (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَد تَرَوْنَهَا ،
- وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ،
- وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّة ،
- وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ(١٠)
- هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ، فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(١١)

يقول : وجدت فيها دعوةَ اللهِ إلى الناس : أنّ هذا خلقُ اللهِ ، فأعدت قراءة الآية مرةً أخرى ، فإذا بها الإشارة التالية :

١. خَلَقَ اللهُ السموات بلا عمدٍ يُرى ..
٢. ثبّتَ الأرض بالرواسي حتى لا تميد ..
٣. بثّ في الأرض من كلّ دابّةٍ .. (الأجناس الحيوانيّة) ..
٤. أنزل من السماءِ ماءً ، وفق معادلةٍ مذهلة (الدورة المائيّة الكونيّة)
٥. أنبت في الأرض من كلّ زوجٍ بهيج أو كريم (التزاوج التناسليّ وفق معنى مثير ومذهل) ..

العلم حتى اليوم يعيد تركيب هذهِ الآية .. لأنّ ما ورد في ذيلها يعتبر كشفاً علميّاً أساسيّاً ، لقد أثبتت الدراسات العلميّة أنّ الأرض لولا الجبالِ لم يكن لها أن تثبت على الإطلاق ، ولا يمكن العيش على سطحها ، وأنّ سرَّ ثباتِها على هذا النحو إنّما هو بفضلِ الجبالِ ، وهذا لم يكن معلوماً قطّ ، ولم يشر له إلا القرآن ، وقد تحقّق العلم بشكلٍ نهائيّ من ذلك وأيدّهُ ..! وأنّ الجبال التي تنغرس في الأرض إلى حدود ثلثي ما تظهر منه فوقها تقوم بتثبت الأرض بشكلٍ متوازنٍ دقيق ، بل بعضُ الآيات أشارت إلى الجبالِ بتعبير الأوتاد ، والوتد هو ما تثبّت بهِ الخيمة وتغرس في الأرضِ بأكثر ممّا يظهر على سطحِها ، وكما ترى تعبير في غاية الدقّة .. وظلّ الإنسان التجريبيّ ينتظر حتى الأمس حتى استطاع عبر مجموعةٍ واسعةٍ من الأدوات المتّصلة بعلم الجيولوجيا أن يثبت حقيقة الأمر ، ليظهر أنّ القرآن كان الحقيقة العلميّة الوحيدة التي طلت على الإنسان بمشهدٍ مذهلٍ من حقائقهِ المعرفيّة ، من دون أداة تجربة ولا مختبر بحث وتطبيق ، ولا تعقيدات طبيعيّة ولا معرفيّة ولا تقنيّة .. ألا يستوقفنا هذا الأمر بشكلٍ يدلّ على رتبة هذا الكتاب ..؟ المثير أنّ العلم قال لولا الجبال لمادت الأرض ، لإختلّ

التوازن ، لما أمكن العيش على سطحِها .. فيا ترى هل هذا الكتاب كتاب معرفة ربّانيّة أم كتاب معرفة بشريّة ..! أيّ كتابٍ قبل أو بعد هذا الكتاب أو أيّ بشريّ فتح كلّ هذا الفتح على منافذِ البشر ..؟ أليست المعرفة هذهِ وغيرها من اسرارِ الكون غير ممكنة مطلقاً لأيّ إنسانٍ من دون آلةٍ وأداةٍ وتقنيّة إلا من بابٍ واحدٍ هو باب الغيب ، وعن طريق مَن له الغيب وبيدهِ الغيب (الله تبارك وتعالى) .. ألا تدلّ كلّ هذهِ الآيات وغيرها على أنّ القرآن مرجع الوجود المعرفيّ للبشرِ والدعوة الوحيدة التي يجب أن تُتّبع ..!

ألم يقرّر العلم أنّ الزوجيّة ممزوجة في كلّ شيئ وأنّ الزوجيّة عماد كلّ شيئٍ .. ألم يحشّد العلماء بتقاريرهم العلميّة ما يشير إلى عمق هذا المعنى من مفهوم الزوجيّة في نفس الوقت الذي كان فيهِ العالم لا يعرف شيئاً عن الزوجيّة إلا ما جاء بهِ القرآن الكريم ليشحن الوجود بمعنىً إعجازيّ آخر .. كلّ هذهِ المعاني كانت تطرق العقل البشريّ بشكلٍ قويٍّ ونافذٍ ، وهي تحمل في طيّاتِها نتيجة مفادها أنّ إمكانيّة إطلاع الإنسان على ذلك من دون أداة إختبار ومعدّات وتقنيّة تعتبر اليوم في غاية التطوّر أمر غير ممكن على الإطلاق ، وأنّ الأمر كان قبل يوم الأداة وتطويرها بمثابة الغيب ومن المستحيل الإطّلاع على واقعهِ ، لنجد أنّ القرآن الكريم أشار إليهِ في كثيرٍ من الآياتِ ، في كثيرٍ من السور ، في كثيرٍ من روابط الإستشهاد الكوني على مقامات المسيرة البشريّة مرّة والكونيّة مرة أخرى والتشريعية مرّةً ثالثة في طولِ خطابهِ الداعي للهداية الذي يستعرض الكثير من الحجج التي تحيا في كلّ زمان ..

أيّ كتابٍ هذا ؟ ايّ كشفٍ هذا ؟ وفي أيّ زمنٍ ؟ ألا يدلّ هذا على أنّ القرآن الكريم كتاب الوجودِ بكلّ ما تعنيهِ هذهِ العبارة من عظمةٍ وامتياز ..! هل يجوز لأيٍّ منّا أن يتجاوز هذهِ الحقائق ويمرّ عليها مرور الكرام ..! هل يجوز أن نقف موقفاً خاشعاً أمام إسحق نيوتن أو كلومبوس أو غاليلو أو أرسطو أو شكسبير أو آدم سميث أو أديسون أو أنطوني فان لفون هوك أو بيتهوفن أو جون لوك أو سان أوجستين أو وليم هارفي أو نيكولاوس أوجست أوتو أو غيرهم وهم على ما هم عليهِ في علمٍ لا يساوي أقلّ إشارة كونيّة وردت في القرآن الكريم ..! هل يجوز أن نمرَّ على هذا القرآن دون أن يستحقّ وسام إعتبارهِ المرجع الوجودي ..!

هل يجوز أن نقف مذهولين أمام جوزيف ليستر وجريجور مندل وكالفن وماكس بلانك وجون دالتون وبيكاسو وننسى أهمّ رجلٍ مذهل في تاريخ البشريّةِ ألا هو رسول اللهِ محمّد (ص) ..! إنّ الدكتور الأمريكيّ الشهير مايكل هارت أصرّ على أنّ محمّد بن عبد اللهِ (ص) هو الأوّل على الإطلاق بين كلّ عظماء الكون البشريّ ، وأنّ المسافة بينه وبين من يأتي ثانياً في المائة الأوائل لا يطمع أحد في إعادة ترتيبها ، لأنّ كلّ شيءٍ فيها مستحيل .. لا يقربه نيوتون أو أنشتاين ولا أدسون ولا آدم سميث ولا يسوع المسيح ولا غيرهم على الإطلاق ، فهو الأوّل بانفراد على كلّ عظماءِ البشريّة .. وقد أحدث هذا الكتاب ضجّة ضخمة في الغرب حين نزل إلى الأسواق ، خاصة أنه يقيِّمُ العظماء قياساً على أثرِهِم ..

في الفقرات الماضية حين تحدّثنا عن الإنجيل والتوراة كان الأمر واضحاً في تسلُّل يدٍ عابثةٍ لعبت ببعضِ العناوين والتي أجادت دوراً مريراً في إعادة الصياغة ، وإعادة الكتابة الجزئيّة ، بل في إتلاف نسخ أصليّة ، وجاء متن النصّ في العديد من العناوين ليشير إلى أنّ ما هو فيه يدلّ على شيخوخةٍ معرفيّةٍ أرادت أن تعدِّل من معانيه كما أشرت إلى ذلك في أكثر من موقعٍ وسردت على ذلك الأدلّة الكثيرة .. إلا القرآن الكريم فإنّ كلّ شيءٍ يدلّ فيه على عظمته الكبرى ، على القدرةِ التي لا تُقاوم ، لقد تحدّى القرآن الكريم وما زال يتحدّى كلّ البشرِ أن يأتوا بمثلِه أو بسورةٍ من مثلِه ، مؤكّداً أنّهم لم يفعلوا ولن يفعلوا ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً .. وما زال في القرآن الكريم جملة واسعة من المعاني المعرفيّة الكونيّة ذات الإشارة الرمزيّة التي تحتاج إلى جهودٍ جبارةٍ تجريبيّة لمعرفة معانيها ، اليوم كثير من علماء الغرب يأخذون كلّ ما يرد في القرآن على نحوٍ الجدّ والدقّة العالية بعدما ثبت أنّ كلّ شيءٍ أشار إليه كان في غايةِ الدقّة والمتانة والدهشة .. يحاولون معرفة معنى الطرق ، معنى التعدّد السماوي ، معنى الإشارات الموقعيّة للنجوم .. بعدما ثبت المذهل المعجزِ في الإشارات الكونيّة القرآنيّة حول تكوير الشمس ونقصان الأرض من أطرافِها وسلخ الليل والنهار والتكوير فيهما ، وتثبيت الأرض ، والزوجيّة ، ورتق الكون والفتق وبرزخيّة الماء ، وما ورد في سورة الحديد من أسرار والرقم الذرّي للحديد والمطابقة العدديّة فيها ، وجريان الشمس في مستقرٍّ لها ، ومنازل القمر المتتالية حتى عاد كالعرجون القديم في دلالةٍ مذهلة .. إلى الكثير من معاني المراحل الجنينيّة ، والأخبار الغيبيّة ، والأعماق الكونيّة ، والأسرار الأسرار التي ما زالت إلى اليوم موضع أكبر أهميّة علميّة في ظلّ إقرارٍ إعجازيٍّ مذهل ..

ومن موقعٍ آخر يختصُّ بمنظومة المبادئ ذات المعنى المتّصل بسلوك البشر أقرّ القرآن ومجموع ما جاء بهِ النبيّ محمّد منظومة من عناوين كبرويّة ما زالت إلى اليوم " الكتاب الأممي " الذي ترجع إليهِ البشريّة ، في وقتٍ كانت البشريّة تعيش أسوأ قصور في كتابة فقه الوجود الإجتماعي ، ومعنى الإنتماء في الكيان السياسي .. وقد أشرت إلى ذلك في أكثر من كتابٍ منه : (عقوبة الإعدام ، والعولمة ، والإستنساخ ، والمعالم الأوليّة في القانون الجنائي ، ونظريّة العقد ..) وفيها كلّ ما يدعو إلى الخشوع أمام ما جاء بهِ القرآن الكريم .. كان العالم منتظراً القرن العشرين حتى يقرأ الإعلانات الحقوقيّة في أهمّ مفاصلها ليجد انّ ما يتغنّى بهِ العالم ما هو إلا النصّ الحقوقي الذي أقرّه الإسلام منذ أكثر من ١٤٠٠ عام .. وهذا دليل إضافي على " عظمةِ هذا القرآنِ " وشرفِ بعثة الرسولِ محمّد بهِ .. وكيفما كان : أخلاقيّاً ، أو حقوقيّاً ، أو غيبيّاً ، أو تاريخيّاً (سيرة الأمم الماضية) بلاغيّاً ، كونيّاً .. كلّ شيءٍ في القرآنِ مذهل ، مثير للخشوع ، يدعو إلى الإعتقاد بهِ مرجعاً مطلقاً .. وما عليك إلا المبادرة إلى قراءة متأنّية في هذا الكتاب لتجد كلّ ما فيهِ من أسرار العظمة ومفاتيح معرفة الغايات الوجوديّة ..

فيا ترى ، ألا يحقّ أن نقف خاشعين أمام مثل هذا الكتاب ، ألم يقرّ مجموعة واسعة من سياسيّ هذا العالم ومفكّريهِ بما عليهِ القرآن الكريم من قدرةٍ فذّةٍ مذهلةٍ ووجوديّةٍ عالية ..! ألم يدعُ وليّ العهد البريطاني تشارلز إلى تداول ثقافة القرآن ، كواحدةٍ من معايير إعادة صقل الشخصيّة الإجتماعيّة المعرفيّة ..! ألم تقرّر أكثر من كنيسة ضرورة قراءة وتصفّح هذا القرآن ، في حين كان هذا الأمر من المحرّمات ..! ألم يقرّ أكثر من رمزٍ وشهيرٍ وخبيرٍ وعالمٍ ومتخصّصٍ

بعميقِ سرِّ الخطاب القرآنيّ ، ثم يظهر أمام شاشات التلفزةِ وعلى صفحات المجلاّت وفي عينيهِ دموع تفيضُ من الخشوع ..! من هنا فإنّ كلّ ما أشرت إليهِ حجّةٌ على كلّ أهلِ الدنيا إلى يوم القيامة .. حجّة تنطق بها التوراة والإنجيل وكلّ كتابٍ مرسلٍ من قبلِ اللهِ سبحانَهُ وتعالى .. حجّة ارادها اللهُ أن تبقى متبطّنةً الكتاب المقدس حتى تصكّ أسماعنا ، لنعيد تجديدنا الإيمانيّ بما عليهِ القرآن الكريم وما جاء بهِ الرسول الأعظم محمّد (ص) إنّ هذا ما دعا موريس بوكاي إلى أن يعلن إسلامه بخشوعٍ ودموعٍ واستفاضةٍ كبرى حين رأى القدرة المذهلة للقرآن من الجهةِ العلميّة والسرّ الأعمق الذي يشهد بصلتهِ الربانيّة ، كان هذا الأمر كافياً حتى تفيض عيناه من الدموعِ ويعلن إسلامهُ .. كان هذا الأمر كافياً لأن يعلن الفيلسوف الفرنسيّ والنائب الفرنسي السابق روجي غارودي إسلامه بشكلٍ دوّى في كامل أوروبا والعالم .. وعلى القاعدة : لكلّ أمّةٍ رسول ، والرسول هو الرابط الأهمّ بين الأرض والسماء ، بين المخلوقِ والخالق .. وكلّ هذا سيكون حجّة علينا يوم الولادة العظمى ، الولادة الوجوديّة الأهمّ في مسيرة الخلق المستمرّ (يوم القيامة والبعث ..) يقول الله تعالى :

- (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ، فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(٤٧) يونس

- (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ(٨٩) النحل

- ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ، أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ، وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(٣٦) النحل .

ستكون الحجّة علينا بالغةً يوم القيامة ، يومَ لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم ، سيندم مَن كفر بعد أن تمّت عليه الحجّة .. وستلعنُ كلّ أمّةٍ أختها ، من جرّاءِ سلسلةِ الكفرِ هذهِ ، بعد ان أتمّ الله الشواهد الكبرى على عظيمِ كتابهِ الذي بعثَ بهِ نبيَّهُ الكريم (ص) .. يقول الله تعالى :

- ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٣٨) الأعراف .

جزاءُ مَن يقيم كُتُبَ اللهِ وفق معانيها أنّ الكَوْنَ يصبح طيّعاً بين يديه ، وفق المعنى الطبيعي المخلوقِ عليهِ ، جراء مادّة الإدارة التشريعيّة والبنية المفاهيميّة في برمجة وجودنا الإجتماعي والعلاقة مع الكون والطبيعة . يقول الله تعالى :

- ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾(٦٦) المائدة .

إنّ الكتاب الذي يعطيه الله الحجّة لا بدَّ أن يكون مهيمناً على ما سبق ، وفي كلّ شيءٍ إشارة على حقّانيّته ، فهل بعد كلّ الذي أوردته عليك يوجد حقّانيّة طيّعة أكثر ممّا للقرآن الكريم ولنبيّهِ العظيمِ محمّد (ص) ، وقد قال الله تبارك وتعالى :

- ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ، وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ..﴾ المائدة .

لقد نطق الذين اهتدوا بمجموعة من معانٍ ساميةٍ تشير بدقّةٍ إلى ما يجب أن تكون عليهِ أمّة العالمِ في إطارِ علاقتِها باللهِ وكتابهِ الأعظم :

- ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٢٨) البقرة .

إنّنا ندعو إلى الإعتقاد من بابِ محاكمةِ كلّ الكتبِ ، كلّ الأفكار ، كلّ المقامات .. لأنّ الإيمان العلمي أساس كلّ اعتقاد .. فبالعلم يُعرف الله ويعبد .. إنّ من يقرأ ما أشرنا إليهِ في فصلِ التوراة والإنجيل يدرك أنّنا ما قصدنا إلا الحقيقة ، ما قصدنا إلا المعارف التي من شأنها أن تثبّت قواعد الصلة الوجودية مع الله ، ما قصدنا إلا التثبّت من صلة المتن باللهِ تعالى .. وقد بدا واضحاً كم هو عظيم متن القران .. فهل بعد كلّ هذا يمكننا أن نستبدل بهِ غيره .. إنّه

الحجّة البالغة بشكلٍ مذهلٍ .. لقد جاء في بحار الأنوار[1] أنّ الحارث الهمداني قال دخلت المسجد فإذا بأناسٍ يخوضون في أحاديث .. فدخلت على عليّ (ع) فقلت له : ألا ترى أنّ أناساً يخوضون في الأحاديث في المسجد ؟ فقال : قد فعلوها ؟ قلتُ نعم . فقال : أما إنّي قد سمعت رسول اللهِ (ص) يقول : ستكون فتن .. قلت له : وما المخرج منها ؟ فقال (ص) : كتاب اللهِ ، كتاب اللهِ فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم . هو الفصل الذي ليس بالهزل ، هو الذي من تركه من جبّارٍ قصمهُ الله ، ومن ابتغى الهدى في غيرهِ أضلّه الله ، فهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الردّ ، ولا تنقضي عجائبهُ ، وهو الذي لم ينته الجنّ إذ سمعته أن قالوا : إنّا سمعنا قرآناً عجباً ، هو الذي من قال بهِ صدق ، ومن حكم بهِ عدل ومن عمل بهِ أجر ومن دعا إليهِ هدى إلى صراطٍ مستقيم ..

لا شكّ أنّ من يقرأ الكثير من المعاني الكونيّة ــ الغيبيّة في هذا الكتاب ، بل يكفي أن يقرأ ما أشرت إليهِ من معاني الأسرار الكونيّة ، حتى يدرك أنّ هذا القرآن هو سرّ الله وهويّة التمسك بحبل الله ، وأنّه المفصل الوجودي والمرجع الأساسيّ للبشر .. لقد أشار القرآن الكريم منذ أكثر من ١٤٠٠ عام إلى أنّ التطوّر البشريّ على صعيد تطويع الأداة والناموس سيصل إلى ذروةٍ كبرى .. وأنّ الإنسان سيتغلّب على الكثير من العقبات الطبيعيّة ، وأنّ الوجود الكوني سيكون طيّعاً نسبيّاً بين يديهِ حتى تدلي الأرض بزينتِها ، ويظنّ الإنسان أنّه قادر

---

[1] (ج ١٩)

عليها .. كانت هذه البشارة نهائيّة ، وأنّ الأمر حاصل ، وأنّ القيامة لا تقوم إلا والإنسان يظنُّ أنّها قادرٌ على الأرض ، وذلك في وقتٍ كان الإنسان فيهِ لا يقوى على معالجة الحجر ، أو فهم ما يدور في بطنِ الأرض القريب منه .. وتمرّ الليالي والأيّام ، وإذا بما نطق بهِ القرآن متحقّق وبشكلٍ مثير ، عبر مجموعةٍ كبرى من الإكتشافات التي كان آخرها الهندسة الوراثيّة والإستنساخ ، فضلاً عن الغوص في عمقِ النظام والسباحة في بطن الفضاء ، والسيطرة على ما يتّصل بهذا الكوكبِ المعمورِ من ناموس وأنظمةٍ طبيعيّةٍ في ظلّ ثورةٍ تقنيّة عاليةٍ ومنفلشةٍ ، حيث بدا الأمرُ متحقّقاً وبأشواطٍ واسعةٍ .. وهكذا هي الحالُ مع مجموعةِ غيبيّات هذا الكتاب ، التي تحقق قسم منها على حياة النبيّ (ص) وقسم آخر ما زال يتحقّق إلى يومنا هذا وهو مستمرّ في ذلك ، بشكلٍ مذهلٍ وإعجازيّ ، بل إنّ المسلمين كانوا ينتظرون إنتصار الروم كما اشار القرآن بعد أن هزمت ، فما إن تمّ الأمر حتى كبّر المسلمون كواحدةٍ من معاني الإطمئنان التراكمي في قلوبهم على المنحة الإلهيّة للغيب ، كشاهدٍ وجوديّ إضافيّ على عظيمِ ما جاء بهِ القرآن وما حمله رسولُ اللهِ محمّد (ص) .. وما زالت سورة الروم تؤرّخ هذا المعنى بشكلٍ جليّ حيث قال الله تعالى :

(غُلِبَتِ الرُّومُ(٢)فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ
بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(٣)فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ
وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ(٤)بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ
مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٥)وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ

وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا
مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(٧)

إلى العديد من معاني الغيب الموعود به إبنُ الإنسان والذي منه أنّ الإنسان يصل في شوطِ وجودِهِ وتعاملِهِ مع الأرض إلى مستوى يظنّ أنّه قادر عليها .. وقد قال الله تعالى :

- (.. إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ،
- فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ،
- حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ، أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ، كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٢٤) يونس

في هذهِ الآية يشير الله إلى معانٍ هائلة ، لها ابعد معنى في شعورِ الإنسان لكنّني أركّز على أمور منها :

١. يصل الإنسان إلى مستوى من القدرةِ في السيطرة على الأنظمة الطبيعيّة يكون فيها الناموس ــ نسبيّاً ــ طيّعاً بين يديهِ .

٢. من نتائجِ هذهِ القدرة التطويعيّة للناموس أنّ الأرض تتزيّن بزينة التكنولوجيا ، ويظهر زخرفها على شكلٍ عاكسٍ لها ، دلالةً على القدرة الجبّارة التي وصل إليها الإنسان ..

٣. يصل الأمر إلى مستوى يكون فيهِ الإنسان على قدرةٍ عالية ، حتى يظنّ أنّه قادر عليها .. وهذا تعبير دقيق يدلّ على أنّ الإنسان يصل إلى مستوى عالٍ من التحكّم بالنواميس وقوانين الطبيعة كعنصر مستغِلٍّ فاعل على نحوٍ من تحكّمٍ مرجعيّ (نسبيّ بطبيعة الحال) ..

٤. إذا كان الأمر كذلك وبلغ الإنسان ذورتَه ، وفق مشيئة اللهِ ووقتهِ ، فإنّ هذا يكون علامةً على نهاية الإستمرار الطبيعيّ ، وتعلن الطبيعة طاعتَها لإذنِ اللهِ تعالى حيث يأتي أمر اللهِ فتصبح حصيداً كأنّها لم تكن أبداً ..

لا شكّ أنّ صدر الآيةِ تحقّق منه شيئ لافت جدًّا ، ووصل الإنسان إلى مستوى متطوّر ، أمّا حدود هذا التطوّر والكشف وتطويع الطبيعة بشكلٍ عالٍ جدًّا ، الأمر فيهِ موكول إلى الله فهو الأعلم بوقتهِ وحدّهِ .. إلا أنّ الأهمّ فيه أنّ الكتاب الوحيد الذي نطق بقدرةِ الإنسان على تطويع الناموس وأنّه سيصل إلى ذلك هو القرآن الكريم فقط ، ومنذ أكثر من ١٤٠٠ عام ، أي منذ القرن السابع ميلادي .. في نفس هذهِ الآية إشارة إلى فناء الأرض وما يتّصل بها .. ما يعني أنّ الآية تحقّق جزء من مفادِها الغيـــبيّ ويبقى الجزء الآخر .. فأيّ عظمةٍ تلك أمام قوسِ هذا الوجود المعرفي الذي ينطق بهِ القرآن الكريم ؟ أيّ خارطةٍ وهويّةٍ تلك التي تحمل إلينا منذ أكثر من ١٤٠٠ عام معاني الشوط البشريّ ومرحلتَهُ الصعوديّة ومعناها المُعَمْلَق ..؟ أيّ غيبٍ ذاك الذي ينطق بهِ هذا الكتاب الذي جاء بهِ أعظمُ نبيّ ..! إنّها بيّنات معرفيّة عالية تنطق بالنتائج عبر مجموعة من معاني الإثبات على الطريقة الكونيّة ، لتزيد سنا هذا القرآن بهاءاً وإعجازاً .. فهل نطق بمثلِ هذا أيّ كتابٍ ..! .. لا ، إلا القرآن الكريم ، القرآن النازلِ إلينا

من السماء هدى ورحمة للعالمين ، الكتاب الذي طوّق أذهاننا بمجموعةٍ هائلة من الحججِ العالية التي ما زالت تهبط علينا من متنِ هذا الكتابِ ، وبشكلٍ لا نملك معهُ إلا الخشوعَ المطلق ..

منذ ١٤٠٠ عام كانت البشريّة تعكف أمام صنمِها ، في ظلّ دياناتٍ مخترعةٍ خرافيّة ، هابطة كلّ الهبوط ، وكان الإنسان قاصراً في مجالاتِ الإستغلال للنواميس على نحوِ ما نعرفهُ اليوم ، كان الفارقُ مذهلاً بين الأمسِ واليوم ، كان إنسانُ الأمسِ يرى الأرض مجرّدَ كون نهائي ، كان يتعامل مع مجموعةٍ من موازينِها المتحكّمة بالأجسام والأثقال والمواد على نحوٍ من حكومةٍ مطلقة يسلّمُ لها ، كان يتعامل مع الأمورِ من بابِ النفوذِ من باب العجزِ المحكوم .. آنذاك ، كانت البشريّة ترى الوجود مجرّد ما يملئ عينيها ، ترى الأرض ثابتة ، ترى إمكانيّة الخروج من الأرض أمراً مستحيلاً .. وجاء القرآن الكريم لينطق بمجموعةٍ معرفيّةٍ غريبةٍ ، منها إمكانيّة النفاذ من أقطار السموات والأرض[1] .. كان الأمر بمثابة وقفة غريبة في ذهنِ إنسانِ الأمس ، إلا أنّ هذهِ الآية كانت تنتظر شوطاً واسعاً للبشريّةِ لتبدو الأمور على نحوٍ هائلٍ من منظارِ الله وقرآنِ رسولِ الله محمَّد .. كانت هذهِ الآية تعني للمسلمِ منذ ذلك الزمنِ أنّ إستحالة

---

[1] من معاني النفوذ ذاك إمكان تذليل قانون الجاذبيّة الأعمق والأوسع من حاذبيّة الأرض ، والتعامل مع الفضاء من بابِ الإمكان ، فضلاً عن طبيعة الإستغلال للأجسامِ والأوزانِ ومنتجات القوّة الدافعة وشبه ذلك .. وقد استمعت إلى واحدٍ من شرّاح مثل هذهِ المعاني وهو من الإسلاميين القديرين ، وهو يشير إلى أنّ الإمكان هذا مستحيل ، وإنّما طرحهُ اللهُ من بابِ الإشارة إلى قانونٍ عالٍ من بابِ الإشارةِ إلى مركزيّة الكون .. وقد شرح ذلك مطوّلاً .. إلا أنّ ذيل الآيةِ يشير إلى الإمكان من خلال السلطان ، والسلطان هنا مقصود فيهِ التقنية والعلم بمجموع القوانين وأدواتِها الدخيلة في هذا الباب وتلك الغاية ، لذا منع النفاذ منها إلا بسلطانٍ وهو دليل الإمكان ، لكن هل هو من بابِ الإمكان النظري أم الإمكان العملي ، برأي أنّ الخطاب متّصل بالإمكان العملي لأنّ المخاطب هم البشر ، فيكون الخطابُ معهم على الممكنِ في آيةٍ تشيرُ إلى إمكان وقوعِ ذلك ..

النفاذ أمر غير صحيح ، لأنّ القرآن يقرّ إمكانيّة الخروج والنفاذ .. كانت الأهميّة أنّ القرآن هو الكتاب المعرفي الوحيد الذي قال بالإمكانيّة تلك ، وربط الأمر بالسلطان ، ويقصد بتعبير السلطان كلّ أداة وتقنيّة من شأنها تطويع الناموس والقانون الطبيعي والإستفادة منه فيكون لهذهِ الأداة السلطنة على الناموس .. يقول الله تعالى :

- ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ(٣٣) سورة الرحمن .

ثمّ لو جمعنا بين الآية التي تتحدّث عن أنّ الساعة لا تقوم إلا وقد أخذت الأرض زخرفها وتزيّنت وظنَّ أهلها انّهم قادرون عليها ، مع هذهِ الآية من إمكان النفاذ من اقطار السموات ، لظهر انّ القرآن الكريم يضع بين يدي البشريّة منذ ذلك الوقت بيان مفادُهُ أنّ الإنسان يبلغ في شوطهِ التجربيّ التقني مرحلةً كبرى ، يظنُّ معها أنّه قادرٌ على الأرض ، بما تعنيهِ من واحةٍ محشّدة بالأنظمة والقوانين الكونيّة .. لا شكّ أنّ هذا من باب أكبر المعاني المعرفيّة ، ويحتاج بشكلٍ جاد إلى التوقف أمام هذهِ العظمة التي تتوّج القرآن كتاباً معرفيّاً ربانيّاً .. وعلى طولِ الزمن : توسّع الشوط البشريّ ، وإذا بالإمكان النظري للنفاذِ على الأقلّ من قُطرِ الأرضِ نحو القمرِ تحقّق عمليّاً ، وإذا بالإنسانِ اليوم يعمل ضمن مرحلةٍ متوسّعةٍ من غزو الكواكب الأخرى مثل المريخ وغيرهِ حيث يبعث بالمركبات غير المأهولة بالبشرِ من أجل دخول مرحلة متقدّمة من الإكتشاف الكوني خارج الأرض .. وإذا بشرط السلطنةِ في الأداة طُبّق على حقيقتهِ وإذا بالغيب القرآني المعرفيّ تُرجم واقعاً مذهلاً .. ومعهُ ألا يستحقّ هذا

الكتاب قدسيّةً مذهلةً .. ألا يستحقّ هذا الكتاب وقفة تدبّر لما في باطنه ..؟ إنّنا نحتاج فقط إلى أن نقف على مدرسة الإمام عليّ بن أبي طالب (ع) وما في نهج البلاغة في وصف للقرآن حيث قال في حقّه وهو إبن مدرسته وربيبه وعنوانهُ :

- ثمّ أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحهُ ،
- وسراجاً لا يخبو توقّدهُ ،
- وبحراً لا يدرك قعره ،
- ومنهاجاً لا يضلّ نهجه ،
- وشعاعاً لا يظلم ضوءه ،
- وفرقاناً لا يخمد برهانهُ ،
- وتبياناً لا تهدم أركانُه ،
- وشفاءً لا تخشى أسقامُهُ ،
- وعزّاً لا تهزم أنصارُهُ ،
- وحقّاً لا تخذل أعوانُهُ ،
- فهو معدن الإيمان وبحبوحته ،
- وينابيع العلم وبحوره ،
- ورياض العدل وغدرانه ،
- وأثافيّ الإسلام وبنيانه ،
- وأودية الحق وغيطانه ،
- وبحر لا ينزفه المنتزفون ،
- وعيون لا ينضبها الماتحون ،
- ومناهل لا يغيضها الواردون ،
- ومنازل لا يضلّ نهجها المسافرون ،

- وأعلام لا يعمى عنها السائرون ،
- وآكام لا يجوز عنها القاصدون ،
- جعله اللّٰه رياً لعطشِ العلماء ،
- وربيعاً لقلوبِ الفقهاء ،
- ومحاجاً لطرق الصلحاء ،
- ودواءً ليس بعدهُ داء ،
- ونوراً ليس معه ظلمة ،
- وحبلاً وثيقاً عروتُهُ ،
- ومعقلاً منيعاً ذروته ،
- وعزّاً لمن انتحله ،
- وبرهاناً لمن تكلّم بهِ ،
- وشاهداً لمن خاصم بهِ ،
- وفلجاً لمن حاجّ بهِ ،
- وحاملاً لمن حمله ،
- ومطيّةً لمن أعمله ،
- وآيةً لمن توسّم ..
- وعلماً لمن وعى ،
- وحديثاً لمن روى ،
- وحكماً لمن قضى ..

كلّ ما نقرأهُ في هذا الكتاب هو كذلك ، وهو مستمر برفدِ البشريّةِ من جهاتٍ مختلفة بكثيرٍ من العطايا وما زال فيهِ الكثير الكثيرُ من الأسرارِ المذهلة .. بل في الحديثِ عن أبي عبد اللّٰهِ (ع) : إنَّ القرآن حيّ لم يمت ، وإنّه يجري

كما يجري الليل والنهار ، وكما تجري الشمس والقمر ، ويجري على آخرنا كما يجري على أوّلنا .. في إشارةٍ منه إلى الحياة المتوقّدةِ في هذا الكتاب والذي يزدادُ قوّةً ونفاذاً مع تقدّمِ الزمنِ والعلوم .. في هذا القرآن يقول الله تعالى (أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالُها) .. وهو يعني بذلك دعوةً حثيثة إلى الغوص في مضامين هذا الكتاب التي تظلّ حيّةً ، معطاءةً ، متوهّجةً ، إلى يومِ القيامة . بل في الحديث عن إبن عبّاس عن النبيّ (ص) أنّهُ قال : أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه .. وعنه أيضاً عن الإمام عليّ (ع) : في القرآن آيات لا يكشفُ عنها إلا الزمن .. وفي الكافي عن الزهري قال سمعت علي بن ابن الحسين (ع) يقول : آيات القرآن خزائن ، فكلّما فتحت خزينة ينبغي لك أن تنظر ما فيها .. وعلى حدّ المرجع الديني السيّد أبي القاسم الخوئي في كتابهِ (البيان في تفسير القرآن) قال :

(.. يكفي أنّ القرآن هو المرشد الذي أرشد العرب الجفاة الطغاة ، المعتنقين أقبح العادات ، والعاكفين على الأصنام ، والمشتغلين عن تحصيل المعارف وتهذيب النفوس بالحروب الداخليّةِ والمفاخرات الجاهليّةِ ، فتكوّنت منهم في مدّةٍ يسيرة أمّة ذات خطر في معارفها وذات عظمة في تاريخها وذات سموّ في عاداتها ، ومن نظر في تاريخ الإسلام وسبر تراجم أصحاب النبيّ المستشهدين بين يديهِ ظهرت له عظمة القرآن في بليغ هدايتِهِ وكبير أثرِهِ فإنّه هو الذي أخرجهم من حضيض الجاهليّةِ إلى أعلى مراتب العلم والكمالِ ..)

ولقد أحسن النبيّ محمّد (ص) في طريقةِ التبليغ والتعليم وحفظ الكتاب بشكلٍ وثيقٍ ، إلى درجةٍ كتب فيها القرآن في صحفٍ كثيرةٍ ومنتشرةٍ ، على عهدِهِ ، وتحت عينيهِ ، وكان يبلّغ الآيات ويعلّمها ، ويبين ما فيها بشكلٍ دقيقٍ وكافٍ للحفظِ والكتابة والمعرفة .. وفي الحديث عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : حدّثنا من كان يقرئنا القرآن من الصحابةِ أنّهم كانوا يأخذون من رسولِ اللهِ (ص) عشر آياتٍ فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذهِ من العلمِ والعمل .. من هنا إتّفق أهلِ العلمِ والتاريخ مطلقاً على أنّ القرآن حُفِظَ بطريقةٍ عاليةٍ جدّاً من أيّ تحريفٍ أو تزييفٍ أو إضافةٍ أو نقصان ، فهو الآن كما أنزلَ على النبيّ محمّد (ص) وقد قال اللهُ تعالى فيهِ : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ..

مقارنة سريعة في المتون بين منطق التوراة والإنجيل والقرآن

إنّ من يقرأ متنَ القرآنِ يثير فيهِ كلّ خشوعٍ ، في كلّ موردٍ وجهةٍ ومقصد .. ولأنّني سأعالج مجموعةً من الآياتِ الكونيّة فيما بعد وهي دقيقة في عناوينِها وأبحاثِها وشواهدِها ، فإنني سأعرض عليك قبل ذلك مجموعة قليلة ممّا ورد في متن التوراة والإنجيل ، لترى الفارق الأساسي بين هذين المتنين من جهة ومتن القرآنِ الذي ظلّ محفوظاً عن كلّ يدٍ أو إدخالٍ بشريّ ، ففي متن التوراة والإنجيل تدرك أنّ يدَ البشرِ تسلّلت عبر كتابة مجموعة من عناوين دلّ عليها القصور والإضطراب والتناقض والتركيب وغيرهُ ممّا أوردتُهُ عليك في السابق

وبعضُهُ مذهل وغريب جدًّا ، ولا يمكن بحالٍ من الأحوالِ أن تصحَّ فيهِ النسبة إلى الله أو إلى المسيح أو إلى أيّ واحدٍ من أنبياءِ اللهِ المفترض في المتن أنّه واحد من عناصر تلك المتون .. وحتى تكون الصورة على وضوحٍ كبيرٍ سأشير إلى مجموعة من تلك العناوين التي من شأنِها أن تحرّك فيك الكثير من المشاعر العاقلة :

فقد جاء في التوراة في الإصحاحين الثاني والثالث من سفر التكوين قصّة آدم وحوّاء وخروجهما من الجنّة . وجاء فيها : أنّ الله أجاز لآدم أن يأكل من كلّ الأثمارِ إلا ثمرة شجرة معرفة الخير والشرّ وقال له : لأنّك يوم تأكل منها موتاً تموت . ثمّ خلق الله من آدم زوجته حوّاء ، وكانا عاريين في الجنّة ، لأنّهما لا يدركان الخير والشرّ وجاءت الحيّة ودلّتهما على الشجرة وحرّضتهما على الأكل من ثمرها وقالت : إنّكما لا تموتانِ بل إنَّ الله عالم أنّكما يوم تأكلانِ منه تنفتح أعينكما وتعرفان الخير والشرّ ، فلمّا أكلا منها انفتحت أعينهما وعرفا أنّهما عاريان فصنعا لأنفسهما مئزراً فرآهما الرب وهو يتمشّى في الجنّة فاختبأ آدم وحوّاء منه فنادى الله : آدم ، أين أنت ..؟ فقال آدم : سمعت صوتك فاختبأت لأنّي عريان ... فقال الله من أعلمك بأنّك عريان ، هل أكلت من الشجرة .. ؟ ثم إنّ الله بعدما ظهر له أكل آدم من الشجرةِ قال : هو ذا آدم صار كواحدٍ منّا عارف بالخيرِ والشرّ ، والآن يمدّ يده فيأكل من شجرةِ الحياة ، ويعيش إلى الأبد . فأخرجه الله من الجنّة وجعل

على شرقيّها ما يحرس طريق الشجرةِ .. وذكر في العدد التاسع من الإصحاح ١٢ أنّ الحيّة القديمة هي إبليس ، والشيطان الذي يضلّ العالم كلّه ..

أيّ مستوىً هذا من الإفتراء على الله ..! بل أيّ إلهٍ هو هذا ..! ربٌّ لا يعرف ولا يعلم ولا يحيط بالأمورِ بل حتّى لا يكتشف ..! إلهٌ عاجز ضعيف عن معرفة ما يجري ..! ربّ يحتاج إلى حرسٍ وضوابط وحواجز مخلوقة حتى يأمن من شرّ آدم ..! بل حتى يمنعه من الوصول إلى شجرةِ الحياة والخلد .. ! خشيةً منه وخوفاً من مصيرٍ ما ..! هل هذا الربّ يتوافق مع خالقِ هذا الكونِ المذهلِ بكلّ ما يعنيهِ من حياةٍ وقدرةٍ وعلمٍ ومشيئةٍ وحكمةٍ ..؟ إنّ ما ورد في هذا المتن بخصوصِ اللهِ تعالى ، من العارِ أن يُذكر ، حاشا للهِ أن يكون كذلك .. وإلا تحوّل الله إلى مجرّد آلة عاجزة ، ضعيفة ، متهالكة ، إلى خالقٍ هزيل ، إلى ربٍّ لا يمكن بحالٍ من الأحوالِ وصفُهُ بخالق حقيقيّ أو أن ننسب هذا الكون وكلّ هذا الخلق المذهلِ إليه ..! عجيب : هل يكون اللهُ كذلك وهو الذي خلق كلّ شيءٍ مدهشٍ من العدم في ظلّ دلالةٍ مستَنْطَقَةٍ هائلةٍ من دائرةِ الكونِ والوجود التي تدلّ على أنّهُ القادر العالم الحيّ القيّوم ، وأنّه قاهر كلّ شيء ..! هل هو إلى هذا الحدِّ من الضعفِ والإنهيار ..! هل منطق السمواتِ والأرض وناموس الخلق وأسرار الوجود تؤيّد هذه الهزالة والضعف الذي ورد في متنِ هذهِ القصّة ..! في كتابٍ يُنسبُ إلى الله تعالى ..! حاشا أن يكون الله كذلك ..

أمّا في القرآنِ الكريم فاللهُ مختلف نهائيّاً عن أيّ وصفٍ قاصرٍ ، في القرآنِ الكريم ، الله تعالى هو الخالق البارئ المصوّر ، له الأسماء الحسنى ، هو الرحمن

الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، العزيز الجبّار المتكبّر ، الخافض الرافض القابض الباسط الرزّاق الفتّاح ، المعزّ المذلّ ، السميع البصير ، وإليك بعض الآيات التي تشير إلى صفاتِ اللهِ تعالى في القرآن الكريم :

- (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ(٢٢) الحشر

- (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٢٣) الحشر

- (وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(٦٥) سورة ص

- (قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(١٦) الرعد

- (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا(٢) الفرقان

إلى الكثير الكثير من الآيات التي تعرّضت لصفات الله ، وهذهِ فقط هي التي تليق بربٍّ عظيمٍ يُنسبُ إليهِ خلقُ هذا الكون المذهل .. وسنتعرّض فيما بعد لقصة آدم (ع) وكيفيّة ورودها في القرآن الكريم .. وما يهمّني الآن هو أن أتابع عرض بعض النماذج التي وردت في التوراة والإنجيل ..

فقد ورد في الإصحاح ١٢ من التكوين أنّ إبراهيم ادّعى أمام فرعون أنّ سارة أخته ، وكتمَ أمر أنّها زوجته ،

فأخذها فرعون لجمالِها ، وصنع إلى إبراهيم خيراً بسببِها ، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال .. وحين علم فرعون أنّ سارة كانت زوجة إبراهيم وليس أخته قال له : لماذا لم يخبرني أنّها إمرأتك .. ؟ لماذا قلت : هي أختي حتى أخذها لي لتكون زوجتي .. ثمّ ردّ فرعون سارة إلى إبراهيم .

إلى هذا المستوى تظهر صورة الأنبياء في تلك الكتب ..! تظهر بأسوأ صورة منكرة ، مخيفة ، قاتلة ، لا تمت بصلةٍ إلى ما يجب أن يكون عليهِ رسل اللهِ وأنبياؤه من طهارةٍ وإيمانٍ وعظمةٍ .. إلى هذا الحدّ وصل تسلّل يد البشرِ الخطيرة إلى هذا الكتابِ الذي يُنسبُ إلى اللهِ تعالى ..! ويُرادُ منه نسج مجموعة من صور قاتلة في حقِّ اللهِ وأنبياءِهِ ..

بل ورد في الإصحاح ١٩ من سفر التكوين عند قصّة النبيّ لوط مع إبنتيهِ في الجبل أنّ الكبيرة قالت لأختِها : أبونا قد شاخ ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا .. هامي نسقي أبانا خمراً ، ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً ، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة واضطجعت معه الكبيرة ، وفي الليلة الثانية سقتاه الخمر أيضاً ودخلت معه الصغيرة فحملتا منه ، وولدت البكر إبناً وسمّته موآب ، وهو أب الموآبيين ، وولدت الصغيرة إبناً ، فسمّته بزعمي وهو أبو بني عمون إلى اليوَم ..

تعالى لنرى من هم الأنبياء وفقاً لمجموعةٍ واسعةٍ واردةٍ في متنِ مثل هذهِ النصوص ، إنّها تصوّر الأنبياء لنا على شكلِ زناة ، تبيّن لنا أنّ أصل الآباء في التناسلِ من زنى ، في نفس الوقت الذي تحشّد فيهِ مجموعةً واسعةً من النصوص التي تنقل إلينا تعاليم الله على قاعدة : لا تزنِ ..! أيّ غرابةٍ بعد هذا .. فمن هذهِ النصوص وغيرها يظهر الأنبياء زناة ، أبناؤهم يتاجرون بالكذبِ من أجلِ الحصولِ على مالٍ وجاه ، يشربون الخمر وينامون على بناتِهم .. يظهر النبيّ في صورةٍ سخيفةٍ (..!) حاشا أن يكون كذلك ، يظهر النبيّ وهو أقلّ من عاقل أو محترز أو مرتبط بمواثيق مع اللهِ تعالى (..!) يظهر النبيّ وكأنّه مفترس منفعة في أكثر من موردٍ وجهةٍ تنقلها إلينا هذهِ النصوص .. والأخطر من كلّ هذا تظهر النبوّة وكأنّها طقوس شكليّة لا دخل للربّ فيها ، كأنّها مجرّد حظّ ، كأنّها مجرّد طربوش إمتياز ، مجرّد طقسٍ يجوز سرقتُهُ أو الإحتيال عليه ، بحيث تسرق النبوّة والبركة بطريقةٍ ما ، من دون أن يكون للهِ أو للنبيّ أن يصطفي أنبياءهُ ..! حتى الملك البشريّ القاصر لا يتصرّف كذلك ..! أيّ نكبةٍ هذهِ ..؟ أيّ خطورة مرعبةٍ تلك ..؟ أيّ نبوّةٍ هذهِ ..؟ بل أيّ ربٍّ هذا ..! هل هو عاجز ، أم فوضويّ أم غير حكيم ، أم أنّه مجرد لاهٍ في الخلقِ وتعيين النبوات ..! لا يمكن على الإطلاق التسليم بواحدةٍ منها ، ونحن في كلّ لحظةٍ نقرأ الله في عدلهِ وحكمتهِ في كلّ شيءٍ من أفقِ الخلقِ والوجود .. إنّ هذا النوع من سرقة النبوات لهو أخطر ما يمكن أن نطّلع عليهِ في متنِ هذهِ النصوص ، لأنّها تحيل النبوّة إلى مجرّد وراثة وسلعة لا دخل للهِ ولا للنبيّ ولا للقيمِ ولا للناموسِ فيها .. وإليك واحدة من تلك النصوص الخطيرة والتي تدلّ على أنّ يدَ البشرِ لعبت أخطر أدوارها في كتابة وتحريف وتزييف نصوص نَسَبَتْهَا إلى الله والأنبياء والطاهرين ..

ففي الإصحاح ٢٧ من التكوين أنّ إسحق أراد أن يعطي إبنه عيسو بركة النبوة فخادعه يعقوب وأوهمه أنّه عيسو وقدّم له طعاماً وخرما فأكل وشرب وبهذهِ الحيلة والكذب توسّل إليهِ ، إلى أن باركه الله ، وقال له اسحق : كن سيّداً لإخوتك ، ويسجدك بنو أمّك ، ليكن لاعنوك ملعونين ، ومباركوك مباركين .. ولّما جاء " عيسو " علم أنّ أخاه يعقوب قد انتهب بركة النبوّة فقال لأبيه : باركني أنا أيضاً يا أبي .. فقال : جاء أخوك بمكرٍ وأخذ بركتك . ثمّ قال عيسو : أمّا بقيت لي بركة .. ؟ فقال اسحق : إنّني قد جعلته سيّداً ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً وعضدته بحنطةٍ وخمر . فماذا أصنع إليك يا إبني .. ورفع " عيسو " صوته وبكى ..

لا يمكن على الإطلاق أن يصدّق عاقل ورود مثل هذهِ النصوص في متن الكتاب المقدّس .. أيّ افتراءٍ بعد هذا على الله تعالى ..! أيّ عاقلٍ منّا يرضى يكون على هذا المقدار من الغباء في تعيين السفراء لمهمّات هي الأصعب والأهمّ على الإطلاق ..! أيّ عاقلٍ يرضى أن يتبع نبيّاً يأخذ النبوّة بشكلٍ سافرٍ من أشكالِ الإغواء والغيلة ..! ألم تقرّ كلّ الكتب السماويّة على إطلاقِها بأنّ الله عليمٌ خبير عالم الغيب قادر حكيم ، كلّ شيءٍ بيدهِ يقلّبه كيفما شاء ، وأنّ كلّ شيءٍ عنده بمقدارٍ وحكمة ..! إذن كيف يمكن لنا أن نجمع بين هذا وما يُتلى على مسامعِنا من نصوصٍ مخيفة وخطيرة وأسطوريّة هي أسوأ ما ورد إلينا من تزويرٍ وتلاعبٍ ..!

تعالى لنقرأ النبيين ومواثيقهم في القرآن الكريم .. ففي القرآن يركّز الله على عنوانٍ هام ، هو المواثيق والإصطفاء ، في ظلّ صفاتِ اللهِ تعالى التي منها : الحيّ القيّوم ، الرحمن الرحيم الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمنُ العزيز الجبّار المتكبّرُ الخبير العليم العادل القويّ الحكيم ، المعزّ المذلّ السميع البصير ، له كلّ شيءٍ ، وبيدهِ الأسباب ، وهو على كلّ شيءٍ قدير .. وعليهِ : يبعث اللهُ من النّاس الصفوة على شكلِ سفراء وأنبياء وأوصياء .. ولن ينال أبداً على الإطلاق أيُّ ظالمٍ أو طاغٍ أو معتدٍ أو مفترٍ أو غير عاقل أو أيٌّ من غيرِ الصفوة مرتبة النبوّة ، وهي مرتبة القداسة العظمى .. واللهُ من وراء ذلك محيط ، وهو الحكيم العادل الرحمن الرحيم الخبير القادر .. ألا يجب من هذا الباب أن يكون النبيّ صورةً طبق الأصلِ عن الحكمةِ الربانيّة ..؟ بل كيف يمكن ان نجمع بين صفاتِ اللهِ تعالى التي نقرأها في صفاتِ الخلقِ والوجود وهي تشهد للهِ بالعظمةِ والمجدِ والحكمةِ والقدرةِ والهيمنة والعلمِ والخشوع في كلّ شيءٍ ، وبين هذهِ المتون القاتلة في مثلِ هذهِ الكتبِ الواردة بين دفّتي الكتابِ المقدّس ، التي تهدف من وراء ذلك إلى تشويه اللهِ تعالى قبل تشويه النبيين ..! غريب أن يمرّ أي عاقلٍ على مثلِ هذهِ النصوص بهذا المرور دون ان يقف على الله معبُودِهِ ، وعلى طريقة تعيين النبيين ..! غرابة ليس بعدها غرابة ..

لقد حدَّدَ اللهُ تعالى في القرآن الكريم موقعيّة السفارة عنهُ بطريقةٍ مذهلة ، وقد عرض علينا اكثر من مشهدٍ هائلٍ لبيان حقيقة هذا الأمر .. وكان على رأس هذهِ الآيات ما ورد في حقّ إبتلاء اللهِ تعالى للنبيّ إبراهيم وامتحانِهِ ،

بمجموعةٍ من عناوين وأوامر ونواهٍ فأتمّها ، أي إمتثلها على أحسنِ وجهها ، فقال له الله تعالى : إنّي جاعلك للناس إماماً .. فأراد إبراهيم أن يتمَّ الأمر أيضاً في ذرّيتهِ .. فكان الجواب صريحاً بشكلٍ ينـــزّه مقام النبوّة والسفارة الإلهيّة عن أن يدنّسها أيّ ظالمٍ أو طاغٍ أو مفسدٍ أو فاسقٍ ، أو أي شخصٍ ليس من أهلِ الصفوةِ الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً .. فقال تعالى :

(.. وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ، قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ(١٢٤) البقرة .

من هنا تبرز أهمّية معالم الإصطفاء ومقام النبوّة في الإسلام ، هنا يبرز المقام السامي للرسالاتِ ذات القداسة العليا .. بحيث يكون الإيمان والصفوة والمواثيق عماد الكلمة التي يوصي بها إبراهيم بَنِيهِ .. وقد سجّل الله تعالى ذلك عن لسان إبراهيم في القرآن الكريم فقال :

(... وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ، يَا بَنِيَّ ، إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ، فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(١٣٢) البقرة .

إنّه شرط الصفاءِ والإيمانِ والتقى ، شرط الميزةِ الوجوديّة التي لا تمتّ بصلةٍ إلى الرجسِ والرذيلةِ أبداً .. من هنا يمكننا أن نفهم قول اللهِ تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) آل عمران .

إنّ هؤلاءِ الذين أذهب اللهُ عنهم الرجس وطّهرهم تطهيراً ، هم الذين يحقّ لهم أن يمثّلوا الله تعالى ويقوموا بوظيفة السفارةِ الإلهيّة نبوّةً وولايةً .. نبوّةً وإمامةً .. أمّا غيرهم من أهلِ الرذيلةِ والزنى والباطلِ والفسقِ والفجورِ ، أو اولئك الذين عبدوا غير اللهِ ، وتاجروا بنسائهم من أجلِ حبوةٍ أو مالٍ أو مقامٍ أو ماشيةٍ ، أو أولئك الذين يسكرون ويثملون ، أو أولئك الذين يحتالون لسرقة النبوّةِ .. كلُّ هؤلاءِ لا يمكن على الإطلاق وفق المنطق الربّاني القرآني أن يكونوا في مقامِ التمثيلِ الإلهيّ ، بل لا يمكن ان يكونوا قريبين من اللهِ أو ذوي فضل ... بل إنّهم من الظالمين العاملين بالإثمِ والعدوان .. فأيّ الكتابين موافق لمنطق الوجود وغايات الخلق ..! أيّ كتابٍ يتوافق مع اللهِ خالق السمواتِ والأرض بموازين مذهلة ..!

أيّ نبوّة تلك التي تكون بالباطلِ ..! أيّ نبوّةٍ تلك التي تكون بالحيلة والغيلة ..! أو تكون البركة فيها بالخداع والتزوير ..! أيّ ربٌّ ذاك الذي يُعصى على أمرِهِ ..! أيّ إلهٍ ذاك الذي يغلب على قدرتهِ وعلمهِ ..! أيّ إله ذاك الذي يُجبرُ على قبولِ تمثيلهِ من الضالّ أو المفتري أو الكذّاب أو السكّيرِ أو الزاني أو الفاسق أو غير الكفؤ لمقام النبوّة ..! أيّ ربٌّ ذاك الذي يصل بهِ الأمر إلى أن يوافق على فكرة تناسل الخلق من زنى وحرام وسفاحٍ وباطل في ظلّ تسجيلها خطيئةً كبرى في صحفِ أنبياءِهِ ..! أيّ ربٌّ ذاك الذي يقبل أن يكون النبيّون من سلالةِ زنى وخداع وباطل وحرام ..! تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً بل إنّي

أستغفر اللهَ تعالى أن أتعرّض لذكرِ مثلِ هذهِ العناوين الساقطة .. إنّ كلّ من يقرأ في متنِ هذهِ الكتب وما فيها من مثلِ هذهِ الأضاليل يقف بشكلٍ واضحٍ على المستوى الذي تسلّلت فيهِ يد البشرِ إلى كتابة عناوين ومواقع خطيرة ومذهلة وقاتلة .. والأكثر غرابة أنّ من اعتمد مثل هذهِ النصوص كيف يسلّم بأنّ اللهَ يقرّرها ..! كيف يسلّم أنّ مثل هذهِ الأمور ممكن أن تنسب إلى الله ..! ألم يقرأ هؤلاءِ بمجموعة المبادئ التي جاء بها المسيح عيسى بن مريم في الإنجيل ، وما جاء في شريعةِ موسى ، وفيهما كلٌّ إدانةٍ لمثلِ هذهِ المعاني ..! كيف يمكن لنا أن نجمع بين ربٍّ عليمٍ قادرٍ حيّ قيّومٍ مهيمنٍ عادلٍ خبيرٍ بيدهِ كلُّ شيءٍ وهو على كلّ شيءٍ قدير ، وبين ربٍّ عاجزٍ ، مغلوبٍ على أمرهِ ، قاصرٍ ، ضعيفٍ ، وربّما خائف ، هزيل ، خاضع ، تُسلب من أنبيائهِ النبوّة دون أن يكون قادراً على فعلِ أيّ شيء ..! فقط القرآن الكريم وحده الكتاب الذي نقف عند متنهِ الشريف لنقرأ القداسة والطهارة والإصطفاء والتنـــزّه عن الرجس كشرطٍ لا بدَّ منه لمقامِ النبوّة العظمى التي لا أمرَ فيها إلا للهِ الحيّ القيوم القادر العليم العادل المهيمن الرحمن الرحيم ، وحدهُ دون غيرِهِ على الإطلاق .. وقد قال اللهُ تعالى :

(.. أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ ،
مِنْ ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ، وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، وَمِنْ ذُرِّيَّةِ
إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْرَائِيلَ ، وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ، إِذَا تُتْلَى
عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) مريم

إنّها الهداية والإجتباء والنعمة والقداسة ، وكلّ واحدٍ من هذهِ شرطهُ الطهارة من الرجسِ والصفوة ، شرطه الميثاق والكلمة ، شرطه أن يتمّ رسالةَ اللهِ

وأن يكون المتفاني المطلق في أمرِ الله تعالى .. وكثيراً ما نقرأ في آياتِ القرآن الكريم شرط أخذِ الميثاق من النبيين ، وفي بعضها يقول اللهُ تعالى :

ـ (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ، وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧) الأحزاب .

ـ (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ، لَمَا ءَاتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي ، قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ(٨١)آل عمران

ثمّ نقرأ في القرآن الكريم مجموعةً من معانٍ تصرّ فيها الآيات على أنّ الله يعلم كل شيءٍ ، وانّه القادر على كلّ شيئ ، وأنه لا يُغلب على أمرهِ ، وأنّ كلّ شيئٍ عنده بحكمةٍ .. حتى قال تعالى :

(وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ، وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا(٥٥) الإسراء .

بربِّك ، كيف نتّبع رسولاً أو نبيّاً يزني ، يقتل ، يتاجرُ بزوجتهِ من أجل حبوة في حرام ، يجترّ الذنب اجتراراً ، يبعث بأوريا إلى الحرب ليقتله حتى لا

يعلم أحد انّه زنى بزوجتِهِ ، كما في القصّة التي تنقلها التوراة بالنسبةِ إلى النبيّ داود ..! أيّ غرابةٍ هذهِ ..! أيّ أعجوبة ..! : الله يمنع الزنى على الرعيّة ويعاقب عليها أشدَّ عقابٍ ، وأنبياؤهُ زناة ..! أيّ عارٍ وانحراف في قبول هذهِ النصوص بل أيّ كارثة ..! والأخطر منها أنّها موجودة في كتبٍ يصرُّ أهلها على أنّها مطابقة للواقعِ ومنسوبة إلى الله ..! لقد أشرت فيما مضى عند تحقيق مجموعة من نصوص التوراة والإنجيل إلى أنّ الكتابة والنسخ لهذهِ النصوص غريبة في التثبّت والأمانة وتسجيل مادّة وهيئة ما نطق به هذان النبيّان العظيمانِ (ع) .. وهناك الكثير الكثير الذي يدعو للغرابة والدهشة ، حتى أنّ مجموعة من النصوص أشرت إليها بشكلٍ تفصليّ وبيّنت كيف زوّرت مرةً ، ومرّةً تعمّد مترجموها أن يضيفوا إليها مجموعة من معانٍ تمزق الغاية الحقيقيّة فيها وتحرفها عن الحقيقة المراد تثبيتُها عبرها ..! هل تعلم أنّ من لهم الأمر والنهي (من أباطرة دخلوا المسيحيّة إلى آباء سابقين) لهم السلطنة في تسجيل هذهِ الكتبِ وموادها وتنقيتِها كانوا يُتلِفُون مجموعاتٍ واسعةٍ من النصوص الأصليّة ، لأنّها تخالف الأساس اللاهوتيّ الذي أقامهُ بولس وليس بطرس ..! كما نجدُ أنّ أكثر من نسخةٍ أصليّة حُرِّفت بخطٍّ آخر ، وبطريقةٍ بشعةٍ ومؤذية جدّاً ، نسفت أصل الحقيقةِ ..! أيّ غرابة هذهِ .. هل يصحّ أن نتلف كلّ ما يخالف الأساس اللاهوتيّ لبولس ولا بأس أن نهدم حجر الأساس الأهمّ لتعاليم يعقوب ويوحنّا وبطرس وهم الأساس للكنيسة ، وهم الرسل الذين اعتمدهم يسوع المسيح (عيسى بن مريم) .. أيّ انقلابٍ أخطر من هذا ..! إذاً ، من البديهيّ جدّاً وفق هذهِ المقاييس أن نقرأ ما نقرأ من نصوصٍ قاتلة في حقِّ اللهِ وحقِّ أنبياءِهِ بمضامينِ هذهِ الكتب ..

وعليه : إنّ القرآن الكريم يسجّل منطقة عالية جدّاً من شروط النبوّة ، يسجل وصفاً خاصّاً لشرفِ الإصطفاء ، يحدّد عناوين في غاية النـــزاهة لمن سيمثل السفارة الإلهيّة على الأرض .. يشير بشكلٍ دقيقٍ إلى أنّ النبيين يُبعثون بالميزانِ والحقّ ، بالكتابِ والحكمة ، ليكونوا مبشّرين ومنذرين ، قولاً وسلوكاً ، ليكونوا على خُلُقٍ عظيمٍ ، ليكونوا على رتبةٍ وجوديةٍ كبرى لا يصل إليها إنسانٌ قطّ .. ويؤكّد على أنّ وظيفة الأنبياء هي إقامة الحُكم بالعدل وإحقاق الحقّ وإبطال الباطل .. وفي منطقهِ حاشا أن يكون النبيّ زانياً أو مبتزّاً أو مخادعاً أو فاسقاً ، أو تاجراً بباطلٍ أو حرام ، حاشا أن تُسرق منه النبوّة .. وإلا فأيّ نبيٍّ هذا ، وأيّ ربّ يمثّل ..! يقول الله سبحانه وتعالى :

- (.. كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ،
- فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ،
- وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ،
- لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ،
- وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ،
- فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ،
- وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٢١٣) البقرة

في هذهِ الآية يشير الله إلى الأمور التالية :

١. النّاس كانوا أمّةً واحدةً ، فاختلفوا من دون وجه حقّ ، فكان هذا الإختلاف أو الإستعداد لذلك سبباً لبعثةِ النبيين الذين هم في مضامين

القرآن الكريم رأس الإصلاح وأطهر من على الأرضِ قاطبةً ، وهم الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ..

٢. إنّ هؤلاءِ النبيين مبشّرون ومنذرون ، ومن لازِمِ هذهِ الوظيفة أن يكون على مقامٍ عالٍ من التفاني في تطبيقِ أمرِ اللهِ ونهيهِ والتفاني إلى حدودِ التضحية في سبيلِهِ ، لا المساومة على زوجاتهم مع فرعون للحصولِ على قطيعٍ من ماشية ..! تعالى اللهُ عن ذلك علوّاً كبيراً ، وحاشا أن يكون نبيّهُ كذلك ..

٣. ميدانُ هؤلاءِ الأنبياء أن يحكموا بالحقّ ، أن يطبّقوا ويمتثلوا أمرَ اللهِ وعناوين القداسة ، وأن يجعلوا الأمّة البشريّة كلّها تحت أمرِ اللهِ ومنظومةِ حكمِهِ ، على صراطٍ مستقيمٍ .. هذا المقام من الرفعةِ بحيث لا يمكن أن يصل أبداً إلى الظالمين أو كلّ ما من شأنهِ أن يخالف أمرَ اللهِ تعالى ..

٤. في هذهِ الآية تصريح واضح أنّ النبوّة هي من اللهِ وحدهُ ، ولا يمكن على الإطلاقِ أن تكون من غيرِهِ ، بحيلةٍ أو خداعٍ أو غيلةٍ أو سرقةٍ أو حبوةٍ أو تدليس ..

٥. كما أنّ معنى الصفوة وغيرها من معاني القداسة والعصمة والطهارة الواردة كثيراً في القرآن ، تعني أنّ النبيين منــزّهون مطلقاً عن الزنى والحرام ، فلا يمكن ان تصلهم يدُ بغيّةٍ أو غيرها فتخدعهم بالخمرِ حتى يثملوا من أجل نسلٍ أو مقامِ بغيٍّ وشبه ذلك ..

بهذا تكون النبوّة صورةً مقدّسةً أعطاها اللهُ للنبيين ، وهي تعكسُ الحكمة والعلم والحُسن والقدرة والرحمة والعدالة وغيرها التي هي من صفاتِ اللهِ

سبحانَهُ وتعالى .. ولن تكون أبداً على شاكلةِ ما ورد في أكثر من عنوانٍ وإصحاحٍ بالكتاب المقدّسِ في حقِّ النبيين من باطلٍ وإثمٍ وخداعٍ ودنس وأمور يهتزُّ لها عرشُ اللهِ تعالى وسماؤُهُ ..

حتى ورد في الإصحاح ٣٨ من التكوين أنَّ يهوذا بن يعقوب زنى بزوجةِ " إبنه عير " المسمّاة بثامار ، وأنّها حبلت منه ، وولدت له ولدين هما فارص وزراح . وقد ذكر إنجيل متّى في الإصحاح الأوّل منه " نَسَبَ المسيح " تفصيلاً فجعل المسيح وسليمان وأباه داود من نسل فارص ..! فارص هذا الذي وُلِدَ من زنا يهوذا بزوجة إبنِهِ ثامار ..

إلى هذا الحدِّ من العناوين القاتلة للنبوّات كانت تَرِدُ سلسلة مخيفة من أباطيل في الكتابِ المقدّس ..! أيّ كارثة هذهِ ..! بل أيّ عار ..! إلى هذا المستوى السحيق تبدو النبوّة في مثلِ هذهِ المضامين ..! ألا يحق لنا أمام هذه النصوص المذهلة أن نسأل : أيّ نبيٍّ هذا ..! وأيّ مُمثلٍّ يكون ..! ولمن ..؟ ومن أرسلهُ ..! ومن هي صفاتُ الذي أرسلَهُ ..! هلِ الحكمة والقدرة والعدلُ والرحمة والمنّ والعظمة هي كذلك .. ! أيُّ تعاليم هذهِ ــ وهي كما ترى ــ وردت في متن التوراة والإنجيل ..! أيّ ضلالٍ هذا للبشرِ ..! وأي قائدٍ ونبيّ هو لهم ، وهو كما في هذهِ النصوص إمّا زانٍ أو ثملٍ من خمرة أو متاجرٍ بإمرأتِهِ أو إبن زنى أصلاً أو رأس الزناة ..! (استغفر اللّٰه تعالى وأعوذ بهِ من نقلِ هذهِ المعاني ..) ..

لا يمكنُ على الإطلاق لأيِّ عاقلٍ إلا أن يقف مليًّاً أمام مثلِ هذهِ المعاني التي تهدف إلى إسقاط أصل النبوات أصلاً .. ألم تخسر البشريّة بشكلٍ كبيرٍ حين لم يسجِّل بطرس ويوحنّا ويعقوب تعاليم المسيح ، أو لم يُسمح لهم بإقامة الأساس اللاهوتيّ للمسيحيّةِ ، وذلك لصالحِ بولس الذي حصد أضخم إنتصار بشكلٍ مثير ، ومن دون أن يكون من الرسل أو التلامذةِ ، بل كان من ألدّ أعداءِ المسيحيّة من قبل ..؟ في حين يشير التاريخ إلى أنه بسببِ الإختلافِ الكبير في المفاهيم بين بولس والرسلِ شنّ عليهم بولس حربَ إلغاءٍ قاتلة ، اتّهمهم معها بالكذبِ والخيانةِ والمكرِ وغير ذلك ، وأصرَّ على فصل المسيحية عن شريعةِ موسى ، وأقام للمسيحية كياناً خاصًّاً .. الكلُّ متفق على أنَّ هذهِ الكتابات الإنجيلية هي حصيلة من انتصر زمن الكتابات الخصاميّة ، وقد انتصر بولس مرّتين ، مرَةً في حياته حين أقام الأساس اللاهوتيّ للمسيحيّة التي نعرفها اليوم ، ومرّةً بمماتهِ حين ظلَّ فريقهُ ممسكاً بالأمرِ ودوّن الكتابات الإنجيلية ، فضلاً عن دخول قسطنطين المسيحيّة البولُسيّة التي اعتُبرَت دين الإمبراطوريّة الرومانيّة .. وإذا بنا نقرأ مسيحية مختلفة بشكلٍ واضحٍ وكبيرٍ عن مسيحيّة يعقوب وبطرس ويوحنّا ، وهم الرسل الحقيقيّون دون غيرِهم .. أليس في هذا الأمر أكبر عجبٍ وغرابة ..! ها نحن اليوم نقرأ في مثلِ هذهِ المضامين أنَّ هناك نبيًّاً زانياً ، وهنالك نبيًّاً شهيراً أصلُ آباءِهِ من زنى ، وآخر يتاجرُ بزوجتهِ بالبغاء ، وغيرهُ يقتلُ قائد جيشهِ حتى لا يفتضح أمر زناه ، كما هي الحالُ مع ما روي في هذهِ الكتب بخصوص قصّة داود وقائدهِ العسكري أوريا ، فأيّ نبوّةٍ بعد هذا بقيت ، وكيف يؤمن أيُّ عاقلٍ بمثلِ هذهِ النبوات ..

فقد ورد في الإصحاحين ١١ و ١٢ من صموئيل الثاني أنّ داود زنى بإمرأة أوريا قائده على الجيش (..!) وحملت من الزنى ، فخشي داود الفضيحة وأراد أن يخفي الأمر على أوريا فطلبه وأمره أن يدخل بيته فأبى أوريا ، وقال : سيّدي يوآب وعبيد سيّدي نازلون على وجه الصحراء ، وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب واضطجع مع إمرأتي ..! وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر .. فلمّا يئس منه داود أقامه عنده اليوم ، ودعاه فأكل عنده وشرب وأسكره ، وفي الصباح كتب داود إلى يوآب : إجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت .. وقد فعل يوآب ذلك فقتل أوريا وأرسل إلى داود يخبره بذلك فضمّ داود إمرأة أوريا إلى بيته وصارت إمرأة له .. وفي إنجيل متّى أنّ سليمان بن داود ولد من تلك المرأة ..! وفي إنجيل لوقا أنّ المسيح يجلس على كرسيّ داود أبيه ..!

.. هكذا بكلّ جرأةٍ قاتلة ..! إلى هذا الحدِّ الهزيل تبدو صورة النبوّة في متن هذا الكتاب غريبةً مخجلةً ، وهي على نحو مُميتٍ حيث تبدو مجرّد تعبير غريزيّ ليس أكثر ، لا يمكن بحالٍ من الأحوالِ أن تكون جسراً تمثيليّاً بين اللهِ والعباد ، وإلا فإيٌّ منّا يقبل أن يكون مثل هذا النبيّ رابطاً بينه وبين الله .. وهو الذي يعصي الله عصياناً عظيماً ..! أو كمثل الذي سرق النبوّة ، أو كمثل الذي زنت به إبنتاهُ بعد أن أسكرتاهُ ..! أيّ نبوّةٍ هذهِ تليقُ باللهِ تعالى خالق السموات

والأرض ، العليم الخبير العادلِ القادر السميع البصير المهيمن ..؟ هل يجوز أن يصل التشويه والضرب بالنبوّة إلى هذا الحدّ ..! ألا يوجد عاقل يستنطق خلق اللهِ تعالى ومعاني الوجود قبل أن يوافق على مثلِ هذهِ التعابير والمواصفات التي لا يرتضيها عاقل .. إنّ مثل هذهِ النصوص الضالّة تنسف حكمة الله ، تنسف قدرة الله ، تصور النبوّة مجرّد غنيمة ، مجرّد بضاعة ، مجرّد منفعة .. بل تدمّر إمكانيّة تصديق أمر النبوّة .. لا شكّ أن يد البشرِ فعلت فعلتها في كلّ هذا ، ومن أمثلتِها ما جاء في كثيرٍ من نصوصٍ تتعلّق بأخطر مقام وأهمّه وهو مقام النبوّة ..

وقد ورد في الإصحاح الحادي عشر من الملوك الأوّل أنّ سليمان كانت له ٧٠٠ زوجة من السيدات ، و٣٠٠ من السراري ، فأمالت النساء قلبه وراء آلهةٍ أخرى ، فذهب سليمان وراء عشتورت إله الصيدونيين ، وملكوم رجس العمونيين ، وعمل سليمان الشرَّ في عيني الربّ ، فقال الرب : إنّني أمزّق المملكة عنك تمزيقاً ، وأعطيها لعبدك .. وفي ٢٣ من الملوك : إنّ المرتفعات التي بناها سليمان لعشتورت رجاسة الصيدونيين ولــ " كموش " رجاسة المآبيين ، ولملكوم كراهة بني عمون نجسها الملك يوشيا ، وكسر التماثيل ، وقطع السواري ، وكذلك فعل بجميع آثار الوثنيين ..

كلُّ من يقرأ هذا النصّ يندهش ويصعقهُ ما يقرأ ..! فبمنطق هذا النصّ أصبح النبي سليمان ممثّلَ الأصنام بدلاً من تمثيلِ اللهِ تعالى ..! بل المشيّد لها والصانع لدعايتِها ..! فهل بعد كلّ هذا بقي نصيب للنبوّة ، أو مكان للتصديقِ

لها ..! إنّ هذهِ النصوص صريحة في أنّ النبيّ كان يبني الأصنام ، بل يبني لها المرتفعات وكان يدعو إلى عبادتِها ..! وهو بنفس الوقت نبيٌّ اللهِ خالق السمواتِ والأرض ..! كلّ ذلك في نفس الوقت الذي كان ينادي فيهِ بصحفٍ مطهّرةٍ من اللهِ وأنّ اللهَ إلهٌ واحد لا شريك له ..! والغريب أنّ النصّ يصوِّرُه على أنّه مغرم جدًّا بذلك وظلّ على عبادتِها ، حتى جاء غيرهُ فكسرها ، وأباد كلّ ما كان للوثنيين ..! إذاً ، ماذا بعد عن النبوّة ..؟ بل ماذا عن اللهِ وحكمتِهِ وسفارتِهِ ..؟ هل النبوّة مجرّد قرعة أم حظّ ..؟ هي كذلك في هذهِ النصوص الضالّة التي تعلن الحرب على اللهِ والأفقِ والوجود وكلّ حكمة .. إذاً ، كيف تسلّلت إلى هذهِ الكتب المدّعى أنّها تنطقُ عن لسانِ اللهِ وتحكي الواقع الصادق ..!

من هنا ، فإنّهُ لا يمكن لأي عاقلٍ أن يلتزم بما جاء في متنِ هذهِ النصوص بل من الواجبِ عليهِ أن يتصدّى لها ، وهي أسوأ ما يمكن أن يقف عليهِ عاقل .. أليست كلّ الأدلّة العقليّة القطعيّة تصرّ على أنّ العصمة شرط ضروريّ ولازم أساسيّ لا يمكن ان ينفكّ عن مقامِ النبوّة ..! إذن كيف يمكن أن يعطي آباء اليهوديّة والمسيحيّة الثقة لما ورد في متن هذهِ النصوص ..! أيّ عاقلٍ يؤمن بنبيٍّ من أمثالِ هؤلاءِ الذين أعطتهم هذهِ النصوص مثل هذهِ الصفات ..! حين تعرّضتُ لموضوع تدوين ونسخ التوراة والإنجيل وتدوينَهما قلت : ألا يحقّ لنا أن نسأل عن كيفيّة تدوين الأناجيل والتوراة ..؟ أليس من حق كلّ واحدٍ أن يعرف الظروف والبيئة والإجراءات التي دُوِّن فيها النصّ .. خاصّةً إذا علمنا أنّ النصّ كان شفويًّا ويُنقل كتراثٍ شفويّ ، من دون ايّ تثبّتٍ في ذلك الوقت .. أين

هي المصادر التيّ تمّ النقل عنها ، ما هي شروط النقل أوّلاً ، ما هي شروط الترجمةِ ثانياً .. أليس ما ورد في كثيرٍ من التزوير والتحريف ، بل وإتلاف النسخ الأصليّة لمجموعة من النصوص يدعونا إلى إعادة النظر في كثيرٍ من مقاماتِ النصِّ هنا .. هل يجوز أن نسلّم بما يُتلى على مسامعِنا ونتعامل معه من بابٍ أنّه حقيقة مطلقة في ظلّ سياسة خطرة في " القبولِ والرفض " تمت سابقاً ووفقاً لمعايير مَن انتصر ، ببعد النظرِ عن حقيقة الإحتكام الرئيسيّ إلى الرسلِ ، في ظلّ تشويهٍ معرفيّ ، في ظلّ تحريفٍ صريحٍ ، في ظل تناقضٍ بارزٍ وخطيرٍ ، في ظلِ نسف لأدنى شروط النبوّة ، بما تعنيه تلك الشروط من نصٍّ مكتوبٍ يدل عليها ومن دليلٍ عقليٍّ يحكم بها .. انّ شيئاً مخيفاً في هذهِ المتون يشير إليها ، حتى إلى أنّ النبيّ كان يسقط في وظيفة التبليغ ، ينحرف في الإطاعة والإمتثال للمنظومةِ التي يحملها ، يعلن الحرب على الله ، يعمل على إعادة بناء أمجاد الكفر والتماثيل وقلاع الأصنام .. وتنتهي الغلبة فيما بعد للنبيّ على الله وسط صورة مخزية ومرعبة ، تحمل في طيّاتِها بذور سقوطِها وتهاويها وسخافتِها .. تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً وحاشا أن يكون النبي كذلك .. إنّ كثرة ما ورد في متنِ هذهِ النصوص كان لا بدّ له من محاكمةٍ دقيقة واعيةٍ وافية .. لقد اضطرب شراح هذهِ النصوص أمامها أيّما اضطرابٍ .. لأنّ كلّ شيءٍ فيها مفضوح ، هزيل ، ساقط ، وكلّ شيءٍ فيها باطل ، وكلّما هرب الشرّاح والمفسّرون من نصٍّ وإصحاحٍ اصطدموا بإصحاحٍ آخر وقصّةٍ أخرى ونموذجٍ مختلفٍ مخزٍ ومخيف ..

ففي الإصحاح الأوّل من كتاب هوشع أنّ أوّل ما كلّم
الرب هوشع قال الرب لهوشع إذهب خذ لنفسك إمرأة زنى ،

وأولاد زنى ، لأنّ الأرض قد زنت زنىً تاركةً الرب .. فذهب وأخذ جومر بنت دبلايم ، فحبلت وولد له إبنان وبنت . وفي الإصحاح الثالث أنّ الرب قال له إذهب أيضاً احبب إمرأة حبيبة صاحب وزانية كمحبّة الرب لبني إسرائيل .

لقد حاول أكثرُ من واحدٍ أن يعتمد تفسيراً فرضيّاً ، وهميّاً ، تبرُّعيّاً ، وأن يحدّد مجموعة من معانٍ يحاول عبرها أن يردّ الأمر إلى الغيب مرةً ، وإلى مواقع تاريخيّة مرّةً أخرى ، وإلى غموضٍ بالنصِّ مرّةً ثالثة .. لكنّه في النهاية وجد أنّ ما قام بهِ لا يفي ببيان حقيقة الأمور .. فأشار إلى أنّ النصّ واضح في المعنى الصعب الذي يبدو منه .. وقد قال بعضُهُم : كيف يمكن لنا أن نردّد أنّ الزنى خطيئة كما هو وارد في الكتبِ المقدّسة ، وها هم الأنبياء يمارسون الزنى عمداً وعن رضىً ووعي وبأمرٍ من الربِّ ، وبطريقةٍ ربّما يُوحون إلينا عبرها انّها صورة ضروريّة من طقوسٍ عباديّة ذات اتصالٍ بزنى الأرض ..!

إنّ قيمة كلّ ما بين يدينا من وحيٍّ في ظلّ دعوة السماء تتوقّف على حقيقة النبوّة وأنّ العبرة كل العبرة بهؤلاءِ الأنبياء ، فهم جسر العبور إلى الله ، فإذا إنتفت سفارة النبيين إنتهى كلٌّ شيئ ، وبتنا بالعراء ، لا نعرف كيفيّة الصلة باللهِ تعالى منْ خلالِ كتابٍ أو مواثيق .. ماذا سنقول لأيٍّ مريدٍ للدين حين يسأل عن الصفات التي يجب أن يتحلّى بها النبيّ ..؟ هل نقول له بأنه زانٍ ، يغتال النبوّة غيلة ، ويتاجر بكلّ شيئٍ حتى بزوجتهِ من أجل حبوةٍ أو مالٍ أو منفعة ..! أليس من واجبِ كلّ باحثٍ عن الحقيقة أن يسأل عن مجموعة المواصفات الضروريّة في النبيِّ المفروض فيه أن يبلّغ نصوصَ اللهِ إلى البشر ..؟ إنّ

مواصفات النبيّ تمثّل المفتاح الأوّل الذي يعتمدهُ أيّ باحثٍ عن الحقيقةِ .. فإذا كان من يدّعي النبوّةَ إنتهازيًّا ، فاسقاً ، لا يتورّع عن شيئ ، يتاجر بالحقيقة ، يدعو إلى شيئٍ ويعمل ضدّه ، ومن وراء ذلك مواصفات متّصلة بربّ هذا النبيّ ، وهي على قدرٍ واضحٍ من الغبنِ والضعفِ والهزليّة والقصورِ والهوان والسلبيّة .. إذا كان الأمر كذلك فأيّ تناسبٍ هذا بين اللهِ تعالى الذي خلق الخلق بما يذهل من سرٍ وقوانين وبين هذا الإله ونبيِّهِ الذي دوّنه جماعة مجهولون في كتبٍ منسوبةٍ إلى اللهِ تعالى ..! إذن أيّ عبادةٍ سنعتمد ..؟ وأي نبيّ وممثّلٍ بهِ نؤمن ..؟ وأيّ ربٍّ نطيع ..؟ كلّ ذلك في ظلٍّ مجموعة من الأحكام العقلية القطعيّة التي ترفض أشدَّ رفضٍ ما دسّهُ جماعة يريدون أن يصوّرا السفارة الربانيّة وممثليها مجرد أشخاص عابثين ، مستغلّين ، وصوليين ، غريزيين ، همّهم الأوّل والأخير إشباع شهواتهم ورغباتِهم ، ولو على حسابِ القتل والزنى وتشييد الأصنام ..!

كان على المجمّعات اللاهوتيّة ضرورة أن تعيد قراءة متون هذهِ النصوص لكنّ الذي حصل أنّها وثّقت ما ورد في متنِ هذهِ النصوص ، وهذا يدل على طريقةٍ خطيرة في التعامل مع القيم والمعاني المتّصلة باللهِ سبحانه وتعالى .. لقد وصل الأمر جرّاء هذا النمط من التعاطي في إهمال القراءة الصحيحة للنصوص وردّها وتثبيتِها وفق المعاني الأصيلة التي تنطق بحقيقة ما عليهِ متن الصحفِ المطهّرة أن دُسّت أمورٍ خطيرة ومربكة ومزعجة ومخيفة فيها .. وصل معها الأمر إلى أن يدّعي بولس أنّه لم يتعلم المسيحية من أحد ، وأنّ الربّ بعثه ليهدي النّاسِ في ظلّ شرذمةٍ خطيرة بين أتباع المسيح المضطهدين من اليهودِ والرومان حتى تفوّق عليهم .. ألا يحقّ لنا أن نسأل هنا عن مصادر بولس ..؟ ألا يحقّ لنا أن

نسأل عن وسائل المعرفةِ التي أخذَ عنها ..؟ هل يكفي مجرّد دعوى منام ليعلن نفسهُ رسولاً في ظلّ نكرانٍ حادّ من رُسُلِ المسيح لما هو عليهِ ، وهم المؤتمنون باعتراف الجميعِ على تعاليم المسيح بل هم من أوصى بهم علانيةً وعلى نحوٍ مُلزِمٍ ونافذٍ .. صحيح إنّها أسئلة مزعجة ومحرجة ، لكنّ الحقيقة تحتّم إعادة تركيب نفسها ، لأنّ ما يوجد في متونِ الكتابِ يفرض علينا أن نكرّر مجموعةً من أسئلةٍ ذات مغزى معرفيّ صعبة لكلّ ما له صلة بالتأريخ الأوّل والكتابة الأولى والصياغة والترجمةِ والنقل والتحشية وإعادة الصياغة مجدّداً ، والقبول والرفض والإتلاف وغير ذلك ..

إنّنا بحاجةٍ إلى أجوبةٍ دقيقةٍ ومقنعةٍ ، ذاتِ بنيةٍ ثبوتيّة ، بحاجةٍ إلى موجةٍ من الشك العلمي ، لأنّ الإيمان هو إيمان معرفيّ ، إيمانٍ حجّة ودليل وبرهان .. بل لأنّ الديانة المسيحيّة تقوم علي الأساس اللاهوتيّ الذي وضعهُ لها بولس بين العامين ٤٠ و ٦٧ ميلاديّة .. لأنّ بولس هو أوّل من أشارٍ إلى التثليث وأدخله إلى المسيحيّة ، لأنّ بولس هو أوّل من أقام أسس لاهوتية جوهر المسيح لا ناسوتيّته .. وانتهى به الأمر إلى إعتبارِه إبناً مجسّداً لله الآب في جسم بشريّتِه ، وردّد مقولة أنَ يسوع المسيح هو إله أزلّ من إلهٍ أزليّ ، بخلافِ ما كان عليهِ بطرس ويوحنّا ويعقوب وغيرهم من رؤساء كنيسة الختان في أورشليم .. ربّما ينصدم الواحد منّا حين يعلم أنّ المعلومات المتوفّرة عن الرسول بولس قليلة جدّاً بل نادرة ، وهذهِ المعلومات النادرة نستقيها من مصدرين :

الأوّل : ما يذكره بولس عن نفسِهِ في الرسائل التي خلّفها وراءه .

والثاني : ما يقوله سفر أعمال الرسل بشأنِهِ مع أنّ هناك تناقضاً بين هذين المصدرين :

وإليك التعريف التالي ببولس عبر سفر الأعمال :

- يشير سفر أعمال الرسل إلى أنّ هناك مضطهد لأتباع يسوع في أورشيلم إسمه شاوُل ثمّ يُعرِّف شاوُل هذا بأنّه بولس أيضاً .

- يشير سفر الأعمال إلى أنّ بولس عرّف عن نفسِهِ في إحدى المناسبات قائلاً : أنا رجل يهوديّ ولدت في طرسوس من أعمال كيليكيّة ولكن ربّيت في اورشليم .. واضهطدتُ أتباع يسوع حتى الموت .. ثمّ إلى دمشق ذهبت لآتي بالذين منهم هناك ..

- يشير سفر أعمال الرسل عن لسان بولس إلى أنّ يسوع ظهر له وهو في طريقِهِ من أورشليم إلى دمشق ليضطهد أتباع يسوع هناك وأنّ بولس عند وصولِهِ إلى دمشق إلتقى برجلٍ تقيّ إسمه " حنانيا " وتلقّى النصح منه (وبقي ٣ سنوات في البلاد العربيّة) وبعد ذلك عاد إلى أورشليم لفترةٍ قصيرةٍ ثمّ بدأ تبشيره بين الأمم بعيداً .. إلا أنّ بولس في رسائلهِ لا يقرّ بفضلٍ عليهِ من حنانيا ولا من غيرِهِ في الهدايةِ .

وعلى عكسِ ذلك يقول بولس في رسالتِهِ إلى أهل غلاطية :

(إنّ الإنجيل الذي بشّرت به .. لم أقبله من عند إنسان ولا عُلّمته ، بل بإعلان يسوع المسيح ، فإنّكم قد سمعتم بسيرتي

قبلاً في الديانة اليهوديّة أنّي كنت اضطهد كنيسة الله " بإفراطٍ وأتلفها " وكنت أتقدّم في الديانة اليهوديّة على كثيرين من أترابي .. ولكن لّما سرّ الله الذي أفرزني من بطن أمّي ، ودعاني بنعمتهِ أن يُعلن إبنه فيَّ ، لأبشّر به بين الأمم للوقت ، لم أستشر أحداً .. ولا صعدت على أورشليم إلى الرسل الذين قبلي ، بل انطلقت إلى العربيّة (بلاد العرب) ثمّ رجعت أيضاً إلى دمشق ثمّ بعد ثلاث سنين صعدت إلى أورشليم ، لأتعرّف ببطرس ، فمكثت عنده خمسة عشر يوماً ، ولكنّني لم أرَ غيره من الرسل إلا يعقوب أخا الرب يسوع ، والذي أكتب به إليكم هوذا قدّام الله إنّي لست أكذب فيه .. ثمّ بعد " أربع عشرة سنة " صعدت إلى اورشليم .. وعرضت الإنجيل الذي أكرز به .. على المعتبرين من الرسل هناك (..!) إنّهم شيئ مهما كانوا لا فرق عندي (..!) فإنّ هؤلاء المعتبرين لم يشيروا عليّ بشيئ ..! يعقوب وبطرس ويوحنّا المعتبرون أنّهم أعمدة أعطوني يمين الشركة لنكون نحن للأمم (أي لغير بني إسرائيل) وأمّا هم فللختان (أي لبني إسرائيل الذين كانوا يمارسون الختان) (كلٌّ هذه التعابير القاتلة تدعو إلى غرابةٍ مثيرة ..!) ولكن لّما أتى بطرس إلى أنطاكية قاومتُه مواجهةً (أيّ غرابةٍ هذهِ ..!) لأنّه قبلما أتى قوم من عند يعقوب كان يأكل مع الأمم (من غير المختونين) ولكن لّما أتوا كان يؤخر ويفرز نفسه خائفاً من الذين هم من الختان ..) .

من ذلك تبدو الأمور التالية التي أشار إليها بولس :

- لم يهد أحدٌ الرسول بولس ، بل يصرّ على أنّه إهتدى بواسطة الربّ بل من دون مساعدة من الرسلِ أيضاً الذين عاشوا مع يسوع المسيح .

- إنّ يعقوب وبطرس ويوحنّا كانوا يوجّهون تبشيريهم إلى الإسرائيليين وليس إلى غيرهم ، على اعتبار أنّ المسيح وفق تعاليمهم جاء إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة .. بينما وجّه بولس تبشيره منذ البدايةِ إلى الأمم ..

- كان بولس يزدري الرسل الذين في أورشليم ، وهو الذي قال عنهم (مهما كانوا لا فرق عندي ..!) واصفاً إياهم ليس بالأعمدة بل المعتبرون أنّهم أعمدة ..!) .

- يتشدّد بولس في أنّه لم يتعلّم من هؤلاءِ الرسل شيئاً . بل وصفهم في مكانٍ آخر **بالرسل الذين كانوا يعتبرون متفوّقين ، وإن كانوا في الواقع رُسُلاً كذبة .. ماكرين ، مغيّرين شكلهم إلى شبه رسل المسيح** (٢ كورنثوس ١١ : ٥ ، ١٣) .. وهذا كما ترى كلام خطير وقاتل ، وفي غاية الخطورة .. لأنّ بولس الذي كان من أهمّ محاربي المسيحيّة قبل إيمانهِ المدّعى أصبحَ من أبرز محاربيها بعد أن ادّعى " رؤية الربّ " في المنام ، وأنّه بعثه ليهدي الأمم ..! ألا يحق لنا هنا أن نسأل عن ظروف وأسباب وشروط الخلاف بينهُ وبين الرسل ..؟ أن نسأل عن أسباب إنتصارهِ وتشكيلهِ أعمدة اللاهوت للمسيحيّة التي نعرفها اليوم ..؟ عن هزيمةِ هؤلاءِ

الرسلِ الذين من المفترضِ أنّهم أخذوا التعاليم عن المسيحِ نفسِهِ وهم الرسل باعتراف الجميع ، بينما هو يدّعي أنّ العلم لم يكن عنده كسبيًّا من أحدٍ ، وأنّه لم يتعلّم من أحد ، مع أخذنا بعينِ الإعتبار أنّه هو من أبرز مَن حارب المسيحيّة وطاردها ..! و لم يثبت بمعجزةٍ ما أو عن طريقٍ ما أنّه فعلاً رأى المسيح وبعثهُ رسولاً .. بل ذهب إلى بلاد العربيّة ومكث فيها ثلاث سنين ثم عاد ليبشّر بالمسيحية وفق مجموعة من تعاليم ومفاهيم مختلفة بشكلٍ كبيرٍ عمّا في أيدي الرسل الذي أوصى بهم المسيح ..

- حسب أعمال الرسل ، فإنّه عندما بدأ بولس بتبشيرهِ كان يعقوب أخو يسوع رئيساً للرسل الذين في " أورشليم " ويعاونه بطرس في تدبير شؤون الأتباع ، وبعد ذلك صار يوحنّا واحداً من الثلاثة المعتبرين بين هؤلاءِ الرسل .

- يقرّ بولس انه وصل الحدّ به إلى أن أعطا يعقوب وبطرس ويوحنّا مالاً (رشوة) لكي يكفّهما عن مقاومة تبشيرِهِ ..! (مجرَّد إدِّعاء) هذا واحد من الأسئلة الخطيرة هنا ..! واحد من العناوين التي هي بحاجةٍ ضروريّةٍ إلى جوابٍ علميٍّ مقنع ..! ولا أظنّ أنّ أحداً قادر على الإجابةِ المقنعةِ هنا ، كما هي الحالُ مع الفقرات السابقةِ ..

- إنّ بولس يصرّ على أنّه لم يستشر أحداً ، لا حنانيا ولا الرسل ، بل ذهب مباشرةً إلى العربيّة (بلاد العرب ، وهي أصلاً موطنهُ الرئيسيّ التي ذهب منها إلى أورشليم لتعلّم اليهوديّة فأصبح فيها من المتقدّمين وقد أجاد

أكثر من لغة) ومن هذهِ العربيّة عاد إلى دمشق ، وهو لم يذهب لمقابلة بطرس ويعقوب أخي يسوع في أورشليم إلا بعد " ٣ سنوات " من عودتهِ من العربيّة ..! فهل في هذا الأمر إثارة لا بدَّ منها ..؟

إنّ هذهِ الحقائق تحتاج إلى دراسةٍ واسعةٍ ودقّةٍ وافيةٍ ، ولا يوجد في أفقِ التاريخِ المكتوبِ ما من شأنهِ أن يعيد كشف هذا الغموض أو هذا الإرباك النظري العملي في هذهِ المواقع والجهات ..

إنّنا بحاجةٍ إلى أجوبةٍ دقيقةٍ فيما خصّ الأمور التالية :

١. التثبّت من المعارف والمبادئ ذات الصلة بما بشّر بهِ بولس خاصّةً إذا علمنا أنّ بولس كان يجيد أكثر من لغة وهو متعلّم جيِّداً .. ومع ذلك يصرّ على أنّه لم يحصل على علومٍ كسبيّةٍ من أحد فيما خصّ تعاليم المسيح ..!

٢. لماذا كلّ هذا الخلاف مع الرسل ، لماذا كلّ هذهِ التهمة من الكذبِ والمكر للرسل ..؟ لماذا كلّ هذا التعبير من " التشبّه بالرسلِ " لمن مفترض فيهم أن يكونوا الإمتداد الطبيعي في نشر التعاليم التي أخذوها كسباً وعن طريق الحسّ وشبه ذلك من المسيح مباشرةً وباعترافِ الجميع وهم الذين نصّبهم المسيحُ رُسلاً للناس ..! هل من المنطقي أن نمر مرور الكرام على هذهِ الصورة الداكنة جدّاً ..؟ إنّه يعلنهم كذبة ، غير معتبرين ، ماكرين .. ويضفي على تعاليمهم الباطل وأكثر من ذلك بكثير .. هل يعلم المسيحيّون أنّ الأمر بين بولس وبين الرسل وصل إلى

هذا الحدّ ، مصراً (بولس) على اعتبار أنّ ما يبشّر بهِ هو الحقيقة التي نطق بها المسيح ، في نفس الوقت الذي يعتبر فيهِ الذي بين يدي الرسل مجرد كذب وأباطيل ..! ألا يحتاج هذا السؤال الكبير إلى جوابٍ كبيرٍ جدّاً ، يزيل الغموض المخيف والمرعب ..؟ خاصّة إذا علمنا أنّ الديانة المسيحيّة تقوم على الأُسس اللاهوتيّة التي وضعها لها بولس بين العامين ٤٠ و ٦٧ ميلاديّة ..!

٣. في إشارةٍ دقيقةٍ برسائلِهِ يصر بولس على بيان الحقيقة التالية فيما خصّ الرسل : الناس تعتبرهم .. وهو لا يعتبرهم .. لأنّهم كذبة .. السؤال : لماذا كانت النّاس تعتبرهم ولا تعتبره في أورشليم زمن كنيسة الختان ، وكلّنا يعلم الظرف الذي عاشه بعد اعتناقهِ المسيحيّة من شنّ هجماتٍ إنتقاديّةٍ قاتلة عليهم وبشكلٍ مثير ويدعو إلى أكثر من شكٍّ وتهمة ..

٤. لقد تعلّمنا أنّ الإيمان يجب أن يكون عبر التثبُّتِ واليقين في التلقّي والقبول .. ولا يجوز أن نقبل من كلِ مَن يدّعي ، بل على من يدّعي السفارة عن الله أن يثبت ذلك ، من هنا كان الله يبعث مع كلّ نبيٍّ معجزة تثبت مدّعاه .. السؤال : ما هو إثبات مدّعى الرسول بولس فيما ادّعاه من رؤية الربّ أوّلاً ، ومن بعثِهِ رسولاً ثانياً ..؟ وماذا عن الإنقلاب الخطير في معلوماتِهِ عمّا في أيدي الرسلِ ثالثاً ..؟ خاصّةً إذا علمنا أنّ مجموعة من القيم الكبرى بل النصوص والأُسُس اللاهوتيّة دخلت على المسيحيّة عبره ..!

أليس من المثير جداً ، أن لا نعلم إلا القليل أو النادر عن حياةِ هذا الرجل الذي أثّر بشكلٍ هائلٍ في مفاصل المسيحية وتعاليمها وأقام الأساس اللاهوتيّ على نحوٍ مخالفٍ لأهمّ رُسُلِها الموصى بهم من المسيحِ نفسِهِ ..! وحتى تكون الأمور أكثر وضوحاً أحبّ أن أشير إلى قائمة من المعلوماتِ عن شخصهِ من خلالِ ما قالهُ هو عن نفسِهِ ، وذلك بعد أن نقلتُ المعلومات الخاصّة بهِ وبشخصِهِ كما هي موجودة في أعمال الرسل .. وإليك ملخّص ما جاء في رسائلهِ على الشكل التالي :

- كان بولس عبرانيّاً إسرائيليّاً فرّيسيّاً من سبط بنيامين ، متقدّماً في الديانة اليهوديّة على الكثير من أقرانِهِ .

- كان رجلاً متعلّماً ، يتحدّث أكثر من لغة ، على عكس الرسل الآخرين ...

- يعترف أنّه اضطهد كنسية الله ، وأفرط في ذلك ..! قبل وبعد صعود المسيح إلى السماء ، إلى أن إعتنقَ المسيحيّة ، فبشّر بها بين الأمم ، بخلافِ ما عليه الرسل من تبشير بني إسرائيل فقط ، وبمعارف مختلفة عمّا بين أيديهم ..

- يصرّ على أنّه تلقّى معارفه وبُعِثَ إلى الأمم عن طريق رؤيا يوجزها على الصورةِ التالية : أعرف إنساناً (إشارة إلى نفسِهِ) .. أفي الجسد أم خارج الجسد (في الواقع الخارجي أم في غيرِهِ من الرؤيا والطيف) لست أعلم ، الله يعلم ، أنّه اختطف إلى الفردوس ، وسمع هناك كلمات ، لا

ينطق بها ، ولا يسوغ لإنسان ، أن يتكلّم بها .. وبعدها توجه بولس فوراً إلى العربيّة ، و لم يبدأ بتبشيرهِ إلا بعد أن عاد من العربيّة التي مكث فيها ٣ سنوات ..! من هنا أشار بعضهم إلى أنّ في هذهِ الرسالة ربّما فيها إشارة على أنّه اطّلع هناك على ما يساعده خاصّةً أنّه بقي فيها ٣ سنوات ..! وركّز العديد من الخبراء على أنّ الأمر ضروري من ناحيتين : أوّلاً أنه منبوذ من قبل الرسُلِ ومعروف من جهتِهِم بالطغيان والعداء لهم ولأتباع المسيح ، وهم الذي شاع ذكرهم بين الأممِ أنّهم رسُل المسيح .. ثانياً : مع ادّعاءِهِ بالرؤية ، إلا أنّه لم يقم بالتبشير ، إنّما ذهب إلى العربيّة ، وهي موطنُهُ الأصليّ ، ومكث هناك ٣ سنوات ، ثُمّ قام بعدها بالتبشير ، وعلى نحوٍ من إبطالِ ما في أيديِ الرسل الذين اتّهمهم بالكذبةِ والماكرين وغير ذلك .. وهذا يعني أنّ الأمر بحاجةٍ إلى عناية فائقة وتصوّر دقيق لخطورة النتائج ..

- يقرّ أنّه على خلافٍ حادّ مع الرسلِ ، وانّهم كذبة ، ماكرون ، وشبه رسل ..! اضطرّ إلى إعطائهم المال (رشوة) حتى يكفّوا عنه (وهذا مجرّد إدّعاء) .. وأنّه ضاق منهم ، وأنّه لا يعترف بهم ..

إلى غيرِ ذلك من عناوين ... وفجأةً ينتصر بولس ، ويسحق كلّ ما عداه ، ويمنع غيرهُ من الرسلِ ــ كما هي الحالُ مع بطرس ــ من أن يحطّ ثقلهُ في أنطاكية أو في روما ، ثمّ بعد ذلك يضع الأساس اللاهوتيّ للديانة المسيحيّة ، وذلك بين العامين ٤٠ و ٦٧ ميلاديّة تقريباً ..! لتأتي المسيحيّة نتيجة فهمهِ ومعتقداتهِ تلك ، لا نتيجة ما حُمِّل بطرس ويعقوب ويوحنا وغيرهم من الرسُل

من تعاليم المسيح الذي جعلهم الرسل إلى الناس ..! لا شكّ أنّ هذا يستدعي الكثير من الأسئلة الحرجة ، أسئلة صعبة وجارحة في آنٍ معاً .. والأمر يحتاج إلى وقفةٍ متّزنة جدًّا أمام مجموعة من المؤشّراتِ والشهادات التاريخيّة التي تستدعي حلّ ما هي عليهِ من لغزٍ مخيف : مفاهيم ومعتقدات ، للتثبّت وفق المنهج العقلاني خاصّةً في أمرٍ ضروريٍّ مثل ادّعاء السفارة عن اللهِ أو الوصاية عن المسيحِ عليهِ السلام ، في ظلّ إصرارٍ شديدٍ من قبلِ بولس على إدخال تغيّراتٍ جوهريّة كبرى في المعتقد المسيحيّ لم تكن معروفة من قبل ..

من هنا يحقّ لنا أن نسأل عن حقيقة جوهر المسيح ..؟ وأن نكرر استغرابنا من التحوّل الذي طرأ على مجموعةٍ دقيقة من العقائد المسيحية ..! على أن هذا يعتبر واحداً من معاني الحذر في قراءتِنا للمتن المنقولِ إلينا ..

وببعد النظرِ عن حقيقة المسيح اللاهوتيّة والناسوتية وعن الإدخالات التي تّمت فيما بعد على المفاصل الأساسيّة في اللاهوت .. نسأل عن مجموع الإضطراب الموجود في متن الكتاب المقدّس ..؟ عن الأسباب الداعية إلى تبنّي هذا التناقض ..؟ هل يمكننا أن نسلّم بأنّه كلام اللهِ مع كلّ ما فيهِ من تناقض واضطراب ..؟ مع علمنا أنّ هناك مجموعة من معانٍ لا يمكن أن ينطق بها المسيح عيسى بن مريم (ع) ..

ففي الإصحاح ١٢ من إنجيل متى والثالث من مرقس والثامن من لوقا ، أنّ المسيح فيما هو يكلّم الجموع إذا أمّه واخوته قد وقفوا خارجاً طالبين أن يكلّموه فقال له واحد :

هو ذا أمّك واخوتك واقفون خارجاً طالبين أن يكلّموك ، فأجاب وقال للقائل : مَن هم أمّي ، ومَن هم إخوتي (..!) ثمّ مدّ يده نحو تلامذتِهِ وقال : ها أمّي وإخوتي لأنّ من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأمّي .. مع أنّ المسيح نفسه في الرابع من مرقس قال بحقّ هؤلاءِ التلاميذ : إنّهم لا إيمان لهم وأنّه ليس لهم من الإيمان مثل حبّة خردل ، كما في ١٧ من متّى ، وهم الذين طلب منهم أن يسهروا معه ليلة هجوم اليهود عليهِ فلم يفعلوا ، ولمّا أمسكه اليهود ـــ كما يدّعون ـــ تركه التلاميذ كلّهم وهربوا كما في الإصحاح ٢٦ من إنجيل متّى ..

هذا الكلام خطير جدًّا ، لأنّ الكلّ متّفق على نزاهة وقداسة مريم بن عمران ، وأنّها في رتبةٍ ذات قداسةٍ وإيمانٍ لا يصل إليهِ إلا القليل ممّن يصطفيه اللهُ تعالى .. فهل يجوز مثل هذا الكلام مع أمِّه البتول ، التي أولدته من غيرِ أبٍ ، بإعجازٍ من اللهِ تعالى .. لا شكَّ أنَّ يدَ البشرِ لعبت بقوّة في صياغة وإعادة بناء مثل هذهِ النصوص .. لقد وصل الأمر إلى حدّ أنّ بعض المتون الإنجيليّة لا تقرُّ بأنّ إسم أمِّ المسيحِ مريم ، وبعضُها لا تقرُّ بأنّ مريم كانت عذراء بتول ، وبعضُها فيهِ من الغرابة ما يصدم المتديِّن المسيحيّ .. يكفي أن نشير هنا إلى أنّ النصّ يصوّر مريم وكأنّها غير معتقدة بما عليهِ إبنُها المسيح ، وهو الذي ولِد منها من غيرِ أبٍ وبإعجازٍ عظيمٍ من اللهِ تعالى ..

من هنا فإنّ بعضاً من الشرّاحِ والمعلّقين حاول أن يعيد تركيب المعنى في هذا الخصوص ، فأشار إلى أنّ المواقف كانت هنا آنيّةً ، كانت متّصلة بتوجيه خاصّ ومعانٍ مقاميّة .. لكن كما ترى ، كلّ ما في المتن يدين هذا التوجيه الذي لا معنى له ، ويبطل هذهِ المحاولة من التأويل الفاشل .. إنّه خطاب صريح ومعانٍ جليّة ، وكلمات معانيها واضحة جدّاً .. حاشا أن تكون مريم تلك المرأة غير الطاهرة المؤمنة العابدة المقدّسة ..! حاشا للمسيح عيسى بن مريم البتول أن ينطق بهذهِ العبارات ..! النصّ يشير إلى أنّ السيّدة مريم وكأنّها غير مؤمنة ولا مكترثة بما عليهِ إبنها يسوع المسيح ..! مع أنّ الذي في بعضِ متن الإنجيل عن مريم يدلّ على قداستِها العظمى وإيمانِها الأكبر وطهرها ..! إذاً ما هو المخرج ..؟ ما هي الطريقة التي نرفع فيها هذا التناقض ..؟ كيف يمكننا أن نكتب تفسيراً منطقيّاً لهذهِ المواقف ، يكون مقنعاً وعلميّاً وذا حجّةٍ ودلالةٍ حقيقيّة ..؟ لم يستطع أحد أن يفعل ذلك بسبب دقّة التعبير والموقف الصريح الوارد في المتونِ هناك ، ما أدّى إلى تسجيل عجزٍ حقيقيٌّ في هذا المتن ، وهو يدلّ على أنّ هناك يداً كتبت وغيرت وشوَّهت وبدّلت من حقيقة المعاني وعلى على مستوى جزئيّ (مشكلة النصِّ الكامل) .. لقد وصل الأمر إلى حدود تسجيل معانٍ في المتن هي في واقع الأمر خطيئة وإدانة لا يمكن أن يكون عليها المسيح ، على الأقلّ هي أمور يستفاد منها أنّها شرط ممنوع لعلوّ المقام وسموِّ المرتبة ، وإذا بالمسيح يتلبّس بها وفق معاني هذهِ النصوص القاصرة ..

فقد ورد في الإصحاح الثاني من يوحنّا أنّ المسيح حضر مجلس عرس ، فنفد خمرهم ، فعمل لهم ستّة أجران من

الخمر بطريق المعجزةِ ... وفي الحادي عشر من متّى والسابع من لوقا أنّ المسيح كان يشرب الخمر ، بل كان شرّيب خمر (كثير الشرب لها ..!) .. وجه الإشكال أنّه جاء في العاشرِ اللاويين أنّ الربّ قال لهارون : **خمراً ومسكراً لا تشرب أنت وبنوك** معك عند دخولكم خيمة الإجتماع لكي لا تموتوا ، فرضاً دهريّاً في أجيالكم **وللتمييز بين المقدّس والمحلّل وبين النجس والطاهر** .. (ويكفي أن نقرأ هذا النصّ ، لنقف على حقيقة كبرى أصابت " متن الإنجيل " فيما ورد أعلاهُ بحقِّ المسيح ..) وفي الأوّل من لوقا في مدح يوحنّا المعمدان قال : لأنّه يكون عظيماً أمام الرب وخمراً ومسكراً لا يشرب .. (هل من المعقول أن يكون يوحنّا على رتبةٍ من القداسةِ في طاعةِ اللهِ ولا يكون المسيحُ كذلك ..! وهو الذي كان في زمنِ المسيحِ ومؤتمِراً بأمرِهِ ..! أيّ غرابة هذهِ ، وأيّ كارثةٍ عظمى تلك ..! وأيّ أزمة عنيفة أصابت النصّ ..!)

كيف يمكننا أن نفسّر ما ورد في هذا المتن ..! هل تركُ الخمرِ شرط الطاعةِ ..؟ هل شرب الخمرِ هو شرط المعصيةِ ..؟ هل هو شرط قداسة ..؟ هل هو شرط رفعةٍ ومقام ..؟ كلّ واحدٍ من هذهِ الأسئلة يطعن بقداسة أو مقامِ المسيح ، في حين هذهِ الأسئلة ترفع من قداسة ورتبة يوحنّا ، وبنفس الوقت نعلم وبشكلٍ قاطعٍ وباعترافِ كلّ المللِ والأديان أنّ يوحنّا كان من رُسُلِ المسيحِ ، وأنّه كان يأتمرُ بأمرِهِ ..! كما يظهر من النصوص الناهية أنّ الخمر ممنوع ،

وكفى بذلك دلالة .. إنّ من يقرأ كلّ الذي قيل حول تخريج هذه المعاني من قبلِ الشُّراح لا يمكنه أن يسلّم بواحدةٍ منها .. بل يقتنع أنّ هناك تناقضاً واضحاً وأزمة متجذّرة في الجمعِ بين هذهِ المتون .. خاصّةً إذا علمنا أنّ النبيّ والمبشرّ والمنذر عن اللهِ لا يخطئ . بل ممنوع في حقّهِ الخطأ على الإطلاق .. وأنّ العقل والنقل لا يجيزه .. إذاً كيف تمّ الأمر هنا في هذا المتن إضافة إلى كثيرٍ من مقاماتٍ ومعانٍ متّصلة ومنفصلة في متن هذهِ الأناجيل وفق إبراز هذا الأمر في بعضِ الأحيان وكأنّه مطلب قداسة أو ضرورة للطقوس ، والكارثة حين نعلم أنّ بعضاً من تلك النصوصِ ما هو إلا نصّ بولس ، وليس فيه أدنى إشارة ممّا وقع زمن المسيحِ ، وكنت قد اشرت بشكلٍ تفصيليّ إلى ما قالهُ بولس عن عشاء الربّ ، والذي لم تذكرهُ لا الشهادات التاريخيّة ولا حتّى إنجيل يوحنّا الذي يقال فيهِ أنّ الإنجيل الأوّل الذي حُرِّرَ ، لنتفاجئ فيما بعد بأنّ نفس النصّ الذي ذكرهُ بولس بل نفس الحرف ذُكِر في الأناجيل الثلاثة : مرقس ومتى ولوقا ..! في ذلك العشاء تجد القصّة الكاملة للإدخالاتِ التي تسلّلت بقوّة إلى هذهِ المتون على اعتبار أنّها حدثت مع المسيحِ في حين هي مجرّد تعاليم من بولس أخذها عنه تلك الأناجيل .. والغريب كيف يمكن أن نجمع بين مقولة : أنّ من حرّر الأناجيل هم تلامذةُ أو رسل المسيح في حين هم يأخذون عن بولس ..! هل في هذا الأمر غرابة .. أم كارثة .. أم حيرة واستهجان ..! لا شكّ أنّ الإجابة هنا وفي أيّ جهةٍ أخرى جارحة ومحرجة جدّاً .. ربّما يقال ، الأمر هنا هيّنٌ أمام ما ذُكِر من زنى الأنبياء والتجارة بزوجاتِهِم في الباطلِ والفجور والسكر حتى الثمالة والزجّ بقادتِهِم من أجلِ أن لا يفتضحوا مع زنا زوجاتِهِم ، وأنّ أصل النسلِ اللاحقِ هو من زنا ، بعد فعلة إبنتي لوط بأبيهما ، إلى الكثير من العناوين القاتلة والناسفة

لأصل النبوّة كما مرَّ وذكرنا .. هذا فضلاً عن وجود نصّ مضطرب ، نصٌّ قاصر وأزمة تناقض وتكاذب .. فقد ورد في الإصحاح ١٢ من إنجيل متّى والإصحاح ١١ من لوقا أنّ المسيح قال : من ليس معي فهو عليّ . ومن لا يجمع معي فهو يفرّق . وبمقابلِهِ قال في التاسع من مرقس والتاسع من لوقا : من ليس علينا فهو معنا .. وفي الإصحاح ١٩ من متّى والإصحاح ١٠ من مرقس والإصحاح ١٨ من لوقا قال إنَّ بعض النّاس قال للمسيح أيّها المعلّم الصالح .. فقال : لماذا تدعوني صالحاً ، ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله .. وبالمقابل في العاشر من يوحنّا قال : أنا هو الراعي الصالح .. أمّا أنا فإني الراعي الصالح .. وفي الإصحاح ٥ من إنجيل يوحنّا قال إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقّاً .. وفي الثامنِ من هذا الإنجيل قال وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حقّ .. وفي ٢٧ من إنجيل متّى قال كان اللصان اللذان صلبا معه ـــ أي مع المسيح ـــ يعيّرانه .. وفي الثالث والعشرين من إنجيل لوقا قال : وكان واحد من المذنبَين المعلّقين يجدف عليهِ قائلاً : إن كنت أنت المسيح فخلّص نفسك وإيانا . فأجابه الآخر وانتهره قائلاً : أولا تخاف الله إذ أنت تحت هذا الحكم بعينِهِ .. بحيث يظهر من هذا النصّ أنّ الثاني مؤمن في حين النصّ الأوّل يشير إلى أنّ الإثنين كانا يعيّرانِهِ بأنّه إبن اللهِ وأنّه مقبوض عليهِ وأنّه لو كان إبن الله لإستطاع أن ينقذ نفسه ..!

لا شكّ أنّ الأمثلة كثيرة ومعقّدة في بعضِ الأحيان ، ومنها ما يتعلّق بجوهرِ المسيح وما يتّصل بهِ ، أو فيما يتّعلّق بمجموعة من معانٍ وردت في المتنِ المعتبر كنسيّاً في التوراةِ من جهة وما يناقضه في الإنجيل من جهة ثانيةٍ .. كلّ هذا

بخلافِ القرآن الكريم ، بخلافِ القدرة المذهلة عربيّاً وبلاغيّاً ومعنويّاً وعلميّاً لهذا القرآن بخلافِ المعاني الكبرى التي تضمّنها .. إنّ القرآن يبدو على هيئة عظيمةٍ ومثيرة وقادرة على تحدّي كلّ شيءٍ ، وهو يستفيد من كلّ تقدّمٍ علميٍّ ، وكما في تعبيرِ الإمام (ع) يجري مجرى الليلِ والنهار ويدور مدار الشمس والقمر .. بل في كلمة الوليد (مرجع العرب في الشعر واللغة والكلام ..) حين سأله أبو جهل أن يقول في القرآن قولاً يكونُ حجّة لهم قبالَ العربِ في وجهِ ما جاء بهِ محمّد فقال :

ما أقول فيه ؟ فواللّه ما منكم رجل أعلم في الأشعار مني ، ولا أعلم برجزهِ مني ، ولا بقصيدهِ ولا بأشعار الجنّ . واللّه ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، وواللّهِ إنّ لقولهِ لحلاوة وإنّه ليحطم ما تحته وإنّه ليعلو ولا يُعلى .. فقال أبو جهل : واللّه لا يرضى قومك حتى تقول فيه . فقال الوليد : فدعني حتى أفكّر فيه ، فلما فكر فيهِ قال : واللّه قد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الأنس ولا من كلام الجنّ ، وإنّ له لحلاوة وإنّ عليهِ لطلاوة وإنّ أعلاه لمثمر وإنّ أسفله لمغدق وإنّه ليعلو ولا يعلى عليهِ وما هو بقولِ بشر .. وحين أصرّ عليهِ أبو جهل أن يقول في القرآنِ ما يدينهُ قال هو سحر يُؤثَر .. (أي ظلَّ مصرّاً على عظيم ما في هذا القرآن مما يأخذ مجامع القلوب

مشيراً إلى أنَّه ليس من محمّد بل هو من مقامٍ ما ، رفيع جداً ، له من القدرةِ ما يصدرُ عنه مثلُ هذا القرآن ..) ..

من هنا يمكننا معالجة مجموعة من المواضيع كانت قد وردت في التوراة والإنجيل وعالجها القرآنُ الكريم ليبدو الفرق الكبير .. من تلك الأمثلة النبيّ المسيح عيسى بن مريم عليهِ السلام .. وسأتلو عليك ما جاء في سورة مريم ، بكلّ ما تعنيهِ من دقّةٍ وافيةٍ في خصوصِ هذا النبيّ العظيم ، حيث قال اللهُ تعالى :

- (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا(١٦)
- فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا(١٧)
- قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا(١٨)
- قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا(١٩)
- قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا(٢٠)
- قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا(٢١)
- فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢)
- فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا(٢٣)
- فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا(٢٤)
- وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا(٢٥)

- فَكُلِي وَاشْرَبِي ، وَقَرِّي عَيْنًا ، فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ، فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا(٢٦)

- فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا(٢٧)

- يَا أُخْتَ هَارُونَ ، مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ، وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨)

- فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩)

- قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا(٣٠)

- وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١)

- وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢)

- وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ، وَيَوْمَ أَمُوتُ ، وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)

- ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ(٣٤)

- مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥)

- وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ(٣٦)

- فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ(٣٧)

- أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ، يَوْمَ يَأْتُونَنَا ، لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨)

- وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ، إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩)

- إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ(٤٠)

وفي سورة آل عمران يقول الله تعالى :

- (.. وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ(٤٢)

- يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ(٤٣)

- ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ(٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ(٤٥)

- وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ(٤٦)

- قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٤٧)

- وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ(٤٨) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(٤٩)

- وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(٥٠)

- إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)

- فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ، قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(٥٢)
- رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ(٥٣)
- وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(٥٤)
- إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ، وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ، وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ، فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٥٥)
- فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦)
- وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(٥٧)
- ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ(٥٨)

قبل أن أشير إلى خلاصة نتائج مفاهيميّة في موضوعِ يسوع المسيحِ فقط يكفي أن نقرأ صيغة ومضامين هذهِ الآيات ونردّدها لنقف على الصورةِ الزاخرة بالمنطقِ الإعجازيِّ .. وبعد ذلك ، ضمن هذهِ الآيات ، تبرز مجموعة عناوين أهمّها :

١. الإعجاز الإلهي العظيم في خلق المسيح عيسى ، وليس الأمر لأوّل مرّة ، فقد خلق اللهُ آدم وحوّاء من دون أمٍّ وأب ..
٢. الطهر النهائي والكلّي لمريم أمّ المسيح عيسى عليهِ السلام .

٣. الوضوح الكامل في أنّ خَلْقَ اللهِ للمسيحِ عيسى بن مريم إنَّما هو تكوين إعجازي من دون أب ، لا على قاعدة أنّ الله أباه ، بل هذا المفهوم وفق المنطق القرآني من الكفر ، وقد ردّ الله عليهم أنّ مثل عيسى بن مريم عند الله كمثلِ آدم خلقه من ترابٍ ثمّ قال له كن فيكون ..

٤. التأكيد على حقيقة عيسى الناسوتيّة .

٥. التأكيد على نبوّة عيسى .

٦. التأكيد على أنّ ما قام بهِ عيسى من معجزاتٍ مثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى إنَّما هو بإذنِ الله .

٧. تبرُّأ عيسى (ع) من بدعة الربوبيّة .. وإقراره النهائي بالعبوديّة ، تلك التي تتناسب والنبوّة العالية ذات القدسيّةِ الكبرى ..

٨. أكرِّر : يكفي أن نقرأ هذهِ الآيات لنقف على عظيمِ ما ورد في القرآن ، خاصّةً إذا قمنا بمقارنة بما رود في غيرِهِ من الكتبِ في معالجةِ مثل هذهِ الأمور وغيرها ..

وفي مجموعةٍ أخرى من الآياتِ الواردةِ في القرآنِ الكريم يقول اللهُ تعالى كما في سورة المائدة :

- ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى

بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ(١١٠)

وفي سورة النساء يقول اللّٰه تعالى :

- (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) .

وفي ردٍّ نهائيّ وفق منطق الإعجازِ وامكانِ ذلك يقول اللّٰه تعالى في سورة آل عمران :

- (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) .

إنَّهُ عبد اللهِ ونبيّه ، وحاشا له أن يدّعي الربوبيّة .. يقول اللّٰه تعالى في سورة المائدة :

- (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ(١١٦) .

لا شكّ أنّ هذا المنطق رصين جدّاً ورفيع ، لا يجوز معه على الإطلاق الذهاب إلى كثيرٍ من معاني الوهمِ التي طرأت مؤخّراً في مجموعة من العقائد المسيحيّة التي أشرت إليها فيما سبق في صدرِ هذه الدراسة .. لقد وصل البيان القرآني إلى حدٍّ مفادهُ أنّ عيسى النبيّ أصلاً لم يُصلب و لم يُقتل ، وإنّما توفّاهُ الله إليهِ أي رفعهُ دون موت ، وهذا معنى إعجازي آخر في حياة هذا النبيّ العظيم .. مع الإشارة إلى أنّ المسيحيّة تعتقد أنّ الله رفع المسيح بعد موتهِ بثلاثة أيام ، وقد وَرَدَ عليك ما أشرنا إليهِ في متنِ هذا العنوان من مقارنة الأناجيل ، والإضطراب الذي أصاب مثل هذهِ المعاني في المتونِ هناك .. يقول اللهُ تعالى :

- (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٥٥) آل عمران .

وفي آيةٍ أخرى من موردٍ آخر يقول تعالى :

- (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ، قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ ، وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(٥٢) آل عمران ..

كما أنّ القرآن الكريم صريح في أنّ عيسى بن مريم هو نبيّ كسائرِ النبيين الذين بعثهم اللهُ إلى النّاس بالهدى والرحمة ، نعم يشير القرآن إلى أنّ هناك تفضيل لبعضِ النبيين على بعضٍ .. يقول اللهُ تعالى :

- ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) البقرة .

وفي كلّ مطلعٍ أو عنوان تجد التأكيد متّصلاً وبصورةٍ دائمةٍ على روحِ السلسلةِ النبويّة مِن قَبل مع إبراهيم ، وأنّه لن ينال عهدُ الله الظالمين ، وانّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران عل العالمين ، لنقرأ مع كلّ حقبةٍ ونبوّة مجموعة من معانٍ وعهودٍ متّصلة بالمستقبلِ وبشائرِهِ .. ففي قصّة موسى يقول الله تعالى :

- ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ، وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ(٨٧)[1] .

إنّه خطاب صريح عليٌ في أنّ عيسى يُبعثُ بعد موسى بالنبوّة ، وانّه النبيّ الذي يقوم بهداية النّاس من بعدِهِ ، وعليهِ : لا بدَّ من بشارةٍ أخرى متّصلة بما عليهِ سلسلة النبوات ، وكما بشّر موسى بعيسى ، لا بدَّ أن يبشّر عيسى بمحمّد .. تعالَ معي لنقرأ موقف عيسى من هذهِ الحقيقة في متنِ القرآنِ .. يقول الله سبحانه وتعالى :

---

[1] سورة البقرة .

- (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ(٦) الصف

في هذه الآية القرآنيّة يستوقفنا القرآن أمام عناوين عدّة أهمّها :

١. إنّ سلسلة النبواتِ متّصلة ببعضِها البعض ، والسابق يشهد للاحقِ .
٢. إنّ موسى بشّر بعيسى ، وقد بعث اللهُ عيسى مصدّقاً بما يديهِ من التوراةِ التي جاء بها موسى ..
٣. وكما بشّر موسى بعيسى فقد بشّر عيسى بنبيّ آخر هو محمّد (ص) يبعثهُ اللهُ بالبيّنات والشريعة ..

بحيث تبدو حلقة (موسى ، عيسى ، محمّد) مترابطة جدّاً ووثيقة والمثير أنّ هذا الترابط ورد في متنِ الكتابِ المقدّس ، أي في القسم التوراتيّ ، الممضي من قبلِ اليهوديّةِ ، والموثّقِ من قبلِ المسيحيّة وهو ممضي بشكلٍ عالٍ ومميّز ، كما أنّ البشارة بمحمّدٍ (ص) وردت في متنِ الإنجيل بشكلٍ عالٍ وفائق ونهائيّ .. تعال معي لنتذكّر قليلاً ما ورد معنا فيما سبق من البشارات ..

- مَن هو البركليت .. ؟
- مَن هو شيلوه .. ؟
- مَن هو صاحب نبوّة جبال فاران .. ؟
- مَن هو المقصود في وصيّة يعقوب .. ؟
- على مَن تنطبق مواصفات كتاب أشعياء .. ؟

- مَن هو الذي قِيل في حقّهِ : (لا يزول صولجان من يهوذا ومشترع من صلبهِ حتى يأتي شيلوه وتطيعهُ الشعوب)[1]

- كلٌّ هذا ببعد النظرِ عمَّا جاءَ في مجموعةٍ واسعةٍ من الأناجيلِ الأخرى والتي أهمُّها إنجيل برنابا ، وهي مطابقة لأصلِ ما رود في الكتابِ المقدّسِ في شقّي " التوراة والإنجيلِ " من البشارةِ بمحمّد وبشكلٍ هائل ومذهل ..

والأهمّ من كلّ هذا ، كيف نقرأ ما جاء في متنِ القرآنِ الكريم في خصوصِ بشارةِ عيسى بمحمّد وتصديقهِ بما جاء بهِ موسى ، كيف نقرأ هذهِ البشارة الثالوثيّة ..؟ المذهل أنّها هي هي ، كتلك التي وردت في متنِ الكتابِ المقدّس بخصوصِ نبوّة موسى وعيسى ومحمّد ..! ايّ إعجازٍ هذا ..! أيّ فضلٍ من اللهِ تعالى أن تبقى هذهِ البشارة إلى يومنا هذا وفق صيغتِها التي تدلّ على مركزِ النبوّةِ المبعوثِ من مناطقهِ وبقاعهِ الثلاث ، ففي تلك الإشارة يقول :

- (.. جاء الربّ من سيناء ،
- وأشرق عليهم من سعير ،
- وتلألأ من جبال فاران ،
- حيث خرج وسط عشرة آلاف قدّيس ،
- تشعّ لهم من يمينهِ أنوار الشريعة ..
- إنّه يحبّ أيضاً جميع الشعوب ،
- جميع هؤلاءِ القدّيسين هم في يدك ،

---

[1] سفر التكوين ٤٩ : ١٠ العهد العتيق ، المطبعة الكاثوليكيّة بيروت ..

- وهم جالسون عند قدميك يتلقّون أقوالك ..)[1]

بهذا يسجّل لنا معنى دقيقاً لما ورد في القرآنِ من بشارةِ موسى وعيسى بمحمّد ، إنّها الإشارة التي طالما إستشهد بها رسولُ اللهِ محمّد على اليهودِ والنصارى الذين فاضعت عيون بعضِهم من الدموع لّما رأوا الحقّ ..

- في بشارة عيسى يقول تعالى : (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) ..

- وفي بشارة الكتابِ المقدّس عن لسانِ موسى يقول (جاء الربّ من سيناء ، وأشرق عليهم من سعير ، وتلألأ من جبال فاران ، حيث خرج وسط عشرة آلاف قدّيس ، تشعّ لهم من يمينهِ أنوار الشريعة .. إنّه يحبّ أيضاً جميع الشعوب ، جميع هؤلاءِ القدّيسين هم في يدك ، وهم جالسون عند قدميك يتلقّون أقوالك)[2]

أيّ مطابقةِ هذهِ ..! أيّ إعجازٍ عظيمٍ ذاك ..! أيّ صدقٍ نهائيّ وحجّة بالغة ..! أيّ نورٍ للهِ لم ولن ينطفئ أبداً ، لتدوم الحجّة على طولِ سلسلةِ الوجودِ وهي تنطق بنبوّة موسى وعيسى ومحمّد ..! لا شك أنّه شيئ مذهل وبالغ

---

[1] سفر التثنية ٣٣: ٢-٣

[2] سفر التثنية ٣٣: ٢-٣

الإعجاز .. ليضيف بعد ذلك الإنجيل نوعاً آخر من معاني الإعجاز في ظلّ بشارةٍ أخرى فيقول :

- **(ومتى جاء ذلك البركليت (أحمد) فإنَّهُ سيبكّت العالم على خطيئةٍ وعلى برٍّ وعلى دينونةٍ ..)**[1]

ثمّ نقرأ معاً في كتاب النبي أشعيا في الإصحاح الثاني والأربعين النصّ التالي :

- **هو ذا عبدي الذي أعضدهُ ، مختاري الذي سُرّت به نفسي ، وضعت روحي عليهِ ، وسيخرج الحقّ للأممِ .**
- **لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارعِ صوتُهُ .**
- **قصبةً مرضوضةً لا يقصف ، وفتيلةً خامدةً لا يطفئ ، ويعلن الشريعة على الأممِ .**
- **لا يكلّ ولا ينكسر ، حتى يضع الحقّ في الأرض ..**

إلى مجموعةٍ إضافية من العناوين والأوصاف الواردة تحت هذا الإصحاح والتي لا يمكن أن تنطبق إلا على رسولِ اللهِ محمَّد (ص) الذي جاء بالشريعةِ ، ونطقت التوراة بنبوّتهِ ، ومعها الإنجيل ، في ظلّ بشارةِ جبال فاران وغيرها .. وفي ختامِ هذا النصّ يشير إلى أنّ الربّ قد سُرَّ من أجل صدقهِ ، وأنّه يعظّم الشريعة ويكرّمها ..! بطبيعة الحال ليس النصُ أبداً في عيسى ، لأنّه باتفاقِ النصارى ، لم يبعث المسيح عيسى بالشريعةِ ، إنّما بالتعاليم .. لا شكّ أنّ كلّ

[1] إنجيل يوحنّا ١٦ : ٨

هذهِ الإشارة تامّة في حقِّ رسولِ اللهِ محمّد ، الذي بُعثَ بالرسالةِ (عقيدة وشريعة) من جبالِ فاران .. في ظلِّ منطقٍ قرآنيٍّ معجزٍ ومذهلٍ في معانيه ..

وكما ترى ، لم أذكر إلا القليل مما ورد في القرآنِ من مواضيع عالجها وعالجتها التوراة والإنجيل (وإنّني أعدُّ كتاباً خاصًّا في ذلك ليكون شاهداً على عظمةِ هذا القرآن ..) وبعد هذهِ الجولة القصيرة فإنَّك ترى القرآن بعيداً جدًّا عمّا ورد في كثيرٍ من متونِ الإنجيلِ والتوراة في حقِّ النبيين ممَّا هو مسيئ بشدّة لهم وهو ممّا يُخجل فعلاً ، وقد أشرت إلى بعضٍ منه .. لقد أوردت عليك بعض الآيات القرآنيّة التي تتحدّث عن مريم ، عن عيسى المسيح وعن الطهر والإعجاز والصدق ، عن رتبة النبوّات ، وفيهِ ما فيهِ من الدقّةِ وعلوّ الإشارةِ والصياغةِ والبيان ، وليس فيهِ أيّ تناقضٍ أو تضعضع أو سقوط أو قصور أو إسقاط لمقام النبوّة وبشكلٍ مخيفٍ كما ورد في أكثر من متنٍ بالكتابِ المقدّس .. لقد وصل الأمر إلى حدّ وصف النبيين بالزنا والسكر وقتلِ القادة من أجل التستّر على الزنا وغيرها من الفواحشِ الكبرى والأوصافِ التي تدمر كل شيئ ، وتهزّ أيّ عرشٍ على الإطلاق .. ما يدلّ على أنّ يدَ الكُتّاب لعبت دوراً مخيفاً من التحريفِ في هذا الإطار .. وهكذا هي الحال لو قرأنا في القرآنِ نبوّة موسى ومجموع الآيات المتّصلة بهِ ، بل كلّ النبيين ، فإنّنا سنجد معنىً عالٍ وراقٍ جدًّا من الطهرِ والإنضباط والتطبيق الدقيق للقيم السامية فيما يتّصل بمعاني النبوّة والكمال .. مستحيل أن نقرأ ولو في آيةٍ واحدةٍ معنىً فيهِ شذوذ أو قصور كما ورد في متنِ الإنجيلِ والتوراة .. لا شكّ أنّ ما ورد هناك خطير جدّاً ، ولا يمكن التصديق فيهِ بل من المستحيل وفق كلّ المقاييس والمعايير أن نصدّق بهِ .. ولقد أشرت في

صدرِ دراستي هذهِ إلى أنّ يدَ البشرِ لعبت دوراً أساسيّاً في تحريف جملة من تعاليمِ عيسى وشريعةِ موسى عليهِ السلام ومع ذلك بقي مجموعة من مضامين موافقة لما جاء بهِ النبي موسى وعيسى من عند اللهِ تعالى ، وهذا يعني أنّنا نعاني من الجزئيّة من انعدام النصِّ الكامل ..

لا يمكن لأيّ منصفٍ على الإطلاقِ إلا أن يقرّ بالصفاء النهائي والدقة العليا والإعجاز العظيم لمتن الرسالة والصورةِ الخاتمة التي وردت في القرآن الكريم المبعوثِ مع رسولِ اللهِ محمّد ، الذي أولى القرآن رعايةً مذهلةً حتى لا تصلهُ يدُ النّاسِ في تحريفٍ أو تشويهٍ أو غيره ، فكان من مظاهر تلك الولاية الحفظ الكامل والتلاوة اليوميّة ، والتعهّد التتابعي للمحفوظِ والمكتوبِ بشكلٍ لا يمكن إلا أن يندهش منه كلّ مراقبٍ ومتمعّنٍ وباحثٍ .. لقد وصل الأمر إلى حدّ تشجيع هائل للمسلمين من قبلِ النبيّ على حفظ كلّ القرآن ، فكان أن تجنّدت مجموعة كبرى لحفظهِ فضلاً عن كتابتهِ ، وعلى شكلٍ ممنوع فيه تحت طائلة عقوبة النار أي تحريفٍ أو تزوير .. هذا فضلاً عن القراءة اليوميّة لآياتهِ في ظلّ إحاطة واسعة بمجموعة من المحرّمات حول التحريف أو التغيير ولو لحرفٍ واحد ولو لهيئة اللفظ وغيره .. إنّ من يقرأ رعاية رسولِ اللهِ محمّد للقرآن لا يمكنه إلا أن ينذهل لشدّة الإحاطةِ التي أولاها لهُ هذا النبيّ العظيم ، الذي سمح لنا بوصولِ الرسالةِ صافيةً من دون أن يطرأ عليها ايّ خللٍ أو تحريفٍ بل أيّ جدل بسببِ كثرةِ وتمامِ النقلِ والحفظِ والتلاوةِ والتثبّت الطبقي وغيره فضلاً عن هامش الإحاطة التحريميّة لما خص التحريف وشبه ذلك ..

إنّ الله أراد أن تتمّ الحجّة على طولِ مسيرةِ وجودِ الإنسان ومن أقربِ الطرق ، من متنِ هذا الكتاب ، من شواهد الوجودِ وصلتها بهِ ، من متنِ التوراة والإنجيل ، من متنِ الشهادات العاليةِ بحقّ ما جاء بهِ النبيّ ، حيث كلّ شيئٍ يدلّ على أنّ هذا الكتاب لا يأتيهِ الباطل من بينِ يديهِ ولا من خلفهِ ، وانّه الكتابُ النازلُ من السماء ، وأنّه الحق الكامل الأبديّ الذي يحدّد منظومة الوجودِ وفق المعنى الكوني المتّصلِ باللهِ والمنظّم لأمرِ الشريعةِ فيما خصّ الفرد والجماعة .. الكتاب الذي يجري مجرى الزمن ، ويدور مدار الليل والنهار ، الكتاب الذي أثبت الواقع وطول الزمنِ أنّ مجموعاته الحقوقيّة كانت الثورة التي أخرجت الإنسان من متونِ الشكلِ إلى متون الحقيقةِ الموضوعيّة في عناوينها الكبرى ، هو اليوم الكتاب الذي يستعير منه الكثير من خبراء العالم مجموعةً واسعة فيما خصّ إدارة الثروة وأمن الفرد وغايات الوجود وشبه ذلك للتزوُّدِ بها في مقامِ التشريعِ ، ومن يقرأ مجموعة واسعة من عناوينِ عالمنا يدرك حقيقة ذلك حرفاً بحرفٍ .. وقد قال رسول اللهِ في المنقولِ عن الإمام عليّ :

- **كتاب اللهِ ،**
- **فيه نبأ ما قبلكم ،**
- **وخبر ما بعدكم ،**
- **وحكم ما بينكم .**
- **هو الفصل الذي ليس بلهزل ،**
- **هو الذي من تركه من جبّارٍ قصمهُ الله ،**
- **ومن ابتغى لهدى في غيرهِ أضلّه الله ،**
- **فهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ،**

- وهو الصراط المستقيم ،
- وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ،
- ولا يشبع منه العلماء ،
- ولا يخلق عن كثرة الردّ ،
- ولا تنقضي عجائبهُ ،
- وهو الذي لم ينته الجنّ إذ سمعته أن قالوا إنَّا سمعنا قرآناً عجباً ،
- هو الذي من قال بهِ صدق ،
- ومن حكم بهِ عدل ،
- ومن عمل بهِ أجر ،
- ومن دعا إليهِ هدى إلى صراطٍ مستقيم ..

أمّا الله تعالى فقد قال فيه :

- (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(٢١) الحشر .

تتضمَّن هذهِ الآية رافعةَ العظمة ، ونهاية الغاية ، وخشوع الخشوع .. دلالةً من اللهِ على عظيمِ ما جاء في هذا الكتابِ ، النازلِ منه إلى البشرِ ضياءً ورحمةً وهدىً ، الكتاب الذي نشر بين يدي البشر مجموعةً من المعجزاتِ والعناوين الكبرى في الشقّ الوجودي ، الطبيعي ، والحقوقي ، في الغيبيّات وشواهدها ، لتكونِ علامةَ الإعجازِ من اللهِ إلى النّاس ، وهذا ما سنشيرُ إليهِ فيما بعد إن شاء الله تعالى ..

من البديهيّ جدًّا أن يخشع كلّ شيئٍ أمام الله ، وأن يُسبّح كلّ شيئٍ بحمدهِ .. ففي هذا الكتاب الكثير من المعجزات والبيّنات التي تحمل هذا الإنسان على متنِ سفينتِها نحو التكامل الكليّ الذي لا يوجد بكليّتِهِ إلا في مضامين هذا الكتاب .. يقول اللهُ تعالى :

- ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ ، لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا(٨٢) النساء .

- ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) محمّد

حيث يحتضن هذا القرآن كلّ المعالمِ الضرورية لمسيرةِ هذا البشري في طولِ سلسلةِ الوجودِ ، فيه كلّ مقدّس ، فيه كلّ إبداع ، فيهِ أهمّ ضمانات الفرد والجماعة بشقّي التكوين والتشريع .. يقول اللهُ تعالى :

- ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) الإسراء .

إنّ هذا القرآن أوسع من مادّة الإعتقاد البشريّ ، إنّ كلّ شيئٍ يخشع أمامهُ ، حتى الجنّ إذا سمعت قرآنَ ربِّها يُتلى خشعت .. يقول اللهُ تعالى :

- ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) الأحقاف .

في هذا القرآن الكثير من الآياتِ التي تأخذ بعميقِ ما في صدورنا ، هو ذاتُه القرآن الذي عكف أمامه الكثير من مفكّرين ومحلّلين وكتّاب ليعلنوا إسلامَهم واعتقادهم بما فيه .. في هذا الكتاب أمثلة تطير بنا إلى الأفقِ البعيدةِ ، إلى ذواتِنا المغمورة ، إلى أعالي الوجود وأسرارِ النُظُمِ وعرشِ المعاجزِ .. يقول اللهُ تعالى :

- (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) الزمر .

- (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا(٥٤) الكهف .

- (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا(٨٩) الإسراء .

هو الكتابُ الذي يصفّهُ اللهُ شاهداً وخصماً بيّناً يومَ القيامةِ على البشريّةِ في طولِ وجودِهِ وإعجازِهِ وحججِهِ .. هنالك يندم المبطلون ، حيث كلّ شيئٍ معقودٌ في ناصيته .. يقول اللهُ تعالى :

- (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْءَانِ ، وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ ، يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) سورة سبأ

هذا القرآن هو نفع الأمّة كلّها بنوعِها البشريّ ، هو شرط التكاملِ في طولِ مسيرةِ الوجودِ ، هو قنديل كشفِ الظلامِ بكلّ ما تعنيهِ عبارةُ النّور من

إتساعٍ وعظمة .. وعلى القاعدة ، فإنّ من يهتدي إنّما يركب سرج الوجودِ ويقبض على ناصيتهِ .. يقول اللهُ تعالى :

- (.. وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْءَانَ ، فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ(٩٢) النمل

هو ذاته الكتاب الذي عرضهُ النبيّ محمّد على النصارى واليهود والمشركين والملحدين والزنادقة بكلّ آياتهِ فآمن كثير منهم ، وكفر كثير ، وما كفر هؤلاءِ إلا نزولاً تحت وطئة شهوةِ الإنكارِ من دون بيّنةٍ أو برهان وقد قال اللهُ تعالى :

- (إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) النمل .

وفي حقّ مرجعيّةِ هذا الكتاب وصاحبِهِ يقول اللهُ تعالى :

- (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ(٦) سورة النمل .

إنّه الكتابُ الذي لن تستطيع البشريّة الإتيان بسورةٍ واحدةٍ مثلهُ ، ولو كان بعضُها لبعضٍ ظهيراً ، وكيف يكون ذلك وهو الكتابُ النازلُ إلينا من اللهِ تعالى .. ها هو القرآن منذ الزمنِ الأوّلِ ينادي الأمم بكلّ عناوينها وألوانِها ولغاتِها وثقافاتِها ومسيرتِها العلميّة أن تأتي بمثلهِ من سورةٍ .. يقول اللهُ تعالى :

- (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(٨٨) الإسراء .

- ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(٢٤) البقرة .

إنّه الكتابُ الأعظم ، الذي يحتضن كلّ معاني الرحمةِ والقداسة والطهارةِ وقيم الوجود .. يقول اللهُ تعالى :

- ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا(٨٢) الإسراء .

إنّه الكتاب النازلُ إلينا من اللهِ ليخرجنا من الظلماتِ إلى النّور ، من بؤسِ القصورِ إلى عظمةِ المعرفةِ وأفقِ الوجود .. يقول اللهُ تعالى :

- ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٣٧) يونس .

إنّه الكتاب الذي شهد له الأفق وكلّ مخلوق حيّ ، شهدت له سماء الكونِ وبطن الأرض ، شهدت له أنفسنا ، ذواتُنا ، شهدت له مجموعة المعطيات الهائلة التي طابقت متن القرآنِ بمقاييس مذهلة .. ويكفي فيهِ أنّه شهادةُ اللهِ تعالى حيث يقول اللهُ تعالى :

- ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ،
- قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ،

- وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ،
- أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَى ،
- قُلْ لَا أَشْهَدُ ،
- قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ،
- وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ(١٩) سورة الأنعام .

إنّه الكتاب الأعظم الذي خشع كلُّ شيئٍ له ، بل شهد كلّ شيئٍ له ، من كونٍ ووجودٍ واسرار ومعجزات ، ويكفي فيهِ أنّ بطن ومتن التوراةِ والإنجيل ما زال يسجّل مجموعة من معانٍ ونصوص مذهلة تشهد للنبيّ الذي يحمل هذهِ المشكاة النورانيّة العظمى .. حيث القرآن يحتضن شرف الوجودِ بكلّ ما يتّصل بتكامل البشريّة على طولِ مسيرتِها .. وسنرى المزيد من الإعجاز المدهش في الفصل الأخير من مناقشة بعض الآيات الكونيّة والإشارة إلى المعطيات العلميّة بحيث يبدو القرآن الكريم كتاباً لا يمكن أن يقرب منه كتابٌ على الإطلاق حيث العظمة تنكمش بين يديهِ لتشهد بعظمةِ المُرسِلِ والمُرسَلِ والرسالة ..

معطيات العلم الحديث والقرآن الكريم

منذ اليوم الأوّل لبعثةِ رسولِ اللهِ محمّد (ص) طُرِحَ سؤال ضروريّ :
ماذا عن دليلِ الصدقِ في ادّعاءِ النبوّة .. ؟

وبطبيعة الحال كان مركوزاً في ذهنِ العامّةِ والخاصّةِ أنّ على كلّ من يدّعي السفارةَ عن اللهِ أن يثبت ذلك .. مع الإشارة إلى أنّ ظاهرةَ النبوّةِ كانت موجودةً وراسخةً في الذهنِ البشري ، على طولِ المسيرةِ الواسعةِ منذ الزمنِ الأوّل .. ومن نماذج تلك الشرائح نموذج العرب حيث عكفت أمام الأصنامِ مثل اللات والعزّى ومناة وغيرها وأصرَّت على أنّ لهذهِ الأصنام واسطة في العبورِ إلى اللهِ ، وفق معنى هابط جدًّا عن اللهِ وصفاته في طولِ سلسلةٍ مختلفة من الإعتقاد ، على قاعدة أنها تقرِّبهم إلى اللهِ زلفى في ظلّ مفهومٍ سخيفٍ فضلاً عن الإختلاف الفكري التفسيري للوجود ، إلى درجة أنّهم كانوا يصرّون على أنّ العقيدة التي ينتمون إليها هي حصراً التفسير الواقعي للوجود البشري ومسيرتهِ رغم سقوطِها وركاكتِها وتعاستِها .. من هنا فإنّهم كانوا يؤمنون بشكلٍ نهائيٍّ بأنّ الدنيا هي محطّة وجوديّة ، وكلّ الذي بعدها منعدم ، لا قيامة ، لا خلق جديد ، لا إمكانيّة

للتكوين من جديد على قاعدة : (وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) .. من هنا كان لا بدّ من التعامل مع الذهن العربي بشيئ من الإقناع العلمي أكثر من غيرِهم ، فاليهود والنصارى كانوا قد عاشوا فترة النبوّةِ بخلافِ الوثنيّة .. ولأنّ القرآن الكريم وثيقة وجوديّة أوسع من المنطقةِ والكيان ، وهو متّصل أشدَّ اتصالٍ بالأمّةِ البشريّة على طولِ سلسلةِ تكاثرها ووجودِها إلى نهايةِ يومِها الدنيويّ ، من هنا كان لا بدَّ من أن يتضمن منطق الوجوديّة مجموعة واسعة من توثيقاتِهِ الإعجازيّة التي يُحتجُّ بها على العربيّ الأولِ العاكفِ أمام الصنم كما يحتجُّ بها على الكائن البشريّ الذي يعتمد الإنترنت ويسبح في الفضاء ويغوص في أعماق الجينات البشريّة والبروتينات ويعيش في عصر الإستنساخ والكيمياء الكميّة وعالم التحليل العضوي وثورة الفيزياء الكبرى والتأمُّل التجاوزي وغير ذلك ، حيث الإنسان وصل إلى مراحل متقدّمة جدّاً في معرفة الناموسِ والأنظمة وشبه ذلك .. وباختصار ، لا بدَّ في إثبات النبوّة عبر الرسالةِ أن يكون الإثباتُ على مستوى إعجازي مستمرّ على طولِ زمنِ البشرِ إلى يومِ الخليقةِ الأخير ما دام أنّ الخطاب الرساليّ موجّه إلى كلِ الأممِ دون قيدٍ من زمانٍ أو مكان .. وقبل أن ندخل بالتفصيل في هذا العنوان أحبُّ أن أشير إلى أنّ بعثة النبيّ محمّد (ص) من قبلِ اللهِ تعالى تجلّت في تبليغ الرسالة على النّاس بثلاثة عناوين :

١. الدعوة الخاصّة وبقيت ثلاث سنوات ضمن دائرة ضيّقة .. (ومع هذهِ الدعوة كان القرآنُ يؤكّد على عالمية الرسالة ..)

٢. الدعوة إلى قريش (ومع هذهِ أيضاً كان القرآنُ الكريم يؤكّد على عالمية الرسالة ..)

٣. الدعوة إلى الأمّة البشريّة ، دون فرق بين فارسيّ أو رومانيّ أو حبشيّ ، أو عربيّ .. وبصورةٍ مطلقة دخل النبيّ محمّد مرحلة إعلان تطبيقيّ للدعوة على المستوى العالمي .. مع التأكيد على أنّ الخطاب الأوّليّ للرسالةِ ومنذ اليومِ الأوّل أعلن الإسلام عالميًّا أبديًّا لكلّ البشرِ على الإطلاق ، أمّا المراحل فكان عنوانها محكوماً بالظروف المانعة ..

ومنذ اليومِ الأوّلِ علمت قريش على إبطال دعوة النبيّ من خلالِ طريقتين :

١. الإسقاط الفكري لما جاء بهِ رسولُ الله ، ومن أمثلةِ هذا العنوان إتّهام قريش للنبيّ بأنّه ساحر ومجنون وغير ذلك من العناوين المتّصلة بالإطار الفكري الذي يمثّل ركن الدعوة في أيّ نبوّة .. وكأنّ قريشاً كان تقول ما دام أنّ محمّداً مجنون فمن السوء أن تأخذ عنه العرب أيّ شيئ .. وحين فشلت قريش بذلك أشاعت أنّ النبي ساحر مشعوذ ، وذلك بهدف إبطال دعوتهِ ، وإقناع النّاس بأنّ ما يرونَه سليماً إنّما هو في الواقعِ سقيم ، لكن لا يشعرون ، لأنّ محمّداً يتّبع اساليب شعوذة وطرق سحريّة وشبه ذلك .. وقد فشلت قريش بذلك فشلاً ذريعاً ..

٢. سياسة الموانع من إنتشار الدعوة ، والعمل على إجتثاثِها ، ومن أمثلتِها مقاطعة قريش لبني هاشم في البيع والشراء والزواج وغير ذلك من أمور السوق والجهات الإجتماعيّة إلى درجة إحكام الحصار على النبيّ وبني هاشم في شُعب أبي طالب لمدّة ثلاث سنوات ، هذا فضلاً عن محاولة

قتل النبيّ في بيتهِ حين جمعت أربعين فارساً من قبائل قريش ليتفرّق دم النبيّ بينها .. منها أيضاً محاولاتِها المتكرّرة على النبيّ أن يترك الدعوة إلى دينِ اللهِ على أن تعطيهِ مالاً وجاهاً وسيادةً وشبه ذلك .. وصولاً إلى محاربتِهِ بالسيف ، عبر مجموعة واسعة من المعاركِ والوقائع ، والتي من أشهرها بدر وأحد والأحزاب ..

أمّا لماذا كلُّ هذا .. ؟

الجواب : لأنّ قريشاً لم تقبل نهائيّاً الخروج على دينِ آبائها ، وظلّت مصرّةً على أنّه الدين الوحيد والتراث العقائدي الذي لا بدَّ له أن يحكم فكر المنطقة تلك من دون أن يمتد ذلك إلى ما عليهِ اليهود أو تلك القلّة من النصارى حيث ما كان عليهِ اليهود والنصارى لم يكن له أثر منفلش في جسم الوثنيين .. أي لم يرهُ الوثنيّون مهدِّداً لما هم عليهِ من دينٍ ، بخلافِ دينِ رسولِ اللهِ محمّد الذي هزَّ كيان قريش والعالم في ذلك الزمن ، إلى درجة أنَّ النجاشي ملك الحبشة حين سمع شيئاً من القرآنِ بكى وآمن .. والذي يهمّنا هنا هو الإطار الإعجازي الذي تعتمدهُ النبوّة كدليل مثبت لسفارتِها عن اللهِ تعالى .. وهذا ما صدع به النبيّ محمّد (ص) في أكثر من جهةٍ وبيان .. والذي أحبّ أن أشير إليهِ هنا هو أنَّ طلب إثباتِ النبوّة مرَّ بمرحلتين :

الأولى : مرحلة إعلان محمّد بن عبد اللهِ أنّه نبيّ مرسلٌ من عندِ اللهِ تعالى وطوال فترة وجودهِ في مكّة ، إلى ما قبل تأسيس الدولة الإسلاميّة في المدينة المنوّرة .

الثانية : مرحلة تأسيس الدولة وما بعدها ..

بطبيعة الحال كان هناك أكثر من عنوان مختلف لبيانِ دليلِ النبوّةِ ، نظراً إلى اختلافِ المُتَلقّي أو المراد إثبات النبوّة في حقّه ، فهناك اليهوديّ والنصرانيّ والعربيّ الوثنيّ وغيره ، ولقد حدّثنا التاريخ أنَّ النبيّ كان يدلي بنوعين من الإثباتات :

١. إثبات خاصّ بفئةٍ ما ، كما هي الحال مع اليهودِ والنصارى أو ما هو متّصل بأحوالِ الوثنيّة وشبه ذلك ، ومع كلّ إختلافٍ عقائديّ كان يختلف الدليل والمصدر ، من التوراةِ إلى الإنجيلِ إلى غيرهِ من الأدلّة والعناوين ..

٢. إثبات عام ، وهذا يسري على الجميع على الإطلاق دون أيِّ تفريق لأنّ صيغة الخصوصيّة لم تكن مأخوذةً فيهِ ..

وحتى لا تفوتنا الفكرةُ أحبّ أن أشير إلى أنَّ الحجج التي تثبت نبوّة محمّدٍ اليوم بين أيدينا هي على قسميها أيضاً ، بكلّ ما تعنيهِ من معنى راسخٍ وحجّةٍ تامّة وهذا ما سنراهُ هنا في فصلين مستقلين ..

تاريخيّاً : منذ اليوم الذي أعلنُ فيهِ رسولُ الله محمّد أنّه نبيّ مرسلٌ من عندِ اللهِ تعالى أدلى بمجموعةٍ واسعةٍ من الحججِ ، وقد كان على رأسِ تلك الحججِ القرآن الكريم .. ولقد كان القرآن الكريم الوثيقة التي يحيل النبيّ إليها كلّ مَن يطلب دليلاً على أنّه نبيّ من اللهِ تعالى ، نعم هذا لم يكن يمنع النبيّ من أن

يجيب بمجموعة إعجازيّة منها مجموعة من معارف غيبيّة تتّصل بالأحداث ، كما هي الحالُ يوم غُلبت الروم ليؤكّد انّها ستَغْلِب الفرس بعد ذلك ببضع سنين أو كتلك التي كان يدلي بها على اليهود والنصارى ممّا هو موجود في كتبهم لتكون حجّةً عليهم ، أو كتلك التي تتعلّق بتطويع الناموس والنظام الطبيعيّ .. وما تجدرُ الإشارةُ له هو أنّ معجزةَ النبيّ كانت على شقّين : سلوكيّة ، ورساليّة . أمّا السلوكيّة فكانت تلك المتّصلة بالعناوين الخارجة عن الناموس الطبيعي والتي تحتاج إلى إعجازٍ ما حتى تتمّ ، وهذهِ كانت من العلامات التي يبعثُ اللهُ فيها النبيين على طولِ مسيرةِ البعثةِ النبويّةِ .. وقد حوت الكتبُ التي تحكي هذهِ المعجزات الكثير منها .. لكن كما تعلم ، فإنّ تلك المعجزة لها آن محدّد ، تنتهي معه ، فكان لا بدَّ أن تتجلّى المعجزةُ بشكلِها الأكبر بالقرآنِ الكريم ، ليبقى مدى الدهر ، وليكون خطاباً مستمرّاً ما استمرَّ الإنسان ، لأنّ الرسالة عالميّة وأبديّة .. وهذا ما حصل ، وهذا ما أريد أن أخوض بهِ لضرورتِهِ ..

تاريخيًّاً أثبتت كلّ كتبِ التاريخِ أنّ القرآنَ الكريم كان المحور الساخن جدّاً في أزمة قريش ، إلى درجة منعت فيهِ قريش من سماع القرآنِ الكريم ، وحين فشلت في ذلك سلّطت كلّ قوّتِها لإبطالِهِ في ظلّ صوتِ النبيّ المنقولِ على الألسنِ أنّ قريشاً وكلّ البشريّة لا تقدر على ذلك ، وهو بذلك يتلو قول اللهِ تعالى : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(٨٨) [1]

أمّا لماذا القرآن ..؟

---

[1] سورة الإسراء .

الجواب : لأنّه احتوى على مجموعة من معارف وجوديّة تتّصل بالمسيرة البشريّة ، بالله ، بالقيامةِ ، بإمكانِ الخلق ، بعللِ الخلق ، بحكمةِ الخلق ، بالوجوديّة العاقلة ، بشجرة الحقوق البشريّة ذات البعد الكوني بمعطياتٍ مذهلةٍ تسير مع الزمنِ .. مضافاً إليها عرض مشهد هائل من مجموعة عناوين وجوديّة تتّخذ من البُنى الكونيّة الطبيعيّة ركيزةً لها في بيان النتائج المتّصلة بمسيرة البشريّة من مثل إعتماد عناوين كبرى كإشاراتٍ إعجازيّة مثل سرد قوانين خفيّة تتّصل بخلق السموات والأرض وخلق الإنسان ومجموعة دقيقة من المخلوقاتِ الأخرى ، إضافة إلى بيان قوانين كونيّة هي في غاية الدقّة والإتزان ، للدلالةِ على الخالقِ ورسالتهِ ومقامِ النبوّة وما سيكون عليهِ الخلقُ من بعدِ الموتِ في يومِ المعاد .. ولا ينكر أحد على الإطلاق أنّ هذهِ العناوين كانت ثورة الثورة ، كانت العمق الذي فجّرَ النقاش في ذلك المجتمع الذي مزّقه السكون والصمت فابتعد عن روحِ الحكمة ، فهو متروك من حبائلِ المسيرة المتكاملة ، في قاموسهِ : لا معنى للحياة بعد الموت .. مجتمع كان يعيش على ثقافة عبادة الحجرِ الأصمّ ، كان من البديهيّ جدّاً أن ينذهل أمام خطاب وجوديّ كونيّ تشريعيّ مختلف كلّ الإختلافِ عمّا بين يديهِ ..

حتى اليهوديّة والمسيحيّة صُدمت من جراء ما جاءَ بهِ النبيّ محمَّد من قيم ومفاهيم ذات بُعد وجودي وتاريخيّ ، فكان لا بدَّ من التحقّق والتبيّن ممّا جاء بهِ هذا النبيّ ، وعلى أثر هذا التحقّق بدأت ظاهرة الدخول في الإسلام بشكلٍ مدهش .. هنا عملت قريش على منع الدخول بالإسلام ، وأعلنت الإسلام منطقة محظورةً تحت طائلة الموت ، فعذّبت وقتلت وكان باكورة من قتلت ياسر

وسميّة ، وكان من نماذج أولئك الذين تعذّبوا عمّار وياسر وبلال الحبشي وغيرهم كثير ، ما اضطر المسلمين الهجرة إلى الحبشة ، وبعد ذلك الهجرة إلى المدينة .. وعلى خطٍّ موازنٍ لمشروعٍ منعِ انتشارِ الإسلام عملت قريش على محاولة إبطال البُنية الفكريّة للقرآن من خلال إعتمادِها على شهاداتٍ شهيرةٍ لمراجع المصدر الأدبي البلاغي ومداليلِهِ .. لكنّ القرآن أوسع من ذلك وأكبر ، إنّه كتاب كونيّ وجوديّ فيهِ من المعاني المذهل ، ولا يمكن لأيّ كائنٍ أن يقف في وجهِهِ ، وهذا ما حصل ، حيث سجّل التاريخُ واحدةً من أهمِّ الشهاداتِ في ذلك الزمن في أكثر من موقعةٍ وعنوان .. ومن تلك الوقائع ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقعد في الحجر ويقرأ القرآن فاجتمعت قريش إلى الوليد بن المغيرة فقالوا : يا أبا عبد شمس ما هذا الذي يقول محمد ..؟ أشعر هو أم كهانة أم خطب ..؟ فقال دعوني أسمع كلامه . فدنا من رسول الله (ص) فقال : يا محمد أنشدني من شعرك . فقال (ص) : ما هو شعر ، ولكنه كلام الله تعالى الذي ارتضاه لملائكته وأنبيائه ورسله . فقال : اتل عليَّ منه شيئا ..! فقرأ عليه رسول الله (ص) من سورة فصّلت ، فقال : بسم اللهِ الرحمن الرحيم :

- حم(١)
- تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٢)
- كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣)
- بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(٤)
- وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ(٥)

- قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ(٦)

- الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(٧)

- إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(٨)

- قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٩)

- وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ(١٠)

- ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ(١١)

- فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(١٢)

- فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ(١٣)

فلما بلغ النبيّ إلى هذهِ الآية اقشعر الوليد ، وبدا عليه الإعجابُ والذهول ممّا سمع .. فقام من عندِ النبيّ قاصداً بيتَهُ ، ولم يرجع إلى قريش ، فمشوا إلى أبي جهل فقالوا : يا أبا الحكم إنَّ أبا عبد شمس صبا (أي مال) إلى دين محمد ، أما تراه لم يرجع إلينا ، فغدا أبو جهل إلى الوليد فقال : يا عمّ نكّست رؤوسنا ، وفضحتنا ، واشمتَّ بنا عدونا ، وصبوتَ إلى دين محمد ..!

فقال الوليد : ما صبوتُ إلى دينه ، ولكني سمعت كلاماً صعباً تقشعر منه الجلود .. فقال له أبو جهل : أَخُطَبٌ هو ..؟ قال : لا . إنَّ الخطبَ كلامٌ

متّصل وهذا كلام منثور ولا يشبه بعضُه بعضاً . قال أبو جهلٍ : أفشعرٌ هو ..؟ قال الوليد : لا . أما إني لقد سمعت أشعار العرب ، بسيطها ومديدها ، ورملها ورجزها ، وما هو بشعر .. فقال له أبو جهل : ما هو ..! قال لا أدري .. فقال له أبو جهل : يا عمّ إنّ قومك يريدون أن يجعلوا لك مالاً ليعطوه لك ، فإنك أتيت محمداً لتصيب مما عنده . قال : قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً . فقال أبو جهل : إذاً ، قُل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكرٌ أو أنك كاره له (حسب اختلاف المصدر) فقال : وماذا أقول فيه ، فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ، لا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجنّ .. والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا .. ووالله إنّ لقوله الذي يقوله حلاوة ، وإنّ عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، ومغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يُعلى ، وإنه ليحطم ما تحته .. صُدِمَ أبو جهل من قولِه هذا ، فقال له : إذاً ، لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ، عندها قال : دعني حتى أفكر ، فلما فكر قال : ما هو إلا سحر يُؤثر ، يأثُره عن غيره .. (أيّ عظمةٍ هذه ، وأيّ شهادةٍ هذه من حَكَمِ الشعرِ ومصدرِ الفصلِ عند العربِ ، حتى في ذيلِ كلامِه ، يصرُّ على أنّ هذا المنطقِ فوق قدرة البشر ، وما أشارَ إليه في ذيل الكلام ، من أنّه يُؤثر دليل إضافي على رفعةِ هذا القرآنِ العظيم .. لا شكَّ أنّ مصدرهُ اللهُ تعالى .. لا يجادلُ أحد على الإطلاق في أنّ ما جاءَ به رسولُ اللهِ محمّد استطاع أن يهزّ أعماق قريش ، بكلّ ما كان فيها من عقيدةٍ وثنيّة فضلاً عن اليهودِ والنصارى ..) .

وحتى لا نستغرق كثيراً في ذلك المعترك أحبّ أن أشير إلى أنّ العنوان الأهمّ والأصعب كان في الحجّة التي يجب أن يخاطب بها القرآن الأمم القادمة ،

إلا أنّ هذا ليس بصعب أبداً على اللهِ تعالى وهو على كلّ شيءٍ قدير .. من هنا فإني سأتعرّض لمجموعة من الآياتِ القرآنيّةِ وبشكلٍ مقتضبٍ ، لترى مدى الإعجاز الذي حشّده اللهُ في هذا القرآن .. وبطبيعة الحال سيكون تركيزي على الآياتِ الطبيعيّة الكونيّة الواردة في هذا القرآن ، لإثبات مدى العظمة والإعجاز الذي احتضنه القرآن على طولِ الزمنِ إلى يومنا هذا ..

القرآن ونشأة الكون

في موضوع الكون هناك مجموعة جوانب تحدّث عنها القرآن ، وما يهمّني هنا هو الحديثُ عن مضمون بعض آيات تتحدّث عن الرتق والفتق للكون وشبه ذلك (بداية التشكُّل الكوني) .. وقبل ذلك لا بدَّ من الإشارةِ إلى أنَّ فكرةَ الخلقِ والتكوين أو المادّة التي يتكوّن منها الخلق لم تكن معروفة على الإطلاق زمنَ النبيّ (ص) بل لم يكن العالمُ يعلم شيئاً عن طبيعة المادّة والنشوء الكوني .. نعم كان هناك مجموعة كبرى من الخرافات والأساطير حول هذه العناوين .. من هنا كان إطلاق العنان في مثلِ هذهِ المواضيع بالنسبةِ إلى أزماننا هذهِ خطورة بالغة إلى درجة أنّه لم تثبت نظريّة فيما خصّ هذهِ المواضيع إلا وأبطلها العلم الحديث بعد أن وصلت التقنيّة إلى مستوىً عالٍ من الدقّةِ .. هنا تكمنُ أهميّة ما جاء في القرآنِ الكريم بشكلٍ مذهل .. ففي هذا المضمون يقول الله تعالى :

- (.. أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ، فَفَتَقْنَاهُمَا ، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ(٣٠) [١]

---

[١] سورة الأنبياء .

وفي سورةٍ أخرى قال تعالى :

- (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ، فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ(١١)[1]

في هاتين الآيتين يشير القرآن إلى مجموعة من معانٍ أساسيّة ذات صلة بالنشأةِ الكونيّةِ ، وهذا كما ترى ، عنوان أساسي ومركزي .. وإليك التفصيل التالي :

١. في الآيةِ الثانيةِ يشير القرآنُ الكريم إلى وجود " كتلة غازيّة " ذات جزئيّات ، وهذا واضح ، ويستفاد من كلمة دخان ، وفي العادةِ يتكوّن الدخان من قوامٍ غازيٍّ ، حيث تتعلّق به بشكلٍ أكثر أو أقلّ ثبوتاً جزئيّات دقيقة مختلفة في إنتمائها ، فقد تكون من مواد صلبة ، كما قد تكون من مواد سائلة مع درجة حرارة قد تقلّ أو تكثر ..

٢. الآيةِ الأولى تشير إلى أنَّ عمليّة " الفتق الكتلويّ " كانت بعد " الرتق " وعليهِ : تمَّ سبب موجب لفتقِ تلك الكتلةِ الفريدة التي كانت عناصرها في البداية ملتحمة . الفتق يعني القطع أو فكّ اللحام أو الفصل ، وهو بطبيعة الحال يعني إدخال فارق على الكتلة الواحدة عبر الفصل .. أمَّا الرتق فهو يعني الكتلة غير المنفصلة ، كما هي تعني وحدة النوعيّة الملتحمة ، واتّحاد العناصر في ظلّ كتلةٍ كليّة واحدة ..

---

[1] سورة فصّلت

٣. تركّز الآيتانِ على نحوٍ محددٍ من الأحداثِ ، وفق صورتين : مشهد الأولى كتلويّ ، والثاني تعدّدي ..

٤. سنرى فيما بعد ، مشهد إضافيّ متّصل بالنشأة والتشكّل الكوني ، وهو عبارة عن إضافاتٍ مدهشةٍ حول الإنفلاش النوعي للكون ، وهذا يدلّ على انّ عوامل الدفع تتّصل بسببيّة الفتق ، الذي ما زال يحكمُ قبضتَهُ وفق مجموعة دفعيّة متوازنة جدًّا ..

وعبر هاتين الآيتين القرآنيّتين ، يظهر المشهد الكوني الأوّل على الشكل التالي :

أ. وحدةٌ كتلويّةٌ غازيّة .. وهذا كما ترى كلام مذهل ودقيق ومتناهٍ في الدقّة .. وفيه كلّ الخطورة لغيرِ المتّصلِ بأسبابِ السماء ..

ب. هذه الوحدة ذات نموذج إتصالي ملتحم ، متضامن ويشكّل وحدة كليّة .

ت. تخضع هذهِ الوحدة الكتلويّة الغازيّة لسببٍ ما يؤثّر على وحدتِها واتّصالِها ، فتتحول من صفةِ الإلتحامِ والرتق إلى صفةِ الانفصال والفتق .. ومن يعرف دقّة هذين المعنيين في اللغةِ العربيّة يدلك عمق المعنى المراد والمستعمل في الآية القرآنيّة ..

وعليهِ : إنَّ ما نقرأهُ هنا مذهل بكلِّ المقاييس ..! مدهش للغاية أن نقرأ مثل هذهِ المعاني في القرآن الكريم الذي جاء بهِ رسولُ اللهِ محمّد منذ أكثر من ١٤٠٠ عام ..! وهذهِ المعاني تعتبر اليوم صلب النظريّات العلميّة بل عمادها لتفسير نشأة الكون .. لا شكَّ أنَّ الحديث عن المادّة ، عن الرتق والفتق ، دقيق ومتناهٍ في الإشارةِ والبيان ، في ظلِّ زمنٍ لم يكن لمثلِ هذهِ المعاني أيّ نقل أو إشارةٍ أو صورة .. بل لم تكن النظريّات تنظر إلى مثلِ هذهِ المفاهيم بشكلٍ مباشر بل حتى أسطوريّ .. وكلّ النظريّات التي تحدّثت على طولِ الشوط المعرفيّ عن مثلِ هذهِ العناوين إلى ما قبل الإكتشافات الحقيقيّة كانت على خلاف كبيرٍ لما يشير إليهِ القرآن تماماً .. وهذا خطير بالمعنى المعرفي البيئي آنذاك ، لكنّه مذهل أمام عين الحقيقة ومعانيها ..

هنا ألا يحقّ لنا هنا أن نسأل بشكلٍ بسيط :

مَن هو مصدر هذهِ الآياتِ ذات الأسرار الكونيّة المذهلة ..؟ ألم نتعلّم اليوم وما زلنا نتعلّم النظرية الثابتة التي تقول بأنّ أصل الكون كان على شكل كتلة غازيّة ، وأنّ هذهِ الكتلة كانت تشكّل وحدة نوعيّة متّصلة ببعضِها البعض وملتحمة ، تعرّضت فيما بعد لسببٍ ما ، أدّى إلى انفصالها وتعدّدها ، وها هو الكون ما زال ينفلش تحت وطأة الإنفجار العظيم بشكلٍ نوعي .. وقد اطلقت النظريّات العلميّةُ على الإنفتاقِ هذا إسم الإنفجار العظيم .. هل في كلِّ هذا الإنطباق سرّ ..؟ إنَّ البشريّة لم تصل إلى هذهِ الإجابة إلا زمن الفتوحات العلميّة وتطوّر أدوات المعرفة وتقنيّة الكشف ، وذلك بعد طول قرون وعناء وتراكم معرفي .. إذن ، أليس من الإعجازِ المذهلِ أن يحتضن القرآنُ الكريمُ مثل هذهِ

الإشارةِ الصريحةِ والمتناهيةِ الدقّة ..! بطبيعة الحال الجواب برسم كلّ عاقلٍ ، بل تكفي آية واحدة لرفع القرآن كتاباً إعجازيًّا على نحوٍ لا يدانيهِ معهُ أيُّ كتاب ..

✡ ✡ ✡

وعلى الخطّ الآخر من الصلةِ الكونيّة التي استوعبت الكثير من الإعجاز الناطقِ بشكلٍ مستمرٍّ مع رحلة الجماعة البشريّة على طولِ حضارتِها الإكتشافيّة يقول اللهُ تعالى :

- (.. وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) [١]

- (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(١٢) [٢]

- (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ(٣) [٣]

- (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٩) [٤]

---

[١] سورة المؤمنون .

[٢] سورة فصّلت .

[٣] سورة :الملك ..

[٤] سورة البقرة .

في هذه الآيات القرآنيّة مجموعة من عناوين هي في غاية الدقّة والإعجاز وهي تؤكّد على الأمورِ التالية :

١. تعدّد السموات (بطاقة التعريف السماوي كما أشرت إليهِ أعلاه كانت واحدة من الأسرارِ التي كشف عنها القرآن ..)

٢. تعدّد الكواكب (وسنرى فيما بعد مجموعة من الآياتِ التي تتحدّث عن الكواكب بمجموعةٍ من الألغازِ والأسرار التي لم يتيسّر للعلمِ أن يكشف عنها إلا حديثاً ..) .

٣. وفي بعضِها إشارة إلى وجود كواكب مشابهة للأرضِ .. والمثير هو ما تم الكشف عنهُ في منتصف العام ٢٠٠٢ من تحقّق أولى معالم نظريّة مفادها إمكانيّة وجود نظام شمسي كنظامِنا هذا .. وقد أذيع هذا الكشف الذي عُبّر عنهُ بالمهمّ على شاشة التلفزةِ تحت عنوان كشف توأمي لنظامنا الشمسي .. وذلك ليكون معبراً آخر إلى معنى هائل مما ورد في متنِ هذا القرآنِ العظيم .. وما يثير الإنتباه هو أنّ علماء الفلك ومنذ زمنٍ يصرّحون بإمكان وجود كواكب أخرى تشبه الأرض في الكون ..

٤. ورد في بعضِ الآياتِ تعبير هو في منتهى الدقّة حول التعدّدِ السماوي والتعدّد الطبقي للأرض فقال تعالى : (.. اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(١٢)[١] .. يكفي هنا أن أشير إلى أنّه

[١] سورة الطلاق ..

كلّ عام يحدث في العالم مليون هزّة ، يحرّكها باطن الأرض المتّقد ، ويمثّل جوف الأرض أتوناً متّقداً من الحرارةِ ، فهو عبارة عن فرنٍ هائلٍ تتراوح حرارةُ موادِهِ بين ألفين وأربعة آلاف درجة مئويّة .. وتتكوّن القشرة الأرضيّة من ألواحٍ صخريّةٍ مختلفة النوع والسمك (هي عبارة عن طبقات) يبلغ عدد ألواحها سبعة ألواح كبيرة (سبع طبقات) وهذا إشارة مدهشة لما ورد في آيةٍ واحدةٍ من القرآنِ للتعدّد الطبقيّ للأرض .. ويضافُ إلى هذهِ الطبقات السبع أربعة عشر لوحاً صغيراً .. والقشرة الأرضيّة باردة ، إلا أنّ جوفها على نحوٍ هائلٍ من الحرارة .. لذلك بقيت ألواح القشرة الأرضيّة سابحة فوق هذهِ الأجسام المائعة التي تمثّل مصدراً لطاقةٍ حبيسةٍ تنتج عنها ضغوط هائلة ويتكوّن مركز الأرض أو اللبّ في غالبهِ من الحديدِ والنيكل ، الذي تكوّن في السماءِ ونزل إلى الأرض (وهناك آية قرآنيّة تدلّ على ذلك بشكلٍ مذهلٍ ..!) وذلك عبر زخّاتٍ كبيرةٍ من النيازك التي كوّنت لبّ الأرض ، ولولا تكوّنُ لبّ الأرض من الحديدِ والنيكل لما أمكن للأرضِ الإحتفاظ بغلافِها الغازي والمائي ، ولما أمكن للكائناتِ العيش على سطحِها .. والقشرة الأرضيّة ليست متّصلة سواء في ألواحها أو في طبقاتِها ففيها العديد من الصدوع والفوالق والشروخ التي تفصل بينها والتي تشققت على مرّ الحقب والعصور الجيولوجيّة المتتالية .. وفي المعارف الفلكيّة حول التعدّد الطبقي ما يثير كلّ قارئ وخبيرٍ .. فهل ما ورد في القرآنِ مذهل وفق مقاييس العلمِ ومعطياتِهِ ..!

٥. أمَّا بالنسبة إلى الطرائق ، فتكفي الإشارة إلى أنَّ أهل العلم يقرّون بحقيقة ما يدهشهم من هذهِ الجهة ، وأنّهم ما زالوا قاصرين عن تحديد كافّة المعاني ، لكنهم يقولون الأمر دقيق جدّاً وحاسم ، ولا يمكن بحالٍ من الأحوالِ التغاضي عنه ، لأنّه واحد من الحقائق والقوانين الكونيّة ذات الأثر ..

بطبيعة الحال هذهِ إشارة كبرى إلى مضمونِ هذا القرآن العظيم بمخزونهِ المعرفيّ المذهل .. بل هذهِ الآيات بنفسها تكفي للدلالةِ على عمقِ صلةِ القرآنِ باللهِ تعالى .. الغريب أنَّ نظريّات الإنتماء المكاني والوجود البشري في طولِ طبقاتهِ الزمنيّة كان مطبقة على أنَّ الأرض نهاية البعد الوجودي بين السماء والأرض ، إلا أنَّ القرآن الكريم كان يشير إلى معانٍ مذهلة مؤكّداً أنَّ هناك السموات وهناك الأرض وهناك ما بين السمواتِ والأرض وما تحتَ الثرى .. ! فيقول تعالى :

(لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى(٦)[1]

وسنرى فيما بعد العلامات الجليّة في القرآنِ الكريم التي تشير إلى أنَّ الأرض تسبح في الفضاءِ كما هي حالةُ القمرِ وغيرهِ ، وهذا أمر كان بمثابة خيال أسطوري غير موجود في ذلك الزمن .. وهذا ممّا يجب الإلتفات إليهِ .. وبمعنى آخر ، فقد تحدّث القرآن عن حركة هي أوسع من القمرِ والكواكب ، وهي تتّصل بالكون ، (وإنّا لموسعون ..) وسنتوقّف عند هذا الأمر بشكلٍ دقيقٍ ..

---

[1] سورة طه ..

وعلى الأقلّ هنا تضمّن القرآن إشارات واضحة تؤكّد أنّ الأرض تسبح في الكونِ كما هي حالةُ القمرِ ، وأنّها تشهد حالةً من المرور والدورانِ الهائل .. ومن تلك الآياتِ التي تشير إلى حركةِ الأرض قولُهُ تعالى :

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ، وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ(٨٨) [١]

أيُّ تعبيرٍ مدهش هذا ، تعبير يشيرُ إلى أنّ الجبال تمرُّ مرَّ السحابِ من دون أن يشعر الإنسان ، تعبير يراد منه الإشارة إلى أمورٍ هي التالية :

١. تقرير أنّ الأرض التي تحتضن هذهِ الجبال هي في حركةٍ هائلة ..
٢. تقرير أنّ هذهِ الحركة مع وجودِها هي مخفيّة عن الإنسانِ في ظاهرها أو أثرها العيانيّ .. لكنّها في حقيقة النظام الكوني موجودة ومذهلة ..
٣. تقرير أنّ الأرض بما تعنيهِ هنا ، وبقرينة تكوير الليل والنهار (تدوير بعضهما على بعض .. وهي إشارة مذهلة حقّاً تشير إلى حقيقة تعدديّة المطالعِ الشمسيّة وغروباتِها) إضافة إلى سلخ الليل والنهار (وهو تعبير متمِّم في غاية الدقّة العلميّة عن نوع ما مفترض من كرويّة الأرضِ في مواجهة

---

[١] سورة النمل .

الشمس) إضافة إلى ما عرضهُ اللهُ تعالى من مشهديّ وحدة النوع في الشرقِ والغروب من جهة ، وتعدديّة المطالعِ والمغارب .. بحيث يضع اللهُ بين ايدينا صورة عن كوكبٍ سابحٍ كما في بعضِ الآياتِ الأخرى أيضاً ، هذا الكوكب متحرِّك يدور في مواجهة قرص الشمس فينتج عن ذلك التكوير لليل والنهار والسلخ أيضاً ، فضلاً عن وحدة نوعيّة للمشرقِ والمغرب ، وتعدديّة مشرقيّة ومغربيّة للمطالعِ وغروباتها .. فأيّ عظمةٍ بعد هذا !..

وقد قال اللهُ تعالى (قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ(٢٦) .. إشارة إلى عظيمِ هذهِ الآياتِ الكبرى التي تدهشُ أيَّ قارئٍ وتأخذُ بنياطِ قلبهِ .. لحقيقة ما تحتوي عليهِ من أسرارٍ وخفيّاتٍ تنبأ بصلةِ هذا القرآنِ فقط بربِّهِ باعثِ رسولِهِ الكريم محمّد ..

يقول اللهُ تعالى : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا(٨٢) دليل على مكنونِ هذا الكتاب ، المعدِّ لإخراجِ البشريّة من ظلمةِ حيرةِ الدنيا وقصورِ الإمكانِ في مفاصلِ عقولها إلى عظيمِ الأرجاء ومفاتيح ما بعد الأرضِ والحياة الدنيا عبر الرسل والنبيين .. يشير إلى أبناء هذهِ الحضارة البشريّة أن يتدبَّروا قراءة هذا الكتاب العظيم ، ليدركوا حقيقة ما فيهِ من عظيمٍ مذهلٍ وكريمٍ مدهشٍ وسرٍّ معجزٍ .. هذا القرآن الذي تخشعُ له صفحات الوجود ، وفي كلِ آيةٍ دليل على ربّانيتهِ ، وهو الذي فيهِ ما

فيهِ من مكنونِ أسرارِ السمواتِ والأرض ، حتى أنَّ الجبال لو صافتحهُ لتصدّعت من خشيتِهِ ..

يقول اللهُ تعالى : (لو أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .. كيف لا يكون كذلك والسموات مطويّات بيمين الله خالق كلّ شيئ ..

يقول اللهُ تعالى : (اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) أيُّ عاقلٍ يمكنهُ أن يردَّ الخلقَ هذا بكلِّ أسرارِهِ ، أو عظيمِ ما ورد من عناوين مذهلة في متنِ هذا القرآن إلى غيرِ الله تعالى .. هي هي كلُّ عناوين الوجود تشهد بصلتِها الوجوديّة وافتقارِها إلى الله ، كلُّ شيئٍ يقرُّ لعظمتِهِ ، وقد قال اللهُ سبحانَهُ وتعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) .. أيّ خَلْقٍ هذا ..؟ ولِمَن ..؟ وبمن يليق ..؟ وهل الكافرون قادرون على إبداع الخلق وإبراء النسمة وتكوين الكون من عدم ..؟ (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(٣٤) .. إذاً ، لماذا أنتم تصرفون عن عبادة الله تعالى ..؟ أيّ جرمٍ هذا .. وفي متنِ هذا القِرآن ما يدهشُ النفوس ويذهل أهلَ الحضارة البشريّة ، ويدفع العلماء إلى الخضوع المطلق في محرابِ الله ..

يقول اللهُ تعالى (.. وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ، وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ(٨٨) ، في هذهِ

الآية ما يدهشُ كلَّ عالمٍ وخبيرٍ ومطّلعٍ ، يدهشُ كلَّ من رأت عيناهُ تلك الحركة الجبّارة وموقع الأرض ومسار التكويرِ والسلخِ وتعدّد المشارقِ والمغارب .. كلُّ شيئٍ فيها مذهل ومعجز ومثير .. لم يكن على الإطلاق الذهنُ البشريّ ليصدّق هذا المعنى ، أو ليقتنع بأنّ الأرض تشهد حركةً كبرى ، حيث كلّ شيئٍ كان يبدو ثابتاً ، والتعبير عن الحركةِ مفروض فيهِ أن يكون منظوراً حتى يحكم بهِ الفردُ العاقل آنذاك ، في عالمٍ مفتقرٍ إلى التقنيّة وأدواتِها .. إلا أنَّ المعطيات العلميّة أثبتت بشكلٍ نهائيّ حركة الأرض الجبّارة ، لتنفي بذلك مجموعة النظريّات الأسطوريّة التي كانت مطبقة على جمادِ الأرضِ وانعدامِ حركتِها .. لقد احتاجت البشريّة إلى قرونٍ عديدة وإلى تقنيّة ثوريّة من أجل الوصولِ إلى هذهِ النتائج .. فهل ما قالهُ القرآن وحشَّدَ بهِ سورهُ ، دليلٌ إضافي على هذهِ الرسالة الإعجازيّة ..! كلُّ هذا بالإضافةِ إلى مجموعةٍ واسعةٍ من الآياتِ التي تحدّثت عن سلخ الليلِ والنهار وتكويرهما وما يتعلّق بالمشرقِ والمغربِ (تعدديّة المشارقِ والمغاربِ ، تعدّد المطالعِ الشمسيّة والغروب) بالإضافة إلى وحدة الجهة المشرقيّة والمغربيّة ــ وهذا ما سنراهُ فيما بعد وهو وفق كلّ المقاييس مذهل وفي منتهى الدقّة ..! ودليل كبير على عظمةِ هذا القرآن ووحدة مصدرِهِ من اللهِ تعالى ، في ظلّ مجموعةٍ محشّدةٍ من الآياتِ الكبرى لعالمِ اللهِ المذهلِ ، والتي تقصر همُ البشرِ عن طيّه أو إدراك كُنهِهِ .. وإليك بعض العناوين من زاويةِ هذا العالم الذي أشار إليهِ اللهُ تعالى :

- لقد صوّرَ اللهُ تعالى لنا الأرض ، وهي على شكلِ كوكبٍ ، يدور في وجهِ الشمس ، فيتعرّض الجزء المقابل للشمس إلى النهار ، والجزء

المقابل لليل ، فيتكوّر أي يتدوّر هذا على ذاك ، ويسلخ هذا ذاك ، في ظلّ تعبيرٍ مذهل ودقيق ، لا يمكن على الإطلاق التغاضي عنه .. إنّه يحتضن المعنى الذي توصل إليهِ العلماءُ بشكلٍ تطابقيّ هائل ..

- تجدرُ الإشارةُ إلى أنّ الأرض والكواكب التي تدور حول الشمس تكوِّنُ عالماً منظّماً دقيقاً ، تبدو أبعادهُ متناهية في الكبر بالنسبة لمقاييسنا البشريّةِ وإمكاناتِنا .. فالأرض مثلاً تبعد عن الشمس بمقدار ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ كلم تقريباً ، وهي مسافة كبيرة بالنسبة إلى الإنسان ، وهناك أكبر منها بكثير ، مثل المسافة التي تفصل الشمس عن أكثر الكواكب بُعداً منها في المجموعة الشمسيّة ، مثل كوكب بلوتون ، بحيث تقدّر هذهِ المسافة بما يساوي المسافة بين الأرض والشمس " أربعين مرّة تقريباً " أي ما يساوي ٦ مليارات كلم تقريباً ..

- إنّ ما يقارب ١٢ مليار كلم تمثّل أكبر مسافة في النظام الشمسي الذي نعرفهُ .. وعليهِ : يلزم ضوء الشمس ستّ ساعات تقريباً لكي يصل إلى كوكب بلوتون ، مع أنّ سرعة الضوء تقطع هذهِ الرحلة بسرعة كبيرة هي (٣٠٠,٠٠٠ كلم بالثانية) ..

- هناك الكثير من المسافاتِ بين الأجسامِ الكوكبيّة والنجوم وشبه ذلك لم يكوّن الإنسانُ حتى يومِنا هذا الكثير عنها ، حيث ما زالت الأدواتُ والتكنولوجيا التي يعتمدها الإنسان في هذا المجالِ قاصرة في ظلّ عالمٍ واسعٍ متوسعٍ هائل الأبعاد .. من هنا فإنّ النجوم البعيدة جدّاً

والموجودة في العالم السماوي تحتاج إلى مليارات من السنوات حتى يصل ضوءها إلينا ..

- لقد أفاد علماء الفلكِ أنَّ الشمس التي تتبعُها الأرض التي نحنُ عليها مع مجموعةٍ من الكواكبِ الأخرى المحيطة بها لا تمثل سوى رقم بسيط أمام العدد الهائل من النجوم التي تصل إلى حوالي " مائة مليار " من النجوم التي تكوّن مجموعات تسمّى بالمجرّة ..

ومع أنَّ المعرفةُ الفلكيّة لم تصل إلى حدٍّ نهائيّ أو متفوّقٍ بشكلٍ كبيرٍ وذلك بسببِ قصر الإمكانات البشريّة التقنيّة أمام الكون الواسع الأرجاء والمتناهي الأبعاد ، ومع كلّ هذا اكتشف الإنسان مجموعة مهمّة من المعارفِ المتّصلة بجانبِ الكونِ الفلكي .. ويجب أن نعلم أنّ الكون معقّد ومذهل جدّاً ، وواسع ، وهو ما زال يتّسع .. فالضوء الذي يقطع المجموعة الشمسيّة في وحدات تقريبيّة من الساعات يتطلب زمناً قد يصل إلى (٩٠,٠٠٠ سنة) حتى يصل إلى ما بين أقصى طرفيّ مجموعة النجوم الأكثر تكاثفاً التي تكوّن مجرتنا .. كما يجب أن نعلم أنَّ هذهِ المجرّة رغم إتساعِها الكبير والمذهل ، ما هي إلا عنصر صغير من السماء ، حيث توجد خارج مجرّتِنا تكتّلات ضخمة من النجومِ وهي مماثلة لها .. وفي فترةٍ ما ساعد إنجاز تلسكوب جبل ويلسون بالولايات المتّحدة في الإنفتاح بشكلٍ حسيّ على السمواتِ ليشاهد الإنسان عبرهُ مجموعة من إبداعاتٍ مذهلةٍ وخارقة .. ولقد شاهد الفلكيّون بعد التطوّارت المذهلة في التلسكوبات مجموعة من التكتّلات التي تشكّل مجرات كبيرة العدد على نحوٍ

معقدٌ ، يدلّ على أنّ الكون أوسع بكثير ممّا كان يتصوّر الإنسانُ الأول ، بل إنسانُ اليوم ..

عن هذا الكون تحدّث القرآن بشكلٍ دقيقٍ ومذهل ، في أكثر من عنوانٍ وجهةٍ وصفة .. عن الرتقِ والفتق ، والمثير أنّهُ تحدّث عن الكونِ المتوسّع ، وهذا ما سنراهُ وهذا ما تؤكّدهُ النظريّات العلميةُ بشكلٍ نهائيٍّ وبصورةٍ حيّةٍ ومذهلة .. لقد تحدّث القرآن عن الكون المتوسّع في زمنٍ لم يكن الإنسانُ فيهِ يعرفُ ماذا تعني الغيوم أو من أين جاء المطر ..! كان يظنّ أنّ الدورة المائيّة مصدرها الجنّ وشبه ذلك ..! وبعضهم ممّا اعتبر من أشهرِ العلماء في تلك الحقبات قال بأنّ الريح تحمل الماء من البحارِ والمحيطات فتلقي بها على وجهِ الأرض عن طريقِ زخّاتٍ تهبُ بها الرياح .. فهل ترى ما احتضن القرآنِ من أسرارٍ مذهلَةٍ يوجب التوقف أمامهُ بشكلٍ يدعو إلى التحقّقِ والتثبّتِ من النسبةِ إلى الله .. !

يقول العلماء حول تشكّلِ الكون :

- إنّ الكون تشكّل من كتلةٍ غازيّةٍ ، تتكوّن رئيسياً من غاز الهيدروجين وثانويّاً من غاز الهليوم بطيئ الدورة ..

- ولقد انقسم هذا السديم بعد ذلك إلى أجزاء متعدّدة ، ذات أبعاد وكِتَل ، هي من الضخامةِ بحيث يقدّرها علماء الفلك بما يزيد على الكتلة الحاليّة للشمس بمقدار يتراوح من مليار إلى ١٠٠ مليار مرّة تقريباً (وتقدّر الكتلة الحاليّة للشمس بما يزيد على كتلة الأرض بـــ ٣٠٠,٠٠٠

مرّة ..) وبذلك تعطي هذهِ الأرقام صورة تقريبيّة لضخامة جزئيّات هذهِ الكتلة الغازيّة الأوليّة التي ستولد منها المجرات ..

- ثمّ يجيئ بعد ذلك تفتّت آخر يُكوّن النجوم ..

- وعندئذ تظهر عمليّة التكثيف ، التي يدخل فيها تأثير كلّ قوى التجاذب ، وهذهِ الأجرام تتحرّك ، كما تتزايد دورهّا سرعةً ، وكذلك الضغوط والحقول المغناطيسيّة والإشعاعات ..

- وتصبح النجوم برّاقة بانكماشِها وبتحويل قوى التجاذب فيها إلى طاقةٍ حراريّة ، وتدخل بعد ذلك ردود الأفعال الحراريّة ــ النوويّة ، وبالإمتزاج تتكوّن ذرات ثقيلة من الذرات الخفيفة ، وبهذا الشكل يتحوّل الهيدروجين إلى هليوم ثمّ إلى كربون ، ثمّ إلى أوكسجين ، ثمّ في النهاية إلى الفلزات واللافلزات .. هكذا تتكوّن حياة النجوم وهكذا تولد ..

- يتّفق العلماءُ على أنّ النجوم كما تحيا وتولد فإنَها تشيخ وتهرم وتموت وقد لاحظَ العلماء أنّهُ في آخر مرحلة من تطوّر بعضِ النجومِ يحصل إنفجار من الداخلِ فتتحوّل على أثرهِ النجوم إلى جثث وحطام ..

- ورغم أيّ اختلاف في بعضِ العناوين للنظريّات المتجدّدة فأنّ عنوان الرتق والفتق القرآنيّ وما اشرنا إليهِ من الصورِ ذات البيان الكتلي وذرّاتهِ فهو العنصر المشترك لأيّ نظريّة .. وهذا دليل إضافي على عظيمِ سرِّ القرآن ، ففي العام ٢٠٠١ جاء في دراسة متجددة في تفسير نشأةِ الكون

أنّ الكون الذي نعرفه عبارة عن حشدٍ هائلٍ من الأحداث والكتل والطاقات . لكنّه لم يكن كذلك عند نشأته ، فقبل ١٤ مليار عام عندما كان عمر الكون لا يتجاوز بضع أجزاء من مليار من الثانية إعتقد العلماء أنّه كان مجرّد " حساء " من جسيمات دون ذريّة ، تغلي بحرارةٍ فائقة بالكوراكات والحساء . وفي محاولةٍ لفهم كيفيّة تحوّل هذا الحساء إلى مليارات الكتل الكونيّة التي تنتشر في فضاءٍ هائلٍ من مادّةٍ لا يعرفُ كنهها سوى أنّها " فراغ " كرّس مايك تيرنر الفلكيّ البارز في مختبرات فيرمي — ألينويز جلّ عمره في البحث والتقصّي لتطوير نظريّة الإنفجار الأعظم . وبحسب النظريّة لم يخلّف الإنفجار الأعظم سوى بوتقة من كون حارّ ، وفي غاية الصغر والكثافة ، بدأ يتمدّد بسرعةٍ ويبردُ أيضاً . وبعد ثوانٍ فقط بردت مجاميع الكواركات وإتّحدت لتكوين دقائق موجبة الشحنة إسمها " البروتونات " مع أخوات لها بدون شحنةٍ إسمها " النيوترونات " وفي هذا الإنصهار المتفاعل من المكوّنات الدون ذريّة أخذت البروتونات والنيوترونات بالإتّحاد لتكوين نوى ذرّات من عناصر خفيفةٍ كالهيدروجين والهيليوم والليثيوم . وبعد مئات آلاف السنين بردت صهارة الكون أكثر وتفاعلت قوى الذرّات مع جسيمات صغيرةٍ سالبة الشحنة إسمها الكهارب أو الإلكترونات فتكوّنت بذلك الذرّات . وأخيراً وبتأثير من قوى الجذب إتّحدت هذه الذرّات فتكوّنت النجوم والمجرّات . ويتّفق العلماء على نموّ الكون وتسميته بالتضخّم . وكانت في الثمانينات إنبثقت نظريّة تفسّر كيفيّة تضخّم الكون المرئيّ لتقول : إنّه حصيلة إتّحاد أعداد هائلةٍ من أكوان غازيّة فقاعيّة ، إتّحدت مع بعضها فجأةً خلال جزء

بالتريليون جزء من الثانية . وقد أطلقوا على هذا الإتّحاد إسم " التجشّؤ الأعظم " تمييزاً له عن " الإنفجار الأعظم " وتضع نظريّة التضخّم إفتراضين أساسيين : الأوّل : أنّ الكون البدائيّ حمل موجات صوتيّة نجمت عن الصدى المتخافت للإنفجار الأكبر وهو يدوّي خلال الصهارة الكثيفة ممّا خلق إنماطاً متعاقبةً من كثافات عالية وواطية لا تزال تحملها تردّدات الأشعّة الكونيّة إلى يومنا هذا وقد تأكّد هذا الأمر عام ١٩٩٢ عندما كشف قمر ناسا الخاصّ بالتحرّي عن الخلفيّة الإشعاعيّة الكونيّة إختلافاً في شدّة الخلفيّة الإشعاعيّة بحدود ٠,٠٠١ في المئة (أي أنّ الأشعّة تتردّد موجباً بحدود الواحد بالمئة ألف) . والإفتراض الثاني : كان أكثر إثارة ، إذ أنّ التضخّم يتطلّب أن يكون الكون مسطّحاً ، وهذا يعني بنظر الفلكيين أنّ الخطوط المتوازية لا تتقاطع أبداً . ففي الكون المكوّر أو الأحدب ، كما سمّاهُ علماء الفلك الأوائل تتقاطع الخطوط المتوازية تماماً كما يحصل عندما نمدّ خطوطاً على سطح بالون هواء . ولكي يبقى الكون مسطّحاً فيزيائيّاً يتوجّبُ أن تتساوى كثافة المادّة الكليّة مع طاقتها ولكن الغريب أنّ جميع التجارب التي أجريت لقياس كتلة الكون بيّنت أنّ كتلة الكون لا تزيد على ٤٠ في المئة من كثافة الحرجة . وما زالت المحاولات والتجارب جارية في شتّى مجالاتها ، لأنّ الأمور ما زالت قبل النهائيّة ، والأمر يقبل إعادة النظر أو إحتمال الخلاف .

- يضيف العلماء : أمّا الكواكب والأرض على وجهٍ خاص ، فقد وُلِدت أيضاً من عمليّة إنفصال بدأت من السديم الأولى ، بخلاف النظرية

التي كانت تقول : إنّ الشمس تكثّفت في قلب السديم الفريد وإنّ الكواكب قد فعلت نفس الشيئ داخل الأسطوانة السديميّة التي كانت تحيط بها .. علماء الفلكِ اليوم لا يوافقون على هذهِ النظريّة ويصفونها بالخاطئة ..

- ويشيرون إلى أنَّ تكوّن العناصر السماويّة مثل الشمس وتكوّن العنصر الأرضي لم يترادفا ، بل هناك توازٍ في التطوّر مع وحدانيّةٍ في الأصل ..

- يختلف العلماء نسبيّاً في العصر الذي وقعت فيهِ الأحداث التي أشرنا إليها بين رقمين (١٠ مليار) و (١٥ مليار من السنوات) ، نعم يقولون : إنَّ النظام الشمسي وقع بعد ذلك بأكثر من ٥ مليار سنة ..

- يشير العلماء إلى أنَّ دراسة " الإشعاع الذاتي الطبيعي " تسمح بتاريخ عمر الأرض ولحظة تكوّن الشمس بـــ (٤,٥ مليار سنة) عبر تحديد تقريـــبي يقلّ عن (١٠٠ مليون عام) حسب تقدير بعض العلماء والمثير أنّ علماء الفلك يرون أنَّ وجود كواكب تشبه الأرض أمر شديد الإحتمال ، بل ممكن جدًّاً .. ويرى البعض أنّ " النصف مائة مليار نجم " من مجرتِنا ، لا بدَّ أن يكون لها مثل الشمس نظامها الكوكبي ، وأنّ لهذهِ الخمسين ملياراً من النجومِ دورتها البطيئة مثل الشمس .. ما يدعو إلى الإعتقاد بوجود كواكب تابعة في فلكِها .. وقد ثبت في العام ٢٠٠٢ أنّه

تمّ إكتشاف نظام توأمي للنظام الشمسي الذي نتبع لهُ ، ما يعني أنّ وجود كوكب يشبه الأرض أمر ممكن ..

- يضيف العلماءُ أنّ عمليّة تشكّل الكون الأساسيّة تسلسلت من تكاثف للسديم الأولى ثم إنفصالها إلى أجزاء تكوّنت على أثرها الكتل التي تمثّل المجرّات ، ثمّ هذهِ تجزّأت إلى نجومٍ ، وصنعت منتجات ثانويّة هي الكواكب .. وعلى أثر هذهِ العمليّة ، تشكّل جرّاءها ما نطلق عليهِ اليوم إسم " المادّة الكونيّة " المنتشرة بين النجوم ، وقد وصفت هذهِ المادّة بأشكالٍ مختلفةٍ ، فمرة توصف على أنّها سُدُم براقة تنشر ضوءاً تستقبله من نجومٍ أخرى ، ومرّة توصف على أنّها سُدُم مظلمة ذات كثافة شديدة الضعف ، أو أنّها مادة كونيّة منتشرة بين النجومِ تتميّز بأنّها شديدة الخفاء وبأنّها تعوق المقاييس الفوتومتريّة في علم الفلك .. وأنّها تعادل كتلة قد تفوق مجموع كتل المجرات .. ويشير بعضهم إلى أنّ من شأنِ هذهِ المادّة الكونيّة أن تعدّل إلى حدٍّ بعيدٍ الأفكار الخاصّة بتطوّر الكون وهذا ليس بعيد قياساً على هذهِ الدراسات الحديثة من هذهِ الجهة ..

- يتّفقون على أنّ " الفضاء الذي يفصل بين المجرات " هو متناه في البعد ولم يسبر العلماءُ الجهات النهائيّة للكونِ واتساعهِ ، إنّما يصفونَهُ بالواسعِ والمتوسّعِ .. وهو يدلّ على أنّ معرفتنا ما زالت في بداياتِها وأنّ الأمر يحتاج إلى تقنيّة عاليةٍ جدّاً ، مع أخذنا بعين الإعتبار التفريق بين تقنيّة الإكتشاف وتقنيّة الوصول إلى أبعادٍ كبرى في الكون ، ففي الجهةِ الثانية الأمر غير ممكن حاليّاً ، بسبب قانون قطع المسافات وحدودهِ الذي لم

يخرجُ الإنسانُ عن حدِّهِ .. وما زالت القافلة البشريّة تحاول تجاوز مجموعة من عناوين تتّصل بقوانين الكون عبر استغلالِها ، من هنا فإنّه بتاريخ ٣١ تشرين الأوّل ٢٠٠٠ حاول أكثر من عالِمٍ عرض تساؤلات جديّة بمعنى نسبي حول صحّة " نظريّة النسبيّة لأنشتين " وذلك بعد التجربة التي أجريت في شهر أيلول ٢٠٠٠ والتي تمكّن العلماء فيها من ملاحظة " تجاوز " جسم معيّن لسرعة الوضوء ، وفق شروط معيّنة . وأشارت التساؤلات إلى إمكانيّة تجاوز سرعة الضوء التي يعتبرها انشتين " السرعة المطلقة " في الكون . ويرى أنشتين إستحالة تجاوز سرعة الضوء . ويعتبرها حدوداً مطلقة لا يمكن تجاوزها . وينطلق أنشتين من مبدأ مستغرب يقول : إنّ سرعة الضوء في الفراغ ثابتة ، بغضّ النظر عن السرعة التي يتحرّك بها الشخص المراقب الذي يقوم بقياسها . وهو يعتمد عليها في بناء مجمل نظريّته التي لم تكن في الأساس تُعنى سوى بالظواهر الكهرومغناطيسيّة ثمّ اتّسعت لتشمل جميع الظواهر الفيزيائيّة من التفاعلات النوويّة إلى الجاذبيّة ، ومن النجوم إلى الذرّات . ومن المعلوم أنّ الضوء ظاهرة " كهرومغناطيسيّة " من نوعٍ خاصّ . من هنا يقول العلماء : من المدهش أن ينعكس تأثير سرعته في جميع المجالات . حتى في تلك التي لا يتدخّل فيها . ويؤكّدون أنّ السرعة تتغيّر وفقاً للطريقة التي يتمّ قياسها بها إلا أنّ أنشتين يؤكّد أنّه وبغضّ النظر عن السرعة التي يتحرّك بها المراقب وتلك التي يتحرّك بها مصدر الضوء فإنّ السرعة تظلّ ثابتة دائماً في الفراغ ويقول بعض العلماء : يمكن القول إنّ نظرية أنتشتين في هذا المجال تمثّل إستنتاجاً وليس مبدءاً .. من هنا يصبح للمناقشة في هذا المبدأ معنىً في

ضوء تجربة تجاوز بعض الأجسام لسرعة الضوء ، ومن المعلوم أنّ إكتشافاً يتيح مثل هذه السرعة التي تتجاوز الضوء سينعكس على شكل ثورة حقيقيّة في اختزال الكتل الماديّة وحركة الأجسام وسيعتبر تطوّراً هائلاً في حياة البشريّة .. وعلى كلّ حال ما زال الشوط البشري مستمرّاً ومتفاعلاً بهدف كشف علوم وتقنيّة من شأنِها مساعدة الإنسان في قطعِ الأبعاد الكبرى .. وما زال البشر يحاولون فهم الكثير من الأمورِ الغامضة ، وفي كثيرٍ من الأحيان تقرأ نتيجة مجتزأة ، من هنا لا يصحّ الحكم النهائي إلا بمعطياتٍ نهائيّة .. من تلك العناوين أنّه بتاريخ ٧ تشرين الأوّل ٢٠٠٠ أعلن علماء فلك أنّ اكتشاف ١٨ كوكباً تقع خارج سيطرة المجموعة الشمسيّة قد يدفعهم إلى إعادة النظر في نظريّات " نشأة الكواكب " وقد ذكرت مجلّة " ساينس " أنّ باحثين إكتشفوا (١٨ جرماً) من نوع الكواكب تطوف بحريّة من دون أن تتبع نجماً مركزيّاً كـــ الشمس مثلاً في مجرّة أوريون . وقال الباحثون إذا كانت تلك الأجسام العملاقة الحديثة والباردة كواكب بالفعل فإنّ وجودها عائمة بحريّة وبلا قيود في الكون يمكن أن يدفع لإعادة النظر في النظريّات الحاليّة حول تشكّل الكواكب . وتشير هذه النظريّات إلى أنّ الكواكب تتشكّل خلال عشرات ملايين السنين من جرّاء التكثّف والتراكم التدريجي للغازات والغبائر التي تدور حول نجمٍ معيّن . إلا أنّ الأجسام التي إكتشفها فريق الباحثين الأسبان والأمريكيين والألمان يبدو ظاهريّاً أنّ منشأها وتطوّرها مختلفان تماماً . فهذه الأجسام ليس لديها نجم مركزيّ ، وهي تابعة لمجرّة " سيغما أورويونس " التي تكوّنت منذ خمسة ملايين عام كأبعد تحديد في حين أنّ

الشمس موجودة منذ مليارات السنين . وقد تمّ رصد أكثر من خمسين كوكباً من هذا القبيل خارج النظام الشمسي إلا أنّها المرّة الأولى التي يتمّ فيها إلتقاط الأشعّة المنعكسة عنها .. لكنَّ الأمر يظلّ محكوماً بمجموعِ ما اشرنا إليهِ من أنَّ الحكم النهائيّ يحتاجُ إلى معطياتٍ نهائيّة ..

ولا يغيب عن الذهن أنَّ الكون بجوهرِهِ الواقعيّ أو الموضوعيّ ما زال مجهولاً بأكثر من بعدٍ مركزيٍّ وأساسي ، أمَّا من ناحيةِ الأثر في مقامِ الإنفلاقِ والإنفصالِ فيتّفق العلماءُ على أنَّ الإنفلاش النوعي المنظّم للوحداتِ فيهِ وعلى نسقٍ متناهي في الدقّة هو العنصر المشترك ، ويؤكدون أنَّ انفجاراً ما حدث وبشكلٍ لا يقبل الجدل أدّى إلى الفتقِ بعد الرتقِ .. مضافاً إلى مجموعةٍ من دراساتٍ متّصلة بحقيقةِ التكوّنِ المادّي وشبه ذلك ، ويتّفق العلماءُ على أنَّ الكون تشكّل من كتلةٍ غازيّةٍ تتكوّن رئيسياً من غاز الهيدروجين ، وثانويّاً من غاز الهليوم بطيئ الدورة .. أمام هذا الواقع نقف بذهولٍ أمام ما أشارَ إليهِ القرآن الكريم بمزيدٍ من الخشوعِ والعظمة ، فنجد فيهِ ما يثير الذهول ، فالقرآن الكريم يؤكّد الطبيعة الدخانيّة في المشهدِ الأوّلِ ويقول تعالى :

(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ
فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا
أَتَيْنَا طَائِعِينَ(١١)[1]

---

[1] سورة فصّلت

وفي العادةِ يتكوّن الدخان من قوامٍ غازيٍّ ، حيث تتعلّق به بشكلٍ أكثر أو أقلّ ثبوتاً جزئيّات دقيقة مختلفة في إنتمائها ، وقد تكون من مواد صلبة ، كما تكون من مواد سائلة مع درجة حرارة قد تقلّ أو تكثر .. كلّ ذلك يأتي في وقتٍ لم يكن فيهِ على الإطلاق أيّ مسٍ معرفيّ بل لم يكن فيهِ علماء فلك بالمعنى الحقيقيّ و لم يكن هناك أدوات كشف وشبه ذلك ، بل كان الحديثِ فيه عن هذهِ المواضيع مخلوطاً بالكثيرِ من السخافات والسقطاتِ الخطيرة .. ومع كلّ هذا جاء القرآن ليقرّر حقيقة متناهية في الدقّة تشير إلى عنوانٍ مذهلٍ ، وإذا بالعلمِ الحديثِ بعد مرحلةٍ كبرى من البحثِ وتطورِ الأدواتِ والمعطيات يثبت ذلك .. ليضيف شهادةً أخرى إلى هذا القرآنِ العظيم الذي جاءَ به رسولُ الله محمّد من عندِ الله تعالى تماماً وبشكلٍ مثير .. أفلا يحتاج هذا الكتاب المعرفيّ المذهل إلى وقفة تأمل وخشوع أمام حقيقةٍ لم يكن على الإطلاق بالإمكان الوصول إليها إلا عبر اللهِ تعالى الذي أرسلَ رسولهُ بالإعجازِ الذي لا بدَّ فيه أن يبقى معجزاً على طولِ مسيرةِ البشرِ وإلى الأبد ..!

✡ ✡ ✡

وهكذا في كثيرٍ من الآياتِ ظلّ القرآن يدمج بين خطابٍ تكوينيّ مدهشٍ وبين خطابٍ تشريعيّ مقصود منه الهداية والدعوة إلى الله ، وسط زحمة من الآياتِ التي يخشعُ أمامَها كلُّ شيئ .. فبالإضافة إلى ما أشرنا إليهِ من الرتقِ والفتقِ وشبهِهِ المتّصل بالكتلةِ الغازيّةِ ظلّ القرآنُ يعرضُ علينا أدقّ المشاهد الكبرى الخاصّة بالكون ، فكان أن تعرّض لموضوع توسّع الكون ، وهذا الأمر

يعتبر من أدقّ المواضيع العلميّة اليوم ، ليؤكّد أنّ هذا الكون الذي تجاوز مرحلة الرتقِ والفتقِ والكتلة الغازيّةِ هو في توسّعٍ ، في مرحلةٍ من الإنفلاش النوعي المنتظم والمذهل .. وقد قال اللهُ تعالى :

- (.. وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ(٤٧)
- وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ(٤٨)
- وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٤٩)
- فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ(٥٠)
- وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١) [1]

لم يكن على الإطلاق لأيّ كائنٍ بشريٍّ أن يقول بتوسّع الكون أو يتخيَّل ذلك ، وهذا الأمر يعتبر اليوم من أهمّ المنجزاتِ العلميّة ونتائجها ، ومن الآياتِ المذهلةِ في فضاء العلم .. لم يكن ذلك إلا لنبيّ مرسلٍ يقول عن اللهِ خالق السمواتِ والأرض ، وهذا من أدق الأدلّة الإعجازيّة التي طارت مع الزمنِ عبر هذا القرآنِ المقدّس لتتجسّد أمام أعينِ أهلِ الدنيا كشاهد كبرويّ هائلٍ على الإعجازِ المحمّديّ النبويّ في دعوتِهِ إلى اللهِ تعالى .. القرآنُ يقولُ : (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ..) في ظلّ مشهدٍ متعدّدٍ من تشكّل الكتلة الغازيّة ، إلى سلسلةٍ من التفاعلِ ، إلى الرتقِ ، إلى الفتقِ ، إلى الإنفلاش النوعي المتوسّعِ للكون .. كلّها آياتٌ كبرى مذهلة ، ينطق بها القرآنُ الكريم بمشهدٍ حركيّ هائل .. فأيّ إعجازٍ هذا ، وأيّ تطابقٍ ، وأيُّ عظمةٍ للقرآن ..! القرآن الكريم ، ومنذ أكثر من ١٤٠٠ عام يقرّر للبشر أعمق نظريّة حول الكون : نشأةً ،

---

[1] سورة الذاريات .

وتوسُّعَاً ، فيقول بتوسُّعِ الكون ، بصورةٍ مذهلة ، يعرض مشهداً متحرِكاً من الصُوَرِ ، مشهد للكتلة الكونيّة الواحدة (الرتق) ثمّ مشهد للحركة المنفعلة جرّاء حدث كوني ضخم أدّى إلى الفتق والإنفصال ، ثمّ يضيف مشهداً مذهلاً عن حقائقِ هذا الكون يتعلّق بحركة الكون الإنفلاشيّة ، مؤكّداً أنّ الكون ما زالَ يتوسَّع .. في حين كان أهلُ ذلك الزمن يظنّون انّ الأرض هي نهاية الكون .. فأيُّ عظمةٍ هذهِ للقرآن .. وحتى نضع الأمور في نصابها فما عليك إلا قراءة الآياتِ هذهِ بتمعّنٍ دقيق ، ثمّ لنقف معاً على مجموعة من النتائج والمعطيات العلميّة في هذا المجال .. فقد ثبتَ أنّ الكون يتوسَّع بمجرّاتَهَ ، وأنّ من أثرِ هذهِ الحركةِ الكونيّة النوعية يبدو الكون وهو ينبض كما ينبض القلب .. وإليك واحدة من تلك الدراسات التي تتحدّث مجدَّداً عن مشهدٍ حيويٍّ مذهلٍ لمشهد الكون التوسُّعي ، وهي تتعلّق بحركة الكون ونظام المادّة والجذب كانت قد صدرت في الصدر الأوَّل من الألفيّة الثالثةِ ، وفيها أنّه يصحّ وصف الكون بحركتهِ التوسّعيّة بين تمدّد وتباطأ بأنّهُ ينبض كما ينبض القلب .. وطبيعي أنّ معرفتنا بمكوّنات العالم الذي نعيش فيه هو من أهمّ ضرورات سلسلة المعرفة الكونيّة . ففي دراسة لمحمد الشيخلي تحت عنوان (بين تمدّد وتقلّص ينبض الكون كالقلب) ألخِّصُ منها الأمور التالية مع بعضِ الإضافات :

- اقتنع العَالِمُ " اينشتاين " بعد وضعه لمعادلته الشهيرة أنّ الكون غير مستقرّ ، بل هو يتمدّد باستمرار ، وقد جاء اقتناعه على يد العالمين فريدمان وسيلفر اللذين أكدا " عدم استقراريّة الكون " اعتماداً على معطيات اينشتاين .. ثم ان مقارنة الاطياف هذه دعت الفلكي الامريكي

هابل نهاية ١٩٢٩ الى وضع قانونه الشهير : (كلّما تباعدت المجرات ، كلّما زادت سرعات ابتعادها ..) ومن المؤكد اليوم أن المجرّات تتباعد عن بعضها ، وأنَّ هذا التباعد متناسب مع المسافة بين المجرات ومع ثابت هابل .

- إنَّ العلماء الفلكيين المعاصرين أثبتوا أنَّ " ثابت هابل " ليس ثابتاً بالمطلق ، بل هو يتأثر بعاملين هما : قوّة الجذب بين المجرّات . وكثافة المادة الكونيّة .. وعليهِ : كلما تباعدت المجرات قلّت الجاذبيّة بينها ، وتضاءلت بالتالي كثافة المادة الكونيّة .

- ومن هذه الفرضية الواردة أعلاه ، يمكننا القول : إنَّ تمدد الكون يتباطأ متناسباً مع كثافة المادة الكونيّة . وكلّما زاد التمدّد نقصت الكثافة فيتباطأ " التمدد " حتى يقف التمدد عند درجة معيّنة من جديد .. وهكذا ينبض الكون بين " تمدّد وتقلّص " تماماً كما ينبض القلب .. ونبض القلب مصدرهُ تناوب الضغط على جدرانه ، بينما مصدر نبض الكون تناوبُ الجاذبيّة وكثافة المادة الكونيّة ، مع فارق زمني كبير بينهما ، فبين نبضة كونية وأخرى مليارات السنين .

- وتضع النظريات الخاصة بـــ " نبض الكون " احتمالين لمستقبل التمدد الكوني نسبةً الى كثافة المادة الكونية . فاذا كانت الكثافة قليلة تباطأ تمدد الكون ، واستمرّ في تمدّده الى ما لا نهاية . وإذا كان كثافة

المادة عالية نسبيّاً عندها يتباطأ التمدد بدوره بشكل أكبر حتى يتوقّف ليحلّ محله التقلّص المتسارع .

- وعليهِ : فإنّ ترجيح أحد هذين الإحتمالين لمستقبل الكون يتوقف على تحديد كثافة المادة الكونيّة ، إلا أنّه في السنوات الاخيرة اكتشف ان " النيوترينو " (وهو العنصر الاكثر انتشاراً في الكون ، ويعتقد انّه مادّته ، وهو دقيقةٌ أصغر كتلة من الالكترون وغير مشحونة) يتمتّع بكتلة في حالة الإستقرار ، ومع أنّ هذه الكتلة صغيرة جدّاً (عدّة آلاف المرات أصغر من الالكترون) الا انه يعني أنّ كتلة الكون أكبر من القيمة المحسوبة سابقاً . وهذا يعني ترجيح احتمال أنّ الكون في حالة تمدّد مؤقتة سرعان ما تتحوّل الى حالة التقلّص ، ثم الى تمدّد مجدداً ، وهكذا تماماً كنبض القلب .. فسبحان اللهِ الخالقِ العلاّم ..)

- ويضيف العلماء : أنّ تمدُّدَ الكون يجري في كلّ الاتجاهات .. والمجرات البعيدة تجري متباعدة بسرعات أكثر كما يقول هابل . ولكن مهما زادت سرعات المجرات لا يمكن في أيٍّ حال أن تتعدّى سرعة الضوء والا لتغيّرت مفاهيم " حركة الزمن في المكان الثابت " وعليهِ : فالثابت أنّ المجرات (وهي تشكّل الوحدات الكبرى المشكّلة للكون) هي التي تتباعد (التوسُّع النوعي للكون أو الإنفلاش النوعي) من هنا فإنّ التمدد الكوني يقتصر على تباعد المجرات عن بعضها البعض وهو يحصل في جميع الاتجاهات .. وهذا يعني أنّ بُعد الارض عن الشمس سوف لا يتغيّر ، لأنّ الارض والشمس هما جزءٌ من مجرّة واحدة ، هي مجرّة درب التبانة ، وهي

في دورات التمدد والتقلّص ستبتعد عن موقع افتراضي لها ، لتعود بعدئذٍ إليه بعد أن يعاود التقلّص ، وسوف يستمرّ هذا النبض الازلي حتى تتغيّر كثافة مادة الكون ..) .. وعليهِ : فإنّ التوسُّعَ الكونيّ ، أمر واضح ونهائيّ ، ومأخوذ فيهِ نحو من دفعٍ مصدريّ ، متّصل بأصل انفصالِ الكتلة الغازيّة (الإنفجار العظيم) ..

- حسب المعطيات العلميّة الثابتة اليوم والتي عليها علماء العالم بشكلٍ مطبقٍ حسب النتائج الأكيدة أنّ الكون بحالةٍ من التوسّعِ النوعي ، توسُّع المجرّات ، وبنحوٍ منفلشٍ ، في جميعِ الإتّجاهات ، وهذا يتبطّنُ نوعاً من دفعٍ آخر يتحكّمُ بحركة هذا الدفع المنفلشِ ، وبطبيعة الحال ، فإنّ هذا الأمر مرتبط بحركة الدفع الأولى لنشوء الكون بعد أن كان عبارة عن كتلةٍ واحدة .. أي أنّ الصورة يمكن تلخيصها بالأمورِ التالية :

١. كتلة واحدة (رتق) .
٢. ثمّ تفاعل دفعي إنفصلت فيهِ الكتل عن كتلتها الواحدة (فتق) وهذا ما يعبّر عنه العلم اليوم بالإنفجار العظيم .
٣. ثمّ تأثُّر مستمرّ في تشكيل الحركة الكونيّة بنحوٍ يتّصل بقوّةِ دفعٍ تُوسُّعي من حركة المجراتِ بشكلٍ منفلشٍ في جميعِ الإتّجاهات ما يعني أنّ الكون يعيش مرحلةً مشهودةً من التوسّعِ .. وصدق الله سبحانه وتعالى حيث قال :

- (.. أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ(٣٠)[1] .. (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ(١١)[2] .. (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ(٤٧)[3]

لا شكّ أنّ هذه الصورة من الإبداعات الكونيّة العالية والمذهلة في نظرِ كلِّ مشاهدٍ وعاقلٍ ، و لم يكن الإنسانُ على علمٍ بها مطلقاً ، وإذا بالقرآنِ الكريم يعرض علينا مشاهد حيّة من صورها : كون متحرّك ، متوسّع ، يهتزّ نبضاً ، غير ثابت ، يتمدّد على شكلٍ منفلشٍ في مجراتِهِ ، وفي كلِّ الإتجاهات ، وبشكلٍ منتظمٍ ونوعيّ ... فأيّ إعجازٍ هذا الذي احتضنهُ القرآنُ الكريم ..!

يقول العلماء :

- إنّ تكوين " الأجرام السماويّة والأرض " قد تطلّب مرحلتين (رتقا فتقاً) بصورةٍ نوعيّةٍ ..
- وعلى صعيد الإنسان يشيرون إلى أنّ الإنسان وُجِدَ في المرحلة الرابعة من العصور الجيولوجيّة ..

---

[1] سورة الأنبياء .

[2] سورة فصّلت

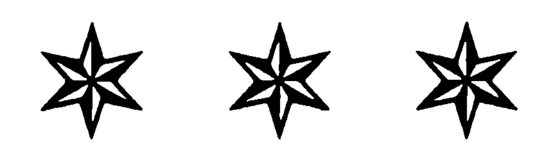
[3] سورة الذاريات .

- يضيف العلماء : إنّ إبتعاد الأجرام السماويّة ووجودِها على مسافات عظيمة ومتناسبة طرديّاً مع الكتل نفسها هو الذي يشكّل أساس توازنِها .. وكلّما تباعدت الأجرام وهنت قوّة جذب كلّ منها للأخرى ، وكلّما تقاربت كان لكلّ منها تأثير على الأخرى .. فحالة القمرِ مثلاً لأنّه قريب نسبيّاً من الأرض يؤثّر بقانون الجاذبيّة على موقع الماء في البحار ، من هنا تنشأ ظاهرة المد والجزر ..

- ويقرّرون : انّ التقارب الشديد بين جرمين سماويين يؤدّي لا محالة إلى إصطدامِهما ، لذلك لا بدَّ من التوازن لنظمِ أمرِ هذهِ الأجرام وأيّ خلل يطرأ على أحدهما يؤثر على حقيقة التوازنِ وذلك الوجود المرتبط بهما ..

لقد جاءَ التعبير القرآني بغايةِ الدقّةِ العلميّة وبشكلٍ إعجازيّ فهو تعرّض للكونِ فأشار إلى الدخان (الكتلة الغازيّة) ثمّ أشار إلى الوحدة النوعيّة والتماسك الذي يناسبُ تلك الكتلة ، ثمّ إلى حدوث فتقٍ من نوعٍ دافعٍ على قاعدة (وإنّا لموسعون) أي ناظر إلى وحدة دفع كليّة متّصلة ومستمرّة بعالمِ التكوّنِ وأثرِهِ على مستوى المجرّات ليكون الإنفلاش نوعيّاً .. وهذا يعني بطبيعة الحال أنّ تلك الكتلة تعرّضت لدفعٍ هائلٍ ما زال يدفع هذهِ المجرّات بشكلٍ منفلشٍ في كلّ الإتّجاهات وبشكلٍ منتظمٍ ومتوازنٍ .. وهذا عينهُ الذي يقولُهُ العلمُ اليوم .. فأيّ حقيقةٍ تلك وأيّ إعجازٍ هذا ، وأيّ وثيقةٍ هذهِ ، التي ما

زالت تؤرّخ عظمة القرآن في يومِ الإكتشافات الكبرى للعلم ليتجلّى بشكلٍ لا تحدّهُ فيهِ عظمة ، ولا يدانيهِ كتاب ..!



الشمس والقمر

على طولِ هذهِ الوثيقةِ من أرشيفِ الوجودِ سردَ القرآنُ نوعاً متوسّعاً من معالمِ الخلقِ وآياتِ الوجود ، فتعرّض إلى الشمسِ والقمر ، ليحدّد لهما عنوانينِ مختلفين في نفس الوقت الذي لم تكن البشريّة قد حقّقت أمر هذا النوع من الوصفِ ، بل كانت الأباطيل والخرافات والأساطير تمتاز بدورٍ مركزيٍّ هائلٍ في هذهِ الناحية .. في ظلِّ هذهِ الأجواء من الثقافات السخيفة عبَّرَ القرآنُ الكريم عن الشمس بالضياء والسراج وعن القمر بالنور فقال تعالى :

- (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٥)[١]

- (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا(١٦)[٢]

---

[١] سورة يونس .

[٢] سورة نوح .

إلى العديدِ الوارد في مضمونِ هذهِ الآيات .. لقد كان القرآنُ حاسماً في بيان وصفين للشمسِ والقمر ، فأشار إلى أنّ الشمس نجم ينتج النور ، بينما القمر كوكب يستقبل النور .. يأتي هذا التأكيد في زمنٍ لم يكن فيه من يلمّ بهذهِ المعرفة ، بل كان فيهِ من الأساطير الشعبيّة ما ينكر هذهِ الحقائق ، ضمن ما كان مشاعاً في دوائرِ علماءِ ذلك الزمن ، إلا أنّ القرآن جاء حاسماً لهذهِ النتيجة ، إلى أن أثبت العلماءُ بشكلٍ نهائيٍّ أنّ الشمس نجم ينتج بإحتراقهِ الداخليّ حرارةً شديدة وضوءاً ، في حين أنّ القمر يعكس الضوء الذي يستقبله من الشمس ، وقد اعتبرت هذهِ المعطيات الإكتشافيّة مهمّة للغاية في وقتِها ، ليأتي الوصفُ هذا مطابقاً لما عليهِ القرآنُ الكريم بالتمام ..

يقول الفلكيّون :

إنّ النجوم أجرام سماويّة مثل الشمس ، وأسهل ما نشاهده من هذهِ الأجرام هو إنتاج الضوء ، أمّا الكواكب فهي ليست منيرةً بذاتِها ، وهي تدور حول الشمس ، وحول أرضنا جزء منها .. ولم يعرف علماء الفلك حتى الآن وجوداً لهذهِ الكواكب خارج النظام الشمسيّ ..

ثمّ يضيف القرآنُ مجموعة أساسيّةً من معانٍ متّصلة بالشمسِ والقمر مؤكّداً أنّها في ظلّ نظامٍ وسنّةٍ كونيّةٍ تحكمها فلا تحيد عنها فيقول تعالى :

- ﴿ .. خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ،
- يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ ،
- وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ،

- وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ،
- أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ(٥)[1]

- (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ،
- وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(٤٠)[2]

- (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ،
- وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ،
- وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ،
- كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ،
- ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ،
- لَهُ الْمُلْكُ ،
- وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ(١٣)[3].. قطمير : أي قشرة النواة ..

- (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ،
- وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ،
- وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ،
- كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ،
- وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٩)[1]

---

[1] سورة الزمر .

[2] سورة يس .

[3] سورة فاطر .

- ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ،
- وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ،
- لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ،
- فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ(٦١) ﴾[٢]

في هذهِ الآيات وغيرها يشير اللهُ تعالى إلى عناوين تعتبر اليوم من ركائز النتائج الكبرى في علمِ الفلك منها :

١. أنَّ الشمسَ والقمرَ يخضعانِ لنظامٍ دقيقٍ من القوانين الكونيّة .. وطبيعةُ هذا النظامِ أنّه مسخّر لصيغةِ الكونِ مرّةً وللإنسانِ مرّةً أخرى .. وهذا التعبير يمكن أن نستفيدَه في أكثر من آية تشير إلى أنَّ الشمس والأرض والقمر وغيرهم مسخّر للإنسان ، ما يعني أنّه مقصودٌ تأدية دور ناظم له إرتباط غائي بالوجودِ البشري وما يتّصل بهِ من شروطٍ تتعلّق بكوكبهِ وشمسهِ وقمرهِ وغيرهِ فضلاً عن معالم النظم الكوني الأوسع من منفعة الإنسان .. وعليهِ ، يكون الدور الوظيفيّ على نوعين : دور كوني له صلة بمجموع الحلقات الكونيّة الناظمة ، ودور متّصل بضرورة تثبيت نفع البشر على الأرض وهم المخلوق المستخلف من قبلِ اللهِ تعالى ..

٢. من أمثلة هذا النظامِ أنَّ الإنفلاش النوعي لمجرّةِ التوسّع الكوني يتمّ بشكلٍ لا يؤثّر على الأبعادِ المتّصلة بالمجموعةِ الشمسيّة ، بل يكون متّصلاً بالمجرات ، وهذا ما يعبّر عنه الفلكيّون بالتوسّع النوعي المنتظم ..

---

[١] سورة لقمان .

[٢] سورة العنكبوت .

٣. الأهمّ من ذلك ما تضمّنته مجموعة متعدّدة من الآياتِ من أنّ الليل والنهار يتكوّران ، بضميمة ما أشارت إليهِ الآياتُ من الإنسلاخ ، وهو في غايةِ الإعجازِ العالي ، وهو الإشارة إلى أنّ الضوء الذي يشكّل النهار هو من الشمس ، وهذا ما تتضمّنهُ أكثر من آية وتضيف : إنّ العلاقة بين الليلِ والنهار هي علاقة تكوير وانسلاخ وهذا يفترض بالضرورةِ وجود الأرض مقابل جهةٍ ينكشفُ بعضُها أمامَ النور وبعضُها الآخر يكون مستوراً عن النُّور .. لأنّ التكوير يعني التدوير ، والتعبير بتدوير النهار والليل ثمّ التعبير بالإنسلاخ أي الإنقاص شيئاً فشيئاً وأنّه يتبعهُ حثيثاً ، يعني أنّ العلاقة بين الشمسِ والأرض على نحوٍ يفترضُ فيهِ أنّ الأرض كرويّة بمعنى إجماليٍّ ولا بدَّ من حركةٍ ما تعيد التكوير والتدوير لتبدأ عمليّة الإنسلاخ والتتابع الحثيث بين الليلِ والنهار .. إنَّها من أبلغ الآياتِ المذهلة ، التي تدلّ على عظمةِ المكنون القرآني ، والمضمون الذي جاءَ بهِ رسولُ الله .. والمذهل أكثر من ذلك إتمام هذهِ العناوين بالإشارةِ مرّةً إلى المشرقِ والمغربِ كنوع ، ثمّ الإشارة إلى تعدّدِ المشرقِ والمغاربِ كتفصيل ، ما يعني أنّ هذا يدلّ على أنّ ضوء الشمسِ يطال الأرض من نواحٍ متعدّدة وكذلك الغروب ، ليأتي العلم بعد ١٤٠٠ عام ويقول : ما تضمّنه القرآن هو موافق تماماً وبدقّة وبشكلٍ نهائيّ لما كشفت عنه التقنيّة العالية ومعطيات العلم .. فأيّ إعجازٍ بعد كلّ هذا ..! إعجاز معرفي ، علمي ، كوني ، يكشف عنه الزمنُ كلّما تقدّم العلم لتتجلى عظمة القرآن بشكلٍ غريبٍ ، وهذا بخلافِ ما قرأنا في التوراة من أنّ الله خلق النور والظلمة أوّلاً ثمّ خلق الشمس والقمر وغير ذلك ..!

وبطبيعة الحال فإنّ النور هو نتيجة ضوء الشمس .. وعليهِ : فلا غرابةَ في تلك التداوين التي تسلّلت إليها يدُ البشرِ وبشكلٍ مثير ..

لقد كان الذهنُ العلميّ آنذاك هزيلاً إلى درجة لم يكن يظنُّ معها الإنسان أنّ الظلّ هو نتاجُ الشمس ، إلا أنّ القرآن الكريم أكّد أنّ الظلّ هو من الشمسِ مخالفاً بذلك كلّ الأساطير ليدوّن للعلمِ الحديث مجموعة مذهلة عن حقائق لا يمكن أن يعلمها أحد إلا اللهُ تعالى في زمنٍ لم يكن للتقنيّة فيهِ وجود ولا للوسائل الكاشفة .. يقول اللهُ تعالى :

(.. أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا(٤٥) [١]

المثير أن نعلم انّ الأساطير العلميّة آنذاك كانت أخطر من الأساطير الشعبيّة في هذا الموضوع .. وقد كانت هذهِ الأساطير مسيطرة على الذهنِ العام ومع كلّ ذلك قرّر القرآن هذهِ الحقيقة كما هي في بطن القوانين ودفترِ الكون . لقد أشار أكثر من خبيرٍ وعالمٍ في المعطيات الكونيّةِ إلى أنّ سرَّ هذا القرآنِ يكمن في منع أيّ خرافةٍ علميّةٍ أو شعبيّة من التسلّلِ إليه ، رغم أنّها كانت على مستوىً نافذ ونهائيّ في الذهن العام آنذاك .. مضيفاً انّ هذا دليل إضافي على صدقِ ما جاء بهِ النبيّ محمّد .. حتى في الظلّ لم يوافق الذهن العلمي آنذاك ولا

---

[١] سورة الفرقان .

الأساطير الشعبيّة ، وقد بقي الأمر كذلك عدّة قرون حتى أثبت العلم تمام ما اشار إليهِ القرآن من هذهِ الجهة .. فأيُّ عظمةٍ لهذا القرآن ..؟ أفلا تعقلون ..

.. وهكذا ، إلى الكثير من العناوين ، ومنها ، ما اشار إليهِ اللهُ تعالى من رفعِ السموات والأرض والذي ما زال سرّاً حائراً في العقلِ البشريّ حتى الآن .. يقول اللهُ تعالى :

- (.. اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ،
- ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ،
- وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ،
- كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ،
- يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ،
- يُفَصِّلُ الْآيَاتِ ،
- لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ(٢)[1]

وتكفي إشارة بسيطةٍ لمعنى تسخيرِ الله تعالى للقمر والكواكبِ والنجوم في قوانين اللهِ المخلوقة ، فعلم الفلك الحديث أثبت أن دورة القمر الزمنية حول الأرض هي بمقدار ٢٩ يوماً لكن المدار ليس دائريّاً بالدقّةِ الفنيّة لهذا التعبير بحيث أنّ المسافة بين الأرض والقمر تقدر تقديراً وسطيّاً بـــ ٣٨٤,٠٠٠٠ كلم .. واستناداً إلى تقويم " جوليان " تتكوّن السنة من ٣٦٥ يوماً وربع اليوم .. وهي تحتاج إلى تصحيح كلّ أربع سنوات .. وتتكوّن مجرّتنا من عددٍ هائلٍ من النجومِ

---

[1] سورة الرعد .

، موزّعة على أسطوانة أكثر تماسكاً في المركز منها على المحيط ، وتحتلّ موقعاً يبعد عن مركز الأسطوانة .. وبما أنّ المجرّة تدور حول نفسِها وكأنّ محورها مركزها ، لذلك فإنّ الشمس تدور حول نفس هذا المركز وفق مدار دائري .. وقد قدر شابلي في العام ١٩١٧ بُعد الشمس عن مركز المجرّة بما يعادل رقم ٣ مع ١٧ صفر عن يمينِهِ ، ولكي تدور المجرّة حول نفسِها دورةً كاملةً والشمس معها ، يلزمها ما يقرب من ٢٥٠ مليون سنة .. وتسير الشمس في هذهِ الحركة بسرعة تقريبيّة قدرها ٢٥٠ كلم في الثانية .. تلك هي الحركة المداريّة للشمس التي صرح بها القرآن وأصرّ على وجودِها لا على عدمها منذ ١٤ قرناً .. ليأتي العلم الحديث ويكتشف أنّ ما صرّح بهِ القرآن الكريم يطابق العلم المكتشف مائة بالمائة .. يقول اللهُ تعالى : (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٣٨)

وتجدرُ الإشارةُ إلى أنّنا تعلّمنا في الكتبِ المدرسيّةِ أنّ الشمس ثابتة بالمطلق ، في حين كان القرآن الكريم يؤكّد أنّ الشمس تجري لمستقرٍّ لها وفق تعبيرٍ دقيقٍ ومتناهٍ في الدلالة ، بجريانٍ من جهةٍ واستقرارٍ من جهةٍ أخرى .. هذا ما قال فيهِ أهّم العلماء إنّه مثير للدهشة ويدعو إلى الإعتقاد بعظمةِ هذا القرآن .. إنّها تجري لمستقرّ لها .. هذا ما اثبتهُ العلم اليوم بشكلٍ نهائيّ وحاسم .. ها هو العلم اليوم يقول بوحدة المجرّة في أبعادِها ، حتى حركتها تتمّ في مدارٍ ثابتٍ ، هذا ببُعد النظر عن الحركة الإنتقاليّة النوعيّة التي تقوم بها المجرّة التي تجمعُ شمسنا ، لجهةِ أنّ المجرات ما زالت تخضع لقانون التوسُّع النوعي .. فبخصوصِ هذهِ الشمس أشار القرآن إلى أنّ جريانَها مقرون بنوعٍ من استقرارٍ لا يمنع من

حركتِها المحوريّة .. وقد أثبت الفلكيّون أنّ النظام الشمسي يتحرّك في الفضاء نحو نقطةٍ في فلك " هرقل " مجاورة لنجمة فيها تحدّدت تماماً إحداثيتها ، ولقد أمكن تحديد سرعة هذهِ الحركة تقريباً بـــ ١٩ كلم في الثانية .. ثمّ انّ الكلمة العربيّة في الآيات السابقةِ تشير إلى التنقّل بحركةٍ خاصّة ، وفق صيغة يسبحون (كما هي الحالُ مع هذهِ الآية) وذلك بخصوص الشمس والقمر .. وهذا الإستعمال العربيّ سِيقَ لأجسامٍ من مخلوقاتِ اللهِ الكونيّةِ في الفضاء ، وذلك ليعبر من معنى التنقّل بالماء إلى معنى آخر ، هو التنقّل في الفضاء وفي صفحةِ الكون ..! لا شكّ انّه تعبير في غاية الدقّة .. وهذا ما أثبتته المعطيات العلميّة اليوم بشكلٍ نهائيٍّ ، في حين كان من الأمورِ المغلوطةِ جدًّا والذي تحتارُ بهِ الأساطير العلميّة قبل الشعبيّة ..

ويؤدّي القمر دورته حول نفسه ، في نفس الوقت الذي يُتمُّ فيهِ دورته حول الأرض أي بما يقارب ٢٩ يوماً ونصف اليوم .. وتدور الشمس حول نفسها في ٢٥ يوماً تقريباً .. لقد أكّد القرآن الكريم هذهِ المعطيات في القرن السابع للميلاد .. فأيّ سر هذا وأيُّ علم ..! أيّ رجل يعلم كلّ هذا إن لم يكن من عند الله تعالى ..! عليك أن تتأمّل لترى عظيم سرّ الله .. ثمّ إنّ الشمس تضيئ بشكلٍ دائمٍ ومستمرّ ، ويصل ضوءُها إلى نصف الكرة الأرضيّة ، فيما عدا فترات الخسوف في حين يظلّ النصف الآخر من الأرض مظلماً بدوران الأرض حول نفسها ما يحول دون وصول ضوء الشمس إلى النصفِ غير المواجهِ للشمس ، وتظلّ الإضاءة ثابتة للقسمِ المواجهِ للشمس .. إنّ النقطة المضاءة منها وهي على شكل نصف كروي تؤدّي في " أربع وعشرين ساعة " دورتها حول

الأرض مع النصف الآخر المظلم الذي يُتمّ النصف الآخر من هذهِ الرحلة .. هذا الذي يشير إليهِ القرآن بيوم المسير الذي تتعدّد فيهِ المشارقُ والمغاربُ ، بشكلٍ دقيقٍ ومتناهٍ في الدقّة والذي لا يكفّ في ليلٍ أو نهار .. فأي معرفةٍ تلك ..؟ وأي علمٍ ذلك ..؟ وأيّ إعجاز عظيم احتضنه القرآن في القرن السابع ميلادي ..!

وبالملاحظةِ لشروقات الشمس وغروباتِها نعرفُ أنّ الشمس تشرق من نقاطٍ مختلفةٍ في المشرقِ ، وتغرب على نقاطٍ مختلفةٍ في المغرب وذلك حسب الفصول .

ثمّ إنّ العلاقات التي تتخذ على كلٍّ من الأفقين تحدّد نقاطاً قصوى تشير إلى مشرقين ومغربين ، توجد بينهما نقاط وسيطة على مدار السنة .. وهذا بالضبط ما اشار إليهِ القرآن بالمشرقِ والمغرب من حيث الإشارة النوعيّة ، فقد استعمل القرآن تعبير المشرق والمغرب كما استعمل تعبير المشارقِ والمغاربِ بشكلٍ فائقٍ ودقيق .. وها هو العلم اليوم يشير إلى هذين النوعين بشيءٍ من الدهشة ، التي لا يمكن أمامها إلا الإذعان لما جاءَ بهِ القرآنُ الكريم .. لقد وصل الحدّ ببعضِ الذين لا يعتقدون بالقرآنِ الكريمِ قبل ظهور المعطيات العلميّة إلى أن يدوّنوا في كتبِهِم أنّ هذا القرآن لو كان من عندِ اللهِ لما أمكن أن يجمع بين آيتين متناقضتين ، واحدة تشير إلى المشرقِ والمغرب ، والثانية تشير إلى المشارقِ والمغارب ..! وإذا بالفتوحات العلميّة تؤكّد ما كان يشير إليهِ علماءُ المسلمين من تعدّد المشرقِ والمغربِ من ناحية ، ووحدة نقطتي الأفق التي تشيرانِ إلى مشرقٍ واحدٍ ومغربٍ واحد ..! لا شكّ أنّه الإعجازُ الإلهيّ والعلم الغيبيّ ..

يقول اللهُ تعالى في خصوص المشرقِ والمغرب :

- (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨)[١]

- (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(١١٥)[٢]

- (قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[٣]

وبخصوصِ تعدّدِ المشرقِ والمغربِ يقول اللهُ تعالى :

- (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ(٥) [٤]

- (فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ(٤٠)[٥]

السؤال البديهيّ :

أيّ قدرةٍ هذهِ للقرآنِ أمام الكشف العلميّ ومعطياتهِ الثابتة ..؟ ايّ وئامٍ ذاك .. ؟ على ماذا يدلّ كلُّ هذا ..؟ على الإدّعاء البشريّ المحض ، أم على السفارة الإلهيّة للنبيّ محمّد من قبلِ اللهِ تعالى خالق الخلق وعارف الأسرار ..؟ من هنا يمكننا فهم الكثير من آيات القرآنيّة الكونيّة التي كان يختم اللهُ في ذيلها بقولهِ

---

[١] سورة الشعراء .

[٢] سورة البقرة .

[٣] سورة البقرة .

[٤] سورة الصافات .

[٥] سورة المعارج .

تعالى : أفلا تؤمنون .. أفلا تعقلون .. أفلا تتدبّرون .. المذهل أنّ الأساطير اليونانيّة الرومانيّة الفارسيّة والعربيّة وغيرها في هذهِ المواضيع زمن نزول القرآن كانت يقينيّة ونافذة بشكلٍ نهائيّ في الوسط العام .. بل ممنوع مخالفتها ..! لكنّ القرآن الكريم كان ينـــزل على خلافِ ما هي عليهِ ليقرّر واقعاً مختلفاً وجوهراً آخر كما هو واقع الحالِ في دفترِ الحقائق الكونيّة .. فهل في هذا أيّ دلالة عميقة الأثر ..! ومن جهةٍ أخرى يتحدّث اللهُ سبحانَهُ وتعالى في القرآنِ عن الشمسِ إذا كوّرت ، عن النجومِ وانكدارِها ، عن مجموعةٍ واسعةٍ في هذا الإطار ، ويأتي العلم ليقول :

- الشمس نجم يقدّر علماءُ الفلك عمره بحوالي ٤,٥ مليار سنة .

- ويضيفون : الشمس الآن في مرحلة أولى ، تتسم بتحوّل ذرات الهيدروجين إلى ذرات الهليوم .. ونظريّاً يُقَال : إنّ هذهِ المرحلة يمكن أن تدوم ٥,٥ مليار سنة وذلك وفق حسابات أنجزت والتي تقدّر لهذهِ المرحلة الأولى لنجم من نمط الشمس ديمومة زمنيّة قدرها (١٠ مليار سنة) تلي هذهِ المرحلة كما لوحظ بالنسبة إلى نجومٍ أخرى من نفس النمط .. وفي فترةٍ ثانية تتميّز بتمام تحوّل الهيدروجين إلى هليوم ، ويكون نتيجة هذا التحوّل تمدّد الطبقات الخارجيّة وبرود الشمس .

- وفي المرحلة النهائيّة تتناقص ضوئيّة الشمس بشدّة وترتفع كثافتها بشدّة أيضاً وذلك ما يلاحظ في أنماط النجوم المسماة بالأقزام البيضاء ..

- وعليهِ : المعطيات الحديثة تشير إلى أنّ ظروف النظام الشمسي لن تكون على ما هي عليهِ اليوم ..

بطبيعة الحال هذه معلومة إضافيّة مدهشة ، تدلّ على الإعجاز العالي للقرآنِ الكريم الذي لا يمكن على الإطلاقِ أن يدانيهِ أيّ كتابٍ آخر موجود الآن في الأرض .. إعجاز له الكثير من العلامات والشهادات التي نختارُ معها من أين نبدأ ، ويكفي فيها الإعجازِ المنقولِ إلينا بشكلٍ مذهلٍ كأعظم فتحٍ علميّ هائلٍ عبر هذا القرآنِ الكريم من خلالِ ما ورد في خصوص توسّع الكون ، بكل الإثارةِ العلميّةِ ومعانيها الإعجازيّة مع ما توصّل إليهِ علماءُ اليوم .. علماءُ الفلكِ والنجوم اليوم يتّفقون على أنّ توسّع الكون هو أعظم ظاهرة إكتشفها العلم الحديث .. وبطبيعة الحال حين نتحدّث عن توسّع الكون نشير إلى أنّ هذا التوسّع للكون يعتمد على معطياتٍ ماديّة وحسيّة ، وذلك من خلال دراسات طيف المجرات وعناوين أخرى .. فالإنتقال المنهجي نحو اللون الأحمر من الطيف يجد تعليلاً في تنحّي المجرات كلّ عن الأخرى .. وعليهِ : الإمتداد الكوني لا يكفّ عن الكبر ، وهذا الإتساع له أهميّته . إنّ السرعات التي تنتقل بها الأجرام السماوية قد تتراوح من أجزاء من سرعة الضوء إلى مقادير سرعتِه ..

يقول اللّٰه تعالى في محكمِ كتابهِ العظيم ، المذهل والمعجز : (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ، وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ(٤٧)[١] .. (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ، وَزَيَّنَّاهَا ، وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ(٦) [٢]

---

[١] سورة الذاريات ..

[٢] سورة ق .

السماء آية من آياتِ الإبداع ، وصورة من صورِ الإعجازِ الذي عكف البشريُّ أمامه بشكلٍ مثيرٍ ، خاشعاً ، مترقّباً ، مستغرباً ، مقرًّا أنّ صناعة الوجودِ لا بدَّ لها من حكيمٍ قادرٍ وعالمٍ عظيم هو اللهُ الخالق سبحانهُ وتعالى ..

* * *

غزو الفضاء :

كما هي الحالُ في أكثر من عنوانٍ كونيٍّ مدهشٍ لعصرِ الذرّة والجينات والعمق العلمي كما هو واقع عصرنا الحاضر من غوص الإنسان في بطنِ مجموعة واسعة من نواميس الكون وأنظمتِهِ كان القرآنُ على نفس المستوى من الخطاب الكوني المدهش يشيرُ إلى معانٍ أخرى ذات بُعدٍ إعجازيّ إضافيّ ومستقلّ .. من تلك الأمثلة ما كان يراهُ إنسانُ ذلك اليوم من جماد الناموس ، وسيطرة المادّة ، وحكومة الأوزان والجذبِ ونفوذه القاهر واستحالة الخروج من فضاء الأرض ، ومناعة الكون وسمائه أمام أدواتِ الإنسان العاجزة .. إقرأ كل الكتابات القديمة والحديثة ستجد هذهِ العناوين بشكلِها النهائيّ ، إلا القرآن الكريم الذي أصرّ على أنّ إمكانيّة الخروجِ والتغلب على الكُتل والأوزانِ وناموسِ المادّة والأثقالِ أمر ممكنٌ ، وهو قابل بشكلٍ فعليّ للتحقّق ، بل إنّ الساعة تقوم بزمنٍ يظنُّ الإنسان فيهِ أنه قادر على الأرض .. لقد كان الأمرُ غريباً على أسماعِ إنسان ذلك اليوم : عربيّ ويونانيّ ورومي وفارسيّ وغيره .. إلا أنّ القرآنَ قرّر إمكانيّة ذلك بشرط السلطان والمقصود بالسلطان هنا الأداة الممكنة القادرة على

إستغلال الناموس وقوانين الكون المتّصلة بهذا الجانبِ من النفاذ ، أي تلك التي لها صلة بتطويع المادّة والأوزان والجاذبيّة وقوى الدفع وشبه ذلك .. وقد قال اللهُ تعالى :

- (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ،
- إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ،
- لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ(٣٣)

هذا الخطاب يشير إلى إمكانيّة تذليل الناموس الكوني المتّصل بالكتلِ والجاذبيّة وقوى الدفع وغيرها .. يقرِّرُ أنّ النفاذ من أقطار السمواتِ والأرضِ ممكن ، ما يعني أنّ النصَّ في مقام الإشارة إلى الإمكان العملي وحظّ البشر منه لبلوغ النفاذ ذلك .. المثير هنا أنّ القرآن الكريم لم يكن ليتأثّر مطلقاً بالأفكارِ السائدة في ذلك الزمن .. بحيث قرّر القانون والإمكان وفق الصورةِ الكونيّة الواقعيّة حتى وإن كان الأمر من الجهة التاريخيّةِ البشريّةِ غير مقبول لأسبابٍ تتعلق بالأساطيرِ وغيرها .. كلّ هذا بخلافِ الذي قرأناه في خصوصِ الكتابِ المقدّس في أكثر من معنىً وموضوع .. وعليهِ : يقرّر في هذهِ الآية مجموعة من عناصر منها :

١. الإنسان وإمكاناتهِ ..
٢. إمكان النفاذ الكوني أو على الأقلّ من الأرض وما يتّصل بها من مجموعات عبر أدوات لها سلطنة في ذلك وفق الممكنِ في الناموس وتطويعهِ .. وهذا واضح جدّاً في المنطق القرآني الذي نسف إمكانيّة

الإستحالة من هذهِ الجهة ، وهذا الأمر حسب الذهن الموجود في القرن السابع ميلادي كان شديد الغرابة ..! ألا يحتاج هذا الأمر إلى إعادة قراءة لما عليهِ القرآن من عظمةٍ لا يمكن على الإطلاق إلا الخشوع أمامها ..

٣. كما يتضمّن إشارة كبرى إلى أنّ الكون مفتوح في أنظمتهِ وقوانينهِ على الإمكان التقني لبلوغ ذلك ضمن الممكن وفقاً للقوانين المغروسة في هذا الكون من قبل اللهِ تعالى ..

٤. وبضميمة الآية التي تتحدّث عن أنّ الساعة تقوم في عصرٍ تكون فيهِ الأرض قد أخذت زخرفها وازّينت وظنَّ أهلها أنّهم قادرون عليها ، يفتح اللهُ مشهداً من المستقبل المتحقّق للبشرِ ، يشيرُ فيهِ إلى حظّ البشرِ من بلوغ مراتب كبرى من الفتوحات العلميّة ، ولو على الأقلّ في مجال التطويع الكوني وتذليل الأنظمة الطبيعيّة .. بضمِّ هذهِ الآية إلى آية النفاذ يكون المجموع وفق الصورة التالية : تطويع الأرض إلى مستوى يظنُّ الإنسان معه أنّه قادرٌ عليها ، والآية صريحة في ذلك ، إضافة إلى عنوان من عناوين تذليل الأنظمة الطبيعيّة في عمليّة النفاذ ، خاصّة أنَّ لسان الآية في مقام الإشارةِ إلى التحقّقِ الإمكاني على الأقلّ ، وليست في مقام فرض الصورة النظريّة المستحيلة ، وعليهِ : يبدو القرآن الكريم في مقام بيان حظّ البشر من إمكان عمليّ تطبيقيّ في تطويع مجموعة واسعة من الأنظمة المحشّدة في بطن هذا الكون ، والمتّصلة بحاجة الإنسان الممكنة وفق الرزنامة العلميّة ، بصورةٍ كان يظنُّ معها إنسانُ الأمسِ أنّها أقرب

إلى الإستحالة ..! فأيّ عظمةٍ هذهِ التي سردها القرآنُ علينا لتكون واحدة من واحاتِ الإعجاز المنقولِ فوق متن الزمن ..!

لا يمكن لأيٍّ عاقلٍ أن يمرَّ على مثلِ هذهِ المعاني مرور الكرام ، بل يرى فيها دلالة كبرى إعجازيّة على متنِ هذا الكتاب الذي تحدّث عن أدقّ العناوين وأدقّها وهي التي احتار بها العلم قبل وصولهِ إلى مستوى كبير من الأدوات والتقنيّة والعلوم .. أنا شخصيًّاً اهتزَّ أمام هذهِ الآيات المدهشة ، ويرتعشُ كلُّ شيءٍ في بدني ، ويخشع كلُّ وجداني وأعماقي ، حتى أنّني أصدّق بشكلٍ يقينيّ ليس بعدهُ يقين كلّ ما ورد في هذا القرآن بعد أن طأطأ العلم والعلماء برؤوسِهِم وإقراراتِهِم أمام منصّة آياتِ هذا القرآن العظيم .. ألا ترى أنَّ أهمّ الإكتشافات العلميّة الثابتة اليوم بشكلٍ نهائيٍّ تأتي متوافقة مع منطقِ هذا القرآن بشكلٍ مذهلٍ ودقيق ..! في حين يقرُّ إنسانُ الحضارةِ الصناعيّة الجبّارة اليوم بأنَّهُ لولا التكنولوجيا الضخمة والتقنيّة الهائلة والأدوات العملاقة ومجموع العلوم الواسعةِ العُمق لما أمكنهُ مطلقاً أن يصل إلى حقيقة ما عليهِ هذهِ الأنظمة الكونيّة التي تعرَّض لها القرآن .. فهل ترى في مثلِ هذهِ الشهادات التي أطبق عليها علماء اليوم من دليلٍ إضافيٍّ على عظمةِ هذا القرآنِ ورفعتهِ ..؟

والأمر الأكثر أهميّة ما أشار إليهِ الله تعالى في قولهِ :

(لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ(١٤)لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥)

لا شكّ أنّه تعبير مدهش للغاية ، أمام مشهد مستحيل التعقّل في ذلك الزمن ، تعطينا هذه الآية نتيجة كونيّة مظهريّة لواحدة من نماذج التجربة البشريّة القادمة ، فتعرض بين أيدينا مشهداً فيه كلّ الإثارة يستدعي الخشوع كلّ الخشوع أمام مضمون هذا القرآن العظيم الذي قال بحقّه الله تعالى (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) ... الآية تشير إلى مشهد حيٍّ مذهل من مشاهد السماء للإنسان الذي يسبحُ في الفضاء ، ولا تكتفي بالإشارة هذه بل تتبعها ببيان قانون يتّصل بحقائق صورتها وواقع بصر الإنسان المختلف عمّا عاينهُ أو كوّنه عبر نظرته إلى السماء من الأرض . وعليه : فقد عاش روّاد الفضاء الأوائل دهشة معاني هذه الآية وبشكلها الساحر ، وذلك عبر المغامرة التي تمّت في العام ١٩٦١ وهو تاريخ طيران الإنسان الأول حول الأرض . فالإنسان الموجود في الفضاء أبعد من الطبقة الجويّة المحيطة بالأرض يرى السماء سوداء ، وهي تبدو محاطة بهالة لونيّة زرقاويّة ، وذلك لنفس سبب ظاهرة الإمتصاص الضوئي لطبقة الجوّ الأرضيّة ، في حين القمر الذي لا يحيط به جو فإنّه يبدو في ألوانه الخاصّة به على خلفيّة سوداء من السماء .. من هنا فإنّ القرآن استعمل أدقّ تعبير " سكرت أبصارنا " إشارة إلى أنّها لا تعمل وفق وظيفتها الضوئيّة المكوّنة عن السماء في الأرض .. من هنا أضاف القرآن إلى تلك المساءلة والحيرة الساحرة التي حكاها عن لسان الإنسان تعبير " بل نحن قوم مسحورون " أي ماذا طرأ علينا ..؟ ما هذا السرّ الذي غيّر من حقيقة الحال ..؟ حيث السماء تبدو سوداء ، على غير ما ظنّ الإنسان الأرضيّ منها ..؟ كان الأمر بالنسبة إلى المغامرة الأولى من كشف هذه الحقيقة بمثابة سرّ كبير ، واكتشاف ضروريّ لا بدّ منه ، ومفاجئة

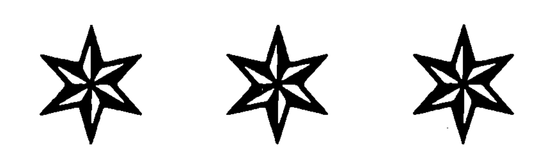
حقيقيّة في القرن العشرين ، قرن العلم وغزو الفضاء .. في حين قرَّرَ القرآن تلك الصورة وحقيقتها منذ أكثر من ١٤٠٠ عام أي منذ القرن السابع ميلادي .. ألا يدلّ هذا على نوعٍ مثيرٍ من الدهشةِ والعظمة في هذا القرآن الذي لم ينتظر القرن العشرين حتى يقرّر حقيقة ما عليهِ السماء والبصر في لحظةِ تجربةٍ هي الأعمق في رحلة البشر خارج الأرض .. وها نحن الآن على مقربةٍ حسيّة مشهديّة منه ، مشهد سِيق ضمن الإشارات المذهلةِ في القرآن ، وها نحنُ اليوم نجد دهشتَه الرائعة بشكلٍ يدلُّ على عظيمٍ ما في هذا القرآن .. هذهِ الحقيقة تتضمّن الإشارة إلى موضوعٍ لا يمكن أن يطّلع عليهِ أحد إلا الله أو عبر تقنيّة تمكّنه من مشاهدةَ هذهِ الحقيقة في فضاء السماء .. ألا يعتبر هذا الأمر مبهراً ومذهلاً في آنٍ معاً ..! أي عظمةٍ حشدّها اللهُ في هذا القرآن .. لا شكّ انّها عظمة إستثنائيّة من نوعٍ يقرّ بما لهذا القرآن من إعجازٍ في عصر العلم وغزو الفضاء ، بل هي آية من الآياتِ التي تشير إلى نموذج من تحقّق غزو الإنسان لما هو خارج كوكب الأرض وصورة تطبيقيّة لما أشار إليهِ من إمكان النفاذ من أقطار السموات والأرض عبر السلطان ، أي الأداة والتقنيّة القادرة على ذلك بخلاف المترسِّخ آنذاك في فقهِ العلماءِ والأساطير الشعبيّة من إستحالة ذلك مطلقاً .. فأيّ عظمةٍ لهذا القرآن وهو يسجِّلُ المشهد الوجدانيّ الكامل لإنسان القرن العشرين وما بعدهُ بحروفٍ نزلت منذ القرن السابع ميلاديّ ..! وقد قال اللهُ تعالى :

- (... فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(٧٥)
- وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(٧٦)
- إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ(٧٧)

- فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ(٧٨)
- لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ(٧٩)
- تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٨٠)

وتؤكّد أحدث خارطةٍ للكونِ كان قد وضعها علماء بريطانيّون وأستراليّون الفكرة الشائعة التي تقول : انّ الكون معتم وفارغ ، تتخلّله خيوط من الضوء تشكّلها المجرّات .. وسيعتمد الباحثون لسبر أغوار الكون على الحسابات الخوارزميّة لرصد مواقع مئتين وخمسين ألف مجرّة تبعد حوالي ٣ بلايين سنة شمسيّة عن الأرض .. وعليهِ : إذا أضفنا هذهِ الآية إلى سابقاتِها من مقدرة الإنسان على الأرض ، وإمكان النفاذ ، وخروجِهِ إلى الأفقِ ومشاهدتِهِ السماء بواقعٍ مختلفٍ جدًّا عن منظرها من الأرض ، وإذا بها سوداء ، مظلمة ، يظنُّ الإنسان معها وكأنّه مسحور في نظرِهِ .. تكون النتيجة أنَّ لسان تلك الآياتِ الكريمة ناظر إلى الإمكان التحقّقيّ فضلاً عن الإشارات الكشفيّة التي تعتبر اليوم من مضامين السرِّ الكونيّ وروائعِهِ ..

أن يصل الأمر إلى هذا المستوى من الكشفِ ليأتي إنسان القرن العشرين وما بعدهُ ليدرك هذهِ الحقيقة ، هنا يبدو القرآن الكريم على موقعٍ من رفعةٍ أعجزت البشر ، تعلنهُ كتاباً لا يمكن أن يدانيهِ أيُّ كتاب .. أفلا تعقلون ..؟



مشاهد كونيّة طبيعيّة أخرى يشير لها القرآن الكريم

من يتابع بمجموعة الآيات الكونيّة الطبيعيّة في القرآن الكريم يجدها كثيرة وهي على نحوٍ من إشاراتٍ كبرى ، وفي كلّ قفزةٍ من العلمِ يتكشّفُ فيها جديد وهذا سرُّ الحياةِ المتوهّجةِ في هذا الكتاب الربّاني العظيم .. كثيرة هي العناوين المدهشة ، كثيرة هي النماذج الدقيقة جدًّا في آياته .. يقولُ اللهُ تعالى :

- (لَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ(١٦)
- وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(١٧)
- إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ(١٨)
- وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ(١٩)
- وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ(٢٠)

وفي سورةٍ أخرى يقول تعالى :

- (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ(٢١)
- وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ(٢٢)
- وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ(٢٣)

- وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ(٢٤)
- وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ(٢٥)
- وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ(٢٦)[1]

بهذهِ الآياتِ القرآنيّة يشيرُ اللهُ تعالى إلى مجموعةٍ من المعاني ذات البعد الطبيعي الكوني منها :

١. دورة الماء والبحر .
٢. تضاريس الأرض .
٣. الطبقة الجوية المحيطة بالأرض ..

يقول العلماء : إنّ القشرة السطحيّة للأرض لم تكن مستقرّة في عصورها الأولى قبل أن تبرد ، ومع ذلك لم يتمّ إستقرار القشرة الأرضيّة بشكلٍ مطلقاً ، إذ توجد مناطق ما زالت تحدث فيها الزلازل بشكلٍ متقطّعٍ ، وهذهِ دلالة على عدمِ الإستقرار في بعضِ المناطقِ ، نعم تمّ الإستقرار في غالبها وبشكلٍ واسع .. وسنتحدّث عن هذا الموضوع بشيءٍ من التفصيلِ تحت عنوانٍ مستقلٍّ ، وسنبدأ الإشارة وبالتدريج إلى الدورةِ المائيّة .. حيثُ يشيرُ اللهُ تعالى إلى خصوصِ الدورةِ المائيّةِ بعد سلسلةٍ من الإشاراتِ التي يستعرض فيها مجموعة من المخلوقات الكونيّة مثل الأرض والسماءِ فيقول تعالى :

- (ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا(٢٧)
- رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا(٢٨)

---

[1] سورة الحجر .

- وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا(٢٩)

ثمّ يتابع بقوله سبحانَهُ وتعالى :

- (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا(٣٠)
- أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا(٣١)
- وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا(٣٢)
- مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ(٣٣) [١]

السؤال الأوّلي :

كيف تتمّ دور الماء في الطبيعة .. ؟

المدهش وبخلاف كلّ المعطيات القديمة الأسطوريّة جاء القرآن مختلف جدّاً حتى عن تلك النظريّات القديمة المتخصّصة ليقرّر حقيقة الدورة المائيّة .. حتى عند " تاليس دي ميلات " الذي كان في القرن السابع قبل الميلاد كانت النظريّة التي تفسّر هذهِ الظاهرة أنّ ذلك يحدث عبر اندفاع مياه المحيطات بتأثير الرياح إلى داخل القارات ثمّ يسقط على الأرض ، ثمّ يلج التربة .. وكان أفلاطون يتقاسم هذهِ الأفكار ، ويعتقد أنّ عودة المياه إلى المحيط تتمّ بواسطة هوّة سحيقة إسمها " تاتار " وقد كان لهذهِ النظريّة أتباع عديدون حتى القرن الثامن عشر ومنهم ديكارت الشهير .. أمَّا أرسطو فقد افترض أنّ بخار ماء التربة يتكاثف في التجاويف الباردة للجبال ، وتشكّل بحيرات تحت الأرض تغذي الينابيع .. وقد تبعه بذلك سنيكا (القرن الأوّل الميلادي) وكان له أتباع

---

[١] سورة النازعات .

كثيرون حتى العام ١٨٧٧ منهم " أ . فوجلر " .. ويعود أوّل مفهوم صحيح عن دورة المياه إلى " برنارد باليسي " في العام ١٥٨٠ ميلاديّة ، الذي أكّد أنّ المياه الجوفيّة تأتي من تسرّب ماء المطر في التربة .. أيّ غرابةٍ في ذلك ..! حتى كبار العلماء والمفكرين والفلاسفة سقطوا أمام هذهِ الظاهرة عبر تفسيرٍ غير معقولٍ ، وحتى القرن الثامن عشر كان مؤيّدو هذهِ النظريّات كُثُراً .. أمام هذهِ الخريطة الهزيلة من معارفِ البشريّة كان القرآنُ الكريم وقبل ١٤٠٠ عام أي منذ القرن السابع للميلاد قد قرر صورةً مشهديّةً في غايةِ الروعة والحقيقةِ عن ذلك القانون الطبيعيّ فقال تعالى :

- (.. وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا ،
- فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ(٩) [1]

....

- (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ،
- وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ(١٨) [2]

- (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ،
- فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ،
- وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ(٢٢) [3]

---

[1] سورة ق .

[2] سورة المؤمنون ..

[3] سورة الحجر ..

- (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ،
- حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ،
- سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ،
- فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ ،
- فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ،
- كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٥٧) [1]

....

- (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ،
- ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ،
- ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ،
- فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ،
- وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ،
- فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ،
- يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ(٤٣) [2]

....

- (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ،
- حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ،
- سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ ،
- فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ،

[1] سورة الأعراف ..

[2] سورة النور ..

- كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٥٧) [١]

....

- (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ ،
- فَتُثِيرُ سَحَابًا ،
- فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ،
- وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا ،
- فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ،
- فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(٤٨) [٢]

....

- (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ،
- فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ،
- فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ،
- ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ ،
- زَبَدٌ مِثْلُهُ ،
- كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ،
- فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ،
- وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ،
- كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ(١٧) [٣]

---

[١] سورة الأعراف .

[٢] سورة الروم ..

[٣] سورة الرعد

- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ،
- فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ(٣٠) [1]

- ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ،
- فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا(٤١) [2]

....

- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ،
- ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ،
- ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ،
- ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ،
- إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ(٢١) [3]

- ﴿ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ،
- لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(١٩) [4]

....

- ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ،

[1] سورة الملك

[2] سورة الكهف ..

[3] سورة الزمر ..

[4] سورة المؤمنون .

- وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ(٣٤) [1]

دقّق بكلّ هذهِ الآيات ، بمضامينها ، بمداليلها ، كرّر قراءتَها ، فإنَّك ستجد فيها دفتر القانون الذي يعتبر اليوم من أهمّ معطيات العلم في اكتشاف الدورة المائيّة بعد مجموعة من الأساطير العلميّة وغير العلميّة .. كلّها تشير إلى أنّ الأمطار النازلة من السماءِ هي التي تموّن الينابيع وتفيض على الأرض الماء بشكلٍ نهائيّ وحاسمٍ .. أمّا متى كان ذلك الكشفُ ..؟ كان في وقتٍ يصرّ فيهِ كبار العلماءِ والمتخصّصين في ذلك الزمن وصولاً إلى رسوخِ ذلك في ذهنِ العامّة أنّ مصدر الماءِ هو من المحيطات التي تلقي بهِ عبر الريحِ في أرضِنا .. إنّ هذا دليل جليّ على أنّ ما جاء به القرآن كان على دقّةٍ متناهيةٍ لم ولن يتأثّر نهائيّاً بالأساطير والمعتقدات ذات المصدر البشري .. ألا تستوقفنا مثلُ هذهِ الآيات الباهرة بشكلٍ يتحيّر معه العقل ، فيقرّ بعظيمِ ما في هذا القرآن وعظيمِ شخصيّة ذلك النبيّ الكريم محمَّد الذي حُمِّل الرسالة ..

ثمّ يضيف اللهُ تعالى فيقول :

- (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ،
- ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ،
- ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ،
- فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ،
- وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ،

---

[1] سورة يس ..

- فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ،
- يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ(٤٣) [1]

....

- (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ(٦٨)
- ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ(٦٩)
- لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ،
- فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ(٧٠) [2]

إنّه تعبير بليغ جدًّا ، فيه إشارة كاملة إلى السحاب ، إشارة إلى الدورة المائيّة وبشكلٍ عالٍ وفائقٍ ، إشارة إلى حمل الغيمِ لمادّة المطرِ والثلج .. وهذا المعنى كان مرفوضاً بشكلٍ نهائيٍّ في مثلِ تلك الأزمان حتى القرن الثامن عشر ..! فأيّ قرآنٍ هو هذا ..! لقد كتب " م ، أ . فاسي " مهندس عام الأرصاد الجويّة في مقالة الهواطل بدائرة معارف أونيفرساليس ما يلي : (.. لن يمكن أبداً إسقاط المطر من سحابةٍ لا تحتوي على سمات السحابةِ القابلة للهطولِ ، أو من سحابةٍ لم تصل إلى درجة مناسبة من التطور والنضج ..) .. وحسب تعليمات الهيدرولوجيا الحديثة فيمكن تلخيص الدورة المائيّة على الشكل التالي :

- يثير الإشعاع الحراري للشمس تبخّر الماء في المحيطات وكلّ السطوح الأرضيّة المغطّاة أو المشبّعة بالماء ،

---

[1] سورة النور

[2] سورة الواقعة ..

- يتصاعد بخار الماء بهذا الشكل نحو الجوّ ، ويشكّل سحباً عن طريق تكاثفه ،

- عندئذٍ تدخل الرياح لتؤدّي دورها في نقل السحب بعد تشكّلِها إلى مسافات متنوّعة ،

- وقد تختفي السحب دون أن تعطي مطراً ،

- كما يمكن أن تلتقي كتل السحاب مع كتل أخرى لتعطي بذلك سحباً ذات كثافة كبرى ،

- وقد تتجزّأ لتعطي مطراً في مرحلةٍ من تطوّرها ،

- وسرعان ما تتمّ الدورة بوصولِ المطر إلى البحار (التي تشكّل ٧٠ في المئة من سطح الكرة الأرضيّة) ،

- أمّا المطر الذي يصل إلى الأرض فقد يمتص جزئيّاً بواسطة النباتات ، مساهماً بذلك في نموّها ،

- وهذهِ النباتات بدورها تقوم من خلال ترشّحها بإعطاء جزء من الماء إلى الجوّ ،

- أمّا الجزء الآخر فإنّه يتسلّل بمقدار ، قد يقلّ أو يكثر إلى التربة ليتّجه نحو المحيطات عبر مجاري الماء ، أو قد يتسرّب في التربة ليعود نحو الشبكة السطحيّة عن طريق الينابيع أو الأماكن الأخرى التي يخرج منها الماء إلى السطح ..

لا شكّ أنّها معطيات دقيقة .. لقد كان الأمر عصيّاً على ذهنِ البشرِ وملاحظاتِهم حتى احتاروا في أمرِهِ ، فلم يقفوا على الحقيقة هذهِ إلا بعد أن

طوّروا التقنيّة وطوّعوا العلم ، وإلا فإنّك تحتار حتى من كبارِ العلماءِ كيف وقعوا فريسة أساطير هي مدهشة فعلاً .. ومع هذهِ المعطيات يبدو القرآن الكريم أوّل وثيقة نوعيّة ذات دلالة مذهلةٍ وبالغة تبيّنُ هذهِ المعاني التي ظلّت ردحاً طويلاً من الزمنِ خافيةً ، مستترةً ، تتجاذبها الأساطير .. هل في ذلك آية بليغة على حقيقة القرآنِ العظيم الذي جاء بهِ الرسولُ محمّد ..! ألا يحقّ لنا أن نسأل هنا : لماذا لم تتسلّل الأساطير التي كانت مسيطرة بشكلٍ مطلقٍ في ذلك الزمن إلى القرآنِ الكريم ..! لماذا لم يتبنَّ القرآن هذهِ الأساطير ، بل رفضها رفضاً مطلقاً ..! هل هذا يدل على أنّ القرآن كتابة بشريّة أم قرآنٌ ربّانيّ ..؟ لا شكّ أنّ القول بأنّه قرآن ربّانيّ أمر نهائي وحتميّ بكلّ المقاييس ..

✡ ✡ ✡

البحر

موضوع البحر في القرآن الكريم غزير وواسع ويحتاج إلى فصلٍ خاص أشمل من بحثنا هذا ، حيث نستعرض هنا النتائج الضروريّة لبيان العظمة الكامنة في هذا القرآن .. من هنا فإنّني سأشير إلى بعض العناوين بنحوٍ مختصر .. فقد قال اللهُ تعالى :

- (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ،
- وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ،
- وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ،

- وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٤) [1]

- (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ(٢٤) [2] .. الجوار تعني السفن ..

- (وَءَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ(٤١)
- وخلقنا لهم من مثلِهِ ما يركبون ..) [3]

إضافة إلى غيرها من الآيات التي تضمّنت الإشارة إلى تشبيه الأرض بالفُلكِ المشحونِ والسبح في البحرِ مرّةً والفضاءِ مرّةً أخرى في حين استعمالُ السبح يكون للبحر من حيث استعمال اللفظ في معناه الموضوع له مباشرةً لا على نحو المجاز والكناية .. بذلك يقرِّرُ القرآن صلةً مذهلةً بين معنيين : الأوّل في البحرِ والثاني في الكون وكلاهما يبدو فيهما فُلك مشحون . الأوّل عبارة عن سفينةٍ فيها البشر تبحر في الماء .. والثاني عبارة عن كوكبٍ يسبح في الفضاء (يبحر) وهو يحمل البشر .. لقد بيّنَ القرآن هذهِ الصلة التكوينيّة المتّصلة بهذين المعنيين في زمنٍ لم تكن البشريّة فيهِ تعرفُ شيئاً عن موقعِ الأرض وصلة التشابُهِ من سبحِ البحرِ إلى سبحِ الفضاء ، وقد تعرّض القرآن بشكلٍ تفصيليّ للكواكبِ والنجوم السابحةِ في الفضاء بكلّ ما تثيرهُ من دهشةٍ ، وما تمليهِ على كلّ عاقلٍ وخبيرٍ من إقرارٍ وخشوعٍ لما يحتضن هذا القرآن من إعجازٍ وإثارة .. وهكذا في

---

[1] سورة النحل .
[2] سورة الرحمن .
[3] سورة يس ..

عناوين عديدة متّصلة بالبحر كشف الله عن مجموعة من مزايا لم تكن معروفة أبداً وظلّت تنتظر ثورة الإكتشافات العلميّة التقنيّة .. وقد قال الله تعالى :

- (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ،
- هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ،
- وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ،
- وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا(٥٣) [١]

- (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَان ،
- هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ ،
- وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ،
- وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ،
- وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ،
- وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ،
- لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ،
- وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٢) [٢]

- (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ(١٩)
- بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ(٢٠) [٣]

---

[١] سورة الفرقان .

[٢] سورة الفرقان .

[٣] سورة الرحمن

في طولِ هذا التعبيرِ أشار القرآنُ الكريمُ إلى نظام الإستقلال الطبيعي في كلٍّ من الماء العذب والمالح ، وضمن خصوصيّةٍ محدّدة .. كما هي الحال مع مصبيّ نهري دجلة والفرات ، اللذين يشكلان بإلتقائهما بحراً طوله ١٥٠ كلم حيث شطّ العرب .. كما هي الحالُ أيضاً في بعض المجاري النهريّة التي تتميّز بمخزون مائي كبيرٍ مثل الميسيسيـــبي ونهر يانج تسي .. في حين كان الذهن العام آنذاك بل الإرتكاز العلميّ يصرّ على أنّ الأمر ممنوع ، وهو غير ممكن ، إلا أنّ حقيقة الواقعِ كانت تخالف ذلك إلا أنّ البشريّة لم تكن تعلم شيئاً عن ذلك . وقد أشار القرآنُ إلى ذلك بشكلٍ رائع في زمنٍ كان الإرتكازُ فيهِ على المنعِ حتى من قبلِ أكابرِ العلماء .. بل لم يكن أحد على الإطلاق يتصوّر إمكانيّة ذلك ، إلا أنّ القرآن منذ أكثر من ١٤٠٠ عام يقرّر ذلك ، وقصة عالمِ البحارِ الفرنسيّ المعاصر الذي أقرّ عبرها بما للقرآنِ من مخزونٍ علميّ هائلٍ ومعجزٍ حين وقف على مثلِ هذهِ الآياتِ ومدلولِها ، وهي ما زالت منشورة ومعروفة .. مع كلّ هذا ألا يستحقّ هذا القرآن أن يكون الوثيقة النوعيّة المقدّسة لكافّة بني النوعِ البشريّ ..!

الأهمّ من كذلك أن نسأل : أيّ جرأة للقرآن في مخاطبة البشر بنوعٍ شموليٍّ من آياتِ التكوين والطبيعة والنواميس ذات الصلة بحقائق الأشياء .. ها هي مقرّرات العلماء الأسبقين أصبحت في كثيرٍ من معانيها مجرّد تراث ، مجرّد كتابة ظرفيّة ، حتى مجموعة من العناوين الواردة في الكتاب المقدّس لم تصمد أمام معطيات العلم النهائيّة .. في حين حشّد القرآن مجموعة من آياتٍ كونيّةٍ واسعةٍ ومتزايدة ، وهي لا تنظر إلى الأمورِ السطحيّة ، بل تشيرُ إلى مجموعة من القوانين

الأوليّة الأعمق في علم الكون والطبيعة .. وهي مع ذلك تتفوّق بشكلٍ إعجازيٍّ هائل .. ألا يدلُّ هذا على حقيقة العظمة التي احتضنها هذا القرآن وعظيم الرسالة التي بعثَ الله فيها النبيَّ الخاتم محمّد (ص) ..! الأمر لا يحتاجُ إلا إلى وقفة تأمُّل ..

✡ ✡ ✡

تضاريس الأرض ..

لا شكَّ انَّ هذا الموضوع يعتبر من المواضيع الدقيقة جدًّا وقد خاض فيه الكثير من العلماء على طول حقبةٍ زمنيّةٍ واسعةٍ وضمن مستوياتٍ متعدّدة من المستوى العلمي إلا أنّهم فشلوا في معالجة الكثيرِ من جهاتِهِ وعناوينِهِ ، وظلّوا ينتظرون العلم وتقنيّاتِهِ ومعدّاتِهِ لمعرفة الحقائق .. من هنا تكون المعالجة القرآنيّة لمثلِ هذهِ الأمور على نحوٍ جبّار ودليل إضافيّ على عظمةِ ما فيهِ .. بادئ ذي بدئ ، يتّفق العلماءُ على أنَّ تركيب الأرض معقّد جدًّا .. ويمكن تصويرها على الشكل التالي :

- إنّها مكوّنة من طبقةٍ عميقةٍ ،
- فيها درجات حرارة مرتفعة جدّاً ،
- فيها جزءٍ مركزيٌّ تنصهرُ فيهِ الصخور على وجهٍ خاص ،
- وطبقةٍ سطحيّةٍ ، أي القشرة الأرضيّة الباردة والصلبة ،
- وهي بصورةٍ عامّة تتكوّن من سبع طبقاتٍ أو ألواح ..

- يشارُ إلى أنّ القشرة الأرضيّة رقيقة جدّاً ، فسمكها يتراوح من عدّة كيلومترات إلى عدّة عشرات الكيلومترات على أقصى تقدير .. في حين يزيد نصف قطر الأرض بقليل على ٦٠٠٠ كلم .. وذلك يعني أنّ متوسّط قشرة الأرض لا يمثّل واحداً من مائة من نصف قطر الأرض ..

- يشير العلماءُ إلى أنّ الظاهرات الجيولوجيّة كانت قد وقعت على هذهِ القشرة الرقيقة ..

- يقول العلماء : إنّ أساس هذهِ الظاهرات هو التعرّجات ، وهي أصل سلسلة الجبال ، ويسمّى تشكلها في علم الجيولوجيا بـــ (تكوّن الجبال) ولهذهِ العمليّة أهميّة بالغة لظهور البروز الذي سيشكّل جبلاً مرتبطاً بهِ في العمق بإنغرازٍ نسبيّ للقشرةِ الأرضيّة ..

- إنّ تاريخ توزّع البحار والأراضي على سطح الكرة الأرضيّة لم يعرف إلا حديثاً ، وهو غير كاملٍ حتى بالنسبةِ إلى العصورِ الأقلّ قدماً ..

- يحتمل العلماء رجوع ظهور المحيطات المشكّلة للسطح المائي للكرة الأرضيّة إلى نصف مليار سنة تقريباً ..

- أمّا القارات التي كانت تشكّل كتلة واحدة في نهاية العصر الأوّل تفرّقت بعد ذلك ، ثمّ إنّ القارات أو قطعاً منها ظهرت بواسطة عمليّة تشكّل الجبال في المنطقة المحيطيّة (حالة قارة شمال الأطلنطي وجزء من أوروبا مثلاً ..) ..

- حسب الأفكار الحديثة فإنّ ظهور سلاسل الجبال هو الذي يسود تاريخ تشكّل الأراضي التي برزت ، ويصنف كلّ تطوّر من العصرِ الأوّلِ إلى العصرِ الرابع على حسب مراحل تكوّن الجبال ، وتجمع هذهِ في

دورات لها نفس الإسم كي تشكّل لبروز جبلي كان له ردّ فعل على التوازن بين البحار والقارات ، ففي عمليّة التطوّر هذهِ إختفت بعض أجزاءِ من الأرض كانت قد ظهرت من قبل ، وظهرت أجزاء أخرى ، وقد تعدل منذ مئات من ملايين السنين توزيع المناطق القارية والميحيطيّة ، ولا تحتلّ المناطق القاريّة الآن إلا ثلاثة أعشار الكرة الأرضيّة ..

كلّ ذلك حدث في مئات ملايين من السنوات الماضية .. وقد عالج اللهُ هذهِ المضامين بأكثر من آية ومعنى في القرآن الكريم وإليك نموذج أولي عن هذهِ الحقائق المذهلة .. يقولُ اللهُ سبحانَهُ وتعالى :

- (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩)
- لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا(٢٠)[١]

- (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ،
- فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ(٤٨) [٢] ...

تعبير مدهش ..! لأنّ من يقرأ القرآن يجد فيهِ أكثر من جهةٍ وعنوانٍ في الحديثِ عن الأرض ، مرّةً يتحدّثُ عنها من جهةِ انسلاخ الليلِ والنهار ، ومن جهة التكوير ، تكوير الليل والنهار أي تدويرهما ، ومرّةً من خلال وحدة نقطتيّ الشروقِ والغروب ، ومرّةً من خلال تعدّدِ الشروقِ والغروب ، ومرّةً من خلالِ سبحِها ، وفي كلّ ذلك إشارات وحقائق مذهلة من دوران الأرض ومواجهة

---

[١] سورة نوح .
[٢] سورة الذاريات .

قرص الشمس ودائريتِها وغير ذلك ممّا أشرنا إليهِ بشيئٍ من التفصيل ، إلى أن يشير هنا إلى نحوٍ آخر وجهةٍ أخرى في الأرض ، وهي المهد وبسطِها وغير ذلك من تعابير متّفقة وها المعنى .. ففي هذهِ الآيات الواردةِ هنا يعني بذلك القشرة الأرضيّة .. مع الإشارة إلى أنّ الأرض تتكوّن من سبعة ألواح كبيرة أو سبع طبقات .. لا شكّ أنّ التعبير القرآني هنا جاء متوازنا بشكلٍ متناهٍ وعالٍ وعلميّ إلى أقصى الحدود وكان سبباً في سوق العديد من أهلِ العلمِ إلى اعتناقِ الإسلام لأنّه خطاب مرتبط بمجموعِ الآياتِ المتّصلة بالحديثِ عن الأرضِ أو صلتِها بغيرها .. ففي معرضِ الإشارةِ إلى الأرض كان يشير إلى موقعٍ دوّار ، إلى مشارق ومغارب ، إلى جبالٍ وظيفتُها التثبيت ، إلى انسلاخِ الليلِ والنهار ، إلى تدوير الليل والنهار ، إلى نقطتيْ مشرقٍ ومغربٍ ، إلى تعاقب الليل والنهار على الأرض ، بل هناك بعضُ الآياتِ التي تشير إلى حدثٍ هائلٍ سيحدث والأرض تكون بين ليلٍ ونهار أي منقسمة بين ليلٍ ونهار (قسم فيهِ ليل وقسم فيهِ نهار ..) وهو أدقّ تعبير من انغماس الأرض في ظلمةٍ ونور عبر موقعٍ محدّدٍ مع الشمس .. مثلاً في سورة يونس يقول اللهِ تعالى :

- (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ،
- فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ،
- حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ،
- وَازَّيَّنَتْ ،
- وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ،
- أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ،

- فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ،
- كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٢٤)

لَاحظْ هذا التعبير بشكلٍ دقيقٍ (ليلاً أو نهاراً) حيث تكون الأرض ليلاً على بعضِ النّاس في جزءٍ من الأرض ، وتكون نهاراً على آخرين في الجزء الآخر المواجهِ للشمسِ .. وهو أمر لم يكن معروفاً قطّ إلا في القرآنِ الكريم .. ومن يقرأ نظريّات إنسان الأمس بخصوصِ الأرض والليل والنهار وتثبيت الأرض على قرن الثور أو مركزيّة الكون وثباتِها وغير ذلك من النظريّات التي كانت يقينيّة آنذاك ويقول بها كبار علماءِ في ذلك الزمن ، إلى غيرها من الأساطير المذهلة حتى في عرفِ أهلِ العلمِ آنذاك ، يقف بقداسةٍ كبرى وذهولٍ فائق وخشوعٍ عظيمٍ أمام ما جاءَ في القرآنِ الكريم .. ثمّ بعدَ كلّ تلك الإشارةِ الراقيةِ إلى العلامات التي تشير إلى التكوير والتدويرِ في بيانِ مشهدِ الأرض وصلتهِ الضوئيّةِ يتعرّض القرآنُ الكريم للأرضِ فيشير إلى عنوانٍ محدّد بقولِهِ تعالى : (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ، فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ) .

إنّها إشارة وظيفيّة لقشرةِ الأرض التي تصلح عليها الحياة ، وهذا قد ورد في كثيرٍ من الآياتِ التي أشارت إلى النِّعم على الإنسان من نباتٍ وحيوانٍ ومتاعٍ على الأرض ، أي على سطحِها ، هو ذا المهد وذاك الفرش ، تعبير حسب العلماء في غايةِ المتانةِ والدقّة والإشارة ، لأنّ هناك نوعاً آخر من طبقاتِ الأرض لا يصلح للعيش ، أعني بهِ الطبقات التحتيّة للكرة ، فهي ساخنة جدّاً وسائلة وغير صالحة لأيٍّ من أنواع الحياة .. موضوع الإعجاز في هذهِ الآيات أنّ الله تعالى في مجموعِ الآيات أعطا الأرض صورة هي عبارة عن كوكب سابحٍ ،

بمواجهةِ نورِ (الشمس) يصيبها في قسم ، ويغيب عنها في قسمٍ آخر ، فيتكوّر الليل والنهار ، ورغم تدوُّر هذهِ الأرض ، فإنَّها مسطّحة في قشرتِها الخارجيّة ، مهدها اللهُ بقوانينهِ الكونيّة ، لتتوافق بنعمةِ الله على الإنسانِ واستخلافه في الوجود الدنيويّ ، ومن الإشارات المعجزةِ أيضاً الإشارة إلى أنَّ هذهِ الأرض تعرّضت لزخّاتٍ من حديدٍ ونيكل مصدرها السماء ، فتكوَّنَ لبُّها الذي يعتبر ضرورة إمكان الحياة للبشرِ عليها .. وقد تحدثتُ عن ذلك فيما مضى ، إلا أنَّ ذلك لا يكفي فكان أن أشار اللهُ إلى وظيفةِ تثبيت الأرض على نحوٍ يمنع فيها الخلل وهي تدور ويحفظ توازنَها فأشار إلى الجبالِ ودورها في التثبيت والذي اعتبر من أهمِّ المعطيات العلميّة المكتشفة وقد بهر العلماء ولفت أنظارهم أنَّ دور الجبالِ هو اساس ثبات الأرض واستقرارِها على نحوٍ يلائم وجود البشر وإمكان الحياة عليها .. وعليهِ : المثير في تلك الإشارات المتعلقة بالأرض ، أنّها كانت تتبعها مجموعة متعدّدة من آياتٍ تتعلق بالتثبيت ، والتي انصبّت على دورِ الجبالِ الوظيفي .. ففي القرآن الكريم إشارة دقيقة ومذهلة إلى الجبال ودورها الوظيفي (التثبيت) نتيجة ظاهرات التعرّج .. يقول اللهُ تعالى :

- (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧)
- وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨)
- وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ(١٩)
- وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ(٢٠) [١]

- (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦)

---

[١] سورة الغاشية .

- وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا(٧) [1] ..

إلى العديد من هذهِ المعاني .. وفي العربيّةِ الوتد هو ما تثبّت بهِ الخيمة ويكون مغروساً في الأرضِ أكثر منه في السطح ، وقد جاء بهِ التعبيرِ القرآني ، ليدلّ على حقيقة الحال في الجبالِ .. وفي العلمِ الحديث بدا وبشكلٍ مذهلٍ أنّ الجبال لها دور أساسي وضروري ونهائي في عمليّة تثبيت الأرض وإلا تهاوت و لم تصلح عليها الحياة بل لا تُمكن ، لأنّ حركة الأرض تحتاجُ إلى مثبّت يتّصل بما هي عليهِ ، وقد جعل اللهُ للجبال هذهِ الوظيفة .. ويصف علماء الجيولوجيا الحديثون بخصوص تعرّجات الأرض : أنّها تثبّت الأجزاء البارزة التي تتنوّع أبعادها من الكيلومتر إلى عشرة كيلومترات ، ومن ظاهرة التعرّج هذهِ ينتج " ثبات القشرة الأرضيّة " وإلا كان الجحيم ينتظرنا بكلّ أنواعهِ ومعانيه ..!

يقول اللهُ سبحانَهُ وتعالى :

- (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا(٣٢) [2]

- (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ،
- وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) [3]

- (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ،
- وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ،

---

[1] سورة النبأ .
[2] سورة النازعات .
[3] سورة النحل .

- وَأَنْهَارًا ،
- وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ،
- يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ،
- إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٣) [١]

- (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ،
- وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ،
- وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) [٢]

- (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا ،
- وَبَارَكَ فِيهَا ،
- وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ(١٠) [٣]

- (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ،
- وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ،
- وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) [٤]

- (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ،
- وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ،
- وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ،

---

[١] سورة الرعد .

[٢] سورة الحجر .

[٣] سورة فصّلت .

[٤] سورة ق .

- وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ،
- فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ(١٠) [١]

- (أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ،
- وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ،
- وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ،
- وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ،
- أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ،
- بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٦١) [٢]

- (وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ،
- وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا ،
- لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٣١) [٣]

أيّ إعجازٍ هذا ..! وأيّ بيان ..! أي قلمٍ يصفُ ما فيهِ من إعجازٍ مذهلٍ ..! باطن وعميق مستمرّ إلى يومِ الدين ..! كلّ هذا علم ومعرفة بشريّة أم معرفة ربّانيّة ..! أيّ أدواتٍ تلك التي كانت مع رسولِ الله محمّد ..! وأيّ علمٍ كان علماءُ العصرِ آنذاك يقولون بهِ ويصرّون على أنّه معرفة نهائيّة ..! ألا يجب أن نتوقّف كثيراً امام مثل هذه العناوين الكبرى ..! إنّه الله فقط ، الذي أنزل الكتاب مصدّقاً ، حيث يقول اللهُ تعالى : (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ

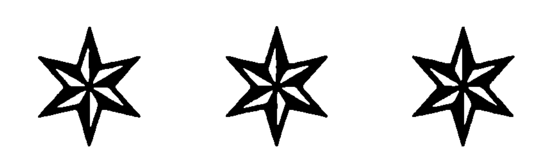
---

[١] سورة لقمان

[٢] سورة النمل .

[٣] سورة الأنبياء .

لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ، وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) .. هل نحتاج بعد ذلك إلى سرد المزيد من الآيات الكبرى التي تدلّ على إعجازِ الإعجاز المتّصل بنا على طولِ دوران الليلِ والنهار .. وكلّ شيءٍ فيه معجز .. حتى الرقم الذرّي للحديد يساوي عدد آيات سورة الحديد ..! وسنكتشف مع كلّ تطوّرٍ علميّ المزيد المذهل من الإعجازِ القرآنيّ الذي ستظلّ له الحجّةُ إلى يومِ الدين .. إنّ كثيراً من العلماءِ الطبيعيين والفلكيين وغيرهم اعترفوا أنّ ما في القرآنِ مذهل ، معجز ، يثير الخشوع بكلّ موقفٍ ومشهد .. حتى وظيفة التثبيت التي تعتبر أساس شرطي لديمومة الأرض لتبقى ممكنة للعيشِ والإستخلاف البشريّ أشار لها القرآن وبشكلٍ فائق في الدلالة بمجموعةٍ من الآياتِ التي تشير إلى نِعمِ اللهِ على الإنسان وفي بعضِها الآخر تشير إلى تسخير اللهِ تعالى للأرض وما عليها ، وما في السمواتِ من أجلِ هذا الإنسان .. فأيّ منطقٍ معجزٍ هذا .. !



من معطيات الفضاء ..

كثيرة هي العناوين المدهشة في مضامين هذا القرآن الكريم حتى الصلة بين الإرتفاع وضيق التنفّس التي سيمارسُها إنسان القرن العشرين على نحوٍ من تجربةٍ فعليّةٍ وبشكلٍ حسيٍّ حين غزا الفضاء أشار لها القرآن بشكلٍ متناهٍ ودقيقٍ ومعجزٍ بزمنٍ كان الإنسانُ فيهِ على نحوٍ من عيشِ الأساطير .. يقول سبحانَهُ وتعالى :

- ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ ،
- يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ،
- وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ ،
- يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ،
- كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ،
- كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ(١٢٥)[١]

ربّما كان الأمر في ذهنِ ذلك الزمن مجرّد إشارة إلى ضيقٍ نفسيٍّ ، لأنّهم كانوا لا يعرفون شيئاً عن حقائقِ ما فوقهم من أنظمة الكون ، ولم يجرّبوا غزو الفضاء وغيره .. إلى أن جرَّب إنسانُ اليوم وعن طريق الحسّ هذا المشهد بشكلٍ مطابقٍ لما عليهِ القرآن من إشارةٍ وبيان ، فقد ثبت اليوم أنّ ضيق النفس يتناسب ونسبة الإرتفاع ، وصولاً إلى أماكن يصعب فيها التنفّس على الإنسان .. لقد جاء هذا التعبير من خلال الربط بين الإمتناع عن قبولِ الإسلام وبين مظهرٍ طبيعيّ سيصل إليهِ الإنسان ، ويشعر بهِ بشكلٍ محسوسٍ ودقيق ، ليدل على عمقِ الفكرة التي ينادي بها هذا القرآنُ المذهل للإسلامِ ، كدينٍ عالميٍّ للبشرِ جميعاً ، ليكون تأييداً مذهلاً عبر قواميس أهلِ العلمِ التجريـبيّ للرسالةِ التي جاء بها رسولُ اللهِ محمّد من عند اللهِ تعالى .. إنّه رَبَطَ بين ذمّ إنكار الإسلام كدينٍ عالميّ من قبل اللهِ تعالى وبين مشهدٍ كونيّ سيتحقّق إنسانُ المعطياتِ العلميّة منه بشكلٍ محسوسٍ في زمنٍ يظنّ معهُ أنه قادر على الأرض .. ليكون دليلاً إضافيًّا على عظمةِ هذا القرآن وما جاء بهِ النبيّ محمّد ، وعلامةً على صدقِ هذهِ الرسالةِ

---

[١] سورة الأنعام

الكبرى التي حملها النبيّون على طولِ سلسلةِ البعثاتِ إلى البشرِ تحت إسمِ الإسلام الذي نادى بهِ كلُّ نبيّ ، وفق برنامج الله التكاملي بين الرسالاتِ لا الإلغائي .. يعترف العلماء بأنّ ما ورد في هذهِ الآيات هو في غاية الدقّة وكأنه وصف وجدانيّ تجربيّ كامل لما يعيشُهُ الإنسان اليوم بحيث يشعر بشكلٍ فعليّ بضيق التنفُّسِ من خلال قانون الإرتفاع الطبيعيّ وضمن حدودهِ وصولاً إلى أماكن يصعب فيها التنفّس على الإنسان ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ .. بلا شكّ انّها آية من الآيات المبدعة .. في مؤتمر الإعجاز العلمي بموسكو توقّف أهمّ العلماء أمام هذهِ الآية ، معجبين ، مندهشين ، إستوضحوا عن حقيقتها ، فكّروا مليّاً ، وأحدهم أعلن الإسلام ، مصرّاً أنّ هذهِ الآية وحدها تكفي للشهادة على أنّ هذا القرآن إنّما هو كتابُ الله تعالى .. أفلا تستحقُّ هذهِ الآيات الخشوع ..؟ ها هو إنسان اليوم بعد غزو الفضاء ، وتطويع المادّة ، يتعامل مع هذهِ الحقيقة بشكلٍ محسوسٍ ونهائيّ ، ليقرأ في هذهِ الآية دعوةً كبرى إلى الإسلام ، دعوةً إلى الدين الربّانيّ الوحيد الذي لا يُطاع اللهُ إلا عبرهُ ..

وهكذا ضمَّنَ اللهُ القرآن الكثير من الآياتِ التي سيتوقّف عليها البشر في عصورٍ مختلفةٍ ، وسيكون لها الأثر الأكبر في بيان الحجّة المستمرّةِ بدعوةِ اللهِ وقرآنهِ الكريم .. بالأمس لم يكن العالم يعرفُ شيئاً عن " الكهرباء الجويّة " وها نحن اليوم نعرف الكثير عنها وما يتّصل بها ، من صواعق وبرد بخلاف الماضي وما كان يتّصل بهِ من أساطير تسيطر على عقل العلماءِ قبل العامّة .. كلّ ذلك بخلافِ ما جاء بالقرآنِ الكريم ، الذي تضمّن الإشارة بشكلٍ بليغٍ إلى هذا القانون الرفيع فقال تعالى :

- (هُوَ الَّذي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ،
- وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ(١٢)
- وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِه ،
- وَالْمَلَائكَةُ مِنْ خِيفَتِه ،
- وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ،
- فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ،
- وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ ،
- وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ(١٣)[١] .. المحال أيّ القوّة ..

- (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ،
- ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ،
- ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ،
- فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِه ،
- وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ،
- فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ،
- يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ(٤٣)[٢]

في هاتين الآيتين تعبير في غاية الدقّة يشير إلى علاقة واضحة بين تشكّل سحب المطر الثقيلة أو البرد ووقوع الصاعقة ، وهذا ما نعبّر عنه اليوم بالكهرباء الجويّة .. تتضمّنُ هذهِ الآيات كشفاً عالياً عن هذا القانون ، بشكلٍ لا يسمح

---

[١] سورة الرعد .

[٢] سورة النور .

لأيِّ تأويل ، فأيّ علمٍ هذا ، وأيّ دلالةٍ هذهِ ..؟ في حين لم يصل البشر إلى هذهِ المعرفة إلا في زمنٍ قريبٍ جدّاً ، حيثُ كانت الأساطير مسيطرة بشكلٍ مطلقٍ وفق تفسير خرافي لهذهِ الظواهر ، ويكفي فيها أنّ أسطورة ماء المحيط والبحار هي التي كانت تطير من مكانِها لتمطر في مكانٍ آخر ، في إصرارٍ نهائيّ على منع ذلك عبر قانون التشكّل عن طريق السحب والغيوم ..! في هذهِ الآيات يقرّرُ اللهُ تعالى حقيقة ما سيسمّيه البشر " الكهرباء الجويّة " فيشير إلى قانونِها ، أليس في هذهِ الآيات دلالة بالغة على ما جاء بهِ النبيّ محمّد من عند الله ..؟ من هي الشخصيّة التي حدَّثنا عنها التاريخ أو تناقلتها الألسن ، أو طارت بها الشهادات وهي تحتضن بمجموعة من نظريّات أو واحدة منها دون أن يصفعها الزمن .. ها نحن اليوم نعتذر عن كبار العلماء بأنهم بشر ناقصو التقنيّة والأدوات الكاملة ، قاصرو الإحاطة ، من هنا لم يجرأ أيُّ عالمٍ على ادّعاء الحقيقة المطلقة ، بل لم يجرأ أيّ عالمٍ على تحدِي الزمن .. وكلٌّ من حاول ذلك فشل .. ومن يعيد قراءة النظريّات يدرك حقيقة ما أقول ، حتى بعض الكتب التي قيل في قداستِها أنَّها ثابتة ، وجدنا كيف أنها تعرّضت لهزّةٍ عنيفةٍ أمام معطيات العلم .. إلا القرآن ، ظلّ شامخاً ، مذهلاً ، حيَّر العلماء ، سبقهم بأشواطٍ كبرى لا نهاية لها ، ليبقى الكتابَ الذي تطوقُ إليهِ البشريّة وعندهُ تخشع .. ألا ترى أنّه كتاب يتحدّث مرّة عن الكهرباء الجويّة ، ومرة عن تشكُّل الكون ، ومرّة عن سببية الماء في منشأيّة الحياة ، ومرّة عن الكتلِ الغازيّة ، ومرّة عن توسُّع الخلق ، ومرّة عن المشارقِ والمغاربِ ونقطي المشرقِ والمغرب ، إلى الكثير الكثير ممّا يذهلُ قارئة ولا يقف على حدٍ من نهاية في صنفٍ أو نوع فهو يطير بالبشرِ من الكون إلى النبات ، ومن النباتِ إلى الماء والدورة الطبيعيّة ، ومنها إلى الكواكب والنجوم ، ومن هذهِ

وتلك إلى مراحل الجنين .. بشكلٍ مذهلٍ ، فائق الدقة ، وفيه أسرارُ الأسرار .. ! فأيُّ كتابٍ هذا .. وهل يصدق أنّه قول بشر ..! أم أنّه قرآن كريم في كتابٍ مكنونٍ من ربِّ العالمين .. ؟

وتجدرُ الإشارةُ إلى أنّ من يتابع شوط المعرفة البشريّ يجدهُ متعباً بشكلٍ خطيرٍ في كثيرٍ من معانيهِ وحظوظهِ ، إلى درجة أنّ تفسير الظلِ (ظلّ الأجسام) كان عندهم غريباً ، قاصراً ، وربّما يحيّرك أن تعلم أنّ كبار العلماءِ في ذلك الزمن احتار فيهِ و لم يصل إلى نتيجةٍ حقيقيّة .. أمّا القرآن فعلى ما تعوّدنا عليهِ أشار إلى قانونهِ موضحاً من البداية العلاقة بين الظلّ والشمس .. فقال تعالى :

- ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ،
- وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ،
- ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا(٤٥)
- ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦)[1]

بحيث أشار القرآن بشكلٍ واضحٍ إلى سرِّ العلاقةِ بين الظلّ والشمس .. وتجدرُ الإشارةُ إلى أنّ الناس كانوا على عهدِ النبيّ (ص) يعتقدون أنّ إنتقال الظلّ مشروط بانتقال الشمس من الشرقِ إلى الغرب ..! وكان هذا التعليل يلقى قبول وتأييد العلماء طيلة ذلك الزمن ، وتشيرُ الشهادات إلى أنّ هذا الأمر كان قانوناً مرتكزاً وثابتاً .. ومع كلّ هذا لم يسجّله القرآن ، بل سجّل عمق النظريّة

[1] سورة الفرقان .

الواقعيّة للناموس الكوني من هذهِ الجهة .. فهل في هذا دلالة على عمقِ الإعجازِ أم على دخالةِ البشر ..!

أكرّر : كلُّ هذهِ الآيات وغيرها من الآيات المعجزةِ الخالدة ، جاء في سياق الدعوة إلى اللهِ تعالى ..

✡ ✡ ✡

مظاهر وجوديّة أخرى :

كثيرة هي المواضيع المتنوعة ذات البُعد الإعجازي التي يعرضها القرآنُ الكريمُ في سياقِ الدعوة إلى الله تعالى .. ومن أدقّ تلك العناوين العنوان الذي يتحدّثُ فيهِ القرآنُ عن أصلِ الحياةِ ، ويأتي في رأس تلك الطليعة وبدقّة بالغةٍ قولهُ تعالى :

- ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ،
- فَفَتَقْنَاهُمَا ،
- وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ،
- أَفَلَا يُؤْمِنُونَ(٣٠)[١]

عبارة (وجعلنا من الماءِ كلّ شيءٍ حيّ) تعني أنَّ كلَّ شيءٍ تتوقّف الحياةُ فيهِ على المياه كعنصر أساسي ومركزي .. أو أنّ أصل كلّ شيئ حيّ هو الماء ..

---

[١] سورة الأنبياء .

وأحبّ أن أشير هنا إلى أنّ هذا القانون المعرفي التكويني لم يكن موجوداً على الإطلاقِ في ذلك الزمن وإلى عصرٍ قريبٍ منّا ، أمّا الحديث عن أصل الحياة فقد نالت منه الأساطير ما نالت بشكلٍ مذهلٍ ، حتى أنّها تسرّبت إليهِ وفق مجموعة عالية من أفكار قيل فيها أنّها علميّة ودينيّة وشبه ذلك .. ويكفي أنّ هذا الموضوع يعتبر من المفاصل الرئيسيّة في معرفة البشرِ بعد أن تمّ إكتشافُهُ .. في ذلك الوقت سجَّلَ القرآن الكريم أهمّ نظريّة على الإطلاق سيعتبرها العالم فيما بعد الصورة الواقعيّة النهائيّة عن أصلِ الحياة ، وليقول في القرن العشرين وما تلاه أينما تجد الماء تجد الحياة ، وعلى هذا الأساس تعمل وكالة الفضاء الأمريكيّة " ناسا " وغيرها بحشدٍ هائلٍ من العلماء الذين يعتبرون هذا القانون هو الأهمَّ في أدواتِ تفتشيهم عن الحياة .. وها هم دائبون في عمليّةٍ واسعةٍ للتفتيش عن أثر الماء أو وجودِهِ في الكواكبِ ، كالمرّيخ وشبهِهِ ، بهدف تقرير نتيجة مفادها : هل توجد حياة على ظهر هذهِ الكواكب ؟ أو هل ذلك ممكن ؟ أو هل وُجِدت الحياةُ من قبل على ظهرِها ..؟ بطبيعة الحال كان الأمرُ مذهلاً أن يكتشف العالم أنّ القانون الأهمّ في تاريخ الإكتشافاتِ هو مقرّر في القرآنِ الكريم منذ أكثر من ١٤٠٠ عام على يد الرسالةِ التي جاء بها النبيّ محمّد المصطفى (ص) وفق الإشارةِ إلى أهمَّ وأعقد قانون على الإطلاق .. وإليك المعطيات التالية :

- الثابت علميّاً اليوم أنّ أصل الحياةِ مائيّ . وأنّ الماء هو العنصر الأوّل المكوِّن لكلّ خليّةٍ حيّة ، فلا حياة ممكنة بلا ماء . كلّ ذلك يأتي في نفس الوقت الذي استبشرَ فيهِ العلماء خيراً بعد أن أشارت المركبة الأمريكيّة الثانية التي بُعِثت إلى المريخ بمؤشراتٍ تشيرُ إلى أنّ هناك في عمق المرّيخ

قسماً متجمّداً (لكنَّ الأمر ما زال في خانةِ الإمكانِ ، من دون حكمٍ نهائيٍّ) ما يعني أنَّ هذا الكوكب شهد نوعاً ما من الحياةِ .. وعلى القاعدة : أين يوجد ماء توجد الحياة . ما يعني فتح ثغرة في أملِ المجموعةِ البشريّة على سطحِ هذا الكوكب اتجاه الحياة ..

- تشير المعطيات العلميّة الحديثة إلى أنَّ أقدم الكائنات الحيّة تنتمي إلى عالم النبات حيث اكتشفت طحالب ترجع إلى ما قبل العصر الكمبري .. المعطيات العلميّة تشير إلى أنَّ عالم الحيوان ظهر بعد ذلك بقليل وقد أتت الحياة من المحيطات ، نعم بعض النظريّات الحديثة تشير إلى أنّ الحياة تكوّنت في الفضاء لكن عبر المياه أيضاً التي تتبخّر من المحيطات .. وفي واقع الحال تتجاذب عالمنا العلمي اليوم نظريّتانِ : الأولى تقول بنشوء الحياة في عمق البحار أي من المياه ، والثانية تقول في الفضاء لكن عبر مياه المحيطات المتبخّرة أيضاً ..

وكنّا فيما مضى قد تحدّثنا عن الماء والمطر ومصدره ، وقد أشرت إلى مجموعة دقيقة من نظريّاتِ ذلك الزمن الصادرة عن أهمِّ العلماء ، والتي لم تعرف حقيقة الدورة المائيّة الكونيّة .. ولم تكن البشريّة تعرف حقيقة الأمر إلى أن نزل القرآن فأشارَ بصورةٍ نهائيّة إلى النظريّةِ التي اكتشفَها العلم فيما بعد ، بعد عدّة قرون ، أي فترة تقارب القرن الثامن عشر (..!) ليكتشف أنّ الدورة المائيّة هي هي ، وفق المدلول القرآني وبشكلٍ نهائيّ وكامل .. وفيما خصَّ موضوعنا هنا ضمن حدود هذهِ الآية وما يتّصل بها من آياتٍ مختصّة فإنَّ كلمة ماء تشير إلى

ماء السماء ، كما تعني ماء المحيطات أو أيّ سائلٍ آخر ، يكون منشأً للحياة ..
يقول الله تعالى :

- ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ،
- وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ،
- وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ،
- فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣)[١]

هذهِ الآية تشير إلى ماءِ السماء ، وفي آيةٍ أخرى تشير كلمة ماء إلى معنى آخر ، أي إلى السائل المنوي ، مثل قولهِ تعالى :

- ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ،
- فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ،
- وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ،
- وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ،
- يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ،
- إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٤٥) [٢]

وسنرى فيما بعد أنّ هذهِ الكلمة تنطبق على السائل المنوي ، وهي إشارة حيّة وراقية ، بغاية الدقّة العلميّة لعصرنا اليوم ، عصر الهندسة الوراثيّة والإستنساخ والجين والبروتين .. هنا استعمل الله كلمة ماء للإشارة إلى هذا

---

[١] سورة طه ..

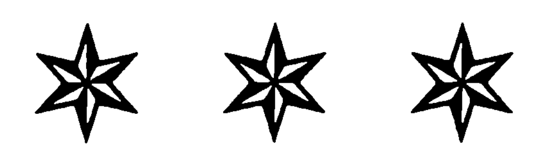
[٢] سورة النور .

السائل كما ترى .. المعطيات العلميّة الواسعة جاءت لتتّفق مع ما ورد في القرآنِ الكريم وبشكلٍ قويٍّ جدًّا ومطابق .. سواء في ذلك الإشارة إلى الماء الطبيعيّ ، على قاعدة أصل الحياة عموماً ، أو العنصر اللازم لتولّد النباتات ، أو السائل الذي ترتبط بهِ الحياة ..

وببساطة نسأل هنا : أيّ عظمةٍ هذهِ ، وأيّ قرآنٍ هذا .. إنّ القرآن قرّرَ أنّ أصل الحياة مرتبط بالماء ، دون أيّ اختبارٍ أو تحاليل أو تقنية .. فهل في الأمرِ إعجازٌ مذهل يدلّ على أنّ القرآن وبشكلٍ حتميّ من اللهِ خالق الخلق ومكوّن الكون ..؟ أليس هذا دليلاً سامياً على عظمةِ هذا الإعجازِ الذي بعثَ اللهُ فيهِ محمّداً (ص) ليكون للعالمين بشيراً ونذيراً ..؟ أليس هذا من بابِ الإعجاز الذي قرّرهُ اللهُ في متنِ هذا الكتاب ، ليستمرّ مع البشريّة القادمة في عصرِ اكتشافِها وتطوّر معارفِها ليدلّ على عظمةِ الرسالةِ القرآنيّة ..؟ لقد كتب أكثر من عالم طبيعيّات دخل الإسلام من قبل قائلاً : لا بدَّ من التوقّفِ بشكلٍ دقيقٍ وعلميّ أمام ما جاءَ بهِ القرآنُ الكريم ، حيث احتوى على مجموعة معارف طبيعية مذهلة ذات بُعدٍ علميّ معقّد ، وحشّد مجموعةً عالية من القوانين التي تحكم الكون وأصل النشوء وأصل الحياة ، فضلاً عن قوانين التوازن الطبيعي في مجموعةٍ واسعةٍ من الخلقِ والمكوّنات .. وكلّها شهد العلمُ بدقّتِها العالية التي لا يمكن معها بحال إلا الإعتقاد بأنّ هذا القرآن نسخة معجزة ذات صدور ربّاني تدلّ على نبوّة

محمّد دون إمكانيّة أيّ جدالٍ أو تشكيك لإستحالة أن يأتي البشر بذلك ، وكلّ اكتشافٍ يؤكّد ما قرّرهُ القرآن بشكلٍ دقيق وغريب ..[1]

بشهاداتِ أهلِ العلمِ ومعطياتِهِ ، يبدو القرآن على مستوى هائل من النفوذِ والهيمنةِ وعلوِّ الشأنِ والرفعة .. أورد مجموعة من أدقِّ قوانينِ الكون ، فأشارَ إليها بمجموعةِ أسطرٍ فقط تعتبر اليوم نتيجة الشوط البشري الطويل في معطيات العلمِ واكتشافاتِهِ ، لا شكَّ أنَّ الأمر مذهل للغاية ، كما هو الأمر في الإشارة إلى منشأيّة الكونِ والرتق والفتقِ والتوسّعِ وغير ذلك ..



في علم النبات :

من الأمثلةِ المتزايدة ، ذات البعد الإعجازي ، التي ساقها اللهُ تعالى في معرض الدعوة إلى اللهِ والهدى ، وإتمام شوط الإستخلاف على نحوٍ متكاملٍ مع حقائق الأشياء أشارَ اللهُ في القرآن الكريم إلى عالم النباتِ بكثيرٍ من الآياتِ أذكرُ منها هنا ما ورد بخصوصِ التوازن الذي يحكم عالم النبات .. يقول تعالى :

- ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ،
- وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ،

[1] إقرأ كتب وأقوال العلماء الغربيين الذين اسلموا من أمثال البروفسير موريس بوكاي وروجيه غارودي وغيرهم كثير ستجد دقّة ما أشرتُ إليه ...

- وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ(١٩)[1]

وفي تنوّع المأكول قال تعالى :

- (وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ،
- وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ،
- يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ،
- وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ،
- إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٤)[2]

وتجدرُ الإشارة إلى أنّ التناسل في عالم النبات يتمّ بطريقتين :

١. طريقة جنسيّة .
٢. طريقة غير جنسيّة .

الطريقة الأولى هي التي تستحقّ إسم التناسل بالمعنى التقني للكلمةِ ، لأنّها تحدّد " العمليّة البيولوجيّة " التي تهدف إلى توليد فرد جديد مطابق لذلك الأصل الذي تولّدت منه ..

أمّا التناسل غير الجنسي فهو مجرّد تكاثر ، ذلك انّه ينتج عن انقسام عضو يكتسب بانفصالهِ عن النبات الأصلي نموّاً يجعله شبيهاً لذلك الذي خرج منه ، ومثالهُ الحيّ ، الشتل النباتي ، أي قطع غصن من نبات ما ، ثمّ وضعه في

---

[1] سورة الحجر .

[2] سورة الرعد .

التربة وريّه ضمن شروط معيّنة ليتجدّد بواسطة جذور جديدة .. وهذا كما ترى لا يستحقّ إسم التوالدِ بالمعنى الدقيق حسب فهم العلماء .. لأنّ التناسل الجنسي المقصود يتمُّ بواسطة تزاوج عناصر ذكريّة بعناصر أنثويّة تنتمي إلى مكوّنات التجديد المجتمعة على نفس النبات أو غيرها من تلك المنفصلة عنها .. وإلى هذهِ العمليّة يشير القرآن الكريم فيقول :

- (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ،
- فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى(٥٣)[1] ..

والزوج هو ما يتكوّن من إثنين ..

ويقول سبحانَهُ وتعالى :

- (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ،
- فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ،
- وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(٥) [2]

- (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ،
- وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ،
- وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ،
- وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ،
- فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ(١٠)[1]

---

[1] سورة طه .

[2] سورة الحجّ

- (وَهُوَ الَّذي مَدَّ الْأَرْضَ ،
- وَجَعَلَ فيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ،
- وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ،
- يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ،
- إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٣) [٢]

كلُّ ما وردَ في هذهِ الآيات هو من صنف المذهلِ حقّاً .. يسجّل أدقّ نتائج المعطيات العلميّة التي تعتبر اليوم نهائيّة .. ومن المعروف اليوم أنّ الثمرة هي نتاج عمليّة تناسل النباتات ، التي تمتلك نظاماً مركّباً ، والمرحلة التي تسبق الثمرة هي مرحلة الزهرة بأعضائها الذكريّة (الإبر) وأعضائها الأنثويّة (البويضات) وبعد نقل اللقاح تعطي هذهِ الأخيرة الثمار التي تعطي هذهِ الحبوب بعد أن تنضج .. إذاً : إنّ كلّ ثمرةٍ تتضمّن بالضرورة وجود أعضاء ذكورة وأعضاء أنوثة .. إنّ هذا ما يشير إليهِ القرآن الكريم بدقّةٍ عاليةٍ غير مسبوقةٍ على الإطلاق وبموازين علميّة مدهشة .. حتى ما توصّل إليهِ علم الهندسة الوراثيّة اليوم في علم النبات أو الإستنساخ بمعناه العام هو عبارة عن استغلال لهذهِ القوانين التي أشار إليها القرآن الكريم ، لتكون برسمِ البشريّة ، ولتشهد يوماً ما لعظمةِ هذا القرآنِ المعجزِ .. وتجدرُ الإشارةُ إلى أنّ بعض الثمرات في بعضِ الأنواع تستطيع أن تنتج عن زهور غير ملقّحة .. وهي التي يعبّر عنها بعذريّة التوالد ، مثل ثمار الموز وبعض أنواع الأناناس والتين والبرتقال والأعناب ، إلا انّ طابع النشاط الجنسي

---

[١] سورة لقمان .

[٢] سورة الرعد .

غير منفي منها .. ويتمّ التناسل عندما تنبت الحبّة ، بعد أن ينفتح غطاؤُها الخارجيّ ، وعندما يصبح غطاء الحبّة صلباً تتكوَّن النواة .. ويسمح هذا الإنفتاح بخروج الجذور التي تنهل من التربة ما يلزم لنبات بطيئ الحياة أي الحبّة .. وذلك حتى تنمو وتعطي فرداً جديداً .. إلى هذهِ الجهة تشير بعضُ الآيات (إنّ الله فالقُ الحبِّ والنّوَى) .. ويشير القرآن الكريم بعنصري الزوجيّة إلى عالم النباتِ ، وإلى الأعمّ منه ليسجّل بذلك مفهوم التزاوج في إطار أكثر عمومي لا يعيّن حدودهُ ، وهذا واحد من فتوحات القرآن العلميّة الراقية جدّاً ، والتي لم يصل إليها ذهن بشري على الإطلاق في عصرِ النبيّ (ص) إلى أن تمّت مجموعة الفتوحات البشريّة العلميّة الهائلة ، والتي اكتشفت انّ ما تضمّنه القرآن " هو هو " لما في واقعِ هذا التوازنِ والتوالد ، وكلٌّ معطيات العلمِ تؤيّدُه .. إلى غيرِه من الأمثلة الدقيقة ، إلا انّ طبيعة هذهِ الدراسة وغايتها لا تسمح بالمزيدِ منها لأنّنا في واردِ الإشارةِ وليس في مقام طرح جميع العناوين ..

✡ ✡ ✡

التناسل الحيواني

.. ويستعرضُ القرآنُ الكريم مجموعةً أخرى من العناوين ذات الصلة بمضامين العلمِ ومعطياتهِ ، التي تكشف المزيد من عظمة هذا القرآن ، فيشير إلى مواضيع تتّصل بعالم الحيوان ، وهي مواضيع شديدة التعقيد حسب أقوال العلماء والمختصّين مثل :

١. التناسل الحيواني .

٢. الجماعات الحيوانيّة (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ ، وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ، إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ(٣٨)

وما تجدرُ الإشارةُ له أنّ وجود هذهِ الجماعة لا بدَّ له من نظام ، وخير مثالٍ على ذلك كما تقول المعطيات العلميّة ظاهرة النحل الذي ترتبط بسلوكهِ اسماء " فون فريش " و " لوزنز " و " تنبرجن " الذين حازوا لهذا السبب على جائزة نوبل في العام ١٩٧٣ ..

٣. الإشارة إلى النحل والعناكب والطيور ..

٤. إشارة مهمّة جدًّا عن أصل لبن الحيوان ..

يقول الله تعالى :

- (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ ،
- فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ ،
- وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(٥)[١]

- (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(٤٥)
- مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(٤٦)[٢]

---

[١] سورة النحل

[٢] سورة النجم .

لَاحظْ ما في هذهِ الآية من تعبير " زوج " ، والزوج هو عنصر التزاوجِ بحيث يتضمّن إشارة دقيقة إلى عمليّة التناسل ، والحاجة إلى التزاوجِ من أجل التوليد ، وهي نظريّة تحكم هذا الأصل بشكلٍ لافتٍ ودقيقٍ جدّاً .. وما التناسل اليوم عبر تقنيّة الإستنساخ إلا استغلال وعبور من حقيقة التزاوج عبر استغلال القوانين العميقة المستودعة فينا .. وعليهِ : يشير القرآن إلى ظاهرةٍ حاكمة ذات بُعد وجودي تتعلّق بالتزاوج ، لم يكن الذهنُ البشريّ يعرف عنها سوى القليل ممّا كان تحت نظرِ واقعهِ آنذاك ، إلا أنّه لم يكن على الإطلاق يعرف المزيد عن طبيعةِ هذا الظاهرة الأشمل ، من الإنسانِ إلى الحيوانِ إلى النباتِ وغير ذلك .. سوى ما تعرّض له القرآن من نظرةٍ شموليّةٍ ذات بُعدٍ عالٍ يدلّ بشكلٍ نهائيّ على أنّ القرآن هو كتاب اللهِ وفقط .. وعندما يريد العلماء أن يعطوا أمثلة أخّاذة مذهلة عن النظام المعجزِ الذي يتحكّم بالسلوك الحيواني ، يتعرّضون لمثالِ النحل والعناكب والطيور وتأتي الطيور المهاجرة في الطليعة .. من هنا جاء تخصيصهم بالذكرِ في القرآنِ الكريم ، كما جاء ذكر الإبلِ أيضاً ، لتأتي الشهادات العلميّة مطابقة لضرورة هذا التخصيص لما يمتازُ بهِ .. ففي خصوص النحل يقول اللهُ تعالى :

- ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ،
- وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ(٦٨)
- ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ،
- فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ،
- يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ،

- فيه شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ،
- إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٦٩) [1]

العلماء يقولون : هناك نظام عصبي رائع ، دقيق ومثير ، يمثّل قاعدة السلوك للنحل .. والمعروف أنّ النحل يملك وسيلة للتخاطبِ ، وذلك عن طريق الرقص . كما أنّ النحل قادر على أن يعرف بهذا الشكل الإتّجاه الذي يجب أن يتّخذه ، والمسافة التي توجد عليها الزهور التي سيمتصّ رحيقها .. وتثبت تجربة " فون فريش " الشهيرة دلالة حركات الحشرة التي يقصد بها نقل المعلومات بين النحل العاملِ مع بعضِه .. في القرآن الكريم إشارة ذات تمييز خاص بالنحل ، وهي إشارة ذكيّة جدًّا تشيرُ إلى خلقِهِ وقانونِهِ ، فضلاً عن الإشارة إلى ما يخرجُ من بطونِها ، وتكفي فيهِ الإشارة إلى أنّ العسل تُدارُ عليهِ مجموعة كبرى من الأبحاث العلميّة التي أثبتت أنّه شفاء وشرط لكثيرٍ من العللِ وأنّه يحتوي على عناصر غذائيّة مركّزة هي في غاية الأهميّة وبعيدة كلّ البعد عن الأثر السلبي في عمليّة نقل موادِها وتحلّلِها وفق المنظار الأولي .. لا شكّ أنّ الإشارة القرآنيّة كانت من منظار العلم المعاصر مثيرة ومذهلة ..

وفي موضوع العنكبوت يقول تعالى :

- (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ،
- كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ،
- وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(٤١) [1]

---

[1] سورة النحل ٦٨

توقّف العلماءُ بإثارةٍ ودهشةٍ أمام قدرة الخلايا العصبيّة لهذا الحيوان التي تسمح له بتكوين نسيج ذي هندسة كاملة ، تفرزها غدد الحيوان ، لتكوّن خيوطاً حريريّة .. إنّها إشارة ذات بُعدين :

البُعد الأول : إشارة إلى دقّةٍ خاصّة في صناعة العنكبوت ، إلا أنّ هذه الإشارةَ ليست نهائيّة ، لأنّها في قولِ اللهِ مثّلت نوعاً معبريّاً يُرادُ منه بيان الدور الوظيفي في مواجهة واقع آخر ..

الثانية : إشارة إلى العجز المناعي لهذا المُكَوَّن في عمليّة التصادم الوجودي مع جسمٍ آخر أو مواجهة الطرف الآخر .. من هنا كان الجمع بين دقّة الناتج بما هو هو وضعف وهزالة المقاومة والإمتناع أمام واقعٍ آخر له بُعد دقيق في الإشارة إلى أنّ الذين يتّخذون من دونِ اللهِ أولياء يظنّون أنّهم يحسنون صنعاً إلا أنّ الواقع يثبت أنّ ما صنعوا أوهن من بيتِ العنكبوت .. إنّها إشارة فريدة ورائعة في الدمج بين عنوانين : طبيعي وتصويري ميثاقي ..

وفي خصوص الطيور يقول اللهُ تعالى :

- (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ ،
- وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ،
- إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ،
- مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ،

---

[1] سورة العنكبوت

- ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ(٣٨)[1]

- (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ،
- مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ،
- إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٧٩)[2]

- (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ،
- وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ،
- كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ،
- وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ(٤١)[3]

لا شكّ أنّ هذهِ الإشارات القرآنيّة مدهشة جدًّا ، وأثارت نظر العلماء في تركيزها على هذا النوع ، وقد ثبت فعلاً أنّ التوجيهات المعقدّة جدّاً لمثلِ هذهِ الرحلة والهجرة مسجّلة بالضرورة على خلايا الطائر العصبيّة ، على نسقٍ وبرنامجٍ مخلوق مذهلٍ .. تستدعي بالضرورة السؤال عن المخطّط .. عن الذي برمجَ هذا المخلوق بهذا الفنّ الإعجازي الهائل ، كما يقول أصحاب العلمِ والخبرات العالية في هذا المجال خاصّة الطائر المهاجر .. من هنا كان لها ميزة عرضِها في القرآن كنموذج حيّ من الإشارات القرآنيّة لتبقى شاهداً حيويًّا على عظمةِ ما احتضن هذا القرآن .. وببساطة : أمام هذا الحشد الكبير من النماذج المدهشة يمكننا أن ندرك حقيقة ما تعرّض له القرآن الكريم من مواضيع رفيعة ،

---

[1] سورة الأنعام

[2] سورة النحل .

[3] سورة النّور .

ذات نشاط كبرويّ في عصر العلم والثورة الصناعيّة .. في حين نعلم أنّ كلّ ما تعرّض له القرآن جاء تماماً وفق الصيغة الواقعيّة وبشكلٍ تطابقيّ لأعقد القوانين على الإطلاق والتي لا لم يمكن الوصول إلى حقائقِها إلا بعد حشد إمبراطوريّة التكنولوجيا وتقنيّاتِها .. فهل كلّ هذا شاهد ضخم على عظيمِ ما جاء بهِ النبيّ الأعظم محمَّد (ص) من القرآن المبين ..؟ الجواب برسم كلّ عاقل ..

وفي خصوص لبن الحيوان يقول تعالى :

- ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ،
- نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ،
- مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ ،
- لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ(٦٦)[1]

إشارة إعجازيّة أخرى لقانونٍ خفيّ ومعقّد ومذهل هو في غاية الروعة والإثارة بخصوصِ الأنعام .. فتشير هذهِ الآية إلى ما يوجد في أجسامِها من عمليّة مذهلة فعلاً بخصوصِ اللبن وهي على الصورة التالية ويأتي ذلك عبر التلاحمِ بين محتوى الأمعاء والدم .. وإليك التفصيل التالي :

- تأتي المواد الأساسيّة التي تتكفّل بتغذية الجسم عامّة عبر تفاعلات كيميائيّة تحدث في القناة الهضميّة ، وتجيءُ هذهِ المواد من عناصر موجودة في الأمعاء وعندما تصل هذهِ المواد الموجودة في الأمعاء إلى المرحلة المطلوبة في التفاعل الكيميائي فإنَّها تمرّ عبر جدار الأمعاء نحو الدورة العامّة ..

---

[1] سورة النحل .

- أمَّا الإنتقال هذا فيتمّ بطريقتين : إمّا مباشرة ، وذلك عبر ما يسمّى بالأوعية الليمفاويّة ، وإمّا بشكل غير مباشر بواسطة الدورة البابيّة التي تقود هذه المواد إلى الكبد حيث تقع عليها بعضُ التعديلات ، ثمّ تخرج من الكبدِ لتذهب أخيراً إلى الدورة الدمويّة .. وبهذا الشكل يمرّ كلّ شيئٍ بالدورة الدمويّة ..

- وتجدرُ الإشارةُ إلى أنّ الغدد الثديية هي التي تفرز مكوّنات اللبن . وتتغذّى هذهِ الغدد بمنتجات هضم الأغذية ، التي تأتي إليها بواسطة الدم الدائر ..

- وعليهِ : يلعب الدم دور المحصّل والناقل للمواد المستخرجة من الأغذية وتغذى الغدد الثديية منتجة اللبن مثلما يغذى أي عضو آخر .. بمعنى أنّ كلّ شيئٍ يحدث إبتداءً من مواجهة محتوى الأمعاء مع الدم في الجدار الأمعائي نفسه ..

- المثير فيها أنّ هذه المعلومات هي معطيات العلم الحديث ، بل من مكتسبات الكيمياء وفسيولوجيا الهضم .. ولم تكن معروفةً في عهد النبيّ محمَّد (ص) أبداً بل لم يكن ذلك ممكناً على الإطلاق .. كما أنّ إكتشاف الدورة الدمويّة هو من عمل " هارفي " وقد تمّ هذا الإكتشاف بعد ١٠ قرون تقريباً من نزول القرآن .. فيا تُرى ، هل هذهِ المعلومات القرآنيّة تدلّ على إعجازٍ هائل ومذهلٍ ..؟ ألا تدلّ على أنّ الله تعالى فقط هو صاحب هذا القرآن ..؟ ألا تدل بعمق على نبوّة محمّد ..؟ لا شكّ أنّ

الجواب النهائيّ هو نعم .. القرآن كتابُ الله ، والنبيّ محمّد رسولُهُ .. ولا يمكن لأيّ عاقلٍ أن يقول غير ذلك وإلا ألزمهُ العلمُ بالحجّةِ القاطعة .. من هنا يمكننا الوقوف على ما تضمّنته التوراة والإنجيل من معانٍ تتّصل بالبعثةِ النبويّةِ ، بصاحب الصولجان ، بالآتي من جبال فاران (جبال مكّة) لتزيد هذهِ المعاني المعقّدة المتّصلة بقوانين الكون والطبيعة والتي سيكتشفها العلم بعد مرور ١٤٠٠ عام كثيراً من القداسةِ والنورانيّة ..

لقد بيَّن القرآنُ الكريم أعقد النظريّات عن نشوء الكون ، عن الكتلة الدخانيّة ، عن الرتق والفتق ، عن الماء وأصل الحياة ، عن الكواكبِ والنجوم ، عن نهاية الخلقِ وانعدام التوازن ، عن نظريّة التزاوج والتوالد الأوسع من التناسل البشري ، عن مظاهر دقيقة ومعقّدة بخصوص التناسلِ البشري ، لا يمكن معها إلا الخشوع في محرابِ عظمةِ هذا القرآنِ الكريمِ الذي جاء بهِ النبيّ محمّد (ص) ، حتى أدقّ العناوين وأعقدها تضمّنها القرآن بآياتٍ مختصرةٍ مدهشة ، منها مثلاً التناسل البشريّ الذي هو مكفول بواسطة سلسلة من عمليّات مشتركة بين كلّ الثدييات ، وبداية هذهِ السلسلة الإخصاب في البوق لبويضة انفصلت عن المبيض في منتصف الدورة الحيضيّة ، والعامل المخصّب هو مني الذكر (الحيوان المنوي) فخليّة منتجة واحدة منه تكفي للإخصاب .. ولكي يتمّ الإخصاب يكفي له كميّة ضئيلة جدّاً من هذا السائل الذي يحتوي على حيوانات منوية بعددٍ ضخم ففي عمليّة قذف واحد يوجد عشرات ملايين من الحيوانات المنويّة لحدود ٢٥٠ مليون حيوان منوي .. وينتج السائل المنوي بواسطة الخصيتين ، ويخزّن مؤقّتاً في جهاز للتخزين ، وفي القنوات التي تؤدّي في النهاية إلى المسالك البوليّة .. وتوجد

غدد ملحقة متفرقة على طولِ هذهِ المسالك تضيف إلى السائل نفسهِ إفرازاً إضافيًّاً ، لكنّه لا يحتوي على عناصر مخصِّبة . وفي نقطةٍ معيّنةٍ من جهازِ الأنثى التناسلي تعشّش البيضة المخصّبة ، حيث تهبط عبر بوق من بوقين (المبيض) إلى الرحم ، وتعشش بالرحم نفسهِ ، وما تلبث أن تتعلّق به حرفيّا ، وتدخل سمكه ثمّ في عضلتهِ بعد تشكّل المشيمة وبالإستعانة بها .. ويبدو الجنين ـــ عندما يصبح بالإمكان رؤيتهُ بالعين المجردة ـــ على شكل كتلة لحمية صغيرة ، لا يمكن في البداية أن نميّز فيها مظهر الكائن الإنساني ، ويتمّ تكوينهُ في هذهِ الكتلة تدريجيّاً ، وعبر مراحل متوالية ، ويتكوّن بعد ذلك الهيكل العظمي ، وتحيط بهِ العضلات والجهاز العصبي والجهاز الدوري والأحشاء وغيره .. يقول اللهُ تعالى :

- (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ(٦)
- الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ(٧)
- فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ(٨) [١]

- (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا(١٤) [٢]

يشير القرآن إلى العناوين التالية :

١. يتمّ الإخصاب بفضل كميّة من سائل ضئيلة جدّاً ..
٢. طبيعة السائل المخصّب .
٣. تعشُّش البيضة المخصّبة .

---

[١] سورة الإنفطار .

[٢] سورة نوح .

٤. تطوّر الجنين .

- (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ،
- نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا(٢) [1]

- (مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ(١٩) [2]

- (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ،
- ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ،
- ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ،
- ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ،
- ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ،
- ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ،
- وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ،
- وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى ،
- وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٦٧) [3]

- (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ ،
- فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ(٧٧) [4]

---

[1] سورة الإنسان

[2] سورة عبس

[3] سورة غافر .

[4]ـ سورة يس .

- (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ،
- ثُمَّ مِنْ نُطْفَة ،
- ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ،
- وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ،
- وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ،
- إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(١١) [١]

إنّها تشير إلى كميّة من سائلٍ ضئيلة .. وفق قولهِ تعالى : (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى(٣٧) [٢]

ويقول تعالى : (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ(١٣) [٣] إنّه تعبير في غاية الروعة والدقّة ..

ويعبّر القرآن بتعابير من أمثال :

١. (مني) كما ورد في كثيرٍ من الآياتِ الواردةِ أعلاهُ .
٢. (ماء دافق) : (خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ(٦) [٤]
٣. (ماء مهين) .. في إشارة إلى المكان الذي يخرج منه ، أي إلى نهاية الجهاز البولي ..

---

[١] سورة فاطر .

[٢] سورة القيامة .

[٣] سورة المؤمنون .

[٤] سورة الطارق .

٤. (أمشاج) أي المخاليط أو ما هو مخلوط : (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا(٢)[1]

ويتشكّل السائل المنوي من إفرازات مختلفة تأتي من الغدد التالية :

١. الخصيتان (يحتوي إفراز الغدّة التناسليّة على الحيوانات المنويّة ، وهي خلايا مستطيلة مزوّدة بهدب طويل ، وتسبح في سائلٍ مصلي ..) ..

٢. الحويصلات المنويّة ، تخزّن هذهِ الأعضاء الحيوانات المنويّة وتقع على مقربة من البروستات وتفرز إفرازاً خاصّاً لكنّه لا يحتوي على عناصر مخصّبة .

٣. البروستات ، وتفرز سائلاً يعطي للسائل المنوي قوامه الغليظ ورائحتَه الخاصّة .

٤. الغدد الملحقة بالمسالك البوليّة ، وهي الغدد المعروفة بإسم كوبر أو تلك هي أصول هذهِ المخاليط (الأمشاج) التي يبدو أنّ القرآن يتحدّث عنها . بل هناك أكثر من هذا حيث يتحدّث القرآن الكريم عن سائلٍ مخصّبٍ ، يتكوّن من عناصر هذا السائل فيقول : (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ(٨) وكلمة سلالة تدلّ على شيئٍ مستخرجٍ ، أو خرج من شيئٍ آخر أو هو جزء من شيئ .. والتفسير المقصود هو جزء من كلّ .. وما يتسبّب في إخصاب البويضة ويكفل التناسل هو

---

[1] سورة الإنسان .

خليّة شديدة الإستطالة ، يقاس طولها بمقياس ١ : ١٠,٠٠٠ ملّم . إنّ عنصراً واحداً من بين عشرات الملايين الصادرة من رجل في ظروفٍ عاديّة يصل إلى الولوج في البويضة ويتبقّى عدد كبير في الطريق ، ولا ينجح في قطع المسافة من المهبل إلى البويضة عبر تجويف الرحم والبوق (بوق فالوب) .. إنّه جزء متناهٍ في الصغر صادر عن سائلٍ منويّ معقّد التركيب ومذهل هو الذي يحقّق نشاطهُ .. وها ما يثير الدهشة بين دقّة النصّ القرآني وبين المعرفة العلميّة ..

٥. تنـــزل البويضة لتعشّش في التجويف الرحمي بعد أن تخصّب : (وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)..

٦. يتحقّق إستقرار البويضة بالرحم بواسطة إمتدادات حقيقيّة ، وكأنّها بذور تضرب في الأرض ، حيث تنهل من جدار العضو ما يلزم لنموّ الجنين . إنّ هذهِ الإمتدادات هي التي تجعل البويضة تتعلّق بالرحم ويرجع تاريخ معرفة هذهِ الأمور إلى العصور الحديثة .. ويشير القرآن إلى هذا التعلق ٥ مرات في القرآن الكريم فيقول تعالى : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤)عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(٥)

كلمة علق ، تشير إلى ما يعلق ، أي ما يتشبّث بشيئ ، وجلطة الدمِ معنى مشتقّ من هذا المعنى .. وتجدرُ الإشارة إلى أنّ الجنين في مراحل التكوين لا يمرّ أبداً في مرحلة جلطة الدم .. بل الصحيح هو معنى يعلّق ويتشبّث .. يقول

تعالى : (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ...) .. إنّه أجلى تعبير دقيق في مقام الإشارة إلى العلق ، والذي لم يُكتشف إلا حديثاً عبر التقنيّة وأدواتِها التصويريّة والتحليليّة ، ليدلّ على المذهل المذهلِ فيما تضمّن القرآن الكريم .. وقد ورد هذا التعبير في أكثر من آية منها قولهُ تعالى :

- (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ،
- فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ،
- فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ،
- فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ،
- ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ،
- فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(١٤)[1]

- (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ،
- ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ،
- ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ،
- ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ،
- ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ،
- ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ،
- وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ،
- وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٦٧)[1]

سورة المؤمنون .

- (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(٣٦)
- أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى(٣٧)
- ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(٣٨)
- فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(٣٩)
- أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى(٤٠)[٢]

لا شكَّ أنَّ ما ورد في القرآنِ من مجموعٍ هذهِ الآية مذهل ومثير ومدهش ، ولا يمكن معهُ إلا التسليم بأمرِ اللهِ تعالى العظيم .. ويصف القرآن العضو الذي يقع الحمل بهِ بكلمة في العربيّة تدلّ اليوم على الرحم وفي بعض الآيات يستعمل (قراراً) وهو تعبير في غاية الدقّة .. ثمّ يشير القرآنُ إلى مرحلة تطوّر الجنين في الرحم .. وتطوّر الجنين كما يصفه القرآن يستجيب بشكلٍ مثيرٍ للمعلومات الحديثة .. يشير القرآنُ الكريم إلى أنَّ الجنين يمرّ بعد مرحلة التشبّث بمرحلة المضغة (أي اللحم الممضوغ) ثمّ يظهر بعد ذلك النسيج العظمي الذي يغلّف باللحم ويعني لحماً نضراً ..

- (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ،
- فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ،
- فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ،
- فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ،
- ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ،

---

[١] سورة غافر .

[٢] سورة القيامة .

- فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(١٤)[١]

المضغة تشير إلى اللحم الممضوغ ، أمّا اللحم فيعني اللحم النضر ، ويستحقّ هذا التمييز الإلتفات والملاحظة إذ أنّ الجنين في مرحلةٍ أولى من تطوّرِه يكون عبارة عن كتلة صغيرة ، تبدو فعلاً للعين المجرّدة كلحمٍ ممضوغ ، وهذه المعلومة لم تكن على الإطلاقِ معروفة أو موجودة قبل تطوّر الأدوات الطبيّة المختصّة في التصوير وبيان المشهد الجنيني .. ثمّ يتطوّر الهيكل العظمي في هذهِ الكتلة ، وبعد أن تتشكّل العظام تتغطّى بالعضلات ، وعلى العضلاتِ تنطبق كلمة لحم وما يتّصل بها .. والمعروف أنّ بعض الأجزاء في أثناء مدّة تطوّر الجنين تبدو غير متناسقة مع ما سيكون عليهِ الفرد بالمستقبل في حين تظلّ أجزاء أخرى متناسبة .... والمثير أنّ القرآن الكريم أشار إليها بدقّة بالغة ومذهلة فقال تعالى : (.. إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَة ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَة ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ ، مُخَلَّقَة وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ، لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ...) إنّ تعبير مخلّقة يعني منتظمة ، وتعبير غير مخلّقة يعني أنّها تبدو غير منظّمة ، لا شكّ أنّه تعبير مدهش ويستجيب للعلم بشكلٍ دقيقٍ وبارع .. فهل في هذهِ الآية دلالة عظيمة ذات صلة بالإعجازِ المحمولِ إلى البشرِ عبر النبيّ محمّد من اللهِ تعالى ..! كلُّ هذا يدلُّ على أنَّ ما تضمّنه القرآن الكريم هائل ، ولا يمكن أن يقاوم على الإطلاق .. ثمّ يذكر القرآن ظهور الحواس والأحشاء فيقول تعالى :

- (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ ،
- وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ،

---

[١] سورة المؤمنو ن .

- قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ(٢٣) [1]

ويشير إلى الجنس فيقول تعالى :

- (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى(٤٢)
- وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى(٤٣)
- وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا(٤٤)
- وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(٤٥)
- مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(٤٦)
- وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى(٤٧)
- وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى(٤٨) [2]

معنى " أقنى " أي جعل لهم أصولاً من المال ..

المثير أنّ تَكَوُّنَ الجنين في الأفكار الماضية في عصر النبيّ لم يكن كذلك ، فجاء القرآن ليخالفها وبشكلٍ معقّدٍ ودقيقٍ ومذهلٍ أثبتت المعطيات العلميّة أنّه بالغ الدقّة والإشارة .. إنّ المرحلة الحاسمة في تاريخ علم الأجنّة بدأت بدعوى هارفي الذي قال في العام ١٦٥١ إنّ كلّ شيءٍ حيّ يأتي أوّلاً من بويضة وإنّ الجنين يتخلّق تدريجيّاً جزءاً بعد جزء .. ثمّ باختراع المجهر الذي تمّ في عصر سابقٍ بقليلٍ ، وبرغم ذلك فقد كان النقاش دائراً حول دور كلّ من البويضة والحيوان المنوي .. ! وكان من بينهم العلامة بوني الذي كان يدافع عن نظريّة إندماج

[1] سورة الملك .

[2] سورة النجم .

البذور القائلة بأنّ مبيض حوّاء أو الجنس البشري كان يحتوي على بذور كلّ الكائنات الإنسانيّة متداخلة كلّ في الآخر . أمَّا القرآن فقد كان يشير بشكلٍ نهائيّ بارعٍ وكامل إلى ما عليه العلم اليوم بكلّ معانيهِ النهائيّة من هذهِ الجهة .. وذلك في ظلّ أسوأ الخرافات والأفكار النظرية الخطيرة التي كانت مفروضة على أنّها التفسير النهائي اليقيني آنذاك .. ! فهل في هذا إبداع إعجازيّ آخر يدلّ على نبوّة محمّدٍ ونسبةِ القرآنِ إلى الله .. ؟ لا مجال سوى الإقرار بذلك ..

وهكذا ، نقرأ في القرآن مجموعة واسعة ومدهشة من المعطيات التي تعتبر اليوم من منظار العلم في غايةِ الفتح العلميّ الأكبر ، والمثير أنّها وردت في القرآن بشكلٍ موجزٍ يدلّ على القانون الكوني بشكلٍ تطابقيٍّ رفيعٍ ، وفق دلالة هي في غاية الدقة بالإستعمال والعبارة والمغزى .. ولو تمعّنا في كثيرٍ من آياتِ هذا القرآن لوجدنا العمق الأعظم في كثيرٍ من العناوين ، حتى الإشارة إلى الزمن واليوم الذي كان يعتبر من ثوابتِ الأمسِ ، كان القرآن يشير له في أكثر من إشارة على نحوٍ متعدّدٍ في مسافةِ الزمن فيشير إلى الليل والنهار المعهودين للبشرِ على سطح الأرض .. ثمّ يشير إلى اليوم كعنوانٍ زمنيٍّ أكبر وأطول من فترة الزمن المعروفِ عند البشر ، مثل قولهِ تعالى في سورة المعارج : (.. تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَة(٤) .. وهذهِ بطبيعة الحال إشارة مركّزة على فترةِ يومٍ زمنيٍّ مختلفٍ .. الأهمّ أنّ القرآن تبنّى الإشارة إلى الزمنِ المتعدّدِ ، فهناك أيضاً يوم الألف سنة ممّا يعدّ البشر ، حيث قال الله تعالى في سورة السجدة : (.. يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ(٥) .. لقد كان هذا البيان غريباً كلّ الغرابة ،

كان الزمن بالنسبةِ إلى كائنِ الأمسِ واحداً ، يسري عليهِ ويسيطر على الكونِ بأجمعِهِ ، ولم تستطع البشريّة كشف مثل هذهِ الحقائق إلا بعد عدّة قرون ، في حين كان القرآن الكريم ، يشير إلى هذهِ المعاني بشيءٍ من التفصيل المذهل .. يعني بصورةٍ أوضح ، كان القرآن الكريم يحشّد مجموعة من آياتٍ مدهشة تنطقُ بما عليهِ كتابُ الكون ، بشيءٍ من الإنطباقِ المعجزِ وبأسطرٍ فقط .. لتكون خطاباً موجَّهاً إلى الأمَّة البشريّة أينما حلّت ورحلت .. وقد قال الله تعالى في سورة النساء : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾(٨٢) .. وفي سورة محمّد قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(٢٤) .. وقد ذكر الإمامُ الرضا عليه السلام يوماً القرآن ، فعظّم الحجة فيه والآية المعجزة في نظمه فقال : هو حبل الله المتين ، وعروته الوثقى ، وطريقته المثلى ، المؤدّي إلى الجنة ، والمنجّي من النار ، لا يخلق من الأزمنة .. لأنه لم يجعل لزمان دون زمان ، بل جعل دليل البرهان ، وحجة على كل إنسان ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنــزيل من حكيم حميد .. وفي نصٍّ آخر عن الإمام الرضا عليهِ السلام أنَّ رجُلاً سأل أبا عبد الله عليه السلام فقال له : ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلا غضاضة ؟ فقال (ع) : لأنَّ الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ، ولا لناس دون ناس ، فهو في كل زمان جديد ، وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة ..

هذا يعني أنَّ مقام القرآنِ رفيع ، ورتبتُهُ ذات علوٍّ أكبر ، وهو الكتابُ الممدود من السماءِ إلى الأرضِ ، وهو المتّصل بعالمِ النبوّة والإمامة حسب قول النبيّ محمّد حيث قال في كثيرٍ من مقامات النصوص : إنِّي تارك فيكم الثقلين ،

كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً .. وبطبيعة الحال ، شهد القرآن من الناحية التاريخيّة ، رتبة لم يصل إليها كتاب قطّ رغم محاولة قريش ومن بعدها العمل على إبطالِ معانيهِ أو الحطّ من شأنها .. وقد روي أنّ ابن أبي العوجاء وثلاثة نفر من الدهرية اتفقوا على أن يعارض كل واحد منهم ربع القرآن ، وكانوا بمكة فتعاهدوا على أن يجيؤوا بمعارضته في العام القابل من الموسمِ ، فلما حال الحول ، اجتمعوا عند مقام إبراهيم عليه السلام فسألوا بعضهم عمّا بين أيديهم من معارضة القرآن ؟ فقال إبن أبي العوجاء : إني لما قرأت قوله (.. وقيل يا أرض ابلعي ماءَك ويا سماء أقلعي وغيض الماء ..) كففت عن المعارضة . وقال الآخر : منعني منه قولهُ : (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيّا ..) فأيست من المعارضة .. وبينما كانوا يسرون بذلك ويخفونَهُ إذ مرَّ عليهم الإمام جعفر الصادق عليه السلام ، فالتفت إليهم وقرأ قول الله تعالى (قل لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ..) فبهتوا ممّا قال وممّا في أيديهم من العجز .. إنّ مَن يقف على مجموعة واسعة ممّا حُشِّدَ في متنِ هذا القرآن ، فيما ورد من الآياتِ الكونيّة التي خشع العلمُ أمامَها لا يمكنُهُ على الإطلاق إلا أن يحييِّه بخشوع .. لقد أثبت هذا الكتابُ أنّه فوق آثارِ الزمان والمكان ولا يمكن أن يحيطَ بهِ فكرُ بشريٌّ ، بل لا يمكن أن تستقيم معاني الوجود إلا عبرهُ ، وإلا فإنّ البشريّة مهما وصلت إلى تقنية وعلوم فإنّها تتّجه نحو الإنتحار إن لم تتمسَّك بهديهِ الضروريّ لمسيرة التكامل الوجوديّ ، ومن يقرأ ما ورد في إصداراتِنا بهذهِ المعاني يدرك ذلك بشكلٍ واسع[1] ، خاصّة في

[1] يمكن مراجعة كتابنا (هل نحن بحاجة إلى الله) .. وفي كلّ ما صدر عنّا من كتاباتٍ تقرير واضح في هذا المجال ..

مجال الجماعة والإجتماع المدني السياسي .. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

- أيها الناس إنكم في زمان هدنة ،
- وأنتم على ظهر السفر ،
- والسير بكم سريع ،
- فقد رأيتم الليل والنهار والشمس والقمر يبليانِ كل جديد ، ويقربان كل بعيد ، ويأتيان بكل موعود ،
- فأعدوا الجهاز لبعد المفاز .
- فقام المقداد فقال يا رسول الله ما دار لهدنة ؟ قال : دارُ بلاء وانقطاع ،
- فإذا البست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم ، فعليكم بالقرآن ،
- فإنه شافع مشفع ، وما حل مصدق ،
- من جعله أمامه قاده إلى الجنة ،
- ومن جعله خلفه ساقه إلى النار ،
- وهو الدليل يدل على خير سبيل ،
- وهو كتاب تفصيل ،
- وبيان تحصيل ،
- وهو الفصل ليس بلهزل ،
- وله ظهر وبطن ،
- فظاهره حكمة ،

- وباطنه علم ،
- ظاهره أنيق ،
- وباطنه عميق ،
- له نجوم ، وعلى نجومه نجوم ،
- لا تحصى عجائبه ،
- ولا تبلى غرائبه ،
- فيه مصابيح لهدى ،
- ومنازل الحكمة ،
- ودليل على المعروف لمن عرفه ..

يكفي أنّ من يتصفّح هذا القرآن يجد أنّه يسيطر على أعماقِهِ ويتسلّل بقوّةٍ إلى باطنِ ما يرفعهُ إلى نافذةِ الشقِّ الآخرِ المكوِّنِ للفردِ البشريّ ، أعني بذلك عالم ما بعد المادّة .. يكفي أنّ هذا الكتاب كان وراء أهمّ نهضة كبرى قياسيّة في حياة العرب مع كلّ ما كانوا عليه .. بل يكفي أن نقرأ الهزيمة الكبرى النكراء التي لحقت بالدولة الإسلاميّة التي كانت مترامية الأطراف في العالم آنذاك وصاحبة النظام الدولي وصانعة النفوذِ فيهِ حين انحرفَ أهلُ الحكمِ عن كتابِ اللهِ تعالى .. وقد قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) :

عليكم بكتاب الله ، فإنه الحبل المتين ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، والري الناقع ، والعصمة للمتمسك ، والنجاة للمتعلق ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تخلقه كثرة الرد ، وولوج السمع ، مَن قال به صدق ، ومن عمل به سبق ..

واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش ، ولهادي الذي لا يضلّ ، والمحدِّث الذي لا يكذب ، وما جالس هذا القرآن أحدٌ إلا قام عنه بزيادة أو نقصان : زيادة في هدى ، أو نقصان من عمى . واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ، ولا لأحد قبل القرآن من غنى ، فاستشفوه من أدوائكم ، واستعينوا به على لوائكم ، فإنّ فيه شفاءً من أكبر الداء وهو الكفر والنفاق والغي والضلال ، فاسألوا الله به وتوجهوا إليه بحبِّه ولا تسألوا به خلقه ، إنه ما توجه العباد إلى الله بمثله . واعلموا أنه شافع مشفع ، وقائل مصدق ، وإنه من شفع له القرآن يوم القامة شفع فيه ، ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه ، فانه ينادي مناد يوم القيامة : ألا إنّ كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله ، غير حرثة القرآن ، فكونوا من حرثته وأتباعه ، واستدلوه على ربكم ، واستنصحوه على أنفسكم ، واتهموا عليه آراءكم ، واستغشوا فيه أهواءكم .. وإن الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن ، فانه حبل الله المتين ، وسببه الأمين ، وفيه ربيع القلب ، وينابيع العلم ، وما للقلب جلاء غيره ..[1]

ها هي آياتُ اللهِ العظمى ، تُتلى اليوم على مقربةٍ ونورٍ وهدى ، فيها قرنٌ واضحٌ بين أسرارِ القرآنِ وفتوحاتِهِ المعجِزة من جهة وبين الدعوةِ إلى الله

[1] هذهِ النصوص الأخيرة في فضلِ القرآن مأخوذة عن بحار الأنوار ج : ١٦ ..

والنداء إلى البشريّة أن تتوب إلى بارئِها من جهةٍ أخرى .. كلٌ من يقرأ القرآن يدرك حقيقة ما فيه ، من عُلُوٍّ رفعة ، وعظمةِ مقامٍ ، وقداسةٍ كبرى ..

منذ زمنِ النهضة شُنَّت دعاية واسعة تحت شعار أنَّ التقنيّة من شأنِها طيّ أزماتِ البشر والتعامل معها من بابِ الإشباعاتِ ، وها نحن الآن في القرنِ الواحدِ والعشرين ، تخطينا عقوداً وقروناً عن فجرِ النهضة ، ودعسنا في عمقِ منتجاتِ الثورة الصناعيّة ، وقطعنا ذلك إلى المدهشِ من الأسرارِ الكونيّة الطبيعيّة وها نحن الآن نفتحُ أعيننا على منتجاتِ الإستنساخ والهندسة الوراثيّة ، إلا أنَّ ذلك لم يمنع من تسلُّلِ البؤس النفسي والشقاء الإجتماعي والذعر الداخلي من الضرب فينا بعمقٍ هائل .. حتى أباطرة اليوم من زعاماتِ الرأسماليّة ، في مهد الولايات المتّحدة والغرب الصناعي ، تراهم يؤنّون من أزمة شقاء نفسي ، ويترجمون الأمر على نحوٍ من عبادة الشياطين ، بكلِّ فظاعاتِها القاتلة .. وفضلاً عن هذا وذاك تجد تلك البقاع الصناعيّة وهي الظاهرة الأخطر والأشمل في القتلِ والسطو والإعتداء والتمرّد على مادّة " الإجتماع المدني " .. لا لأنّهم ملُّوا من الرفاهية ، بل لأنّهم لم يجدوا بعد الإشباع المادّي ما تصرخُ باتّجاههِ أرواحُهُم ، لم يقرؤوا حقيقة المهدِ الطبيعيّ المحكم الذين هم فيهِ ، لم يُعطوا إفاداتٍ حقيقيّة ترضى ذواتِهِم عن مسيرتِهِم الوجوديّة .. يكفي أن نقرأ رسائل الإنتحار اليوميّة في كلِّ من الولايات المتّحدة وكندا وأستراليا وبريطانيا وفرنسا وهولندا وغيرها من دولِ المهدِ الصناعي حتى ندرك معنى البؤس الذي يتسلّل إلى أنفسِهِم ..

في كثيرٍ من تلك الرسائل شكوى من الجوع النفسي ، من الإضطهاد الثقافي ، من جهل محور الوجود .. من عقبة الدهرِ المادّي وفلسفة الإنتماء

الغريزيّ .. ها هي البشريّة تدفع بشكلٍ كبير ثمن الإنحراف الأخطر عن كتابِ الوجود .. حتى أنّ " آرمرسترونغ " الذي كانَ أوَّل من حطّت قدماهُ على مهدِ القمرِ وترابِهِ كانَ في كثيرٍ من المقاماتِ يقرُّ بأزمة الوجع الذي ينتابُ غاياته الوجوديَّة .. إلى الكثير من الأمثلة الموجعة في عالمنا هذا الذي يبدو وهو يسير نحو إنتحارٍ إجتماعيٍّ هائلٍ .. منذ اليومِ الأوّل ، لنــزولِ هذهِ الرسالةِ إلينا عبر النبيِّ الأعظمِ محمد ، كانت تشير إلى أنّ الحاجة البشريّة لا تكمن في الإشباع الماديِّ فحسب ، بل لا بدَّ من مذهبيّةٍ خاصّة هي من خالق البشرِ في تنظيمِ هذا الإشباع المادّي ، وانّ هذا الأمر لا يكفي ، فلا بدَّ من الإشباع الروحيِّ ، لا بدَّ من البطاقة المعرفيّة الوجوديّة ، وإلا فإنّ البشر يسيرون نحو ظلمةٍ قاتلة ، نحو خانةٍ مؤلمةٍ ، نحو إنتحارٍ وجوديٍّ .. وهذا ما نشهدُ فصولهُ اليوم على مستوى هذا الكونِ المتوحِّشِ بشكلٍ مثيرٍ ومدهش .. وعليهِ : لا بدَّ من الإلتفات بشكلٍ واسعٍ إلى أفقِ الوجود ، إلى مدرسة السماء ، إلى مناخاتِ الإستنطاق الشاملِ لمنطقِ النواميس ، حيث كلُّ شيئٍ يشير إلى عظمةِ الخالقِ ومدرستهِ الرساليّة .. ها هي الدراسةُ بين يديك ، فيها من الإشاراتِ والبيان لما عليهِ التوراة والإنجيل والقرآن ، بل فيها إشارة كبرى لما في هذا القرآن من عظمةٍ وأسرارٍ كونيّة وطبيعيّة ومجدٍ ربانيّ عظيم .. ها نحنُ في آخر الأزمان ، على مطلّةٍ من الوجودِ الأوسع ، ها نحنُ نزحفُ نحو العالمِ الآخر ، في زمنٍ معدود ، ودهرٍ محدود ، لندخل في الأفقِ الآخر من عالمِ اللهِ الأعظم ، فلتكن على بيِّنة من أمرك ، فإنّ الله تعالى يطالبُ كلّ فردٍ منّا بموجباتِ الحقيقةِ ، وها هو الموت من وراءِنا يتبع خطانا حثيثاً ، والموقف والحساب الرباني يوم القيامة أمامنا فلا ترضى لنفسك ثمناً إلا رضا الله والجنّة .. وما قمت بهذهِ الدراسة إلا طلباً لهذهِ الحقيقة العزيزة

والله أعلم بالنوايا .. أدعو الله تعالى أن يتقبَّلها منِّي ، لتكون ذخراً لي ولوالديّ وأهلي وأرحامي وأسبابي وجميع المؤمنين والمؤمنات يوم ألفظُ روحي ، وأنزل لحدي ، وأُبعثُ وحدي ، وألقى ربّي ، وأُسأل عمّا في كتابي .. اللهمَّ تقبّلها منّي بحقِّ محمَّدٍ وآلهِ الطيبين الطاهرين ، بحقِّ أمامِ عصرنا ووليِّ أمرنا المهديّ المنتظر ، قائم آلِ محمّد عليهِ السلام ، روحي وأرواح المؤمنين له الفدا .. وعرِّف اللهم بيننا وبينهم وشفّعهم بنا ، إنَّك الله الرحمن الرحيم ..

جعفر حسن عتريسي (١١ شباط ٢٠٠٣) الساعة ١٢,١٠ من ليلة الأربعاء (عيد الأضحى) جعلنا اللهُ من حجَّاجِ بيتِ اللهِ الحرام ، بحقِّ محمّد وآلهِ الطاهرين ...

خاتمة :

كلُّ الذي مضى يمكّننا من تقييم حقيقة ما توصّلنا إليه .. فالأديان السماويّة ثلاثة : اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام .. إلا أنّ من يقرأ التاريخ جيِّداً يدرك أنّ التوراة والإنجيل يعانيان من مشكلة تسلّل يد بشريّة ، بكلّ ما تعنيه يدُ البشرِ من قصورٍ واضطرابٍ وتناقضٍ وشبه ذلك .. وقد انعكس هذا الأمر على نحو مشكلة " نصّ كامل " ..

وتظلُّ مشكلة " التراث الشفهي " العنوان الأبرز فيما يخصّ التوراة والإنجيل .. خاصّةً إذا علمنا أنّ التوراة لم تتحرّر بشكلٍ نهائيٍّ إلا بعد عدّة قرون وفي ظرفٍ معقّد .. أمّا الأناجيل فلا شهادة تاريخيّة لوجود كتابات إنجيليّة قبل عام ١٤٠ ميلاديّة .. وهذا أيضاً عنوان آخر من أزمة تأخير زمني بخصوص تدوين تعاليم المسيح .. وتكمن مشكلة أخرى ذات أثر عنيف ، لا يمكن المرور عليهِ بشكلٍ سهل ، أعني بذلك أنّ الأساس اللاهوتيّ للمسيحيّة التي نعرفها اليوم أقامهُ بولس وليس يعقوب أو جاك أو يوحنّا أو بطرس أو أيّ واحدٍ من رُسُلِ المسيح .. ففي التاريخ أنّ بولس الذي كان من أشدّ أعداء المسيحيّة أعلن فجأةً بعد صعود المسيح إلى السماء أنّه رأى المسيح وبعثهُ رسولاً .. في حين كان رُسُلُ المسيحِ على رأس كنيسة الختان الأورشليميّة ، وقد اشتدَّ الخلاف بين بولس

ورسل المسيح إلى حدّ اتّهمهم فيهِ بولس بالمكر والكذبة وأوصاف خطيرة ، واستطاع أن ينتصر عليهم ويؤسّس اللاهوت المسيحي وفق نظرتِه ، وكان هو أوّل من غيّر حقيقة المسيح فأعلنها لاهوتيّة (بدلاً ممّا كان عليهِ رسُلُ المسيحِ من إعلان " حقيقة المسيح " أنّه بشر " ناسوتيّ " لكنّه نبيّ عظيم مرسل من قبل اللهِ تعالى) وأصرَّ بولس على أنَّ المسيح إلهٌ أزليّ من إلهٍ أزليّ ..! وقد تحوّلت العقيدة المسيحيّة بشأن يسوع المسيح إلى ذلك وهي المعروفة في دستور الإيمان المسيحيّ الذي وضعهُ آباء الكنيسةِ عام ٣٢٠ ميلاديّة في مجمّع نيقيّة ، ثمّ نُقّحَ عام ٣٨١ ميلاديّة في مجمّع القسطنطينيّة على الشكل التالي :

أنا أؤمن .. بربٍّ واحدٍ ، يسوع المسيح ،
إبن الله الوحيد ،
المولود من الآب قبل كلِّ الدهور ،
إلهٌ من إلهٍ ، نورٌ من نورٍ ،
إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ ،
مولود غير مخلوق ،
ذو جوهرٍ واحدٍ مع [الله] الآب .
هو الذي به كان كلُّ شيءٍ ،
الذي من أجلنا نحن البشر ،
ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ،
وتجسّد بالروح القدس من مريم العذراء ،
وصار إنساناً ،
وصلِبَ على عهد بيلاطُس البُنطي ،

وتألّم وقبر وقام أيضاً في اليومِ الثالثِ ،
على ما في الكتبِ المقدّسةِ ،
وصعد إلى السماء ،
وهو جالس عن يمين الآب ،
ويأتي أيضاً بمجدٍ ليدين الأحياء والأموات ،
الذي ليس لملكِهِ نهاية ..

وتجدرُ الإشارة إلى أنّه لا توجد كتابات إنجيليّة على الإطلاق قبل رسائل بولس ونظرته اللاهوتيّة ، فهو من أقام الأساس اللاهوتيّ وقاد ونشر الكنائس في المناطق الواسعة .. وقد تبنّى قسطنطين وغيرهُ من الأباطرة الرومان عقيدة بولس الذي اعتبر المرجع الأساس والنافذة التي تَسُوق وتقود أفكار المسيحيّة وتعرّف الناس بتعاليم المسيح ..

الكلُّ يدرك انَّ حدثاً ما طرأ فغيَّر بشدّة من مجرى التاريخ الطبيعيّ الذي كان قد تمثّل فيما حدّده المسيح برُسُلِهِ الذين يبلّغون عنه التعاليم .. إلا أنَّ بولس استطاع رغم مغايرة مجموعة من عناوين رئيسيّة وجوهريّة لما بين يدي رسل المسيح ، إستطاع أن يتغلّب عليهم ، ويعلن مفاهيمه للمسيحيّة عنواناً مستقلاً ، بل عمل على فصل المسيحيّة عن اليهوديّة وقد نجح في ذلك ، في حين أنَّ المسيح ورسله كانوا على العمل بشريعة موسى وتعاليم المسيح ..

هذهِ النتائج تعبّرُ عن أزماتٍ صعبة لا بدَّ لها من حلٍّ .. لا بدَّ لها من أجوبةٍ شافية .. ولم يطلّ علينا حتى الآن من يجيب أجوبةً مقنعةً عن هذا التحوُّل الجبّار الذي يبدو على خلاف المنطقِ ومجرى الأحداث المتّصلة بعناوين المسيح ..

إذن الأمر بحاجةٍ إلى دراسة نقديّة بعيدة كلّ البعد عن العاطفة من أجل تقرير نحو مميّز في فهم التاريخ والأحداث طلباً للحقيقة وهذا لم يحصل على مستوىً واسع بعد .. أمّا المفارقة الأخرى ، فهي تكمن في أنّ مجموعة من نصوص موجودة في متن الكتاب المقدّس ، لا يمكن بحالٍ أن يسلّم بها عاقل على أنّها تسجيل ماديّ للمبادئ والتعاليم الربانيّة .. لا يمكن على الإطلاق الإعتقاد بها كذلك ، فهي بعيدة كلّ البعد عن الحدّ الأدنى المطلوب بالنبيين أو صفاتهم السلوكيّة أو تلك التي تتعلّق بالله في أكثر من ناحيةٍ وعنوان وقد تعرّضتُ لها بشكلٍ تفصيليّ ..

وبعد أن انتهيت من مناقشة التوراة والإنجيل ضمن حدّي الشهادات التاريخيّة والمعطيات العلميّة عرضت للقرآن والنبيّ محمّد وبيّنت فيه مجموعة من بشارات الكتاب المقدّس .. وبعد ذلك بدأت بسرد مجموعة من آياته التي تعرّضت لأدقّ المواضيع العلميّة التي تعتبر اليوم من أهمّ الفتوحات ، ليجد القارئ أنّ ما في هذا القرآن مدهش بكلّ أوصاف الدهشة ، ووفقاً لكلّ المعايير .. وهذه قضيّة تحمل في ذاتها حجّة كبرى بحقّ الصلة الربّانيّة لهذا القرآن الذي تفرّد عن كلّ الرسالات بكمّ من العلوم الكونيّة في سياق الدعوة إلى اللهِ لتكون على نحوٍ مستنطقٍ غالبٍ على آثار الزمان والمكان ، ومتّصل بإنسان اليوم مهما تغيّر اليوم واتّسع نطاقُ الدائرة في الأجيال البشريّة إلى آخر الدهر .. لا يمكن على لإطلاق لكلّ من يقرأ القرآن إلا أن تأخذه الدهشة من جرّاء ما يقرأ .. في هذهِ الدارسة تعرّضت لكلّ من التوراة والإنجيل والقرآن من الناحية التاريخيّة والعلميّة ، وفيها بدا أنّ القرآن متألّق بشكلٍ مذهل وهو يدلّ وفق كلّ المقاييس على نسبةِ الصدورِ عن اللهِ تعالى .. ويكفي أنّ القرآن لا يشكو من أزمة نصّ كامل ، لا

يشكو من أزمة تدوين وفاصل شفهي ، لا يشكو من أزمة تعدّد مصدري غير معروف . لا يشكو من أزمة تسلّل بشري .. لا يشكو من أزمة متن مضطرب ومتناقض ومتكاذب .. لا يشكو من أزمة نصّ أدبي مختلف بشكلٍ واضح .. لا يشكو من أزمة تركيب نصّ على نحوٍ قاصر .. لا يشكو من أزمة بناء نصّ ومحاولة إعادة بناءِهِ .. لا يشكو من أزمة تكرار نسخ وتحبير وتغيير في الحرفِ والكلمةِ والمعنى .. بدا القرآن على نحوٍ عالٍ في آياتِهِ وسورِهِ وعناوينِهِ التي لم يجرأ أيّ كتابٍ على تناولها وفق الشكل والطريقة والعناية والغاية التي تناولها بها القرآن الكريم .. ويكفي أن تقرأ المتون الثلاثة حتى تدرك ذلك .. كلّ هذا فضلاً عن مجموع الشهادات التي تتعلّق بالصولجان وشيلوه والبركليت ووصيّة يعقوب ووصيّة موسى وغيرها من العناوين البارزة في البشارةِ برسولِ اللهِ محمّد (ص) ببعد النظرِ عمّا ورد في إنجيل برنابا .. في هذهِ الدارسة مجموعة من عناوين وإقرارات تحتاجُ إلى نباهة ، إلى تكرار ، إلى إعادة نظر .. لفهم الحقيقة بشكلٍ أفضل .. لا بدَّ من إعادة بناء الحقيقة التي تربطنا باللهِ تعالى .. لأنَّ كلَّ شيءٍ يتوقّف عليها ، بدءاً من بناء الشكل الإجتماعي المفاهيمي في حياتِنا ، وصولاً إلى الصلة العقائديّة المفاهيميّة المتّصلة بعبادتنا وفرائضنا اتجاه الله خالق كلّ شيءٍ وهو أمر تتوقّف عليهِ محاكمتنا الوجوديّة بين يدي اللهِ تعالى يوم القيامة .. يجب أن ننطلق من فكرةٍ لازمةٍ في ضرورات وجودنا وهي أنَّ الحقيقة حتميّة السلطة على الفرد والجماعة والكائن البشري .. ويجب أن يُردَّ إليها كلُّ شيءٍ ..

إنّي أدعو إلى قراءةٍ وافيةٍ لمجموعِ هذهِ الدراسة وما عليهِ متون هذهِ الكُتُب ، على هدي الحقائق التاريخيّة والعلميّة ووفق الحجج اللازمة في حقّنا من

أجل بناء الصلة الضروريّة بدين اللهِ تعالى .. هناك سيبدو الإسلام ديناً خاتماً على يدِ النبيّ محمَّد الخاتم .. هناك سيبدو القرآن كتابَ اللهِ الأكبر ، الذي يُخرِجُ الناس من ظلماتِ القصور إلى نورِ الكمالِ الممكن على طولِ شواطئ الأمان الوجوديّة الأوسع من دنيا واقع حياتنا وحسِّنا الماديّ .. هناك سيكون الموت واحداً من نوافذ الأمل وباباً إلى المنطقة الأوسع في رعاية وجودنا ومشاعرنا وحقائق ما نصير إليهِ ..

من الخطأ جدًّا أن نمكِّنَ الهوى من اعناقنا ، وأن نترك ما نحن بأشدّ الحاجة له . من العقبات الحادّة في حركة تطور نظرتنا الوجوديّة وأفق معالمنا أن نعيش وفق منطق الغريزة وفي كلّ شيئ دليل على عظمة اللهِ وخطابهِ الواصلِ إلينا وكتابهِ الموجود بين أيدينا .. عليك فقط أن تتصفّح القرآن تحت ضوء مجموعة من معطيات علميّة وجوديّة ، حتى تدرك انّك بحضرة أعظم كتابٍ وبين يدي رهبةٍ كبرى ومنطقٍ ربّانيّ عظيم ..

أدعو الله أن يتقبّل منّي هذهِ الدراسة التي لا أريد إلا وجهه عبرها ، وأن يقبلني في سبيلِهِ ووالديّ وخالتي الحاجّة علويّة وأخوتي وأخواتي وأزواجهم وأولادهم وأرحامي وأسبابي وأهلي وزوجتي وأولادي ، وصديق عمري الشيخ محمّد منصور ، وجميع المؤمنين والمؤمنات : عند ساعة الموت ، وفراق الدنيا ، وحَمْلَة النعش ، ونزْلَة القبر ، وظلمة اللحد وسؤال الملكين ، والخروج من القبر ليوم المعاد والحساب يوم المحشر ، والنتيجة عند الميزان ، والجواز على الصراط .. وإنّي استشفع بحبّي للنبيّ الأميّ الهاشميّ المكيّ المدنيّ حبيبِ إلهِ العالمين أبي القاسم محمّد وبآلهِ الطيبين الطاهرين أن يتقبّلني ويتغمّدني برحمتِهِ إنّه الله الرحمن الرحيم ، قابل التوب ، غافر الذنب ، وهو الكريم الكريم ، الذي لا إلهَ إلا هو القدير العزيز العليم الرحيم .. بحقّ محمّدٍ وآلهِ الطاهرين ..

مصادر وكتب مختصّة :

- القرآن الكريم .
- نهج البلاغة .
- الكتاب المقدّس (العهد القديم والعهد الجديد) . دار الكتاب المقدّس .
- الكتاب المقدّس (مجمع الكنائس الشرقيّة) .
- قاموس الكتاب المقدّس (مجمع الكنائس الشرقيّة) .
- الكتاب المقدّس تحت المجهر . عودة مهاوش الأردني .
- دراسة الكتب المقدسة . موريس بوكاي .
- الإسلام في الغرب ، روجي غارودي .
- بحار الأنوار . العلامة المجلسي ..
- الإحتجاج للطبرسي .
- مقدمة إلى الإنجيل الأب روجيه ١٩٧٣
- مجموعة كتابات الأب كانينجسر ..
- العهد الجديد " أ . كولمان " ١٩٦٧
- تاريخ الآريوسيين . سان أتاناز ..
- نقد القرآن . نيكولا دي كو (١٤٠١ – ١٤٦٤) .
- الترجمة المسكونيّة للكتاب المقدس .
- البحث عن يسوع . كمال الصليبي .

- " الأناجيل الأربعة المتوافقة ". الأب بومار ..
- (إنجيل متّى) . " و . ترلنج " ..
- محمَّد في الكتاب المقدّس . البرفسور عبد الأحد داود .
- البيان في تفسير القرآن . السيد أبو القاسم الخوئي ...
- إضافة إلى مجموعة من التقارير العلميّة وغيرها والتي استعنت بها من كتابنا : شاهد على العصر والعالم ، جزء : ١ و ٢ و ٣ و ٤ ..
- يضاف إلى ذلك مجموعة من تقارير لاهوتيّة ودينيّة مختصّة وغيرها من التقارير والأبحاث مشار إليها في متن هذهِ الدراسة ..

الفهرس :

الفصل الأوّل

التوراة :

الفصل الثاني

الإنجيل :

الأناجيل الأربعة :

الفصل الثالث

القرآن الكريم :